قصة الأدب في الحجاز
في
العصر الجاهلي

تأليف

عبد الله عبد الجبار
محمد عبد المنعم خفاجي

١٤٠٠ هجرية — ١٩٨٠ ميلادية

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي وأخوه محمد
٩ ش الصنادقية - الأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

هذا الكتاب : « قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى » أوسع دراسة ظهرت عن بيئة أدبية من بيئات الأدب العربى القديم ، وهو أول كتاب يؤلف عن الحجاز ونهضة الأدب العربى وازدهاره فيه فى العصر الجاهلى ، وإذا أطلقنا كلمة « الحجاز » فإنما نعنى بها ما يشمل الحجاز : وما يسمى بـ « تهامة الحجاز » .

وهذا الكتاب جديد فى الأدب العربى ، لأن موضوعه جديد بكر ، لم يتناوله على هذا النحو أحد من قبل . فالذين يتحدثون عن آداب العرب القديمة ، يتحدثون عنها فى الجزيرة العربية كلها بأقسامها العديدة ، دون أن يخصصوا دراساتهم ببيئة مستقلة من بيئات الجزيرة العربية كالحجاز ، وإنما يدرسون أدب هذا الشعب العربى جملة ، لا يفرقون بين الأدب الحجازى ، وبين الأدب النجدى ، ولا بين هذين وبين الأدب اليمنى ، ولا يتحدثون عن خصائص ومميزات الأدب فى كل إقليم متميز من هذه الأقاليم ، فتجىء الأحكام الأدبية عامة مجملة ، غير صادقة تمام الصدق ، ولا عميقة فى جملتها عمقا يحيط بحقائق الأدب وأصوله وحياته فى هذا الجانب أو ذاك ، من جوانب الجزيرة العربية الشاسعة المسافات ، المترامية الأطراف .

إن خصائص الأدب فى بيئة نجد ، لا يمكن أن تكون هى نفس خصائصه فى الحجاز ، والشاعر الجاهلى الذى قضى حياته فى ربى نجد ، لا يصح أن تكون شاعريته مطابقة تمام المطابقة لشاعر جاهلى آخر عاش فى الطائف أو مكة أو المدينة .

ومن ثم كان لا بد لنا من تخصيص هذه الدراسة عن الحجاز فى العصر الجاهلى .

وربما اعترض علينا بعض القراء ، بأننا فى عصر القوميات ، الذى انتفضت فيه القوميات ، وانبعثت من مرقدها . وهذه القوميات تحتم علينا دراسة الشعب العربى جملة ، وآدابه جملة كذلك ، دون النظر إلى أقاليمه وبيئاته .

ونحن نقول لهؤلاء المعترضين : إن دراسة آداب الشعب العربى جملة لا تتأتى إلا عن طريق دراسة آداب أقاليمه وبيئاته دراسة نقد ، واستيعاب ، وتحليل ، بحيث يتبين منها الخصائص والسمات ، وتستمد الأحكام الأدبية الصادقة التى لا حيف فيها على الحقيقة .

ثم إن الحجاز كان البوتقة الحيوية التى انصهرت فيها الخصائص الأساسية للأمة العربية ، وتخلصت فيها من الشوائب والمثالب ، حتى غدا جوهرها صافيا نقيا . . انصهرت فى الحجاز العقائد واللهجات ، والتقاليد ، والعنعنات ، والسجايا والأخلاق ، فصفاها من أو شابها وأدرانها ، حتى برزت تلك العناصر الفعالة ، التى استندت إليها القومية العربية الاسلامية فى نشوئها وتكوينها ومراحل تطورها ؛ هذه القومية العظيمة التى وثبت اليوم وثبتها القوية الجبارة !

أفلا يجدر بنا — وهذا هو دور الحجاز منذ القدم — أن ندرس حياته وخصائصه ، وشخصيته الأدبية والفنية ، وجميع مقوماته السامية ؟ !

وإذا كانت اللغة هى إحدى عناصر القومية ، أفليس من الواجب أن ندرس إلى أى حد ، أثر الحجاز عامة ، ولهجة قريش خاصة ، فى تهذيب اللغة العربية ، وترقيتها ، وتوحيدها ، حتى أصبحت اللسان القومى للأمة العربية جمعاء ؟ !

ثم ما هو موقف الحجازيين من العقيدة ، ووحدة الأمانى المشتركة ، والتبادل التجارى ، ونمو الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وجميع العوامل التى تعتبر عناصر هامة للقومية العربية ؟ !

ما هو موقفهم من ذلك كله ؟ لنرى أى أثر تركه الحجازيون فى تخليص العقائد من الخرافات والأباطيل ؛ لأن هذه التنقية وسيلة هامة من وسائل

التوحيد . . وأى أثر كان لهم فى الرقى الاقتصادى والاجتماعى ، لأن هذا الرقى من أعظم الدعائم للرخاء والاطمئنان وضم الصفوف . ثم أى أثر لهم فى إقرار السلام ، لأن السلام ، كان ولا يزال ، عاملا جوهريا للاتحاد ولا سيما فى بيئة مزقتها الحروب والأحقاد . ثم ماذا فعلوا فى محاربتهم للطغيان ؟ فإن استبداد الحاكم يبعث على الخوف ، ويقضى على الروح الوطنية التى هى من أقوى الدوافع لبناء صرح القومية !

كل ذلك وغيره قد تناولناه بالدرس المفصل فى هذا الكتاب ، وبينا كيف انعكست آثاره على نتاجهم الأدبى شعره ونثره ، حتى وصلنا إلى نتيجة واحدة ؛ وهى أن الحجاز كان بحق — قلب الأمة العربية !

— ٣ —

ثم إن الحجاز هو بيئة النبوة ، وموطن الرسالة ، والأرض التى اهتزت جوانبها بالصدى المدوى الذى أحدثه نزول القرآن .

ولذا كان من الضرورى أن ندرس هذا الموطن وتلك البيئة من شتى نواحيها السياسية ، والاجتماعية والعقلية ، والأدبية ، واستعداد الحجازيين النفسى والمادى والفنى ، لنعرف عمق هذا الحادث العظيم الذى هز الإنسانية ، وأيقظ الدنيا ، وحرر العقل ، ورفع صروح المدنية ، وقضى على عصور الظلام والوحشية .

وعندما نريد أن نفهم إعجاز القرآن وبلاغته الرفيعة خاصة ، وأن نفهم الحياة الأدبية فى الحجاز فى عصر النبوة عامة ؛ لابد لنا من دراسة بيئة الحجاز الأدبية فى العصر الجاهلى أولا وقبل كل شىء . لنفهم خصائص هذا الشعب الحجازى وعقليته وتفكيره ، وذوقه فى الحياة وفى الفن والأدب على وجه الخصوص ، لأنه هو الذى حمل الدعوة ، وبلغها إلى الآفاق ، وبشر بها العالم كله ، وسارت جحافله ومعه إخوانه من شتى أرجاء الجزيرة العربية توغل فى الأرض مبشرة بدين الله الجديد ، وثورته القوية العارمة .

إذن لحياة الحجاز عامة ، وحياته الأدبية خاصة ، جديرة بالدرس ، لأثرها القوى فى تصفية العناصر الجوهرية القومية العربية ، ثم لأنها تمثل البيئة التى انبعثت منها الدعوة الإسلامية الجديدة .

ولو لم يكن هذان العاملان ، لكانت هذه الحياة خليقة بالدرس لذاتها لما حققته من أمجاد تزيد من الثروة الروحية والخلقية للإنسانية عامة .

— ٤ —

ويشتمل هذا الكتاب على « تمهيد » فى ست عشرة ومائة صفحة ، ويحتوى على وصف عام للحجاز وبيئته الطبيعية والبشرية . وقد (بلورنا) فيه حقائق عن الحجاز لم يضمها أى بحث أو كتاب سابق . ويعد هذا التمهيد كتابا مستقلا بذاته . وكان من الممكن نشره على حدة ، لولا أننا آثرنا أن يكون مقدمة لدراسة الحياة العقلية والأدبية بالحجاز فى مختلف العصور ؛ هذه الحياة التى اعتزمنا تقديمها للقارىء العربى متتالية بحول الله .

ويلى هذا التمهيد القسم الأول من الكتاب ، وهو عن العوامل المؤثرة فى الأدب الحجازى : من الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، والعقلية ؛ وهذا القسم يصلح لأن يكون كذلك كتابا منفرداً كاملا عن شتى جوانب الحياة فى الحجاز .

ويلى ذلك القسم الثانى من الكتاب ، وهو عن الحياة الأدبية فى الحجاز فى العصر الجاهلى ، ويشتمل هذا القسم على دراسات واسعة للنثر الحجازى الجاهلى وأشهر أعلامه ، وللشعر الحجازى فى العصر الجاهلى وخصائصه وفنونه ومناهجه ومذاهبه وأصوله ، ولأعلام الشعراء من الحجاز فى العصر الجاهلى ، ولسوى ذلك من شتى جوانب الحياة الأدبية القديمة فى أرض الحجاز . ولتصوير أهمية هذه الدراسات يكفى أن نقول إننا قد عرضنا فيها لكثير من أعلام الأدب الحجازى القديم ، كانوا فى نسى منسى من الباحثين والدارسين .

— ٥ —

وسوف يستبين القارىء الكريم أن طائفة من شعراء الحجاز فى الجاهلية ، كانوا يحبون السلام ، ويشيدون بأنصار السلام ، وكانوا يكرهون الظلم والطغيان ، وينددون بأرباب العدوان . . وكانوا يدعون إلى التكافل الاجتماعى حتى يكون فقيرهم كغنيهم فى ميزان الحياة على السواء .

والشعر الحجازى فى الجاهلية – فى بعض صوره – فضلا عن بلاغته وروعته ، غنى بالمضامين الحية ، وبالروح الإيجابية ، والثورة على الخرافات والأوهام والأوضاع الفاسدة ، والقيم الموروثة البالية .

وهو إلى ذلك سجل دقيق يصور بيئتهم القلقة المضطربة ، وحاك أمين يحكى لنا عن مذاهبهم فى الحياة ، وأساليبهم فى العيش ، وطرائقهم فى التفكير والتعبير .

وسيجد القارىء أن ألواناً جديدة من الفنون أو الأغراض الشعرية كان الحجازيون أسبق إلى ابتداعها ؛ ولا تكاد توجد فى البيئات الأدبية الأخرى فى سائر أنحاء الجزيرة .

وما أثر من النثر الجاهلى ينسب معظمه إلى أدباء حجازيين .

— ٦ —

ونود فى أعقاب هذا التقديم أن نشير إشارة مجملة إلى أهم ما كتبه الأستاذ عبد الله عبد الجبار ، فقد تناول بالبحث ما يلى :

أولا : فى التمهيد :

ثانياً : فى القسم الأول :

* *

وبعد ، فهذا الكتاب ثمرة تعاون وثيق صادق ، ولا نريد هنا أن ننوه بما عانينا فى بحثه من جهد ، ولا بما رجعنا إليه من مصادر ، ولا بما اكتشفنا فيه من جديد ، أو حققنا فى ثناياه من أوهام وأخطاء .

وحسبنا أننا وضعنا أقلامنا على موضوع جديد ، بذلنا فيه ما وسعنا من طاقة ، وحسبنا كذلك أن تتجاوب معه جمهرة المثقفين والباحثين والأدباء ، وكل قارىء واع فى دنيا القومية العربية وفى كل مكان ؟

تمهيد

وصف عام للحجاز وبيئته الطبيعية والبشرية

الجزيرة العربية

تقع جزيرة العرب ، أو على الأصح شبه الجزيرة العربية جنوبى الشام ، وتحيط بها المياه من جهات ثلاث ، وقد أطلق العرب عليها اسم « جزيرة » مع أن حدودها الشمالية وهى أرض الجزيرة وبوادى الشام وفلسطين ليست إلا أرضا برية لا تشتمل على بحار أو أنهار ؛ أما حدودها الأخرى فهى واقعة على البحار ، وهى جهات الخليج الفارسى (العربى) وبحر عمان وبحر فارس ونهر الفرات شرقا ، وبحر القلزم غربا ، وبحر العرب — او المحيط الهندى — جنوبا ، ونقل صاحب لسان العرب عن التهذيب : سميت جزيرة العرب جزيرة لأن البحرين : بحر فارس وبحر السودان أحاطا بناحيتيها ، وأحاط بناحية الشمال نهر الفرات .

وجزيرة العرب هضبة كبيرة مكونة من جبال وصحارى رملية ، أما الصحارى فأهمها اثنتان :

١ — صحراء السماوة : وتسمى بادية السماوة أو صحراء النفود ، وتشمل معظم شمالى الجزيرة ، ورمالها وعثاء يصعب فيها السير ، وتسوخ فيها القدم ، وسكانها بدو رحل ، يقيمون فيها شتاء ، ويرحلون عنها صيفا إلى التخوم الشمالية طلبا للماء والكلأ ، وجنوبيها جبل شمر وهو على صورة هلال يتقوس عند انحداره نحو الجنوب ، ويسمى جبل طيء ، وهو غزير المطر ، معتدل الجو .

٢ — صحراء الربع الخالى ، وفيها بلاد الأحقاف ، وهى شمالى حضرموت وكانت الأحقاف مسكنا لعاد قوم هود ، ومن هذه الصحراء جزء يسمى الدهناء شمالى مهرة ، وتتصل هذه الصحراء ببادية السماوة ، وتمتد شرقا إلى الخليج الفارسى ، وأرضها مستوية صلبة انتثرت الحصباء فيها ، وهى مجدبة وقد ينزل بها مطر قليل ، فينبت عليه بعض الكلأ ، ويقيم بها البدو شتاء ويرحلون عنها صيفا .

ويوجد نوع من التربة يسمى الأحساء فى المنطقة المعروفة بهذا الاسم على الخليج الفارسى وهى أرض رملية تحتها طبقة صلبة ، فإذا سقط المطر تشبع الرمل بالماء ، فإذا حفر الإنسان الرمل أصاب الماء .

وهذا هو التعريف اللغوى للأحساء الذى يتضمن أنها أرض رملية تحتها طبقة صلبة فإذا نزل المطر بلعته الرمال حتى يصل إلى الطبقة الصلبة فأمسكته ، فإذا حفر الرمل ظهر الماء وسمى الموضع حسيا وجمعه أحساء ، إلا أن إقليم الأحساء وإن كثرت مياهه ووجدت فيه أراض رملية لا ينطبق عليه هذا التعريف اللغوى انطباقا تاما ، فالمياه فيه غزيرة جداً ، وهى تنبع من الأرض ، وتتدفق بقوة ، وبعضها يكون بحيرات تشق منها قنوات كثيرة .

وأما الجبال فى الجزيرة العربية فأشهرها :

١ — سلسلة جبال السراة (الحجاز) وهى تمتد من بوادى الشام إلى اليمن ، وبها كثير من الأودية العميقة التى تتخللها وتعوق السير فيها ، وسنتحدث فى الفصول التالية بتوسع عن الحجاز وجباله .

٢ — جبل شمر .

٣ — الجبل الأخضر فى الجنوب الشرقى .

وفى الجزيرة العربية أودية كثيرة ، من أشهرها :

١ — وادى الرمة ويبدأ قريباً من المدينة ، وينتهى إلى شط العرب ماراً بالقصيم .

٢ — وادى حنيفة ويبدأ من منحدرات جبل طويق الغربية ، غرب مدينة الرياض ، إلى اتجاه الخليج الفارسى .

٣ — وادى بيشة ، ويمتد فى الجهة الجنوبية من الحجاز نحو الشرق .

أقسام الجزيرة

تنقسم الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام :

الحجاز — تهامة — نجد — اليمن — العروض .

وهذا التقسيم يكاد يكون طبيعياً ، فإن جبل السراة — أعظم جبال الجزيرة — يمتد من اليمن إلى أطراف بادية الشام ، فيقسم الجزيرة قسمين : صغير منخفض فى الغرب يسمى تهامة أو الغور ، وكبير مرتفع فى الشرق يسمى نجداً ، والعرب تقول : أغار وأنجد ، وأتهم وأنجد . . وجبل السراة هذا يسمى « الحجاز » لحجزه بين القسمين السابقين ؛ وجنوبى الحجاز تقع اليمن ، وبين نجد والبحر الشرقى (خليج عمان والبصرة) تقع العروض لاعتراضها بينهما ، وسنتكلم فى إيجاز على هذه الأقسام الطبيعية للجزيرة العربية .

١ — فأما تهامة فهى بلاد منخفضة بين الحجاز وبحر القلزم ، ويضاف جزؤها الشمالى إلى الحجاز والجنوبى إلى اليمن ، فيقال تهامة الحجاز ، وتهامة اليمن .

٢ — وأما الحجاز فإقليم جبلى يمتد من الشام إلى اليمن ، مضافا إليه تهامة الشمالية .

ويسكن جنوبى الحجاز قبيلة كنانة ومنها قريش ، وهى التى كان لها السيادة على الحجاز كافة ، بل على العرب عامة .

٣ — وأما اليمن فتقع فى الطرف الجنوبى الغربى للجزيرة ، وهى أغزر بلاد الجزيرة العربية أمطاراً ، وأكثرها زرعا ، وأقدمها حضارة ، وتسميها العرب « الخضراء » لكثرة مراعيها ومزارعها وأشجارها ، ويطلق عليها المستشرقون « البلاد السعيدة » وفيها يقول شاعر يمنى قديم :

هى الخضراء فاسأل عن رباها ... يخبرك اليقين المخبرونا
ويمطرها المهيمن فى زمان ... به كل البرية يظمأونا
وفى أجبالها عز عزيز ... يظل له الورى متقاصرينا
وأشجار منورة وزرع ... وفاكهة تروق الآكلينا

ومن أشهر القبائل اليمنية : مذحج ، وهمدان صاحبة يغوث ويعوق . وتشمل اليمن :

(ا) حضرموت ، وقد اشتهر الحضارمة بالتجارة ، وتقع شمالى بلادهم الأحقاف مسكن عاد قوم هود .

(ب) مهرة ، وإليها تنسب الإبل المهرية ، وهى نجائب تسبق الخيل ، ولغة أهل هذا الإقليم الحميرية القديمة المستعجمة وهى لا تكاد تفهم .

(حـ) الشحر .

وأهم مدن اليمن : نجران فى الشمال ، وقد اعتنق أهلها قديما النصرانية ، وأرادهم ذو نواس على اليهودية فأبوا فأحرقهم فى الأخدود ، وقد أنشأ فيها أبرهة بناء ضخما يشبه الكعبة ليصرف العرب عنها ، وسماه « القليس » وإلى ذلك ترجع حادثة الفيل .

ومن مدن اليمن : مأرب وهى مدينة سبأ ، وبها كان السد الذى حطمه سيل العرم فى القديم ، وقص قصة سبأ القرآن الكريم : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال » الخ . .

وصنعاء هى حاضرة اليمن قديما وحديثا ، وبها قصر غمدان التاريخى العجيب ، وقد وصفه الهمدانى وصفاً شيقاً . ومن مدن اليمن : ظفار وهى عاصمة الشحر ، وفى المثل : « من دخل ظفار فقد حمر » أى تكلم بالحميرية .

وبين الحجاز واليمن تقع منطقة عسير ، وتقع هذه المنطقة جنوبى الحجاز ، وشمال اليمن ، وقد جعلها الأتراك أيام حكمهم متصرفية تابعة لولاية اليمن ، ولكن حكومة الأشراف فى الحجاز كانوا يدعون تبعيتها للحجاز وقد كان نفوذ أمير مكة يمتد إلى هذه البلاد . وجو عسير قريب من جو اليمن وأمطارها كثيرة وتجرى الأودية الرئيسية بها فى إتجاه وادى الدواسر الواقع فى جنوبى نجد ، والبلاد الداخلية فى هذه المنطقة خصبة ، وهى نظيرة اليمن فى الخصب ووفرة المزروعات ، وسكانها كثيرون يقدرهم حافظ وهبه بمليون ونصف (١) .

---

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٧ ط ١٩٤٦ .

ومن موانىء عسير البرك والشقيق ، وجازان (جيزان) وسواها ، وأشهر بلادها : أبها وهى على بعد ١٣٩ ميلا من بيشة (١) ، ومحايل ، وخميس مشيط ، وأبى عريش (٢) ، وصبيا (٣) .

٤ — ومن أقاليم الجزيرة : نجد ، وهو إقليم صحراوى تكثر به الأودية والدارات . والدارة : كل أرض واسعة بين جبال . ويرادف هذه الكلمة كلمة « واحة » العامية . وذكر صاحب القاموس المحيط من هذه الدارات عشراً ومائة ؛ وينحصر إقليم نجد بين الحجاز والعراق وبحر فارس والعروض والشام وهو أصح بلاد العرب هواء وأجملها منظراً وأكثرها أزهاراً وأطيبها شميما ، وبه أرض العالية التى كان يحميها كليب ، واشتعلت بسببها حرب البسوس ومن جبالها : أجا وسلمى جبلا طيء .

ومن أشهر قبائل نجد كندة ، وتميم ، وغطفان ، وقيس عيلان ، وطيء ، وبكر ، وتغلب .

وأما العروض فيشمل عمان واليمامة والبحرين :

فعمان تقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية للجزيرة وأهلها مشهورون بالملاحة . واليمامة فى الداخل وإليها تنسب زرقاء اليمامة التى يضرب بحدة بصرها المثل ، والبحرين على بحر فارس .

والعروض أكثر بلاد العرب نخيلا ، ولذا ضرب المثل بهجر قاعدتها فى كثرة التمر ، فقيل : كناقل التمر إلى هجر ، وقد خربها القرامطة ، وبنوا الأحساء . واتخذوها عاصمة مكانها .

---

(١) على بعد ٤٢٠ ميلا من شرق الجنوب الشرقى لمكة ، وتقع على الطريق من وادى الدواسر إلى الحرمين ، وهى أهم بلدة بين صنعاء والطائف ، وتعتبر مفتاح اليمن .

(٢) كانت عاصمة الشريف حمود .

(٣) كانت عاصمة الأدارسة إلى أن تنازلوا عن الحكم للسعوديين ١٣٤٩ هـ — ١٩٢٩ م .

الحجـــــاز

بيئة الحجاز الطبيعية

الموقع والتضاريس : يقع الحجاز من جزيرة العرب فى ناحيتها الشمالية والغربية، وهو يمتد من معان ماراً برأس العقبة إلى القنفدة على شاطىء البحر الأحمر . أما حدود الحجاز من الجهة الشمالية فتسير قريباً من مدين إلى الشمال منها ، على حين ترجع حدوده الشرقية على الحجر إلى جبلى : (أجا وسلمى) (١) (ويطلق عليهما اليوم جبل شمر) . أما فى الجنوب فوادى تثليث ، وما دونه هو الحد الفاصل لسلسلة جبال الحجاز عن اليمن (٢) ، ووادى تثليث يقع فى الجنوب الشرقى من بلاد عسير منحدراً إلى الشمال ، هـذا من الناحية الجنوبية والجنوبية الغربية تجاه عسير ، أما من الناحية الجنوبية الشرقية تجاه نجد ، فقد ذكر ياقوت أن تربة (٣) ، ورنية ، وبيشة ، ثلاثة أودية ضخام أسفلها فى نجد ، وأعلاها فى السراة . وعلى هذا فالأودية الثلاثة تجرى فى منطقة الحجاز حتى تتصل بنجد (٤) .

---

(١) الاصطخرى فى كتابه المسالك (ط دى غويه ، ص ١٢ ، ١٤) .

(٢) معجم البلدان ص ٢١٩ ج ٣ .

(٣) وتربة البلدة ، على بعد ٩٠ ميلا من جنوب شرق الطائف ، وعلى الطريق من نجد إلى اليمن . وقد قاومت تربة جيش محمد على عام ١٨١٥ م . ووقعت فيها معركة شديدة بين جنود نجد ، والملك حسين فى ٢٤ من مايو سنة ١٩١٩ م .

(٤) ذكر البركاتى فى رحلته تحديداً للحجاز فقال : (يحد الحجاز من الغرب البحر الأحمر ، ومن الشرق البادية الكبرى ، ومن الجنوب بلاد قبيلة « بنى مالك » الكائنة بجبال السراة المتاخمين لبلاد زهران ، هذا من جهة الجبل ، وأما من جهة تهامة فيحدها جنوبا وادى دوقة ، وشمالا بادية الشام إلى تبوك من الداخل ، ومن جهة البحر الأحمر العقبة . . ومن الجنوب الشرقى من الولاية ، وادى « رنيه ») اهـ .

وهذا التحديد — من الناحية الجنوبية ، والجنوبية الشرقية — يختلف عما اعتمدناه مما جاء فى معجم ياقوت ، إذ اعتبر ياقوت الحد الفاصل للحجاز هو وادى تثليث وبلاد =

والمساحة التقريبية للحجاز — كما يقـدرها بعض الباحثين — تبلـغ زهاء ٧٠٠ ميـــل طولا (من الشمال إلى الجنوب) ، و ٢٥٠ ميلا عرضا (من الشرق للغرب) (١) .

= مذحج . . وما بعده يسمى يمناً . . والذى نراه أن البركاتى قد اعتمد فى تحديد الحجاز على التنسيق الإدارى العثمانى لمـــا كانت تسميه الحكومة العثمانية « ولاية الحجاز » .

أما من الناحية الشمالية فنحب أن نشير إلى بعض أقوال الأقدمين :

١ — ذكر بطليموس فى جغرافيته أن الحدود الشمالية لبلاد العرب السعيدة (والحجاز منها) تبدأ من ساحل البحر بين محلى أيلة وحقل ثم تتجه نحو الشمال الشرقى حتى إقليم جبل « الشراة » الذى يفصل بين بلاد العرب السعيدة ، وبين بلاد العرب الحجرية

٢ — يطلق مؤلفو العرب اسم الحجاز على الجزء الشمالى الغربى من بلاد العرب السعيدة ، ووفقا لمـا ذكره ابن حوقل وأبو الفدا فإن الحدود الجنوبية للشام تتكون من خط مستقيم يبدأ من ساحل البحر قريبا من ميناء أيلة ويتجه نحو الشرق متبعاً الحد الإدارى لأعمال تبوك ، وإذن فهو يتبع السفح الجنوبى لجبال الشراة ووفقا لمـا ذكره ياقوت من « أن عمر شتار يقع فى جبل الشراة بين إقليم البلقاء والمدينة » فإن جبـــال الشراة يجب أن تكون الحد الفاصل بين الحجاز والشام .

٣ — وطبقا لمـــاذكره الإدريسى فإن الحدود الشمالية للحجاز تقع عند السفح الجنوبى لجبل الشراة الذى يمـــكن الوصول إليه بعد أربع مراحل من تبـــوك . والمرحلة الواحدة ٤٥ ك . م .

٤ — أضاف الأصمعى حرة ليلى إلى الحجاز ، وكذلك شغب ، وبدا ، اللتين يدخلهما المقريزى فى مصر ، كما ذكر إبراهيم الحربى أن جزءا من فلسطين يدخل فى الحجاز .

أما من الناحية الشرقية فيضع ابن الفقيه حدود نجد عند بدء ظهور الغضا فهو يقول إن أرض الحجاز لاتنبت الغضا وإنما تنبت الطلح والسمر والأسل ، وهذا خطــأ ، فإن بالحجاز مساحات واسعة من الغضا كأرض المحتطب المنخفضة الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقى من تبوك وكذلك وادى الجزل .

(١) ذكر صاحب « الرحلة اليمانية » المطبوعة ١٩١٢ بمصر « أن الحجاز يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب ألفا وخمسمائة كيلو متر ، وعرضه من الشرق إلى الغرب خمسمائة وخمسون كيلو مترا تقريبا » .

ويمتد الحجاز على طول السهل الساحلى على البحر الأحمر من عسير إلى خليج العقبة (١) ، ويختلف عرض هـذا السهل من ١٠ إلى ٤٠ ميلا . ويمتد هذا السهل إلى حاجز جبلى عظيم ، يتـكون من صخور نارية ومتحولة عند حافته الشرقية التى يبلغ ارتفاعها أكثر من ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .

والمنخفضات الغربيـة من هـذه السلسلة شـديدة الانحدار ، وعلى الأخص فى الطرف الجنوبى فى اتجاه مقاطعة عسير . أما فى الجنوب من طريق : مكة — الطائف — الرياض ، فلا تستطيع السيارة اجتياز تلك المنطقة الجبلية . مع أنه يوجد هناك طريقان فى الشمال . إحداهما من جدة إلى منجم الذهب ، وسهل نجد ، والأخرى تصل ما بين جـدة ، وينبع ، وأخفض ممر يمكن العبور خلاله من الساحل يرتفع ٢٢٠٠ قدم عن سطح البحر ، وتتدرج الأراضى فى الميل إلى جهة الشرق فى اتجاه صعيد نجد المرتفع .

أقسام الحجاز الطبيعية :

يتـكون الحجاز من أقسام طبيعية يجاور بعضها البعض الآخر ، وهى :

١ — المنطقة الساحلية ، وهى سهل متوسط عرضه نحو ٢٩ كيلومتراً ويمتد بمحاذاة شاطىء البحر الأحمر (تهامة) ، ويحيط بها شعاب مرجانية ، وتقع فيها موانىء : العقبة ، والمويلح ، والوجه ، وأملج ، وينبع ، ورابغ ، وجدة ، والليث .

٢ — المنطقة الجبلية ، وهى مرتفعة وتأخذ فى الانخفاض التدريجى حتى تصل إلى ما بين جدة ومكة ، ولا يزيد ارتفاعها هنالك على ألفى قدم .

٣ — المنطقة النجدية ، وهى واقعـة بين جبال مرتفعة جـدا فى الشمال ، ومغطاة بالحمم [السائل البركانى] وتأخـذ فى الانخفاض فى اتجاهها للجنوب ، إذ يصل ارتفاعها غربى مكة والطائف إلى نحو ألف قدم وتقع فيها المدينة ومكة .

---

(١) الساحل هنا كثير الجزائر والصخور والضحاضح . والموانىء فيه قليلة ، والملاحة شاقة . وأعظم مرافئه جدة فينبع ، ومنها الوجه ، والجار الذى كان ميناء المدينة قديما

٤ — الأخدود الرئيسى ، والأجزاء المرتفعة منه مغطاة بالحمم كما هو حال الحرمة والعويرض وخيبر [٦٠٠٠ — ٨٠٠٠] قدم ، ويصل ارتفاعه إلى نحو ٥٠٠٠ قدم ما خلف مكة .

٥ — المنطقة الأخيرة وهى أعلى حافة المنحدر الشرقى فى اتجاه قلب الجزيرة العربية .

وبين القسم الرابع والخامس توجد واحات خاصة متناثرة ، ومنها الحائط ، والحويط ، وفدك ، وخيبر ، والحناكية ، والطائف ، ووادى فاطمة [مر الظهران] ، والصفراء ، ووادى القرى .

جيولوجية الحجاز

(ا) الأعصر الجيولوجية :

لقد كانت بلاد العرب وسوريا وشبه جزيرة سينا فى وقت من أوقات الأدوار الجيولوجية القديمة قسما من أفريقيا الشمالية الشرقية ، وإن أخدود البحر الأحمر ووجود صخور ابتدائية متشابهة التكوين فى الطبيعة والزمان على جانبى هذا البحر اعتبارا من شبه جزيرة سينا وخليج العقبة متبعة القسم الشمالى الشرقى من أفريقية حتى جهات رأس الرجاء الصالح ؛ كل ذلك يدل دلالة قوية لا تحتمل الشك على أنه قد قامت فى الأزمان الجيولوجية قارة عظيمة مؤلفة من هذه النواحى ويفصلها عن القارة اليوراسية بحر كبير بقيت لنا من آثاره الكتلة العظيمة المائية التى نسميها الآن بالبحر الأبيض المتوسط . وهذا البحر القديم يظن أنه فى الأزمنة الجيوراسية كان محيطا بالأطراف الشمالية والشرقية لهذه القارة العظيمة بشكل منحن . وكانت سينا والعقبة وتبوك والعلا فى تلك الأيام قريبة من شاطىء ذلك البحر أيضا . بينما أن جبال الحجاز وعسير وبلاد نجد حتى جبلى أجا وسلمى وجبل النير والعارض كانت قسما من القارة القديمة المشار إليها .

وتلا هذا العصر الجيولوجى الجيوراسى عصر آخر عرف بعصر البحر الكريتاسى الذى كان طائفا بنفس الأماكن فى الشمال والجنوب . ويظن أن

هذا البحر كان يغطى منطقة خليج فارس ورأس عمان كما نعرفها الآن ، والمظنون أيضاً أن مياه هذا البحر كانت تلاطم نفس الشواطىء التى كان البحر القديم يلاطمها ولم تأخذ بلاد العرب شكلها الأخير الذى نعرفه الآن لها فى هذه الأزمنة التاريخية إلا بعد انقشاع المياه عن سطح البقاع التى كان يغسلها وارتفاع تلك البقاع الأرضية عن مستوى سطح البحر ثم تلا هذا العصر حركات أرضية سببت تكوين أخدود البحر الأحمر وانقسام القارة العظيمة إلى قسمين :

قسم غربى البحر الأحمر نعرفه الآن بأفريقيا ، وقسم آخر شرقيه هو الحجاز وبلاد العرب .

(ب) الطبقات الأرضية :

أما التكوين الطبيعى للصخور والطبقات فى الحجاز فإنه مماثل تمام المماثلة الطبقات التى تؤلف المنطقة الغربية للبحر الأحمر اعتباراً من الساحل المصرى إلى أقصى الجنوب . مع أنه فى العلا على طرف البلاد من الناحية الشمالية تتكاثر الحجارة الرملية بطبقات سفلى كثيفة . وتمتد المساحة الغربية الباقية حتى البحر الأحمر . أما أملج وضبا والمويلح قرب رأس خليج العقبة فتتألف من تشكيلات نارية وميتامورفية (متحولة) تميل إلى رواسب مواد الأجسام المعدنية وتوجد بعض هذه المواد فى كل من نوعى هذه التشكيلات ، إلا أن فائدتها باستثناء الملح والكلس والجبس (سلفات الكلس) للبلاد فى الوقت الحالى . ضئيلة وفى جبل النورة الذى يبعد حوالى ١٢ ميلا من مكة توجد كمية طيبة من الجير المحروق يتحصل عليه من الشظايا الراسبة التى قد تحولت إلى ميتامورفية بفعل الحرارة والريح . وترى كذلك جزر مشابهة على الطريق من جدة إلى مهد الذهب حوالى ٤٠ ميلا خلف جدة ، كما تشاهد فى القرين الأبيض (قرن الماعز الأبيض) على بعد ١٠٠ ميل تقريبا عن جدة . وأكمة منجم مهد الذهب بالذات عبارة عن صخور بركانية متماسكة كحجر الصوان شكلا ورواسب متيامورفية بشكل مرتفع ، يعلوها مجرى من البازلت ، وجبل المنجم هو نوع من الأندسيت يقطعه عروق من المرو ، وقسم منه مكسو جزئيا بالريوليت وهو نوع من

الصخور النارية (الكوارتزية) ، ومعظم الجبال العاريه المتعرضة للشمس شرقى الجبال الميتامورفية والبركانية هى من حجر الجرانيت .

وفى الطائف يرى الجرانيت على هيئة حواجز متقاطعة متداخلة إلى الغرب حيث تميل الجبال إلى ارتفاع أعلى . وبحذاء الطرف الجنوبى لسلسلة الجبال المتكاثفة فى اليمن توجد رواسب منضدة من الرماد البركانى أو الحمم المقذوفة .

الطبوغرافيا

[تخطيط الأرض]

لكى نعرف طبوغرافية الحجاز بوجه عام علينا أن نعود ثانية إلى حاشية السهل بمحاذاة البحر الأحمر ، ثم إلى السور الجبلى المنحدر الذى يرتفع إلى ٨٠٠٠ قدم ، خلف مكة و ٤٠٠٠ قدم غربى مهد الذهب و ٣٠٠٠ قدم قرب المدينة ، وتمتد شمالا إلى نحو هذا الارتفاع ، يقطعها واد طوله ألفا قدم هو وادى الحمض وأودية أخرى . ويقع إلى الشرق من هذه السلسلة الجبلية مرتفعات تتراوح من ٦٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قدم ما بين عسير والطائف ، ومن ثم تهبط إلى ٢٢٠٠ قدم عند العلا . وعلى الجانب الغربى من سلسلة الجبال يقع القسم الساحلى العظيم المعروف بتهامة ويتاخم البحر الأحمر ويتراوح عرضه من ٤٠ ميلا فى الحديدة باليمن ونحو ٣٠ ميلا من جيزان فشمالا إلى الليث ثم من ١٠ إلى ٢٠ ميلا حول الوجه . وأخيرا ينخفض حتى يستوى تماما عند خليج العقبة . والحاجز الجبلى فيما وراء السهل الساحلى تقع فى كل مكان منه تلال جبلية بعلو أقدام فقط ، كما أن هنالك أودية عظيمة تتصل بعيدا إلى الشرق ، وأعظمها وادى الحمض جنوبى الوجه . وأحد أطراف هذا الوادى يصل قرب المدينة ، بينما الفرع الآخر منه يصل إلى جوار العلا .

ومن الأودية الأخرى المهمة : وادى ينبع ووادى رابغ ووادى غران ووادى فاطمة ، وأحيانا تحمل هذه الأودية كميات غزيرة من المياه وكذلك كميات كبيرة من الطمى . وندرة العشب فى معظم منحدرات الجبل التى تشكل مجرى حوض

هذه الأودية ناتجة من أن ١٠٠ ٪ تقريبا من الماء يسيل لبطن الوادى ، ورواسب الطمى من الجهة الأخرى تؤلف أراضى كثيرة خصبة وصالحة للزراعة فى أمكنة تكون فيها بطون الأودية مستوية تقريبا ، وعند تعرج مصب الأودية وعند بروز جداول من مسارب الجبال ، وعند التقاء الأودية بالبحر .

وأما الجهة الشرقية من سلسلة جبال الحجاز فتنحدر برفق إلى الشمال والمساحات المنبسطة فى الطائف ذات علو معدله ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وعند عشيرة ٣٧٠٠ قدم وعند البركة ٢٨٠٠ قدم وعند الحفيرة على خط سكة حديد الحجاز ١٧٤٠ قدم ، وإلى ٦٦ ميلا للشمال عند قلعة الحج التركى القديم التى تدعى قلعة الصورى يبلغ الارتفاع ٢٢٠٠ قدم ، وتقع هذه القلعة عند نقطة الاتصال بطريق السيارات الموصلة إلى خيبر التى تبعد ١٠٤ أميال لجهة الجنوب والتى تعلو أيضاً ٢٢٠٠ قدم .

جبال الحجاز

تحيط بالحجاز جبال وحرار كثيرة ، وقد اعتبرها الباحثون سلسلة واحدة أسموها « السراة » ، وسلسلة جبال السراة تمتد طولا من الشمال إلى الجنوب ، وهى العمود الفقرى لشبه الجزيرة العربية ، وبعض هذه السلسلة مرتفع وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذى يزيد ارتفاعه عن ٢٢٠٠ متر عن سطح البحر ، وجبل وتر وجبل شيبان ، وتنخفض هذه السلسلة عند دنوها من مكة ثم تعود بعد ذلك إلى العلو .

وسلسلة السراة يجعلها البعض منتهية فى الشمال وراء عرفة والمناقب (١) . أما الحرار والجبال الأخرى الواقعة فى شمال هذه السلسلة فهى أقل ارتفاعا منها ، ويقول الهمدانى فى وصف السراة : « هو أعظم جبال العرب وأذكرها » (٢) .

ويمكن تقسيم هذه السلسلة إلى ثلاثة أقسام على النحو الآتى :

---

(١) ٣ : ٦٥ معجم البلدان لياقوت .

(٢) ٤٨ صفة جزيرة العرب .

١ — القسم الواقع فى اليمن ، ويبلغ طوله ٥٠٠ كيلو متر يقتطعها من الجنوب إلى الشمال بين ساحل عدن إلى حدود عسير ونجران .

وسروات اليمن كما ذكرها الهمدانى عشر سروات ، وهى من الجنوب إلى الشمال : سراة المعافر — سراة الكلاع — سراة بنى سيف — سراة جيلان — سراة الهان — سراة المصانع — سراة قدم — سراة عذر وهنوم — سراة خولان — سراة جنب .

٢ — القسم الواقع بين اليمن فى الجنوب والحجاز فى الشمال ، ويشمل مقاطعتى عسير ونجران ، وكان يسمى فى القديم سراة « أزدشنوءة » وفيه أربع سروات هى : سراة عنز — سراة الحجر — سراة باه — سراة يشكر .

٣ — وأما القسم الثالث من سلسلة السراة — وهو الذى يعنينا — فهو الجزء الواقع فى منطقة الحجاز بين حدود عسير فى الجنوب وجبال عرفات فى الشمال ، وكان مقسما إلى خمس سروات من الجنوب إلى الشمال وهى : سراة غامد — وسراة دوس — وسراة زهران — وسراة فهم وعدوان — وسراة الطائف . أما اليوم فيطلق عليه اسم جبال الحجاز .

وأعلى قمة فى سراة الحجاز ٢٥٩٨ — ٨٤٠٠ قدم فى جبل إبراهيم الواقع إلى الجنوب من مصب وادى الكرا ، ومن الأماكن فى سراة الحجاز ما يبلغ ارتفاعه ٢٥٤٤ — ٨٢٦٨ قدما وهو جبل دكا ، ٢٥١٢ — ٨١٦٤ قدما وهو جبل الشفا ، ٢٥٠٠ — ٨١٠٠ — قدم وهو جبل القرينيط ، ٢٣٦٣ — ٧٧٠٠ قدم وهو جبل حيرة ، ٢٣٢٦ — ٧٥٧٠ قدما وهو جبل السراة ، ٢٣٠٨ — ٧٥٠٠ قدم وهو جبل برد ؛ ٢٢١٥ — ٧٢٠٠ قدم فى جبل كرا ، ١٦٣٠ — ٥٢٩٧ قدما فى الطائف ، ١٣٨٥ — ٤٥٠٠ قدم فى الحوية .

ويجعل كثيرون سلسلة جبل السراة ممتدة فى الشمال إلى معان وأطرافها حيث تسمى هناك جبل الشراة .

وتكوين سلسلة السراة بسيط إذ تحتوى على الصخور الإبتدائية الكرستالية المكونة من تجمد قشرة سطح الأرض والصخور الاندفاعية ،

وغالب صخورها يتكون من الصخور البلاطونية ، وفى بعض الأحيان الميتامورقية ، وأهم تركيبها الجرانيت والشست ، وسلسلة هذه الجبال فى الشمال تدعى كما سبق بجبال الشراة ويليها من الجنوب سلسلة جبال حسمى التى تقع إلى شرقيها وجنوبيها الشرقى الحرات الكبيرة الشمالية ، وفيها بعض القمم الشاهقة التى تصل إلى ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر ، ومن أهم هذه الجبال المرتفعة : جبل مبارك ، وجبل اللوز ، والمقلح ، وجبل الشفا ، وجبل أرنب . وإلى الجنوب من هذه السلسلة توجد عند المويلح وضبا والوجه عدة جبال مرتفعة أهمها : المويلح وجبل شار ، وإلى الجهات الجنوبية من حسمى ة جبل الشرارة ، وغنمات ، وشيبان . . وتوجد كذلك فى غرب منطقة مداين صالح جبال عنتر وقصد والقعيد ونهر ، وإلى الجنوب من هذه الجبال توجد سلسلة آكام ممتدة بمحاذاة الساحل لا يزيد ارتفاعها عن ألف متر ، وفى الوسط منطقة جبلية أخرى متوسط ارتفاعها ١٢٠٠ — ١٥٠٠ متر ، وفى الأولى جبل الغوصة ، والمشقق ومرتبة وعرمة وجهينة ؛ وأعلى منها كلها رضوى إلى الشرق من « ينبع » إذ يبلغ ارتفاعه إلى نحو ألفى متر ، وفى أطراف المدينة إلى الشمال والجنوب منها عدة جبال مشهورة أهمها أحدو يبلغ ارتفاعه ١٢٠٠ متر ، ويليه : الرحلة ، والفرع ، والحض . . وبين مكة والمدينة سلسلة متصلة من هذه الجبال ، أهمها : نصع والجبل بنى أيوب ، وجبل صبح ؛ وتعلو فى الجنوب الشرقى من مكة علوا غير قليل ، فيتألف منها سلسلة جبل كرابين الطائف ومكة الذى يصل إلى ٢٢٠٠ متر ، وسلسلة الجبال الخلفية وأهمها : برد والقريبط والشفا ونجير ودكا ، وإلى الشمال من هذا يشرف جبل حضن على سهل ركبة إلى جهة المشرق منه ، ثم فى الجهات الجنوبية جبل السعدية والأبانين والطور الأخضر ، والعقبة وجبال عسير .

الحرار فى الحجاز

توجد فى الحجاز حرات عديدة ، والحرات جمع حرة ، وهى المناطق السود ذات الحجارة النخرة المحرقة بالنار ، أو الحجارة المؤلفة من السائل البركانى المتجمد ، وقد تسمى اللابة واللوبة أيضا كما فى اللسان (١) ويظهر أنها تكونت بفعل البراكين ، وتكثر فيها الحجارة ذات الرءوس الحادة ، ومن الأرجح أن الحرار هى أفواه البراكين ، واللابة هى المناطق التى غطتها حمم البراكين وسالت فوقها ثم جفت ، والكراع هى أعناق الحرار .

وشرقى الحجاز سلسلة من أرض بركانية ذات حجارة سوداء كأنها أحرقت بالنار ، وأكثرها بين المدينة والشام ، ومنها : حرة سليم إلى الجنوب الشرقى من المدينة ، وحرتا المدينة الشرقية والغربية ، وحرة خيبر .

وتكثر الحرار فى الحجاز ، ومنها :

١ — حرة العويرض وتقع إلى جهة الغرب من درب الحاج الممتد من تبوك إلى العلا بمحاذاة سكة حديد الحجاز ، ويبلغ طولها أكثر من مائة ميل ، وعرضها يكاد يقرب من ذلك ، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٥٠٠ قدم ، وأعلى مواقعها جبل عنازة ، ويزيد ارتفاعه ٧٠٠٠ قدم عن سطح البحر .

٢ — حرة خيبر : وهى من أعظم الحرات وأوسعها مسافة ، وإن كانت أقل ارتفاعا وأقل انحداراً من حرة العويرض ، وتسمى الحرة الصحراوية ، ويبلغ طولها مرحلة من الشرق والغرب ، ومرحلتين من الشمال إلى الجنوب ، وتمتاز بالخصب والنماء وكثرة المياه (٢) .

٣ — حرة بنى سليم وتعرف بحرة المدينة وهى لا تقل كثيراً عن حرة خيبر .

---

(١) ٢ : ٢٤٢ اللسان .

(٢) وتقع خيبر على بعد مائة ميل شمال المدينة ، وترتفع عن سطح البحر ٢٢٠٠ قدم .

٤ — وتكثر الحرار عموما فى المنطقة الممتدة من تبوك إلى مكة ، ومنها حرة بس ، وحرة الخشب ، وحرة أوطاس .

وقد استفاد الحجازيون من الحرار فاستخرجوا منها الأحجار والمعادن ، فكانت مواطن للتعدين فى القديم .

ومن آخر الأحداث البركانية فى الحجاز ، ثورة إحدى الحرات فى شرقى المدينة بضعة أسابيع عام ٦٥٤هـ — ١٣٥٦ م ، وقد وصل ما سال منها إلى مسافة بضعة كيلو مترات من المدينة ، وكانت نجاة المدينة من الأعاجيب .

السدود فى الحجاز

فى الحجاز مواقع لعدة سدود أقيمت لحفظ المياه التى تلى سطح البحر ، وعدد منها يحتوى على سدد من أصل قديم ، ومن بينها :

١ — سد العيار ، ويبعد نحو ستة أميال شرقى الطائف ، وعلى صخوره كتابة كوفية تدل على أنه أنشىء على عهد معاوية أمير المؤمنين ، وقد بناه عبد الله بن إبراهيم ، عام ٥٨ بعد الهجرة ، ٦٨٠ بعد الميلاد ، ولم يستعمل فى بنائه الطين والملاط .

٢ — سد السملجى أو (السماق) ويعرف كذلك بسد ثمالة أو سد بنى هلال ، ويبعد نحو عشرين ميلا من جنوب شرقى الطائف .

٣ — سد الجبر جب بالقرب من إوادى محرم ، ويقع على بعد ٨ أميال شمال غربى مدينة الطائف ، وهو جديد .

٤ — سد الحصيد ، وهو أحد ستة سدود لتخزين مياه الرى حول خيبر ، و هذا السد مبنى من حجارة مكسورة مع ملاط وكلس ، ويبعد نحو ١٥ ميلا إلى الجنوب الشرقى من قرية خيبر . وطول قاعدته ١٨٢ قدما ، وطول قمته ٢٧ قدما، ويعلو فوق مجراه المبنى من الحجر ٢٨ قدما ، وسعته نحو ٧٥٠ فدانا. ويقال إن هناك خمسة سدود أخرى موجودة بحالة مماثلة لذلك السد .

٥ — ومن السدود الفرعية كذلك سد ثلبة وسعته ٦٤٠٠٠ متر مكعب

وكان الغرض منه تخفيف حدة السيول وحماية البساتين ، وسد العرض وهو قريب من الطائف ، وقد تهدم هذا السد .

ومن السدود : سد مكة الجديد الذى أقيم لوقايتها من السيول [1] ، وسد عكرمة على وادى وج ، لشرب مدينة الطائف ، وسد سيسد .

أودية الحجاز

اشتهرت فى أرض الحجاز أودية كثيرة من بينها :

١ — وادى رضوى : ويصب شمالى ينبع .

٢ — وادى العقيق : وهو يقع غربى المدينة ويشقه طريق مكة .

٣ — وادى فاطمة « مر الظهران » : وهو من أكثر أودية الحجاز خصباً ، ويبدأ من وادى الليمون ، ويمتد غربا إلى « حدة » على الطريق بين مكة وجدة . ويبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ثمانين كيلو متراً . وهذا الوادى غنى بمياهه الجوفية وفيه حوالى ٣٥ عيناً فياضة بالماء ، منها « عين المضيق » بوادى الليمون وعين « سولة » وعين « الزيمة » وعين « حداء » .

٤ — وادى النعمان : واد خصب التربة يقع بعد عرفة وفيه بئر ينخفض ماؤها عن سطح الأرض نحو ٣٠ مترا تسمى بئر نعمان . قيل إنها مبدأ عين زبيدة ، والحقيقة أن ماء هذه البئر يتصل بها من سفوح جبل كرا مجتمعاً من الأمطار . وقد جعلت بين هذه البئر وعين زبيدة قناة هى إحدى القنوات التى تصب فى العين .

٥ — وادى إبراهيم : ويخترق مكة من أعلاها إلى أسفلها .

٦ — « وادى أضم » : وفيه تجتمع سيول أودية المدينة كالعقيق ووادى

---

(١) ويقول المهندس على شافعى فى تقرير فنى له عنوانه ، « المملكة العربية السعودية مشروعات عمرانية بمنطقتى مكة والطائف » ص ١٦ : إن هذا السد لا يفيد فى تحويل مياه السيول إلى وادى العشر بعيداً عن مكة ، ولا يصلح لتخزين كمية كبيرة من المياه تؤثر فى حدة السيل ، مثل السد القديم الحالى .

قناة ووادى بطحان، ثم تكون هذه الأودية وادياً واحداً يدعى القسم الواقع بقرب المدينة منه باسم « أضم » والقسم الممتد إلى بحر القلزم من هذا الوادى يدعى باسم وادى الحمض لكثرة النباتات التى تحمض الإبل برعيها فيه . ويصب فى البحر جنوبى الوجه .

سهول الحجاز

من أهم سهول الحجاز سهل ركبة المشهور الذى يحده من الشرق جبل حضن ، ومن الجنوب جبال عشيرة ، والعرجية ، والطائف ، ومن الغرب سلسلة جبال الحجاز العليا ، ويمتد من نواحى عشيرة التى تبعد عن الطائف ٦٥ كيلو متراً إلى جهات المويه ، وأرض هذا السهل الواسع مؤلفة من الطبقات « الرسوبية » الصلصالية تعلوها فى أماكن قليلة حصباء سوداء أو خلافها .

وفى الحجاز بعض السبخات المشهورة وهى أراض سهلة غالبا تحوى كثيراً من الأملاح المتجمدة ، واختلف فى منشئها ، فقيل إنها بقايا بحيرات مالحة ، أو بقايا الأبحر القديمة التى كانت تغطى سطح كثير من بلاد الحجاز . وقيل إنها أمكنة تجمع فيها كثير من الأملاح وتكونت فيها بمرور الزمان هذه السبخات ومن أهمها :

١ — سبخة رابغ ، بين جدة ورابغ .
٢ — « المدينة المنورة .
٣ — « قريات الملح .

بعض الآثار القديمة فى الحجاز

فى الحجاز مساحات كبيرة كانت آهلة بالسكان عامرة بالضياع والمزارع ، ثم أفلت منها الحضارة وغدت بيداء موحشة ، إلا أن آثار الحضارة ما تزال ظاهرة ، فهناك علامات تدل على وجود زراعة سابقة فى وادى الجزل شمال شرقى ينبع . وإذا جلنا بالطائرة شمال ينبع ما بين أملج ووادى حمض ، نرى

أسواراً مستديرة غريبة الشكل من الحجارة ، مع سور حجرى فى صف واحد ممتد بشكل نصف قطر دائرة . ويظن أن قطر هذه الدائرة يبلغ ٢٠٠ قدم . وإلى الجنوب من الوجه على الضفة الجنوبية من وادى حمض تقع بقايا يظن أنها هيكل رومانى . ولا تزال بعض الدرجات فى موضعها ، إلا أن أحجار الجص المحفورة حفراً بديعاً غدت تستعمل كعلامات لقبور الذين كانوا يخرون صرعى من الغزوات والغارات الأهلية . وبحذاء الطريق شمالى المدينة باتباع خطة سكة حديد الحجاز القديمة تقع أول محطة فى قرية ذات أهمية وهى العلا . وهـذه المدينة قائمة على مقربة من هضبات صخرية من حجر الرمل الأصفر والأحمر وتحد الأودية المنبطحة . وإلى بعد خمسة أميال ونصف عن العلا تقع « الخريبة » حيث توجـد آثار قرية كبيرة تحتوى على بعض الكتابات وقطع الفخار .

وتقع فى هضاب الصخور الرملية البالغة نحو ستين قدما والملاصقة للآثار هناك الكثير من الغرف أو القبور المنحوتة من الصخور الصلبة ، وفى بعض الحالات ترى الردهة كبيرة وتتسع لتابوت واحد . وقد نبشت كل القبور وسرق كل ما بها ، وآية كل ذلك باقية . وممن شهد السطو والكشوف أحياء يرزقون .

مـدائن صالح :

وعلى بعـد ١١ ميلا من خريبة شمالا بمحاذاة سكة الحديد تقع المقابر القديمة المسماة « مدائن صالح » التى وصفها دوتى فى كتابه « الصحراء العربية العظمى » فى دقة واستيعاب . هناك حوالى ثلاثين مقبرة مقطوعة من الصخور الرملية الصفراء الناعمة . وهى تختلف فى الحجم ، ولـكن لها جميعا أنفاقا لتوارى فيها الأجساد . ومساحة أكبر قبر ١٨ قدما و ٩ بوصات فى ١٣ قدما . ويبلغ السقف ٧ أقدام فوق الأرض ، وكان الصدى يدل على أنه مفرغ ، ولذلك يحتمل أن تـكون هناك فتحة سفلى ، وتـكون النوافذ أحياناً خمسة أقـدام تحت سطح الأرضية الرئيسى . وتمتـد ٥ أو ٦ داخـل جدران الغرفة .

وفى خارج قبور مدائن صالح يرى وجه الصخرة مقطوعا بشكل مصقول على شكل عمودى ، ومدخل القبر باب مثلث الشكل ويكون عادة على الأقل ٣ أقدام فى ٧ أقدام، ومحاطا ببيت محفور حفراً بديعاً . وفى كثير من الحالات يرى نسر محفور على قمة المدخل المثلث الشكل ، كما نجد مثل هذا النسر محفوراً على كل طرف بحذاء جوانب الباب . ورءوس هـذه النسور وأجسامها قد أزالها البدو الذين يعتقدون أن الله فقط هو الذى يخلق الجسم الحى ، وكل من يحاول أن يقلد صنع الله فإنه يقترف وزر تدنيس الأحياء . وتحت قبة بعض ممرات الأبواب المثلثة وجه آدمى محفور منبسط ودائرى مضحك الشكل ، يحيط به من كلا جانبيه ثعبان منطرح بموازاة ميل الباب المثلث ويمتد من القمة إلى الزاوية السفلى . ومن أهم ما عثر عليه من آثار ثمود هرم يعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج .

الآثار فى منطقة الطائف :

وإلى الغرب من الطائف عدد كبير من النقوش الكوفية ذات الزوايا ، وغالباً ما تكون آيات قرآنية وعبارات دينية تكتب تبركا وزلفى إلى الله . وهناك أيضاً عـدة صور لحيوانات محفورة فى الصخور الجرانيتية . وتمتـد فترة الخط الكوفى فى الخطوط التاريخية القديمة من ٧٠٠ بعد الميلاد إلى ١١٢٠ م . وعلى بعد بضعة أميال إلى الجنوب الشرقى من غربى الطائف دلائل على حضارة مندثرة غابرة .

أما الآثار الاسلامية فى منطقة الحجاز فهى كثيرة مشهورة ، وسنتحدث عنها فى مواضعها من أجزاء هذا الكتاب .

جو الحجاز

جو الحجاز فى عمومه صحراوى قارى ، ويعتدل الجو فى الطائف والمناطق المرتفعة . وفيما عدا ذلك فهو حار شديد الحرارة .

ودرجة الحرارة فى أجزاء الحجاز الواطئة أخف منها فى تهـــامة اليمن .

ويبلغ متوسطها ٨٠° — ٩٠ ف° ، ومكة شديدة الحرارة صيفا لانخفاض ارتفاعها (٢٨٠ — ٧٥٠ قدما) ولأنها محاطة بمرتفعات صحراوية جرداء ، بخلاف المدينة ، فإن درجة الحرارة لا تزيد عن ٧٠° ف وهى بلد صحى . . . والطائف أحسن بلاد الحجاز مناخا ، وهى جافة الهواء . . . وأما المرتفعات وراء مكة والطائف فجوها بارد ، ويهطل بها المطر فى أواخر شهر أغسطس من كل عام ، ويدوم نحو شهر أو أكثر قليلا

جدول يبين توزيع الحرارة فى أهم مدن الحجاز

المدينة	نهاية الحرارة الصغرى	النهاية العظمى لها	المدى الحرارى
مكة	١٥°	٤٧°	٣٢
جدة	٩	٤١	٣٢
المدينة	٦	٤٥	٣٩
الطائف	.	٣٧	٣٧

على أن العامل الأول فى تعيين نظام الحرارة فى الحجاز هو درجة الارتفاع فكلما زاد الارتفاع عن سطح البحر قلت الحرارة [1] ومن ثم كانت السهول المنخفضة الساحلية أشد حرارة ، ومثلها فى ذلك الموانئ الساحلية كجدة التى تعد من أشد جهات الحجاز حرارة ، وتساعد الرطوبة فيها وفى السهول على شدة حرارتها ، وتكون الرطوبة عادة فيها فوق ٨٥٪ مصحوبة بدرجة حرارة ٩٩° وحينما تهب العواصف الرملية فى جدة قد يصل الزئبق إلى ١١٩° فيصبح الهواء بعد ذلك جافا جداً مشبعاً بالرمال ، وقد سجلت أقل درجة حرارية فى جدة فكانت ٥٤° وتنخفض درجة الرطوبة على مسافة ٥ أميال بعيداً عن

---

(١) ولذلك كانت منطقة الهدى فى جبال كرا من ألطف أماكن الحجاز جواً حتى فى الصيف ، ويشعر الإنسان فيها فى وقت الظهيرة وفى قلب الصيف بنسيم لطيف عليل .

الشاطىء ، وجميع الأماكن المرتفعة عن سطح البحر وسط سلسلة جبال الحجاز ذات هواءمعتدل وجو لطيف ، ومكة ذات حرارة جافة بتأثير الأراضي الغرانيتية والصخور القديمة السوداء التي تزيد في قوة انعكاس الحرارة ، حتى لكأنها تصب على أطرافها أشعة محرقة من شهب الحرارة الجافة المحرقة [1] . وهناك منطقة تهامية جبلية يشتد فيها الحر ، وتهب فيها السموم اللاذع في أشهر الصيف والقيظ ، وهذه المنطقة هي التي تصاقب المدينة ومكة غربا ، أما في جبال الحجاز فيظل الجو معتدلا حتى في أشهر الصيف ، وفي جهات الطائف وجبال الشفا ، لا يشعر السكان أنهم في بلاد حارة .

أما الأمطار في الحجاز فهي قليلة ، وتهطل في جبال الحجاز في فصل الرياح الموسمية ، وذلك في أشهر الخريف غالبا ما بين شهري أغطس حتى أواخر ديسمبر ، وبعضها ينزل في الشتاء ، ويزيد في المدينة نزول المطر عن مكة وجدة . ومتوسط المطر ما بين ٣,٥ و ٤,٥ بوصة ، إلا في جنوبي الحجاز فيتراوح ما بين ١٠ و ١٢ بوصة ، وأغزر مطر حدث في منجم مهد الذهب في ١١ مايو ١٩٣٥ .

أما السيول فكثيرة ، وليس لها نظام معين .

الثروة الزراعية والحيوانية

(ا) الزراعة :

بالإضافة إلى منتوجات الأحراج من الفحم في شمال الحجاز ، والأخشاب المختلفة في جبل كرا ، غربي الطائف في الحجاز ، يوجد في الحجاز وفرة من المحصولات الزراعية الهامة من التمر والذرة والقمح .

والتمر هو المحصول الزراعي الرئيسي في البلاد ، وأصنافه لا عدد لها . وأخر أنواعه في المناطق الغربية تغل في جوار المدينة . وتعتبر ميناء ينبع

---

(١) يتبدل الطقس الحار الجاف في سبتمبر وأكتوبر في جهات مكة التي تهب عليها رياح جنوبية ذات رطوبة تجعل الجو هناك شديداً من أثر اختلاط الحرارة بالرطوبة .

مركزاً من مراكز تصدير التمور. وفى كل قرية فى الحجاز على الغالب على ارتفاع أقل من ٤٥٠٠ قدم ينتج هذا الغذاء الرئيسى.

وفى جنوب الحجاز تنمو الذرة برءوس وسيقان أكبر إلى علو ١٧٫٧ قدما، وفى شمال الحجاز تؤلف الذرة جزءاً من طعام الفرد العادى.

وكان القمح فيما مضى المادة الأساسية بعد التمر الغذاء، ولكن بعد مضى بضع سنوات استورد بعض التجار الجريئين الأرز بكميات وبأسعار حملت بالفعل أغلب السكان على أن يستبدلوا بالقمح الأرز. إلا أن الخطر على الشحن أثناء الحرب العالمية الثانية قد سبب عودة الناس إلى القمح. وعلى ذلك أعيدت زراعته فى أجزاء عديدة من البلاد.

وأعظم الكميات تنمو فى المزارع الشمالية نحو الطائف.

فواكه الحجاز وخضرواته:

من الفواكه: الموز والمشمش والرمان والتين والخوخ والنارنج والليمون والكمثرى والتين الشوكى والسفرجل والبطيخ (الحبحب) والتفاح العرى والأعناب والنبق والعناب والتوت والبخارى (البرقوق) وتمتاز فواكه الحجاز على غيرها بالحلاوة والرائحة ولطف المذاق. فعنب الطائف ورمانه وسفرجله كل هذه أجود منها فى أى بلد آخر.

ومن الخضروات: الجزر التمرى والجزر المدينى والجزر اليمانى (البطاطا) والباذنجان الأحمر (الطماطم) والباذنجان الأسود والبامية والقرع (الدبة) والفول والملوخية والكرنب والحمص والجرجير والفجل الأحمر والأبيض، والفلفل الرومى والأخضر والبصل.

والبرسيم: هو أعظم الغلات التى تؤلف أهم غذاء الماشية، وكذلك الحشيش (العثرى والمسقوى) وغيره من أنواع الحشائش الأخرى.

وأهم المناطق الزراعية فى الحجاز:

١ — وادى فاطمة: وبه مياه جوفية غزيرة إذ تصب فيه أودية كثيرة

كوادى الزبارة ووادى الشامية ووادى علاف ، ويغل هذا الوادى : التمر والفواكه والخضر .

٢ — المدينة وضواحيها ، وأهم الغلات فيها : التمر والحبوب والفواكه ، وتعتمد الزراعة على الآبار والعيون .

٣ — وادى ينبع ورابغ : وينتج الحبوب وبه كثير من النخيل .

٤ — الطائف ، وأهم الغلات بها : الفواكه ونباتات الزهور والخضر .

٥ — الليث والقنفدة : وتعتمد الزراعة فيها على الآبار والعيون ، وينتج التمر والفواكه .

٦ — الزيمة والجعرانة والشرائع : وغلاتها الفواكه والبرسيم .

الماشية

وهناك مصدر أعظم من المصادر المذكورة آنفا للثروة ؛ حتى إنه ليفوق التمور فى أهميته ، وهو الماشية مثل : الإبل، والماعز ، والغنم ، والبقر ، والحمير ، والدواجن ، والخيول .

ويعتبر الجمل من أسرة البدوى وهو لا يستغنى عنه . وكثيراً ماتقدر ثروة البدوى بعدد ما يملك من الإبل ؛ لأنها تدر عليه الحليب ، وتعطيه اللحم ، وتحمله إلى حيث يشاء فى أسفاره . والبدوى عادة يطلق إبله للمرعى فى غير أشهر الحج كى يسمنها ويغذيها ويعطيها القدر الكافى من الراحة والغذاء ، وربما كان هذا واضحاً بالنسبة لإبل قريش المشهورة لدى أهل الحجاز وخاصة المطوفين . ولقد كانت هنالك فيما مضى حركة تصدير واسعة للإبل إلى إفريقية ومصر وسوريا والعراق وغيرها مما أثر على هذه الثروة الحيوانية العظيمة النفع والأثر ، وإن كانت قد فقدت أهميتها كثيراً باستعمال السيارات فى الوقت الحاضر .

وجميع الإبل التى تعيش فى البلاد ذوات سنام واحد . وتعتبر الضأن أعظم الحيوانات التى تقدم للإنسان الغذاء من اللحم ، أما الماعز فتزيد بما تدره من الحليب كغذاء ، وقليل من الجمال تذبح لأجل لحومها .

ويلى الإبل من حيث الأهمية الضأن وتفوقها كثيراً فى العدد على الرغم مما يستهلك من لحومها فى الوقت الحاضر ، وأجود أصناف الضأن بالحجاز الخراف الحرية [١] وقد استغل الجشعون جودتها فى أثناء الحرب الأخيرة فصدروها بكميات كبيرة إلى الخارج حتى كادت تفنى .

وجميع الأغنام العربية بها شحم وإليات مستعرضة تحتوى على غذاء شهى ، ودهن الإلية مادة جديرة بالذكر فى التجارة الأهلية ويسيح فيكون نوعا من الدهن .

الأصواف والجلود:

وتربى أنواع من الماشية لأصوافها، ويجز قسم بسيط من الصوف ويغزل وينسج لعمل المشالح أو البيديات « جمع بيدى [٢] » ، وهى مشالح كالمعاطف مستوية ثقيلة بدون أردان وبطول الركبة ، وتستعمل فى مرتفعات الطائف ، ولوجود الزيت الطبيعى فى الصوف تنفض البيديات الماء جيداً لوقت قصير ، إلا أنها بعد أن تمتص ماء مطر يوم كامل تصبح كالإسفنجة المشبعة ثقيلة الحمل : والصوف العربى من النوع الخشن الذى يعرف بصوف السجاد ، ويستعمل فى صنع السجاجيد الشمال « جمع شملة » ، وهى بسط من صوف شعبية معروفة [٣] .

ويصدر القليل جداً من جلود الماشية ، وذلك لأنها لا تعتبر من النوع الفاخر ، وقد صار استيراد الأغنام الصومالية السوداء الرأس ، وعلى ذلك فهنالك إمكانية تصدير واسعة المدى والانتشار ، وذلك لأن جلودها من نوع مرغوب فيه لصنع القفازات وحقائب الكتب الجلدية عند الأمريكيين .

---

(١) نسبة إلى الحرة بفتح الحاء ، وجمعها حرار .

(٢) منسوبة إلى بيدة قرية معروفة ببلاد غامد وزهران وهى فى المعاجم العربية « أبيدة » .

(٣) ليس فى الحجاز صوف ممتاز إلا قليلا نادراً ، فكل مايجز من الحيوان إنما هو شعر . إلا أن بعض الرعاة يعنون بشعر الحيوان ووبره ويربونهما تربية صالحة وبذلك حصلوا على صوف جيد يستعمل فى نسج العباءات الفاخرة

وبعد انقطاع المطر فى عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، فى منطقة الطائف ، صار استيراد نوع كبير قوى من الماعز من السودان ، لتحسين القطعان المحلية .

الماعز :

إن اللبن والأرز والتمر ، وأحيانا كثيرة لحوم الضأن معها تؤلف الغذاء الرئيسى فى الحجاز ، ولا سيما البادية . والماعز تنمو وتزداد فى الوقت الذى نرى أن عدد الضأن فى تناقص . وتصنع من شعور الماعز الخيام العربية السوداء المشهورة .

الأبقار :

وفى جدة أبقار وأسواق لمنتوجات الماشية وكذلك فى مكة مما يدل على أن تربية الماشية يمكن أن تصبح تجارة رابحة مفيدة بالرغم من وسائل النقل الحالية التى تعرقل رواجها . ويعتبر الحمار فى الأراضى المرتفعة والمنخفضة المقيم على الإخلاص والود للبدوى وهو الحيوان الذى يثقل ظهره بالأحمال الثقال .. ومن أجود أنواعه بالحجاز الحمير الحصاوية التى تجلب من الأحساء [1] .

الثروة المعدنية

لا تزال بلادنا بكراً لم يكشف من كنوزها المخبوءة إلا القليل ، وإن الدراسات الفنية الجيولوجية التى جرت حتى الآن تعتبر بسيطة . ونأمل أن يكثر الخبراء الفنيون والمهندسون الجيولوجيون من أبناء البلاد وتهيأ الدراسات والبحوث المستفيضة وأعمال التنقيب لاستخراج هذه الثروة التى لم يستغل منها سوى النزر اليسير .

مهد الذهب :

عثر الفنيون على مواقع خمسة وخمسين منجما قديما ، وحفروا سبعة منها

---

(١) وتوجد فى الحجاز بعض الحيوانات منها : النمر والفهد والذئب والثعلب والغزال والكلب والقطط . ومن الحيوانات : الوعول والقردة والأرنب . وهناك أنواع من الطيور الجارحة والطيور الأنيسة : كالصقر والنسر والبوم .

بالماس فكان الفشل حليفهم ، فيما عدا منجما واحداً من هذه السبعة تبين أن مساحته كبيرة ، وذات قيمة تشجع على الإنشاء والتزويد بجهاز التعدين ومعالجة المعادن . وأطلق على هذا المنجم (مهد الذهب) وهو المعروف قديما بمعدن « بنى سليم » . كان العمل جاريا فى هذا المنجم فى عهدين مختلفين فى العصور القديمة كما تشير إلى ذلك بقايا النفايات القديمة . وهذه النفايات ملقاة تحت النفاية الحديثة ، وعمر الحديث منها يرجع إلى سنة ٧٥٠ — ١١٥٠ بعد الميلاد كما تدل على ذلك الكتابة الكوفية المحفورة التى وجدت بينها .

ولا يوجد دلائل إلى الآن تشير إلى تقرير العهد الصحيح للنفايات السفلية ولا يوجد هناك أيضا ما يدل على مدى الوقت الذى كان العمل فيه جاريا فى كليهما أو فيما إذا وجدت هنالك أية عهود جرى العمل فيها غير ما ذكرنا . وعلى ما يظهر من الحفريات القديمة فى جبل المنجم ومن النفايات أيضا ربما كان من غير الممكن إرجاع هذا المنجم إلى عهد الملك سليمان .

وهنالك رواية أن منجم أم قريات على بعد ١٤٠ ميلا عن الوجه ، كان يعمل فى التعدين فيه رجال الملك داود أبى الملك سليمان .

وقد كان للذهب فى الأزمان القديمة العهد جداً قيمة شرائية أكثر بكثير منها فى الوقت الحاضر .

وإن مهد الذهب به ثلاثة أصناف من التبر ، فتأتى النفايات التى ذكرناها أولا . ثم هنالك كمية معينة من درجة رديئة منثورة على السطح بين الحفريات القديمة قد صار تعدين الكثير منها إلى الآن بوسائل الحفر القليلة التكاليف . والبئر التى تقع تحت سطح الأرض والتى جرى التنقيب عنها بالثقب الماسى على عمق آلاف الأقدام . وقد جرى الحفر والتوصيل إليها بواسطة ممرات ومقاطع على عمق يقرب من ثلاثمائة قدم من السطح .

والطريق التى تصل مهد الذهب بجدة طولها ٢٤٦ ميلا تمر بها السيارات فى جبال تبلغ أعلى قممها حوالى ٣٧٠٠ قدم . والسيارات الخفيفة تقطع هذه المسافة فى عشر ساعات .

منجم ظلم :

وقد كشف (منجم ظلم) وجرى حفر الأرض بالماس . وقالت تقارير الخبراء : إنه توجد أفيام جيدة من الذهب وأنه كان من المتوقع طحن ٥٠ طنا فى عام ١٩٥١ ، ولكن بعض العقبات أخرت العمل [١] .

الذهب قرب الطائف :

وجد منقب تركى كتلتين من تبر الذهب قرب الطائف ، وقد شاهد بعض الخبراء الموقع وبعد الفحص تحقق أنها ذهب حقيق ، إلا أن جيولوجية وطبوغرافية الأرض كانت لا تبشر إلا ببصيص من الأمل . وجرت أعمال الحفر والتنقيب ، وفرز الذهب من التبر بالماء مدة ستة أشهر فى هذه المنطقة التى تقع غربى الطائف ، ومع أنه أمكن استخلاص ذهب نقى إلا أن ذلك لم يكن وافراً بحيث يدر الربح .

الفـــــلزات

١ — الذهب والفضة :

تنتشر آثار عمليات الأقدمين فى الحجاز ، وأشهرها كما بينا منطقة مهد الذهب التى بلغت الكميات المستخرجة منها حديثا حوالى أربعة وعشرين ألف كيلو جرام من الذهب ، وقد توقفت أعمالها مؤخراً نظراً لاستهلاك جميع الاحتياطى التجارى المعروف حتى الآن . وعثر على عدة مناجم أخرى قديمة العهد ، استغلها الغابرون على نطاق واسع وهى فى الوجه على البحر الأحمر . أما الفضة فهى لم تستغل إلا من تبر مهد الذهب .

(١) وهذا المعدن وجد فى جبل ظلم الواقع غرب منهل الدفينة بميل نحو الجنوب وهناك جبل ثان يقع فى جبل « الاشعر » فى شمالى المدينة لجهينة بقرب محطة « المبيليح » من محطات سكة الحديد وفيه معدن يستخرج منه الشب . وجبل ثالث يسمى بها الاسم ، ذكره عرام السلمى فى رسالته فقال . « إنه يكتنف الطرف التى تبعد عن المدينة ٢٤ ميلا على ماذكره الهمدانى » .

٢ — الحديد :

توجد أهم تكوينات الحديد فى القسم الشمالى الغربى فى المنطقة التى يحدها البحر الأحمر وخليج العقبة واليابسة الداخلية من ضبا إلى تبوك . ومنها إلى العقبة .. وهذه التكوينات عبارة عن طبقات متداخلة من حجر الدم (Hematite) واليشب (Jaspar) تغطى مساحات شاسعة وتتراوح نسبة الحديد فيها من ١٠ ٪ إلى ٤٧ ٪ وعثر على رواسب ساحلية من المغنتايت (Magnetite) مع بعض الألمنيات [Ilminite] على طول شاطىء المملكة . ولبعض هذه الرواسب إمكانيات اقتصادية .

٣ — النحاس :

يوجد النحاس فى خامات الذهب فى منجم مهد الذهب بمركب كبريتور النحاس [Copper Sulphibes] وقد توقفت أعمال المنجم مؤخراً نظراً لنفاد تبره ذى القيم التجارية المعروفة . وفى منطقة تدعى عقيق وأم الدمار التى تبعد ٣٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقى من مهد الذهب عثر على خامات النحاس بمركبات [Malachite Azurite] المنتشرة فى الطبقات الصخرية ذات الصفائح [Schist] وقد استغله الأقدمون . وقد عثر على تحويلات النحاس المعدنية فى منطقة طولها ٢ كيلو مترات وعرضها نصف كيلو متر ، وقد جرى فحصها فحصاً بدائياً فقط .

وهنالك أيضاً مواقع أخرى تبدو فيها ظواهر النحاس المتعدن .

٤ — الرصاص :

ويوجد الرصاص فى تبر مهد الذهب . وهنالك مركب من الرصاص والفضة Silver Bearing Galana فى جبل زهوة شرق القنفدة على مسافة ٦٥ كيلو متراً من ساحل البحر الأحمر .

اللافلزات

١ — الجبس أو الجص :

على بعد قليل نحو الداخل تمتد طبقات كبيرة من الجبس على طول ساحل البحر الأحمر من ينبع حتى خليج العقبة .

٢ — خامة الباريوم :Barite

وهنالك عروق من البارايت قرب رابغ شمالى جدة ولم تدرس إمكانيات هذا المعدن الاقتصادية .

٣ — الأسبستس المعروف بحجر الفتيلة :

عثر على الأسبستس [Asbestes] فى عرق من الحجر الأخضر المبقع المعروف بالسربنتين Serpentine بين الحنيكية والنقرة ، ولم يحدد نوعه وأقيامه حتى الآن .

٤ — خامة المغنيسيا : Magnesite

توجد فى نفس الحجر الذى عثر فيه على الأسبست بين الحنيكية والنقرة ، ولم تحدد قيمته بعد .

٥ — الصلصال : Clays

توجد عدة طبقات من الصلصال الصالح لصناعة الآجر والفخار فى أماكن مختلفة من الحجاز .

مدن الحجاز

أشهر مدن الحجاز : مكة ، والمدينة ، والطائف ، وجدة .

ومن مدن الحجاز وقراها الواقعة فى المنطقة الشمالية : العقبة ، والمويلح ، وضبا ، وتبوك ، وتقع فى المنطقة الوسطى : الوجه ، واملج ، وينبع ، والعلا ، وتيماء والحناكية . وخيبر ، وهى واحة فيها عدة قرى تبعد عن المدينة بمائة ميل من الشمال . وتقع خيبر نفسها فى وادى زيدية أكبر الوديان فيها . وبها قلعة قديمة تسمى الحصن ، وفيها عيون ومياه جارية . وكانت خيبر منزل اليهود فى الجاهلية وسكانها اليوم نحو ثلاثة آلاف نسمة . وفى القسم الجنوبى من الحجاز تقع رابغ ، وجدة ، والليث ، ومكة .

وهذه هى طائفة من مدن الحجاز :

مكة المكرمة

أما مكة [1] فهى البلد الحرام وفيها البيت الحرام . ويقول الله تعالى فى كتابه الحكيم : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » وقال : « جعل الله الكعبة البيت الحرام » . وقال عز وجل : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » . ولا يحس المسلم برهبة قدر إحساسه وهو يدخل مكة زائراً ، أو حاجاً . وتقع مكة التى شهدت أول عهد الرسول بالوحى ووضع فيها أول حجر أساسى للإسلام فى واد مبارك بين سلسلة من الجبال ، وهى ترتفع عن سطح البحر ٢٨٠ متراً ، وتقع أيضا على بعد ٧٥ كيلومتراً شرقى ميناء جدة أكبر موانىء الحجاز ، وعلى بعد ٣٤٥ ميلا جنوبى المدينة ، وأهم ما فيها من الآثار : شعب بنى هاشم الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، ويرى آخرون أنه ولد فى شعب بنى عامر ، ودار خديجة التى ولدت فيها فاطمة الزهراء ، ثم غار حراء الذى نزل فيه الوحى على الرسول لأول مرة ، ويقع فى قمة جبل النور فى طريق الطائف ، ثم جبل ثور ، حيث غار الهجرة الذى اختفى فيه النبى وأبو بكر ، وهما مهاجران

---

(١) تقع فى واد ضيق يتجه من الشمال للجنوب ، وتحيط به جبال شاهقة نسبيا وهى عند درجة ٢١ من درجات العرض الشمالى ، ودرجة ٣٧ من درجات الطول الشرقى ، وتتفاوت حرارتها بين ١٨° و ٣٩° صيفا .

من مؤامرة كفارة قريش ، ويبلغ سكان مكة نحو ٢٥٠ ألف نسمة ، ويشربون من عين زبيدة ، التى أضيفت إليها غيرها من العيون الأخرى ، وفاء بحاجة السكان ، ولاسيما فى مواسم الحج ، وبئر زمزم مشهورة . أما الكعبة فيبلغ ارتفاعها ١٥ متراً ، وطول أحد ضلعيها عشرة أمتار ، والآخر ١٢ متراً ، وارتفاع بابها متران ، كان لها سلم مصفح بالفضة ، وبظاهر مكة : المعلاة ، وتقع فى الشمال الشرقى منها ، وقبالة مقبرة المعلاة يقع مسجدان :مسجد الراية ، ومسجد الجن . وبالصفا تقع دار الأرقم ، أو الخيزران ، وكان يجلس فيها الرسول مع المسلمين الأولين فى أول العهد بالنبوة ، والمسجد الحرام أول ما يقصده الحاج إلى مكة ، وكان منذ بنى إبراهيم وإسماعيل الكعبة فناء واسعا حول الكعبة ، وبنيت حولها البيوت منذ عهد مضى ، فبنت قريش دورها حول الكعبة المعظمة . وتركت للطائفين مقدار مدار المطاف ، على أنه لم يكن للمسجد الحرام ذكر فى الجاهلية ، وإنما كل ما كان معروفا منه هو مدار الطواف حول الكعبة . وكان هذا المدار أو الفناء مجلساً للناس فى الصبح والمساء . وكانت حدود المسجد الحرام فى صدر الإسلام من الجهة الشرقية : بئر زمزم وباب بنى شيبة ، ومن الجهة الغربية : حافة المدار الذى عليه أساطين النحاس المعلق عليها المصابيح الواقعة بين مدار المطاف ومقام المالكى ، ومن الجهة الشمالية حافة المدار كذلك ، الواقعة بين مدار المطاف ومقام الحنفى ، ومن الجهة الجنوبية هذه الأساطين الواقعة بين مدار المطاف ومقام الحنبلى ، وفى عام ١٧ هـ — ٦٣٧ م زيدت عليه زيادات كثيرة .

وكذلك وسع المسجد الحرام فى عهد عثمان عام ٢٦ هـ — ٦٤٦ م ، وفى عهد عبد الله بن الزبير عام ٦٥ هـ — ٦٨٤ م .

وأمر عبد الملك بن مروان عام ٧٥ هـ — ٦٩٤ م بعمارة المسجد الحرام ، وفى عام ٩١ هـ — ٧٠٩ م أمر الوليد بن عبد الملك بتوسيع المسجد الحرام وعمارته . ومن الزيادات فيه زيادة المنصور عام ١٣٧ هـ — ٧٥٤ م حيث جعل المسجد الحرام ضعف ما كان عليه ، وزيادة المهدى عام ١٦٠ هـ ، ثم زيد فيه عام ٢٦٤ هـ ثم زيدت دار الندوة عليه عام ٢٨١ هـ وزيد باب إبراهيم عام ٣٠٦ هـ .

ومن العمارات فيه : عمارة المعتمد العباسى عام ٢٧١ هـ ، وعمارة ملوك الجراكسة عام ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ م ، وعمارة السلطان قايتباى عام ٨٨٢ هـ ، وعمارة السلطان سليمان عام ٩٧٢ هـ — ١٥٦٤ م ، وعمارة السلطان مراد خان . ومساحة المسجد الحرام الآن تبلغ أربعين ألف متر ، وتقوم الحكومة الآن بتوسيعه لتصل مساحته إلى مائة ألف متر ، وسيقام بناء طابق أعلى فوق التوسعة ٤٠ ألف متر ، وستنشأ شوارع واسعة حوله تحيط به من جميع جهاته الأربع بعرض عشرين مترا ، وستنشأ ميادين فى أركان المسجد الحرام يعمل الفنيون على تنسيقها وتشجيرها ، والمساحة التى ستنزع ملكيتها من المبانى تبلغ نحو ٨٠ ألف متر ، وسيتصل المسعى ما بين الصفا والمروة بالمسجد الحرام ، وسينشأ ميدان حول دار الأرقم ، ويقوم هذا الميدان فى الجهة الشرقية الشمالية . وقد جرى الاحتفال بمشروع توسعة المسجد الحرام فى الساعة الواحدة (عربى) يوم الخميس ٢٣ شعبان سنة ١٢٧٥ هـ .

حدود بيت الله الحرام

المسافة بالكيلومتر	المراكز		
	من	إلى	
	بيت الله الحرام		
١٨	بيت الله الحرام	بطن نمرة	ذات السلم عرفات
٨	» » »	المقطع	خل الصفاح نجد العراق
٥	» » »	التنعيم	طريق المدينة
٢٠	» » »	الشميسى	(الحديبية) جدة
٢٠	» » »	المقشع	(إضاه) ابن اليمن

مواقيت الحج

المسافة بالكيلومتر	المراكز من	المراكز إلى	
	مكة المكرمة		
٢٧	مكة	وادى محرم	طريق مكة عرفات
٧٣	«	السيل	(قرن المنازل)
٦٥	«	الضريبة	(ذات عرق)
٧٧٣	«	أبيار على	(ذو الحليفة)
٢١٢	«	رابغ	(الجحفة)
٨٠	«	السعدية	يلملم

وهذه هى المسافات بين مكة المكرمة وغيرها من المدن والقرى .

مكة — عسفان

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	
	مكة		
٢٨	مكة	وادى فاطمة	مياه ومزارع
٤٢	الوادى	عسفان	قرية
٧٠	المجموع		

مكة — الطائف (طريق عرفة)

المسافة بالكيلو متر	المحطات		ملاحظات
	من	إلى	
	مكة المكرمة		العاصمة
٨	مكة	منى	قرية
٥	منى	مزدلفة	ماء
٧	مزدلفة	مسجد نمرة	»
٥	مسجد نمرة	عرفات	»
٢٥			
٥	عرفات	وادى نعمان	ماء
١٣	وادى نعمان	شداد	»
١٨	شداد	السكر	ثلية
٤	السكر	الهدا	قرية
٤	الهدا	كمل	ثلية
٢	كمل	كرا	»
٢	كرا	وادى محرم	ماء
١٨	وادى محرم	بير العسكر	»
٨	بير العسكر	الطائف	بلد
٩٩	المجموع		

مكة — الطائف (طريق السيل)

المسافة بالكيلومتر	المحطات		ملاحظات
	من	إلى	
	مكة		العاصمة
٣	مكة (الحرم)	العدل	مقهى
٢٤	العدل	الشرائع	مقهى — مخفر
١٧	الشرائع	الزيمة	قرية
٤٤			
٣٣	الزيمة	السيل	قرية
١٤	السيل	مفرق عشيرة	جبل
١٧	مفرق عشيرة	عكاظ	مقهى
٣	عكاظ	مفرق ثامودة	أرض
١٢	مفرق ثامدهو	أم الحمض	قرية
١١	أم الحمض	شبرا	قصر
١	شبرا	الطائف	بلد
١٣٥	المجموع		

مكة — المضيق

المسافة بالكيلومتر	المحطات		ملاحظات
	من	إلى	
	مكة		العاصمة
٤٤	مكة	الزيمة	
٣	الزيمة	سولة	قرية
٨	سولة	المضيق	قرية

مكة — أبها

المسافة بالكيلومتر	المراكز من	إلى	ملاحظات
	مكة		بلد
٧٥	مكة	السيل	قرية
٣٦	السيل	عشيرة	مقهى
١٧	عشيرة	المحدثة	ماء
٩٢	المحد	بريم	ماء
٦٠	بريم	خرما	بلد
١٤٧	خرما	رنيـة	بلد
١٦٠	رنيـة	الروشن	بلد
٦٢	الروشن	ابن سرار	بئر
١٠٠	ابن سرار	خيبر	بلد
٤٢	خيبر	تندحة	واد
١٨	تندحة	خميس مشيط	بلد
٢٦	خميس مشيط	حجلة	قرية
١٩	حجلة	أبها	بلد
٨٤٤			

جدة — مكة المكرمة

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	إلى	ملاحظات
	جدة		ميناء
١٢	جدة	الرغامة	ماء
٨	الرغامة	أم السلم	مخفر — مقاهى
١٦	أم السلم	بحرة	قرية
١٠	بحرة	حدة	ماء
٦	حدة	الشميسى	قرية
٣	الشميسى	الحديبية	العلمان
٥	الحديبية	مقهى سالم	ماء
٥	مقهى سالم	المقتلة	مقهى
٣	المقتلة	أم الدود	مخفر
٥	أم الدود	باب مكة	مخفر
٣	باب مكة	بيت الله الحرام	

المدينة المنورة

وأما المدينة [1] فإنها تسمى (المنورة) لوجود قبر الرسول عليه الصلاة والسلام فيها ، وقد دفن فيها أبو بكر وعمر رضى الله عنهما أيضا ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٠٠ متر ، وأهم أماكنها المقدسة المسجد النبوى ومسجد قباء ومسجد حمزة ، والبقيع حيث دفن فيه عدد كبير من شهداء المسلمين .

ويقع المسجد النبوى فى وسط المدينة على شكل مستطيل ، طوله ١٢٦ مترا وعرضه نحو ثلثى ذلك . وله عدة أبواب ، منها : « باب الرحمة » وباب جبريل ، وباب الشام ، وباب النساء ، وكان يضم مسجد النبى الأول بيت عائشة ، ومساكن زوجاته ، ومنازل بعض الصحابة ، وتقع المقصورة الشريفة « قبر النبى » فى طرفه الجنوبى الشرقى . أما الروضة الشريفة فهى المكان الواقع بين القبر ومنبر الرسول .

---

(١) تقع على الخط الخامس والعشرين من العرض الشمالى ، والخط الأربعين من الطول الشمالى ، وعلى بعد ثلثمائة ميل من مكة ومائة وثلاثين ميلا من ينبع ، وهى فى سهل ينحدر وتدريجيا نحو الشمال . ويحده جبل أحد شمالا ، وجبل عير جنوبا ، ومن الشرق والغرب الحرتان الشرقية والغربية والشرقية أبعد عن المدينة ، وبينهما سهل فسيح خصب ، وتسمى « حرة واقم » وكان عندها وقعة الحرة المعروفة فى عهد يزيد بن معاوية عام ٦٣هـ . ويطلق على الحرة اسم « اللابة » أيضا . وقد جاء فى الحديث . « ما بين لابتيها أفقر من أهل بيتى » . وشمالى المدينة جبل سلع ، وعلى ثلاثة أميال منها شطر الشمال جبل أحد ، وكانت عنده المعركة المشهورة فى العام الثالث من الهجرة ، وقريب منها جبلان متقاربان يسمى أحدهما عير الوارد ، والآخر عير الصادر . ومن الأودية فى سهل المدينة : وادى العقيق ، وقد أكثر الشعراء الاسلاميون من ذكر المدينة فى قصائدهم . وقد هدمت فى العهد السعودى الأضرحة والقباب والمبانى المقامة فى المدينة وسواها على قبور الصحابة والتابعين ، وكانت تقيم هذيل فى سراة هذيل شرقى مكة وفيما بينها وبين المدينة .

ومرفأ المدينة ينبع ، وكانت « الجار » مرفأ لها قبل ينبع .

وقد أسس الرسول صلى الله عليه وسلم هـذا المسجد ، حينما قدم مهاجراً فى شهر ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة . وكان أساسه من الحجر ، وجداره من الطين ، وسقفه من الجريد ، وعمده من جذوع النخل . وكانت مساحته ٦٠ ذراعا فى ٧٠ ، وفيه ثلاثة أروقة جهة القبلة ، وساحة واسعة ، وكان له ثلاثة أبواب ، أحدها : فى الجهة الجنوبية إذ كانت قبلته أول الأمر إلى الشمال نحو بيت المقدس ، والثانى فى الجهة الغربية وهو باب مكة (باب الرحمة) ، والثالث : باب آل عثمان (باب جبريل) . وروى أنه لما رجع الرسول من خيبر سنة ٧ من الهجرة ، زاد فى المسجد من الشرق والغرب والشمال ، فصارت مساحته مائة ذراع فى مائة . وفى سنة ١٧ من الهجرة وسع الخليفة الثانى عمر ، رضى الله عنه المسجد من جهة القبلة ، ومن الغرب والشمال ، وجعل بناءه كما كان فى عهد الرسول وجدرانه من اللبن ، وسقفه من الجريد ، وعمده من الخشب . ثم زاد فيه عثمان ، رضى الله عنه ، سنة ٢٩ من الجهات الثلاث التى وسع فيها عمر وبنى الجدران بالحجارة ، وجعل عمده من حجارة يصل بينها الحديد والرصاص وسقفه من خشب الصاج . ثم كان عهد الخليفة الأموى ، الوليد بن عبد الملك الذى بنى الجامع الأموى فى دمشق ، ثم أراد أن يشيد المسجد النبوى ويتأنق فى تشييده ، كما شيد جامع بنى أمية ، فعهد إلى والى المدينة عمر بن عبد العزيز بتجديد المسجد وسعه ، واستمر فى التعمير من سنة ثمانية وثمانين ، إلى سنة إحدى وتسعين ، وزاد فى المسجد من جهاته الأربع . وكان عمر وعثمان رضى الله عنهما ، قد تجنبا الزيادة من جهة الشرق حيث الحجرات وأدخل الوليد فى المسجد حجرات أزواج الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، وجانباً من حجرة عائشة التى فيها قبور الرسول وصاحبيه ، وقد افتن عمال الوليد فى بناء المسجد بالحجارة والجص ، ونقش جدرانه بالفسيفساء والمرمر ، وجعل سقفه من الصاج ، وذهب كما ذهبت رؤوس الأساطين فى عهد الخلافة العباسية فى حكم الخليفة الثالث المهدى بن المنصور ، الذى زاد فى المسجد الحرام زيادة كبيرة ، كما زاد فى المسجد النبوى من جهة الشمال إلى الحد الذى كان عليه المسجد قبل العمارة السعودية ، وتمت عمارة المهدى فى أربع سنوات من سنة ١٦١ إلى سنة ١٦٥ هـ

واستمرت عناية الخلفاء العباسيين وغيرهم من ملوك المسلمين بتعمير المسجد طول عهد الخلافة العباسية؛ وفى سنة ٦٥٤ هـ شبت نار فى المسجد أتت على أكثره ، فاهتم آخر الخلفاء العباسيين الخليفة المعتصم بالله وملوك آخرون : كالملك المظفر الرسولى صاحب اليمن ، والظاهر بيبرس سلطان مصر . فتتابعوا على المسجد كله ، وتمت العمارة على يد الظاهر بيبرس . ثم تولى سلاطين المماليك فى مصر تعمير الحرمين ، حتى عهد السلطان الملك الأشرف قايتباى ، وهو أعظم المماليك أثراً فى تعمير الحرمين . وقد عمر كثيراً من جدر المسجد النبوى وسقوفه ، ثم وقع حريق آخر سنة ٨٨٦ فأرسل قايتباى الأمير « سنقر » الجمالى ، ومعه مائة من الصناع ، فبنوا المأذنة الكبيرة وجدار القبلة ، والجدار الشرقى إلى باب جبريل ، والجدار الغربى إلى باب الرحمة ، وبنو الحجرة النبوية والقبة وقبابا صغيرة كثيرة ، وبنوا المدرسة التى كانت بين باب السلام وباب الرحمة ، والتى عرفت بعد باسم « المدرسة المحمودية » . ثم جاءت الدولة العثمانية فقام سلاطينها على عمارة المسجد والعناية بشئونه حتى سنة ١٢٦٥ هـ . وفى هذه السنة بدأ السلطان عبد المجيد العمارة الكبيرة التى لا تزال قائمة حتى اليوم ، وقد انتهت سنة ١٢٧٧ هـ بعد اثنى عشرة سنة . وقد شملت العمارة المسجد كله إلا المقصورة ومأذنة قايتباى والجدارين الغربى والشمالى ، ونقشوا الجدار والأسطوانات والمنابر والمحاريب وذهبوها . وقدم الخطاط عبد الله زهدى من اسطمبول ، فلبث ثلاث سنين يكتب على جدران المسجد، من الآيات القرآنية والأحاديث ، ما نراه اليوم حلية رائعة جميلة، تسكن إليها العيون والقلوب ، وبلغت نفقات العمارة المجيدية ثلاثة أرباع مليون جنيه مجيدى ، فى العمارة القديمة القائمة اليوم آثار ملوك من المماليك والعثمانيين، أعظمهم أثراً السلطان قايتباى، وأوسعهم تعميراً السلطان عبد المجيد . وقد تم مشروع جديد بتوسعة المسجد النبوى الشريف عام — ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م — وقد وضع أساس هذا المشروع فى شهر ربيع الأول عام ١٣٧٢ . وهى عمارة رائعة جميلة . وقد احتفل بالانتهاء من عمارة المسجد النبوى الشريف احتفالا رائعاً ، حضره الملك سعود ، ووفود من مختلف البلاد العربية والإسلامية ، وذلك

- فى الساعة الثانية من مساء ليلة السبت ٥ ربيع الأول ١٣٧٥ هـ — ٢٣ أكتوبر ١٩٥٥ فى المدينة المنورة .

ومشروع عمارة الحرم النبوى الشريف ، بدىء بالعمل فيه فى شهر شوال ١٣٧٠ هـ ، ووضع الحجر الأساسى للشروع فى ربيع الأول ١٣٧٢ هـ ، وبدىء فى حفر الأساس فى الجناح الغربى فى شعبان ١٣٧٢ هـ .

وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٧٢ هـ . بدىء فى بناء العمارة الشريفة ، وفى شهر ربيع الأول عام ١٣٧٣ ، زار الملك سعود المدينة المنورة ، ووضع أربعة أحجار فى إحدى زوايا الجدار الغربى بالمسجد الشريف ، وشكلت لجنة خاصة من كبار رجال المدينة ، لتقدير أقيام العقار ، وقد روعى فى ذلك مصلحة أصحاب الأملاك . وبلغت مساحة الأراضى للدور والأملاك التى انتزعت ملكيتها للتوسعة والشوارع والميادين التى حول المسجد النبوى الشريف ٢٢٩٥٥ متراً مسطحاً .

وأنشىء من أجل العمارة مصنع مخصوص لعمل الأحجار الصناعية (المزايكو) ، وزود بكافة الأدوات الميكانيكية ، واختير له مكان فى منطقة « أبيار على » حيث جلب له مهندسون إخصائيون . وعمل تحت إشرافه أكثر من أربعمائة شخص ، وعمل بالحرم الشريف أربعة عشر مهندسا ، منهم اثنا عشر مصريا ، وواحد من السوريين ، وواحد باكستانى ، وعمل تحت إشرافهم أكثر من مائتى صانع من المصريين والسوريين ، وعدد من الباكستانيين والسودانيين واليمنيين والحضارمة ، كما عمل معهم أكثر من ألف وخمسمائة عامل من السعوديين . .

وقد أنشئت ورشة خاصة بالمدينة ، زودت بالمهندسين الميكانيكيين والصناع ، وكلهم سعوديون ، لأجل تعمير وإصلاح السيارات والآلات الميكانيكية التى تعمل بالعمارة الشريفة .

وهذه إحصائيات رسمية عن المشروع قبل وبعد البدء فيه :

	أمتار مربعة
مساحة المسجد النبوى الشريف حينما بناه النبى صلى الله عليه وسلم	٢٤٧٥
زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه	١١٠٠
« « « عثمان بن عفان « « «	٤٩٦
« الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك	٢٣٦٩
« « العباسى المهدى	٢٤٥٠
« الملك الأشرف قايتباى	١٢٠
« السلطان عبد المجيد العثمانى	١٢٩٣
المساحة الكلية للمسجد النبوى الشريف قبل التوسعة السعودية	١٠٣٠٣
الزيادة التى بدأ بها الملك عبد العزيز رحمه الله وأتمها الملك سعود	٦٠٢٤
المساحة الكلية للمسجد بعد التوسعة الأخيرة	١٦٣٢٧

عمارة التوسعة السعودية .	٦٠٢٤
عمارة الأجزاء القديمة والتى هدمت وأعيد تعميرها وهى الجهات الثلاثة	٦٢٤٧
مجموع العمارة السعودية	١٢٢٧١
مساحة الجهة القبلية الباقية فى البناء القديم	٤٠٥٦
المجمـــوع	١٦٣٢٧

أما العمارة الجديدة فهاهى ذى إحصائيات عنها :

عدد الأعمدة المحيطة بالجدار	٠٤٧٤	عموداً مربعاً
« « المستديرة فى العمارة الجديدة	٠٢٣٢	« «
الجدار الغربى	٠١٢٨	متراً طولياً
« الشرقى	٠١٢٨	« «
« الشمالى	٠٠٩١	« «

وترتبط المدينة بغيرها من البلاد بالطرق ، وهـذه هى المسافات بين المدينة وغيرها .

المدينة — عشيرة — الطائف

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	المدينة		بلد
٧١	المدينة	صويدرة	قرية
١٩٥	صويدرة	مهد الذهب	قرية
١٢٧	مهد الذهب	المسلح	ماء
٨٦	المسلح	عشيرة	مقاهى
٦٥	عشيرة	الطائف	بلد
٥٤٤	المجموع		

المدينة — خيبر

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	المدينة		بلد
٢٤٠	المدينة	الصورة	قرية
١٥٠	الصورة	خيبر	قرية
٣٩٠	المجموع		

المدينة — ينبع

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	المدينة		بلد
٧٢	المدينة	المسيجيد	قرية
٦	المسيجيد	بئر عباس	ماء
٣	بئر عباس	المستعجلة	»
١٤	المستعجلة	خيف المسيجد	قرية
٩	خيف السيد	المدسلخ	ماء
١٠	المدسلخ	الحمراء	قرية
٢	الحمراء	أبو عبيد	ماء
٦	بئر أبو عبيد	نقب الفار	»
١٧	نقب الفار	بئر سعيد	»
٧٣	بئر سعيد	ينبع البحر	ميناء
٢١٢	المجموع		

المدينة — العلا

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	المدينة		بلد
٤	المدينة	قصر ابن العاص	ماء
٩٢	قصر ابن العاص	الحفيرة	ماء
٨	الحفيرة	غزيل	ريع
١٣	غزيل	البواطه	ماء
٢٠	البواطة	أبيار نصيف	ماء
٢١	أبيار نصيف	البويره	ماء
١٩	البويرة	عنتره	جبل
١٧	عنترة	أبو النغم	ماء
٤٨	أبو النغم	جذاعة	ماء
٢٥	جذاعة	الهدية	ماء
٢٠	الهدية	المدرج	ماء
١٣	المدرج	الوبيان	ماء
١٣	الوبيان	الطويرة	ماء
١٦	الطويرة	قلعة الصور	بركة
٢٩	قلعة الصور	زمرد	أرض
١٤	زمرد	سهل المطار	أرض
٢١	سهل المطار	المشهد	ماء
١٤	المشهد	البدايع	ماء
٢٠	البدايع	العلا	بلد
٤٢٨			

جدة — المدينة

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	جدة		ميناء
٥٠	جـدة	ذهبان	قرية
٤٠	ذهبان	تول	قرية
٥	تول	القضيمة	قرية
٤٥	القضيمة	رابغ	بلد
٤٠	رابغ	بئر مستورة	ماء
١٦	مستورة	مفرق يلبع	أرض
٥٠	المفرق	بئر ابن حصانى	ماء
٢٩	بئر ابن حصانى	الشفية	ماء
٣٠	الشفية	المسيجيد	قرية
٦	المسيجيد	بئر الراحة	ماء
٢٠	بئر الراحة	بئر عار	ماء
٤	بئر عار	بئر درويش	ماء
٢٤	بئر درويش	المنحور	ريع
١٢	المنحور	أبيار على	ماء
٥	أبيار على	بئر عروة	ماء
٢	بئر عروة	المدينة	ماء
٢٧٨	المجموع		

جدة — مهد الذهب — المدينة (طريق عسفان)

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	جدة		ميناء
٦١	جدة	عسفان	قرية
٢٥	عسفان	البرزة	أرض
٥٦	البرزة	المدركة	ربيع
٩٤	المدركة	البركة	ماء
١٦٠	البركة	مهد الذهب	قرية
٣٩٦	المجموع		
١٩٥	مهد الذهب	الصويدرة	قرية
٧١	الصويدرة	المدينة	بلد
٦٦٣	المجموع		

جدة — مهد الذهب (طريق المدينة)

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	جدة		ميناء
٢٧٦	جدة	المدينة	
٧١	المدينة	صويدرة	قرية
١٩٥	صويدرة	مهد الذهب	قرية
٦٤٢	المجموع		

جـــــــدة

تعتبر جدة الميناء الرئيسى للحجاز على البحر الأحمر ، وهى ميناء مكة ، والمسافة بينهما خمسة وخمسون ميلا ، ويبلغ سكانها الآن حوالى مائتين وخمسين ألف نسمة .

وقد كانت قضاعة أول من سكن جدة قبل الإسلام ، ولم يجر اتخاذ مدينة جدة مرفأ تجارياً لمكة إلا فى السنة السادسة والعشرين من الهجرة ، فى زمن ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقد قدم فى ذلك العام معتمراً من المدينة إلى مكة فسأله أهلها أن ينقل ساحل مكة القديم من الشعيبة (١) جنوبى جدة الآن ، إلى جدة لقربها من مكة ، فخرج بنفسه ورآها واغتسل بها وأمر أصحابه أن يغتسلوا بها ووصف الغسل من البحر بأنه مبارك .

والشعيبة تبعد عن جدة نحو اثنتى عشرة ساعة بحراً . وست وثلاثين ساعة براً لراكب البعير . ومن هذه الحقائق التاريخية تظهر لنا حقيقة أولى ، هى أن مدينة جدة لم تكن تخلو من الماء فقد كانت بها آبار عذبة وإلا لما أمكن لقضاعة أن تسكنها قبل الإسلام ، ولما أمكن للخليفة الثالث أن يوافق على جعلها مرفأ لمكة (٢) .

ولما قويت الدعوة الإسلامية وفتح الله على المسلمين بلاداً كثيرة ، وتغلغل الدين الإسلامى فى النفوس ووفد المسلمون من كافة أقطار الأرض إلى هذه البلاد حاجين ملبين ، كبرت جدة وتطورت على مرور الأيام وأخذت أهميتها تظهر بكثرة الوافدين

---

(١) كانت الشعيبة مرفأ مكة من قبل .

(٢) جاء فى تاج العروس ج ٢ ص ٣١٣ :
قال ابن الأثير : الجد بالضم شاطىء النهر والجدة أيضا وبه سميت المدينة التى عند مكة جدة قلت : وهى الآن مدينة مشهورة مرسى السفن الواردة من مصر والهند واليمن والبصرة وغيرها . واختلف فى سبب تسميتها بجدة فقيل لكونها خصت من جدة البحر أى شاطئه . وقيل سميت بجدة بن جرم بن زبان لأنه نزلها كما فى الروض الانف للسهيلى . وقيل غير ذلك ، وقال البكرى فى المعجم : الصواب أنه هو الذى سمى بها لولادته فيها .

إلى مكة من الحجاج عن طريق البحر الأحمر، وبرواج التجارة فى مكة، واتخاذ البحر فى جدة طريقاً لورودها بواسطة التجار الأحباش والرومان والفرس الذين يؤثرون ركوب السفن الشراعية لإلفهم إياها .

وهذا التحول فى مدينة جدة جعل سكانها أكثر تعداداً ومرافقها أكبر من ذى قبل ، فظهرت الحاجة إلى المياه لقلتها فيها من تلك القرون السحيقة .

ولا شك أن الناس لم يتركوا مظنة وجود الماء فى باطن الأرض إلا نقبوا عنها ، واستخرجوها فكثرت الآبار ، واختلفت بين العذوبة والملوحة ، وبين الصفاء وغيره ، كما اختلفت أماكنها .

والآبار المطوية حول جدة تبلغ سبع آبار هى : « بئر السلسلى » شرق جنوبى جدة ، و « بئر الوزيرية » فى الشرق وهى من وادى غليل و « بئر مريخ » ، وهو مقابل للكندرة و « بئر تنضب » وهو مقابل بنى مالك و « بئر الحفنة » شمالى بنى مالك و « بئر بريمان » شمال شرق بئر مالك . أما الآبار المحفورة فتبلغ خمس عشرة بئراً وهى : السرورية ، الحزة ، الدشارية ، والقرينية ، تمد « سليمان » عند البحر شرق جنوبى بريدة فى طريق أبى صالحة ، أبو سباع شرق جنوبى برود ، القرينة ، مويحة ، أبو صالحة ، الصحيفة ، الشرقية ، الصفارى ، العسيلة : والحديث من هذه الآبار المحفورة هى : الصحيفة ، والشرقية ، وقد حفر الأولى منها المرحوم الشيخ عبد الله نصيف من أعيان جدة وتجارها ، وحفر الثانية وأقام حواجزها من العقوم المرحوم حميد الشيخ المالكى . وكان هذا فى خلال القرن الثالث عشر الهجرى ، وإلى جانب الصحيفة صهاريج كثيرة لآل نصيف ، وكل هذه الأماكن معروفة حتى الآن .

وقد بلغ عدد الصهاريج ما يزيد على ثلثمائة صهريج لا كما قدره صاحب « مرآة الحرمين » بثمانمائة صهريج . وقد عمد أهل جدة مستعينين بالجالية الفارسية إلى بناء الصهاريج الكبيرة نظراً لقلة الماء ، ويروى بعضهم أن أول بناء الصهاريج بها كان فى عهد هارون الرشيد .

وقد أجرى السلطان الغورى لجدة عيناً من وادى قوس شمالى الرغامة ووصل ماء هذه العين إلى جدة فى أيام ثم انقطعت ، وأعيد تعميرها على يد تجار جدة بزعامة التاجر المعروف الشيخ فرج يسر حوالى عام ١٢٧٠ هـ وظلت جارية حتى انقطعت وغاض معينها مابين عام ١٣١٠ و ١٣٢٠ هـ ومن عيون جدة عين الوزيرية ، وهى مسحوبة من وادى غليل المعروف ، ولكنها لم تصل إلى البلد إلا فى عهد الوالى عثمان باشا نورى فظلت جارية إلى عام ١٣١٤ هـ ثم ضعفت وقل ماؤها .

ولقد تكررت فيها الإصلاحات ، وتوالى عليها التعمير ، فى عهد الحكومات السابقة ، وفى هذا العهد أيضاً لا زالت ضعيفة لنضوب ينابيعها .

ولقد لجأت الحكومة العثمانية حينما رأت قلة الماء فى جدة ، إلى استيراد آلة لتقطير المياه من البحر « كنداسة » فوصلت إليها فى عام ١٣٢٥ هـ . ولقد كانت هذه الكنداسة المورد الوحيد تقريباً لسقيا أهل جدة أيام حصار الجيوش السعودية لجدة سنة ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ هـ إذ أن الآبار التى حول جدة لم يكن يجرؤ على الذهاب إليها أحد للحصار المضروب على البلدة ، فكانت الحاجة إليها شديدة جداً ، وقد استوردت الحكومة الحالية آلتين كبيرتين لاستخلاص المياه العذبة فى عام ١٣٣٦ وقد كانت سقيا البلدة فى الأعوام الأخيرة من هاتين الآلتين ومن ماء الوزيرية الذى كان يكثر أحياناً ويقل أحيانا حتى خربت إحدى الآلتين .

وفى أوائل عام ١٠٦٥ هـ حينما رأى أهل جدة ماحل بمدينتهم من الظمأ ، فكروا فى استجلاب المياه من إحدى العيون إلى جدة على نفقتهم الخاصة ، وأقاموا لذلك حفلا عظيما سارع الناس إلى الاكتتاب فيه . وقد بلغ المبلغ الذى جمع ما يزيد عن نصف مليون من الريالات

ثم إن جلالة الملك عبد العزيز أمر بجلب الماء إلى جدة مهما كلف من مال فى أقصر زمن فأعيد للناس ما دفعوه من تبرعات .

وجرت المفاوضة مع أصحاب العيون فى وادى فاطمة واشتريت منهم وجبات فى ثمانية من العيون ، هى الخيف — الروضة — البرقة — أبو عروة — الحسينية — الجموم — أبو شعيب — الهنية .

وبدأ العمل فى ذلك فى منتصف عام ١٣٦٥ هـ وأحضر المهندسون والخبراء من انجلترا ومصر ، وجلبت الأنابيب من انجلترا وهى من الأسبستوس والأسمنت حتى وصل الماء إلى جدة يوم الجمعة غرة المحرم عام ١٣٦٧ هـ . وكان يوم فرحة كبرى وسرور عام فى مدينة جدة بأسرها . وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر محرم عام ١٣٦٧ هـ جرى احتفال كبير بوصول الماء إلى جدة .

وبجدة قبر ينسب إلى حواء أم البشر ، وقد كان الحجاج يزورون هذا القبر ويتبركون به . وقد هدمت الحكومة القبة الموضوعة على القبر كما أزالت البنيان الذى على القبر . ومنعت الناس من التمسح به ، ولقد زار ابن جبير الأندلسى جدة فى حدته (سنة ٥٧٩ هـ) فذكر بعض آثار جدة ، ومنها الموضع الذى شيد عليه (قبة عتيقة) يقال إنه كان منزل حواء أم البشر عند توجهها إلى مكة .

وقد كانت جدة مدينة مسورة أقام سورها السلطان الغورى فى القرن العاشر الهجرى . ولكن هذا السور قد هدم منذ بضع سنوات لاستبحار العمران . ويدعى الباب المواجه للجنوب باليمنى ، والباب الذى يواجه مكة المقدسة (باب مكة) والذى يواجه الشمال (باب المدينة) ويحيط بجدة قرى صغيرة فى الشمال والجنوب أكثرها مؤلف من بيوت صغيرة وأكواخ يسكنها البدو والجمالون وكثير من الزنوج وقد تلاشى أكثرها لتحل محلها العمارات و (الفيلات) الجميلة .

وقد استفاض العمران بمدينة جدة حتى وصل إلى الكيلو (١٤) فى طريق مكة قريباً من «أم السلم» ، ومن ناحية طريق المدينة إلى ما بعد «الرويس» .

وبجدة ميناءان بحرى وآخر جوى . وهما يستقبلان عشرات الألوف من الحجاج جواً وبحراً كل عام . ورصيف الميناء البحرى الحديث يقع على بعد ميل واحد من دائرة الجمرك (الكرنتينة) القديمة وهو يمتد إلى ٣٢ قدما من الماء فى المد المنخفض عند رأس الرصيف و ١٠٠ قدم بـ ٥٦٠ قدماً ، ويمكن رسو باخرتين على جانبيه . وطول الطريق المردوم ٥٥٠٠ قدم ، والمساند الحديدية

على جوانب الرصيف طولها ٢٢٤٣ قدما ، وعرض الطريق ٢٤ قدما ، وفى الرصيف مكاتب حديثة للجمارك وفى الجهة الشمالية توجد المستودعات ، وفى الجهة الجنوبية أماكن خاصة بالحجاج . كما توجد أيضاً مكاتب لموظفى خفر السواحل والجوازات . ويوجد فى وسط بناء الجمرك منارة لتسهيل دخول الميناء .

وقد أنشىء محجر صحى جديد بجدة . وفى يوم الثلاثاء ٢١ من شعبان ١٣٧٥ هـ الموافق ١٣ / ٤ / ١٩٥٦ م جرى افتتاحه ، ويعتبر من أعظم المحاجر الصحية فى الشرق الأوسط ، وتحتوى مدينة الحجر على ١٥٠ مبنى وشيدت على مساحة ٢٢٨٠٠ متر مسطح .

وتعتبر جدة خلية حية للنشاط التجارى تقوم فيها المراكز الرئيسية للبنوك والمؤسسات المالية والأجنبية والأهلية ، وتتفرع فروعها فى المدن الأخرى .

هذه هى جدة التى تنمو نمواً كبيراً مطرداً ، حتى ليقدر عدد سكانها اليوم بأكثر من « ١٢٠ » ألف نسمة ، على حين قدر بعض المؤرخين هذا العدد منذ عشر سنوات بحوالى ثلاثين ألفا .

الطائف :

هى مصيف الحجاز ، تقع على ارتفاع ٥١٠٠ قدم فوق سطح البحر . وهى مدينة واقعة فى سهل رملى محاط بتلال منخفضة ، وتبعد عن مكة نحو الجنوب الشرقى بمقدار ٧٥ ميلا ، وجوها معتدل . وقد قلت فيها المياه إلا أنها منذ بضع سنوات أصبحت شحيحة ، والأمطار تسقط فيها فى الخريف ، وأغلب سكانها من ثقيف وعتيبة ، ويعملون فى زراعة البساتين والخضر ، وتمتاز الطائف بفواكهها من العنب والرمان والخوخ والليمون والمشمش والسفرجل ، وتنو فيها أزهار الورد .

والطائف قديمة النشأة ، وتشبه مدن الشام فى الجو . وكان من سادتها فى عصر النبوة أبناء عمرو بن عمير بن عوف الثقفى : عبد ياليل ومسعود وحبيب . ومن شعرائها : أمية بن أبى الصلت ، وأبوه أبو الصلت . ومن ساداتها كذلك عروة ابن مسعود الثقفى .

وفى الطائف مسجد ابن عباس ويقوم حيث كان يقوم جيش المسلمين الذين حاصروا الطائف فى عهد الرسول صلوات الله عليه ، ويجاور قبور الصحابة الذين استشهدوا فى هذا الحصار إذ تقع القبور فى مكان مسور بجوار المسجد من ناحية الشمال . وقد دفن ابن عباس بمسجده ، وتوفى عام ٦٨ هـ . ومن ضواحى الطائف الحديثة : قروة ، وشبرا ، ونجمة . وبجوار المدينة تقع بادية الطائف المترامية الأطراف وبالقرب من المدينة وادى وج الذى يمر بقرية المثناة منحدر إلى ناحية الطائف . ومن الوديان حولها وادى السداد ، وفى القرب منها سد السملحى ، وهذا السد أضخم سدود الطائف .

وتشتهر الطائف بفاكهتها وبصنع البسط والسجاجيد ، والمعاطف التى تشبه البطانيات وتسمى (البيدى) . واتساع العمران وزيادة السكان ملحوظ فى الطائف مما أدى إلى قلة مياه الشرب ولذلك أقيمت السدود حولها ، ومنها سد عكرمة على وادى وج . وتقع الطائف على ظهر جبل غزوان . وهى من المدن الجاهلية القديمة ، ويقال إنها كانت تعرف قديماً بوج ، وقد عثر فيها على كتابات ثمودية وتحيط بالطائف أودية كثيرة تسيل فيها الأمطار فى موسم السحب ، وحولها عيون ومياه وبها آبار كثيرة . وكان أكثر سكانها عند ظهور الإسلام من ثقيف ، وكان لهم بها صنم كبير يسمى اللات . وهذه هى المسافات بين الطائف وجدة .

المسافة بالكيلومتر	المحطات: من	المحطات: إلى	ملاحظات
	جدة		الميناء
٦١	جدة	عسفان	قرية
٢٥	عسفان	البرزة	ماء
٥٦	البرزة	المدركة	واد
١٤٧	المدركة	عشيرة	مقاه
٦٥	عشيرة	الطائف	بلد

ينبع :

الميناء الثاني للحجاز بعد جدة ، وسكانها اليوم نحو عشرة آلاف نسمة، وتعد ميناء المدينة ، وبينها وبين المدينة ١٣١ ميلا، وحوالها وادي ينبع ، وإلى الشمال منها قرية أملج، وبين ينبع وميناء الوجه ١٨٦ ميلا .

وهذه هي المسافات بين جدة — ينبع — المدينة :

جـدة — ينبع — المدينة

المسافة بالكيلومتر	المحطات: من	المحطات: إلى	ملاحظات
	جـدة		ميناء
١٩٦	جدة	مفرق ينبع	
١٠٩	المفرق	عرعر	ماء
٢٣	عرعر	ينبع البحر	ميناء
٣٢٨	المجموع		
٧٣	ينبع	بئر سعيد	ماء
١٨	بئر سعيد	نقب الفار	«
٦	نقب الفار	بئر أبو عبيد	«
٢	بئر أبو عبيد	الحمراء	قرية
١٠	الحمراء	عين المسلخ	ماء
٩	عين المسلخ	الخيف	قرية
١٤	الخيف	بئر المستعملة	ماء
٣	بئر المستعملة	بئر عباس	«
٦	بئر عباس	المسيجيد	قرية
٧٢	المسيجيد	المدينة	بلد
٥٤١			

الوجه :

من موانى الحجاز على البحر الأحمر ، وتقع على هضبة مرتفعة تواجه البحر وتطل عليه ، وميناؤها عميق الغور يتسع للبواخر التى تبلغ حمولتها ١٥٠٠ طن ، وتفرغ حمولة الباخرة بوساطة السفن الشراعية (السنابيك) التى تنقل حمولة الباخرة إلى الشاطىء ، وفى الوجه صرح له تاريخ حافل ، وكان قد اتخذه « تى . أى . لورنس » مركز قيادته فى أثناء الثورة العربية التحريرية فى الحرب العالمية الأولى ، وينقل الماء إلى الوجه من آبار تبعد نحو ميل عن الداخل ، وعلى بعد نحو تسعة أميال إلى الشرق توجد أم قريات القديمة التى عمل فيها الملك داود كما تدل على ذلك الآثار . وتفكر النقابة العربية السعودية فى إمكان فتح المناجم القديمة فى هذه الجهات . إلا أن البحث أثبت عدم فائدة ذلك الاستغلال . والوجه صالح لاستعماله قاعدة جوية ، وقد مهدت أرضها لنزول الطائرات فيها . وفى شرق الوجه بعدة أميال قلعة مصرية قديمة أقيمت فى طريق الحج . وهى على نمط أبنية القرون الوسطى ، وكانت معدة لإقامة الجنود فيها لحماية الحجاج من قطاع الطريق .

الجوف :

هى المدينة الرئيسية وسط منطقة زراعية كبيرة واقعة إلى شمال النفود على رأس وادى السرحان ، والواحة واقعة فى منخفض يقع نحو ٥٠٠ قدم تحت سطح الصحراء المحيطة بها ، وتوجد واحات صغيرة أخرى تابعة لواحة الجوف . واقعة إلى الشمال الشرقى منها فهى : سكاكة ، وقارة ، والطوير ، وجاوة .

وسكاكة هى الأكبر . ومزارع النخيل فيها تكثر جداً حتى إنها تفوق تلك التى فى جوف نفسها .

ويبلغ طول واحة الجوف نحو ٣ أميال فى نصف ميل عرضاً ، وهى تمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، وكلها حدائق وبساتين وبينها نحو ١٢ قرية ، وبها نحو ٤٠٠ منزل .

وموقع الجوف الجغرافى مهم جداً لأنه يقع على الطريق المباشر بين سوريا ووسط بلاد العرب ، وهى منفصلة ، إذ تقع فى المنتصف ما بين الفرات وطريق

الحجاز الحديدى ، وبين جبل شمر وجبل الدروز ، وعلى بعد نحو ٣٠٠ ميل من كل من هذه المواقع وهى الواحة الوحيدة ما بين العقبة وبغداد (١) . وأهم غلات الجوف القمح والشعير والتمر وهو من أجود الأنواع والفواكه كالبطيخ والعنب . وفى منطقة الجوف تكثر النعام والغزلان والحمر الوحشية (٢) . وكانت مدينة الجوف تسمى قديماً دومة الجندل .

وروى ابن سعد نقلا عن بعض أهل الحيرة فى سبب بنائها وتسميتها : « أن أكيدر صاحبها وإخوته كانوا ينزلون دومة الحيرة وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم . فإنهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا بعض حيطانها ، وكانت مبنية بالجندل ، فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره ، وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة »(٣) .

وكانت قبائل العرب فى الجاهلية تنزل هذه السوق فى أول يوم من ربيع الأول للبيع والشراء ، على ما سنذكره فى حينة (٤) .

---

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٧٦ .
(٢) جغرافية البلاد العربية (اصلاح البكرى) ص ٧٠
(٣) أسواق العرب ص ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٤) المرجع السابق ص ١٩٩ .

وهذه هى المسافات بين الجوف والعلا وغيرها :

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	إلى	الملاحظات
	العلا		بلد
٣٠	العلا	مدائن صالح	«
١٨	مدائن صالح	مزحم الناقة	جبال
٤٠	مزحم الناقة	المتالع	جبل
٢٣	المتالع	الدار الحمراء	بركة
٣	الدار الحمراء	خشم الصفا	ضلع
١٣٣	خشم الصفا	القليبية	ماء
٨٣	القليبية	فجر	واد
١٠٠	فجر	العوينات	شعبان
٩	العوينات	نفجه	ماء
١٥	نفجه	الريلان	ريع
١٢٠	الريلان	أويسط	ماء
٢٨	أويسط	العيسوية	حزم ماء
١٢١	العيسوية	الجوف	بلد
٧٢٣	المجموع		

سكاكه — الجوف — تيما

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	سكاكه		بلد
٤٨	سكاكه	الجوف	»
٣٩	الجوف	الجزل	واد
٤٤	الجزل	أبو حمص	»
٨	أبو حمص	المفرقيات	شعب
٤٤	المفرقيات	العقراوى	»
٩	العقراوى	سريان	»
١٣	سريان	الزربيات	»
٨٩	الزربيات	ترياد	ريع
٩٧	ترياد	مغيريات	شعب
٢٩٠	مغيريات	تيما	بلد
٦٨١	المجموع		

وهذه كذلك المسافات بين قريات الملح والعلا وبينها وبين العقبة :

قريات الملح — العلا

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	البنك		بلد
١٠٠	البنك	العيسوية	ماء
٢٠٠	العيسوية	مغيره	»
١٨٠	مغيره	مخفر حاج	»
٨٠	مخفر حاج	تبوك	بلد
٣٥٠	تبوك	العلا	»
٣١٠	المجموع		

(قريات الملح) — العقبة (الحدود الغربية)

المسافة بالكيلومتر	المحطات من	المحطات إلى	ملاحظات
	النبك		بلد
١٠٠	النبك	العيساوية	ماء
٢٠٠	العيساوية	مغيره	«
١٨٠	مغيره	مخفر حاج	«
١٦٥	مخفر حاج	علقان	«
٥٥	علقان	حقل	قرية
٣٠	حقل	العقبة	ميناء
٧٣٠	المجموع		

تبوك : تقع تبوك على خط السكة الحديد الحجازية . قال ياقوت : تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر . وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيها غزوة تبوك المشهورة سنة تسع للهجرة ، وسميت تبوك لأن النبي ﷺ وجد اثنين من رجاله يدخلان أسهمهما في نبع شحيح ليفرز الماء ، فقال لهما : ما زلتما تبوكان منذ اليوم ، فسميت تبوك . والبوك إدخال اليد في الشيء وتحريكه.

وقال القرماني : « تبوك عين ماء ونخيل ، وبنى بها السلطان سليمان العثماني برجا ، وأسكن فيها عشرين نفراً من الانكشارية لحفظ العين » .

وتشمل تبوك بوصفها إمارة في العهد الحاضر ، القبائل المقيمة في أطرافها ؛ كالحويطات وبني عطية ، وسكانها اليوم أكثر من ألف نسمة .

العقبة : تقع على الشاطىء الشرقي من خليج العقبة ، قريبا من رأس الخليج ، وبها قلعة قديمة على شكل مربع ، وبها بساتين ومزارع نخيل .

وفي الحرب الحجازية الأخيرة ضمت العقبة ومعان إلى شرق الأردن .

وتعرف العقبة قديما باسم أيلة ولها تاريخ قديم ، وأشار إليها القرآن الكريم بقوله « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر » ، وللأسف توجد القوات البريطانية فيها مهددة سلامة البلاد العربية .

السلالات البشرية فى الحجاز

فى القديم والحديث

الشعب العربى

أقسامه :

العرب من الشعوب السامية ، التى انحدرت فى الأصل من سام بن نوح ، وهذه الشعوب وتشمل : الأحباش والفينيقيين والبابليين ، وقد جرت عادة المؤرخين من العرب على تقسيم الشعب العربى إلى : بائدة وباقيه ، والباقية — إلى عاربة وهم القحطانيون ومستعربة أو متعربة وهم الاسماعيليون أو العدنانيون . وعلى ذلك فهم ثلاث طبقات: بائدة وعاربة ومستعربة ، وبعضهم يسمى البائدة عاربة أو عرباء ، والقحطانيين متعربة ، والاسماعيلية مستعربة .

١ — العرب البائدة : فهم الذين انقرضت قبائلهم ، وضاعت أخبارهم إلا مانصته الكتب السماوية أو حفظته الآثار ، ومنهم عاد التى كانت تسكن الأحقاف كما سبق وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية ، وثمود التى كانت تنزل الحجر « مدائن صالح » شمالى خيبر ، وقد أهلكوا بالطاغية الصاعقة أو الرجفة ، وطسم وجديس باليمامة ، والعمالقة بالحجاز وتهامة ونجد والشام ومصر . ويضرب بطول قامتهم المثل ، ويرى بعض المحدثين من المؤرخين : أن الدولة الحورابية من العرب البائدة .

٢ — القحطانيون : وأما العرب المتعربة فنهم أبناء يعرب بن قحطان الذين سكنوا اليمن بعد المعينيين ، ويعرب هذا هو الذى يزعمون أنه أول من نطق بالعربية ، لأن لسان أبيه كان سريانيا ، أى أنه أول الناطقين بها من هذا الجيل إذ سبقه بها العرب البائدة وعنهم أخذها . وكما يسمى هؤلاء القحطانيين : يسمون اليمنيين ، والحميريين ، والسبئيين .

٣ — العدنانيون : وأما العرب المستعربة ، ويسمون العدنانيين والنزاريين والحجازيين والاسماعيليين ، فينتهى نسبهم إلى اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، أنزله أبوه بمكان الكعبة طفلا « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى ذرع عند بيتك المحرم — الآية » وتركه وأمه هاجر « المصريه » هناك وقد ماتت أمه بعد أن شب . ونزل بالقرب منهم جماعة من جرهم الثانية ، نشأ بينهم اسماعيل وتعلم لغتهم وأصهر إليهم ، ورزق أولاداً كثيرين ، طردوا الجرهميين فيما بعد . ولذلك ولبعد الشقة بين منازل الاسماعيليين والقحطانيين ، اختلفت اللغتان : لغة الحجاز ولغة اليمن ، حتى جدت عوامل الاختلاط فتقاربتا ، ثم توحدتا فى لغة القرآن الكريم .

ويبدأ تاريخ الحجازيين فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وهم وإن انتهى نسبهم إلى اسماعيل عليه السلام ، إلا أن عمود نسبهم الصحيح ينتهى إلى عدنان ، فأما ماوراءه من الآباء فقد اختلف فيه النسابون اختلافا كبيرا فيعدون من خمسة عشر إلى أربعين أبا ، وبين اسماعيل وسام آباء كثيرون لا يعلمهم إلا الله .

أشهر القبائل القحطانية والعدنانية :

اضطرب الكلام فى قبائل العرب وأنسابهم اضطرابا كبيرا ، دعا كثيرا من الباحثين إلى الارتياب فى صحة هذه الأنساب ، لكن العرب المتأخرين قد تلقوا مانوقل منها بالقبول ، واعتمدوا عليه فى مفاخراتهم ومنافراتهم ، وتمادحهم وتهاجيهم ، واستغل الخلفاء فيما بعد هذه العصبيات فى توطيد ملكهم وتوهين خصومهم ، فلم يبق لنا بد من تعرفها ، حتى نستطيع أن نفهم أسس تلك المفاخرات والأشعار ومنشأ حروبهم وتحزبهم .

والعرب بطبقاتهم الثلاث — يرجعهم النسابون إلى سام بن نوح ، وهذه سلسلة نسبهم ، وهى تبين لك أشهر قبائل كل طبقة من طبقاتهم :

أشهر الشعوب القحطانية : كهلان وحمير :

١ — وقد تفرع من كهلان قبائل : كندة باليمن ونجد ، وعاملة شمال الشام ومذحج باليمن ، ومراد ، وهمدان بها أيضا - وجذام على خليج العقبة وهم أول

من نزل مصر من العرب لقربهم منها ، ولخم « ومنهم المناذرة ملوك الحيرة » ، وطيء بأجأ وسلمى ، والأزد ، ومنها : الأوس والخزرج سكان المدينة ، وغسان ملوك الشام.

٢ — وأما حمير : فقد نسل قضاعة ، وذهب بعض النسابين إلى أن قضاعة عدنانية . والمشهور من قبائل قضاعة : بلى شمالى الحجاز ، وجهينة كذلك ، ومن قراهم ينبع ، ولهم بقايا بالصعيد ، وكلب ببادية الشام ، وعذرة بأعالى الحجاز ، وإليهم ينسب الهوى العذرى . وتنوخ قرب المعرة .

(د) وأما العرب الإسماعيلية : فأشهر شعوبهم ربيعة ومضر .

ومن نسل ربيعة : وائل وبكر وتغلب .

وأما مضر ، فيقال لها مضر الحمراء ، وفيها يقول الشاعر :

إذا مضر الحمراء كانت أرومتى　　وقام بنصرى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت　　يداى الثريا قاعدا غير قائم

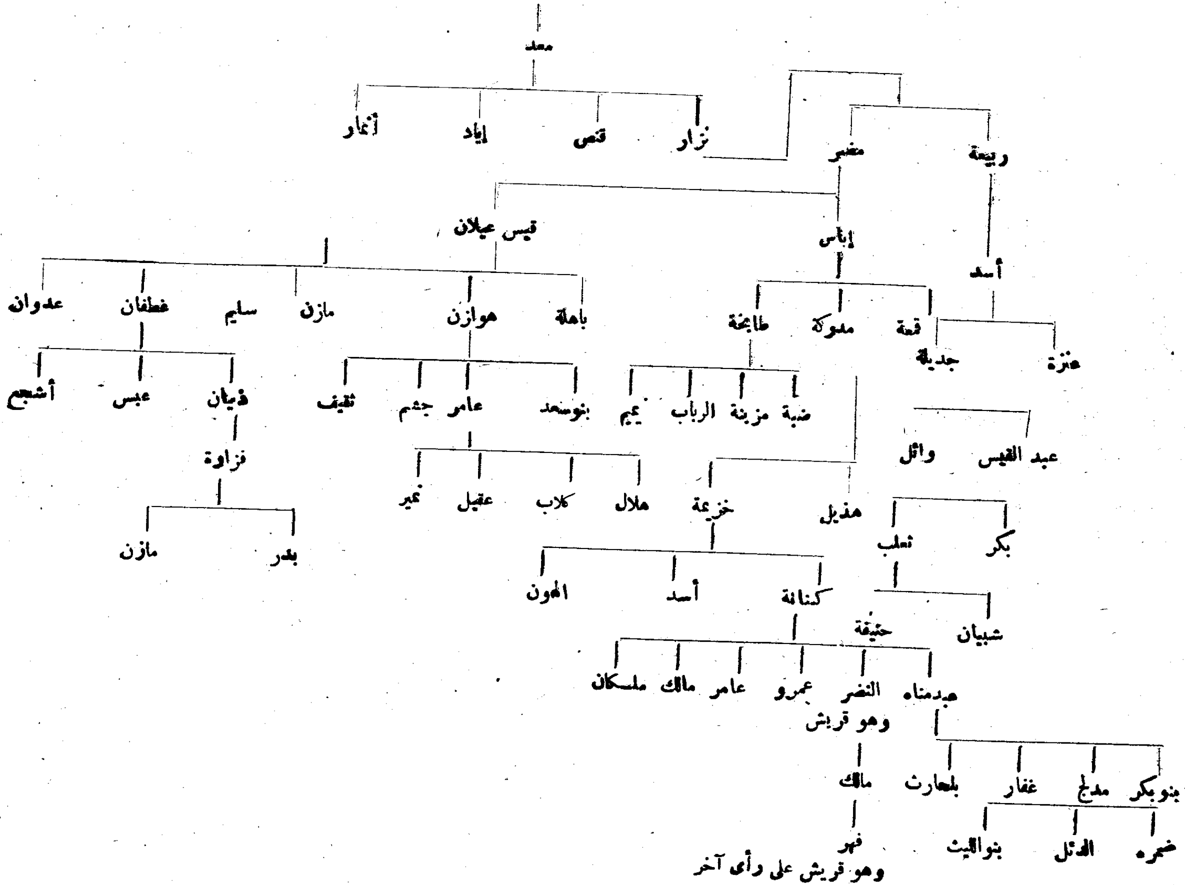
وأشهر أبنائه : إلياس وقيس عيلان ، وأشهر قبائل قيس :

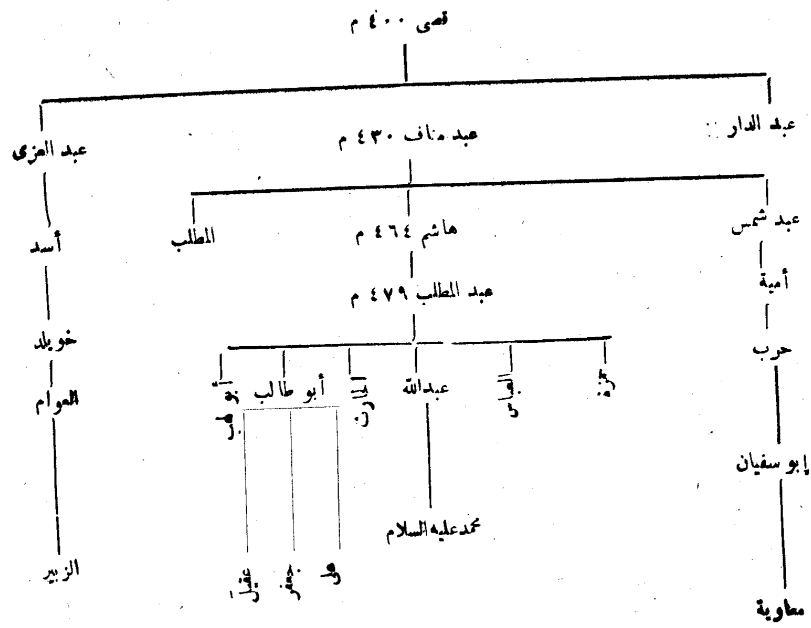
عدوان بالطائف ، وغطفان ، ومن غطفان : عبس وذبيان .

وتقطن قبيلة غطفان شرق المدينة وشمالها ، بحيث تتصل بلادها شرقا بالقصيم من نجد ، وشمالا فى حرار خيبر وأوديتها ، ويجاورها جنوبا بنو سليم الذين تقع بلادهم بقرب المدينة ، ممتدة على أطراف جبال الحجاز ، وحراره الشرقية من شرق المدينة نحو الجنوب ، حتى تتصل ببلاد بنى عامر من قيس عيلان . وهوازن بالحجاز ، ومن هوازن : ثقيف بالطائف، ومن قيس : باهلة باليمامة ، ومن مضر أيضاً : طابخة ، ومن نسل طابخة : ضبة وتميم .

العرب القحطانية

- أرفخشد
  - جرهم الأولى
  - عاد بالأحقاف
  - ثمود بالحجر
  - جديس باليمامة
  - طسم باليمامة
  - العمالقة بالشام ومصر والحجاز
- شالح
- عابر
- قحطان
  - جرهم الثانية
- يعرب
- يشجب
- سبأ حمير قضاعة فى شمالى الحجاز وقيل إنها عدنانية
  - بلى شمال الحجاز
  - تنوخ قرب الحيرة
  - جهينة شمال الحجاز
  - عذرة ويلحق بهم الشعراء العذريون
  - كلب ببادية الشام
- كهلان
  - طىء بأجا وسلمى
  - جذام على خليج العقبة
  - لخم ومنها المناذرة وملوك الحيرة
  - همدان باليمن
  - مراد باليمن
  - مذحج باليمن
  - عاملة شمال كندة
  - كندة باليمن
  - الأزد
    - الأوس بالمدينة
    - الخزرج بالمدينة
    - غسان (ملوك الشام)


العرب العدنانية
عدنان
معد
نزار
قنص
إياد
أنمار
ربيعة
مضر
أسد
عنزة
جديلة
عبد القيس
وائل
بكر
تغلب
شيبان
إلياس
قيس عيلان
قمعة
مدركة
طابخة
ضبة
مزينة
الرباب
تميم
هذيل
خزيمة
كنانة
أسد
الهون
عبد مناة
النضر
وهو قريش
عمرو
عامر
مالك
ملكان
بنو بكر
مدلج
غفار
بلحارث
ضمرة
الدئل
بنو الليث
مالك
فهر
وهو قريش على رأى آخر
باهلة
هوازن
مازن
سليم
غطفان
عدوان
بنو سعد
عامر
جشم
ثقيف
هلال
كلاب
عقيل
نمير
ذبيان
عبس
أشجع
فزارة
بدر
مازن


قصى ٤٠٠ م
عبد الدار
عبد مناف ٤٣٠ م
عبد العزى
عبد شمس
هاشم ٤٦٤ م
المطلب
أسد
أمية
عبد المطلب ٤٧٩ م
خويلد
حرب
حمزة
العباس
عبدالله
الحارث
أبو طالب
أبو لهب
العوام
إبو سفيان
محمدعليه السلام
علي
جعفر
عقيل
الزبير
معاوية

السلالات الحجازية القديمة فى مكة

يقال إن العمالقة كانوا أول من سكن مكة ، ثم خلفتهم قبيلة جرهم الثانية ، وفى عهدهم نزل إسماعيل وأمه بوادى مكة ، وصاهرهم إسماعيل ، ولما مات ، تولى البيت نابت أكبر أولاده ، ثم تولى ولاة من جرهم استمرت ولايتهم إلى سنة ٢٠٧ م . كما ذكر سديو . ولبثت ولاية البيت فى جرهم حتى عظمت شوكتهم ، وقوى نفوذهم ، وعاثوا فسادا فى الحجاز ، واستحلوا أموال الكعبة ، واضطهدوا حجاج بيت الله . ثم قدمت خزاعة من اليمن بعد سيل العرم ، وتفرق سبأ على أثره ، فأجلت جرهما ، وانتزعت منها السيادة ، إذ عرج على مكة بنو حارثة بن عمرو المقلب خزاعة ، فاستعان بنو حارثة بكنانة فغلبهم بنو حارثة ، وكان رئيسهم يومئذ عمرو بن لحى ، واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلثمائة سنة ، وهم الذين أدخلوا عبادة الأصنام والأوثان إلى مكة .

ولما قويت قريش وكثر نسلهم ، نازعوا خزاعة السلطان ، وتغلبوا عليها فى القرن الخامس الميلادى ، واستولى قصى بن كلاب على مكة — والبيت الحرام سنة ٤٤٠ م .

وأخذ مفاتيح الكعبة من يد خزاعة ، وأجلاهم عن مكة ، وبذلك انتقلت السيادة إلى قريش ، وتوارث القرشيون حكم مكة بما كان لهم من العصبية والشرف والمجد . ومن ذلك ترى مدى امتزاج السلالات العربية ، التى حكمت مكة منذ القديم إلى أن انتهى الأمر إلى قريش سلالة إبراهيم واسماعيل ، وأصل النسب النبوى الشريف [1] .

---

(١) راجع كتاب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسى المتوفى عام ٨٣٢ هـ » ، تحقيق خفاجى وعبد الجبار والفلالى نشر مكتبة النهضة الحديثة بمكة لصاحبها عبد الشكور وعبد الحفيظ فدا .

السلالات العربية القديمة فى المدينة

أما المدينة ، فيقال : إن أول من نزلها هم العمالقة [١] ، ثم هاجرت إليها سلالات من اليهود من فلسطين . بعد هجوم الدولة الرومانية على بلاد فلسطين فى القرن الأول قبل الميلاد . ثم بعد حرب اليهود والرومان عام ٧٠م ؛ هذه الحرب التى انتهت بخراب فلسطين وبتشتيت اليهود فى أصقاع العالم ، وقد تكاثر عدد اليهود والنازحين منهم إلى المدينة ، وظهر منهم عدة قبائل ، أشهرها : قريظة والنضير . ثم نزل المدينة بعد ذلك ، إثر سيل العرم ؛ الأوس والخزرج ، واستوطنوها ، وأقاموا مع اليهود ، وعاشوا فى ضنك وإذلال من اليهود ، وكان على اليهود رئيس مستبد ، استبد بالنازحين ، فاستجاروا بالتبابعة فى رواية ، وبالغساسنة فى رواية أخرى فجاءوا لنصرتهم . فكانت بين الفريقين حرب انتهت بقتل زعماء اليهود وأشرافهم ، وأصبح الأوس والخزرج بعد ذلك أعز أهل المدينة ، وتحالفوا مع اليهود ، ثم دب الخلاف بين الأوس والخزرج ، وتنازعوا الشرف والسيادة . وقامت بينهم حروب وأيام طاحنة ، من أشهرها : يوم بعاث ، ويوم سمير ، ويوم حاطب ، ويوم السرارة مما سنذكره تفصيلا فى الفصول التالية .

وهكذا نجد كذلك سلالات عديدة تمتزج وتكون شعب المدينة الحجازى [٢] .

---

(١) يقول أبو الفرج الأصفهانى فى الجزء ١١ من الأغانى : كان ساكنو المدينة فى أول الدهر قبل بنى إسرائيل قوما من الأمم السالفة يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد ، وكان ملك الحجاز منهم ويقال له الأرقم ، ينزل بين تيماء وفدك . وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم نخل كثير وزرع ، ثم بعث موسى إلى العماليق جيشا من بنى إسرائيل فقدم الجيش الحجاز فأظهرهم الله على العماليق ، واستقر جماعة من الجيش بالمدينة ، فكان ذلك أول سكنى اليهود بالمدينة .

(٢) راجع كتاب الدرة الثمينة بأخبار المدينة لابن النجار — طبع القاهرة .

عرب الطائف فى العصر الجاهلى

الطائف من مدن الحجاز وحواضره ، وتمتاز بجوها البديع ، وحدائقها وفاكهتها كما سبق ، وقد أقام بها العرب فى العصر الجاهلى ، وكان أهلها من عدوان الذين منهم عامر بن الظرب العدوانى ، حكم العرب فى العصر الجاهلى ، وكان عددهم يقارب السبعين ألفا ، ولكن الخصومات بينهم أدت إلى حروب شديدة ، مات فيها الكثير ، وكان قسى بن منبه — وهو ثقيف — صهراً لعامر بن الظرب ، فلما ضعف أمر عدوان تغلب عليهم ثقيف ، وهم فرع من هوازن (١) . وقد روى البكرى عن هشام الكلبى فى سبب تسمية ثقيف بهذا الاسم ، وما كان من نزول منبه بن بكر بن هوازن ، وهو ثقيف بالطائف ، رواية طويلة لا داعى لذكرها فى هذه العجالة (٢) . وكان ممن نزل بنواحى الطائف : عامر بن صعصعة ، حيث نزلوا بجوار أصهارهم عدوان بن عمرو ابن قيس ، ثم لما تفرقت عدوان ، وحارب بعضهم بعضا ، طمعت فيهم بنو عامر وأخرجتهم من الطائف . غير أن ثقيفا أخذتها من عامر لتزرعها ، على أن يكون لها النصف بعملها فيها ، وللعامريين النصف بحقهم فى البلاد .

ولبثوا على ذلك زمانا حتى كثرت ثقيف ، وحصنوا الطائف ، وبنوا عليها حائطا يطيف بها ، فسميت الطائف (٣) .

المضريون فى الحجاز

القبائل المضرية فى الحجاز فى العصر الجاهلى :

لم تزل مضر بن نزار ، بعد خروج ربيعة من تهامة ، مقيمة فى منازلها من تهامة وما والاها ، حتى تباينت قبائلهم ، وكثر عددهم وفصائلهم ، وضاقت

---

(١) ٢/٢٣٨ ابن خلدون - ٢٣٧ العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان ط ١٩٣٩

(٢) راجع ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٧ ج ١ البكرى ، وص ١٤ - ١/١٦ تاريخ الاسلام للدكتور حسن إبراهيم .

(٣) راجع ٧٧ و ١/٧٨ معجم ما استعجم للبكرى ، ١/١٦ تاريخ الإسلام .

بلادهم عنهم ، فطلبوا المتسع والمعاش ، وتتبعوا الكلأ والمرعى والماء ، وتنافسوا فى المحال والمنازل ، وبغى بعضهم على بعض ، فاقتتلوا ، فظهرت خندف على قيس ، وظعنت قيس من تهامة طالعين إلى بلاد نجد ، إلا قبائل منهم . فانحازت إلى أطراف الغور من تهامة .

فنزلت هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس ما بين غور تهامة ، إلى ما والى بيشة ، وترجاً ، وناحية السراة ، والطائف ، وذا المجاز ، وحنين ، وأوطاسا وما صاقبها من البلاد . وهوازن من القبائل العربية الكبيرة ، وكانت مساكنها ، كما ذكرنا فى مواضع متعددة ، من نجد — على حدود اليمن — وفى الحجاز . ثم تنافس أولاد مدركة وطابخة بنى إلياس ابن مضر فى المنازل ، وتضايقوا فيها ، ووقعت بينهم حرب ، فظهرت مدركة على طابخة ، فظعنت طابخة من تهامة ، وخرجوا إلى ظواهر نجد والحجاز . وانحازت مزينة بن أد بن طابخة ، إلى جبال رضوى ، وقدس ، وآرة وما والاها ، وصاقبها من أرض الحجاز .

وأقامت قبائل مدركة بناحية عرفات ، وعرنة ، وبطن نعمان ، ورجيل ، وكبكب ، والبوباة ، وجيرانهم فيها طوائف من أعجاز هوازن .

وكانت لهذيل جبال من جبال السراة . ولهم صدور أوديتها وشعابها الغربية . ومسايل تلك الشعاب والأودية على قبائل خزيمة بن مدركة فى منازلها ، وجيران هذيل فى جبالهم : فهم ، وعدوان ، ابنا عمرو بن قيس عيلان .

ونزلت خزيمة بن مدركة أسفل من هذيل بن مدركة . واستطالوا فى تلك التهائم إلى أسياف البحر ، فسالت عليهم الأودية التى كانت هذيل فى صدورها وأعاليها ، وشعاب جبال السراة التى هذيل سكانها ، فصاروا فيما بين الشاطىء وجبال السراة الغربية . وأقام ولد النضر بن كنانة بن خزيمة ، حول مكة وما والاها ، بها جماعتهم وعددهم ، فكانوا جميعا ينتسبون إلى النضر بن كنانة .

وأقام ولد فهر حول مكة ، حتى أنزلهم قصى بن كلاب الحرم ، وكانت مكة ليس بها أحد — قال هشام : قال الكلبى : كان الناس يحجون ثم يتفرقون ،

فتبق مكة خالية ، ليس بها أحد — فقريش البطاح من ولد فهر : من دخل مع قصى الأبطح ، وقريش الظواهر ، من ولد فهر : تيم الأودم بن غالب بن فهر ومعيص ابن عامر بن لؤى ، ومحارب والحارث ابنا فهر ، فهؤلاء قريش الظواهر ، وسائر قريش أبطحيون ، إلا رهط أبى عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنه ، وهم بنو هلال ابن أهيب ابن ضبة بن الحارث بن فهر ، ورهط سهل وسهيل ابنى البيضاء ، وهم بنو هلال بن ضبة ابن الحارث بن فهر ، فإنهم دخلوا مع قصى الأبطح فهم أبطحيون .

فهذا ما كان من حديث افتراق معد ومنازلهم التى نزلوها ، ومحالهم التى حلوها فى الجاهلية ، حتى ظهر الإسلام [1] .

القبائل العربية فى الحجاز حين نزول الاسلام

قبائل تنزل بالحجاز :

وجاء الله عز وجل بالإسلام ، وقد نزل الحجاز من العرب : أسد ، وعبس [2] ، وغطفان ، وفزارة ، ومزينة ، وفهم ، وعدوان ، وهذيل ، وخثعم ، وسلول ، وهلال ، وكلاب بن ربيعة . فطىء — وأسد وطىء حليفان — وجهينة ، نزلوا جبال الحجاز : الأشعر ، والأجرد ، وقدسا ، وآرة ، ورضوى ، وأسهلوا فى بطن أضم . ونزلت قبائل من بلى شغبا وبدا ، بين تيماء والمدينة : ونزلت ثقيف وبجيلة حاضرة الطائف ، ودار خثعم ، من هؤلاء : تربة وبيشة وظهر تبالة ، على محجة اليمن ، من مكة إليها ، وهم مخالطون لهلال بن عمرو ، وبطن تبالة لبنى مازن . ودار سلول فى عمل المدينة . ومنازل أزد شنوءة

---

(١) راجع معجم ما استعجم ج ١ ص ٨٧ - ٨٩ .

(٢) أسد وعبس نزلتا فى نجد ، فاسد كانت مجاورة لطىء ومحالفة لها ، ومنازلها فى شمال القصيم ، وعبس كانت تنزل أعلى القصيم ؛ ومن غطفان قسم كبير استوطن نجدا على ضفاف وادى الرمة كبنى عبد الله بن غطفان وغيرهم (راجع عن تفصيل منازل هذه القبائل كتاب لغدة الأصفهانى) مخطوط . ويرى الإستاذ حمد الجاسر أن قبيلتي عبس وأسد لم تنزلا بالحجاز حين مجىء الإسلام .

السراة ، وهى أودية مستقبلة مطالع الشمس بتثليث وتربة وبيشة ، وأوساط هذه الأودية لخثعم ، على ما تقدم ، وأحياء مذحج . وهذه الأودية تدفع فى أرض بنى عامر بن صعصعة . ومن بقى بأرض الحجاز من أعجاز جشم ونصر بن معاوية ومن ولد خصفة بن قيس ، فهم بالحرة ، حرة بنى سليم ، وحرة بنى هلال ، وحرة الربذة إلى قرن وتربة ، وهم مخالطون لكلاب بن ربيعة ، هؤلاء كلهم من ساكنى الحجاز (١) .

بنو عذرة :

ومن عرب الحجاز : بنو عذرة ، وتقع منازلهم فى أعالى الحجاز ، فى جوار عدد من قبائل « قضاعة » وهى : نهد ، وجهينة ، وبلى ، وكلب ، وتقع أرضها فى جوار غطفان ، ومن مواضعها : وادى القرى ، وتبوك حتى أيلة .

وكانت لبنى عذرة صلات بقبيلة قريش ، وكان ساعدة بن رزاح أخا من الأم لقصى . كما كانت لهم صلات بالأوس والخزرج ، فوالدة الأوس والخزرج عذرية ، فهى قيلة بنت كاهل بن عذرة .

ومن بطون هذه القبيلة : بنو ضبة ، وبنو جلهمة ، وبنو زقزقة ، وبنو الجلحاء ، وبنو حروش ، وبنو جن ، وبنو مدلج على رأى بعض النسابين ، وبنو رفاعة وبنو كثير ، وبنو صرحة ، وبنو حرام ، وبنو نصر ، وبطون أخرى يذكرها النسابون .

أشجع :

ومن القبائل الحجازية : أشجع ، وتقع مواطنها بضواحى يثرب ، وكانوا حلفاء للخزرج ، وقد ساعدوهم فى يوم بعاث ، وكان بينهم وبين سليم بن منصور يوم فى موضع « الجر » . ومن بطون أشجع : بكر ، وسبيع ، ومن سبيع : حلاوة ، وهفان ، وفتيان ، وقنفد ، وذبيان (٢) .

---

(١) راجع كتاب : معجم ما استعجم ج ص ٩٠ .

(٢) ٣٥ سبائك الذهب ، ٣١٦ / ٤ تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على .

هذيل : وبين مكة والمدينة تقع منطقة هذيل ، وتعرف باسم سراة هذيل . وهى موطن قبيلة هذيل ، التى تنتسب إلى هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وهى أخت قبيلة « خزيمة » ، وكانت تجاور قبيلة بنى سليم وكنانة ، وقد اشتهرت بشعرائها وصفاء لغتها ، ولذلك احتج اللغويون بكلامهم ، وكانت هذيل مع قريش فى أثناء حملة « أبرهة » على مكة ، وكانت تعبد « سواع » ، وكان بموضع « رهاط » ، وكذلك عبدت « مناة » وكان موضع هذا الصنم فى « قديد » ، ومن أشهر بطون هذيل : بنو لحيان ، وبنو دهمان ، وبنو عادية ، وبنو ظاعنة ، وبنو خناعة .

اختلاط العناصر فى الحجاز

كان عمر بن الخطاب ينادى فى الحجاج ، بعد أداء مناسكهم : يا أهل الشام شامكم ، يا أهل اليمن يمنكم ، . وكان يرمى بهذه القولة ؛ صرف الأجناس المختلفة عن الإقامة بالحجاز لأسباب كثيرة منها : أن الحجاز كان وما زال آمنا من عدوان المعتدين وإغارة المغيرين . ومن الخير أن يعود أهل كل مصر إلى مصرهم ، ليحافظوا عليه ، ويردوا عنه غارة المغيرين عليه ، من كل من تسول له نفسه الإغــارة على البلاد التى ظللها الإسلام .

ومن الأسباب أيضاً : المحافظة على أخلاق الحجازيين ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، والمحافظة أيضاً على أرزاقهم . فأسباب العيش فى الحجاز محدودة ، إذ أن الحجاز ليس بلداً زراعيا ، ولا بلداً صناعيا — كما هو الحال فى غيره من الأمصار ، وقد استطاع الحجاز بسياسة عمر الواقعية ؛ الاحتفاظ بكل مقوماته ؛ وبعد أن انحراف الحكام عن سياسة عمر ، بدأ سيل المهاجرين يغمر الحجاز ، وكان أغلب المهاجرين فى العصر الأموى من الصناع وأرباب الحرف المختلفة ، وفى النادر من كان يهاجر إليه ، للانقطاع عن الدنيا ، والانصراف للعبادة . أما فى العصور الأخيرة ، فبعد أن استفحلت شرور الاستعمار ، أخذ المسلمون يهاجرون إلى الحجاز من بلادهم ، للمحافظة على دينهم وتقاليدهم ، فامتلأت

مدن الحجاز بسيل جارف من الأجناس المختلفة ، حتى رأينا فيه جموعا غفيرة من الفرغانة ، والقشغر ، والخرتان ، ورأينا الصينى ، والأندونيسى والمغاربة ، والسودانيين ، والنيجيريين ، والحضرميين وغيرهم . وما كانت هذه الهجرة لتضير الحجاز ، لو أنها نظمت تنظيما يفيد البلاد ، ويفيد المهاجرين . ويؤسفنا أن نقول : إن عدم الالتفات لتنظيم الهجرة ، بما يتفق وحالة الحجاز وظروف معاشه ، ترك الحجازيين والمهاجرين فى بلبلة ذهنية وخلقية ومعاشية ؛ الأمر الذى يستاء له كل مخلص لمهد العروبة وقبلة الإسلام . إن البعض يهون من شأن الهجرة ؛ ولا يرى فيها ما نراه من هذا التبلبل ، الذى نخشى مغبته . ولكن إذا علمنا عدد البخاريين والتركستانيين ، يزيد عن مائة ألف نسمة ، ويضاهيهم فى هذا العدد النجيريون ، ويقرب عدد الأندونسيين من ستين ألفا ، وعدد المغاربة من عشرين ألفا ، وعدد الهنود نحو عشرين ألفاً أيضا ، ومن الأجناس الأخرى مجتمعة أكثر من مئة ألف ، كل هؤلاء مكدسون فى مكة والمدينة وجدة ، حيث يحلو لهم الإقامة فيها دون غيرها . إذا علمنا ذلك أدركنا مبلغ الأضرار التى تنجم من ذلك .

وإن فى الحجاز كثيراً من الواحات ، وكثيراً من العيون المطمورة ، والأراضى الصالحة الزراعة . وكل ذلك فى حاجة إلى الأيدى العاملة ، فلو وزعنا هؤلاء المهاجرين على تلك المناطق ، التى هى فى حاجة إلى الإصلاح ، وفى حاجة إلى الأيدى العاملة ، لما أبيدت فى بلادنا الثروات ، من حيوانية ونباتية وغيرها ، ولما قاسى السكان ما يقاسون الآن ندرة الحيوانات ، والخضروات والدواجن . ولوجدنا فى هذه الأيدى العاملة — أيدى المهاجرين — ما يوفر

---

(١) ومن الأمثلة العالية التى كانت فى أخلاق الحجازيين ؛ أن الجار يحترم جاره ويصون جواره . ويعطف عليه ويواسيه ، ويفتقده ويسأل عنه . وقبل خمسين سنة كان صاحب الدكان إذا استفتح (بزبون) وجاءه زبون آخر ، فإنه يبعثه ليشترى من جاره الذى لم يستفتح بعد ، وكان المطوف إذا جاءه حجاج ، ولم يأت لصديقه أو لجاره حجاج ، فإنه يبعث إليه من عنده طائفة الحجاج الثانية التى ترد إليه .

للبلاد ما هى فى حاجة إليه ، ولما عرفنا هذه الأزمة ، فى المنازل ، وارتفاع أجورها ارتفاعا يعجز عنه الأهلون والمهاجرون على السواء .

وقد نجم عن هذه البلبلة فى العناصر ، والهجرات العديدة إلى الحجاز : اضطراب فى الأخلاق ، وفساد فى الألسنة ، وضعف فى العصبية العربية ، واستهانة بالأخلاق الإسلامية الأصيلة من تعاطف وتعاون ومحبة .

القبائل الحجازية فى العصر الحاضر

بــلى

مقر بلى جنوبى حويطات التهم . وتمتد منازلها إلى جهة الشرق حتى محطة دار الحمراء
والبلى فروع عديدة منها :

المعاقلة ، الزمور ، الفواضلة ، الزبالة ، الشامات ، الكوبين ، الربطة ، الوابصة ، الحروف ، الوحشة ، العراضات ، السهامة .

وكان كبير بلى ابن رفادة الذى مقره الوجه وأطرافه .

ثمـاله

قبيلة حجازية إلى جنوب الطائف ، وهى من الأزد .

ثقيف

قد اختلف كثيراً فى نسب ثقيف . والمعول عليه أنها من هوازن التى منها الشيبانيين أحد أفخاذ عتيبة ، ومنازل ثقيف فى جبال الحجاز بين مكة والطائف ، وعلى الأصح بينه وبين جبال الحجاز .

والمعروف بين المعاصرين أن ثقيفا تقسم إلى البطون الآتية :

١ - طويرق : وهم قسمان : حضر وبدو ، فالحضر فيهم العشائر الآتية :
الجمعنيدات ، الحصافين . والزحارية ، والقنصل .

وأما بدو طويرق ففيهم العشائر الآتية وهى :
الروسان ، والقرايين ، والتراكبة ، والنكلابية ، والعبدة ، والظفيريين ، والحمران .

٢ — بطن النمور : وهم يقسمون بحسب منازلهم إلى قسمين : أهل الهَدَى ، وأهل وادى المُحرِم .

فأهل الهدى فيهم أربع عشائر وهى : الكُمَّل ، والمَّطة ، والغربا ، والبيتى ، وهؤلاء يقال إن الحجاج بن يوسف منهم . وأما أهل وادى المحرم فهم أهل الخضرة والمشايبخ وأهل الدار البيضاء .

٣ — بطن ثمالة : (وقد دخلت هذه القبيلة فى ثقيف وهى كما قدمنا أزدية قحطانية) ، وهم ثمانية أقسام : أهل الصُّخَيرَة . وآل مُقبِل ، والضَّباعين ، والسواعدة ، وآل زَيد ، والسُّودَة ، والطوال . ويقال أيضا إن المشايبخ من ثمالة .

٤ — بطن بنى سالم : وفيه عشائر العَبَاشَة ، والعَصَبَى ، والمُنجِف .

٥ — بطن عوف : وهم فى وادى لِيَّة ، وبعضهم يلبسهم لحرب . ومنهم عشيرة القُثَم .

٦ — بطن سفيان : وهم فخذان : بنو عُمَر وآل شريف ، وأما بنو عمر فمنهم : العُمران ، وتميم ، والخُضَرة ، وأما آل شريف ففيهم عشائر كثيرة ، أهمها :

(أولا) آل سَاعِد ، ويقسمون إلى الحزنجلى (وهؤلاء يقال إنهم من بكر حلفاء قريش زمن الرسالة أى الجحادلة) وآل حسن ، وآل عُبيد ، والسواعدة ، وآل منصور .

(ثانيا) آل حجة ، وفيهم : الخُمس ، والهادلة ، وأبو الدّم ، وأبو الظهير ، وآل منيف ، وآل عيسى ، وهؤلاء ثلاث عائلات : آل حسين ، وآل حمود ، وآل غُبَيشة .

(ثالثا) آل عائشة ، ومنهم الطلحات ، والعجلة ، وآل عمر .

٧ — بطن قريش : منهم الحضر والبدو ، فالحضر يقسمون إلى الحُصَينان الذَّراوة ، والزيّان ، والمطرة ، والبدو ، وآل غانم يقسمون إلى هواملة ، وآل على والهيافين ، والقشامرة ، ومن قريش أيضا القُصران ، وبنو صخر ، والخُرتة .

٨ — بطن هذيل : وسيأتى ذكر فروعه .

٩ — ثقيف اليمن : وهم بقرب بنى مالك عندالشرعة ، وهم أقسام عديدة ، أهمها. لخذان ، عَلَس ، وبنو يوسف ، والأولون فيهم الجاهلى ، والشدَيى ، وآل يعلى ، وبنو محمد ، والفشدة ، والأحلاف ، والحُمَرَة ، وتقيم فى المليساء ، وآل مسعود وبنو يوسف ، وفيهم المجُردى ، والعسبلى والقُريحى .

وينسب إلى ثقيف اليمن بنو كَبشيان ، وفيهم ثلاثة فروع : بكرى ، وبُريدى ، وذبنيانى ، غير أن المقول إنهم يردون إلى عبس لا ثقيف .

الجحادلة

تمتد ديرة الجحادلة من حدود حرب عند شُروم حتى الليث على شواطىء البحر ، وفى داخل البلاد إلى جبل الشوك ، وجبل السعدية . وتمتد من الجنوب إلى الداخل ؛ حتى ديرة آل مَهدى وذوى بركات ، ومنهم من يقيم بين مكة وعرفات ، وبينها وبين شداد ولوادى المحرم . وهذه القبيلة من أكثر القبائل الحجازية لصغيرة عددا . وأعظمها منعة ويقال إنها من بقايا بنى بكر حلفاء قريش على عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ومن فروع الجحادلة ما يأتى : —

العليانيّة
الشّبينيّة
العَرشيّة
الجَمشينة
الشُعبانيّة
حسنانية
مجرشيّة أو قرشية

ومن الفروع الأخرى آل منيف والحيرية وآل فهم ، وأهم فروعها :
آل سَهم

آل مَدَاثر

بنو بور

آل يام

آل زَحفين

الجعافرة

هذه إحدى القبائل التى يتألف منها أشراف الحجاز المنقسمين إلى ٢١ قبيلة ، ودرة الجعافرة شمالى جازان .

جُهَيْنَة

تمتد منازل جهينة على الساحل من جنوبي ديرة بلي حتى جنوبي ينبع .. والقبيلتان بلي وجهينة من بقايا قضاعة اليمانية كما هو المعول عليه . وتقسم جهينة إلى بطنين : الأول مالك . والثانى موسى .

(أولا) بطن مالك فيه عدة أفخاذ هي :

١ — فخذ القَرُوفَة ، وفيه عشائر عديدة أهمها : القُضاة ، العُرّف ، الدّبّة . القَيْنَات ، الحُمضات ، الكشُوش ، الحشالكة ، المرَوات ، الموَالبة ، المشاعلة ، الرَبيات ، الكتَمَنة ، الرُجبان الهُدبان .

٢ — فخذ عروة ، وفيه عشائر عديدة أهمها : الشلاهبة ، الجَمانة ، الفُهود ، المسعد ، الونيان ، الجمَامِلة ، الملادية .

٣ — فخذ الزَوايدة ، وفيه العشائر الآتية : الحضرة ، المصايرة ، العقاب .

٤ — فخذ العوامرة ، ولم نطلع على فروعه .

٥ — فخذ رفاعة ، وفيه العشائر الآتية : المشاهير ، المساونة ، الوَهبان ، الثُمود .

٦ — فخذ كاب ، وفيه العشائر الآتية : العرافين ، الخضرة ، الزهيرات .

٧ — فخذ بنى إبراهيم ، وفيه من العشائر : الحربيات ، الصراصرة ، المسافرة ، الجرسة ، الشطارة ، الشابين ، ذوو سعد ، الفقهاء ، ذوو سليم ، ذوو زيد ، ذوو حمودة الموالى ، الحلائيث ، الدسايكة الشناورة ، المنادقة العلاونه ، الصفارين .

— فخذ العماشة ، وفيه من العشائر : الشقاقا ، النفران ، العبنسان ، القداعين الصيادلة ، المساوية ، الصيادية .

(ثانياً) بطن موسى وفيه الأفخاذ والعشائر الآتية :

١ — فخذ الغنتيم ، وعشائره هى : الزرفاق ، الشممة ، الحماسنة ، الحمدان ، المقبلى ، العلافين ، الفحامين .

٢ — فخذ ذبيان ، وعشائره : المداجنة ، والمصنلخ ، الهمينات ، الغربان ، المطيفات .

٣ — فخذ غيثمة ، وعشائره : المشكة ، الحوافظة ، المساعرة ، روس البعير ، الحميد .

٤ — فخذ حبيش ، وعشائره : المساجل ، النبسة ، الضوا حكة .

٥ — فخذ الشمرة ، وعشائره : المرادسة ، القطاعين ، الطبسة .

٦ — فخذ القوايدة وعشائره : الشوايعة والعرود .

قبيلة حرب

وهم كثير من المؤلفين فى أنساب العرب حينما نسبوا قبيلة حرب إلى العدنانية ، ومنشأ هذا الوهم :

١ — أن المؤلفين فى الأنساب رأوا هذه القبيلة تقطن مواطن العدنانيين القديمة ، وهى أقوى من يقطن بين مكة والمدينة .

رأوا أن بعض القبائل العدنانية قد انضمت إليها ودخلت فيها كقبيلة مزينة .

٣ — كثير من الذين ألفوا فى الأنساب يكتبون وهم بعيدون عن مواطن القبائل التى يدنون أنسابها ، هذا مما يوقع فى الوهم :

والصحيح فى نسب حرب أنه يرجع إلى خولان من قحطان ، وأن انتقال هـذه القبيلة إلى الحجاز كان فى آخر القرن الثانى الهجرى أو قريب منه . ولقد أوضح علامة اليمن ونسابته «أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى» ؛ مؤلف كتابى (الإكليل) و (صفة جزيرة العرب) نسب هذه القبيلة وأورد طرفا صالحا من أخبارها وأشار إلى لمىء من حروبها عندما استقرت بموطنها الأخير بين مكة والمدينة مع أشراف المدينة وقبيلة بنى سُليم وغيرها من القبائل [راجع الجزء الثانى من الإكليل للهمدانى] .

وأماكن هذه القبيلة القوية فى نجد وفى الحجاز . ففى الحجاز تمتد ديرتها من جنوبى ينبع إلى القنفذة على محاذاة الساحل ، وحول المنطقة الجبلية الممتدة من المدينة إلى مكة إلى قرب جبل أبانَيْن ، ثم تمتد شرقا إلى داخل نجد بغرب وادى الرّمة ، وحدّها الجنوبى درب الحج من بريدة إلى مكة . وإن قسما كبيراً من عشائر القبيلة وأفخاذها يوجد فى الحجاز بينما أن قسما آخر يوجد فى نجد .

بطن بنى على :

يقيم بعض أفخاذ هذا البطن فى نجد ، والبعض الآخر فى الحجاز . والذين يقيمون (مقرب المدينة) هم : البدارين ، خفَـارة ، الفُرَدَة .

البطن الثانى من حرب : الفُرَدَة :

يوجد قسم قليل منه بقرب المدينة إلى الشرق منها .

البطن الثالث بنو سالم :

هذا البطن — من حرب — من أكبر أقسام حرب ، ومنه مَنْ هم مقيمون فى نجد ، مثل : ولد سالم ، والزكيبات ، والهـبّيرات) ومنه من هم مقيمون فى الحجاز ، مثل : والأفخاذ العشائر الآتية :

الأحامدة	بين المدينة وينبع
صُبنح	فى جبل صبح وبدر
الرَحّالة	من بئر عباس إلى بئر ابن حصانى
الحنا طيّات	وادى الخيف ووادى الصفرا
العُزَيمات	« « « «
الجَماعلة	« « « «
هَوَازن	بقرب وادى الصفرا
الظّواهر	وادى الصفرا
الرُّوَيشة	« «
المُزَينات	فى شرق الحجاز

بطن الرابع من حرب : بنو عمرو :

هذا البطن من حرب يقيم بعضه فى نجد وبعضه الآخر فى الحجاز ، أما القسم الحجازى فيشمل العشائر الآتية :

البَلد	بين الفُرع ورابغ
المَعْبَد	بقرب مكة
الحمْران	بين مكة وجدة
بنو جابر	« « «
بِشْر	فى وادى فاطمة
عُبَيدة	فى جبل ثبرا
الزّبَنْقة	فى جبل الفرع بقرب المدينة
مَنَاش	غرب المضيق بقرب الفرع
جَهم	بين مكة والمدينة فى الفُرع
بنو محمد	شمالى رابغ

البطن الخامس من حرب : مسروح :

بعضهم ينسب بنى على إلى مسروح ، ولكن هذا مختلف فيه وسيطرة مسروح فى الحجاز مشهورة ؛ فإنهم يملكون ثغر رابغ وقسما كبيرا من الأرض يمر منها درب الحج . وفى هذا البطن ثلاثة أفخاذ رئيسية هى :

(الأول) زبيدوعشائرها هى الصَّحَف ، والعُصُوم ، والمغاربة ، والصَّيَّادة ، والوُفَيان ،والجماشهة ، والهنود ،والحراجرة ، والعَزارة ،والولدية ، والجهَدة ، والعسلان .

(الثانى) فخذ عوف وعشائره : سُوَيد ، والمنهليا ، واللَّهَبَة ،والصَّفران والكنادرة .

(الثالث) فخذ ولد سالم والسعديين ومنهم القُوّاد ومنازلهم على درب الحج شمال والمدينة .

قبيلة الحويطات

تقع منازل الحويطات بين تيماء جنوبا والكرك شمالا ووادى السرحان والنفود الكبير شرقا وساحل خليج العقبة وشبه جزيرة سيناء غربا .

تقسم الحويطات إلى ثلاثة بطون :

١ — حويطات التهمة (وأماكنها من ساحل البحر إلى جبال الحجاز) .

٢ — الحويطات العلويون (أو العلاويون وأماكنها من منطقة الحسمة إلى الشراه) .

٣ — حويطات ابن جازى (فى جبال الشرة وشرقيها) .

أما عشائر حويطات ابن جازى فهى : —

المطالقة :

الدَرَاوشة
العَمامِرة
المَرايـع
الدُمَّانية
العُطون
النَواية

وأما عشائر حويطات العلاويين فهي :

الصُوَيلحين	الخُضَيرات	القُدمان
لمَقَابِلة	السَّلامين	العوَّاحة
المحاميد	العَراجين	السَّلامَات
البُدُوو	السَّروريين	الفَيَارين
الصُّقور	المناجمة	

وتتألف حويطات التهمة التي تمتد منازلها على شاطىء البحر حتى مدينة الوجه جنوباً من العشائر الآتية :

العُمْران	البُبَيّات
العُمَيرات	المَواسَة
المَساعيد	المشاهير
الذَّبابين	القُرعان
الزَّماهِرة	الجَواهِرة
الطقَيقَات	القُبَيضات
السُّليمانيين	القَحَّامين
الجَرَافين	

ذوو حسن

تمتد ديارهم من شمال الليث إلى السكة الشامية جنوبى الليث ، وإذا قيست بالأميال كانت مسافتها ٤٥ ميلا وتمتد فى الداخل حتى أول الهضاب الساحلية ، وهؤلاء يقولون إنهم من الأشراف .

ومن أفخاذ ذوى حسن الفروع الآتية : —

الصمدان	الخواتمة	ذوو بركات	آل على
ذوو عياف	آل عساف	الخجان	سبيع
آل مهدى	الصواملة	آل حسن بن حمدان	الجايشة
الصعوب	النعرة	القراسمة	

خثعم

تقع ديرة خثعم على طريق الطائف — أبها ، بين منازل شمران فى الشمال والغرب وبلقرن فى الجنوب والشرق ، ومن أقسامها : آل مرة ، والسردان ، والمزارقة ، والسلمان .

خزاعة

ومن بقايا خزاعة الأقدمين منهم فى وادى فاطمة ، وفى الخبت عند القنفذة ، وفى الراك الواقعة إلى الشرق الجنوبى بحرة ، وفى الضيم .

ربيعة اليمن

تقيم هذه القبيلة فى وادى خُلب ووادى لِيّة ، وتصل فى بعض الأحيان حتى الشقيق وديار بنى مُغَيد ، وتحيط بها من الشمال والشمال الشرقى بنو مُغَيد ، ومن الجنوب الشرقى شهران ، ومن الجنوب قبائل مخلاف اليمن ، ومن الغرب رجال ألمع .

زهران

تقع ديارها بين بنى مالك من الشمال ، وغامد من الشرق ، وزبيد من الجنوب والجنوب الغربى ، وذوى بركات وذوى حسن من الغرب ، وتمتد فى الغرب إلى ما يقرب من ساحل البحر الأحمر بمقدار خمسة عشر ميلا ، وهذه بطون زهران :

البطن الأول : دَوْس ، وفيه فخذان : بنو منهب ، وهم جماعة جماعة ابن خضران وبنو فهم ، وهم جماعة الصغير .

البطن الثانى : بنو عمرو ، وفيه ثلاثة أفخاذ : بنو حرير ، وبنو عدوان جماعة السفيحى ، قريش جماعة السين ، وبنو بشر ، وبنو جندب وهم جماعة ابن زفاف .

البطن الثالث : بنو يوسى ؛ وفيه خمسة أفخاذ وهى : بنو حسن ، وهم جماعة أحمد ابن عصيدات ، بالخزمر ، بنو كنانة — بنو عامر — أهل بيضان .

البطن الرابع : بطيل .

البطن الخامس : بنو سليم ، وفيه أربعة أفخاذ : بلفتضيل ؛ أولاد سعدى ، الشغبان ، الجبر .

البطن السادس : الأحلاف ؛ وفيه أربعة أفخاذ : بلعوُر — بنو نقمة ، بنو خرُيَصْ ، بلأسود .

بنو سعد

قبيلة عربية شريفة الأرومة ، منها حليمة بنت أبى ذؤيب ظئر الرسول ﷺ وديارها من الطائف إلى جهة الجنوب الشرقى . وتحسب هذه القبيلة أصل قسم كبير من عتيبة . وتقسم فى الوقت الحاضر إلى بطنين : البطنين ، والثبتة .

وللثبتة فروع كثيرة أهمها الصريرات واللصة : وأما البطنين ففيه فروع كثيرة أيضا أهمها : الطفحة ، الخديج ، بنو زايد ، السلاقة ، ربيع ، العيلة . ومن العائلات

التى تتبع البطنين : خديد والسبابيل ، والروقة ، والهوب ، والنفعة والسلاقة وربيع والعيلة وبنو زايد ، والطفحة ، والجعدة والوذانين والسوطة والعمارة والزوران والحليقات . أما عائلات الثبتة فهى : لصة ، وضريرات . واللصة هم قساورة . والقساورة هم ذوو عطية والمظافرة ، والدهامين ، والبراق ، والمخلد ، والمناصير وآل طلحة ، والمراوحة ، والغدران ، والسمرة ، والشعايرية ، والثعابين ، والمناجيم والعلاويين ، والشتالة ، والشتيات ، والحوطة ، والغنانيم ، والمراشدة ، والروسان والمقافشة ، والروقة ، والفقها . والضريرات فيهم : الشهبة ، والعصمة ، والدعاجين ، والعيسى ، والذبانية ، والحمية . وهؤلاء يقال لهم الثبتة .

سفيان

فرع من ثقيف ، تقيم فى أطراف الطائف إلى الجهة الجنوبية الشرقية منه ، وديرتهم ديرة بنى سفيان ، المسماة بالشفا ، وهى عبارة عن عدة وديان ، تبدأ من آخر حدود قريش الحضر عند شقراء . والقبيلة متحضرة ، لها زراعة وفلاحة . وأهلها كثيرو الأغنام ، ولهم أقسام عديدة ذكرناها فى ثقيف .

بنو شهر بن مالك بن الحجر : وهؤلاء بالنسبة لمنازلهم وللعادات والتقاليد واللهجة يحسبون من القبائل اليمانية الأصل ، كالأزد التى سكنت جبال الحجاز واعتبرت من قبائل الحجاز ، فإن لهجتهم تختلف عمن يجاورهم من أبناء عمومتهم ، فأم بدلا من أل نادر جـــداً فى كلامهم ، وطراز حياتهم ومعايشهم تختلف بعض الشىء عن قبائل عسير .

الأشراف

فى الحجاز ديار قريش ، وقريش ينتسب إليها عدد كبير من القبائل ومن سكان المدن والأمصار ، أما فى الحجاز ، فيمكن قسمة الأشراف إلى قسمين : بقايا قريش ، وسلالة السبطين الحسن والحسين . فالقسم الأول منه الفروع الآتية : الشيبيون وهم سدنة

البيت ، وقريش فى منى ، وأطرافها وفى أطراف الطائف ، وهم غير قريش الثقفية .

وأما القسم الثانى ، فيقال : إن منها فى الحجاز واحدا وعشرين عشيرة ، وسنحاول ذكر بعضها هنا :

الشنابرة . ذوو سرور . ذوو زيد . العبادلة فى عسير والحجاز . ذوو بركات . ذوو حسن . ذوو حراز . ذوو عبد الكريم . الحرث . المناعة : ذو جيزان . ذوو جود الله . المناديل . ذوو عمرو . ذوو إبراهيم . الجعافرة . ذوو حسين . الفعور

شمران

مساكن هذه القبيلة على طريق الطائف ، وأنها منحدرة إلى الغرب فى تهامة ، وتحيط بها من الغرب والشمال غامد ، ومن الشرق شهران ، ومن الجنوب خثعم ، وبالقرن . وتقسم إلى شمران الشام وشمران تهامة ، ومنهم العبوس ، وإلى بادية وأهم أقسامها : سحاب وآل مبارك .

بنو شهر

منازل هذه القبيلة ممتدة من تهامة ، بقرب القنفدة ، إلى أعالى جبال الحجاز ، ثم تنحدر منها إلى الشرق حتى وادى شهران .

ويحيط ببنى شهر كل من بلعريان ، وبلقرن ، وبنو عمرو من الشمال ، وشهران من الشرق ، وبالأسمر والريش وآل موسى والجيدة وربيعة المقاطرة من الجنوب ، ومن الغرب بنو زيد .

الشلاوى

تمتد ديرتهم من شرقى الطائف ، من جبال الحجاز إلى حدود ديرة البقوم ، ومن الجنوب إلى حدود زهران وغامد ، ومن الشمال إلى ديار ثقيف ، وأقسام الشلاوى كما يأتى :

المتاعبة	الطهفة
الموسى	العضاوين
الحسكة	شيعث
الجنايث	الشدادين
بليوس	المسيلات

قبيلة عنزة

تنسب عنزة إلى أسد بن ربيعة ، وتتفرع إلى عدة بطون وأفخاذ ، ومن فروعها التى تسكن الحجاز وتعتبر من قبائله :

١ ـ المنابهة : وهذه القبيلة انتقل معظمها إلى شمال سوريا ، أما بقيتهم ، فمنازلهم فى شمال الحجاز .

٢ ـ الأيدا : ومنازلها فى شمال الحجاز وغربى نجد .

قبيلة عُتيْبة

لا يوجد بين القبائل من يفوق عتيبة فى القوة ، أو يزيد عنها فى العدة ، إلا قبيلة عنزة . ولا يكاد أحد ينازعها السلطة فى القسم المتوسط من المملكة . ومنازلها من سفوح جبال الحجاز الشرقية ، إلى الحرار التى بين درب الحج ، ونجد من الشمال والشرق ، ودرة قحطان والبقوم والشلاوة وسبيع فى الجنوب . ويوجد قسم قليل من عتيبة فى الحجاز غربى السلسلة الجبلية فى أطراف الطائف ، وفى أطراف مكة والمضيق والسيل . وتقسم القبيلة إلى بطنين كبيرين : الروقة وبرقاء ، ولكل بطن أفخاذ وعشائر عديدة .

غامـــد

تقع ديرة هذ البيلة المهمة ما بين درجتى العرض ٣٠َ – ١٩° — ١٥ — ٢٠° ، وبين درجتى الطول ٣٠ ــ ٤١° ودرجة ٤٢ : ويحيط بالقبيلة من الشمال الشلاوة ،

ومن الشرق سمران ، ومن الجنوب بلقرن وبلعربان، ومن الغرب زُبَيد وزَهران .
ويمر طريق « الطائف أبها » وسط ديار هذه القبيلة ، التى يمكن التفريق بين أفرادها وتقسيمهم إلى قسمين : البدو والحاضرة . ومقر غامد الباحة . فالقسم المتبدى يسمى آل صباح ، وهم منتشرون فى أماكن مختلفة بين إخوانهم المتحضرين ، ويتوغلون إلى أودية : رنية ، وبيشة ، وتربة، والدواسر . وأما القسم المتحضر فيقيم فى قرى مختلفة وأهم أقسامهم : بنو ذبيان ، بنو كبير ، المحشران ، الظافر ، الرَّمادة ، الزَعلة ، الفرْزعة ، بنو عمر ، بنو لام ، المنتظر .

فَهْم

منازلهم فى الحجاز بين بنى ثقيف شمالا ، والجحادلة غرباً . وهى قبيلة قليلة العدد ، تعمل فى الماشية والجمال ، وأنسابها من أصرح الأنساب ، وأقربها إلى قريش وأماكنها فى وادى الوغار . وهم مشهورون بالفصاحة . ويقال : إنهم مازالوا محافظين على لغة قريش التى كانت فى صدر الإسلام . ولعل لهجتهم أقرب اللهجات الحاضرة إلى العربية الفصحى ، وكفى بهم فصاحة أن منهم الابنة التى تزوجها الفيروزابادى ؛ ففرت منه لاكتشافها عجمته .

قريش

تُطلق قريش فى الوقت الحاضر على قسمين من الناس :

الاول : الأشراف القرشيون بقايا قريش ، سواء كانوا أشرافا ، أم من بقايا قريش المقيمين فى منى وعرفات وما جاورها .

والثانى : ويطلق على فرع من فروع قبيلة ثقيف ، يسمى بقريش ؛ وديارە فى جهات الطائف ومنه طبقتان : بدو وحضر ؛ فالحاضرة تقطن فى الأودية القريبة من الطائف ؛ كالوهط ، والوهيط ؛ والمثناة وسواها . والبادية مازالت تعيش عيشة البداوة على رعى الماشية واستثمار خيراتها ؛ وقد ذكرت فى ثقيف .

بنو مالك

تقع ديار بنى مالك قرب وادى مَوْر إلى شرق الليث ، بين بنى سعد فى الشمال ، والشلاوة فى الشرق ، وزهران جنوبا ، والجحادلة غربا .

هتَيم

قبيلة بين شمال نجد وشمال الحجاز لا تنتسب إلى أى بطن كان من بطون العرب ، ولذلك ينظر إليها كأنها مثل الصلبة ، ومن عشائرها : الذيبَـة ، الجلدة ، آل بَرّاك ، الخُلبوية ، الدّوامش ، الفجاوين .

هذيل

من قبائل الحجاز المهمة ، وهى تنقسم إلى قسمين : شمالى وجنوبى ، فالأول تقع دياره فى أطراف مكة من جهة الشرق والجنوب ، وخاصة فى أطراف مكة والطائف ، بقرب جبل بَرْدْ وجبل ذكا المشهور :

فالقسم الأول : هو هذيل الشمال يتألف من سبع عشائر هى :

المطَارفة بوادى فاطمة ؛ المساعيد فى السيل ؛ السواهر فى السيل أيضاً ؛ لحيان إلى الشرق من مكة ؛ عمروا أو عمير على يمين الطريق من مكة إلى جدة ؛ الجنابر بجبل الكَبْر ؛ وهناك يسمون باسم المواقع التى يقيمون فيها ، فيدعـون السعايد والحساسنة والكباكبة والمجاريس .

والقسم الثانى : هذيل اليمن ؛ ويتألف من الأقسام الآتية :

١ — الندوَية ، وفيه ثلاثة فروع : المرازيق ، والجيَسة ؛ والجُملة .

٢ — دعد ، وفيه ثلاثة فروع : الحسنان ، وآل يعلى ، والظُبّان .

٣ — السَّراونة ، وفيه ثلاثة فروع : الظهوان ، وآل عليا ، والمجاريش .

٤ — العاملة .

٥ — بجيل ، وفيه أقسام وفروع أهمها : الطلوح ، المساسنة ، العَبْده ، المسودة . فمن الطلوح : آل خالد ، و آل صالح ، ومن آل خالد يتفرع : آل راشد ، وآل عطاف . ومن آل صالح يتفرع : الطلحات . ومنهم : آل راشد ، وآل منيف ، والأعصاب . وآل مَنّاع ، ومنهم : البَقلة . وآل حميد وآل زيدان : ثم من المسودة يتفرع : بنو إياس ، والسَّرَالمة ، وآل محمود ، والجوابرة ، وآل زيد الفرح ، وكعب . فمن الفرح : آل محسن وآل كامل ، وآل سارى . والدعجان . ومن آل زيد يتفرع : القنعنان . . والحاميد . ثم من الجوابرة يتفرع : آل حسن ، وآل حمدان ، و آل على . ومن السالمة النجاذة . و آل فرح .

* * *

وبعد ، فهذه جولة شريعة فى ربوع الحجاز ألممنا فيها بصورة مقتضبة من بيئته الطبيعية والبشرية ، تلك البيئة الروحية الطاهرة ، التى انبلج فيها فجر الإسلام ، وخرج منها الحجازيون الأول يحملون إلى أقطار العالم مشاعل النور والهداية ، ويبشرون بدين جديد رسالة جديدة تقضى على الوثنية الآفنة ، والنظم الاجتماعية الفاسدة ، حتى تخلصت العقائد من شوائب الضلالات ، وتحررت النفوس من ربقة العبودية إلا لله وحده ، وانطلقت العقول من عقال الجمود ، وسبحت فى الافاق الفكرية والإنسانية الرحبة ، وتخلصت المجتمعات التى أظلتها رايتهم من الظلم والاستبداد والإقطاع والفساد .

يقول المستشرق دوزى فى كتابه (تاريخ المسلمين فى أسبانيا) : « لقد كان الفتح العربى نعمة بالنسبة لأسبانيا لأنه أدى إلى ثورة اجتماعية مهمة ، وأزال قسما كبيراً من المساوىء التى كانت أسبانيا تئن تحت عبئها منذ عصور طوال . . وقد خففوا عبء الضرائب ، وانتزعوا من أيدى الأغنياء الأرض التى كان يتقاسمها الإقطاعيون ويزرعها الفلاحون الاقنان أو العبيد الناقمون ، ووزعوها بالتساوى على من كانوا يشغلون فيها ، فعكف الملاك الجدد على استثمار الأرض بحماسة شديدة ، واستخرجوا منها محصولا أوفر من قبل . أما التجارة فقد تحررت من قيود الحدود والمكوس

الفادحة التى كانت ترهقها ، وتطورت تطوراً ملحوظاً . وكان القرآن يسمح للعبيد بالتحرر نظير تعويض منصف ، فبرزت من جراء ذلك قوى اجتماعية . وقد أفضت هذه التدابير كلها ، إلى حالة من الرخاء العام ، كانت الحافز الأول للترحاب الذى استقبل به الحكم العربى فى عهده الأول » .

وإن أمثال هذه الشهادات الناصعة من الغربيين هى التى حملت بعض المنصفين منهم أن يعتبروا معركة « بواتييه » ، التى انهزم فيها العرب ، نذير شؤم على أوربا والإنسانيه عامة ، ولقد أضاعت فرنسا فرصة تاريخية للاشتراك فى الحضارة العربية التى ازدهرت بعد ذلك بزمن وجيز ، أى أنها فقدت فرصة عظيمة لاختصار عهد الفوضى الإقطاعية وتكوين وحدتها القومية .

يقول أناتول فرانس بظرفه البارع فى (الحياة المزهرة) : « سأل السيد دوبوا ـ مرة ـ السيد نوزيير الإجابة على هذا السؤال . وحينئذ قال السيد دوبوا : إن أكثر أيام التاريخ شؤما هو اليوم الذى جرت فيه معركة « بواتييه » فى سنة ٧٣٢ ، حين تراجع العلم والفن العربيان والحضارة العربية ، أمام البربرية الفرنجية (١) » .

* * *

ولقد كان فاتحة دستور الاسلام هذه الآيات العظيمة التى نزلت على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، بغار حراء ، حين بلغ الأربعين : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » .

ومن طريف المصادفات أن مكة عاصمة الإسلام الكبرى التى دوى فى بطحائها هذا الاستهلاك الرائع ، الذى يحث على القراءة والعلم والثقافة والاطلاع ، هى التى شهدت صناعة الورق ـ وسيلة العلم والثقافة والاطلاع ـ وكان ذلك فى سنة ٨٧ هـ ، أى فى عهد الوليد بن عبد الملك ، أحد خلفاء بنى أمية ، ومنها أخذ الورق وصناعته طريقهما إلى البلدان الإسلامية الأخرى ثم إلى دول أوربا .

---

(١) الحضارة العربية ، لروجية جارودى ص ٨ — ٩ .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية ما يأتى :

« إن البندر والتلغراف الإشارى ـ وإن لم يكونا من اختراع العرب كما يعتقد البعض ـ فإن من المحقق أنهما قد نقلا عن طريقهم إلى أوربا ، وكذلك صناعة الحرير والقطن ، واختراع آخر ذو قيمة كبيرة هو البوصلة البحرية ، ولقـــد صنع ورق الكتابة فى مكة حوالى ٧٠٦ بعد الميلاد ، ومنها انتشر إلى الأقطار العربية الأخرى حتى وصل آخر الأمر إلى العالم الغربى » .

ونجمل القول بشهادة أحد كتاب الفرنجة عن أثر الحضارة العربية فى الحضـارة الغربية حيث يقول : « إن العلوم والفنون والآداب العربية قد كونت حلقة اتصال بين الحضارة القديمة والحضارات الحديثة والثقافة . وإن (الحضارة) التى قدمها العرب للأقطار التى فتحوها قد بقيت مدة أطول من سلطة الفاتحين أنفسهم (١) » .

« ونحن ندين لهم ـ بطريق مباشر أو غير مباشر ـ بإحياء العـلوم والفلسفة فى أوربا الغربية ، حيث كانوا أول الموقظين والباعثين لروح النقد والبحث والاستقصاء ، التى كان لها أثر كبير فى إنقاذ أوربا من سبات جهالة الرهبنة وضلالة التعصب الدينى . ويعزى إليهم ، أخيراً استنتاجا ، وبطريق غير مباشر ـ معظم تلك الفنون المفيدة والاختراعات العملية التى بلغت حداً من الكمال بجهود الأمم فى العصور الحديثة ، ومهما اتسعت دولة السيف العربية عن طريق القوة ، فإنها أضيق مدى واتساعا ، وأقل خلوداً وبقاء ، من دولة الفكر العربى (٢) » .

هذا هو الشعاع الذى انبثق من هـذه البيئة الحجازية التى عقدنا العزم على دراسة حياتها الأدبية ، منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، ناصرين هـذا

---

(١) Encyclopaedia Britannica, Vol. – 11 مادة Arabia

(٢) المرجع السابق

الجزء على دراسة « الأدب الحجازى فى العصر الجاهلى » ، شعره ونثره وفحول أدبائه وشعرائه ، كالنابغة الذبيانى ، وأمية بن أبى الصلت الثقفى ، وقيس بن الخطيم الأوسى ، وحسان بن ثابت الخزرجى . مقدمين بين يدى هذه الدراسة العوامل التى أثرت فى هذا الأدب ، سواء كانت سياسية أو دينية أم اجتماعية أم عقلية أم غيرها ، مما سيكون موضوع بحثنا فى الفصول والأبواب التالية ، إن شاء الله .

مصادر التمهيد

نذكر فيما يلى طائفه من أهم المصادر التى أعتمدنا عليها فى كتابة هذا التمهيد :

دوائر المعارف :

١ — دائرة المعارف الإسلامية — الطبعة العربية

٢ — دائرة المعارف البريطانية — Encyclopaedia Britannica

المعاجم :

٣ — تاج العروس — للزبيدى .

٤ — التهذيب — للأزهرى

٥ — لسان العرب — لابن منظور .

٦ — معجم البلدان — لياقوت .

٧ — معجم القبائل العربية — لرضا كحالة .

٨ — معجم مااستعجم — للبكرى ، تحقيق الأستاذ السقا ، .

٩ — جمهرة أنساب العرب — لابن حزم

مصادر مختلفة .

١٠ — الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام لفيف من الأساتذة .

١١ — أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار — للأزرقى (المطبعة الماجدية بمكة المكرمة سنة ١٣٥٢ هـ) .

١٢ — أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام — لمحمد سعيد الأفغانى . دمشق سنة ١٩٣٧ .

١٣ — الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى — طبعة ساسى .

١٤ — الإكليل للهمدانى — ج ٢ « مخطوط » .

١٥ — بلوغ الأرب — للألوسى .

١٦ — تاريخ ابن الأثير .

١٧ - تاريخ الإسلام السياسى .	للدكتور حسن إبراهيم حسن
١٨ — تاريخ الطبرى .	
١٩ — تاريخ العرب قبل الإسلام	للدكتور جواد على — ٤ مجلدات
٢٠ — تاريخ الكعبة المشرفة	حسين باسلامة الحجازى
٢١ — « المسجد الحرام	« « «
٢٢ - « مكة	أحمد السباعى «
٢٣ — جزيرة العرب فى القرن العشرين	للشيخ حافظ وهبة
٢٤ — جغرافية البلاد العربية	لصلاح عبد القادر البكرى
٢٥ — جغرافية الجزيرة العربية	لرضا كحالة

٢٦ — الحضارة العربية والدور الذى مثلته فى التاريخ لروجية غارودى تعريب تدرى قلعجى .

٢٧ — الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى	محمد عبد المنعم خفاجى
٢٨ — الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة	لابن النجار
٢٩ - رحله ابن جبير	
٣٠ — الرحلة اليمانية	للشريف عبد المحسن البركاتى الحجازى
٣١ — الشعراء الجاهليون	لمحمد عبد المنعم خفاجى
٣٢ — سبائك الذهب	
٣٣ — شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	لتقى الدين الفاسى المكى نشر مكتبة النهضة الحديثة بمكة [ط عيسى الحلبى بمصر سنة ١٩٥٦]
٣٤ — شمال الحجاز	ا . موسل
٣٥ — صفة جزيرة العرب	للهمدانى تحقيق الشيخ محمد بن بليهد
٣٦ — فى ربوع عسير	محمد عمر رفيع
٣٧ — فى منزل الوحى	للدكتور محمد حسين هيكل
٣٨ — قلب جزيرة العرب	لفؤاد حمزه

٣٩ — محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى .

٤٠ — مختارات أشعار الشعراء الجاهلين	محمد عبد المنعم خفاجى
٤١ — مرآة الحرمين	تأليف اللواء إبراهيم رفعت باشا ط دار الكتب ١٩٢٥ م
٤٢ — مسافات الطرق فى المملكة العربية السعودية	لرشدى الصالح ملحس
٤٣ — مسالك الممالك للإصطخرى	طبعة دى غويه
٤٤ — المملكة العربية السعودية	لعبد الله أحرار خوجة
٤٥ — « « «	لكازل تويتشل ترجمة شكيب الأموى
٤٦ — « « «	مشروعات عمرانية بمنطقتى مكه والطائف
٤٧ — مهد العرب	تقرير للمهندس على الشافعى للدكتور عبد الوهاب عزام « سلسلة أقرأ »

صحف ومجلات :

٤٨ — جريدة البلاد السعودية .

٤٩ — « المدينة المنورة

٥٠ — مجلة الحج

٥١ — « المنهل

القسم الأول

العوامل المؤثرة فى الأدب الحجازى

الحياة السياسية ، الحياة الاجتماعية ، الحياة الدينية ، الحياة العقلية

الباب الأول
الحياة السياسية

توطئة

الجاهلية وتحديد العصر الجاهلي

اختلف الباحثون فى تحديد العصر الجاهلى ، فمنهم من قال : إنه العصر الذى خلا من الرسل بين عيسى ومحمد[1] .

ومنهم من قال - وهو الحكم بن عيينة - : إن الجاهلية كانت بين آدم ونوح ، وهى ثمانمائة سنة[2] ، وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس[3] . ويرى بعض المفسرين أن المراد بالجاهلية فى قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » ، الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، حيث كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين ، فتمشى وسط الطريق لتعرض نفسها على الرجال[4] ، وروى عن ابن خالويه أن هذا اللفظ فى الإسلام أطلق على الزمن الذى كان قبل البعثة[5] .

ويرى نيكلسون ، أن الجاهلية تشمل — فى الحقيقة — كل الفترة منذ آدم إلى محمد ، ولكنها قد تستعمل فى دائرة محدودة للإشارة إلى عصر ما قبل الإسلام للأدب العربى[6] .

---

(١) الموسوعة الإسلامية — مادة جاهلية .

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب ج ١ ص ١٧ .

(٣،٤) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ١٧٩ .

(٥) الألوسى نفس المصدر ج١ص ١٥ .

(٦) راجع كتاب نيكلسون « تاريخ العرب الأدبى » و « التاريخ الإسلامى العام » للدكتور على إبراهيم حسن .

ويرى بعض الباحثين ، أن الفترة التى سبقت ظهور الإسلام — وتقدر بنحو قرنين من الزمان — هى التى يطلق عليها العصر الجاهلى ، أما ما سبق ذلك من أحداث ، فتسمى « تاريخ العرب قبل الإسلام » .

* * *

واختلفوا كذلك فى معنى « الجاهلية » ، أهى مأخوذة من الجهل الذى هو ضد العلم ، وهو عين ما وصفت به الأزمنة السابقة للنصرانية فى الآية الثالثة عشرة من الإصحاح السابع من سفر أعمال الرسل . وقد ورد لفظ الجهل بهذا المعنى فى أقوال الشعراء الجاهليين ، كقول عنترة :

« إن كنت جاهلة بما لم تعلمى »

أم هى مأخوذة من الجهل الذى هو السفه والغضب والأنفة ، كما يميل كثير من المؤرخين ؟

على أننا إذا دققنا النظر فى الآيات الأربع التى ورد فيها لفظ الجاهلية ، تبين لنا أن هذا المعنى هو المقصود. وهذى هى الآيات:

« أفحكم الجاهلية يبغون » المائدة ٥٠ ، « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » آل عمران ١٥٤ ، « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » الفتح ٢٦ ، « وقرن فى بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » الأحزاب » .

ويطلق لفظ الجاهلية على الحال التى كانت عليها العرب قبل بزوغ فجر الإسلام ، يقول الدكتور « فيليب حتى » : « تفسر كلمة الجاهلية عادة بعصر الجهل أو البربرية — الهمجية ـ Barbarism ، ولكنها فى الواقع تعنى تلك الحقبة التى ،كانت فيها الجزيرة العربية خالية من أى قانون أو نبى موحى إليه ، أو كتاب منزل[١] » .

ويرى المستر « فيلبى » ، أن هذا العصر كان عصر مجادة وازدهار ، وحياة تجارية وفكرية عظيمة ، وأن العرب قد أجحفوا حين وسموا هذه الحقيقة الزاهية ـ من تاريخهم ـ بسمة « العصر الجاهلى » ، وفى ذلك يقول :

---

(١) Hitti : History of the Arabs, P. 87 .

« . . . إنه قبل ظهور محمد ـ عليه السلام ـ بحوالى ألفى عام ، كانت الجزيرة العربية قوة من القوى العظمى فى العالم ، لها مكانتها التجارية والثقافية العظيمة . ثم غدت مرة أخرى بعد انبثاق فجر الإسلام مركزاً لامبراطورية عالمية عظيمة ، شعلة من العلم والمعرفة حية متقدة وسط عصور الظلام فى أوربا ، ولكن الجزيرة العربية كانت ـ بعدئذ ـ قد نسيت ماضيها المجيد ، وانصرفت عن تقدير ما حققته فى عصورها التليدة ، وأطلقت بكل كبرياء على تلك الفترة التى حققت فيها ماضى عظمتها الباكرة ، «اسم الجاهلى[1] »

والذى نميل إليه ، هو أن الجاهلية ـ فى مدلولها الواسع ـ لا تطلق على الجهل الذى هو ضد العلم فقط ، ولا على السفه والطيش والحمية وحسب ، وإنما تشمل كل ما يجافى روح الإسلامية من عقائد وأخلاق وعادات ، كالربا وعبادة الأوثان ، ونصرة الأخ ظالماً ومظلوماً ، ووأد البنات . بيد أن المؤرخ خليق ـ حين يدرس العصر الجاهلى ـ أن تذكر ما يتعارض مع الإسلام من التقاليد والمعتقدات وألوان السلوك ، وما لا يتعارض مع روحه ومبادئه ، كحلف الفضول ، وما عرف عن قريش من ختان الأولاد ، وتكفين الموتى ، والاغتسال من الجنابة ، وتعففها فى المناكح عن الأخت وبنت الأخت ، مما أوجبه الإسلام .

أما فيما يختص بالأدب وتحديد مدة الشعر الجاهلى ، فقد ظن كثير من الباحثين ـ قديماً وحديثاً ـ أن أقدم شعر جاهلى وصل إلينا كان قبل الهجرة بنحو ١٥٠ سنة إلى مائتى سنة . وفى طليعة هؤلاء ، أبو عمرو الجاحظ ، الذى يرى أن العرب تشارك العجم فى البناء وتنفرد بالشعر ، فبنت غمدان وكعبة نجران وقصرى مارد ، وشعوب ، والأبلق الفرد ، كما بنت الأعاجم كريبداد ، وبيضا اصطخر ، وبيضا المدائن . والكتب ـ فى رأيه ـ أبقى من بنيان الحجارة وحيطان المدر ، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من سبقهم ، وأن يميتوا ذكر أعدائهم[2] .

---

(1) The Baekgrsund of Jslam, P. 11

(٢) الحيوان للجاحظ (ج١ : ٣٦ — ٣٧) .

فالجاحظ يضع الشعر فى تقدير العرب ، موضع البناء فى تقدير العجم ، لتخليد الآثار . والأمم عادة يتنبه فيها الوعى لتخليد آثارها منذ تستيقظ . ومعنى هذا أن الشعر العربى موغل فى القدم ، قدم الصحوة العربية الباكرة ، لأنه الوسيلة الأولى لخلود الذكر عند العرب . وهذا يتنافى مع القول بأن عمر الشعر الجاهلى ما بين ١٥٠ سنة إلى مائتى سنة . إذ المعروف أن مدنية العرب وحضارتهم أقدم من ذلك بكثير .. هذا إلى أن النمو الطبيعى للقصيدة العربية يستدعى أن تكون قد مرت بأطوار شتى فى طرق التعبير والتصوير ، وانتقلت من طور السجع إلى الرجز إلى الأوزان القصيرة الأخرى ، فالأوزان الطويلة ، ومن الحسى إلى المعنوى حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الاكتمال سواء فى ناحية الموسيقى والوزن أو ناحية البلاغة والبيان . . . ومن هنا كان رأى ثعلب ؛ الذى نقله الأصمعى ، من أن الشعر الجاهلى كان قبل الهجرة بنحو ٤٠٠ سنة ، أدنى إلى المعقول ، والمنطق السليم .. بل إن بعض الباحثين المحدثين — اعتماداً على حساب أجيال الأنساب [٤٠ سنة للجيل الواحد] — قد وصل إلى أن أقدم شعر جاهلى كان قبل الهجرة بأكثر من ستمائة سنة ، وأن أقدم المقطوعات ينسب لطى بن أدد فى القرن السابع قبل الهجرة وأن لقيطا الإيادى فى قصيدته التى مطلعها :

يا دار عبلة من محتلها الجرعا   هاجت لى الهم والأحزان والوجعا

يعتبر ناظم أول قصيدة من الطوال . وفيها ينذر قومه ويحذرهم من زحف ملك الفرس « سابور ذى الأكتاف » ، وقد قيلت هذه القصيدة فى سنة ٣٢٦ م (٢٩٦ ق هـ)[١] .

وديوان لقيط الأيادى — وهو مخطوط بدار الكتب — يعتبر — على الأرجح — أقدم دواوين الشعر الجاهلى[٢] .

---

(١) الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلى ص ١١٨ — ١١٩ .
(٢) ديوان الإيادى « ضمن مجموعة خطية برقم ٤١١٣٨ — أدب » .

أما فى النثر ، فتعتبر الأمثال المنسوبة أقدم فنون الأدب العربى ، وأن منها ما ترجع أقدميته إلى القرن الثامن قبل الهجرة ، أو القرن الثانى قبل الميلاد المسيحى ، وذلك كالمثل الذى ينسبونه إلى أبى الحجازيين « الياس بن مضر » ، وهو « السليم لا ينام ولا ينيم » .

ومهما كانت قيمة هذه الاراء فى ميزان التحقيق العلمى ، فإن الأدب الجاهلى الذى وصل إلينا مكتملا سوياً لا يمكن أن يكون حديث الميلاد لا يتجاوز عمره ١٥٠ عاماً ، فالقصيدة العربية أقدم ميلاداً وأوغل فى طوايا الزمن مما تصور الجاحظ ومن نحا منحاه من النقاد ... بيدأن أصول هذا الأدب وأطوار نموه « قد هربت منا — كما يقول « دى فرجيه » — لسوء الحظ ، فهو حين يطالع علينا لأول وهلة ، يطالع علينا من قلب الصحراء ، تام الخلقة كما خرجت « منيرفا » من ذهن جوبتير »(١) .

(١) راجع L,Arabie Par Desvergers ,472 ، تاريخ الشعر العربى للبهبيتى ص ٥ ،

الفصل الأول

أهمية الحجاز في العصر القديم

الدور الذي لعبه الحجاز قديما:

الحجاز أهم أقاليم الجزيرة العربية لأسباب عديدة:

١ ـ وقوعه قديما على الطريق التجاري، الذي يصل اليمن ببلاد الشمال.

٢ ـ يبلغ أكثر من خمس الجزيرة العربية كلها بجميع أقاليمها؛ فبينما يبلغ متوسط عرض الجزيرة ٧٠٠ ميل، نجد أن عرض الحجاز من الشرق إلى الغرب ٢٥٠ ميلا، وبينما نجد أن متوسط منتهى طول الجزيرة ١٢٠٠ ميلا، نجد أن الحجاز يبلغ طوله زهاء ٧٠٠ ميلا من الشمال للجنوب.

٣ ـ وقوعه وسط مناطق الحضارة في بلاد الشرق؛ وهي بلاد اليمن والشام ومصر.

٤ ـ أن الحجاز مركز استراتيجي مهم.

٥ ـ استقرار أتباع الديانات فيه قبل الإسلام؛ فقد رحل إليه اليهود، وأنشأوا فيه عدة مواطن، منها المدينة وخيبر وغيرهما، وكان يوجد فيه من قديم، أتباع الحنيفية، وعبدة الأوثان والأصنام، وبعض النصارى.

٦ ـ انبعاث أعظم قوة روحية عالمية من الحجاز؛ وهي رسالة الإسلام، التي نزلت على محمد بن عبد الله الحجازي المكي القرشي، والإسلام هو الذي ساد العالم إلى اليوم، وقامت على أصوله أعظم حضارة عرفها التاريخ، وأعدل حكم شهدته الشعوب التي دانت لدول الخلافة الاسلامية بالطاعة.

٧ ـ كانت قريش أعظم قبائل الحجاز، ولقريش السيادة على القبائل الحجازية خاصة والعربية عامة، منذ القدم قبل الاسلام وبعده.

---

(١) ٥٣ مهد العرب ـ عبد الوهاب عزام.

٨ — أشتمال الحجاز على مقدسات الاسلام العريقة فى المجد والتاريخ ، وهى مكة والمدينة وما يحيط بهما وما بينهما ، وعلى الآثار الاسلامية الخالدة .
وقد بقى الحجاز منذ عصر النبوة حتى اليوم محرما أن يعيش فيه أو يسكنه أو يدخل إليه غير المسلمين .

وكانت هذه المنطقة إلى جانب تجارتها الخاصة ملتقى القوافل التجارية بين وادى النيل والهند ودول شرق حوض البحر الأبيض المتوسط . وكان أهم السلع التى اتجر فيها العرب : الذهب ، والنحاس ، والأحجار النفيسة ، وقد كان من أهم موارد الذهب فى تلك الأحقاب السحيقة : ذلك المنجم الذى كان يستثمره اتحاد التعدين فى الحجاز ، ولا تزال الأحجار الكريمة تستخرج من الحجاز .

وكانت تتشعب من جنوب غربى شبه الجزيرة العربية شبكة من طرق التجارة : أحدها كان يمتد على طول الجانب الغربى ماراً بمكة متجها إلى دمشق ويدور فرع منه حول خليج العقبة ميمما شطر مصر . . . وكان ثمة طريق آخر ، يمتد إلى الخليج الفارسى عند ميناء الجرعاء ، التى تقوم الآن على مقربة من موقعها ميناء العقير ، حيث كانت سلع اليمن تشحن على السفن إلى بابل ودول الشرق الأوسط .

على أن التجارة لم تكن كل ما امتاز به الحجاز وما حوله فى العصور القديمة ، بل لقد قامت فيه — إذ ذاك — مراكز عمرانية تكونت فيها مدنية خاصة تكيفت بعوامل الجو والبيئة والظروف وما إليها ، والمعتقد أن الكثير من المعلومات الخاصة بها دفين الرمال فى انتظار المنقبين من خبراء الآثار .

على أن التاريخ حرص دائماً على أن يميز بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، إذ كان أهل الجنوب — ويقال : إنهم أصل العنصر السامى — يعيشون فى مدن ، بينما كان أغلب أهل الشمال من القبائل الرحل ، فكانت لهم ثقافة تختلف عن ثقافة أولئك . . غير أن ازدياد التجارة بين الجنوب والشمال لم يلبث أن قرب بين الفريقين . . كما هاجم الساميون من الجنوب الشمال فى أوقات

الأزمات والحروب ، واشتركوا مع الشماليين فى الحملات التى كانت تنبعث من شبه شبه الجزيرة للإغارة على الوديان الخصيبة فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وكانوا فى كل حركاتهم هـذه يحملون ثقافتهم ومدنيتهم معهم ، فيمزجونها بما لدى الشماليين ، ثم يحملون الحضارة المشتركة معهم إلى حيث كانوا يغيرون فيمزجونها بالحضارات التى كانت تقوم فى تلك الوديان .

وانفردت الجزيرة العربية — أو قل الحجاز من بينهم - بصفة خاصة — بأنها كانت مصدر المعجزات الانسانية خلال عصور التاريخ .

فهى التى وجهت العالم القديم قبل الإسلام ، وهى التى وجهت العالم بعد ظهور الاسلام ، وهى التى خرجت عظماء الانسانية خلال عصور التاريخ ، ومنها خرج محمد ابن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، ومنها كذلك انبثق نور الاسلام وشع ضوؤه على أرجاء الدنيا فى المشرق والمغرب .

ولقد قام سكان الجزيرة العربية — وفى مقدمتهم عرب الحجاز -- بكثير من الأدوار المهمة - فى تاريخ الشرق الأوسط وحضارته ، فقد كانت هذه الحضارات تتعرض للانهيار ، فكان أهل صحارى العرب ينشطون فى بعض الأحقاب ، فيبثون روح النهوض من جديد ، إذ كانت الواحات المتناثرة فى أرجاء الصحارى مراكز للمدنية ، وكانت مدنها معاقل للثقافة والتجارة والزعامة . . . وكانت القبائل الرحل كثيرا ما تغير على مراكز المدنيات فى وديان الأنهار فى شمال الجزيرة العربية - وديان دجلة والفرات وسوريا وفلسطين — فى أوقات ضعفها ، حاملة معها نقاء الصحراء وطهرها وبساطتها ، فيبثون هذا الروح الجديد فيمن تتم لهم الغلبة والسيادة عليهم ، ويأخذون عنهم ثقافتهم .

ويكفى مثالا أن نذكر أن بدو شبه الجزيرة العربية هم الذين خرجوا من ديارهم منذ ثلاثة عشر قرنا ، وقد تملكهم الايمان بعقيدة جديدة — هى الإسلام — فانسابوا ينشرون ضياءها فى الأرض .

وليس هذا هو الدور الأوحد الذى قام به العرب فيما يتصل بالحضارات التى قامت فى وديان النيل ودجلة والفرات ، بل إنهم أنشأوا علاقات تجارية وثيقة .

ولقد كان ظهور الإسلام على يدى محمد بن عبد الله ، خاتم المرسلين ، أكبر معجزة إنسانية وعاها التاريخ ، وأعظم حدث عالمى رددته الأجيال ، فلقد حول الرسول الكريم ورسالته العظمى مجرى الحياة ، وبدل سير التاريخ ، وأنقذ العالم من الفوضى والوثنية والعبودية .

وتمم خلفاء الرسول الأعظم المعجزة ، فنشروا الإسلام فى الدنيا ، وهدوا العالم إلى الحق وإلى كلمة الله ، وأقاموا للحضارة والثقافة منارا رفيعاً فى كل مكان نزلوا فيه .

وأصبح للإسلام وللعرب دولة تشد أزره ، وتستهدف أفكاره ، وتصنع للحضارة والانسانية والعالم صنيعاً مشكورا ، ولا يمكن لإنسان أن يقدره حق قدره .

وامتد تاريخ الاسلام من عهد الرسول الأعظم إلى اليوم ، وسيمتد آلاف السنين والأجيال بإذن الله .

وقد امتد كذلك تاريخ الحجاز خلال العصور والأجيال ، وشهد حكم الخلفاء الراشدين وبنى أمية وابن الزبير وآل العباس ، وحكم كثير من الدول الإسلامية التى قامت بعد ذلك ، وكذلك حكم الأشراف إلى عصر الأتراك العثمانيين فالعصر الحديث .

الفصل الثاني

تاريخ الحجاز السياسي

(أولا) في مكة

أشرنا فيما مضى إلى حكم العمالقة لمكة ، وأنه كان طورا من أطوار التاريخ القديم لها ، إلا أن التاريخ الموثوق به يبدأ من هجرة إبراهيم بإسماعيل عليهما السلام إلى مكة، وسنفصل الحديث في ذلك ، بقدر ما يتسع له المقام .

هجرة إبراهيم بإسماعيل إلى مكة:

يشير القرآن الكريم إلى أن إبراهيم هبط مكة بابنه إسماعيل عليهما السلام ثم بنيا الكعبة ، وجعلت أفئدة الناس تهوى إليها .

وتدل الروايات — تفصيلا لهذا الحادث — على أن إبراهيم حينما وضع إسماعيل وأمه ، هاجر ، بمكة ، وتركهما بهذا القفر لم يضعهما الله ، إذ حدث ظمأ إسماعيل ، فانطلقت أمه هاجر ، حتى صعدت جبل الصفا لتنظر هل ترى شيئاً فلم تر شيئاً، فانحدرت إلى الوادي ، فسعت حتى أتت المروة ، فاستشرفت لعلها ترى شيئاً ؛ فلم تر شيئاً ، ففعلت ذلك سبع مرات ، ثم عادت إلى إسماعيل وهو يدحض الحجر بقدميه ، والماء يتفجر من الأرض ، فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء حتى لا يضيع في الرمال وهي تقول : زمزم ، فسميت لذلك زمزم.

وحومت الطير حول الماء ، وكانت جرهم بواد قريب من مكة ، فلما رأت الطير قصدت نحوها ، فوجدوا هاجر وابنها إسماعيل ، فقالوا لها : لو شئت فكنا معك وآنسناك والماء لك ، فقالت : نعم ، فكانوا معها حتى شب إسماعيل وماتت هاجر ، فتزوج إسماعيل فتاة منهم ، وتعلم منهم العربية ، وأنجب نسلا كثيراً هم العرب المستعربة.

ويفنى « وليم موير » هذه القصة ، ويرى أنها بعض « إسرائيليات » ابتكرها اليهود ، قبل الإسلام ، ليربطوا بينهم وبين العرب بالاشتراك فى أبوة « ابراهيم » لهم جميعاً — إن كان « إسحاق » أبا اليهود — فإذا كان « إسماعيل » أبا العرب ، فهم إذاً أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود ، وتيسير تجارة اليهود فى شبه الجزيرة .

ويستند « موير » فى رأيه هذا ، إلى أن أوضاع العبادة فى بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم ، لأنها وثنية معرقة فى الوثنية ، وكان إبراهيم « حنيفاً مسلماً » .

ويقول « الدكتور هيكل » إن تعليل « موير » ليس كافياً لنفى واقعة تاريخية ، وإن وثنية العرب ، بعد موت إبراهيم وإسماعيل بقرون كثيرة ، لا تدل على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم إلى الحجاز ، وحين اشترك إبراهيم وإسماعيل فى بناء الكعبة ، وأنه لا يوجد ما يمنع أن يدعوا إبراهيم إلى الوحدانية ، فلا يستمع العرب لدعائه ، فقد سبق أن دعا إليها فى فلسطين ، فلم ينجح[1] .

أجمع المؤرخون على قصة إبراهيم وإسماعيل فى جملتها ، وإن إختلفوا فى التفصيل ، وسندهم فى هذا ، ما جاء به القرآن الكريم : « مصدقا لما بين يديه من التوراة » ، وكذلك السنة النبوية التى كادت تبلغ حد التواتر ، وهذه القصة من الأمور الممكنة ، التى لا يحيل العقل وقوعها ، فإن حدوث هجرات من مكان إلى آخر ، أمر جائز وواقع إلى الآن ، وحجة « وليم موير » أنه ليست لديه مصادر تؤيدها ، ولو كان منصفا لاعتبر الكتب السماوية أصح المصادر التى يركن إليها الإنسان على الأقل ، عند فقد النقوش ، فقد أثبتت الاثار المكتشفة حديثاً ، صدق روايتها فى كثير من الحوادث التاريخية ، كما جاء فى تاريخ عاد وثمود وسبأ ، وإن كثيراً من الأخبار ، لايزال مطموراً لم يكشف عنه بعد ، مع أن من غير المعقول أن هذه الكتب السماوية تكون صادقة فى البعض ، وكاذبة فى البعض الاخر ، فالمؤرخ المنصف ينبغى أن يصدق ما جاء

(١) راجع « حياة محمد » الدكتور هيكل ص ٨٩ و ٩٠ .

بها ، أو على الأقل يتريث ولا يحكم عليها بأنها أسطورة ، إلا إذا كشف البحث والتنقيب عن حقائق صحيحة ، تصادمها قررته هذه الكتب ، وهيهات أن يحدث ذلك فى كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه » ! .

ومن البعيد جداً أن يكون اليهود اخترعوا هذا القصة ؛ قبل الإسلام ، لأغراض سياسية أو اقتصادية ، ويرى محمد عليه السلام ، المصلحة فى ذلك فيقرهم عليها كما يزعمون .

بعيد هذا الزعم ، لأنه لو صح لنقل إلينا ، وبخاصة عندما اشتدت الخصومة بين اليهود والرسول ، على أثر إجلائهم عن المدينة ، بعد حروب طال أمدها ، ودماء مسفوكة من الجانبين ، فإن هذا كان ظرفاً مناسباً . دافعاً أيضاً لأن يطعن كل منهم فى نسب الاخر ، ويعتبره دخيلا عليه .

أما وأن هذا لم يحدث ، فإن صحة نسب العرب العدنانيين إلى إسماعيل وإبراهيم وهجرتهما إلى مكة ، وبنائهما البيت ، لا يصح التردد فيها بحال .

ويشير القرآن الكريم ، والتوراة ، إلى أن الله أراد أن يمتحن إبراهيم : فأمره فى منامه أن يذبح ولده ، فأخذ إبراهيم الغلام ، وألقاه على جبينه ، وهم بذبحه ، امتثالا لأمر الله ، فافتداه الله بذبح عظيم .

لم يصرح القرآن باسم الذبيح ، أهو إسماعيل أم إسحاق ؟ ولم يذكر الموضع الذى حدثت فيه الحادثة ، أكان بفلسطين أم بالحجاز ؟ وقد اختلف من أجل ذلك المؤرخون . فاليهود يرون أن الذبيح هو إسحاق ، حرصاً منهم على أن يكون أبوهم هو المفدى ، الذى استعد للتضحية بنفسه ، وينسب هذا الرأى أيضاً إلى جماعة من المسلمين ، منهم الطبرى ، وابن خلدون ، ولعل حجتهم فى ذلك ، هو ما ورد فى التوراة من قوله . خذ ابنك وحيدك الذى تحبه (إسحق) ، واذهب إلى أرض الموريا[1] » . . . الخ .

(١) راجع الإصحاح الثانى والعشرين من سفر التكوين ، الآيات ١ — ١٤ .

والمحققون يرون أن الذبيح هو إسماعيل ، بدليل ما فى سورة الصافات فى قصة الذبيح ، فإنه بعد أن ذكر قصة الذبيح ، قال تعالى : « وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين. وباركنا عليه وعلى اسحق » ، فالتبشير بإسحق بعد ذكر قصة الذبح والفداء ، دليل على أن الله حفظ له ولده الموجود — وهو إسماعيل — وبشره بوجود وارث من « سارة » هو « إسحق » وعود الضمير فى « عليه » على الغلام الذبيح ، وذكر « إسحاق » معه صريحاً يقتضى المغايرة . وقد نسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا ابن الذبيحين » أى اسماعيل ، وعبد الله.

والتوراة تذكر أن الذبيح كان وحيد إبراهيم . ولا ينطبق هذا إلا على إسماعيل الأكبر ، لأنه كان وحيد أبيه قبل ميلاد إسحاق .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار : إن لفظ (اسحاق) الذى ورد فى آية التوراة السابقة ، إنما حشر حشراً بيد اليهود ، حرصاً منهم على أن يكون أبوهم هو الذبيح(١).

بناء البيت :

وكان نزول اسماعيل وأمه هاجر بمكة ، بموضع عند البيت الحرام ، إذ لم يكن البيت إذ ذاك قد بنى ، وإنما كان ربوة حمراء مشرفة على ما حولها ، وتقول التوراة : « إن نزول إسماعيل كان فى برية فاران » وفاران : اسم جبال مكة ، ثم أمر الله خليله ، ببناء البيت الحرام ، فبناه بمساعدة ولده إسماعيل عليهما السلام . ولما ارتفع البنيان وعجز إبراهيم عن رفع الحجارة ، قام على حجر هو (مقام إبراهيم) ، واستمر يبنى حتى فرغ من البناء ، فأمره الله تعالى بالأذان بالحج ، فصعد إبراهيم على جبل أبى قبيس ، وأذن فى الناس بالحج . كما أمر الله، ثم رجع إلى قرية الخليل بفلسطين. ويقال إن إبراهيم عليه السلام قد دفن بها .

---

(١) راجع (قصص الانبياء) (قصة إسماعيل) .

بعد إسماعيل - حكم الجراهمة :

ومن هذه الأحداث نعلم أن إسماعيل صار زعيم العرب الحجازيين ، فلما مات إسماعيل ، تولى الجراهمة بعده أمر الكعبة،وظلت فى أيديهم مدة طويلة من الزمن ، ولم ينازعهم أبناء إسماعيل لأن الجراهمة أخوالهم ، ويقال : إن ولاية الكعبة كانت فى ذرية إسماعيل ، وكان يعاونهم أخوالهم من الجراهمة .

والراجح أن جرهما توجوا أحد أولاد إسماعيل ملكا عليهم ، أما سدانة الكعبة ومفاتيحها ، فكانت فى ولد إسماعيل بلا خلاف . حتى انتهت إلى « نابت » فانتزعها منه بنو جرهم ، وبقيت فيهم إلى أن بغوا واستحلوا حرمة البيت ، وظلموا من دخل مكة من الحجاج وغيرهم ، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها ، وفشت فيهم الرذائل ، وما زال أمرهم فى ضعف وانحلال ، حتى سلط الله عليهم خزاعة ، فتمكنت من قهرهم، وتغلبت عليهم ، واستولت على مكة ، واستأثرت بولاية البيت وسدانة الكعبة .

وقبل أن يبرح آخر حكامهم (مضاض بن عمرو) مكة ، عمد إلى بئر زمزم ، فأعمق حفرها ، وأودع فى قاعها ما كان بالكعبة من تحف وذخائر وأموال ، ومن بينها غزالتان من الذهب ، وسيف ودروع أخرى ، ثم طم عليها الرمال .

حكم خزاعة :

استولى الخزاعيون على أمر الكعبة ، بعد أن أجلوا الجراهمة عنهما ، ويقال : إن خزاعة أصلها قبائل من اليمن ، هاجرت منها بعد سيل العرم ، ونزلت بمكة وبقيت بها حتى لاحت لها فرصة القضاء على الجراهمة ، حوالى القرن الثالث الميلادى . وقد سادت مكة زهاء قرنين من الزمان ، يجمعون فى يدهم السلطة الزمنية (السياسية) والدينية معا ، ولم يتركوا لأهل مكة من الوظائف إلا أقلها .

ومن أشهر الخزاعيين : (عمرو بن لحى) ، الذى يقال إنه أول من أدخل عبادة الأصنام فى مكة ، وآخر من ولى من الخزاعيين (حليل بن حبشية) « وهو

الذى ظهر فى أيامه (قصى بن كلاب) ، الأب الخامس للرسول عليه السلام .

وقد عهد خليل إلى ابنته (حبى) بولاية البيت ، فقالت : إنها لا تقدر على فتح الباب وإغلاقه .

عودة الحكم إلى أبناء إسماعيل

سلالة إسماعيل :

لا تعرف عن ذرية إسماعيل كثيراً خلال هذه الفترة الطويلة ، ويبتدىء التاريخ المسلم بصحته من عدنان ، الجد الأعلى للعدنانيين ، ووارث اسماعيل جده الأعلى .

ويختلف النسابون فيمن كان بين اسماعيل وعدنان من الآباء ، فيقدره بعضهم بأربعين ، ويقدره آخرون بعشرين ، وسواهم بخمسة عشر أبا ، و يرى آخرون أنه يستحيل تقدرهم بهذا العدد لطول الزمن بين إسماعيل وعدنان(١) ، ويقال إن والد عدنان هو أدد(٢) : وقيل اسمه مقوم . وقد ولد عدنان عدداً من الأولاد ، من أشهرهم معد ، وعك .

وموطن العـــدنانيين من تهامة — ومكة من تهامة — ولكن ظروفاً قاهرة اضطروا من أجلها إلى الهجرة والتفرق . فظعنت قضاعة بن معد بن عدنان إلى اليمن . بسبب خصومات وقعت بينها وبين نزار ، فخرجت قضاعة متفرقين(٣) وتلا ذلك هجرات أخرى للعدنانيين ، فانتشروا فى مناطق واسعة ، من شبه جزيرة العرب ، حتى وصلوا العراق والشام ، فهاجرت عبد القيس وهى من ربيعة ، وبطون من بكر إلى البحرين ، وخرجت بنو حنيفة إلى اليمامة ، وأقامت سائر بكر فى اليمامة ، وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، وسكنت ثقيف الطائف ، وهوازن فى شرقى مكة بنواحى أوطاس وهى على الجادة بين مكة والبصرة ،

---

(١) ٢ ، ١٩١ الطبرى ، سيرة ابن هشام ١ : ٣ ، مروج الذهب ١ : ٣٩٤ . طبقات ابن سعد — القسم الأول من الجزء الأول ٢٨ — ٢٩ . ابن خلدون ٢ : ١٩٨ ، وراجع كتاب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » للفاسى .

(٢) الطبقات ١ ، ١ ص ٢٨ ، تاج العروس ٩ : ٢٧٥ .

(٣) ١١ : ١٥٤ الأغانى ؛ ٢ : ٢٤٠ ابن خلدون .

وسكنت بنو أسد شرقى تيماء وغربى الكوفة ، وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء الى حوران ، وبقى بتهامة بطون كنانة ، وأقامت بطون قريش بمكة وضواحيها .

ولمعد أربعة أولاد ، نزار ، وقضاعة ، وإياد وقنص[١] . ونزار هو جد القبائل النزارية ، وتتألف القبائل العدنانية من ربيعة ، ومضر ، وإياد وأنمار[٢] .

ومن نسل مضر ، إلياس ، وخلف إلياس مدركة ، ومن أبناء مدركة خزيمة ، ونسل خزيمة كنانة ، وخلف كنانة النضر وهو قريش فى أحد الآراء ، ومن بنى النضر مالك وولد مالك فهرا ، وهو قريش فى رأى آخرين ، ثم سارت سلسلة النسب النبوى إلى عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة ، بن كعب بن لؤى ، بن غالب بن فهر ، راجع جدولى المسسب إلى عدنان وإلى قصى .

قصى .

ولقصى ذكر ذائع فى التاريخ الحجازى القديم[٣] ، فقد مات والده كلاب وقصى لا يزال طفلا فى المهد ، فتزوجت أمه ربيعة بن خزام ، ورحل بها إلى الشام حيث شب قصى بين آل ربيعة بعيداً عن أهله[٤] ولما بلغ أشده رحل عن بنى ربيعة إلى مكة موطن آبائه وأجداده ، وكان النفوذ الدينى والمدنى فى أيدى خزاعة ، وحاكمهم إذ ذاك (حليل بن حبشية) .

وعز على قصى أن يرى قومه تحت سلطان الأجانب من خزاعة ، فصمم على أن ينزع منهم الأمر والسلطان ، ويبدأ ينفذ خطته بالتدريج ، فدأب على السعى والتجارة حتى كثر ماله وعظم شرفه وتزوج من «حبى» ابنة حليل بن حبشية ، أملا فى أن يرث عنه امتيازاته ، وحدث أن «حبى» حينما عرض أبوها

(١) ١ : ٧ ابن هشام .
(٢) ٢ : ٣٠٠ ابن خلدون — ص ٩ ابن حزم .
(٣) راجع كتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» للفاسى .
(٤) ولهذا سمى قصيا ، وكان اسمه فى الأصل زيدا .

عليها ولاية البيت زهدت فيها وتنحت عن تسلم المفاتيح ، فسلم «حليل» المفاتيح لرجل خر من خزاعة يسمى : أبا غبشان ، فابتدأ قصى يحتال على أبى غبشان ، حتى اشترى منه مفاتيح الكعبة .

كان قصى يعلم ما سيكون ، فاتخذ للحرب عدتها من قبل ، وما كادت خزاعة تعلم بذلك حتى هاجت وماجت ، وادعى أبو غبشان أنه لم يبع المفاتيح ، بل كان ما حدث بطريق الرهن ، وامتشق قصى الحسام ، ومن ورائه قومه من بنى إسماعيل ودافع عن الكعبة وهزم خزاعة وأجلاهم عن مكة ، وصار الأمر كله فيها لقصى ، فكان رئيسا دينياً يخصه العرب بالإجلال والتعظيم .

وقد جمع قصى قريشاً من نواح متعددة إلى وادى مكة ، ولقب من أجل ذلك (مجمعاً) . وذلك ليكون منهم عصبية بالقرابة ، وجعل قصى لكل بطن حياً خاصاً على مقربة من الكعبة ، وكان الناس قبل ذلك لا يجرؤون على البناء بجوار الكعبة مبالغة فى تقديسها ، وكانت حجة قصى فى ذلك أن يقيم على مقربة من البيت حماة له يتعهدونه بالصيانة ويدفعون عنه الخطر ، ولم يترك بين الكعبة والبيوت التى بلتها بطون قريش إلا بمقدار ما يسمح بالطواف ، فكانت البيوت كالحصون حول الكعبة من جميع نواحيها .

وبنى قصى دار الندوة ، وجعل بابها يؤدى إلى الكعبة مباشرة ، وكان قصى يتولى رياسة هذه الدار التى جعل من اختصاصها حسم المشاكل ، وحل المعضلات ، وكان لا يدخلها إلا من بلغ الأربعين من عمره ، وكانوا يزوجون فيها بناتهم ، وإذا بلغت الجارية مبلغ النساء ألبست الدرع فى تلك الدار ، وكانوا يعقدون فيها لواء الحرب ، وقد انتهى أمرها قبل مجىء الإسلام .

وكان فى يده اللواء : وهو راية الحرب فكانت لا نعقد إلا بيده ، ثم انتهى أمرها إلى بنى أمية من ذريته .

وأسندت إليه الحجابة : وهى سدانة البيت ، يفتح بابه ويغلقه حسب الحاجة ، ويتولى خدمة الكعبة ، ويكون عنده مفتاحها ، ثم استقرت بعده فى بنى شيبة .

وعلى الجملة فقد جمع قصى كل مفاخر العرب ومظاهر الشرف والسيادة والمجد فيها ، من سقاية ورفادة وقيادة ، وتولى كذلك أمر المشورة ، والسفارة والحكومة فى الخصومات ، وبذلك جمع قصى فى يده كل السلطات الدينية والسياسية فكان زعيم العرب ورئيسها الدينى ، وقائدها العسكرى ، وزعيم قريش سادة العرب . . وهكذا كانت مكة وهى أم مدن الحجاز على نصيب كبير من الثقافة والحضارة والرقى السياسى والاجتماعى، لاشتغال أهلها بالتجارة وترددهم فى رحلاتهم على الممالك المتحضرة كفارس والروم ومصر ، وأصبح فى مكة نوع من الحكومة المنظمة ، وضع أساسه قصى فى القرن الخامس الميلادى ، إذ جدد بناء الكعبة ، وابتنى كما ذكرنا دار الندوة ، ليجتمع فيها الرؤساء فيتشاوروا ويعقدوا أنكحتهم ، وألويتهم ، ويفصلوا فى خصوماتهم ويختنوا غلمانهم .

توارث أبناء قصى بعد وفاته :

وورث أبناء قصى هذه المناقب بعده إلى أن وصل الحكم إلى هاشم ، ثم إلى عبد المطلب سنة ٥٢٠ م ، وكان الذى تولى بعد قصى هو ابنه عبد الدار ، وبعد خصومات كثيرة بين سلالة قصى وزعت السلطات الدينية والسياسية فى مكة على بطون قريش ، منعا للتنازع والشحناء : وهاهى ذى[1] :

١ — السدانة : وخدمة الكعبة وحجابتها ، وبيد صاحبها مفتاح الكعبة ، ولها المقام الأول عندهم ، وكانت لبنى عبد الله .

٢ — السقاية : وهى سقى الحجاج بجلب الماء على الإبل من الآبار العذبة حتى بعثت زمزم ، وكانت السقاية فى بنى هاشم .

٣ — الرفادة : وهى ما كانوا يخرجون عنه من أموالهم ، ليرفد به من ليس ذا سعة ولا مال ، وكانت فى بنى نوفل ، وقد سن هذه السنة قصى قائلا : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته ، والحجاج ضيوف الله وزوار

(١) راجع بلوغ الأرب للألوسى — التمدن الإسلامى — محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى بك ج ١ ص ٥٠ وما بعدها .

بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا وقيل : أول من أقامها عبد المطلب [١] .

٤ — العقاب [٢] : وهى راية قريش ، ويخرجها من هى عنده وقت الحـــرب ، فإن اتفقوا على واحد حملها ، وإلا رأسوا صاحبها ، وكانت فى بنى أمية .

٥ — الندوة : الإشراف على دار الندوة ، وكانت فى بنى عبد الدار .

٦ — المشورة [٣] : وصاحبها يستشار فى الأمور الهامة ، وكانت قريش لا تقر أمراً حتى تعرضه عليه ، فإن أقره ، وإلا تخير ، وكانوا له أعواناً ، وكانت فى بنى أسد .

٧ — الأشناق : وهى الديات والمغارم ، وصاحبها إذا احتمل دية أو مغرما أعين عليه ، وإذا احتمله غيره خذل ، وكانت فى بنى تيم ، وآخر من تولاهـا أبو بكر رضى الله عنه .

٨ — القبة : وهى الخيمة التى تودع فيها أدوات الحرب ، وكانت فى بنى مخزوم .

٩ — الأعنة . وهى تولى أمر الخيل وقت الحرب وإدارة شؤنهـا ، وكانت فى بنى عدى .

١٠ — السفـارة : وهى التوسط بين قريش وغيرهـا عند الحرب ، والسعى فى الصلح ، والقيام عنهم بالمنافرة ، وكانت فى بنى عدى أيضاً ، وعمر آخر سفرائهم فى الجاهلية .

١١ — الأيسار : وهى تولى أمر الأزلام ، وكانت فى بنى جمح [٤] .

١٢ — الحكومة والأموال المحجرة : أى الفصل بين المتخاصمين وحفظ الأموال التى كانوا يسمونها لآلهتهم ، وكانت فى بنى سهم [٥] .

---

(١) المستطرف للأبشيهى . (٢) بوزان فعال كغراب .
(٣) بوزان مفعلة كمعونة . (٤) بوزن فعل كعمر .
(٥) بوزن فعل كنصر .

١٣ — العمارة(١): وهى الإشراف على المسجد الحرام، ومنع الجالسين فيه من الرفث، ورفع الصوت، وكانت فى بنى هاشم.

ومن نوع النظام الحكومى فى مكة: حلف الفضول، وحلف المطيبين وسنتكلم عنهما فيما بعد.

عبد مناف وذريته:

ساد عبد مناف بن قصى قومه، وارتفع إلى مرتبة الشرف والرياسة باذاً فى ذلك أخاه عبد الدار أكبر أولاد قصى، غير أن عبد مناف لم ينازع أخاه عبد الدار احتراماً لوصية أبيه.

واستمرت الرياسة فى يدى عبد الدار إلى أن مات، وانتقلت إلى أولاده، فنازع بنو عبد مناف بنى عبد الدار، واحتدمت بينهم الخصومة، وانقسمت بطون قريش وحلفاؤهم وجيرانهم فريقين: ففريق يعاضد بنى عبد مناف. وفريق يعاضد بنى عبد الدار. وعقد كل فريق حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا، وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ووضعوها عند الكعبة، وتحالفوا وجعلوا أيديهم فيها فسمى هذا الحلف لذلك «حلف المطيبين»، وسنشير إليه بالتفصيل.

وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم وتحالفوا فسموا لذلك «الأحلاف» ثم تجمع الفريقان للقتال، وباتت مكة على شفا حرب أهلية لا يعلم مدى خطرها إلا الله.

ولكن حرص قريش على بقاء الوحدة القومية، وضنهم بالحرم أن تسال فيه الدماء، جعلهم يتداعون إلى الصلح على وجه ينال به كل من الفريقين حظاً من ذلك الشرف الموروث. فكان لبنى عبد مناف: السقاية، والرفادة، والقيادة، والندوة. ولبنى عبد الدار: الحجابة، واللواء، على نحو ما أسلفنا. ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فى تقسيم نصيبهم. فكانت السقاية والرفادة لهاشم، والقيادة والندوة لعبد

(١) بوزن فعالة كتجارة.

شمس . ثم انتقلت منهم الندوة بعد ذلك لبنى عبد الدار . ويلاحظ فى التقسيم أن ما أفاده بنو عبد مناف أكسبهم ذكراً ومجداً خارج قريش ، فى حين أن ما أفاده بنو عبد الدار أكسبهم نفوذاً وسلطاناً فى مكة نفسها .

وقد انقسم بنو عبد مناف إلى فرعين . بيت هاشم وبيت أخيه عبد شمس ، وقد نال الهاشميون منصبى الرفادة والسقاية ، ونال عبد شمس منصب القيادة فى الحرب .

هاشم بن عبد مناف .

كان هاشم بن عبد مناف قد احتفظ بمنصبى الرفادة والسقاية ، وكان رجلا شجاعاً ذا لسان ومقام رفيع بين قومه ، ولم تكن شجاعته أقل من كرمه ، فقد دعا قومه إلى إخراج قسط من أموالهم كل عام ، يتولى إنفاقه فى إطعام الحاج أثناء المواسم ، ولم يقتصر كرمه على الحجيج ، فقد أمد أهل مكة نفسها بكثير من الميرة ، حين أصابتهم سنة مجدبة ، فزادت بذلك مكانته بين العرب ، وكان هو أول من سن رحلة الشتاء والصيف إلى اليمن والشام ، لتنظيم التجارة ، والاتصال بين البلدين .

وقد كان لهذه السنة أثر عظيم فى ازدهار مكة ، حتى لم تكن بين البلاد العربية مدينة تفوقها ، فقد غدت قبلة أنظار العرب جميعاً .

لم تكن أيام هاشم خالية من المتاعب ، فقد نغص عليه صفو الحياة ما قام به أمية ابن أخيه عبد شمس من حركة تمرد وتطاول عليه ، لما كان يتمتع به من شهرة وكثرة فى المال والولد ، وظن أمية أنه سينال بقوته ما بيد عمه من شارات الشرف . وحض الناس هاشماً على التمسك بما بيده ، إذ هو وهو شيخ كبير أحق الناس بميراث قصى وكادت الحرب تنشب بين هاشم وابن أخيه ، غير أن الأمر استقر أخيراً على أن يتحاكما إلى الكاهن الخزاعى بعسفان على خمسين ناقة تذبح بالحرم وخروج من يحكم عليه من مكة إلى بلد بعيد عشر سنوات ، وخرج كل من هاشم وأمية فى جماعة من أنصاره حتى وصلوا إلى الكاهن ، فقضى الكاهن

لهاشم[1]، ولم يجد أمية بداً من تنفيذ ما عاهد عليه ، فخرج من مكة مكرها بعد أن نحر الإبل ، ومكث بالشام المدة ، وهذه أول العداوة بين هاشم وأمية وأولادهم.

وعلى الرغم من تقدم هاشم فى السن ، فقد ظل محافظاً على الغدو والرواح إلى الشام وإلى اليمن ، وإنه لفى رحلته يوماً عائداً من الشام ، إذ عرج على يثرب مع جماعة من قريش ، فاسترعى نظره فتاة تشرف على قوم يتجرون ، فأعجب بها ، وزادت رغبته إليها حينما علم أنها ابنة عمرو الخزرجى ، إذ كان ذا شرف فى قومه ، وكانت تسمى « سلمى » فتقدم هاشم لخطبتها ، فقبلته زوجاً لها .

وانتقلت معه إلى مكة ، ثم رجعت إلى يثرب حيث ولدت لهاشم غلاما سمته شيبة الحمد ، بقى فى حضانتها فى حياة هاشم وبعد موته .

ومات هاشم بغزة ، أثناء إحدى رحلاته ، فقام بأعباء الملك من بعده أخوه المطلب ، وجمع فى يده منصب الرفادة والسقاية ، وكان يسمى « الفيض » لسماحته وكرمه .

عبد المطلب :

وقد فكر المطلب يوماً فى شيبة الحمد بن أخيه هاشم ، فذهب إلى يثرب وطلب إلى سلمى ابنة عمرو الخزرجية أن تسلم إليه الفتى ، ففعلت ، وأردفه المطلب على بعيره ، ودخل به مكة ، فظن الناس أنه عبد اشتراه المطلب ، وصاحوا : هذا عبد المطلب ، فصاح بهم المطلب ، إنه شيبة الحمد ابن أخى هاشم قدمت به من يثرب ، ولكن على الرغم من هذا غلب هذا الإسم على شيبة الحمد ، حتى صار يدعى : « عبد المطلب » .

---

(١) قال الكاهن : والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مساف ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر ؛ (ابن الأثير ج ٢ ص ١٠ . والنزاع والتخاصم بين بنى أمية وهاشم للمقريزى ص ٢ وما بعدها).

وأراد المطلب أن يعطى ابن أخيه مال أبيه هاشم ، فأبى عليه ذلك أخوه نوفل ، ووضع يده على ذلك المال ، ولما كبر شيبة الحمد واشتد ساعده — بعد وفاته المطلب — لجأ عبد المطلب إلى أهل مكة ، فرفضوا أن يدخلوا بين العم وابن أخيه ، فكتب بعد ذلك إلى أخواله بنى النجار فى يثرب ، فنصروه ، واضطر نوفل إلى رد ماله إليه قسرا ، وقام عبد المطلب فى مناصب هاشم من السقاية والرفادة ، لكنه لقى فى القيام بها مشقة ، وبخاصة السقاية ، لأنه سقاية الحاج كانت تجمع من آبار عدة مبعثرة حول مكة ، ولم يكن لعبد المطلب من يساعده غير ولده الحارث ، وشغل هذا الأمر بال عبد المطلب ، وتمنى لو أن زمزم لازالت باقية ؛ وأن مضاض بن الحارث الجرهمى ، لم يكن قد طمها فى القرون الخالية وظل عبد المطلب يعانى المتاعب فى سقاية الحاج وحده ، فهو مشغل بأمر السقاية ، وبينا هو فى منامه ، إذ ناداه هاتف : أن احفر زمزما . فقال : وما زمزم ؟ فقال الهاتف : بين الفرث والدم عند نقرة الأعصم ، وما زال الهاتف يأتيه ، حتى اهتدى عبد المطلب إلى مكان زمزم [1] .

شمر عبد المطلب عن ساعد الجد ، وجعل يحفر ، وابنه الحارث ينقل التراب والرمال ، حتى نبع الماء ، وظهرت النفائس من الذهب ، والأسياف والدروع ، التى كان قد خبأها الملك مضاض الجرهمى ، فعز على قريش أن تترك ذلك لعبد المطلب ، فنازعوه على البئر وما وجد فيها ، ولم يكن للمطلب من الأولاد عدد يستمد منهم ومن قوتهم حولا وسلطانا ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من قريش فرضخ للاحتكام إلى الأقداح لدى هبل فى جوف الكعبة ، وضربت الأقداح فوقعت النفائس من نصيب عبد المطلب والكعبة .

وكان من بينها غزالتان ، وألواح كلها من الذهب ، تنازل عنها عبد المطلب وضربها ألواحا للكعبة ، وحليا لأبواب البيت الحرام .

ولكن المسألة تركت أثرا فى نفس عبد المطلب ، ذلك أنه شعر بهوانه

---

(١) على هامش السيرة للدكتور طه حسين ، ومكان زمزم بين (أساف ونائلة) .

على قومه وضعفه بينهم وقهره على أن يرضخ لحكم القداح . ولم يكن له من الأولاد ما يجد بهم نصرة ، فنذر لئن بلغ ولده عشرة بنين يراهم قادرين على منعه من مثل ما لقى حين حفر زمزم ، لينحرن أحدهم قربانا إلى الله عند باب الكعبة ، وكرت الأعوام ، وألفى عبد المطلب حوله بنين عشرة ، كلهم أشداء قد بلغوا من القوة ما حسب عبد المطلب معه أنهم قادرون على منعه من مثل ما لقى حين حفر زمزم .

فدعا عبد المطلب أبناءه للوفاء بنذره ، فأجابوه إلى ما طلب ، فاقتادهم إلى جوف الكعبة لدى هبل ، وكتب كل واحد من الأولاد اسمه على قدح ، ثم أديرت الأقداح فى جمع من قريش . فخرج القدح على عبد الله ، أصغر أولاد عبد المطلب وأحبهم إليه .

واقتاد عبد المطلب ولده عبد الله إلى ما بين أساف ونائلة ، حيث كانت تنحر العرب أنعامها . فبكت بنات عبد المطلب ، وتعلقن بأخيهن ، ورأت قريش فى نحر عبد الله شدة وقسوة ، فتوسلت إلى عبد المطلب أن يكف عن النحر ، وأن يلتمس العذر على عدم الذبح عند هبل ، ولم يشأ عبد المطلب أن ينزل عن مراده حتى توجد وسيلة لإرضاء الله ، فتشاور القوم . وأخيرا قر رأيهم على استشارة عرافة بيثرب ، فأشارت بتقريب عشرة من الإبل تضرب عليها وعلى عبد الله القداح . فإذا خرجت القداح على عبد الله ، زيد فى الإبل عشرة ، وضربت الأقداح ثانية ، وهكذا حتى ترضى الآلهة ؛ وفعلوا وجعلت الأقداح تخرج على عبد الله فيزيد فى الإبل عشرة ، حتى بلغت مائة والناس يشهدون عند الكعبة . ثم ضربوا فخرجت القداح على الإبل ، فقال الناس : قد رضى ربك ، وقال عبد المطلب : لا حتى أضرب عليها ثلاثا فتخرج على الإبل ، فضرب ثلاثا ، فخرجت عليها ، فنحرت الإبل ، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ، ولا طير ، ولا وحش [1] .

وفى عهد عبد المطلب كانت واقعة الفيل ، بين أصحاب الفيل من طغاة الأحباش

---

(١) ج ٢ . ص ٢ و ٣ الكامل لابن الأثير .

الذين كانوا قد زحفوا على اليمن ، فاستعمروا البلاد ، ثم ما لبث أبرهة قائدهم أن صمم على الاستيلاء على مكة ، وحاول صرف العرب عن الكعبة : بهدمها وبإنشاء كعبة أخرى مماثلة لها فى اليمن ، وقد أهلك الله أبرهة وجيشه بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . وقد احتفل الشعراء الحجازيون بهزيمة الحبشة فى الحجاز ، ونظموا قصائد طويلة يصورون فيها هذا النصر الكبير ، وتجد بعض هذه القصائد فى كتاب بلوغ الأرب للألوسى (١) ، وهذا الشعر ينفى ما ذهب إليه ابن سلام ، فى كتاب « طبقات الشعراء » ، من قلة الشعر الحجازى فى العصر الجاهلى ، لعدم الحروب والملاحم (٢) .

حلف المطيبين :

دفعت الضرورة القبائل الحجازية العربية إلى تكوين الأحلاف ، للمحافظة على الأمن والدفاع عن مصالحها المشتركة .

ومن هذه الأحلاف : حلف المطيبين ، الذى عقد فى مكة ، بعد اختلاف بنى عبدمناف وهاشم والمطلب ونوفل ، مع بنى عبد الدار بن قصى ، وإجماعهم على أخذ ما بأيدى بنى عبد الدار مما كان قصى قد جعله فيهم من الحجابة واللواء والسقاية ، والرفادة ، فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا ، على ألا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضا ، ما بل بحر صوفة ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، قيل : إن بعض نساء بنى عبد مناف أخرجتها لهم ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا ، وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم ، توكيداً على أنفسهم ، فسموا المطيبين ، وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا فسموا الأحلاف (٣) .

---

(١) ٢٥١ — ٢٦٢ / ١ بلوغ الأرب . (٢) ٦٢ طبقات الشعراء ٢١ .

(٣) ابن هشام ١ : ١٤٣ ، ابن الأثير ١ : ١٨٣ ، الطبرى ١ : ١١٢٨ ، لسان العرب ١٠ : ٤٠٠ .

حلف الفضول :

دعت إليه قبائل قريش ، فتعاهدوا ، وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس ، إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد عنه مظلمته ، وسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، وكان أول بن اجتماع لقبائل قريش — من بنى هاشم وأسد وزهرة وتيم — فى دار عبد الله ابن جدعان ، حيث صنع لهم طعاما كثيرا ، ثم عمدوا إلى ماء من بئر زمزم ، فجعلوه فى جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت ، فغسلت به أركانه ، ثم أوتوا به فشربوه وتعاقدوا ، وتعاهدوا بالله المنتقم ، ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة ، وقد حضر هذا الحلف رسول الله صلوات الله عليه ، وقال فيه : لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار ابن جدعان ، ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت [1] .

معاهدات مع الأمم المجاورة :

وقد عقد القرشيون ، سادة مكة ، معاهدات على جانب كبير من الخطورة فى العصر الجاهلى مع الأمم التى تجاورهم ، وهى معاهدات اقتصادية تحمى حرية التجارة ، وينتشر فى ظلالها نفوذ العرب فى كل مكان . يروى صاحب الأمالى فى كتابه ذيل الأمالى والنوادر ما نصه [2] :

كانت قريش تجارا ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع ، فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها على من حولهم من العرب فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام ؛ فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويضع جفنة ثريد ، ويجمع من حوله فيأكلون ، وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر ، فقيل له : هاهنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم ،

---

(١) ابن هشام ١ : ١٤٥ ، الاغانى ١٦ : ٦١ ، الاشتقاق لابن دريد ص ١١١ العقد الفريد ٤:١٢ ، اللسان ١٠ : ١٩٩ — و١ : ٩٠ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية للخضرى

(٢) ذيل الامالى ص ١٩٩ .

وإنما كانت العجم تصب المرق فى الصحاف ثم تأتدم بالخبز ، فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث إليه فى كل يوم فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : أيها الملك ، إن قومى تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لى كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام ، أخذ من أشرافهم إيلافا ؛ والإيلاف : أن يأمنوا عندهم فى أرضهم بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق ، وعلى أن قريشا تحمل لهم بضائع ، فيكفونهم حملانها ، ويؤدون إليهم رءوس أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام ، حتى قدم مكة ، فأتاهم بأعظم شىء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوّزهم ، يوفيهم إيلافهم الذى أخذ لهم من العرب ، حتى أوردهم الشام وأحلهم قراها ، ومات فى ذلك السفر بغزة ، وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن ، فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر إليهم من قريش ، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم ، وكان أكبر أولاد عبد مناف ، وكان يسمى الفيض ، وهلك بردمان من اليمن ؛ وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة ، فأخذ إيلافا كفعل هاشم والمطلب ؛ وهلك عبد شمس بمكة ، فقبره بالحجون . وخرج نوفل بن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه ، فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش ، وإيلافا ممن مر به من العرب ، ثم قدم مكة ورجع إلى العراق ، فمات بسلمان . واتسعت قريش فى التجارة ، وكثرت أموالها . فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة فى الجاهلية والإسلام » .

(ثانيا) المدينة

تاريخ المدينة السياسي قبل الإسلام :

«كان ساكنوا المدينة — فى أول الدهر قبل بنى إسرائيل — قوما من الأمم السابقة ، يقال لهم : «العماليق» ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد ، وكانوا أهل غزو وبغى شديد ، فكان ملك الحجاز منهم ، يقال له الأرقم ينزل ما بين تيماء وفدك ، وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزرع ، وكان موسى بن عمران قد بعث الجنود إلى الجبابرة من أهل القرى يغزونهم ، فبعث موسى إلى العماليق جيشا من بنى إسرائيل ، وأمرهم أن يقتلوهم جميعا ولا يستبقوا منهم أحداً ، فقدم الجيش الحجاز فأظهرهم الله على العماليق ، فقتلوهم أجمعين إلا ابنا للأرقم كان وضيئا جميلا فضنوا به على القتل ، وقالوا نذهب به إلى موسى فيرى رأيه فيه ، فرجعوا إلى الشام فوجدوا موسى قد توفى ، فقالت لهم بنو إسرائيل : ما صنعتم ؟ فقالوا : أظهرنا الله عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم أحد غير فلان كان شابا جميلا فنفسنا به على القتل ، وقلنا نأتى به موسى فيرى فيه رأيه ، فقالوا لهم : هذه معصية ، قد أمرتم ألا تستبقوا منهم وألا تدخلوا علينا الشام أبدا . فلما صنعوا ذلك قالوا : ما كان خيراً لنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز ، نرجع إليهم فنقيم بها ، فرجعوا على حاميتهم فنزلوها ، فكان ذلك الجيش أول سكنى اليهود بالمدينة [1] . ويشك ابن خلدون فى صحة هذه الرواية ؛ لأنها لم توجد عند اليهود ، ولأن اليهود لا يعرفون هذه القصة .

ولكن من الراجح أن اليهود نزحوا إلى الحجاز فى بعض النكبات التى أصابتهم ، وإن كان نزوحهم ثابتا لما هدم بختنصر بيت المقدس ، وأجلى من أجلى ، وسبى من سبى من بنى إسرائيل ، ففر قوم منهم إلى الحجاز ، ونزلوا وادى القرى ويثرب وتيماء [2] . ثم لحق بهؤلاء إخوان لهم فراراً من بومبى ، ومن تيطس ، ومن هادريان .

---

(١) الأغانى ج ١١ .

(٢) تاريخ الطبرى ١ / ٢٨١ وفتوح البلدان للبلاذرى ٢١ — ٢٣ .

والحقيقة أن جموعا من اليهود المضطهدين كان يبحثون لهم عن ملجأ كلما حزبهم الأمر ، وكان هـذا الملجأ هو الحجاز [١] ، ومن المحتمل أن الأنباط حين غزوا فلسطين أسروا كثيرا من اليهود ، وأن هؤلاء الأسرى وغيرهم يمموا شطر الجنوب موغلين [٢] .

على أن عددهم بالحجاز ، قبل الميلاد بقرن ، كان ضئيلا ، لأن جريزل Grayzel نشر خريطة دقيقة لمواطن اليهود فى العالم القديم فى القرن الأول قبل الميلاد ، وسجل فيها عددهم فى كل موطن ، وليس بها إشارة إلى اليهود بالحجاز أو باليمن [٣] .

وفى الحجاز أقام اليهود ،وبنوا الحصون، وثمروا الأموال ،وزرعوا الأرض[٤] وبتطاول الزمن صارت لهم فى الحجاز مستعمرات عـدة ، منها : خيبر ، وفـدك ، ووادى القرى ، وتيما ، ومقنا . وكانت قرى كثيرة شمالى يثرب آهلة باليهود ، وهى والمستعمرات اليهودية تصور مبلغ كثرتهم وانتشارهم بالحجاز [٥] .

وكثر اليهود بالحجاز ، واختلطوا بالعرب ، لأن الأوس والخزرج نزلوا يثرب وجدوا بها عدة قبائل من بنى إسرائيل، هم بنو عكرمة ، وبنو ثعلبة ، وبنو محمر ،وبنو زغوار ، وبنو قينقاع ، وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة ، وبنو بهدل ، وبنو عوف ، وبنو الفصيص . وكان هنالك بنو ضخم ، وبنو ماسكة ، وبنو القممة ، وبنو زيد اللات ، وبنو حجر ، وبنو زهرة وبنو زبالة . وبنو ناغضة ، وبنو عكوة ، وبنو مزاية . حتى لقد نيفت قبائلهم على العشرين ، وزادت آطامهم وآطام من نزل معهم من العرب على السبعين [٦] .

وكانت معهم بطون من العرب ، منهم بنو الحرمان — حيى من اليمن — وبنو مرثد — حى من بلى — وبنو نيف — من بلى — وبنو معاوية —

---

(١) Deperceval p . 642 (٢) تاريخ اليهود لجريزل صفحة ٢٤٤ .
(٣) تاريخ اليهود لجريزل صفحة ٢٤٤ .
(٤) خلاصة الوفاء للسمهودى ص ٧٩ (٥) معجم البلدان ٧ / ٤٢٨ .
(٦) ٧٩ خلاصة الوفا .

بنى سليم — وبنو الشيظة من غسان — وبنو مزيد — من بلى — وبنو الجذمى (الجذماء) — من اليمن — .

ثم بعد سيل العرم وفد إليهم الأوس والخزرج ، واستوطنوا المدينة ، وأقام بعضهم بين القرى اليهودية ، وأقام آخرون مع اليهود فى قراهم ، ونزل بعضهم وحده لا مع اليهود ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى اليهود [١] .

والأوس : ينتسبون إلى أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة ابن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد ، وينقسمون إلى بطون ، منهم : عوف ، والنبيت ، وجشم ، ومرة ، وامرؤ القيس .

وأما الخزرج : فهم إخوة الأوس ، فالخزرج شقيق أوس ، وهم بطون ، أشهرها بنو النجار وينتسبون إلى تيم الله بن ثعلبة ، والحارث وجشم ، وعوف ، وكعب . . وكان للخزرج رئيس منهم هو عمرو بن الإطنابة ، وقد حكم الحجاز فى أيام النعمان ابن المنذر ، وقتله الحارث بن ظالم قاتل خالد بن جعفر بن كلاب .

والأوس والخزرج يدعون ببنى « قيلة » ، وهى قيلة بنت الأرقم بن عمرو ابن جفنة على الراجح . وقضى الأوس والخزرج ردحا من الزمن فى ضيق ، لأن الخيرات كانت فى قبضة اليهود ، ثم تحالفوا وتعاملوا ، وظلوا على ذلك زمنا طويلا [٢] حتى قدم أبو جبيلة الغسانى إلى يثرب ، فآزر الأوس والخزرج ، وأفنى كثيرا من اليهود .

وقد أشاد الشعراء بأبى جبيلة ، وافتخروا به ، وكان أبو جبيلة من الخزرج الذين نزحوا إلى سوريا ، واندمج فى الغساسنة ، فمن الطبيعى أن يستجيب لنصرة قومه . ثم نكل مالك بن العجلان مرة أخرى باليهود ، فنقموا منه ، ولعنوه فى بيعهم وكنائسهم .

ولكنهم بعد ذلك ذلوا وتخوفوا بطاش العرب ، وجعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشىء يكرهونه ، لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون ،

---

(١) ٨٢ المرجع السابق .   (٢) الأغانى ١٩ / ٩٦ .

بل يذهب اليهودي إلى جيرانه الذين يعيش بين أظهرهم ، لأن كل قوم من يهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم [١] .

ثم دب دبيب الخلاف بين الأوس الخزرج ، وتنازعوا السلطان ، فجرت بينهم الوقائع ، وكانت بينهم حروب طويلة ، أشهرها : الأيام المعروفة بيوم سمير ، ويوم السرارة ، ويوم حاطب ، ويوم بعاث .

وما زال الخلاف قائماً بين الأوس والخزرج ، يستعين فيه بعضهم ببعض قبائل اليهود على بعض ، حتى كان اعتناقهم للاسلام ، وهجرة النبي ﷺ إليهم سنة ٦٢٢ م ، حيث آخى بينهم وتناسوا ما كان بينهم من عداوة وأحقاد كادت أن تأتي عليهم [١] .

---

(١) الاغاني ٩١ / ٩٧ والمرأة في الشعر الجاهلي .
(٢) عصر ما قبل الإسلام ص ١٧٨ لمحمد مبروك نافع . وراجع الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار .

الفصل الثالث

طبيعة الحكم فى الحجاز فى العصر الجاهلى

الحكم القبلى :

أبطلت البحوث الحديثة نظرية « روبرتسون سميث — Robetson Smith » القائلة : إن النظام الاجتماعى فى بلاد العرب كلها واحد يمكن تلخيصه فى أن القبيلة هى الوحدة السياسية والاجتماعية ، فقد أثبت العلامة روبرت لوى R - Lowie ، أن الأسرة هى أصغر وحدة اجتماعية وأن الجماعات الكبيرة كالعشيرة والقبيلة قد نشأت من نمو الأسرة [1] .

ولذا عدت الأسرة عند أكثر الأمم قديما وحدة اجتماعية ، فكانت أشبه بحكومة صغيرة فى الأمة الكبيرة . ومن الأسر المشتركة فى الدم تنشأ القبيلة موسومة بطابع الأسر التى كونتها .

وكل خيمة فى المجتمع البدوى تمثل أسرة ، والمعسكر المكون من عدة خيام يسمى حيا وأعضاء الحى الواحد يكونون قوما ، ومجموعة الأقوام القريبة النسب يكونون قبيلة . فالقبيلة العربية إذاً هى الأساس الاجتماعى الكبير لحياة العرب . ويعد أفراد القوم الواحد أنفسهم أبناء دم واحد يخضعون لرئيس واحد ، ويتداعون إلى الحرب بصيحة واحدة ، ويضيفون كلمة « بنى » إلى الاسم الذى يجمع بينهم [2] .

ورئيس القبيلة يتميز بصفات خاصة هى التى دفعته إلى الصدارة : فهو

---

(١) R . Lowie primitive Society & Smith Religion of The Semites p. 38.

(٢) تاريخ العرب — فيليب حتى ١/٣٢ ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع .

أقوام شخصية ، وأشجعهم قلبا ، وأسخاهم يدا ، وأفصحهم لسانا ، وأوسعهم صدرا ، وأنضجهم عقلا . وهو فى الوسط من قومه ينتمى إلى آباء توارثوا المجد .

وشيخ القبيلة — أو سيدها — ينتخب انتخابا طبيعياً إذا ما توفرت له تلك الفضائل من كرم وشجاعة ، ومروءة وشهامة ، وفصاحة واسن . رحكمة وتجربة ، فاق غيره فيها . ومن حيث إن هذه الخلال لا تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء والأحفاد ، فإن سيادة القبيلة ليست منصبا وراثيا .

وفى المسائل القضائية والحربية وغيرها من الشؤون العامة لم يكن شيخ القبيلة مستبد السلطان بل إن عليه أن يستشير مجلس القبيلة المكون من زعماء الأقوام ، وبقاؤه فى منصبه رهين برضاء زمرة ناخبيه ، فسيادة الرئيس إذن ليست مبنية على التسلط والقهر والاستبداد ، وإنما منشؤها التجلة والاحترام والعدالة والديموقراطية ، والتفانى فى خدمة العشيرة . ومن قولهم المأثور : سيد القوم خادمهم » . وإذا ما ركب شيخ القبيلة رأسه واعتز بطغيانه واستبد بجماعته ، فإنه لا يلبث طويلا حتى يثور عليه بعض أفراد قبيلته ويقتلوه أو يقصوه عن الحكم .

« والعرب عامة والأعراب منهم خاصة وقد ولدوا فى مهاد الديمقراطية ، يقابل الواحد منهم شيخه ويقف منه موقف المساواة . ولم يستعمل العرب لقب ملك — فى الأغلب — إلا حينما كانوا يشيرون إلى الحكام الأجانب أوأسرتى غسان والمناذرة المتأثرتين بالنفوذ الرومانى والفارسى ، وممن شذ عن هذه القاعدة ملوك بنى كندة (١) .

والحكم القبلى على هذا النحو هو الذى كان سائدا فى البوادى والقبائل الحجازية .

أما المدن كمكة والمدينة ، فقد احتفظت بجوهر الروح الديمقراطية فى الحكم القبلى ، إلا أنها اتخذت ألوانا من التنظيم والتنسيق طبقا لما كانت عليه من درجة التحضر والرقى .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥ - ٣٦ .

الحكم فى يثرب :

فأما « يثرب » حيث تنازع السلطان فيها الأوس والخزرج ، فقد أراد كل فريق منهما أن يكون الحكم فى رجاله ، وبعد حروب استقروا على أن يكون الحكم بينهما بالمناوبة ، فيحكم فى كل عام زعيم من زعماء الحى الواحد ، يليه فى العام الثانى وبذلك يكونون قد وضعوا لهم نظام التناوب فى الحكم ، فيكون لهذه المدينة حاكم فى كل عام [1] .

وكان أهل يثرب أباة أحراراً يثورون على الظلم ، ولا يقبلون الضيم . وقد حدث أن حكم يثرب وما حولها الفطيون اليهودى ، وكان فاسقا فاجراً مستهترا ، وكانت اليهود تدين بألا تتزوج امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زوجها . ويقال : إن هذا الفاسق قد سولت له نفسه الخبيثة أن يمارس هذه الفعلة الشنعاء مع الأوس والخزرج ، بيد أن روحهم العربية الأبية أبت أن يوصموا بهذه الوصمة البغيضة ، فاندس إليه رجل من الخزرج فقتله . . . وذلك فى قصة ترويها كتب التاريخ ومؤداها « أن أختا لمالك ابن العجلان الخزرجى تزوجت ، فلما كان زفافها خرجت إلى مجلس قومها وفيه أخوها مالك ، وقد كشفت عن ساقيها ، فقال لها : « لقد جئت بسوء » ، فقالت : « الذى يُراد بى الليلة أسوأ من هذا ، أدخل على غير زوجى ! ؟ » ، ثم عادت فدخل عليها أخوها ، فأشار عليها أن يدخل مع النساء ، فإذا خرجن ودخل الفطيون قتله » ، فذهب مع النساء فى زى امرأة ، ومعه سيفه ، فلما خرجن قتله مالك وخرج هاربا . . واستنجد مالك بأبى جبيلة ، عظيم غسان (٢) فأباد كثيراً من اليهود الذين بالمدينة وصار العز بها للأوس والخزرج » .

وهكذا تخلصت يثرب من العسف والطغيان ، وقضت على سلطان الدخيل ، ومحت عن نفسها وصمة الذل والعار بسيف ابن من أبنائها البررة الشجعان .

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام جواد على ج ٤ ص ٢٣٠

(٢) كان اسمه عبيد بن سالم بن مالك بن سالم . وهو خزرجى كذلك لأنه من بنى غضب بن جشم من الخزرج . انظر الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٤٠١ — ٤٠٢

الحكم فى مكة

مكة الكبرى لقاح :

كانت مكة فى الجاهلية لقاحاً (١) لا تدين لملك ، وتأبى أن ينفرد بالحكم فيها فرد متوج أياً كان هذا الفرد ولو كان من صفوة بنيها الأخيار ، فلا تاج ولا صولجان ولا استئثار بالسلطان . ذلك لأن الحكم الفردى يخالف طبيعتها ، ويجافى فطرة أبنائها، تستنكره تهامة أعظم الاستنكار – ومكة من تهامة – بل هى قلب تهامة . يقول الجاحظ : « لم تزل مكة أمناً ولقاحاً ، لا تؤدى إتاوة ، ولا تدين للملوك (٢) . . . »

ولما طمع أحد القرشيين – وهو عثمان بن الحويرث – فى أن يملك قريشاً وأن يعقدوا له على رأسه التاج ، وافقوا – بادىء ذى بدء – لأنه تحيل عليهم ، ولكنهم ما لبثوا حين استبانوا الرشد أن فاءوا إلى طبيعتهم فانتفضوا وثاروا ، وقالوا له : « ما كان بتهامة ملك قط » ، وأقسموا باللات والعزّى على أن لا يكون ذلك أبداً . وفيما يلى نسجل حديث هذه الانتفاضة كما وردت فى التاريخ : « خرج عثمان بن الحويرث وكان يطمع أن يملك قريشا وكان من أظرف قريش وأعقلها ، حتى قدم على قيصر وقد رأى موضع حاجتهم ومتجرهم من بلاده ، فذكر له مكة ورغبه فيها وقال : تكون زيادة فى ملكك كما ملك كسرى صنعاء ، فملكه عليهم وكتب له إليها ، فلما قدم عليهم . قال : ياقوم إن قيصر من قد علمتم ، أموالكم ببلاده ، وما تصيبون من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم ، وإنما أنا ابن عمكم وواحد منكم ، وإنما آخذ منكم الجراب من الاقط والعكة من السمن والإهاب ، فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم منه .

---

(١) اللقاح : الذى لا يخضع لحكم أحد .
(٢) الحيوان ج ٣ ص ١٤١ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

فلما قال لهم ذلك خافوا قيصر وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم ، فاجتمعوا على أن يعقدوا على رأسه التاج عشية وفارقوه على ذلك . فلما طافوا عشية بعث الله عليه ابن عمه أبا زمعة الأسود بن عبد المطلب بن أسد فصاح على الجمع وكانت قريش فى الطواف قال : عباد الله . ملك بتهامة ؟ قالوا : « صدقت . واللات والعزى ، ما كان بتهامة ملك قط ! » فانتفت قريش عما كان قالت له ، ولحق بقيصر يعلمه ، وفى رواية أخرى قال الأسود بن عبد المطلب : « إن قريشا لقاح لا تملك » . وكانت نهاية عثمان أن سم ، ومات بالشام مسموما (١) .

الحكومة المكية

ويجدر بنا أن نلاحظ أن بعض المدن والقرى ، ولا سيما العربية الغربية مثل مكة ، لم يكن عليها ملك كما أسلفنا ، إنما يحكمها عدة رجال ، قسمت الأعمال بينهم ، ولا يلقب زعيمهم والمتقلد فيهم بلقب ملك . و « الملأ » ، وهم أصحاب الحل والعقد فى البلد ، الحكم فى الناس على وفق العادات والأعراف والقوانين الموروثة . ويكون لهم فى البلد مجتمع خاص يكون ناديهم ومقرهم وناديهم ومقرهم ودار حكمهم عرف بـ « دار الندوة » بمكة وبـ « المزود » عند أهل اليمن ، ويمكن أن نقول إنه مجلس تلك الزمرة ، وبرلمان ذلك العهد . ويرى بعض الباحثين أن طريقة الحكم فى أمثال هذه المدن هو ما يقال له بـ « حكومات المدن » عند المؤرخين الغربيين (٢) وقد نظر بعض المؤرخين إلى مكة من زاوية خاصة وهى اشتهار أهلها بالتجارة وأطلقوا عليها اسم « الجمهورية التجارية » ، تلك الجمهورية التى شبهها « لامنس » بجمهوريتى البندقية وقرطاجنة لسيطرة الماليين من أرباب التجارة وأصحاب رءوس الأموال (٣) كما وصفها « درمنجهم » بأنها جمهورية بلوتقراطية ،

---

(١) شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام لتقى الدين الفاسى ج ٢ ص ١٨٢ — ١٨٣ مخطوط رقم ٢٨٣١٤

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٢ — ٢٣٠ ج ٤

(٣) مجلة الشرق سنة ١٩٣٦ ص ٥٢٩ ، وأسواق العرب ص ٩١ ، ٩٢

ويقصد بكلمة بلوتقراطية أنها حكومة الأغنياء وكان يشرف عليه البارزون من بنى قصى . وهذه النزعة التجارية حتمت عليهم أن يضربوا فى جنبات الأرض شرقاً وغرباً وشاماً ويمناً وأن يحتكوا بالفرس والرومان وغيرهم من أصحاب الحضارات القديمة ، ومن المرجح أنهم استفادوا من بعض الأنظمة الاجتماعية التى وجدوا عليها الروم وفارس حتى ظن بعض المؤرخين المحدثين أن دار الندوة نفسها ما هى إلا « اقتباس مغير مصغر ، عن مجامع الروم الدينية والمدنية »[1] ، بيد أننا نعتقد أن هذه الدار قد انبثقت من صميم الروح الديموقراطية العربية التى كانت تسرى فى دم قصى وفى الملأ الذى عاشوا فى بيئته وعصره ، وأن استمرار هذا البرلمان القرشى وبقاءه حتى بزوغ فجر الإسلام يعتبر دليلا على أصالة هذه الروح وحب القرشيين للشورى وإيثارهم لرأى الجماعة على رأى الفرد ، ولم تكن حكومة قريش هى حكومة الأغنياء التى يسيطر فيها أصحاب رءوس الأموال كما يصور ذلك بعض المستشرقين ومن لف لفهم من المؤرخين العرب ، وإنما كانت حكومة ديموقراطية تستهدف إقامة العدالة الاجتماعية والقضاء على مشكلة الجوع والفقر . . . ونحن لا ننكر أن فئات من قريش قد أثرت ، وأن بعض هذه الفئات قد تولى السلطان ؛ بيد أن هؤلاء لم يكونوا يستغلون نفوذهم للثراء الفاحش وامتصاص دم الشعب ، وإنما كانوا يتخذون السبل المشروعة لجمع المال ، ثم ينفقونه فى وجوه البر والخير كإطعام الحجاج ومساعدة المعتفين والمحتاجين وتحمل الديات ، فالمناصب الحكومية كانت مغارم عليهم لا مغانم لهم . بل إن اشتغالهم بالتجارة لم يكن إلا لتعففهم عن الغزو والسلب والنهب ، حتى كان بعض القرشيين إذا أجدبوا ولم يجدوا ما يحفظ رمقهم ورمق أبنائهم يلتحون مكاناً قصياً حتى يموتوا جوعاً مؤثرين الموت الشريف على الحياة التى يجللها عار السرقة والنهب .

ولم تكن رحلة الشتاء والصيف إلا ليخلقوا مجتمعاً سوياً لا يحس فيه أحد منهم بألم الجوع وذل الفقر ، فالأغنياء والقادرون على العمل والكسب كانوا

---

(١) أسواق العرب ١٠٩

يعملون فى التجارة صيفاً إلى الشام وشتاء إلى اليمن حتى إذا انتعشت الحياة الاقتصادية وارتفعت نسبة الدخل القومى ، تضاءلت نسبة الفقراء ، فإذا بقى بعد ذلك فقير أو عاجز أو مستضعف كان له حظ فى أموال الأغنياء ، بل كانوا يخلطون فقيرهم بغنيهم ، فإذا الكل على حد سواء .

هذه ظاهرة من ظواهر الرقى الاجتماعى الذى حققته حكومة قريش وبرلمانها « دار الندوة » ، تلك الدار التى لم يكن يدخلها للمشورة من غير بنى قصى إلا من بلغ أربعين عاما ، فى حين كان يدخلها بنو قصى وحلفاؤهم جميعا .

وقد رأى بعض المؤرخين المحدثين فى هذا التفريق لوناً من الامتياز ، فوسم قصياً مؤسس هذه الدار بأنه « كان أرستقراطياً » ، ولكن يخفف من هذا النقد أن أولاد قصى كانوا من الكياسة والنضج وحسن التدبير للأمور فى المكان الأرفع . أضف إلى ذلك أن دار الندوة كانت تستقبل كل حكيم مفوه ولو لم يبلغ الأربعين مما يدلنا على أن قصياً لم يكن يقصر عضوية دار الندوة على أبنائه وحدهم ، وإنما كان يفتح أبوابها لكل نابغة محنك فهو إذن لم يكن يستهدف إلا قوة الشخصية والنضج العقلى .

أول رئيس للحكومة المكية :

ولقد كان زيد بن كلاب ، زعيم النهضة القرشية ، وسمى قصياً فيما بعد ، لأنه نشأ بعيداً عن موطنه الأصلى (مكة) ، فقد كان طفلا عندما مات أبوه كلاب . كما سبق فى الفصل السابق ، وسرعان ما تزوجت أمه فاطمة من رجل من بنى عذرة فى حدود الشام ونشأ هناك ولما استوى عوده عاد إلى مكة وكان النفوذ الدينى والمدنى فى أيدى الخزاعيين ، فعز على قصى أن يرى الأجانب سادة على قومه القرشيين ، فعقد العزم على أن ينتزع منهم السلطان وتزوج من ابنة زعيم خزاعة « حليل بن حبشية » ، ولما مات حليل — وكان قد أوصى له بحكم مكة وولاية البيت من بعده كما تذكر بعض الروايات — نشب الخلاف بين قصى وقريش ، وبين خزاعة ، وانضمت بكر لخزاعة ، كما انضمت كنانة وعذرة لقريش وظلت الحرب بينهما سجالا حتى حكموا فيما بينهم رجلا من كنانة فقضى لقصى بولاية

الكعبة وحكم مكة ، وبذلك أصبح قصى رئيساً للجمهورية المكية وزعيما لديانتها، وكان أول ما صنعه قصى أن جمع قريشا وأسكنها وادى إبراهيم ، فنزل سادتها وسراتها فى ما بين الأخشبين ويسمون قريش البطاح ، ونزل سائر قريش فيما وراء ذلك بظاهر مكة فسموا قريش الظواهر .

وكان لقصى كل الوظائف الرئيسية دينية كانت أم سياسية ، وكان — كما سبق — رئيساً لدار الندوة وبيده اللواء والرفادة والحجابة وإذا ما استعرنا الاصطلاح الحديث — مع شيء من التجاوز — قلنا إنه كان مهيمنا على السلطات التشريعية والمالية والحربية وكان القائد الأعلى للجيش كما كان كبير مستشارى الدولة ، ورئيس الجمعية الوطنية فى الحكومة المكية الفتية ، وكان — لشخصيته القوية ونفوذه الواسع وجمعه لهذه المناصب الكبيرة — زعيما لبلاد العرب ورئيسها الدينى الأعلى .

الحزب الهاشمى والحزب الأموى :

كان قصى فى حياته قد وكل أمر اللواء والرفادة وغيرها لابنه عبد الدار وإذا كان من الطبيعى أن يتولى السلطان بعد وفاة والده ، وظلت السلطات فى أيدى بنى عبد الدار وأحفاده ، ونستطيع أن نقول إنه كان يحكم قريشا فى هذه الفترة حزب واحد . حتى نشأ الخلاف بين عبد مناف وعبد الدار ، ووزعت بينهم السلطات على نحو ما سبق بيانه ، فأصبحت الحكومة القرشية حكومة ائتلافية يشترك فيها حزبان كبيران ، بيد أن سلالة عبد مناف احتفظت بالزعامة الحقيقية لمكة ، وانقسم بنو عبد مناف بدورهم إلى حزبين : هما بيت ابنه هاشم ، وابنه عبد شمس ، ولقد احتفظ البيت الهاشمى بمنصبى الرفادة والسقاية ، فكسب بذلك نفوذاً ثبتته حسن إدارة المطلب ، ثم ابن أخيه عبد المطلب من بعده . الذى اعتبرته مكة — كما اعتبرت أباه هاشماً من قبل — زعيم شيوخ مكة .

أما فرع أمية بن عبد شمس فانه كان كثير العلاقات بالبيوت الأخرى ، وأكسبته علاقاته هذه نفوذاً ، واحتفظ بمنصب هام هو القيادة فى الحرب .

« وبلغ التنافس بين هذين الحزبين أشده إبان البعثة النبوية . ولكن باعتناق مكة الإسلام اختفت هذه المنازعات إبان الحماس الدينى والفتوح الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين [١] » .

العدالة السياسية والتكافل الاجتماعى :

بعد هذا سنعرض بعض المشكلات الجوهرية التى تواجه عادة الحكومات والمجتمعات فى كل عصر ومصر ، لنرى كيف حلها المجتمع القرشى والحكومة القرشية .

فأما المشكلة الأولى فهى مشكلة الأمن الداخلى لسلامة الوطنيين وغير الوطنيين سواء كانوا من الجاليات الأجنبية ، أو من العرب الذى يفدون إلى مكة وأسواقها لأغراض دينية أو تجارية أو أدبية ، وقد وجدت قريش أن قوة القانون وحدها لا تكفى لتحقيق هذا الغرض بل لا بد من حصانة خلقية تسوق المجتمع لحماية الأفراد من العدوان أياً كان هذا العدوان ، ولا بد أن يستشعر القرشيون بوصفهم ـ مواطنين لا بوصفهم حكاما ـ أن عليهم أن يردوا المظالم وأن يأخذوا بيد الضعيف والمظلوم وأن ينتصفوا له من ظالمه أياً كانت شكيمته . وهذا اللون من الالتزام والشعور بالمسئولية ما ساد مجتمعا من المجتمعات إلا رفرف عليه روح الأمن والطمأنينة والسلام وأصبح فى الذروة من الرقى والحياة الحرة الكريمة .

كان ذلك فى دار عبدالله بن جدعان حيث اجتمعت طوائف من قريش تنتظم بنى هاشم وأسد وزهرة وتيم وتعاقدوا على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم . فاعجب لأناس ينتصفون للخصم والمظلوم من أنفسهم قبل غيرهم . وبعد إبرام هذا الحلف العظيم الذى كان يسمى حلف الفضول قدم رجل من خثعم مكة تاجراً ومعه ابنة له اسمها القتول من أوضأ نساء العالمين وجها ، فعلقها نبيه بن الحجاج السهمى فلم يبرح حتى نقلها إليه وغلب

---

(١) تاريخ العرب : عصر ما قبل الإسلام ص ١٨١ — ١٨٢

أباها عليها ، فقيل لأبيها : عليك بحلف الفضول ، فأتاهم فشكا ذلك إليهم ، فأتوا نبيها ، فقالوا : أخرج ابنة هذا الرجل ، وهو يومئذ منتبذ بناحية مكة وهي معه ، فأخرجها إليهم فأعطوه إياها وركبوا معهم الخثعمي .

وأما المشكلة الثانية ، فهي مشكلة العوز والفقر وتحقيق العدالة الاجتماعية في المجتمع المكي ؛ تلك المشكلة التي لا تزال الحكومات والمجتمعات الحديثة تشكو منها ، ويستبين عجزها الفاضح عن حلها . . قد حلتها قريش بأسلوب ، مهما قيل في بساطته ، فقد كفل القضاء على الفقر والإدقاع ؛ إذ ألزمت الأغنياء بكفالة الفقراء ، وبذلك دُفِعَ عن ذوي الحاجة غائلة الخصاصة ، وأصبح الأغنياء والفقراء في ميزان الحياة على السواء بهذا التكافل الاجتماعي الذي غدا مبدأ مرعيا ، وسنة من سنن المجتمع المكي منذ عهد هاشم حتى مجيء الإسلام .

فلقد كانت قريش إذا أصاب واحداً منهم مخمصة ، خرج هو وعياله إلى موضع ، وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا ؛ إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له أسد . وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه ، فشكا إليه الضر والمجاعة . فدخل أسد على أمه يبكي . فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياما . ثم أتى ترب أسد مرة أخرى وشكا إليه الجوع فقام هاشم خطيبا في قريش فقال :

« إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون . وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم ، والناس لكم تبع »قالوا : نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف » .

فجمع هاشم كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم . فجاء الاسلام وهم على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش .

وهذا معنى قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافى [1]

وأما المشكلة الثالثة فهى مشكلة المحافظة على الكيان السياسى والاقتصادى ، وقد اتخذت قريش الوسيلة لحلها عن طريقين : أولها الطريق السلمى الذى يعتمد على المعاهدات السياسية والتجارية والتى تؤمن الشريان الحيوى لتجارتها عبر الصحراء إلى الشام واليمن وثانيهما قوة الدفاع الوطنى التى تعتمد أولا على السواعد القوية لقبيلة قريش الفتية ، وثانيا على طائفة الحبش من فلول جيش أبرهة وغيرهم ، وعلى حلفاء قريش من العرب الذين كانوا يسمون « الأحابيش » .

أحابيش قريش قوة الدفاع العسكرى :

ويستعمل لفظ « الأحابيش » فى الدلالة على القوة العسكرية التى كانت تستأجرها قريش قبيل الإسلام ، للدفاع عن بلدها وقوافلها التى كانت تتردد بين الشام واليمن .

ويؤخذ من صريح النصوص العربية ، لغوية كانت أو تاريخية ، أن هـذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمة اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة ، ومن خزاعة التى كانت تنزل بظاهر مكة ، بهذه النصوص أخذ المستشرق الألمانى الكبير فلهاوزن . فقال فى كتابه الذى ألفه « عن الوثنية العربية » هـذه العبارة : « الأحابيش أحلاف قريش السياسيون » .

ولكن لامانس المستشرق اليسوعى المعروف نشر فى المجلة الأسيوية مقالا ضافيا ذهب فيه أن رواة اللغة العربية قد وهموا فى تفسير هذا اللفظ وأن الأحابيش كانوا كلهم ، أوجلهم على أقل تقدير ، زنوجا من بلاد الحبشة ، وأن رواة السيرة تعمدوا القول بأنهم عرب ، أنفة من أن يقولوا إن قريشا كانت فى الجاهلية تستعين بالسودان فى الدفاع عن حوزتها . بيد أن المرحوم عبد الحميد العبادى قد أثبت : —

١ — أن الأحابيش كانوا عربا .

---

(١) الكافى : الغنى . راجع بلوغ الأرب ص ٣٦٨ ج ٣ .

٢ — وأن القول بعربيتهم هو المتفق مع تاريخهم .

٣ — وأن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم فى حروبها لم يكونوا من الأحابيش فى شىء

وقد لاحظ أن التفسير اللغوى لكلمة الأحابيش يفيد ثلاثة معان خاصة : —

١ — الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة .

٢ — التجمع والتأشب .

٣ — كثرة العدد ويكنى عنها بالسواد ، لأن العرب تنعت الشىء إذا كثر وتكاثف بسواد اللون .

وهذا التفسير اللغوى يتمشى مع مدلول الأخبار الواردة فى بيان أصل نظام الأحابيش . قال ابن إسحاق : والأحابيش : بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة . وقال ابن هشام : « تحالفوا جميعا فسموا الأحابيش ، لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة »(١) ، ويقول صاحب معجم البلدان : — « حبشى . . . جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك ، يقال به سميت أحابيش قريش ، وذلك أن بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة اجتمعوا عنده وحالفوا قريشا ، وتحالفوا بالله : انا ليد واحدة على غيرنا ، ما سجا ليل ووضح نهار ، ومارسا حبشى مكانه . فسموا أحابيش قريش ، باسم الجبل ، وبينه وبين مكة . ستة أميال . . . »(٢) .

ومن هذه النقول التاريخية نأخذ أن الأحابيش :

١ — كانت أحياء عربية تنتمى إلى كنانة وخزيمة وخزاعه .

٢ — أن هذه الأحياء تجمعت بواد يقال له الأحبش ، أو عند جبل يقال له حبشى ، وتحالفت فسميت الأحابيش .

٣ — أنها حالفت قريشا على التناصر والتآزر ، فالمدلول التاريخى لكلمة « الأحابيش » متمش مع مدلولها اللغوى .

(١) سيرة ابن هشام : طبعة جوتنجن ٢٤٥ — ٢٤٦ .

(٢) معجم البلدان . حبشى .

وجنسية الأحابيش العرب يؤكدها تاريخ حلفهم الذى نرجح أنه قام فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى وانتهى بفتح الرسول مكة سنة ثمان للهجرة . فإنا إذا رجعنا إلى تاريخ عصر النبوة وجدنا الأحابيش طوال ذلك العصر الخطير قوة عربية لها خصائص القبيلة : من سيد يتزعمها ، وأرض تنزلها ، وراية تحف بها عند الحرب ، وأنها كانت من حيث علاقاتها السياسية بقريش تنزل منها منزلة الحليف من الحليف ، والند من الند ، وأنها كانت مسموعة الكلمة فى الشئون العامة لقريش . .. فالأحابيش عرب وليسوا زنوجا ، وقد كانوا حلفاء لقريش تستأجرهم للدفاع عن كيانها الاقتصادى .

وقد كان بمكة قوة من الحبش حقا . ولكن هذه القوة لم تكن من الأحابيش فى شىء ؛ بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد ، مسخرة لأشراف مكة فى حالى السلم والحرب . ومما يدل على تمييز هذه الطبقة من الأحابيش قول الطبرى فى غزوة أحد :ـ

« فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعبدان أهل مكة » ، وعطف عبدان على ما قبلها هنا عطف نسق يفيد المغايرة ، وليس عطف توضيح وبيان كما يرى لا مانس (١) » .

وبعض طبقة الحبش قدشرى بالمال ، وبعضها كان من فلول حملة أبرهة الحبشى على الحجاز . . يقول الأزرقى : « وأقام بمكة فلال من الحبش وعسفاء وبعض من ضمه العسكر يعتملون ويرعون لأهل مكة (٢) » ، وعرف عنهم خلتان : إطعام الطعام ، والبأس يوم البأس . ومن هذه الطبقة وحشى قاتل حمزة يوم أحد ، وصؤاب حامل لواء قريش فى ذلك اليوم .

وقصارى القول : أن القوة العسكرية لمكة لم تكن تعتمد على سواعد القرشيين وحسب ، وإنما كانت تنتظم كذلك طوائف من الحبش الأرقاء ، ومن

---

(١) صور من التاريخ الاسلامى . العصر العربى — الأستاذ عبد الحميد العبادى . ص ١٣ — ٢١ .

(٢) أخبار مكة للازرقى ص ٩١ ، جـ١ — طبعة مكة .

الأحابيش الأحرار ، هؤلاء الأحابيش الذى استأجر أبو سفيان منهم عدداً يبلغ الألفين فى يوم أحد .

وقد كانت قريش إذا أزمعت حرباً تتلقى اللواء من يد زعيمها قصى الذى كان يمثل الرئيس الأعلى للجيش ، فقد كان يعقد رقاعاً من القماش الأبيض على أطراف الحراب ويقدمها بنفسه ، أو يبعثها مع أولاده ، إلى زعماء قريش . وقد ظل هذا التقليد - الذى يسمى « عقد اللواء » منذ أن أنشأه قصى - إلى آخر أيام الفتوح العربية جارياً .

وبعد أن مات قصى أصبح زعيم قريش عبد الدار أكبر أبنائه ، وتولى أبناؤه بعد وفاته تلك الوظائف التى أسلفنا ذكرها ، ومن بينها اللواء ، ووليها من بعدهم أحفاده ، ولكن خلافاً نشب بين بنى عبد الدار وبنى عبد مناف ، كاد يفضى إلى القتال لولا أن الفريقين اتفقوا على أن تكون السقاية والرفادة لعبد شمس بن مناف ، وأن تظل الحجابة والندوة واللـــواء فى أيدى بنى عبد الدار مما أكسبهم نفوذاً وسلطاناً قوياً فى مكة ذاتها .

وكانت قريش تميل للسلام ، وإذا ستعرنا أسلوب العصر الحديث ، قلنا إنها كانت من دعاة التعايش السلمى peaceful Coexistence ، ولكنها إذا اضطرت للقتال كافحت كفاح الأبطال ، وربما بدا من بعض أفرادها ما يشبه أفعال الفدائيين أو الفرق الانتحارية فى الحروب الحديثة . وفى إحدى حروب الفجار التى كانت بينها وبين قيس عيلان جمعت قيس جموعها ومعها ثقيف وغيرها ، وجمعت قريش جموعها منهم : كنانة جميعها ، والأحابيش ، وأسد بن خزيمة . وخرجت قريش للموعد على كل بطن منها رئيس بعد أن تسلحت ، فكان على بنى هاشم : الزبير بن المطلب ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإخوته أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، بنو عبد المطلب . وعلى بنى أمية وأحلافها : حرب بن أمية ، وعلى بنى أسد بن عبد العزى خويلد بن أسد ، وعلى بنى مخزوم هشام بن المغيرة أبو أبى جهل ، وعلى بنى تيم : عبد الله بن جدعان ، وعلى بنى جمح معمر بن خبيب بن وهب ، وعلى بنى سهم العاص بن وائل . وعلى بنى عدى

زيد بن نفيل والد سعد بن زيد ، وعلى بنى لؤى عمرو بن عبد شمس والد سهيل بن عمرو ، وعلى بنى فهر عبد الله بن الجراح والد أبى عبيدة وعلى الأحابيش الحليس ابن يزيد وسفيان بن عويف ، وعلى بنى بكر ، بلعاء بن قيس ، وعلى بنى فراس ابن غنم من كنانة عمير بن قيس جذل الطعان ، وعلى بنى أسد ابن خزيمة بشر ابن أبى خازم ، وكان القائد العام لهذه الجيوش جميعها حرب بن أمية .

وسارت قريش حتى نزلت عكاظ وبها قيس ، وكان مع حرب بن أمية اخوته سفيان ، وأبو سفيان ، والعاص ، وأبو العاص . فعقل حرب نفسه وقيد سفيان وأبو العاص نفسيهما وقالوا : لن يبرح رجل منا من مكانه حتى نموت أو نظفر . . . فيومئذ سموا العنابس ، والعنبس : الأسد . واقتتل الناس قتالا شديدا فكان الظفر أول النهار لقيس وانهزم كثير من بنى كنانة وقريش ، وثبت حرب بن أمية وبنو عبد مناف وسائر قبائل قريش ، ولم يزل الظفر لقيس على قريش وكنانة إلى أن انتصف النهار ، ثم عاد الظفر لقريش وكنانة فقتلوا من قيس وأكثروا ، وحمى القتال واشتد الأمر ، فقتل يومئذ تحت راية بنى الحرث بن عبد مناة ابن كنانة مائة رجل وهم صابرون وانهزمت قيس وقتل من أشرافهم عباس ابن زعل السلمى وغيره ، ولما رأى سبيع بن ربيع بن معاوية هزيمة قبائل قيس عقل نفسه واضطجع وقال : يامعشر بنى نصر ، قاتلوا عنى أو ذروا . فعطفت عليه قبائل من قيس وقاتلوا قتالا شديدا ، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح ، فاصطلحوا على أن يعدوا القتلى ، فأى الفريقين فضل له قتلى ، أخذ ديتهم من الفريق الآخر . فتعادوا القتلى ، فوجدوا قريشا وبنى كنانة قد أفضلوا على قيس عشرين رجلا ، فرهن حرب بن أمية يومئذ ابنه أبا سفيان فى ديات القوم حتى يؤديها ورهن غيره من الرؤساء أبناءهم ، ووضعت الحرب أوزارها [1] .

وقد كانت مستودعات الأسلحة فى القبة كما سبق وفى دور أشراف قريش ؛ إذ كان كل سرى من سراتهم يحتفظ لديه بكمية وافرة من العتاد والسلاح

---

(١) بتصرف الكامل . ص ٣٦١ - ٣٦٢ ج ١ .

يفرقها على الجنود وقت الحاجة ، ففى حرب الفجار فرقت قريش السلاح فى الناس فأعطى عبد الله بن جدعان التيمى مائة رجل سلاحا تاما ، وفعل الباقون مثله (١) .

ويلوح لنا أن دار ابن جدعان كانت بها أماكن خاصة لحفظ الأسلحة ؛ لأنه لم يكن يختزن عتاده الخاص الذى يذود به قريشا إذا حزبها أمر وحسب ، وإنما يحفظ كذلك أسلحة العرب الذين يفدون إلى عكاظ لتبقى عنده ، حتى إذا فرغوا من حجهم وأسواقهم ، استردوها ورجعوا لديارها .

* * *

وقد كان من الطبيعى ـ استيفاء لبحث الحياة السياسية فى الحجاز ـ أن نعقد فصلا لأيام قريش وأيام الأوس والخزرج ، ولكنا آثرنا إرجاء ذلك إلى حين نتحدث عن الشعر السياسى .

---

(١) الكامل لابن الاثير ص ٣٦١ ج ١ .

الباب الثانى

الحيــــاة الاجتماعية

لعرب الحجاز فى العصر الجاهلى

الفصـــل الأول

(١)

تمهيـــــد :

كان بين عرب الحجاز العدنانيين ، وعرب اليمن القحطانيين فروق كثيرة ، فى شتى نواحى التفكير والحياة والمعيشة :

فمن حيث كان عرب الجنوب يعيشون عيشة استقرار وإقامة غالباً ؛ لأنهم كانوا يسكنون فى مدن عامرة ، كان عرب الشمال على عكس ذلك ؛ لا يستقرون فى مكان ، بل يتنقلون غالبا وراء أرزاقهم فى بادية العرب ، ومساكنهم تبعا لذلك يحملونها معهم على ظهور الإبل ويضربونها حيث يطيب لهم المقام ، لأنها كانت خفيفة تنسج من صوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز ، ولم يتحضروا إلا فى مكة والمدينة والطائف وبعض مدن قليلة فى الحجاز إبان ذلك العصر الجاهلى البعيد .

وحين كان يغلب على أهل الجنوب الحضارة والمدنية إذ كان لهم حظ كبير فى العلوم والمعارف ويحذقون كثيرا من الصناعات المختلفة : كصقل السيوف ، وتقويم الرماح ، ونسج البرود . والأكسية والثياب ؛ كان عرب الشمال أهل بداوة يحتقرون الصناعات وبعض العلوم غالبا ، وذلك تبعا للبيئة والأمم المجاورة

— ٢ —

وكانت الأمية تغلب على العرب جميعاً ، سواء منهم أهل الجنوب أم الشمال ، غير أن أهل الجنوب كانوا أكثر إلماماً بصناعة الكتابة من أهل الشمال كما كانوا أسبق منهم إلى معرفة الخط .

وكان الخط اليمنى يكتب بحروف منفصلة ويسمى المسند الحميرى . وهو مشتق من الخط الفينيقى المأخوذ من الهيروغليفي (المصرى القديم) . ومن اليمن انتقل الخط المسند إلى كندة والنبط ، ومنها إلى الحيرة والأنبار ، ثم نقل إلى الحجاز على يد حرب بن أمية بعد أن دخله تغيير أبعده عن صورة المسند الحميرى .

فالخط المصري من أقدم الخطوط المعروفة ، وهو مبدأ سلسلة الخط العربى باتفاق المؤرخين : غربيين وشرقيين ، وعنه أخذ الفينيقيون « سكان ساحل الشام غربي جبال لبنان » خطهم الفينيقى لترددهم على مصر بالتجارة ، إلا أنهم زادوا فيه حروفا ، وأدخلوا عليه من التعديل ما صيره أسهل تناولا . وعن الفينيقيين أخذت أمم شتى (أصول) خطوطها ، ففى شمال بلاد العرب الآراميون وهم من الأمم السامية القديمة التى كانت تسكن شمالى بلاد العرب فى فلسطين والشام والعراق ، وفى جنوبها الحميريون .

ومن هنا اختلف مؤرخو العرب والفرنجة ، فيرى الأولون أن النبطيين « سكان مدين والعقبة والحجر وفلسطين وحوران » أخذوا خطهم عن الحميريين ، وأصحاب المسند ، بدليل ما عثر عليه فيها من الآثار الكتابية بالخط المسند ، ولأن النبط كانوا متصلين باليمن تجاريا ، وكان اليمنيون فى ذلك الوقت على جانب عظيم من الحضارة ، ثم أخذ أهل الحيرة والأنبار خطهم عن هؤلاء النبط ، وعن كندة التى أصلها من حمير ، وعن هاتين المدينتين انتقل الخط الحميرى « النسخى » إلى الحجاز ، بوساطة بعض التجار الحيريين[1] ولكن لم يتعلمه منهم

(١) ويقال : إن حرب بن أمية كان قد صادق بشر بن عبد الملك ، أخا أكيدر صاحب دومة الجندل ، بسبب أسفاره التجارية ، واستصحبه إلى مكة ، وزوجه بنته =

إلا القليل ولذا سموا بالأميين وكان خطهم ضعيفا ، ودون ما كان عليه عند حمير بمراحل ، لمكانهم من البداوة ومكان أولئك من الحضارة ، كما يقول ابن خلدون . وقد عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بدر على نشره بتشجيعه المعروف .
وخلاصة رأى هؤلاء المؤرخين : أن الخط الحجازى النسخى ، مأخوذ عن المسند لا عن الآرامى أخيه ، فمنشأ الخط كان فى اليمن [1] ، ثم انتقل منها إلى العراق ، حيث

= الصهباء ، فأقام بمكة مدة ، علم بها نفرا من أهلها الكتابة ، منهم حرب هذا ، وقيل إن الذى علمهم هو عبد الله بن جدعان وقيل غير ذلك ، وقد أشار إلى الرواية الأولى بعض الشعراء فقال :

ولا تجحدوا نعماء بشر عليكم فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو من المال ما قد كان شتى مبعثرا
فاجريتمو الأقلام عودا وبدأة وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا

وخط الجزم هو الخط الذى تفرع من المسند الحميرى .

(١) ويذهب البعض إلى أن الخط العربى من وضع جماعة من طيء ، سكنوا الأنبار ، وضعوه قياسا على هجاء السريانية (٤ : ٢٤٢ العقد الفريد) ، ثم تعلمه منهم أهل الأنبار ، وأخذه عنهم أهل الحيرة ، أخذه بشر بن عبد الملك ، أخو أكيدر صاحب « دومة الجندل » وكانت له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم فى بلاد العراق ، فتعلم حرب منهم الكتابة ، ثم سافر مع بشر إلى مكة ، فتعلم منه جماعة من أهلها (٣ : ٣٦٨ بلوغ الأرب ، ٢ : ٢٤٦ المزهر) .
ورأى بعض آخرون أن أهل مكة تعلموا الكتابة من إياد أهل العراق ، وكانوا يكتبون (٣ : ٣٦٩ بلوغ الأرب) .
و يذهب آخرون إلى أن اسماعيل هو الذى وضع الكتابة العربية (٢ : ٢٤٢ المزهر) .
وذهب غيرهم إلى أن أول من وضع الكتابة هم أبناء اسماعيل (ص ٧ الفهرست لابن النديم) . . وقيل واضعها جماعة . هم : أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت ، فكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز ، والباقون ملوكا بمدين ، وقيل ببلاد مضر (٢ : ٢٤٨ المزهر) .

تعلمه أهل الحيرة ، وعنهم تعلمه أهل الأنبار ، وعنهم أخذه جماعة أخذه جماعة من أهل الحجاز ، وينسب هذا الرأى لابن عباس (١) .

ومهما كان فالحجازيون هم الذين عرفوا الكتابة ، قبل عرب الجزيرة الشماليين ، ولما جاء الإسلام كان فى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب ، ومنهم : الشفاء بنت عبد الله العدوية ، كانت تحسن الكتابة ، وكذلك جماعة من النسوة ، وفى المدينة قليل من الأوس والخزرج يكتبون ، ومنهم سويد ابن الصامت ، وحضير الكاتب ، وكانا من أهل يثرب (٢) .

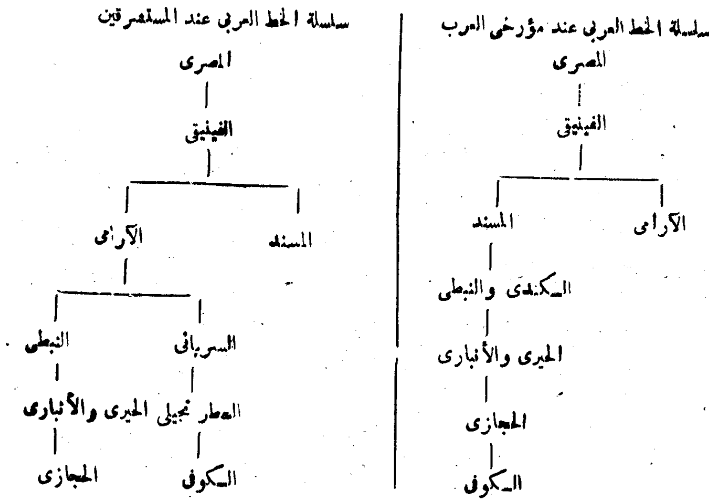
أما مؤرخو الفرنجة ، فيقولون : إن الخط الحيرى مأخوذ عن النبطى كما قال مؤرخو العرب ، ولكنهم يقولون : إن النبط أخذوا خطهم عن الخط الآرامى ، اقرب الآراميين من النبط ، وإن الخط الكوفى متولد عن نوع من الخط السريانى ، يسمى السطرنجيلى قبيل الإسلام ، بدليل تشابههما فى الحروف ، واتفاقهما فى بعض قواعد الرسم : كحذف ألف المد من « الظالمين » و « كتاب » ، وفى الأغراض التى يستخدمان فيها ، وهى النقش على جدران المعابد ، وكتابة الكتب السماوية .

وعلى هذا الرأى ، فالمسند لا دخل له فى سلسلة الخط العربى بنوعيه ، بخلاف الآرامى ؛ وهذا عكس ما يقول مؤرخو العرب فى هذه النقطة . . وكانت الكتابة على العسب والرقوق والعظام حتى اخترع الورق سنة ١٢٠ هـ .

---

(١) ٢ : ٣٤٩ المزهر للسيوطى .

(٢) ١٥ / ١ تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على .



— ٣ —

وأما اللغة فقط كانت الحميرية هي السائدة بين عرب الجنوب ؛ ويقال إن إسماعيل عليه السلام تكلم بلسان جرهم، وكان لسانه قبل ذلك : إما سريانيا كأهل فلسطين، أو كلدانيا كأهل كلدانيا ، لأن إبراهيم أباه عاش في كليهما ، أو مصريا تبعا لأمه هاجر . ويظهر أن لغة إسماعيل تأثرت بكل من هذه اللهجات الثلاث ، وقد نشأت سلالته في الحجاز على العربية الفصحى .

وعلى هذا كانت لغة أهل الحجاز تخالف لغة أهل اليمن من بعض الوجوه ، وتظهر ببعض الفوارق في المفردات ، فمثلا : المدية عند اليمنيين تسمى سكينا في لغة أهل الحجاز ، كما تظهر أيضاً في أسماء الإشارة والضمائر وأدوات التعريف وأوجه الإعراب ... الخ . ولما نزل القرآن الكريم بلغة قريش أهملت العرب لغة حمير فكادت تنعدم ولم يبق منها إلا القليل ، كالتي تسمى جعجعة قضاعة وشنشنة اليمن ، وتلتلة بهـــراء ، وطمطمة حمير [1] .

(١) الجعجعة : جعل الياء جيما ، تقول في (الراعي خرج معي) : الراعج خرج معج ، والشنشنة : جعل الكاف شينا ، تقول في (أطع أباك وأمك): أطع =

— ٤ —

وتوجد فوارق أخرى خلقية بين عرب الشمال والجنوب ترجع إلى لون البشرة وشكل الرأس وطول القامة، فأهل الشمال يغلب عليهم جمال الوجه واستدارته وكبر الرأس وطول القامة، والبياض الضارب إلى السمرة، وهى خصائص الجنس السامى.

أما أهل اليمن فقليلا ما تتوفر فيهم هذه الصفات السامية، بل يغلب عليهم السواد، وتشبه سحنهم من وجوه كثيرة سحنة الأفريقيين من الأحباش.

وكان أساس الاجتماع عند العرب كما تقدم شماليين وجنوبيين هو الأسرة التى يكونها الرجل منهم بالزواج والتناسل ولا يزال يقوم عليها، ويعنى بكل حاجياتها حتى تشتد سواعد أبنائها، ويصبحون قادرين على الكسب، فيقوم فيهم الوالد يرشدهم بما كسبه من التجارب ويدلهم على طرق الخير بما أفاءت عليه الظروف من حكمة وعقل، ويفصل بينهم فى المنازعات المختلفة التى قد تقوم بينهم، فلا يتركهم يتفرقون حتى لا يطمع فيهم طامع، إذ هم مصدر عزته وجاهه، وتستمر الأسرة فى الزيادة حتى تتكون القبيلة.

والعرب الحجازيون: بدو وحضر، وبين الفريقين تفاوت كبير، فى التقاليد والعادات والأخلاق:

أما البدو، فهم قوم رحل يسكنون الخيام، ولا يقرون فى مكان، يتنجعون الكلأ، ويتتبعون مساقط الماء، ومنابت العشب، يرحلون إليها بأنعامهم التى يغتذون بلحومها وألبانها، ويكتسون بأصوافها وأوبارها، وهم — لجدب بلادهم، وانصرافهم عن أوجه التكسب الأخرى — كانوا يقنعون من العيش بالكفاف، ولا يفتنون فى المطاعم والملابس، بل كانوا يعيشون غالباً على اللبن والتمر واللحم، ولقلة مواطن الكلأ لديهم، وميلهم إلى الانتقال

= أباش وأمش، والثالثة: كسر حرف المضارعة كلهجة المصريين، والطمطمة: جعل أم بدلا من أل كقول بعض بنى حمير للنبى صلى الله عليه وسلم: (أمن أمبر امصيام فى أمسفر)، أى: أمن البر الصيام فى السفر.

والأخذ بالثأر — كثرت الحروب بينهم كثرة مفزعة ، وكانت نيرانها لا تخبو إلا لتشتعل ، وكانوا يأنفون من الاشتغال بالزراعة والصناعة ، ويرون أنهم لم يخلقوا إلا للقتال ولم يعدهم الدهر إلا للصراع والنزال ، وأنه لا ينبغى أن يتناولوا رزقهم إلا من سيوفهم ورماحهم . ولم يكن لديهم سوى نظام القبيلة .

والقبائل العربية ، كانت متعادية ، متنافرة ، أما أفراد القبيلة الواحدة ، فكانوا متضامنين أشد التضامن ، ما يغنمه أحدهم فهو للقبيلة ، وما يصيبه فعليها ، يعتز كل منهم بنسبها ، ويفاخر بحسبها ، ويوافقها على خطئها وصوابها :

وهل أنا إلا من غزية ، إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

وإذا اعتدى على أحدهم ، هبوا إلى نصرته سراعا ، زرافات ووحدانا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا[1]
لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات — على ما قال برهانا

لكن أخاهم ، إذا جر عليهم المغارم ، واسترسل فى جناياته ، تخلوا عنه وأعلنوا براءتهم منه ، ويسمى عندهم « خليعاً ».

وقد كان أساس العصبية عند العرب هو النسب ، ولذلك كانت العصبية القبلية هى أقوى العصبيات ، لقربها واتحادها ، وشدة ارتباط أفرادها ، وهناك عصبيات أخرى كالحلف والولاء :

الحلف :

فالحلف أو المعاهدة ، يجمع بين القبائل ، ولو تباعدت أنسابها ، وإنما يلتجئون إلى هذا النوع — فى الغالب — حينما يفتقدون القوة والنصرة فى ذوى القرابة . فيتعاقدون ويتناصرون مع الأباعد لتتوفر لهم أسباب القوة التى ينالون بها الرياسة ، أو يدفعون عن أنفسهم الظلم والعدوان ، أو يغالبون بها من سواهم ، وهذه العصبية أضعف من العصبية القبلية .

(١) بضم الواو ؛ جمع واحد وواحدة بمعنى منفرد — والزرافات : جمع زرافة بفتح الزاى : الجماعة . . وهذا كقول سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنابيب

الولاء :

والولاء هو الرابطة التى كانت توجد بين العرب والأعاجم الذين عاشوا بينهم ، ويسمون هؤلاء الأعاجم موالى ؛ ومثلهم الأسرى الذين لم يستطيعوا فداء أنفسهم ، وكان العرب يسمون هؤلاء جميعا بسمة القبيلة ؛ لأن كل قبيلة كان لها سمة خاصة تعرف بها ، وتسم بها رايتها وإبلها كيّاً بالنار .

وكان المولى يرث من القبيلة التى استلحق بها كما يرث الصريح من أبنائها .

الخلع :

وضد الولاء (الخلع) فكان الرجل إذا ساءه أمر من ابنه أو من مولاه خلعه أى نفاه عن نفسه ، فيصبح غير مرتبط بالمولى وأصبح قبيلته — تبعا له — فى حل من جميع التصرفات التى يرتبط بها المولى ولا يتحملون جريرتها ، وقد يعلنون ذلك الخلع فى سوق عكاظ ، فيبعثون مناديا ينادى فيه بذلك ؛ وقد يكتبون به كتابا (١) .

عصبية الأبوة :

وعصبية النسب معناها الانتساب إلى الأب ، فقد كان هو المعول عليه فى القرابة عند العرب (٢) ، وقد روى المبرد أن رجلا من الأزد كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تميمية (٣) .

---

(١) من أشهر حوادث الخلع — قبل الإسلام — خلع كل من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد من عشيرتهما ، وسبب ذلك أنهما ذهبا فى الجاهلية بتجارة إلى الحبشة واختصما فى الطريق ؛ فأساء عمارة إلى عمرو فأضمر عمرو له الشر ، فكتب إلى أبيه أن يخلعه ، دفعا لما قد يجره عليه من المكروه إذا هو آذى عمارة ، وكتب كذلك عمارة إلى أهله بمثل ما كتب عمرو ، فخلعت كل من العشيرتين صاحبها ، وأرسلوا بذلك مناديا إلى مكة . راجع التمدن الإسلامى ج ٤ ص ١٩ عن الأغانى .

(٢) قال شاعرهم :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

(٣) الكامل ج ١ ص ١٩٨ .

عصبية الخئولة :

ومع شدة تمسك العرب بعصبية الأبوة ، وتقديمها على عصبية الأمومة ، فقد كانوا إلى جانب ذلك يرعون حق الأمومة ، ويسمونها (عصبية الخئولة) .

وأوضح شواهد على ذلك نصرة أهل المدينة للنبي ؛ لأن أم النبي صلى الله عليه وسلم من بني النجار من الخزرج ، وهي قبيلة قحطانية ، وأبوه من قريش ، وهي قبيلة عدنانية ، فلما توفي والده التجأت أمه إلى أخواله بني النجار بالمدينة فأكرموا وفادتها ، ولما بلغ أشده واستوى وآتاه الله العلم والحكمة واضطهدته قريش ومن تبعه ، هاجر إلى المدينة في حماية أخواله وأتباعه ، لأن خئولة بني النجار جعلت الخزرج كلهم أخواله ، وكل الحوادث في المدينة تدل على أن بني النجار كانوا دائما في مقدمة المحامين عن الرسول وأتباعه بعد الهجرة .

ونذكر بعد ذلك أيضا من الحوادث ، أن بني كلب انضمت إلى معاوية بن أبي سفيان حينما نهض للمطالبة بدم عثمان ، ولعل أهم سبب في انضمامهم أن نائلة زوج عثمان ، كانت من قبيلتهم ، وأمثلة ذلك كثير في الجاهلية وبعد الإسلام .

آثار العصبية القبلية :

ومن الواضح أن العصبية القبلية كانت من أهم أسباب النزاع الذي نشب بين العرب في الجاهلية ، وقد اتخذت هذه العصبية أشكالا مختلفة ، ظهرت في شكل مفاخرات ، وفي شكل منافرات ، وأخيرا جرت إلى نشوب معارك دموية ، وأورثت أحقادا وحزازات ، تأصلت في نفوس العرب ، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها صاحب الدعوة عليه السلام في محوها من نفوسهم ، فقد بقيت تشغل معظم تاريخ النزاع في جزيرة العرب وفي غيرها أيضا حوالي ثلاثة قرون من الزمان .

وأشهر حوادث المنافسة ما كان بين القبائل القحطانية والعدنانية ، وقد يفوت القارىء ملاحظة ذلك أثناء اطلاعه على تاريخ المعارك ، لأنهم قلما يذكرون انتساب القبائل إلى إحدى هاتين العصبيتين ، فيقولون مثلا :

« ونشبت الحرب بين قيس وكلب » ولا يذكرون أن قيسا من العدنانية وكلبا من القحطانية لاعتقادهم أن القارىء يعلم ذلك ، وعلى هذا النحو قولهم : تفاخرت قحطان ونزار ، أو معد واليمن ، أو مضر وحمير ، أو هوازن وكهلان أو قيس وهمدان . . . الخ .

على أن النزاع الذى حدث بين هذه القبائل ، لم يكن أعظم عنفا وأثرا مما حدث بين بنى العباس وبنى أبى طالب وهما جميعا من بنى هاشم ، ولا مما حدث بين بنى هاشم وبنى أمية ، وكلاهما من بنى عبد مناف .

موقف الإسلام منها :

أما موقف الإسلام من العصبية القبلية ، فكان موقفا عدائيا ، فإن صاحب الرسالة عليه السلام ، قد دعا إلى الوحدة ، والتضامن ، ونبذ الخلاف ، والشقاق ، والأنانية ، وعمل على إزالة الفوارق ، ونشر العدالة ، وأعلن المساواة بين الناس ، وكان آخر ما خاطب به الناس فى حجة الوداع : « إن ربكم واحد وأباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

— ٥ —

مكانة الشاعر :

وكانوا يحبون الشعر ، والاستماع له ، لأنه ديوانهم الذى يخلد مفاخرهم ، ويسجل أنسابهم ووقائعهم ، ويذكى نار الحماسة فى نفوسهم ، وكان لكل قبيلة شاعر أو أكثر ، يناضل عن أحسابها ، ويشيد بمفاخرها ، ويذود عن حياضها .

اللهو :

كما كانوا يلهون بالخمر وغناء القيان ، ولعب القمار ، وصيد الوحوش بالكلاب المعلمة أو بالخيل . أو بحفر « الزبية » . ومن أمثالهم : بلغ السيل الزبى ، وكل الصيد فى جوف الفرا .

أثر المرأة :

وكانت المرأة البدوية ، تشاطر زوجها أعباء الحياة ، فتواسي الجرحى وتقف خلف الصفوف تبعث الحمية في نفوس الرجال فيستميتون في القتال ، خوفا على نسائهم أن يقعن في السبي . وفي السلم تنسج الخيام والملابس وتخيطهما . وتحضر الماء وتطهي الطعام وتصنع الأقط والزبد وكانت سافرا تقابل الضيوف ، وتقريهم ؛ وتستشار في زوجها فتقبل أو ترفض .

وقد كثر ذكرها في أشعارها واحتلت الذروة منها وافتتحوا بها قصائدهم ، وكثيراً ما نراها واقفة في وجه زوجها تصده عن الاسترسال في الكرم والقتال ضنا بنفسه وبماله ، فلا يثنيه ذلك عما ركب في طبيعته . من حب السخاء والشجاعة ، إيثارا لحسن الأحدوثة وجمال الذكر :

قال أحد شعرائهم القدامى :

وعاذلة هبت بليل تلومني ... ولم يغتمز في قبل ذاك عذول
تقول : اتئد لا يدعك الناس مملقا ... وتزرى بمن يا ابن الكرام تعول
فقلت : أبت نفس على كريمة ... وطارق ليل غير ذاك يقول

ولكن العرب — لشدة غيرتهم على نسائهم وحرصهم على أعراضهم أن تثلم ، ولأن حياتهم حياة حربية ثم لفقرهم — كرهوا البنات ، وقالوا : دفن البنات من المكرمات ، ومما يروى في ذلك ، أن رجلا تحول عن بيت زوجه إلى بيت جاره ، حين ولدت بنتا ، فسمعها ذات يوم ، تغني وهي ترقصها :

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا ... والله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ... ونحن كالأرض لزارعينا
تنبت ما قد زرعوه فينا

فأثر ذلك في نفسه ، وعاوده حدب الوالد على ولده .

وقد أسرف بعضهم في بغضهن فاستباح وأدهن . واستفظع ذلك كثير من عقلائهم ، فكانوا يفدونهن من أهلهن ويحتضنونهن ، ومن هؤلاء صعصعة بن ناجية ، وبه افتخر الفرزدق ، فقال :

ومنا الذى أحيا الوئيد ، وغالبٌ وعمرو ، ومنا حاجب والأقارع
أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا — يا جرير — المجامع

ومن الحجازيين الذين استنكروا الوأد ، زيد بن عمرو بن نفيل القرشى . . كان يستحيى الموءودات ، فإذا بصر برجل يهم بوأد ابنته ، قال له : لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤونتها . ويأخذها ، وينفق عليها حتى تكبر ، ثم تقول لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها . ويقال إنه أحيا ستا وتسعين موءودة (١) .

وأما ما أثر من أخبار العهر (٢) فخاص بالإماء دون الحرائر .

أما الحضر : فكانوا يسكنون المدن ، ويبنون الدور والقصور ، ويفتنون فى المطعم والمشرب والمسكن ، ويشتغلون بالصناعة والزراعة والتجارة ، ولا يرون فى ذلك بأسا ولا غضاضة ، وهؤلاء هم سكان مكة والمدينة والطائف وبعض القرى الحجازية الأخرى .

القرشيون والتجارة :

وكان القرشيون أهل تجارة يغدون ويروحون فى جزيرة العرب آمنين مطمئنين وقد اتسعت تجارتهم ، فامتدت إلى الشام واليمن وكانت إلى الأولى رحلتهم الصيفية ، وإلى الثانى رحلتهم الشتوية ، كما شملت الحبشة والفرس والهند ، وقد تقسم أولاد عبد مناف هذه الأقطار : فكان هاشم يذهب إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس . وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار ، بحبال هؤلاء الإخوة ، فلا يتعرض لهم ؛ لأن كل أخ منهم كان قد أخذ من ملك ناحية سفره أمانا له (٣) وإنما استأثرت قريش بالتجارة لما كانت تتمتع به بين العرب من

---

(١) بلوغ الأرب الألوسى ٣ / ٤٥ . وراجع ٥٠ / ٥ البخارى
(٢) عهر المرأة كمنع عهرا وعهورا وعهارة وعاهرها : أتاها للفجور ، أو زنى (قاموس) .
وفى المصباح : عهر كتعب وقعد فى لغة : فجر .
(٣) وفى ذلك يقول الشاعر :
يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف ؟ =

من أمن على أموالها وقوافلها لمنزلتهم الدينية فى نفوس سكان الجزيرة . قال الزمخشرى وصاحب القاموس : وكانت لقريش رحلتان : يرحلون فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام . فيمتارون ويتجرون ، وكانوا فى رحلتهم آمنين ؛ لأنهم أهل حرم الله ، وولاة بيته ، والناس يتخطفون من حولهم ، فإذا عرض لهم عارض ، قالوا : نحن أهل حرم الله ، فينصرف عنهم من غير أن يمسهم بسوء . ، ولهذه الرحلات وما فيها من مشاهدات أثر كبير فى رقيهم الثقافى والفكرى ، لذلك : كانوا أرقى عرب الشمال عقلا ، وأسماهم فكرا وثقافة .

النسىء :

ومعناه التأجيل والتأخير ، وأصله أن العرب كانوا على دين إبراهيم عليه السلام يعتقدون تعظيم الأشهر الحرم ، وهى أربعة : المحرم — رجب — ذو القعدة — ذو الحجة ، وكانوا يتحرجون فيها من القتال ، ولكنهم كانوا يكرهون توالى ثلاثة أشهر من غير قتال ونفوسهم مجبولة على الحروب وشن الغارات فكانوا إذا احتاجوا إلى الحرب فى المحرم أخروا تحريمه إلى صفر ، فإن احتاجوا أيضا إلى الحرب فى صفر أحلوه وحرموا مكانه ربيع الأول وهكذا حتى استدار التحريم على جميع فصول السنة وانعدم ضبط الأشهر الحرم ، وضاعت خصوصيتها اعتمادا على تحريم مجرد العدد .

أما كيفية ذلك ، فكان الرجل من كنانة يقوم على باب الكعبة ، أو عند جمرة العقبة إذا صدر الحاج من منى فيقول : أنا الذى لا أعاب ، ولا أخاب ، ولا يرد لى قضاء ، فيقولون صدقت ، أنسئنا شهرا ، فيقول : إنى أحللت لكم شهر كذا وأنسأته وحرمت مكانه شهر كذا (ويسمى الشهر) .

وكان من عادتهم أيضا — تأخير أشهر الحج إلى أشهر أخرى — يقصدون بذلك أن يأتى الحج فى فصل معين من السنة لا يختلف باختلاف الفصول حتى

= الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافى

يتمكنوا من أدائه من غير مشقة ولا عنت ، ومن غير أن تتأثر مصالحهم بأدائه ؛ لأن حجهم — حسب شريعة إبراهيم — كان يقع فى شهر ذى الحجة ، وهو من الشهور الهلالية ، التى تدور فى كل فصل من فصول السنة ولا توافق فصلا معينا ، فربما أدركهم هـذا الشهر وهم مشغولون بشئون معاشهم فلا يستطيعون السفر للحج والتجارة كما هى عادتهم .

وقد حرم الله النسىء بنوعيه ، فى قوله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله » الآية ، وقوله تعالى : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما » الآية .

أما تخصيص هـذه الأشهر بالحرمة ، فلفضل مزيتها ؛ لأن المحرم يبدأ به العام ورجب وسطه والقعدة والحجة آخر العام ، إشارة إلى وجود السلم فى العام كله ، فإذا حدثت الحرب لا ينبغى أن تشغل جميع العام ، بل يجب أن تتقطع بفترات من السلم فى الأول والوسط والآخر ، تهدئة لنارها ، وإراحة الناس من عنائها وويلاتها ، وفتحا لمجال المصالحات والمهادنة ، وإنما كان الختم بشهرين لوقوع فريضة الحج فيهما وهى التى لا تؤدى إلا فى سلام ووئام تامين .

الفصل الثانى

أسواق العرب فى الحجاز (١)

وحياة الحجاز التجارية

— ١ —

كان العرب فى العصر الجاهلى يقيمون أسواقا عامة للتجارة ، وكانت هذه الأسواق تستمر طول العام يتنقلون من بعضها إلى بعض ، ومن أشهر أسواقهم العربية فى الحجاز .

١ — سوق عكاظ ، وكانت تعقد فى أول ذى القعدة إلى العشرين منه ، وهى أعظم أسواقهم ، وقد اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة وظلت قائمة فى الإسلام حتى نهبها الخوارج عام ١٢٩ هـ حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف . وسنخصها بحديث بعد .

٢ — سوق مجنة : ومجنة موضع بمر الظهران أسفل مكة على أميال منها . وكانوا ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيها إلى نهاية ذى القعدة .

٣ — سوق ذى المجاز بمنى خلف عرفة . وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذى الحجة ، ثم يقفون بعرفة فى اليوم التاسع .

٤ — دومة الجندل : وتنعقد فى ربيع الأول ، ويحدد البغدادى ميعاد انعقادها فيجعله اليوم الخامس عشر من ربيع الأول من كل عام .

٥ — مكة : وهى سوق دائمة .

٦ — نطاة خيبر : وتعقد بعد أيام الحج كما روى الألوسى .

٧ — سوق منى .

---

(١) ٨٧ — ٩٠ جـ ١ تاريخ آداب العرب للرافعى ، ٢٦٤ جـ ١ بلوغ الأرب ، معجم البلدان .

وقد أغفلوا بعض مواضع مهمة(١) تقوم فيها أسواق ، ربما لا تقل شأناً عن التي أفردوها بالذكر ، كالطائف ، وكالسوق التي يقيمها النبط في المدينة أحيانا ، فانا نعلم أن الطائف مدينة قديمة جاهلية ، وهي «بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة» ، ولأهلها زراعة وتجارة وغنى ، وربما قاربوا قريشاً في شأنها التجاري ، ومن ثم كانت لأسواق الطائف أهمية تجارية ملحوظة .

— ٢ —

وكانت هذه الأسواق العربية — رغم أنها مكان للتجارة والمقايضة — ميداناً فسيحاً لتبادل الآراء ، وعرض الأفكار ، والتشاور في مشكلات الأمور ، ومجالا للمفاخرات والمنافرات والمحاورات ، ومعرضا لإذاعة مفاخر القبيلة وشرف الأرومة ، وناديا واسعاً لإلقاء روائع الشعر ، والمباهاة بالفصاحة ، والمفاخرة بالبلاغة . وفيها ألقيت أشهر القصائد والمعلقات العربية ، فأنشد عمرو بن كلثوم معلقته في عكاظ ، وكذلك فعل الأعشى الذي أنشد فيها قصيدته في مدح المحلق .

ولقد سبق الإغريق العرب إلى أمثال هذه المحافل في المجتمعات الأولمبية التي كانوا يقيمونها كل أربع سنوات للألعاب الرياضية البدنية كلما حجوا إلى هيكل المشترى في أولمبية ، وكانو يحرمون القتال على أنفسهم في أثنائها على نحو ما يفعل العرب في الأشهر الحرم ، فلما استوثق لهم الأمر صارت هذه المجتمعات الأولمبية أندية لإنشاد الشعر وتبادل الأفكار .

وكانت في هــــذه الأسواق منابر الخطابة في الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته فيذيع فعاله ويعدد مآثره ومآثر قومه وأيامهم عاما بعد عام .

---

(١) أسواق العرب ص١٨٣ — وراجع في أسواق العرب : اليعقوبي في تاريخه ١ : ٣١٢ — ٣١٤ ، والهمداني في صفة جزيرة العرب ، والمرزوقي في الأزمنة والأمكنة : ١٦١ — ١٧٠ ، والقلقشندي في صبح الأعشى ١ : ٤١٠ — ٤١١ ، والبغدادي في خزانة الأدب ٤ : ٣٦٠ — ٣٦٢ ، والآلوسي في بلوغ الأرب ١ : ٢٦٤ — ٢٧٠ .

وكان النقاد والشعراء والرواة يجتمعون فى الأسواق : فينشد الشعراء ، وينقد النقاد ، ويذيع الرواة ماسمعوه فى كل مكان . وكان النابغة الذبيانى حكم الشعراء بسوق عكاظ ، وكانت تضرب له قبة فيه ، فتأتيه الشعراء ينشدونه قصائدهم فيحكم لبعضهم على الآخرين .

وكان هذا الميدان الأدبى الفسيح ، بما فيه من آذان مرهفة ، وعيون متطلعة وأذواق حصيفة ، يحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتهذيب والتنقيح ، ويدعوهم إلى تخير الألفاظ العذبة ، والأساليب الجميلة ، والمعانى الرائعة ، قصداً إلى الوضوح والإفهام والإمتاع ، ومن ورائهم الرواة يذيعون هذا الأدب المختار فى البلاد ، وينشرونه فى القبائل ، ويروونه فى كل مكان للسامعين .

وذلك هو الأثر الأدبى الكبير لهذه الاسواق . فوق أثرها الخطير فى توحيد العقائد والاخلاق والعادات ، والنهوض الحثيث بالمجتمع العربى ، والسير به فى طريق الوحدة التى بلغها بعد ظهور الإسلام ونبيه الكريم .

— ٣ —

وللأسواق عمل لغوى خطير ، فقد كانت سبباً فى التقريب بين لغات العرب ولهجاتهم .

كانت تنزل بها شتى القبائل العربية على اختلافها ، من قحطانيين وعدنانيين ، كما كان ملك الحيرة يبعث تجارته إليها ، ويأتيها التجار من مصر والشام والعراق .

فكان هذا الإجتماع الكبير وسيلة من وسائل التفاهم اللغوى ، والتقارب بين اللغات واللهجات العربية ، واختيار القبائل بعضها من بعض . وكانت الاذواق المرهفة فى هذه الأسواق تعمل عملها فى النقد اللغوى ، فتأخذ كل قبيلة من لغة الأخرى ماخف على النطق ، وعذب فى الألسنة وظهرت فصاحته ، من مختلف الألفاظ والأساليب .

وكان القرشيون خاصة من بين قبائل العرب وبتأثير اجتماعات الحج والأسواق والحروب ، أكثر القبائل ميلا إلى النقد اللغوى . فاقتبسوا من

لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسلها وأنصعها وأفصحها ، وأخذوا يضيفون ذلك إلى لغتهم فزادت ثروة اللغة العدنانية القرشية . وقلدت القبائل الأخرى قريشا فى ذلك ، وأخذت عنها محاكية لها فى لغتها ، وذلك لمكانة قريش وإشرافها على هذه الأسواق ، مما حدا بالشعراء الذين يريدون لشعرهم الذيوع أن يتحروا لهجتها المختارة الذائعة فى إذاعة محامد قبائلهم وأمجادهم ، فكان لذلك آثاره البعيدة فى تهذيب اللغة العربية وتوحيدها وجمعها فى لغة مختارة هى لغة قريش أفصح القبائل العربية التى نزل بها القرآن الكريم .

وعمل الأسواق فى توحيد الألسنة والتقريب بين اللهجات وتهذيب اللغة العربية كان ذا أثر بعيد فى نمو اللغة العربية ونهضتها وانتقالها من طور اللهجات المتباينة واللغات المتنافرة المتناكرة إلى طور جديد ، مهد للوحدة اللغوية بين قبائل العرب ، التى نزل القرآن الكريم مؤيداً لها ومذيعاً للغة قريش فى كل مكان .

— ٤ —

أهم الأسواق :

١ — سوق عكاظ :

وننتقل بعد ذلك إلى الحديث فى إيجاز عن سوق عكاظ وأثرها فى اللغة والأدب ، توضيحاً لأثر الأسواق الجاهلية ، وزيادة فى معارفنا عن أسرار الاجتماع الجاهلى ، لأن هذه السوق كانت تمتاز عن غيرها بأن جميع القبائل كانت تقصدها .

أين تقع عكاظ ؟ !

فى موقع عكاظ آراء عديدة ، نذكر أشهرها ، وهذه طائفة من أقوال المؤرخين القدامى فى تحديد موقع عكاظ !

١ — عكاظ بين نخلة والطائف إلى موضع يقال له الفتق (ابن اسحاق — الواقدى — أبو عبيدة)[1] .

---

(١) معجم البلدان ص ٢٠٣ جـ ٦ ، معجم البكرى ص ٦٠٦ الطبعة الاوربية .

٢ — عكاظ نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقوم سوق العرب بموضع يقال له الأثيداء ، وبه كانت أيام الفجار ، وكانت هناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها (الأصمعى) [١] .

٣ — عكاظ فى وسط أرض « قيس عيلان » — « ابن هشام »[٢] .

٤ — عكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء فى عمل الطائف على بريد منها . وهى سوق لقيس عيلان وثقيف وأرضها لنصر (الأزرقى) [٣] .

٥ — عكاظ فى أصل جبل بس أو ماء بس بقعة لبنى هلال وحذاءها أخرى يقال لها الخدود ، وعكاظ منها على غلوة — وعكاظ صحراء مستوية ليس فيها جبل ولا علم إلا ما كان من الأنصاب التى كانت فى الجاهلية ، وبها من دماء الإبل كالأرجام العظام ، وحذاءها عين يقال لها خليص للعمريين ، وخليص هذا رجل وهو ببلاد تسمى ركبة (عرام بن الأصبغ السلمى البكرى)[٤] .

هذه جملة من أقوال المتقدمين فى تحديد عكاظ وهى متقاربة فى المعنى متطابقة فى الجملة .

وجميع الأوصاف المتقدمة تنطبق على الأرض الواسعة الواقعة شرق الطائف — بميل نحو الشمال — خارج سلسلة الجبال المطيفة به ، وتبعد تلك الأرض عن الطائف مسافة (٣٥كم) تقريباً ، ويحدها غرباً : جبال بلاد عدوان (العقرب — وشرب — العبيلاء) ، وجنوباً : أبرق العبيلاء وضلع الخلص ، وشرقاً : صحراء ركبة ، وشمالا : طرف ركبة والجبال الواقعة شرق وادى قران . وتشمل هذه الأرض وادى الأخيضر (وهو المعروف قديماً بوادى عكاظ) ، ووادى شرب حينما يفيضان فى الصحراء ويخرجان من الجبال وما بينهما من الأرض وما اتصل بهما من طرف ركبة[٥] .

---

(١) معجم البلدان : جـ ٦ ص ٢٠٣ .
(٢) التيجان ص ٣١٠ .
(٣) تاريخ مكة : المطبعة الماجدية ص ٢١٠ جـ ١ .
(٤) أسماء جبال تهامة ، ومعجم ما استعجم ص ٦٦٠ — ٦٦٢ .
(٥) موقع عكاظ لعزام وابن بليهد والجاسر ص ٦٢ .

هذا هو موقع عكاظ كما حققه الثقات عن مشاهدة وعيان ، ولا عبرة بمن يقول : إن موقع عكاظ فى السيل الكبير على الطريق بين مكة والطائف أو السيل الصغير فى الطريق بين السيل الكبير والطائف . أولا : لما فى هذا القول من مخالفة التحديد المذكور فى الأقوال السابقة — وهو الأهم — وثانيا : لأنها تقع فى مجرى السيول التى تسير فى تلك الناحية . وثالثا : لأنها تضيق عن الغرض المقصود منها وهو إقامة تلك السوق العربية الكبيرة .

أثرها الأدبى :

كانت سوق عكاظ ميداناً للتجارة وفداء الأسرى والمفاوضة فى الرأى ، وتبادل الأفكار ؛ كما كانت ميداناً للمنافرة والمفاخرة وإنشاد القصائد ، وكان بها فى الجاهلية منابر يقوم عليها الخطباء ، فيقف أشراف القبائل مفاخرين بمناقبهم ومآثر قومهم . وكانت معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب ، وينقد ذلك كله ويهذب ، وفيها أنشد ابن كلثوم معلقته ، ويقال إن المعلقات أنشدت فيها . كما أنشد فيها الأعشى مدحته المحبرة فى المحلق . وممن ألقى فيها مدائحه حسان ، كما كانت الخنساء تلقى فيه مراثيها وتعاظم بمصيبتها . وكان النابغة تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ ويجتمع عليه الشعراء فيتحاكمون إليه .

أتاه الأعشى يوما فأنشده ، ثم أتاه حسان فقال : لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، قال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على يده ، وقال : يا ابن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى منك واسع

ثم أتته الخنساء فأنشدته :

قذى بعينك أم بالعين عوار   أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار ؟[1]

فلما بلغت قولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

(١) العوار والعائر : كل ما أعل العين والرمد والقذى .

قال : ما رأيت ذا امثانة أشعر منك .

ويروى : أنه قال لها : لولا أن أبا بصير سبقك لقلت إنك أشعر من بالسوق ، ويروى أنه قال لحسان حين بلغ من قصيدته :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

قللت جفانك ولو قلت : الجفان لكانت أكثر ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلت يلمعن بالضحى ، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وأنثت السيوف(١) .

وكذلك قصدت هند بنت عتبة بن ربيعة هذه السوق حين قتل أهلها فى بدر ، وقرنت جملها بجمل الخنساء ، وأخذت كل منهما تعاظم الأخرى بمصابها وتساجل فى الشعر لوعة بلوعة ، ورثاء برثاء .

وفى سوق عكاظ خطب قس بن ساعدة خطبته المشهورة ، وقد سمعها الرسول صلوات الله عليه .

وكان عليها رئيس يشرف على الموسم ويقضى بين المتخاصمين ، ومن الرؤساء عامر بن الظرب العدوانى ، واستمرت فى الإسلام . وكان محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لها ، وكان أبوه يقضى فيها فى الجاهلية . وقد قصدها الرسول الأعظم يبث فيها دعوته وبقيت حتى خربت عام ١٢٩ هـ .

وكان سوق عكاظ سببا فى أربع حروب نشبت بين العرب وسميت حروب الفجار .

وكان سبب الأولى « المفاخرة فى سوق عكاظ » . وسبب الثانية « تعرض فتية من قريش لامرأة من بنى عامر بن صعصعة بسوق عكاظ » . وسبب الثالثة « مقاضاة دائن لمدينه مع إذلاله فى سوق عكاظ » . وسبب الرابعة « أن عروة الرحال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض فى الطريق » . وهذه الحروب كانت قبل مبعث الرسول وهو ابن أربع عشرة سنة وشهدها مع أعمامه وقال : « كنت يوم الفجار أنبل على عمومتى » .

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، والجفنات القصاع الكبيرة .

وقد دعت هذه الحروب التى كانت تنشب أيام قيام هذه السوق ، ويترتب عليها السلب والنهب فى التجارة ، أن قام فريق من العرب بالدعوة إلى السلم ، ومن أشهرهم عبد الله بن جدعان ، فكان إذا اجتمعت العرب فى السوق دفعت أسلحتها إليه ثم يردها عليها إذا ظعنوا ، ويظهر أن هؤلاء السادة هم الذين سموا هذه الحروب بحروب الفجار لما ارتكب فيها من الفجور وسفك الدماء وقد نجحوا فى وقف هذه الحروب وربما كان ذلك من أثر حلف الفضول .

— ٥ —

١ — وأما سوق مجنة : فكانت تبدأ من العشر الأواخر من ذى القعدة بعد أن يفيض الناس من عكاظ قرب موسم الحج . ومجنة موضع قرب مكة ، وكان يحضرها كثير من قبائل العرب ولكنها كانت أقل مكانة من عكاظ .

٢ — وأما ذو المجاز : فكانت قرب عرفة على بعد فرسخ منها فيما بينها وبين « الشرائع » ولا يزال ذو المجاز معروفا ، وكانت سوقها تقام إلى الثامن من ذى الحجة وهو يوم التروية ، وكانت العرب تتم فى هاتين السوقين ما فاتها فى سوق عكاظ من أعمالها التجارية وغير التجارية .

٣ — دومة الجندل : دومة الجندل ويقال دوماء الجندل كلاهما بالضم[1] وهى بلد تقع فى نقطة متوسطة بين الشام والخليج الفارسى والمدينة ، على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة تقريبا . وبينها وبين دمشق خمس ليال ، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة لعدم استقامة الطريق بينهما . وهى فى غائط من الأرض طوله خمسة فراسخ وفيها حصن « مارد » المشهور ، وإلى غربها عين تثج فتسق ما حوله من النخل والزرع .

وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبنى بالجندل . وقريب منها جبلا طىء

(١) ونقل الفتح فيهما صاحب النهاية ، وفى الصحاح أن أصحاب اللغة يضمون وأصحاب الحديث يفتحون .

وكانت بهذا الحصن بنو كنانة من كلب ، وكانت خربة فأعاد بناءها أكيدر صاحبها وإخوته وهى التى تسمى حديثا بالجوف .

وكانت العرب فى الجاهلية تنزل سوق دومة الجندل للبيع والشراء فى غرة ربيع الأول .

قال الألوسى : «كان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف الشهر . وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بنى كلب فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر» .

ويدور نشاط هذه السوق حتى منتصف ربيع الأول وتغص بمن يؤمها من أطراف الشام والعراق وسائر الجزيرة ، وهى من الأسواق الكبرى للعرب حتى إنهم ليلقونَ فى سيرهم إليها نصباً كبيراً لوعورة الطريق والتعرض للأخطار وفقدان الأمن . ولا يحملهم على ذلك كله إلا ماتغريهم به هذه السوق من ربح وفائدة . قال المرزوقى :—

« كانت قريش تخرج إليها من مكة ، فان أخذت الحزن لم تتخفر العرب حتى ترجع . . . وكانوا إذا خرجوا من الحزن أو على الحزن وردوا مياه كلب ، وكانت كلب حلفاء بنى تميم فاذا سفلوا عن ذلك أخذوا فى بنى أسد حتى يخرجوا على طيء فتعطيهم وتدلهم على ما أرادوا ، لأن طيئاً حلفاء بنى أسد ، فاذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببنى عمور ، مرثد من بنى قيس بن ثعلبة . فتجيزلهم ذلك ربيعة كلها[1] » .

ثم تفتر حركتها وتأخذ بالاضمحلال حتى آخر الشهر ، إذ يفترق أهلها وموعدهم إليها من قابل ، شهر ربيع الأول .

٤ — سوق نطاة خيبر : خيبر قرية شمالى المدينة . وهى عدة حصون لليهود وفيها مياه ومزارع . ونطاة اسم حصن بها واسم عين أيضا . وقيل هى خيبر نفسها .

---

(١) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦١

وقد اشتغل أهلها بالزراعة والتجارة ، ونظراً لوقوعها على الطريق التجارية الكبرى بين اليمن والشام قام أهلها بتجارة الجزيرة ، وكانت إحدى محطات القوافل التجارية فى سفرها إلى الشام . ونجح أهلها فى متاجرهم حتى أفادوا منها غنى واسعاً واستفاضت لهم ثروات طائلة ونشأت فيهم رءوس الأموال الضخمة . ويرى بعضهم أن خيبر كان مصرف الجزيرة المالى . ولما فتحها الرسول صلى الله عليه وسلم صالح أهلها على الشطر من التمر والحب .

وكلما مرت عير لقريش أو لطيمة من لطائم النعمان قامت لها سوق فى خيبر[1] .

الحياة التجارية

كانت أهم السلع التى تشغل هذه الأسواق : الخمور من هجر وغزة وبصرى والأدم والبرود الموشاة من اليمن ، والطيب والحرير والزيوت من الشام ، والجلود من الطائف ، والمسك من الحيرة ، وكان البيع فيها بطريق المبادلة فى الغالب .

وقد عرف الحجازيون التجارة منذ القدم ، وكان فى الجزيرة العربية طرق لمسالكها القوافل التجارية بين المحيط الهندى وبلاد الشام : فكان أحدها يسير من حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسى (طريق الغرب) وعلى هذا الطريق الأخير تقع مكة فى المنتصف تقريباً بين صنعاء وبطرة .

وقد سلك العرب هذه الطرق البرية لأن طريق البحر لم يكن آمنا . وكانت التجارة لا تخرج إلا محروسة ، وكانت تسير فى أزمنة محدودة وقد أثبت العرب شرفا فى التبادل التجارى ، واشتهروا بحب الوفاء وتقدير الوعد ، والصدق فى عرض السلع ، فوثقت بهم الممالك المجاورة ، وبذلك مهد العرب الطريق لتجارة واسعة منظمة .

وكانت بعض القبائل تتولى تأمين المتاجر مقابل جعل خاص ، فإذا عدا عليها عاد بذلوا فى سبيل حمايتها حياتهم ودماءهم وإذا عجزوا عن حمايتها ردوا الجعل لأصحاب التجارة ، وربما عوضوهم عما أصابهم من خسائر .

---

(١) من المراجع المهمة فى هذا الموضوع كتاب « أسواق العرب » للأفغانى .

ولما كانت قريش تسكن مكة فى مكان متوسط بين اليمن والشام ، غير ذى زرع ، وليس بهذا المكان موارد تكفيهم ، فقد اتخذ القرشيون التجارة مهنة لهم ، وأصبحوا ينافسون عرب اليمن ، وغدت تجارة قريش — على عهد هاشم بن عبد مناف — تخرج فى قوافل عظيمة تشبه الجيش وقد بلغت أحيانا خمسمائة وألف بعير ، تتقدمها الكشافة تتعرف ما فى الطريق ، والهداة يهدون السبيل والحراس يخفرونها .

وكانت القوافل الحجازية تنزل فى أسواق عينتها الحكومة الرومانية لتحصل منهم الضرائب ، ولتراقب الأجانب الوافدين على بلادها ، وكانت هذه القوافل التى تقصد البلاد الرومانية تنزل أولا فى أيلة (العقبة) ومنها تذهب إلى غزة ثم تتفرق القافلة حسب مقتضيات التجارة على أن تعود فتتجمع فى غزة فى موعد مضروب تعود بعده القافلة نحو البلاد العربية . وقد استفاد العرب أثناء رحلاتهم التجارية ، بعضاً من مدنية الروم والفرس وآدابهم واقتبسوا مما شاهدوه فى هذه الأمم من أنظمة حكومية فى جمع الضرائب ، ومن أخلاق ، ولغة وعادات لم تكن لهم ، يؤيد ذلك ما أدخله العرب على لغتهم — بتأثير هذه المخالطة — من ألفاظ فارسية ، ورومانية ، ومصرية ، وحبشية ، مما أصبح على مر الأيام جزءاً لا يتجزأ من اللغة العربية ، إلى حد أن نطق بها القرآن الكريم(١) .

ويقال إن اسم « قريش » إنما سميت به قبيلة قريش المكية لاشتغالها بالتجارة ، فقد ورد فى لسان العرب : وقيل سميت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع ، وذلك من قولهم ، فلان يتقرش المال أى يجمعه .

---

(١) ج ٣ بلوغ الأرب .

الفصل الثالث

اللغة العربية فى الحجاز

— ١ —

أصل العربية :

ليس فى الإمكان : معرفة لغة الإنسان الأول ولا اللغات التى تفرعت عنهـا ، فقد مضى على ذلك قرون يعجز التاريخ عن الإلمام بها ، وما يقال من أن لغة آدم عليه السلام كانت سريانية أو عربية ، وأنه رثى ابنـه بشعر عربى — تجن على التاريخ حمل عليه تعصب كل قوم للغتهم ، وليست اللغة العربية فى حاجة إلى مثل هـذه الخرافات ، لتشرف على غيرها من اللغات ، إذ لهـا من المفاخر الحقيقية ما يغنيها عن هذه الترهات .

وغاية ما أمكن الباحثين ، أن رجعوا اللغات الحالية إلى لغات أبناء نوح الثلاثة : يافث ، وحام ، وسام ، اللذين أبقى الله ذريتهم ، دون من كان معهم فى السفينة : كما قال تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » وتفرقوا فى جهات الأرض ، وكان لـكل فريق منهم لغة نسبت إلى جدهم الأعلى ، وهى : اليافثية أو الآرية ، والحامية ، والسامية .

أما الأولى ، فقد انتشرت فى الهند وامتدت منه إلى الأفغان وفارس ثم إلى أوربا ، مصاحبة لأهلها فى فتوحاتهم وتجولاتهم ، ولذا قسمت قسمين :

(ا) آرية شمالية ، ومنها تفرعت اللاتينية واليونانية وغيرهما ، ومنهما تفرعت لغات أوربا الحالية .

(ب) آرية جنوبية . وهى السنسكريتية (الهندية القديمة) وفروعها : الهندية الحالية والفارسية والأفغانية والأرمنية .

وأما الحامية ، فقد انتشرت شمالى إفريقية ، وتشمل : الزنجية ، والبربرية لغة سكان المغرب ، والمصرية القديمة ، التى كانت قبل الهكسوس . أما بعد إغارتهم فصارت خليطا من الحامية والساميه ، لغة الفاتحين .

وأما السامية ، فقد انتشرت غربى آسيا فى العراق والشام وجزيرة العرب ثم الحبشية بافريقية على رأى .

وتشمل اللغة السامية : البابلية « نسبة إلى بابل التى بقيت أطلالها بقرب الكوفة ، والسريانية بأعلى العراق وشمال سورية ، والكلدانية(١) جنوبيه . والأشورية شماليه . والفينيقية ، بين جبال لبنان والبحر الأبيض ؛ والعبرية بفلسطين ، والحبشية والعربية . وقد ماتت هذه اللغات ماعدا العبرية ، والسريانية والعربية ، ولكن المنقبين قد اهتدوا إلى الأشورية والبابلية ، ووضعوا فيهما المعاجم كأنهما من اللغات الحية . وإنما عاشت هذه اللغات دون أخواتها لتقييدها بالكتابة ، وزاد العربية تأبيداً نزول القرآن الكريم بها ، وهى أغنى أخواتها الساميات ، لطول عمرها واتساع رقعتها ، ونزول القرآن بها ، ولما اقتبسته من الأمم التى اتصلت بأهلها سياسياً أو تجاريا أو مجاورة .

وقد اختلف الباحثون فى هذه اللغات ، أتفرعن من واحدة مجهولة لنا ، أم ان إحداهن أم للباقيات . والذين يذهبون إلى الرأى الثانى اختلفوا فى أيهن الأم ، فقيل : هى البابلية ، لما بينها وبينهن من تشابه قوى : فبعض الكلمات على صورة واحدة واحدة فيها وفى العربية ، ككلمتى : أنف وعنب ، وهما فى العبرية والسريانية بحذف النون — والتنوين : فى العربية نون ، وفى البابلية ميم ، وهما متقاربان فى العربية ، ولذا تبدل إحداهما من الأخرى ، مثل غين فى غيم ، وامتقع فى انتقع ، وعلامة الجمع فيها الواو والنون ، وفى السريانية الياء والنون ، وفى العبرية الياء والميم — والسين فى العربية ،

---

(١) الكلدانيون بضم الكاف : قوم من عبدة الكواكب (زبدى) — والبابلية القديمة كانت تدعى أولا آرامية ثم تغيرت قليلا فدعيت كلدانية ثم تغيرت تغيرا آخر فعرفت بالسريانية .

شين فى العبرية . والألف فى العربية واو فى العبرية . والضاد فى العربية ، صاد فى العبرية . والثاء فى العربية شين فى العبرية . فيقال فى : سلام وأرض وثور : شلوم ، وأرص ، وشور ، بالعبرية . والذال فى العربية زاى فى العبرية ودال فى السريانية — والحاء فى العربية خاء فى العبرية والسريانية . والغين فى العربية عين فيهما .

ولا يعقل أن تكون العبرية أو السريانية أصلا ، لأن البابلية أقدم ، وإنما كانت أصلا للعربية ، لأن العرب انتقلوا من بابل ، إلى جزيرتهم ، فالبابلية أصل العربية .

وقيل : هى العربية — لأن الكلمات المشتملة على حرف الضاد ، تنقل إلى العبرية والسريانية — وهما أغنى اللغات السامية بعد العربية — : بجعل الضاد صادا فى العبرية ، وعينا فى السريانية ، ولو كانت العربية ناقلة عنهما ؛ لما كان هناك داع لجعل هذين الحرفين ضادا لوجودهما فيها ، ولأن فى العربية من أصول الكلمات ما ليس فيهما .

والتشابه بين هذه اللغات مما لا شك فيه ، ولكنه لا يكفى فى الحكم بأن إحداهن أم للأخريات ، ولذلك رجح العلماء الرأى الأول ، وهو أنهن أخوات لأم عفى عليها الزمن[1] . . يقول جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة » : واللغات السامية أخوات لا يعرف لهن أم ، وظن بعضهم أن البابلية والأشورية القديمة أمهن ولكن المحققين لا يؤيدون ذلك ، والمعول عليه . أن هذه اللغات السامية أخوات انقرضت أمهن قبل زمن التاريخ ، وقال فى « تاريخ العرب قبل الإسلام » : وقيل إن أمهن العبرية ، وقيل العربية ، وقيل البابلية ، وكلها لا تخرج عن حد التخمين . اهـ . ونقول : لعل الحامل لهؤلاء على أقوالهم تعصب كل فريق للغته .

ومن هذا يتبين لك أنه ليس من السهل الوصول إلى معرفة أصل اللغة العربية .

---

(١) هى لغة قدماء الساميين الذين سكنوا ما بين النهرين وقد دعاها علماء اللغة باللغة الآرامية إلى آرام أحد أبناء سام .

— ٢ —

نشـأة العربية :

إذا كنا لم نستطع أن نعين أصل العربية ، فإننا نستطيع أن نقول : إن اللغة العربية ، تألفت من لغات شتى ، تدخل كل منها فى بنائها فى طور من أطوار حياتها ، وذلك أن أقدم العرب هم الطبقة البائدة ، ويظن أنهم هم المعينيون ، الذين قدموا من العراق إلى اليمن ، وكانت لغتهم عامية البابلية ، وبإقامتهم باليمن أخذت لغتهم تتباعد عن أصلها شيئاً فشيئاً حتى ضعفت الصلة بينهما ، ثم جاء السبئيون أو القحطانيون إلى هذه البلاد من الحبشة أو من سقى الفرات ، فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ، واقتبسوا لغة المعينيين ، ولعل هذا المعنى هو قول المؤرخين : إن القحطانيين أخذوا اللغة العربية عن العرب البائدة ، ثم نزل إبراهيم بابنه إسماعيل عليهما السلام وبأمه هاجر بمكة فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ونشأ إسماعيل بين قبيلة جرهم الثانية القحطانية التى انتقلت هى وغيرها من اليمن على أثر حادث سيل العرم وأصهر إليهم وكان لسانه عبرانياً ، فأدخل فى لغة قحطان العنصر العبرى ، وتغلبت بعد ذلك اللغة العدنانية ، على الحميرية ، وغيرها من اللغات بواسطة الأسواق واجتماعات الحج .

ومن هذا تعرف كيف نشأت اللغة العربية وكيف استمدت من البابلية والحبشية والعبرية ، وتمثلت بعد ذلك لغة مستقلة فاقت كل هذه اللغات .

— ٣ —

مميزات العربية :

ومما تمتاز به العربية من سواها :

١ — الإعراب — وتشاركها فيه الحبشية ، والألمانية ، ويقول العارفون : إن الألمانية كادت تتخلص منه ، ويظهر أن الإعراب أليف البداوة دون الحضارة فقد كانت البابلية واللاتينية واليونانية والسنسكريتية معربة حين كان أهلها متبدين ، فلما تحضروا ذهب عنها الإعراب ، ولم يبق

فى بعضها إلا بالكتابة والتقييد ، كما هو الحال فى العربية والألمانية ، على أن عامية العربية ، قد فقدت الأعراب .

٢ — غناها وثراؤها — ففيها لكل ما دق وجل من الأزمنة الثلاثة ولكل ما يخطر بالذهن من المعانى ؛ وأحوالها ، وأصنافها ، وكيفياتها ، اسم بل أسماء ، مما لا مثيل له فى أرقى لغات البشر ، كما قال جورجى زيدان : وإذا رجعت إلى كتب فقه اللغة[1] رأيت من ذلك ما يملؤك عجباً وإعجابا .

٣ — انفرادها بصيغ المشاركة — يقول العارفون : إن صيغ المشاركة فيها كتقاتلوا وتشاركوا لا نظير لها فى اللغات الأخرى ، إنما يعبر عن معناها بعدة ألفاظ .

٤ — الإيجاز — وهو وإن كان فى غيرها — إلا أنه أظهر ، وأمثلته فى الكتاب والسنة والحكم والأمثال وكلام البلغاء كثيرة لا تحصى — ومثل ذلك الاشتقاق والمجاز فقد كثرا فى هذه اللغة بخلاف اللغات الأخرى فإنهما يقلان فيها .

٥ — الاشتراك والتضاد فهما من خصائص العربية .

— ٤ —

اختلاف اللهجات العربية :

تتعدد اللغات بتعدد الأوطان ، واختلاف البيئات والأجواء ، والمناظر تملى على أهلها الأسماء ، والجو يفعل فعله بالأعصاب اللسانية ، وهذا بين فى أنواع الأبدال السابقة .

ولما كانت بلاد العرب متسعة الأرجاء ، وشماليها يخالف جنوبها فى السطح والمناخ وأحوال المعيشة ، اتسعت هوة الخلاف بين لغتى السكان فيهما ، ولذا قال عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ،

(١) كالمخصص وفقه اللغة للثعالبى ولطائف اللغة وكفاية المتحفظ وغيرها .

ولا عربيتهم بعربيتنا » . وقال ابن خلدون : « ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها ، كما هى لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر ، خلافا لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها ، كما يزعم بعضهم فى اشتقاق « القيل » فى اللسان الحميرى أنه من القول ، وكثير من أشباه هذا ، وليس ذلك بصحيح » .

ولما كان سكان الشمال بدوا يعيشون على انتجاع الكلأ ، وتكاد كل قبيلة تكون فى معزل عن القبيلة الأخرى — واختلاطهم قليل — لزم أن يكون بين لهجاتهم بعض الاختلاف ، وإن كانت مادة لغتهم واحدة ، ولكن هذا الاختلاف ، أقل مما بين سكان الشمال وسكان الجنوب لاتحاد البيئة والمرئيات فى شماله ، فلم يتعد الاختلاف بينها صورة النطق وكيفيته ، كما هو الحال بين سكان البلاد المصرية ، إذ أن اللهجات المصرية وليدة اللهجات العربية ، كما ذكر حفنى ناصف وغيره . وقد علمنا أن قريشاً بمكة كانت تفوق قبائل الشمال ، عقلا ورقيا وتهذيبا وحضارة ، لما كانت عليه من سيادة ، وما كان لها من رحلات تجارية ، اتصلت فيها بأمم شتى : نقلت عنها شيئا من الحضارة ، فكانت بذلك ، وبما أودع الله فى ألسنتها من مرونة وقوة ، أقدر على ترقية لغتها وتهذيب نطقها ، بما انتقته من لغات القبائل الوافدة عليها فى موسم الحج ومجامع التجارة ، وما أضافته إلى لغتها من لغات البلاد التى كانت تتجر معها ، ولم يسع القبائل الأخرى ، إلا أن تحاكيها فى النطق ، لسيادتها ونفوذها ، فأخذت لغة قريش تقوى ويتسع نفوذها ، بينما كانت اللهجات الأخرى آخذة فى الانكماش ، وبذا تقاربت اللهجات ، وكادت تتحد ، فلما نزل القرآن الكريم بلغة قريش ، وسحر العرب ببيانه ، واعتنق العرب الإسلام ، تمت الغلبة للغة قريش ، وتوارت تلك اللهجات ، إلا آثارا قليلة ، دونت[1] مع لغة قريش .

---

(١) كاعلال الفعل الماضى الثلاثى المختوم بياء ، بقلب يائه ألفا ، فى لغة طيء نحو : =

وقد كان لكل لهجة من اللهجات هنة أو أكثر سوى لغة قريش ، فإنها سلمت من تلك الهنات : ومن هذه اللهجات :

١ — عجعجة[1] قضاعة — وهى إبدال الياء المتطرفة بعد عين — جيما ، نحو : الساعج خرج معج ، وفقيم تبدل الياء جيما إن وقعت فى الآخر مشددة أو ساكنة ، فالأول كقول الشاعر :

خالى عـــويف وأبو علج المطعمان اللحم فى العشج

والثانى كقول الآخر :

يا رب إن كنت قبلت حجتج فلا يزال شاحج[2] يأتيك بج

ولغة فقيم أعم من لغة قضاعة .

= بقا ونساق بقى ونسى . وهى لغة المصريين ، وتصحيح مدين ومبيع عند تميم ، فيقال مديون ومبيوع . وقلب همزة رأس وكأس وبئر وظئر وولؤم حرفاً من جنس حركة ماقبلها عند تميم . وقلب ألف المقصور المضاف لياء المتكلم ياء عند هذيل ومنه : سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم — البيت . وحذف نون من الجارة إذا وليها ساكن ، نحو : خرجت مالدار ، وجئت ما لمسجد عند خثعم وزبيد ، من قبائل اليمن ، وهى لغة مصر . وحذف ألف على الجارة ، وألف الإسم الذى يليها ، إذا وليها ساكن ، وهى لغة بلحرث ، نحو : ركبت علفرس ، وقعدت علأرض ، وهى شائعة فى مصر . وحذف نون اللذين واللتين عند بلحرث بن كعب ، نحو :

أبنى كليب ، إن عمى اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا

ومن اختلاف اللهجات : التفخيم والترقيق ، والإمالة وعدمها ، والسرعة والبطء وأهل اللغة لم يدونوا كيفيات النطق ، كما أنهم لم يدونوا اللهجات كاملة ، لأن الذى كان يعنيهم هو فهم القرآن والسنة وهما بلغة قريش ، فاكتفوا بتدوينهما ماعثروا به فى الأشعار ، أو أخـــذوه من سكان البوادى والرواة . وقد ذكر ابن فارس أوجها اخرى للاختلاف ، فراجعها فى الصاحبى .

(١) العجعجة فى اللغة : الصياح .

(٢) الشاحج : البغل .

وقد ورد عكس هذا الإبدال ، قال الشاعر :

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى   فأبعدكن الله من شيرات[١]

٢ — فحفحة[٢] هذيل — وهى إبدال الحاء عينا ، كقولهم : علت العياة لكل عى ، فى : حلت الحياة لكل حى .

٣ — عنعنة تميم وقيس — وهى جعل الهمزة المبدوء بها عينا ، نحو : عنك فاضل، وعنت كريم ، فى : أنك فاضل ، وأنت كريم .

٤ — استنطاء سعد وهذيل والأزد وقيس والأنصار — وهو جعل العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء ، فيقولون فى أعطى درهما : أنطى درهما ، وقرىء شذوذا : « إنا أنطيناك الكوثر » ، وفى الحديث : فان اليد العليا هى المنطية ، واليد السفلى هى المنطاة .

٥ — كشكشة ربيعة ومضر — وهم فى ذلك طوائف ، فطائفة تجعل بعد الكاف المخاطبة المؤنثة شينا فى الوقف فقط ، وهو الأشهر ، وطائفة تثبتها فى الوصل أيضا ، وطائفة تجعل مكان كاف المخاطبة المؤنثة شينا مكسورة فى الوصل ساكنة فى الوقف ، حكى بعضهم أنه سمع أعرابية تقول لجاريتها : « ارجعى وراءشى فان مولاشى يناديشى » أى وراءك الخ ، وروى قول الشاعر :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها   البيت ، بإبدال الكاف شينا :

فعيناش عيناها، وجيدش جيدها   ولكن عظم الساق منش دقيق[٣]

٦ — كسكسة ربيعة ومضر — يجعلون بعد الكاف أو مكانها سينا فى خطاب المذكر ، ليفرقوا بين خطاب المذكر وخطاب المؤنث ، يقولون : « عرفتس لما أن نظرتس » ، وقد نسبها الحريرى لبكر ، لا لربيعة ومضر ، وجعلها زيادة شين بعد خطاب المؤنثة ، وفسرها القاموس كتفسير الحريرى لكنه نسبها لتميم لا لبكر .

---

(١) أصلها شجرات .   (٢) الفحفحة : صوت الأفعى ، وبحة فى الصوت .

(٣) يروى بالدال وبالراء (دقيق ورقيق) .

٧ — وهم كلب — وهو كسر هاء الغيبة متى وليتها ميم الجمع مطلقا نحو منهم وعنهم وبينهم ، والفصيح أنها لا تكسر إلا إذا كان قبلها ياء أو كسرة مثل عليهم وبهم — وزاد فى المزهر فى الردىء المذموم من لغات العرب قلب الكاف جيما يقولون : الجعبة فى الكعبة ، وزاد ابن فارس الحرف الذى بين القاف والكاف[1] فى لغة تميم : قال الشاعر :

ولا أكول لكدر الكوم قد غليت ولا أكول لباب الدار مكفول

وهى لغة أكثر المصريين .

والحرف الذى بين الجيم والكاف فى لغة اليمن ، فيقولون فى « جمل » « كمل » وهى السائدة فى القاهرة والجهات المجاورة لها .

قال الجاحظ فى البيان والتبيين : قال معاوية يوماً من أفصح الناس ؟ فقال قائل قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ليس فى لغتهم غمغمة قضاعة[2] ولا طمطمانية حمير ، قال من هم ؟ قال : قريش .

— ٤ —

عوامل تهذيب اللغة العربية :

لم تخلق اللغة العربية كما ننطق بها الآن ، بل مرت — قبل ذلك — بأطوار وتقلبت عليها عصور وأجيال ، وتعاورتها عوامل شتى ، حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن ، من غنى وثراء ، وحلاوة منطق وفصاحة بيان .

والإنسان يملكه العجب ، حين يستعرض هذه العوامل ، فيراها متضافرة على غرض واحد ، وهو توحيد اللغة وكأن الله تعالى أراد أمرا جليلا ، فهيأ له أسبابه ، حتى إذا أنزل كتابه كانت الآذان قد تهيأت لفهمه ، والتأثر به ،

---

(١) لابن خلدون فى مقدمته بحث طريف عن هذا الحرف ، أى نطق القاف نطقا بينها وبين الكاف .

(٢) الغمغمة الكلام الذى لا يبين .

لإنقاذ هذه الأمة مما كانت ترسف فيه من الجهل والضلال، وليسرى هذا النور منها إلى غيرها فيسعد به الناس، وتنتظم به حياتهم، ويرفه به عيشهم.

وأول هذه العوامل: ما حدث بنزول يعرب بن قحطان ببلاد اليمن فقد قيل: إنه اتصل ببقايا العرب البائدة، وتعلم منهم لسانهم، وأعقب ذلك تغير اللغة عن أوضاعها الأولى، إلى أوضاعها الجديدة التي هي مزيج من لغة العرب البائدة، ولغة بابل أو الحبشة، بلاد يعرب بن قحطان، ومن هنا نفهم مراد من يقول: إن يعرب ابن قحطان أول من نطق بالعربية أي أول من نطق بها بعد أن اتجهت هذا الاتجاه الجديد.

وثانيها: ما حدث بنزول إسماعيل عليه السلام وأمه بمكة، واتصاله بجرهم الثانية القحطانية، ونشأته بينهم طفلا، ومصاهرته إياهم. فقد تسرب إلى اللغة القحطانية ألفاظ عبرية من إسماعيل وأمه، وتشكلت اللغة بشكل جديد، وصارت مزيجاً من اللغتين.

أما ما يقال — وقد روته بعض كتب الحديث — من أن اسماعيل أول من انفتق لسانه بالفصحى، فمعناه أنه أول من تكلم بها بعد هذه النشأة الجديدة، وليس المراد أنه أول من تكلم بالنهج القرآني الفصيح لأن بين اسماعيل وبين نزول القرآن تسعة عشر قرناً، لا يتصور أن تظل اللغة العربية فيها جامدة على ما كانت عليه، لا تتغير ولا تتبدل (١)

وليس بعريب أن يشتد الخلاف بين اللغتين اليمنية والحجازية، وإن كانت القحطانية أصلحها، لأن ما بين الإقليمين، من بعد الشقة، واختلاف البيئة، إلى قلة طرق الاتصال، كفيل بأن يباعد بين اللغتين.

وثالثها: اختلاط القبائل واجتماعاتها — وقد أخذت عوامل الاختلاط، التي من أهمها حادث سيل العرم، والحروب، والاتجار، والحج، تحدث أثرها العظيم، في تفاهم القبائل، وتقارب لغاتها في هذه الاجتماعات يضطرون إلى التحادث، ويأخذ كل فريق عن صاحبه.

---

(١) نشير بهذا إلى ما ذكره الجاحظ في البيان ج ٣ ص ١٧٨.

وأهم هذه الاجتماعات كلها، اجتماعات الحج، واجتماعات الأسواق.

(ا) أما الحج فقد سن من عهد ابراهيم عليه السلام، وكان العرب يفدون إلى البيت الحرام، من كل فج عميق، حتى جاءت قريش، فكانوا جيرته وسدنته، وقد كانت قريش على جانب من الثقافة، والرقى الفكرى، والذوق الأدبى، فاستطاعت بذلك أن تميز بين اللهجات والألفاظ، وأن تنتقى ما خف على اللسان وحلا فى الآذان، من ألفاظ القبائل الوافدة عليها، فارتقت لغتهم، وتنزهت عن مستبشع اللغات، وبذلك مرنوا على نقد الألفاظ، وصاروا أجود العرب انتقاء للأفصح والأسهل والأبين، وأخذت القبائل تحاكيها فى لغتها وتأخذ عنها، كما أخذت عنهم، وكان لقريش عمل آخر فى هذا السبيل، وهو إدخالهم فى اللغة ألفاظاً كثيرة، جلبوها فى رحلاتهم التجارية من الشام وفارس والحبشة بعد أن عربوها، وصارت بلغتهم آلف، وبذا تتبين: أن قريشاً كانت تقوم بأكثر مما تقوم به المجامع اللغوية فى توحيد اللغة وتوسيعها!

(ب) وأما الأسواق فقد كانت من العوامل فى تقارب اللهجات، وتداخلها، حتى يتيسر التفاهم، وتقضى الحاجات.

وقد انساق العرب إلى متابعة قريش على لغتها لما رأوه فيها من بلاغة وفصاحة، ولما كان لها من سلطة دينية، وعزة قومية. والضعيف مولع بتقليد القوى فى كل زمان ومكان، فأخذوا يحاكونها ويتقربون من لغتها، ويلتزمونها فى خطبهم وأشعارهم، حتى كادوا يجمعون عليها، لتسير أشعارهم فى الآفاق ويتناقلها الرواة والحفاظ فى كل الجهات، ولا أدل على ذلك من أن العرب فى أنحاء الجزيرة فهموا كلهم القرآن عند نزوله وتأثروا به.

فلما نزل القرآن الكريم بها زادها قوة ورسوخاً وانتشاراً، وزاد تلك اللهجات ضعفاً واختفاء، فلم يبق منها إلا ما هو من فطرة اللسان وتأثير الأجواء. وسيظل القرآن الكريم قائماً بحراستها إلى نهاية الأيام والعصور.

الباب الثالث

الحياة الدينية

الفصل الأول

معبودات الحجازيين وعاداتهم الدينية

كانت ديانات العرب الحجازيين(١) متعددة . فنهم من عبد الأوثان ، وصورها بشتى الأشكال ، يصنعونها بأيديهم من ذهب أو حجر أو خشب ثم يقفون أمامها خاشعين ، ويقدمون لها القرابين ، ويستنصرون بها على الأعداء ، ويستشيرونها فى المهام ، فإن أمرت بشىء فعلوه ، وإلا كفوا عنه وتركوه ، حتى تاذن لهم فيه ، ومما يدعو إلى الضحك والرثاء ، ما حكى من أن بنى حنيفة اتخذت لها صنما من حيس ، عبدته مدة طويلة ، ثم أصابتهم مجاعة فاكلوه ، فقال الشاعر يعيرهم :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

وكان منهم فريق عبدوا الشعرى ، ورد الله تعالى عليهم بقوله : « وأنه هو رب الشعرى » ، وحكى القرآن عبادة فريق للجن والملائكة ، فقال : « ويوم يحشرهم جميعاً فيقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ » الآية . وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة ، ومن صورها قول شاعر قرشى :

يحدثنا الرسول بان سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟

---

(١) راجع الأصنام للكلبى — الميثولوجيا عند العرب لمحمود سليم الحوت — الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى — ٢ : ٢٧٨ شفاء الغرام الفاسى .

وفريق منهم اعتنق اليهودية وهؤلاء كانوا بالمدينة وخيبر وفدك ، كما كانوا باليمن كذلك .

أما النصرانية فقد كانت قليلة فى الحجاز ، وكان أغلب أتباعها فى الشام وفى الحيرة ونجران ، وكان من أتباعها أمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة وسواهما .

الحنيفية :

والذين نبذوا هذه الأديان ، واعتنقوا التوحيد هم من عرب الحجاز وقد اهتدوا إلى ذلك بفطرتهم السليمة ، وكانوا يسمون « الحنفاء » ومنهم : ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل الذى يقول :

أربا واحدا أم ألف رب　　أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا　　كذلك يفعل الرجل الخبير

وكان هؤلاء يعظمون الكعبة التى كان أول من بناها أبو الحنيفية البيضاء إبراهيم عليه السلام ، ولم يجعل لها سقفا . ثم تجدد بناؤها فى عهد العمالقة ، وجرهم . ثم جددها أيضا قصى بن كلاب وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل[1] ، ثم بنتها قريش والرسول ابن خمس وثلاثين سنة ، ورفعوا بابها حتى لا تدخل إلا بسلم . وذلك لتستطيع قريش منع من تشاء من دخولها ، وقد حرصت قريش على أن لا يدخل فى بنائها من كسبهم إلا ما كان طيبا ليس فيه شىء من ربا ، أو مهر بغى ، أو مظلمة لأحد ، واختلفت القبائل فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ، واحتكموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى بينهم بالحكمة . ثم كان أن احتمى عبد الله بن الزبير فى المسجد من الحصين قائد جيش يزيد بن معاوية ، وقذف الحصين الكعبة بالمنجنيق ، فكاد يهدمها لولا أن قضى الله بوفاة يزيد فانصرف الجيش ، فهدم عبد الله بن الزبير بناءها ، وبناها على قواعد إبراهيم ، وكسا بابها بصفائح الذهب ، وجعل مفاتيحها من الذهب أيضا ، وجعل لها بابين فى مستوى الأرض كى يسهل على العرب المرور بداخل الكعبة .

---

(١) الاحكام السلطانية للماوردى ص ١٤٣

ولما جاء عبد الملك بن مروان أمر أن يعاد بناؤها إلى ما كان عليه أيام الرسول . ثم جاء أبو جعفر المنصور ؛ فأراد أن يعيدها إلى ما كانت عليه أيام عبد الله ابن الزبير فمنعه مالك بن أنس ، سدا لهذا الباب ؛ ومنعا للتلاعب فى هذا البناء المقدس فى مستقبل الزمان .

ومما ورثه العرب من شريعة إبراهيم : الحج بما فيه من تلبية وطواف ، وسعى ووقوف بعرفة ، والطهارة بنوعيها ، والصلاة مولين وجوههم شطر الكعبة ، والزكاة ، والصدقة وصلة الأرحام ، والصوم : ومجموع هذه الشريعة يسمى « التحنف » ومعتنقوها « حنفاء »[1] .

وقد كانت هذه النزعة الإصلاحية التى سيطرت على عقول بعض الحكماء والمفكرين العرب تنبيها للأذهان ، وإرهاصا لظهور النبى الجديد ، وتهيئة العقول لتستعد لقبول التعاليم الجديدة التى سيدعو إليها النبى الكريم .

اليهودية :

ظهور اليهودية فى يثرب : الراجح أنه حدث فى زمن متقدم ، بعامل الاضطهاد أو تحت تأثير المنافع المادية ، فحينما كثر عدد اليهود بأورشليم ، وتطلعت نفوسهم إلى الاستئثار بأمور التجارة والمنفعة ؛ تسربت طوائفهم من أورشليم إلى العقبة ، ثم ظهروا فى يثرب مهاجرين واستوطنوا الجهات الأكثر صلاحية لهم ولمعايشهم ، كأرض خيبر الواقعة شمال يثرب ، ووادى القرى المشهور بأرضه الخصبة ، وحدائقه الزاهرة ، وأرض تيماء أيضا ، وكل هذه الجهات واقعة شمال الحجاز ، ولها أهمية اقتصادية عظيمة ، فبعضها يشرف على الطرق التجارية ، والبعض ينعم بخيرات الجزيرة .

قد استطاع اليهود أن يعيشوا فى بلاد العرب بوسائلهم التقليدية من المكر والخداع والكيد ، ونجحوا إلى حد كبير فى الاستئثار بخيرات البلاد ، ولكن دينهم نفسه لم يجد له طريقا إلى قلوب العرب ، ولعل السبب فى ذلك أن كثيراً من أحكام اليهودية لا تتناسب مع أخلاق العرب ، فاليهودية مثلا

(١) اقرأ تفصيل أخبار الموحدين فى بلوغ الأرب ج ص ٢٥٣ وما بعدها .

لا تبيح الانتفاع بغنائم الأعداء ، بل تقول بحرقها ، والعربى إنما يقاتل للنهب والسلب غالبا ، والعربى إلى جانب ذلك يميل إلى الحرية وعدم التقيد « بالسبت » أو بشيء آخر مما ورد فى التوراة .

المسيحية :

وأما المسيحية فلم تكن مجهولة فى قلب الجزيرة ، ولا سيما مدن الحجاز التجارية ؛ فقد كان الحجازيون على اتصل دائم بأهل الشمال . وليس من شك فى أن الرهبان الذين كانت صوامعهم تنتثر من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء ، كان لهم أثر كبير فى تعريف العرب بالنصرانية ، على أن الصحراء كانت ملجأ تلوذ به بعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية . وقد عرفت النصرانية فى بنى أسد بن عبد العزى من قريش ، ومنهم عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل على رأى ، وكان ورقة قد استحكم فى النصرانية حتى علم من أهل الكتاب كثيراً .

وفى يثرب كان من المناوئين للنبى صلى الله عليه وسلم عند شخوصه إليها شريف مطاع اسمه أبو عامر عبد عمرو بن صيفى ، كان قد ترهب ولبس المسوح وسمى « الراهب » وكان بمكة نصرانى اسمه موهب ضرب عليه النبى ديناراً كل سنة .

وكان بأيلة نصارى ، ضرب عليهم النبى ﷺ ثلاثمائة دينار كل سنة ، وأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثاً ولا يغشوا مسلماً[1] .

الأصنام واتباعها :

وكانت عبادة الأصنام أقواها نفوذا وأوسعها انتشاراً ، وليس ذلك بعجيب ، فإن ضعفاء النفوس ، فى كل زمان ومكان يأبون إلا الارتماء فى أحضانها والتشبث بأهدابها ، « رب إنهن أضللن كثيراً من الناس » الآية . وكأن هذه العقول يشق عليها أن تفهم معنى الألوهية على حقيقته فتريد إلـهاً مجسماً : تناجيه عن كثب وتتقدم إليه بحاجاتها كما تتقدم إلى الحكام فى شؤونها الدنيوية .

(١) راجع العرب والامبراطورية لبروكلمان ص ٢٩ ، واليعقوبى ١ : ٢٨٩ ، وابن هشام ٢ : ٢١٦ ، والأم للإمام الشافعى ٤ : ١٠١

ويرجع سبب انتشارها فى جزيرة العرب ، إلى الأزمان السحيقة حين كان يهاجر المكيون من مكة — لما ضاقت بهم — منتشرين فى أنحاء الجزيرة ، فكان كل فريق منهم يحمل معه حجرا من أحجار البيت ، يطوف به حيث يقيم ، كما كان يطوف بالكعبة ، فلما تقادم العهد ، انحرفوا عن الحجارة وزين لهم الشيطان عبادتها ، فعبدوها من دون الله .

ويقال : إن الذى نشر عبادتها فى الحجاز عمرو بن لحى الخزاعى ، جلبها معه من الشام ، وقد ذهب إليها يستشفى ، فرآها عندهم ، فسألهم عنها ، فقالوا له : إننا نستنصر بها على الأعداء ، ونستسقى بها المطر ، فطلب أن يصنع له منها عدد : فصنع ، وحمله معه ، ونصبه حول الكعبة فعبدها العرب ، وتملقوا بها ، وكثر اتخاذهم لها ، حتى قيل إنه وجد منها حول الكعبة — يوم الفتح — ستون وثلثمائة صنم ، وكان بالكعبة تمثالا السيد المسيح والعذراء مريم عليهما السلام ، فأخذ الرسول صلوات الله وسلامه عليه — يطعنها فى وجوهها وأعينها بسية قوسه ، ويقول : جاء الحق ، وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً . ولم يكتف أهل مكة بهذه الأصنام ، بل اتخذ أهل كل بيت صنما لهم فى بيتهم ، فاذا أراد أحدهم سفرا ، كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، فاذا قدم من سفره كان أول ما يصنع أن يتمسح به . وكان لغير قريش طواغيت ، أى بيوت كالكعبة ، يصنعون فيها الأصنام ، ويطوفون بها ، ويهدون إليها الهدايا ، ويذبحون عندها الذبائح ، ويستقسمون عندها بالقداح ، ولها سدنة وحجاب .

والقول بأن الوثنية أول من جلبها إلى بلاد العرب عمرو بن لحى من غير أن يكون لها سابق وجود بشبه الجزيرة ، مشهور ، وقد يكون بعيداً عن الصواب ، لأن العرب كان لهم اتصال منذ قديم الزمان بالأمم التى تجاورهم بواسطة التجارة والترحال ، وكانت هذه الأمم ، وعلى الأخص الفينيقيون ، والكلدانيون ، والآشوريون ، والمصريون ، يدينون بالوثنية ؛ وطبعى أن يتأثر العرب بهذه الوثنيات شيئاً فشيئاً ، ثم تسرى عدواها إلى القبائل واحدة بعد واحدة حتى تعم القبائل برمتها ؛ وهذا ظاهر من أن كل قبيلة كان لها صنم خاص بها تنصبه فى أرضها لتعبده .

وتشير رواية الكلبي إلى أن عبادة الأصنام بجزيرة العرب ترجع إلى عهد أسبق من عمرو بن لحي، ذلك أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، لما سكن مكة وولد له أولاد كثيرون حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ضاقت عليهم مكة؛ ووقعت بينهم الحرب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضا فتفسحوا في البلاد.

وكان الذي جرهم إلى عبادة الأصنام أنه كان كما ذكرنا لا يظعن ظاعن من مكة إلا احتمل معه من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنا منهم بها؛ وصبابة بالحرم، وحبا له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على دين إبراهيم واسماعيل عليه السلام.

ثم جرهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم واسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان؛ وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قوم نوح وغيره[1].

وإذن فعمرو بن لحي ليس هو أول من جلب هذه العبادة إلى جزيرة العرب؛ وينبغي أن يكون مفهوما أن عبادة الأصنام التي شاعت بين العرب كانت تختلف في معناها عن الوثنيات الأخرى، فبينما كانت الأصنام في الجهات الأخرى تعبد بصفتها آلهة قائمة بذاتها، كانت تعبد في جزيرة العرب بصفتها شفعاء عند الله، فالعرب — بذلك — قد أشركوا الأصنام مع الله سبحانه وتعالى! أي أن إيمانهم كان شركا. قال تعالى «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون».

وأشهر أصنامهم، ما ورد بذكره القرآن، وهو ود وسواع ويغوث ويعوق[2] ونسر، واللات، والعزى، ومناة. وسمت العرب: عبد ود، وعبد يغوث، وتيم اللات، وكانت قريش وأهل مكة، لا يعظمون شيئا من

---

(١) الأصنام للكلبي ص: ٦

(٢) قال الواقدي كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر.

الأصنام مثل ما يعظمون اللات والعزى ومناة وهبل كبير آلهتهم ، ولذا كانت قريش تقول فى طوافها : واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى ، وكانت هذيل تعبد سواعاً قال الشاعر :

تراهم حول قبلتهم عكوفا كما عكفت هذيل على سواع

وروى فى التاج : حول قيلهم « بالياء بعد القاف المفتوحة » .

من عادات قريش الدينية

الحمس :

كانت العرب على دينين : حلة ، وحمس . فالحمس قريش ، وكل من ولدت من العرب ، وكنانة ، وخزاعة والأوس والخزرج وجشم وبنو ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وأزد شنوءة ، وجذم ، وزبيد ، وبنو ذكوان من بنى سليم ، وعمرو اللات ، وثقيف ، وغطفان ، والغوث ، وعدوان ، وعلاف ، وقضاعة . وكانت قريش إذا أنكحوا عربياً امرأة منهم اشترطوا عليه أن كل من ولدت له فهو أحمسى على دينهم ، وزوج الأدرم تيم بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابنه مجداً ابنة تيم ربيعة بن عامر بن صعصعة على أن ولده منها أحمسى على سنة قريش ، وفيهم يقول لبيد ابن ربيعة بن جعفر الكلابى :

سقى قومى بنى مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال[1]

واختلف المستشرقون فى معنى كلمة حمس وأصلها ، فذهب « فلهوزن » إلى أن المقابلة بين كلمة حمس وكلمة حلة تفيد معنى المقدس ، أما « نولدكه » فقد أظهر ميلا إلى الشك فى حقيقة هذه المقابلة وقال : إن الحمس كالأحامس قد تفيد معنى المتحمس من حيث صلتها بأصل الكلمة التى نحن بصددها[2] .

---

(١) الأزرقى ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة « حمس » ٨ : ١٠٤ الطبعة العربية .

« وإنما سميت الحمس حمساً للتشدد في دينهم ، فالأحمسى — في لغتهم — المتشدد في دينه »(٢) .

كانت قريش لا تعظم شيئاً من الحل كما تعظم الحرم ، وذلك لئلا تستخف العرب بحرمهم ، ولذا فقد تركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ، ويقرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ، وأن يفيضوا منهـا إلا أنهم قالوا : نحن الحمس أهل الحرم فليس ينبغى لنـا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيره . ثم جعلوا لمن ولدوا من سائر العرب سكان الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم ، إياهم يحل لهم ما يحل لهم ، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم ، ودخلت معهم خزاعة وكنانة ومن ذكرناهم من القبائل ، وابتدعوا فى ذلك أموراً : فلم يكونوا يأقطون الأقط ولا يسلئون السمن وهم حرم ولا يدخلون بيتاً من شعر ولا يستظلون إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما ، بل غالوا فى تشددهم فقالوا : لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل فى الحرم إذا كانوا حجاجاً أو عماراً ولا يأكلون فى الحرم إلا من طعام أهل الحرم إما قراء وإما شراء ، وكان مما ابتدعوه أنه إذا حج الصرورة من غير الحمس رجلا كان أو امرأة لا يطوف بالبيت إلا عريانا إلا أن أن يطوف فى ثوب أحمسى : إما عارية وإما إجارة ، يقف أحدهم بباب المسجد فيقول : من يعير ثوبا ؟ فإن أعاره أحمسى ثوبا أو أكراه طاف به ، وإن لم يعره ألقى ثيابه بباب المسجد من خارج ثم دخل الطواف وهو عريان يبدأ بأساف فيستلمه ثم يستلم الركن الأسود ثم ويأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه فإذا ختم طوافه سبعا استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها فيلبسها ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عريانا . وقد جاءت امرأة يوما وكان لها جمال وهيئة فطلبت ثيابا عارية فلم تجد من يعيرها فلم تجد بداً من أن

---

(١) أخبار مكة ١ : ١١٦ طبعة مكة — و ٢ : ٤١ شفاء الغرام :

تطوف عريانة فنزعت ثيابها بباب المسجد ثم دخلت المسجد عريانة فوضعت يديها على فرجها وجعلت تقول :

اليوم يبـــدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله (١)

وكان أحدهم إذا أراد شيئا من داره نقب نقبا فى ظهر بيته فمنه يدخل إلى حجرته ومنه يخرج ولا يدخل من بابه ولا يجوز تحت أسكفة بابه ولا عارضته ، فإن أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ثم ينزلون فى حجرتهم ، ويحرمون أن يمروا تحت عتبة الباب (١) .

وكان يحضر المواسم بعكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز : التجار ممن كان يريد التجارة ؛ ومن لم يكن له تجارة ولا بيع فإنه يخرج من أهله متى أراد ، ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم التروية فيتروى من الماء فتنزل الحمس أطراف الحرم من نمرة يوم عرفة وتنزل الحلة عرفة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى سلمته التى دعا فيها بمكة قبل الهجرة لا يقف مع قريش والحمس فى طرف الحرم وكان يقف مع الناس بعرفة .

وإذا أفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم وأفاضت الحلة من عرفة حتى يلتقوا بمزدلفة جميعا ، وكانوا يدفعون من عرفة إذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوههم ، فإذا كان هـذا الوقت دفعت الحلة من عرفة ودفعت معها الحمس من الضباب الحرم حتى باتوا جميعا بمزدلفة فيبيتون بها حتى إذا كانوا فى الغلس وقفت الحلة والحمس على قزح فلا يزالون عليه حتى إذا طلعت الشمس وصارت على رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوههم دفعوا من مزدلفة وكانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نغير . أى بالشمس حتى ندفع من

(١) الأزرقى ج ١ ص ١١٣ — ١١٥
(١) الأزرقى ج ١ ص ١١٧

المزدلفة فأنزل الله في الحمس: «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس» يعني من عرفة. فلما حج النبي صلى الله عليه وسلم خطب الناس بعرفة فقال: «إن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من عرفة إذا صارت الشمس على رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم، وإنا لا ندفع من عرفة حتى تغرب الشمس، ونحل فطر الصائم، وندفع من مزدلفة غداً إن شاء الله قبل طلوع الشمس، هدينا مخالف لهدى أهل الشرك والأوثان»(١).

---

(١) الأزرقي ج ١ ص ١٢٢ — ١٢٣

الفصل الثاني

أشهر الأصنام في الحجاز

هُبَل :

كان هبل أعظم أصنام العرب فى جوف الكعبة وحولها ، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة المضرى وكانت تضرب عنده القداح [1] . وذكر الأزرقى أن عمرو بن لحى قدم به من هيت من أرض الجزيرة ولم يرد له ذكر فى القرآن الكريم .

وكان هبل رمز الشمس عند عبادها من الصابئة . أما صنمه فكان عظيما منحوتا من العقيق الأحمر محاطا بثلاثمائة وستين صنما كلها أصغر حجما منه . وكان لكل يوم يوم من أيام السنة صنم واحد منها . وكان هبل ممثلا بهيئة شيخ جليل طويل اللحية حطمت يده اليمنى فأعاضه منها عباده القرشيون يدا من ذهب ، وكان يحمل فى تلك اليد قداحا سبعة (سهام الحظ) لكل من أيام الأسبوع قدح منها [2] . وعنده ضرب المطلب القداح على ابنه عبد الله .

فهبل إذن هو كبير الآلهة فى الجاهلية كما كان زفس وجوبتير عند الإغريق والرومان ، وآمون عند المصريين ، ومردوخ فى بابل ، إلى ما هنالك .

ورأى جورجى زيدان فى « أنساب العرب القدماء » أن لفظ هبل لا اشتقاق له فى العربية من معناه ، وأنه عبرانى أو فينيقى أصله هبعل ومعنى بعل « السيد » أما الهاء فهى أداة التعريف فى العبرية مثل « أل » فى العربية ، بإضافة هذه الأداة إلى بعل يريدون

---

(١) الأصنام ص : ٢٥ . (٢) الميثولوجيا العالمية ص : ٦٤

الإله الأكبر . أما العين الزائدة فسهل إهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصاً في لفظ بعل ، لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » بإهمال العين ، وهو اسم هذا الإله عندهم .

العُزّى :

صنم كان لقريش من أكبر أصنام العرب . أو هي شجرة كانت تعبد ، وقربها صنم منصوب [1] وقيل : العزى مصرية عرفها المصريون القدماء باسم « أزى » وهي من المعبودات السماوية مثل مناة لأن معنى « أوزيت » القمر المنير بعد خسوفه [2] . ويرى بروكلمان ، أنها كانت في صورة كوكب « الزهرة » فينوس .

وروى أن العزى كانت شيطانة بعث الرسول إليها خالد بن الوليد لما افتتح مكة وكانت ببطن نخلة فأتاها وإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يدها على عاتقها ، تصرف بأنيابها ، فضربها خالد ففلق رأسها ، ثم أتى النبي فأخبره فقال : « تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب ! أما أنها لن تعبد بعد اليوم » [3] . وفي رواية أخرى أنها شجرة قطعها خالد بن الوليد بأمر الرسول ﷺ عام الفتح وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وردت في النقوش البابلية كلمة IZZU — ASRRI ومعناها ملك النار ، ومعنى العزو « النار » في اللغة البابلية [4] وقد روى الجاحظ أن خالداً حين هدم بيت العزى رمته بالشرر حتى احترق عامة فخذه . ولا يخفى ما بين المعنى البابلي والرواية العربية من التشابه .

---

(١) الاغاني ج ٤ ص ١٥٢ ، حاشية (١)
(٢) احمد كمال في المقتطف ٢٣ : ٥٠٥
(٣) الاصنام ص ٢٧ : ٢٨
(٤) الاساطير العربية قبل الإسلام ص ١٩٩ نقلا عن كتاب الادب البابلي بالإنكليزية ص ٦٥

والآراء مختلفة فى حقيقة العزى : أكانت صنما ، أم كوكبا ، أم شجرا ، أم حجرا أبيض ، أم بيتا ؟ وقد ذكر ابن هشام أنها بيت تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها .

مناة :

صنم لهذيل وخزاعة كان منصوبا على ساحل البحر بقُدَيْد (كزبير) على ثلاث مراحل من مكة بطريق المدينة . وكانت العرب جميعها تعظمه وخاصة الأوس والخزرج، وهدم عام الفتح بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومناة أيضا حجر كبير كانوا يذبحون عليه . وقد وجدت باسمها ورسمها فى الآثار المصرية ، أى مناة ، وهى إحدى الحاتحورات أى المعبودات السماوية السبع ، وعلى الظن أن النجم المسمى مناة المعروف الآن باسم الوتد سمى كذلك بالنسبة إليها . وإن صح هذا فعبادها من الصابئة [1] .

واتفق أكثر الرواة على أن مناة هذه كانت صنما ، لا حجرا يذبح عليه ، وكانت من أقدم الأصنام التى جاء بها عمرو بن لحى كما قاله الكلبى ، فبدهى أن عبادتها دخلت فى بادية الحجاز ولم تولد فيها ويؤيده ما ورد فى الأدب البابلى أنه كان اهم آلهة الموت والقدر باسم مامناتو MAMNATU وكذلك وردمناواة فى أقدم النقوش النبطية [2] .

اللات :

اسم صنم كان فى الجاهلية لثقيف بالطائف أو لقريش بنخلة وقد هدمها المغيرة بن شعبة بعد أن سخر من أهلها حين أسلمت ثقيف سنة تسع من الهجرة ، وقيل إن اللات أو الطاغية تسمى فى المسمى (اللات) ويرمز بها إلى الحصاد والنمو لأن معناها لغة (الرضاعة) ولعلها رمز إلى النجم (لَتّ) وهو النسر الواقع فعبادها صابئون [3]

---

(١) احمد كمال ، مجلة المقتطف ، ٢٣ : ٥٠٥

(٢) الاساطير العربية قبل الإسلام ص ١٢٨

(٣) احمد كمال باشا فى المقتطف ٢٣ : ٥٠٥

وكلمة أللاتو Allatu وهى ملكة الهاوية أو الموت (١) قديمة وردت فى الأدب البابلى الذى يرجع عهده إلى ثلاثة آلاف سنة تقريبا . وهى اسم إله من آلهة البابليين، وكانت هذه الآلهة من بنات رب الأرباب واختارها ماموناتو Mamnatu وعشتار Ishtar (٢).

وَدّ :

قال الكلبى : قلت لمالك بن حارثة : صف لى وَدًّا حتى كأنى أنظر إليه . قال : « كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، وقد در عليه حلتان : متزر بحلة ومرتد بأخرى . عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ووَفْضة (أى جعبة) فيها نبل » (٣) .

وقال ابن منظور : الوَدّ صنم كان لقوم نوح ثم صار لكلب وكان « بدومة الجندل » وكان لقريش صنم يدعونه ودا ومنهم من يهمز فيقول : أدا (٤) .

قزح :

أما عبادة الصنم قزح ، فكانت منتشرة فى أنحاء شبه جزيرة العرب ، وقد أورد (كوك) عنه فى كتابه (ديانة فلسطين) ما يلى : « إن كوز إله أدومى وهو القزح العربى والرامى اللاهوتى الذى كانت نبالة البرق والرعد والمطر وكان العرب يحافظون على عبادته بقرب مكة » (٥) .

ذو الخلصة :

اختلف الباحثون فى ضبط « ذى الخلصة » : فقال ياقوت والجوهرى وعياض

---

(١) الأساطير العربية قبل الإسلام ص ١٠٩

(٢) الاساطير العربية ص ١١٧ نقلا عن الادب البابلى والاشورى بالإنكليزية ص ٩٤

(٣) الاصنام ص ٥٦

(٤) لسان العرب ج ٤ مادة « ودد » ص ٤٦٩ ط بولاق

(٥) ديانة فلسطين بالإنكليزية ص ٢٠٣ — ٢٠٤ ، وراجع كذلك مقدمة ديوان (عبقر) عن الاساطير العربية ، لشفيق معلوف

بفتح أوله وثانيه ، وحكاه هشام بضمتين ، وروى ابن دريد فتح الأول وإسكان الثاني وضبطه بعضهم بفتح أوله وضم ثانيه .

وفتح الخاء واللام هو الأشهر عند المحدّثين ، كما أنه هو المعروف المشهور عند قبائل السراة اليوم .

ويطلق « ذو الخلصة على وثنين :

(١) أولهما : البيت أو الصنم الذى كان بتبالة ، بين مكة واليمن ، على مسيرة سبع ليال من مكة ، وكان سدنته بنو أمامة من باهلة بن أعصر . قال الكلبى : « كان ذو الخلصة مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج » (١) ، وكانت تعظمها دوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بأرض تبالة (٢) وسمى ذا الخلصة ؛ لأن عباده والطائفين به كانوا خلصة كما يروى ياقوت .

وبرى الزمخشرى وغيره أن ذا الخلصة كان صنما لا بيتاً ، وقال الحافظ ابن حجر « ذو الخلصة : اسم للبيت الذى فيه الصنم ، وقيل : اسم البيت الخلصة ، واسم الصنم ذو الخلصة » ، إلا أن الأشهر عند المحدّثين والمؤرخين أنه كان بيتاً فيه نصب تعبد كما فى صحيح البخارى وكتب الأحاديث والسيرة . وكانت تسمى أيضاً (الكعبة اليمانية) كما كانوا يسمون بيت الله الحرام (الكعبة الشامية) . ونقل الزبيدى وابن منظور عن الجوهرى أنها كانت تسمى (كعبة اليمامة) ؛ وهذا وهم من الجوهرى أو تحريف من الناسخ ، فالفرق واضح بين اليمامة واليمانية والمكان مختلف .

وكانت تسمى (بيت ذى الخلصة) أيضا ، وعلى هذا سار أكثر الباحثين وكانوا يستقسمون عندها بالأزلام ، ولما خرج امرؤ القيس يطلب ثأر أبيه استقسم عنده فخرج له ما يكره فسب الصنم ورماه بالحجارة ، وأنشد :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا   مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

---

(١) الاصنام ٣٤ - ٣٦
(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣٠

ويفهم مما ورد فى بعض المصادر ، أنه لم يستقسم عنده أحد بعد امرىء القيس ، ولكن جاء فى حديث جرير بن عبد الله البجلى أنه لما قدم اليمن كان بذى الخلصة رجل يستقسم بالأزلام ، وحديث الباب يدل على أنهم استمروا على ذلك حتى نهاهم الإسلام (فتح البارى : غزوة ذى الخلصة) وبعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلى لهدم ذى الخلصة ، فما أطال الغيبة حتى رجع ، فقال رسول الله : هدمته ؟ قال : نعم والذى بعثك بالحق ، وأخذت ما عليه وأحرقته بالنار فتركته كما يسوء من يهوى هواه وما صدنا عنه أحد (١) .

ثم لما تعاقبت العصور ، وأصاب الناس موجة من الاضطراب ، وساد الفقر فى بعض الجهات ، شعرت بعض النفوس بحاجتها إلى ملجأ تفزع إليه . فانقلبت — بدافع من الجهل — إلى التمسك بالبدع والخرافات ، وعادت إلى التمسح بالأحجار والأشجار ، ورجعت دوس ومن جاراها من القبائل إلى ذى الخلصة تتمسح به وتهدى له وتنحر عنده . إلا أن موجة من الإصلاح كانت قد ارتفعت تناهض هذه الضلالات والخزعبلات ، فهدمت ذا الخلصة زمن عبد العزيز بن محمد بن سعود ، كما يروى ابن بشر فى كتابه عن تاريخ نجد (٢) ، ويبدو أن هذا الهدم لم يكن شاملا إذ ظلت بعض جدرانه شاخصة حتى سنة ١٣٤٤ هـ حيث حطمت الحملة التى بعثها عبد العزيز آل سعود بقايا ذلك الوثن ، ورمت بأنقاضه إلى الوادى فعفا بعد ذلك رسمه وانقطع أثره ، كما أحرقت الحملة كذلك شجرة العبلاء التى كانت تصاقب ذا الخلصة .

وقد كان بنيان ذى الخلصة ضخما ؛ بحيث كان لا يقوى على زحزحة الحجر الواحد منه أقل من أربعين شخصاً (٣) .

(٢) وثانيهما : الصنم الذى كان بأسفل مكة ، فى الرواية التى ذكرها الأزرقى ، ونقلها عنه المؤرخون ، وكان يسمى « الخلصة » . وكانوا يلبسونه القلائد ،

---

(١) الطبقات الكبير جـ ١ ق ٣ ص ٧٧ ، ٨٧ وراجع هدمه فى البخارى جـ ٥ ص ٢٠٨

(٢) عنوان المجد جـ ١ ص ١٨٠

(٣) أخبار مكة ١ : ٢٦٢

ويهدون إليه الشعير ، والحنطة ، ويصبون عليه اللبن ، ويذبحون له ، ويعلقون عليه بيض النعام (١)

وغير بعيد أنه كان فى ضاحية من ضواحى مكة صنم بهذا الاسم فكسر يوم فتح مكة ، أو أنه كان فى قرية « الخلصة » التى قال ياقوت عنها : إنها فى مر الظهران المعروف اليوم بوادى فاطمة . . وقد رجح الأزرقى وجود هذا الصنم فى القرية المذكورة لاتحاد اسمهما ، أما اليوم فلا توجد قرية تسمى الخلصة فى الوادى المذكور ، وإنما يوجد فيه خيف يسمى « عين الخلص » (٢) .

(١) المرجع السابق ١ : ٧٣

(٢) راجع عن ذى الخلصة البحث الذى كتبه الاستاذ رشدى ملحس ، ملحقاً بالجزء الاول من الازرقى ص ٢٥٦ — ٢٦٩

الباب الرابع

الحيـــــاة العقلية

عند عرب الحجاز فى العصر الجاهلى

— ١ —

الحياة العقلية لأية أمة من الأمم ، أو شعب من الشعوب ، يقصد بها مدى ما بلغته هذه الأمة فى الميدان الثقافى والعلمى والفكرى ؛ هذا الميدان الذى يؤثر تأثيرا خطيرا فى عقل الأمة وتفكيرها وازدهار النهضة فيها .

ومن العجب أن يكون أكثر سكان الحجاز فى العصر الجاهلى بدوا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، فضلا عن أن يعرفوا علما أو ثقافة ، ومع ذلك فقد كان لهؤلاء البدو لون من ألوان الثقافة الشعبية المستمدة من البيئة والتجارب والاقتباس من قريش ؛ حكام مكة ، وزعماء الحجاز فى العصر الجاهلى .

أما مدن الحجاز وفى مقدمتها : مكة ، والمدينة ، والطائف ، فكان لها طابع آخر ، إذ كان الكثير من أهلها مثقفين ثقافة خاصة بتأثير البيئة والاختلاط والرحلات ومواسم الحج وأسواق العرب ، فقد كان الحارث بن كلدة وابنه النضر ابن الحارث مثقفين بثقافة فارسية واسعة ، وكان بنو عبد مناف يرحلون إلى كسرى وقيصر وإلى اليمن فى متاجرهم ، ويتزودون بقسط من ثقافات هذه الأمم المجاورة لهم .

كما كان عمارة بن الوليد المخزومى وعمرو بن العاص — كلاهما — تاجرين ،

خرجا إلى النجاشى ، وكانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجها (١) وكان أبو رافع يلقب تاجر أهل الحجاز (٢) .

وكان بمكة طبقة مثقفة تدعى طبقة الحكام ، يفصلون فى كل المشكلات ، وتعرض عليهم شتى الخصومات فيقضون فيها . ومن الحكام بمكة من قريش من بنى هاشم : عبد المطلب ، والزبير ، وأبو طالب . ومن بنى أمية : حرب بن أمية ، وأبو سفيان ابن حرب . ومن بنى زهرة : العلاء الثقفى حليف بنى زهرة ، ومن بنى مخزوم : العدل؛ وهو الوليد بن المغيرة . ومن بنى سهم : قيس بن عدى ، والعاص بن وائل . ومن بنى عدى : كعب بن نفيل (٣) .

ولا شك أن هذه الطبقة كانت مظهرا لثقافة أصيلة ، وهى لا ريب كانت عاملا مهما فى تطور الحياة العقلية عند عرب الحجاز فى العصر الجاهلى . وقد يقال : إن هذه الطبقة نشأت على الحكمة نشأة الفطرة والطبع كما ذهب إليه الشهرستانى فى الملل والنحل — ولكننا ننفى ذلك ، فلا يمكن أن يكون مثلا هذا النظام السياسى الذى وضعه قصى وبنوه لحكم مكة فى العصر الجاهلى أثرا من آثار الفطرة والطبع ، إنما هو مظهر لثقافة سياسية ربى أبناء قصى عليها رحلاتهم ومشاهداتهم فى الأمم التى كانوا يذهبون بقوافل التجارة إليها .

ثم إنه قد كان يعيش فى مكة والمدينة طبقة أخرى من الحكماء الذين تأثروا بالديانات السماوية القديمة التى كان لها بعض الآثار فى مكة والمدينة والطائف ، ومن هؤلاء مثلا : ورقة بن نوفل ، وكان كما ورد فى كتاب بدء الوحى فى صحيح البخارى « امرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » ، ومنهم كذلك زيد بن عمرو بن نفيل ، وأمية ابن أبى الصلت وكان قد نظر فى الكتب وقرأها وهو أول من قال باسمك اللهم ، وسواهم . ولا شك أن هؤلاء كان لهم أثر على الحياة العقلية عند عرب الحجاز فى هذا العصر .

---

(١) الأغانى ٨ : ٥٢ (٢) ٥/١٣٨ صحيح البخارى .
(٣) راجع ص ١٠٨ ج ٢ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام

ومهما كان فإن تفكير العربى فى العصر الجاهلى لم يكن موسوما بالتفكير العلمى المبنى على ربط المسببات بالأسباب ربطا محكما نتيجة للدراسة والبحث والتمحيص ، وإنما كان فى أغلبه يعتمد على البديهة وحدة الخاطر ، وكثرة التجارب وعلى التقليد والكهانة والعرافة والعيافة وزجر الطير ، وما إلى ذلك من مقومات التفكير فى المجتمعات القديمة البعيدة عن مناهل العلم والمعرفة .

ومن مظاهر هذه العقلية ، ماورد فى سيرة ابن هشام من أن حيا من ثقيف « فزعوا للرمى بالنجوم فجاءوا إلى رجل منهم يقال له : عمرو بن أميه ؛ أحد بنى علاج ، وكان أدهى العرب وأمكرها رأيا ، فقالوا له : يا عمرو ، ألم تر ماحدث فى السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال : بلى ، فانظروا إن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس فى معايشهم هى التى يرمى بها فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وإن كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا لأمر أراد الله بهذا الخلق » .

فهذه الدقة العقلية لا يصح أن نجعلها أثرا لدراسة أو ثقافة ، إنما هى أثر لنضج عقل العربى المتأثر بحياة البادية والصحراء ، والذى تكثر تجاربه فيها .

ونحن مع ذلك لا نوافق الذين يرمون العقل العربى بالبلادة والضعف وانعدام النظرة الشاملة إلى العالم (١) .

ولا شك أن البيئة الطبيعية والاجتماعية كان لها أثرها فى حياة عرب الحجاز فى العصر الجاهلى ، هذه البيئة التى استمد العرب منها ثقافتهم فى العصر الجاهلى .

---

(١) راجع ص ٣٩ وما بعدها من كتاب فجر الاسلام لأحمد امين

— ٢ —

ومظاهر الحياة العقلية لعرب الحجاز فى هـذا العصر الجاهلى تتجلى لنا فى أشعارهم وأمثالهم وقصصهم التى شهروا بها فى العهد البعيد ، وبعبارة أوضح تتجلى بلاغاتهم التى هى مستمدة من منابـع الوجدان والشعور والعاطفة . وهـذه البلاغات تحمل طابعا واضحا من التفكير فى شئون الحياة والإحساس والوجدان ، وكانت هذه البلاغات هى شهرة العرب فى العصر الجاهلى ولا سيما عرب الحجاز الذين صفت لغتهم ، ورق وجدانهم ، وأرهفت أذواقهم ، وذاعت فصاحتهم وسمت أساليبهم ، حتى كانت لغتهم هى اللغة المختارة التى نزل بها الذكر الحكيم الذى يعتبر إعجاز البلاغة العربية وتاجها . كما تتضح مظاهر حياتهم العقلية فى معارفهم وثقافتهم العامـة التى تتحدث عنها مصادر الثقافة العربية القديمة .

ولعرب الحجاز ثقافات وتجارب فى الحياة ، وأهم هذه المعارف هى :

١ — الأخبار : ليس غريبا أن يكون العرب رواة حفاظا ؛ لأنهم كانوا أميين يعتمدون على حافظتهم ، وكانوا — إلى ذلك — قليلى الأعمال ، يحبون السمر والحديث ، فرووا أخبارا كثيرة اعتمد عليها المؤرخون فى عصر التدوين ، ولم يقتصروا فيما رووه على أخبار العرب بل رووا الكثير من أخبار الأمم المجاورة لهم . فمن سكن مكة أحاط بأخبار العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب والأمم التى كانت قريش تتجر معها . ومن سكن الحيرة ، خبر بأخبار العجم ، لمجاورته لهم ، وأخبار حمير . ومن سكن الشام خبر بأخبار الروم واليونان ، ومن سكن البحرين وعمان ، خبر بأخبار السند وفارس ؛ ومن سكن اليمن أخبر بأخبار أمم كثيرة . وكان النضر بن الحارث يرى أخبار الفرس والأكاسرة ويعارض بذلك ما يتلوه النبى ﷺ من القرآن (١) .

(١) يروى ان النضر كان من شياطين قريش ، وكان قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس ورستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله مجلسا فذكر بالله ، خلفه فى مجلسه إذا قام وقال: انا والله يا معشر قريش احسن حديثا منه ، فهلم إلى احدثكم احسن من حديثه ؛ ثم يحدثهم عن ملوك فارس وغيرهم ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى. ابن هشام ١ : ج ١٩٠ من الروض الأنف .

ولكن ما ورد من هذه الأخبار، لم يسلم من الدس والتحريف والمبالغات كما حدث لغيرهم من الأمم، إلا ما تضافرت الروايات على صدقه، كقصة الفيل ونحوها.

٢ — الأنساب: وكانوا من أحفظ الأمم، وأشدها عناية بحفظ أنسابهم؛ لأنها مناط فخرهم وعزهم ومدار منافراتهم وهم إليها محتاجون فى حروبهم للتناصر والتساند فكان أحدهم إذا سئل عن نسبه، ذكر عددا كبيرا من آبائه. وكان فى كل قبيلة نسابة يعرف من أنساب العرب وقبائلهم وبطونهم وأفخاذهم ومفاخرهم ومثالبهم، وأيامهم ووقائعهم ما يستوجب العجب والدهشة ويستطيع أن يلحق الفرع بأصله وينفى عن القبيلة من ليس من أبنائها.

وكان من أشهر النسابين فى العصر الجاهلى وما بعده: أبو بكر الصديق، وينسب إليه كثير من ألوان الحذق فى معرفة النسب العربى ومفاخره ومغامزه حتى إن حسان بن ثابت لما أراد هجاء قريش بعث به الرسول صلوات الله عليه إلى أبى بكر ليعلمه نسبهم وما يمكن القدح من جهته ومالا يمكن، ولما سمع أبو سفيان قصيدة حسان فى هجائه التى يقول منها:

وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

ومن ولدت أبناء زهرة منهم ... كرام ولم يقرب عجائزك المجد

قال: هذا الشعر لم يغب عنه ابن أبى قحافة.

ولما هجا حسان قريشا، قال له رسول الله صلوات الله عليه: كيف تهجوهم وأنا منهم، وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمى؟ فقال: والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين، فقال له: ايت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك، فكان يمضى إلى أبى بكر ليقفه على أنسابهم، فكان يقول له: كف عن فلانة وفلانة واذكر فلانة وفلانة، فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا: إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبى قحافة. وأبو بكر هو صاحب المثل المشهور «إن البلاء موكل بالمنطق».

وطبقات الأنساب عندهم: الشعب، فالقبيلة، فالعمارة، فالبطن، فالفخذ، فالفصيلة.

فالشعب : النسب الأبعد . كعدنان وقحطان . والقبيلة ما انقسم فيه الشعب : كربيعة ومضر . والعمارة : ما انقسمت فيه القبائل : كقريش وكنانة . والبطن ما انقسمت فيه العمارة ؛ كبنى عبد مناف وبنى مخزوم ، والفخذ ما انقسم فيه البطن : هاشم وبنى أمية . والفصيلة ما انقسم فيه الفخذ ، كبنى أبى طالب وبنى العباس .

فالفخذ يجمع الفصائل ، والبطن يجمع الأفخاذ ، والعمارة تجمع البطون ، والقبيلة تجمع العمائر ، والشعب يجمع القبائل .

وإذا تباعدت الأنساب ، صارت القبائل شعوبا ، والعمائر قبائل .

٣ — النجوم : وكان لهم معرفة بأسماء النجوم ، وطلوعها وغروبها . دعاهم إلى ذلك اعتمادهم عليها فى سيرهم براوبحرا ، وساعدهم على ذلك : صفاء جوهم ، ومعرفة خلطائهم من الكلدانيين « الصابئة » الذين كانوا كثيرين ببلاد العرب ، وقد عرفوا السيارات السبع .

كما عرفوا البروج المجموعة فى قول الشاعر :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان (١)

وإن تشابه أسماء السيارات والأبراج أو اتحادها فى العربية والكلدانية لدليل على اعتماد العرب فى هذه المعارف على الصابئة .

٤ — المطر والرياح : وكان لهم بالأمطار والرياح عناية كبيرة ، لاعتمادهم عليها فى حياتهم ، فاستطاعوا بتجاربهم أن يعرفوا السحاب الممطر والكهام والبرق الخلب والصادق (٢) ودلالة الرعد على قرب المطر أو بعده ، والسحب

(١) قسم العرب الفلك « مدار الشمس » إلى اثنى عشر قسما ؛ كل منها يسمى برجا ، وهى منطقة يجتمع فيها عدد من كواكب ثابتة تضمها خطوط موهومة ، وتعطى صورة معينة ، للشىء من الأشياء التى ذكرت فى البيتين

(٢) وفى سمط اللآلىء : البرق الذى يستطير فى السحاب من طرفها إلى طرفها لا شك فى مطره والذى فى اسافلها لا يكاد يصدق . قال رجل من العرب لابنه وقد كبر وكان فى داخل بيته تحت السماء : كيف تراها يابنى ؟ قال : اراها قد تبهرت (اضاءت) اورى برقها اسافلها . قال : اخلفت يابنى

التى أمطرت ، وفى أى مكان سقط مدها ، والسحب التى لم تمطر ، ومتى تمطر . ولا يزال فى الكثير من البداة مثل هذه الفراسة . وفى كتب الأدب من الأخبار فى ذلك الشىء الكثير ، روى صاحب الأغانى : أن أعرابيا مكفوف البصر خرج ومعه ابنة عم له ترعى غنما لها ، فقال لها : أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعى رأسك فانظرى . فقالت : كأنها بغال دهم (١) تجر جلالها . فقال : ارعى واحذرى . ثم مكث ساعة ، وقال : إنى لأجد ريح النسيم قد دنا ، فانظرى . قالت : هى كما قال الشاعر :

دان مسف ، فويق الأرض هيدبه (٢) يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح (٣)

فقال : انجى ، لا أبالك ، فما انقضى كلامه ، حتى هطلت السماء .

وأما الرياح فقد عرفوا صفاتها وأنواعها ، ومنها . الصبا والقبول والدبور والنعامى والشمال والجنوب والنكباء والسوافى والحواصب والصرصر والعاصف والسماء والمعصرات والأعاصير وغير ذلك .

٥ — الملاحة : وكانت جدة هى ميناء الحجاز ، وكانت السفن تخرج منه إلى البحر للصيد والتجارة ، شأن عرب اليمن والبحرين ، وكان عرب الحجاز القريبين من سيف البحر يشاهدون المراكب عادية ورائحة ، فاحتاجوا إلى ألفاظها ولأجزائها ، فقالوا : سفينة وشراع وقارب ومجداف وسكان وجؤجؤ وربان الخ .

٦ — الطب ، وكان لهم منه نصيب مكتسب بالتجارب ، أو منقول عن غيرهم من الأمم المجاورة ، يتوارثونه عن مشايخهم وعجائزهم ، وكانوا يعالجون مرضاهم بخلاصة النبات ، أو بالعسل ، أو بالكى ، وأحيانا بالبتر وبالحجامة . وكثير منهم كان يعالج المرضى بالرقى والعزائم . وأخذ بعضهم الطب عن الروم

(١) الدهم : جمع ادهم وهو الأسود
(٢) الهيدب : ذيل السحاب المتدلى
(٣) الريطة : الملاءة

والفرس قبيل الإسلام ، ومن أشهر أطبائهم : الحارث بن كلدة الثقفي المتوفى عام ٤٣هـ، وهو من ثقيف ورحل إلى فارس ، وتعاطى الطب هناك ، ثم عاد إلى بلاده ، وأدرك عصر الرسول ، وعاش حتى أدرك عهد معاوية ، وكان الرسول صلوات الله عليه يشير على من به علة أن يستوصفه ، ومن حكمه : « البطنة بيت الداء والحمية رأس الدواء » .

ويؤخذ مما حوته اللغة العربية من أسماء العلل والأمراض والعقاقير أنهم عرفوا كثيراً من الأمراض وأنواع علاجها ، كما أن الناظر فى كتب فقه اللغة ، يتبين من ذكرهم أعضاء الجسم الإنسانى كلها : ما ظهر منها وما بطن — من الرأس إلى القدم والعروق — أنهم كانوا يعرفون التشريح .

وقد عرفوا أيضاً محاسن الخيل وعيوبها وأمراضها وعلاجها مما يسمى الآن «الطب البيطرى» (بيطر الدابة عالجها فهو مبيطر و بيطار وصنعته البيطرة) .

٧ — القيافة : ومن أهم معارفهم : قيافة الأثر ؛ وهى تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر والاستدلال بها على ذويها ، وبذلك تعرف النعم الضالة والمسروقة ، ومسالك اللصوص والفارين . . وقد مهروا فى ذلك حتى كانوا يميزون بين قدم الشاب والشيخ والرجل والمرأة والبكر والثيب وتعتمد الحكومة المصرية إلى الآن على فريق من العرب فى تعقب اللصوص والسفاكين والمهربين .

وقيافة البشر ، وهى الاستدلال بهيئة الإنسان وملامحه وأعضائه ، على نسبه . وقد روى أن قائفا ، دخل فرأى أسامة بن زيد ، وزيدا ، وعليهما قطيفة قد غطيا بها رءوسهما وبدت أقدامهما فنظر إليها وقال : إن هذه الأقدام بعضها من بعض ، فسر بذلك النبى ﷺ .

٨ — الفراسة وكان لهم نصيب كبير أيضاً من الفراسة وهى الاستدلال بهيئة الشخص وشكله ولونه وكلامه على أخلاقه وفضائله ورذائله ، ومرجعها إلى العقل ، فكلما كان أكمل كانت أقوى .

يحكى أن أولاد نزار : مضر ، وربيعة ، وإيادا ، وأنمارا ؛ ساروا إلى الأفعى الجرهمى ليحكم بينهم فى ميراث فرأوا كلأ مرعيا ، فقال مضر : إن البعير الذى

رعاه أعور ، وقال ربيعة : هو أزور ، وقال إياد : هو أبتر ، وقال أنمار : هو شرود ، فصادفهم صاحبه فسألهم عنه فوصفوه له فتعلق بهم وسألهم إياه فأقسموا ما رأوه فقال : كيف وقد وصفتموه ؟ قال : مضر : رأيته يرعى جانباً دون جانب فعرفت أنه أعور ، وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعرفت أنه أزور ، وقال إياد : رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر ، وقال أنمار : رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوز إلى غيره فعرفت أنه شرود . فقال له الجرهمى : اطلب بعيرك من غيرهم .

وعرب اليمن أوفر حظاً من غيرهم فى الفراسة ، ويقال إن الإمام الشافعى رضى الله عنه أخذها عنهم ، فكان له منها نصيب كبير .

ومن الفراسة الريافة ، وهى معرفة مواطن الماء فى الأرض ببعض الأمارات ، كشم التراب والنبات ، ويقال : إن فى الحجاز ونجد من يعرف ذلك إلى الآن .

٩ — الكهانة والعرافة (١) : قيل : هما شىء واحد ، وهو الإخبار عن المغيبات ، ماضية أو مستقبلة أو حالية ، اعتماداً على القرائن ، أو على النجوم ، أو على الحصى ، أو الجن فى زعمهم ، أو بقياس المستقبل على الماضى وقيل ؛ إن الكهانة ؛ الإخبار عن الماضى والمستقبل ، والعرافة ؛ الإخبار عن الماضى فقط . وقيل : إن الكهانة خاصة بالمستقبل ، والعرافة خاصة بالماضى : وكانت الكهانة فاشية فى العرب قبل الإسلام ، فكانوا يفزعون إلى كهنتهم فى تعرف الحوادث والفصل فى الخصومات وعلاج المرضى ومعرفة المستقبل وتعبير الرؤى ، كما كان الحال عند غيرها من الأمم القديمة ، كمصر وبابل وغيرهما ، حتى جاءت الشريعة الإسلامية فأبطلتها (٢) ونهت عن الاعتماد عليها ، لكثرة الكذب فيها ، وحماية للعامة من أن يفتنوا بهم فيضلون عن الدين الحنيف .

---

(١) الكهانة والعرافة ، بكسر أولهما ، ويجوز فى الأولى الفتح على المصدر وفعلها: كمنع وكرم ونصر . وفعل الثانية : كنصر .

(٢) ورد : من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد .

ويظن بعضهم أن الكهانة نقلت إلى العرب على يد الصابئة ، مع المعارف النجومية الآنفة ، مستدلا بأن العرب يسمون الكاهن : جازيا وهو لفظ كلدانى ، معناه : الناظر أو البصير ، ويدل عندهم على الحكيم والنبى . فكان الكهنة ببلاد العرب من الصابئة أولا ، ثم من اليهود ، وبعد ذلك ظهرت فى العرب ، وادعاها منهم رجال ونساء كثيرون ، سيأتى الكلام عليهم فى السجع .

الباب الخامس

شخصيات حجازية فى العصر الجاهلى

ورقة بن نوفل القرشى الحجازى

— ١ —

كان ورقة بن نوفل القرشى حكيما متدينا موحدا ؛ وشاعرا بليغا مجيدا ، وسيدا شريفا سريا فى قومه ، عاش يتلمس دين التوحيد فى عصر الوثنيـة الجاهليـة ، ويبشر بقرب ظهور نبى العرب ، وخاتم الرسل ، ويولى وجهة شطر السماء ، ينشد الهـداية والنور . حتى أدرك بعثة سيد الأنبياء محمد صلوات الله عليه .

وكان العرب قبل البعثة المحمدية فى حيرة وضلال ، لا يجمعون على دين ، ولا يتفقون على عبادة ؛ عبد جمهورهم الأوثان والأصنام ، وفريق منهم عبدوا الشمس أو القمر أو الكواكب ، وآخرون دانوا بالنصرانية أو اليهودية . وجماعة منهم اعترفوا بوجود الله ووحدانيته ، وظلوا على فطرة التوحيد الخالص ، وعبدوا الله على دين إبراهيم وإسماعيل ؛ يعظمون الشعائر ، ويؤدون المناسك ، ويقدسون البيت الحرام ، ويلتزمون الحج والعمرة والطواف والوقوف بعرفة ونحر الذبائح والأضاحى ، وسوى ذلك من ألوان العبادات والطاعات ، ومنهم : ورقة ، وأمية بن أبى الصلت ، وزيد بن عمرو بن نفيل وكعب بن لؤى ، وقصى ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد المطلب .

فى هذه الحيرة والضلال ، ونحو عام ٥٢١ ميلادية ، قبل ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم بنصف قرن ، ولد فى مكة ورقة القرشى بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى بن قصى ، من بيت عرف بالسيادة وكرم المحتد . . وأى مجد ومحتد يبلغان ما بلغته منها قريش ؛ سادة العرب ، وسدنة البيت العتيق ؟

وإلى قصى أيضاً يرجع نسب أم ورقة هند بنت أبى عبد بن قصى . وقصى هو الأب الخامس لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب وهو الذى جمع شتات قريش ، ووحد كلمتهم ، وصارت إليه الرياسة والسيادة على مكة كما سبق .

ذلك هو نسب ورقة وحسبه . ولقد نشأ وشب فى هذه السيادة الفاخرة ، وتلك المآثر القرشية الخالدة ، عاش فى مكة مع قومه ، يعمل فى التجارة كما يعملون ويلهو كما يلهون ، وشهد مواطن قريش ، وشارك فى مفاخرها ، وأصبح بعد قليل رجل صدق وعزم إقدام ورحلة ، ويصف ورقة جده ولهوه فى هذه الفترة ، فيقول :

ولقد ركبت على السفين ملججا ... أذر الصديق وأنتحى دار العدى

ولقد دخلت البيت يخشى أهله ... بعد الهدوء وبعد ما سقط الندى

فوجدت فيه حرة قد زينت ... بالحلى تحسبه بها جمر الغضا

فنعمت بالا إذ أتيت فراشها ... وسقطت منها حين جئت على هوى

فتلك لذات الشباب قضيتها ... عنى فسائل بعضهم ماذا قضى ؟

وخالط ورقة فى رحلاته للتجارة أهل الكتاب ، واستمع إليهم ، ومال إلى ما يؤمنون به من فطرة التوحيد وعبادة الله ، فأنكر ما كانت عليه قريش من باطل وجهل ، وما كانت تمعن فيه من وثنية وشرك ؟ وأعرض عن غيها وباطلها ، فاعتزل عبادة الأوثان ، وامتنع عن أكل ما يذبح باسم الأصنام ، وآمن أن قومه أخطأوا دين أبيهم إبراهيم وإسماعيل فأخذ ينشد الحنيفة البيضاء ، ويسأل عنها الأحبار والرهبان : يروى أن اجتمعت يوما فى عيد لهم عند صنم يعظمونه وينحرون له ويعكفون ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، هم : ورقة بن نوفل القرشى ، وابن عمه عثمان بن الحويرث بن أسد ابن عبد العزى ابن قصى ، وزيد بن عمرو بن نفيل بن كعب بن لؤى ، وعبيد الله بن جحش الأسدى وهو ابن أميمة بنت عبد المطلب ، فقال بعضهم لبعض : تصادقوا وليتكتم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل ، فقال قائلهم : تعلمن والله ما قومكم على شىء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر

ولا ينفع ، ياقوم . التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

فأما عبد الله بن جحش ، فأقام على ماهو عليه ، حتى بعث الرسول فأسلم وهاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومات فيها بعد أن اعتنق المسيحية وارتد عن الإسلام . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ، وآمن بالمسيحية ، وعاش فى القسطنطينية . وأما زيد فأقام على الحنيفية ، يعظم شعائرها ، ويقول : أعبد رب إبراهيم ، وعاب على قومه ماهم عليه ، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويرفع صوته : يامعشر قريش ، والذى نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول . والله لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه . ثم يسجد على راحلته ، ويستقبل الكعبة داخل المسجد قائلا : لبيك حقا حقا ، تعبداً ورقا ، عذت بما عاذ به إبراهيم ، ويصيح فى الناس . يامعشر قريش ، والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيرى . وكان يعيب على قريش ذبائحها ويقول : الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء ماء ، وأنبت لها من الأرض نباتا . ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟ ، وآذته قريش فخرج يطلب دين إبراهيم ، ويسأل الأحبار فى الشام ، حتى انتهى إلى راهب من شيوخ الرهبان . فسأله عن الدين ، فقال له : إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظل زمان نبي يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يبعث بدين إبراهيم الحنيفية ، فالحق بها فإنه مبعوث الآن ، هذا زمانه . فرجع إلى مكة ولما اشتد إيذاء قريش له ، كان يخرج إلى « حراء » يتعبد فيه ، ولقيه عامر بن ربيعة فى طريقه إلى حراء فقال له زيد : ياعامر إنى فارقت قومى واتبعت ملة ابراهيم ، وما كان يعبد إسماعيل بعد ، وأنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ، وما أرانى أدركه وأنا أومن به وأصدقه . . وقتل زيد قبل البعثة بخمس سنين ، وقال الرسول الأكرم . يأتى زيد يوم القيامة أمة واحدة . ورثاه ورقة بن نوفل بقصيدة منها :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما | تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله | وتركك أوثان الطواغى كما هيا

وإدراكك الدين الذى قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن ... من الناس جباراً إلى النار هاوياً
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ... ولوكان تحت الأرض سبعين واديا
أقول إذا مازرت أرضا مخوفة ... حنانيك لا تظهر على الأعاديا
حنانيك إن الجن كنت رجاءهم ... وأنت إلهى ربنا ورجائيا
أدين لرب يستجيب ولا أرى ... أدين لمن لا يسمع الدهر داعيا
أقول إذا صليت فى كل سبعة ... تباركت قد أكثرت باسمك داعيا

هذا شأن هؤلاء الثلاثة الباحثين عن الحقيقة الكبرى . فأما ورقة فرحل إلى الشام يلتمس الدين الصحيح ، ويتحدث إلى الأحبار والرهبان ويسمع منهم ، حتى مال قلبه إلى دين المسيح ، ورآه انقاداً له من الحيرة ، فاتبعه وعمل به ، وقال لزيد : أنا استمر على نصرانيتى إلى أن يأتى النبى الذى تبشرنا به الأحبار . وأخذ يحفظ من النصرانية ما يحفظ ، ويعى من الرهبان ماشاء الله أن يعى ، وعاد إلى مكة . فأقام فيها آمنا وادعا ، عاكفا على دينه ونفسه ، لا يعرض لأحد ولا يحب أن يعرض له أحد . وازداد مكانة فى قريش ، فكان مستشارها فى الأزمات ومرجعها فى الخطوب ، والحكيم الذى تسترشد برأيه كلما دجت الظلمات . . . وقرأ ورقة الكتب السماوية . وكان يعرف العبرية ، وينقل من الإنجيل إلى العربية ماشاء ، ويأخذ من أهل التوراة والإنجيل ما يأخذ .

— ٢ —

فلما شاء الله أن ينقذ الإنسانية ، ويهدى البشرية ، إلى النور والخير والتوحيد ، والسلام والأمن والعدل والرحمة ، ولد رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه واستبشر بميلاده الكون ، وعم الفرح والبشر كل مكان . وشب رسول الله ونما سيداً شريفاً ونبيلا سريا ، وفتى زكياً ، حتى إذا كان فى الثالثة عشرة من عمره ، خرج به عمه أبو طالب إلى الشام فى تجارة ،

وفى بصرى قصبة حوران والبلاد العربية الخاضعة لحكم الروم رآه بحيرا الراهب . فرأى الآية الكبرى ، والمعجزات الناطقات ، فأخذ يحدث محمدا ويسأله . ثم قال لعمه : اذهب بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ، فإن له لشأنا . وتحدث من كانوا مع أبى طالب بهذا فى مكة ، وسمعه ورقة . فآمن بقرب ظهور النبى المرتقب ، والرسول الأمى الذى يخرج من بلاد العرب لهداية الدنيا وإنقاذ العالم من الشرك والضلال .

وخرج محمد بن عبد الله ، وقد تخطى العشرين عاما إلى الشام فى تجارة لخديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى ، ابنة عم ورقة ، أمينا حفيظاً عليها . وكانت خديجة سيدة جليلة ذات يسار وتجارة ، وكان مع محمد فى رحلته غلامها ميسرة ، فذهبا إلى الشام وباعا وابتاعا وربحا ثم عادا إلى مكة ، وأخبر « ميسرة » سيدته بما شاهد من مخايل الاصطفاء وإظلال الملائكة والغمام لمحمد ، وأحاديث الأحبار عنه ، فذهبت خديجة إلى ورقة تذكر ذلك له ، فقال : لئن كان هذا حقاً ياخديجة إن محمدا لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر ، هذا زمانه .

وصار ورقة حكيم العرب وشيخها ، وعالمها وقطبها ، وحبرها الخبير بأحداث الدهر وتجارب الأيام ، وازداد مكانة فى قومه ، وازداد قومه له إجلالا وتقديرا ، فكانوا يصدرون عن رأيه ، ويستهدون بمشورته ، ويتفاءلون بنصائحه وفراسته وصدق إلهامه . . وكان فى الخامسة والسبعين من عمره ، ومحمد بن عبد الله — صلوات الله عليه — فى الخامسة والعشرين .

وكان ورقة يتفاءل بمستقبل حافل عظيم لمحمد ، ويتطلع إلى ماسوف تظهره عناية الله على يديه من هدى ونور ورحمة وخير للإنسانية .

واستشارته خديجة بنت خويلد ، ابنة عمه ، فى الزواج بمحمد . فهنأها من أعماق قلبه بهذا الجد السعيد ، والزوج الكريم ، محمد بن عبد الله ، الأمين المؤتمن ، والصادق الصدوق .

وأخذ ورقة يبشر الناس بأن محمدا سيكون نبى العرب ، والرسول المرتقب ،

الذى يختاره الله من بين الخلق لإبلاغ رسالته إلى الناس كافة ، وجعل يتلهف أن يرى أيام بعثته . وأن يظهر نور الله ، وينزل ناموسه إلى الأرض ، وهو حى ، ليؤمن به ويصدقه ويؤازره وينصره . وأخذ يستبطىء الأمر ، ويقول : حتى متى أمر الله ! ! .

وكانت خديجة تقص عليه ما تشاهد من كرامات زوجها محمد بن عبد الله ، وورقة يزداد إيماناً بأن محمداً هو النبى المدخر لهداية الناس والدنيا ، ومن قوله فى ذلك :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا ... لهم طالما بعث النشيجا(١)
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا خديجا
فإن محمداً سيسود يوماً ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا

وصار ورقة يستزيد إبنة عمه خديجة من أخبار بعلها وفتاها ، ويسأل عن محمد ليل نهار ، ويعلن فى الناس أن محمداً مدخر لأمر عظيم ، ويقول :

وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصح
فتاك الذى وجهت يا خير حرة ... بغور وفى النجدين حيث الصحاصح(٢)
إلى سوق بصرى فى الركاب التى غدت ... وهن مع الأحمال قعص دوالح (٣)
يخبرنا عن كل حبر بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتح
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظنى به أن سوف يبعث صادقا ... كما أرسل العبدان : هود وصالح

---

(١) اللجاجة : التمادى فى الأمر . النشيج : مثل بكاء الصبى يردده فى صدره .

(٢) جمع صحصح : ما استوى من الأرض ؟ وأرض صحاصح : ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار الماء .

(٣) قعص من قعصه إذا قتله قتلا سريعاً . دوالح من دلح البعير إذا مر بحمله مثقلا .

وكان ورقة ينشد الشعر يتشوق فيه إلى إنجاز وعد الله ، وكريم رحمته ، وعظيم رعايته للحياة والإنسانية ، بإرسال رسول من العرب إلى الناس ليهديهم سواء السبيل . وكان يمنى نفسه بأن يرى بعثته ليؤمن به ويصدقه وينصره .

وهكذا عاش ورقة كريماً مبجلا ، وسيداً شريفاً سرياً وحكيما متديناً متطلعاً إلى التوحيد ، إلى أن بعث محمد بن عبد الله .

— ٣ —

ولما بعث رسول الله ، وشاهد بحراء ما شاهد ، ونزل عليه جبريل يبلغه رسالة ربه .. وعاد محمد إلى بيته ، قالت له خديجة : يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى . فحدثها بالذى رأى .

فقالت : أبشر يا ابن عم واثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى ابن عمها ورقة ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله أنه رأى وسمع : فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده إن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ، فأخبرته بقول ورقة ، فلما قضى رسول الله معتكفاً ما قضى وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة وهو يطوف بالكعبة فقال : يا بن أخى : أخبرنى بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله . فقال ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه ، وانصرف رسول الله إلى منزله .

وفى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجع من حراء يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة ، فقال : زملونى .. حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ؛ فقالت خديجة : كلا والله

ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ؛ فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة ابن عم خديجة ، وكان أمرأ قد تنصر فى الجاهلية ؛ وكان يكتب الكتاب العبرانى[1] ، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت خديجة : يابن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فاخبره رسول الله خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل على موسى ، يا ليتنى فيها جذعا[2] ليتنى حيا إذا يخرجك قومك ، فقال له رسول الله : أو مخرجى هم ؟ قال . نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ؛ وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى . وفتر الوحى .

وهكذا شهد ورقة أن محمداً نبى هذه الأمة . . ومن شعره الذى قاله فى ذلك :

وإن يك حقا يا خديجة فاعلمى ... حديثك إياه فاحمد مرسل
وجبريل يأتيه وميكال فاعلمى ... من الله وحى يشرح الصدر منزل
فسبحان من تهوى الرياح بأمره ... ومن هو فى الأيام ما شاء يفعل
ومن عرشه فوق السموات كلها ... وأقضاؤه فى خلقه لا تبدل

وله أيضاً :

جاءت خديجة تدعونى لأخبرها ... وما لنا بخفى الغيب من خبر
جاءت لتسألنى عنه لأخبرها ... أمراً أراه سيأتى الناس من أخر
فخبرتنى بأمر قد سمعت به ... فيما مضى من قديم الدهر والعصر
بأن أحمد يأتيه فيخبره ... جبريل أنك مبعوث إلى البشر
فقلت : عل الذى ترجين ينجزه ... لك الإله فرجى الخير وانتظرى
وأرسليه إلينا كى نسائله ... عن أمره ما يرى فى النوم والسهر
فقال حين أتانا منطقا عجبا ... يقف منه أعالى الجلد والشعر

(١) أى يعرف اللغة العبرية ويكتب بها .
(٢) منصوب على تقدير أكون ، ويروى بالضم . والجذع : الشاب الحدث .

إنى رأيت أمين الله واجهنى ... فى صورة أكملت من أعظم الصور
ثم استمر فكاد الخوف يذعرنى ... مما يسلم ما حولى من الشجر
فقلت : ظنى وما أدرى أيصدقنى ... أن سوف يبعث يتلو منزل السور

وشهد ورقة دعوة الرسول ، وإيمان الناس برسالته وتعذيب قريش لهم . يروى أنه مر ببلال وهو يعذب برمضاء مكة ، فيقول : أحد أحد ، فوقف عليه، وقال . أحد أحد يا بلال . ونهاهم عنه فلم ينتهوا ، فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذن قبره حنانا[١] وقال :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلها غير خالقكم ... فإن دعيتم فقولوا : دونه حدد[٢]
سبحان ذى العرش لا شىء يعادله ... رب البرية فرد واحد صمد
سبحانه ثم سبحانه نعوذ به ... وقبلنا سبح الجودى والجمد[٣]
مسخر كل من تحت السماء له ... لا ينبغى أن يناوى ملكه أحد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ دان الشعوب له ... والجن والإنس تجرى بينها البرد[٤]
لا شىء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولد
أين الملوك التى كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد ؟
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من ورده يوما كما وردوا

ولقد كانت خديجة تأتى ورقة بما يخبرها به رسول الله أنه يأتيه .

فيقول ورقة : لئن كان ما يقول حقا إنه ليأتيه الناموس الأكبر ؛ ناموس عيسى بن مريم ، ولئن نطق وأنا حى لأبلين لله بلاء حسنا .

---

(١) أى موضع حنان ومظنة رحمة من الله أى مزارا .
(٢) الحدد : المنع .
(٣) الجودى : جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح . . والجمد : جبل بنجد .
(٤) جمع بريد ، وهو الرسول .

وكبرت سن ورقة ، وفقد بصره من الكبر ، وتوفى بعد البعثة بقليل ، دون أن يترك له عقبا .

ولقد شهد له الرسول شهادة كريمة ، يروى أنه قال : لا تسبوا ورقة فإنى رأيته فى ثياب بيض . وروى عن عروة أن رسول الله ﷺ قال لأخى ورقة أو لابن أخيه : شعرت أنى قد رأيت لورقة جنة أو جنتين . والشك من هشام .

وروى الترمذى : قال رسول الله : رأيته فى المنام وعليه ثياب بيض . روى أنه سئل عن ورقة فقال : رأيته فى المنام وعليه ثياب بيض وقد ظن لوكان من أهل النار لم أر عليه البياض فرحمه الله ورضى عنه .

زيد بن عمرو بن نفيل القرشى

كان من المتحنفين الموحدين فى الجاهلية ، وكان لا يذبح للأصنام ولا يأكل الميتة والدم ، ومات قبل البعثة بخمس سنين ، فكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يامعشر قريش والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ؛ وكان يقول عن نفسه . ياعامر إنى فارقت قومى واتبعت ملة إبراهيم وإسماعيل ؛ وأنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ثم من ولد عبد المطلب وما أرانى أدركه وأنا أوصى به وأصدقه وأشهد أنه نبى وأسلم ابنه سعيد ، وكان إسلام عمر عنده فى بيته لأنه كان زوج أخته فاطمة .

وكان نفر من قريش : زيد وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيدالله بن جحش خالفوا قريشا وقالوا لهم . إنكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام، ولا يأكلون ذبائحهم ، واجتمع زيد بالنبى قبل البعثة وقال له : إنى شاممت النصرانية واليهودية فلم أر فيهما ما أريد فقصصت ذلك على راهب ، فقال لى : إنك تريد ملة إبراهيم الحنيفية ، وهى لا توجد اليوم فالحق ببلدك فإن الله تعالى باعث من قومك من يأتى بها وهو أكرم الخلق على الله .

ويروى أنه كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال : لبيك حقا حقا ، تعبدا ورقا ، عذت بما عاذ به إبراهيم[1] .

(١) ٢٤٧ — ٢٥٢ / ٢ بلوغ الارب ، و ١٢٣ — ١٣٠ / ٣ الاغانى .

عبدالله بن جدعان(١)

كنيته أبو زهير ، من تيم ، جواد كريم ، مدحه الشعراء فأجزل لهم العطاء ، وممن مدحوه : أمية بن أبى الصلت ، وأبوه .

وكان ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية .

وتتحدث عنه الأساطير القديمة بأنه كان فقيرا مملقا ، فكشف كنزا خبأه ملوك من جرهم ، فأصبح غنيا كريما ، يصل عشيرته ، ويطعم الناس ، ويفعل المعروف ، ويروى أن النبى صلوات الله وسلامه عليه كان يحضر طعامه ، وفى بيته عقد حلف الفضول بين قبائل قريش ، وقد تعاهدت قريش يومئذ على أن لا يظلم أحد بمكة ، وأن تنصف كل من وقع عليه ظلم .

وعبد الله ابن عم عائشة ، ولذلك قالت فيه عائشة لرسول الله : يا رسول الله إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ، ويقرى الضيف ، ويفعل المعروف ، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال ﷺ : لا ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين .

وفيه يقول أمية بن أبى الصلت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع ... لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح ... عن الخلق الجميل ولا مساء
إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

ويقول فيه كذلك :

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ... بخير ، وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرىء بذل وجهه ... إليك ، كما بعض السؤال يشين

---

(١) ٨٧ — ٩٠ : ١ بلوغ الارب ، ٣٢٧ — ٢٣٢ : ٨ الاغانى ، ١٢١ و ١٢٢ : ٣ بلوغ الارب أيضا .

ومن الحجازيين :

١ — مطاعيم الريح ، وهم أربعة منهم : كنانة بن عبد ياليل الثقفي عم أبي محجن ، ولبيد بن ربيعة ، وكانت العرب تضرب بهما الأمثال .

٢ — أزواد الركب — وهم ثلاثة — من قريش : مسافر بن أبي عمرو بن أمية ابن عبد شمس ، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وأبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وسموا أزواد الركب لأنهم كانوا إذا سافروا لم يتزود معهم أحد ، وبهم كانت قريش تضرب المثل .

وثالثهم أبو أمية هو الذى قال الرسول : ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، ولما مات رثاه أبو طالب عم الرسول بقصيدة طويلة منها .

ألا إن زاد الركب غير مدافع بسرو سحيم[1] غيبته المقابر
وكان إذا يأتى من الشام قافلا مقدمه تسعى إلينا البشائر[2]

خالد بن جعفر بن كلاب العامرى :

يضرب به المثل فى الشجاعة والبطولة ، وهو الذى قتل زهير بن جذيمة الطاغية الذى كان يستعبد هوازن ويذلها(٣) .

* * *

ومن أشراف الحجازيين من قريش قبيل البعثة : هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدى ، وجمح ، وسهم . فمن تيم : أبو بكر وكانت إليه فى الجاهلية الأشناق وهى الديات والمغرم ، ومن مخزوم خالد بن الوليد وكانت إليه القبة والأعنة ، ومن عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة فى الجاهلية ، ومن جمح : صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار وهى الأزلام ، ومن سهم : الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لآلهتهم ، ومن أمية : أبو سفيان بن حرب وكانت عنده العقاب راية

---

(١) سحيم : موضع فى طريق الشام من مكة مات فيه أبو أمية وسرو الشيء : أعلاه .
(٢) ٩٢ و ٩٣ / ١ بلوغ الارب .
(٣) ١١٨ — ١٢٠ / ١ بلوغ الارب .

قريش ، ومن نوفل : الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة ، ومن عبد الدار عثمان بن طلحة وكان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة والندوة كذلك ، ومن بنى أسد : يزيد بن زمعة بن الأسود وكانت إليه المشورة (٢٤٩ و ٢٥٠ / ١ بلوغ الأرب) .

ومن حكام العرب :

١ — غيلان بن سلمة الثقفى ، وهو شاعر شريف وأحد حكام العرب فى الجاهلية وممن وفد على كسرى ، وكان أحد وجوه ثقيف ، وجاء الإسلام فأسلم بعد فتح الطائف وعنده عشر نسوة فخيره الرسول فاختار أربعا (٣١٩ — ٣٢٠/١ بلوغ الأرب ولم يهاجر . وهو شاعر مقل ليس بمعروف فى الفحول ، وفد على كسرى فسر به وأكرمه (٢٠٠ — ١٢/٢٠٨ الأغانى — دار الكتب) .

٢ — العاص بن وائل القرشى : من حكام قريش ، وكانت له منزلة فى الإسلام ولم يسلم ، وهو الذى أجار عمر حين أسلم ، ومات بمكة قبل الهجرة (٣٢٨ / ١ بلوغ الأرب) .

٣ — العلاء بن حارثة القرشى ، كان من حكام قريش ، وفى الذروة منها فى علو منزلته ونفوذ حكمه وسعة اطلاعه بأحوال العرب وأنسابهم وأحسابهم (٣٢٩ / ١ بلوغ الأرب) .

٤ — صفوان بن أمية : كان من حكام كنانة ، وإليه مرجعهم فيما ينوبهم من المهمات ، وكان فصيح اللسان ، بليغ البيان (٣٣٠/١ بلوغ الأرب) .

٥ — سلمى بن نوفل الكنانى كان من حكام كنانة وعرفائها وساداتها (٣٣٠ / ١ بلوغ الأرب) .

٦ — مالك بن جبير العامرى : كان من حكام العرب وحكمائها المشهورين بجودة الفهم وغزارة العقل (١/٣٣١ بلوغ الأرب) .

٧ — القلمس الكنانى كان أحد حكام العرب فى الجاهلية ومن نسأة الشهور وكان يقف عند جمرة العقبة ويقول : اللهم إنى ناسىء الشهور وواضعها مواضعها ، أجاب ولا أعاب ، اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين : وحرمت

صفرا المؤخر ، وكذلك فى الرجبين — رجب وشعبان — انفردوا على اسم الله تعالى (٣٣٥ / ١ بلوغ الأرب ، ٣٩ - ٤١ - : ٢ شفاء الغرام) .

٨ — ذو الأصبع العدوانى[1] وهو من حكام العرب وخطبائهم ، وسنترجم له فيما بعد .

ومن مشهورى الحجازيين :

١ — أمية بن حرثان بن الأسكر الكنانى من سادات قومه وفرسانهم وله أيام مأثورة ، وابنه هو كلاب الذى كان ممن أسلم وهاجر إلى المدينة فى خلافة عمر فأغزاه عمر فى جيش وكان أبوه أمية قد كبر وضعف فلما طالت غيبة كلاب عنه قال :

لمن شيخان قد نشدا كلابا ‌ ‌ ‌ كتاب الله لو قبل الكتابا[2]

٢ — دريد بن الصمة الجشمى (١٣٤ — ١٣٧ / ٢ بلوغ الأرب) .

٣ — معاذ بن صرم الخزاعى ، كان فارس خزاعة فى وقته (١٥٨ و ١٥٩ : ٢ بلوغ الأرب) .

المتلمس بن أمية الكنانى :

كان يخطب العرب بفناء الكعبة ويقول : أطيعونى ترشدوا ، قالوا ماذاك قال : إنكم قد تفردتم بآلهة شتى وإنى لأعلم ما الله راض به ، وان الله تعالى رب هذه الآلهة ، وإنه ليحب أن يعبد وحده ، فتفرقت عنه العرب[3]

نعيم بن ثعلبة الكنانى :

حكيم مشهور ، وكان يخطب العرب فى الموسم ، وينقادون لأمره ، وينتهون عما ينهى عنه ، وهو أول من نسأ الشهور[4] :

(١) راجع ٣٣٥ — ٣٣٨ : ١ و ١٦٩ : ٣ بلوغ الأرب .

(٢) ١٢٨ — ١٤١ : ٢ بلوغ الارب .

(٣) ٢٧٧ : ٢ بلوغ الارب .

(٤) ١٧٥ و ١٧٦ : ٣ المرجع

الحارث بن كلدة الثقفي :

من الطائف ، وسافر في البلاد ، وتعلم الطب ، وعرف الداء والدواء ، وكان يضرب بالعود ، ويجيد الغناء ، وعاش بعد الإسلام ، ويروى أنه وفد في الجاهلية على كسرى وحاوره .

وكان الحارث أشهر أطباء العرب وحكمائهم ، ولد بالطائف في القرن السادس الميلادى ، ورحل إلى اليمن وأرض فارس ، وتعلم بمدرسة جنديسابور ، وصار طبيبا في حاشية الملك خسرويه ، وكان يوصى بعدم الإفراط في الأكل وعدم الاستحمام بعد الطعام ، ويحض على استعمال الحجامة والحقن ، ولما عاد إلى الطائف نال شهرة واسعة ، وكان رسول الله يأمر من كان به علة أن يأتيه فيستوصفه ، وتوفى سنة ٢٣هـ في رأى أو سنة ٤٣ في رأى آخر .

النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي :

كان ابن خالة النبي ، وسافر في البلاد كأبيه وعاشر الأحبار والكهان ، وحصل من العلوم القديمة كأبيه الكثير ، وتعلم الطب من أبيه ، وكان يجارى أبا سفيان في عداوة الرسول ، وكان كثير الأذى والحسد له ، وكان يقول للعرب : إن كان محمد يقص عليكم أنباء الأمم ، فأنا أقص عليكم أخبار كسرى وبهرام وتاريخ فارس .

وقد أسره الرسول يوم بدر ، ومات مقتولا ، وفيه قالت أخته قتيلة بنت الحارث ترثيه قصيدتها :

أيا راكبا إن الأثيل مطية … من صبح خامسة وأنت موفق[٢]

وهي قصيدة مشهورة وستأتي .

---

(١) ص ٢٠ الطب عند العرب — ابراهيم كراويه — طبعة القاهرة ١٩١٦

(٢) الاثيل : موضع فيه قبر النضر في وادى الصفراء ويروى أن قتيلة كانت بنت النضر لا أخته ، وقد نشأت في قومها بنى عبد الدار بن قصى من قريش

القسم الثانى

الحياة الأدبية فى الحجاز

فى العصر الجاهـــلى

النثر — الشعر — التراجم

النـــــثر

الباب الأول

صورة عامة للنثر الحجازى

فى العصر الجاهلى

تمهيد :

كانت العرب أمة صناعتها الكلام ، ومفخرتها البيان ؛ وكان أهل الحجاز من بينهم خاصة أهل لسن وفصاحة ، يزدهيهم القول ، وتأخذ بألبابهم البلاغة ، وقد أثر لهم من جوامع الكلم ، ونوابغ الحكم ، وروائع الأساليب ، ما يعد على وجه الزمان من مآثرهم الخالدة ، ومناقبهم الباقية ، ولا غرو فقد كان الحجازيون من أبلغ العرب لسانا ، وأفصحهم بيانا ، اجتمع لهم من الخطابة والفصاحة ، والبيان العجيب ، والقول المصيب ، والكلام الغريب ، والمنطق الساحر ، ما روته أسفار الأدب ، وازدانت به لغة العرب .

والبلاغة العربية الحجازية تتبدى فى مظهرين:

١ — الشعر الذى يعتمد على الإيقاع والموسيقى والوزن والقافية ، وعلى الخيال والعاطفة .

٢ — النثر ، وهو لون من الكلام لا تحده فى الغالب قيود الوزن والقافية ، بل هو أساليب سلسة ، ينطقون بها عند المشاجرة والخصام ، وعندما تقتضى الدواعى المتباينة منهم الكلام ، فتفيض بها بديهة حاضرة ، وقريحة مواتية ، وطبيعة طيعة مستجيبة .

النثر الحجازى الجاهلى

— ١ —

كان للحجازيين نثر فنى صيغ فى قالب أدبى يثير المشاعر ويحرك العواطف ، لأنهم كانوا ينطقون باللغة كما صنعوها على أعينهم ، نقية من الشوائب ، فقد عاشوا فى جزيرتهم بعيدين عن المؤثرات التى تضعف الملكات ، ومن ثم فقد كان نثرهم منخولا ينزع عن قوس الإجادة ويصدر عن وحى الطبع والملكة السليمة ، وليس من شك أيضاً أن هذا النثر كان لا منتدح منه فى جميع شؤونهم ، وأمور حياتهم ، يتحدثون به فى معاشهم وتبين به شفاههم لتصوير مايعتلج بنفوسهم ويختلج بأفئدتهم ، وكان ملحمة لقراع الألسنة ومباراة البلغاء فى مضمار البيان والأسواق الأدبية ، ولم يكن للعرب عند تفاقم الفتن ولا للأبطال فى معمعة الحروب ولا للأمهات عند إهداء بناتهن ، مناص من كلام يستأصلون به شأفة الفتن ، ويحمسون به النفوس ويصيبون به مقاطع الرأى .

ولا نكاد نهتدى إلى صورة جلية تمثل هذا النثر الجاهلى الحجازى ، فكل ما وصل إلينا قل من كثر ، وغيض من فيض ، ولقد ذكر الرواة أن ما وصلنا من أدب ليس إلا أقله ، ولكن ما وصل إلينا من النثر كان أقل شأنه من الشعر ، ومرد ذلك إلى :

١ — أن العرب فى الجاهلية كانوا أميين لا يكادون يقرأون أو يكتبون فكانوا يعتمدون فى رواية الأدب من نثر وشعر على المشافهة والاستظهار ، والذاكرة أقدر على حفظ الشعر وروايته من حفظ النثر وروايته .

فإن ما للشعر من أوزن راقصة ، ونغمات موسيقية ، وقواف متزاوجة ، وجرس عذب مثير ، يعين على استذكاره واستظهاره ، والنثر ليس بهذه المثابة ، فالنثر إذن يتطلب معرفة الكتابة وهى اختراع متأخر .

٢ — لم يستطع النثر منذ أن أطل برأســه إلى الحيـاة أن يبارى الشعر فى عهد الجاهلية ، وأن يقوى على معـالجة الموضوعات التى عالجها الشعر ، فقد كان

الشعر ديوان العرب سجلوا فيه حروبهم وأخبارهم وعاداتهم وعقليتهم ، ودون فيه الشاعر ما رأى وما شعر ، ومزج فيه الحياة التى حوله بمشاعره ، وكان الشاعر لا منتدح منه للقبيلة يعلن مناقبها ويذود عن حياضها وينافح عن شرفها ويحمى حماها ، وكان الشعر فى الحرب كموسيقى الجيش تثير فى النفوس الميل للقتال وتبعث على الاستبسال ، أما موضوعات النثر فلم تك بهذه المثابة ، فعنى الناس بحفظ الشعر ، ولم يعنوا بحفظ النثر .

٣ — النثر وليد العقل وسعة الثقافة ، والشعر وليد الخيال ، والأمة فى بادىء أمرها خيالها أكبر من عقلها .

ويمتاز النثر الحجازى بمساوقته للطبع وجريانه على الفطرة ، فليس فيه تكلف ولا تطرف ولا غلو ، ينزع عن قوس البادية ، ويمتح من ينابيع البيئة ، ومن ثم فقد جاء قوى اللفظ متين العبارات لحل الأسلوب قصير الفقرات قريب الإشارة .

— ٢ —

وإنما نعنى بالنثر هنا : النثر الفنى الذى يحتفل به قائله ، ويجود فيه ، ويهذب من حواشيه ، ويعنى بصياغته صياغة فنية مؤثرة ، يعبر به عن أجمل ما فى نفسه وخواطره من معان وأفكار .

ولا نقصد به ما يجرى على ألسنة الناس فى شؤون الحياة العادية ، مما نسميه « لغة التخاطب » التى لا يقصد فيها إلى جمال فنى ، ولا النثر العلمى لأنه لم يكن للحجازيين فى الجاهلية نثر علمى ، وإنما جد ذلك المظهر فى أواخر عصر بنى أمية وأوائل عصر دولة بنى العباس ، فالنثر العلمى ليس لونا من ألوان الأدب ، وإن كان الأدب يعنى به لأنه من آثار العقلية التى تنشىء الأدب ، إذ هو مغذى الثقافة العقلية والأدبية ، ثم هو مما يصقل مواهب الأديب ، ويمده بزاخر المعانى والأفكار والموضوعات ، وقد يكون النثر العلمى فى بعض الأحايين أدباً إذا حرص صاحبه فيه على أداء الحقائق بأسلوب بليغ ، وكلام رصين مختار .

والنثر الفنى احجازى ألوان متعددة :

١ — فمنه الكلام المرسل الذى لم تقيد فقراته بوزن أو قافية كخطبة هاشم بن عبد مناف القرشى التى يقول منها : « يا معشر قريش : إنكم سادة العرب أحسنها وجوها وأعظمها أحلاما، وأوسطها أنسابا — يا معشر قريش : إنكم جيران بيت الله، أكرمكم الله بولايته ، وخصكم بجواره، دون بنى إسماعيل[1] إلخ » . ويسمى هذا النوع نثرا مرسلا .

٢ — ومنه ما يجىء من الكلام المنثور متحدا فى فواصله[2] فى الوزن دون اتفاق فى القافية؛ ويسمى هذا اللون من النثر مزدوجا ، والإتيان به كذلك ازدواجا، وقد يسميه البديعيون « موازنة » .

٣ — ومنه الكلام المسجوعَ الذى تتحد فواصله فى الحرف الأخير ، وهو ما يسمى بالقافية ، مثل وصية أبى طالب لوجوه قريش حين حضرته الوفاة : يا معشر قريش ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدام الشجاع ، لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ؛ والناس لكم حرب ، وعلى حربكم الب[3] ، ويسمى مثل ذلك سجعا ، وقد يسمى ما اتفقت الفواصل فيه فى الوزن والقافية سجعا أو ازدواجا، مثل كلام أبى طالب السابق ، ومثل قول الحكم فى المنافرة بين هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر . لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر[4] » ، ويغلب السجع فى كلام الكهان ، وبعض علماء البلاغة لا يمنعون أن يسمى ما جاء فى القرآن من ذلك سجعاً ، ومنهم أبو هلال وابن سنان وابن الأثير ، خلافا للباقلانى وأنصاره ، الذين يرون تسمية الجمل القرآنية فواصل ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » وهذا منع لتبادر الفهم إلى أن القرآن يشبهه شىء من الآثار الأدبية ، وإكبار له عن أن يقال له سجع .

---

(١) ٢٢٢ / ١ بلوغ الأرب للألوسى .

(٢) الفاصلة : الكلمة الأخيرة من الجملة من الكلام .

(٣) ٣٢٧ / ١ بلوغ الأرب . (٤) ٣٠٨ / ١ بلوغ الأرب .

حظ الأدب الحجازى من النثر الفنى

فى العصر الجاهلى

— ١ —

يختلف الأدباء فى النثر الفنى : هل وجد فى العصر الجاهلى أو لم يوجد إلا بعده ؟

أما أدباء العربية المتقدمون ، والكثير من الأدباء المعاصرين أيضاً ، فيؤمنون بأن العصر الجاهلى عرف النثر الفنى معرفة كبيرة ، وكان للعرب عامة ، وللحجازيين خاصة فى ذلك العهد ، صور من النثر نستطيع أن نسميها إلى حد كبير نثراً فنياً وكانوا يجيدون هذا الفن الأدبى إجادة بالغة .

ودليلهم على وجود النثر الفنى فى الجاهلية هو :

١ — كان عند كثير من الأمم القديمة كالفرس والهنود وقدماء المصريين نثر فنى قبل الميلاد بقرون كثيرة ، فلم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون ؟

٢ — نزول القرآن الكريم يوجب الحكم بأن العرب فى جاهليتهم كان لهم نثر فنى ، وكانوا يجيدونه ويبلغون فيه غاية البيان والفصاحة ، وإلا فكيف يتحداهم الله عز وجل بفن من البيان لم يعرفوه ؟ .

٣ — بقاء بعض صور من النثر الفنى للعرب الجاهليين فى مصادر الأدب العربى وأمهات كتبه ، من خطابة جيدة ، ونصائح بليغة ، وإن كان الكثير من النثر الجاهلى قد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة ، والنثر أحوج إلى التدوين بالكتابة من الشعر ، يسهل حفظه فى الصدور ، وتعين القافية والوزن على تصحيحه وروايته . أما النثر فيشق حفظه ويصعب تناقله . ولم تكن الكتابة معروفة فى الجاهلية إلا للقليل من الناس ، الذين كانوا يستخدمونها لأغراض سياسية

وتجارية لا لأغراض أدبية[1] . والسبب فى ذلك أمية العرب وبداوتها وأنها لم تكن أمة ذات حضارة أو ثقافة فكرية واسعة . ولذلك كان أكثر أدبها ارتجالا ، أو ما يشبه الارتجال .

يقول الجاحظ : وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة . وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ؛ وتنثال عليه الألفاظ انثيالا . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ؛ وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر[2] .

٤ — والدليل الرابع على وجود النثر الفنى فى العصر الجاهلى هو وجود صحائف من الكتب الدينية عند بعض طبقات العرب ، من اليهود والنصارى ودعاة الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل .

أما المستشرقون فيرون أن النثر الفنى لم يعرفه عرب الجاهلية ، ولم يشهده عصر صدر الإسلام ، وإنما نشأ على يد ابن المقفع المتوفى عام ١٤٣ هـ فى صدر العصر العباسى الأول ، وممن ذهب إلى ذلك المسيو مرسيه الفرنسى (٣) ، والمستشرق جب الإنجليزى ، وغيرهما .

ويؤيد ذلك بعض الباحثين المعاصرين(٤) ، كالدكتور طه حسين ، ويدعمون ذلك بأدلة منها :

---

(١) ص ٥ الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف .

(٢) ٢١ جـ ٣ البيان والتبيين للجاحظ — الطبعة الثانية .

(٣) راجع ص ٢٣ جـ ١ النثر الفنى لزكى مبارك .

(٤) يتفق هؤلاء مع المستشرقين فى إنكار وجود النثر الفنى عند العرب فى الجاهلية . ولكنهم يختلفون معهم فى تحديد مبدأ نشأة النثر الفنى فى الأدب العربى ، فليس ابن المقفع هو أول من ظهر النثر الفنى على يديه كما يرى المستشرقون ، وإنما عرفه الأدب العربى فى أول القرن الثانى الهجرى ، كما يرى هؤلاء المعاصرون من أدباء العربية .

١ — أن عيشة العرب الأولين لم تكن توجد النثر الفنى لأنه لغة العقل ، على حين صححت بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال .

٢ — عدم انتشار الكتابة فى العصر الجاهلى ، وهى عماد النثر الفنى .

٣ — والقرآن — الذى يستدلون به على معرفة الجاهليين للنثر الفنى ، ووجوده عندهم — لا يصح عده من النثر كما لا يصح جعله شعراً ، لأنه نمط أدبى مستقل ليس له شبيه فى الآثار الأدبية .أ.

يقول الدكتور طه : « والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال — مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلى — أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فنى(١) . فالعصر الجاهلى لم يكن له نثر بالمعنى الذى حددته ، ومع ذلك فقد كان له نثر خاص ، لم يصل إلينا : لضعف الذاكرة ، وخلوه من الوزن ، وهذا النثر هو الخطابة(٢) فأول القرن الثانى للهجرة هو الذى شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذى شهد مظاهر الحياة العقلية وهو نشأة النثر الفنى(٣) » .

— ٢ —

والحق أنه كان للعرب قبل الإسلام ، وخاصة الحجازيين منهم ، نثر فنى يتناسب مع صفاء أذهانهم وحدة تفكيرهم ، ولكنه ضاع لأسباب منها : شيوع الأمية ، وقلة التدوين ، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التى جاء بها الإسلام . والقرآن الكريم شاهد صدق على وجود النثر الفنى قبل الإسلام ، ويعطى فكرة عامة عن ازدهاره وقوته فى هذا العصر الجاهلى ، وما يقال من أنه ليس نثرا مغالطة لا تجوز على عقل .

وأغلب الظن أن هؤلاء الذين يجعلون نشأة النثر الفنى على يدى ابن المقفع إنما يريدون إسناد ذلك الفضل لأثر وراثاته الفارسية ، وأن أدبنا العربى مدين فى ذلك للعقلية الفارسية ، وهذه شعوبية حديثة نرى مظاهرها واضحاً فى إنكار —

---

(١) ٣٠ و ٣١ من حديث الشعر والنثر لطه حسين .

(٢) ص ٣٢ المرجع نفسه . (٣) ص ٤٩ المرجع نفسه .

فضل العرب ، ونسبة كل مكرمة أدبية أو غير أدبية لغيرهم من العناصر الأجنبية . ثم إن الكتابة إنما يحتاج إليها النثر الفنى فى تدوينه لا فى نشأته كما يسلم بذلك العقل .

ونخلص من ذلك كله إلى إثبات رأينا الذى رأيناه . وهو أن النثر الفنى قد وجد قبل الإسلام وقبل اتصال العرب الثقافى بالفرس واليونان بأمد طويل .

— ٣ —

ولنوضح أخيراً موقف الدكتور طه من النثر الجاهلى ؛ يرى الدكتور :

١ — أنه لم يعرف الجاهليون النثر الفنى ، وإنما عرفوا ألوانا أخرى من النثر ، من : أسجاع ، وأمثال ، وخطابة لم تكن شيئاً ذا غناء[١] وسجع كهان[٢] . وهذه بينها وبين النثر الفنى بون بعيد .

٢ — ويرفض الدكتور قبول ما ينسب لعرب الجنوب من نثر ، من شتى هذه الأنواع النثرية المروية لأن النثر إنما جاء بلغة قريش التى لم يكن لعرب الجنوب بها علم ولأنهم كان لهم لغة معروفة كتبوها وتركوا لنا فيها نصوصا منثورة كشفها المستشرقون وهى لا توافق لغة قريش فى شىء . فكل ما يضاف إلى اليمنيين من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة فى الجاهلية عند الدكتور منتحل . أما عرب الشمال فيرى رفض ما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة من نثر ، ويتردد فيما ينسب منه إلى مضر ، ويرى أن الكثير منه منتحل[٣] .

ونحن لا نوافق الدكتور على ما ذهب إليه : من إنكار وجود النثر الفنى فى الجاهلية ولا من التهوين من شأن الخطابة الجاهلية ، وإن كنا نسلم معه بأن بعض النصوص الأدبية من النثر الجاهلى قد انتحل بعد الإسلام .

---

(١) يرى الدكتور أن الخطابة فن إسلامى خالص ويقول : لا تصدق أنه قد كانت للعرب فى الجاهليـــة خطابة ممتازة ، إنما استحدثت الخطابة فى الإسلام (ص ٣٧٤ الأدب الجاهلى) .

(٢) راجع ٣٧٢ — ٣٧٥ الأدب الجاهلى لطه حسين ط ١٩٢٧ .

(٣) راجع ص ٣٦٩ من الأدب الجاهلى وما بعدها .

مأثورات من النثر الحجازى(١)

١ — من حديث أم معبد الذى حدث به حبيش بن خالد رضى الله عنه صاحب رسول الله ﷺ : أن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ، ومولى أبى بكر ، عامر بن فهيرة رضى الله عنهما ، ودليلهما الليثى عبد الله بن الأريقط ، مروا على خيمة أم معبد الخزاعية ؛ وكانت امرأة برزة(٢) جلدة تحتبى بفناء قبتها ثم تسقى وتطعم فسألوها تمراً ولحما ليشتروا منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مرملين مسنتين(٣) فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم . قال : هل لها من لبن ؟ قالت : هى أجهد من ذلك . قال أتأذنين لى أن احلبها ، قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى . إن رأيت بها حلبا فاحلبها . فدعا بها رسول الله ﷺ ومسح بيده ضرعها وسمى الله تعالى ودعا لها فى شاتها ، فتفاجت(٤) عليه ودرت واجترت ، ودعا بإناء يربض الرهط(٥) فحلب فيه ثجا(٦) حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم ثم أراضوا ، ثم حلب فيه ثانيا بعد بدء حتى امتلأ الإناء ثم غادره

---

(١) نعد هذا نثرا جاهليا ؛ لأنه قبل تمام الهجرة ، وصاحبة هذا النثر لم تكن أسلمت أو تأثرت بالقرآن الكريم .

(٢) برزة هى من النساء الجليلة التى تظهر للناس ، ويجلس إليها القوم ، وأيضا هى الموثوق برأيها وعفافها .

(٣) مرملين : أى نفد زادهم وأصله من الرمل ، كأنهم لصقوا به ؛ كما قيل للفقير الترب . ومسنتين : أى مجدبين ، أصابتهم السنة : وهى القحط .

(٤) فتفاجت : التفاج المبالغة فى تفريج ما بين الرجلين ، وضمير عليه لرسول الله ﷺ .

(٥) يربض الرهط : أى أنه يرويهم حتى يثقلهم ، فيربضوا : فيناموا لكثرة اللبن الذى شربوه ، ويمتدوا على الأرض ، من ربض بالمكان يربض إذا لصق به وقام ملازما له .

(٦) ثجا : أى لبناسائلا كثيرا . والبهاء يريد به بهاء اللبن وهو وبيص رغوته ، وبهاء اللبن ممدود غير مهموز لأنه من البهى .

عندها وبايعها وارتحلو عنها . فقلما لبثت(١) حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً تساوك هزالا مخاخهن قليل(٢) فلما رأى أبو معبد اللبن عجب ، وقال : من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاء عازب حيال(٣) ، ولا حلوب فى البيت . قالت لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا . قال : صفيه لى يا أم معبد قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة(٤) أبلج الوجه حسن الخلق لم تعبه ثجلة(٥) ولم تزر به صعلة(٦) وسيما قسيما فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى عنقه سطع ، وفى صوته صحل ، وفى لحيته كثاثة . أزج أقرن(٧) إن صمت فعليه الوقار وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، فهو أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأجملهم من قريب ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ، ولا هذر(٨) كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، ربعة لا بأس من طول(٩) ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً

---

(١) لبثت : أى مكثت .

(٢) عجافاً : جمع عجفاء وهى المهزولة : وتساوك هزالا : أى تتمايل من الهزال والضعف فى مشيها . وقوله مخاخهن قليل جمع : مخ مثل حباب وحب وكمام وكم ، وإنما لم يقل قليلة أراد أن مخاخهن شىء قليل . قال الشاعر :

إلى الله أشكو ما أرى بجيادنا تساوك هزلى مخهن قليل

(٣) عازب : أى بعيدة المرعى لا تأوى إلى المنزل إلا فى الليل . والحيال جمع حائل وهى التى لم تحمل .

(٤) الوضاءة : الحسن والبهجة .

(٥) الخلق السجية ، والثجلة : عظم البطن وسعته .

(٦) الصعلة : صغر الرأس . ولم تزر به : أى لم تعبه .

(٧) الدعج والدعجة : السواد فى العين وغيرها ، تريد أن سواد عينيه كان شديداً . والوطف : طول فى هدب أشفار العينين . والسطع : طول العنق . والصحل : كالبحة وأن لا يكون حاداً . والزجج : دقة فى الحاجبين وطول وأقرن : أى مقرونهما .

(٨) فصل لا نزر ولا هذر : أى ليس بقليل ولا بكثير فاسد .

(٩) لا يأس من طول أى أنه لا يؤيس من طوله لأنه كان إلى الطول أقرب منه إلى القصر

وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به(١) إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود لا عابس ولا مفند(٢) قال أبو معبد هو والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ولقد هممت بأن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

٢ — ومن خطبة هاشم بن عبد مناف حين تنافرت قريش وخزاعة إليه :

أيها الناس :

نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصى ابن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم .

يا بنى قصى :

أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه ، والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه(٣) اللجاج أخرجه إلى البغى .

أيها الناس :

الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر ذو غير ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم . وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضيع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به . فقالت قريش : رضينا بك أبا نضلة(٤) .

---

(١) يحفون به : أى يبالغون فى بره والسؤال عن حاله .

(٢) محفود محشود : أى أن أصحابه يخدمونه ويجتمعون عليه . والعابس : الكريه الجهم المحيا . والمفند الذى لا فائدة فى كلامه لكبر أصابه .

(٣) أى أغضبه .　　(٤) هى كنية هاشم .

٣ — ومن أمثلة المحاورات، ما يروى من أنه اجتمع عامر بن الظرب العدواني وحممة بن رافع الدوسي[1] عند ملك من ملوك حمير، فقال: تساءلا حتى أسمع ما تقولان.

فقال عامر بن الظرب لحممة بن رافع: أين يجب أن تكون أياديك؟ قال: عند ذي الرثية العديم، وذي الخلة الكريم، والمعسر الغريم، والمستضعف الهضيم، قال: من أحق الناس بالمقت؟ قال الفقير المختال، والضعيف الصوال، والعيي القوال، قال: فمن أحق بالمنع؟ قال: الحريص الكاند، والمستميح الحاسد، والملحف الواجد، قال: فمن أجدر الناس بالصنيعة؟ قال: من إذا أعطى شكر، وإذا منع عذر، وإذا موطل صبر، وإذا قدم العهد ذكر. قال: من أكرم الناس عشرة؟ قال: من إن قرب منح، وإن بعد مدح، وإن ظلم صفح، وإن ضويق سمح، قال: من ألأم الناس؟ قال: من إذا سأل خضع، وإذا سئل منع، وإذا ملك كنع، ظاهره جشع، وباطنه طبع، قال: فمن أحلم الناس؟ قال: من عفا إذا قدر، وأجمل إذا انتصر، ولم تطغه عزة الظفر، قال: فمن أحزم الناس؟ قال: من أخذ رقاب الأمور بيديه، وجعل العواقب نصب عينيه، ونبذ التهيب وبرأ من ذنبه، قال فمن أحذق الناس؟ قال: من ركب الخطار، واعتسف العثار، وأسرع في البدار قبل الاقتدار، قال: فمن أجود الناس؟ قال: من بذل المجهود، ولم يأس على المعهود، قال: فمن أبلغ الناس؟ قال: من جلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز، وطبق المفصل قبل التحزيز، قال: فمن أنعم الناس عيشا؟ قال: من تحلى بالعفاف، ورضى بالكفاف، وتجاوز ما يخاف، قال: فمن أشقى الناس؟ قال: من حسد على النعم وتسخط على القسم، واستشعر الندم على فوت ما لم يحتم، قال: من أغنى الناس؟ قال: من استشعر الناس، وأبدى التجمل للناس، واستكثر قليل النعم، ولم يسخط على القسم قال: فمن أحكم الناس؟ قال:

---

(١) عامر بن الظرب وحممة بن رافع: حكيمان من حكماء العرب في الجاهلية الذين تفرغوا لصناعة الكلام والمساجلة بالبيان وقوة البديهة والقدرة على ارتجال الحكم والغوص على درر المعاني ولآلئها، واصطياد شوارد الأفكار وأوابدها.

من صمت فادّكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر قال : من أجهل الناس ، قال : من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما .

وفى هذا الحوار الذى ابن رافع يجيب صاحبه عن هذه الأسئلة كلها أجوبة سداها الحكمة والقول الفصل والآيات البينات والأفكار الرائعات ، تراه يقول له : إن أجدر الناس بالصنيعة ذو الخلق الكريم من إذا أعطى صبر ، وإذا منع عذر ، وأولى الناس بالمنع الحريص الكاند ، وأكرم الناس عشرة من إذا ظلم صفح ؛ والأمهم من إذا سأل أراق ماء وجهه وإذا سئل بخل ، وأحلم الناس وأحزمهم من عفا عند المقدرة وفكر فى العواقب ، وإن أخرق الناس من لم يعد للشىء عدته قبل الإقدام عليه ؛ وأجودهم من جاد بالمجهود ؛ وأبلغهم من عرض المعنى الغزير فى اللفظ الوجيز ؛ وأنعم الناس عيشاً من تحلى بالعفاف ؛ وأشقاهم من لم يرض بما وهب الله له وحسد الناس على آلائهم ؛ وأحكم الناس المفكر المعتبر ؛ وأجهلهم من ركب متن الشطط وأسرج أفراس هواه .

ويؤخذ على هذه الحكم كثرة التكرار فى المعنى الواحد ، وعرضه فى مواطن متفرقة : وقد كان خليقاً أن تذكر الحكمة مع الحكمة التى تتجاور معها وتتزاوج فترى فيها تساؤلا عن الأيادى وعن الصنيعة ؛ والمراد منهما شىء واحد وعن الحزم والحكمة وعن الكرم والجود وعن الخرق والجهل ؛ وكلها معان تدور فى فلك واحد ومع ذلك لم تجىء ملسقة ولم تتبوأ كل حكمة مقعدها إلى جانب الحكمة التى تلائمها وتنسق معها مشربا وروحا .

أما الأسلوب فيتجلى فيه ذلك الطابع العام للنثر الجاهلى من جزالة اللفظ ومتانة التركيب وقوة العبارة وإحكام النسج وقصر الفقرات والجنوح إلى الإيجاز وقلة الروابط بين الجمل ، بحيث ترى الحكمة قد اطردت من غير مناسبة قوية ، حتى إننا نستطيع أن نقدم ونؤخر فى العبارات ، ولا يتأثر المعنى ولا تضطرب الفكرة ولا يختل النظم ؛ كما يتجلى السجع الذى يغلب على الحكم والخطب والوصايا وتخرصات الكهان .

هذه الحكم نفسها هى أكبر مظهر للعقلية العربية ؛ والعرب لم يمتحوا من

ينابيع الثقافة ولم ينهلوا من موارد العلوم ، ولكن تجاربهم الجمة أتاحت لهم ألوانا من الأفكار الرائعة ، والخلجات الناصعة والمعانى العميقة ، والتأملات الدقيقة ، مامكنهم من صوغ الحكمة وإبراز معالمها ، فهم وإن لم يكن لهم علوم منظمة ينتفعون بها — فقد كان لهم من خبرتهم وقوة مداركهم وحدة ذكائهم وصدق حسهم ومخالطتهم أحيانا بعض الأمم التى تتاخمهم ما جعلهم ينظمون الحكم عقودا براقة من جمان الأفكار وعقيان المعانى .

ثم نرى المعانى التى عرضت لها هذه الحكم صورة واضحة لخلجات العقل العربى وتأملاته وإدراكاته ، فالكرم والبخل والعفة والقناعة والصبر والرضا والبلاغة والحكمة كلها معان تحتل المكانة الأولى من العقلية العربية ، وتتسم بها أفهامهم ومداركهم .

الباب الثانى

فنون النثر الحجازى

فى العصر الجاهلى

الفصل الأول

الحكم والأمثال

المثل فى اللغة

فى الأسفار العبرية للعهد القديم ورد اللفظ Masal للدلالة على الحكم والسيادة. ووردت صفة الحكم منسوبة إلى الله تعالى وإلى الناس وإلى الأجرام السماوية. وفى نسبة الحكم إلى الأجرام السماوية. وردت آيتان فى سفر التكوين (١ : ١٦ - ١٨) هذا نصهما : «فعل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم. وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة.

وإذا رجعنا إلى اللغة الآشورية - البابلية وجدنا لفظ Masala ومعناه لمع أو سطع. وفى العربية مثل القمر مثولا إذا ظهر. والماثلة منارة المسرجة. وربما استطاع الباحث فى الأمثلة أن يفترض — على الأقل — وجود علاقة أسطورية قديمة بين نور الأجرام السماوية الذى اقترن بالقوة والسلطان وبين معانى اللمعان والظهور.

أطلق اللفظ فى العبرية إذن على الحكم والسيادة مطلقا. فقالوا : (الحاكم Himsil (ولى الحاكم وعينه) واشتقوا الاسم على وزن فعل فقالوا

Mosel (Musl) (الحكم والسلطة والسيادة). وفى العبرية المتأخرة ورد Masal بمعنى لمس وقبض ، وقالوا (شعلة النار أمسكت بهم أو انقضت عليهم ، وليس ببعيد أن يكون معنى اللمس والقبض جاء تبعا لمعنى السيادة والحكم .

أما العربية فلا تستعمل لمعنى الحكم ألفاظاً مشتقة من (م ث ل) . وقد اكتفت العربية بمادة (ح ك م) ومشتقاتها عن مادة (م ث ل) فى الدلالة على الحكم والسيادة، فى حين نجد لغات سامية أخرى كالعبرية قد استغنت بمادة (م ث ل) عن مادة (ح ك م) فى الدلالة على الحكم والسيادة(١) على أنه قد ورد فى مادة (م ث ل) العربية ما يشير من بعيد إلى صلة ما بينها وبين معنى الحكم والسيادة ، وذلك فى قولهم مثل الرجل يمثل مثالة إذا فضل وحسن حاله .

والمثيل الرجل الفاضل ، والأمثل الأفضل . وفى القرآن « ويذهبا بطريقتكم المثلى » [٢٠ : ٦٣] « إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما » [٢٠ : ١٠٤]، ويقول العرب : امتثل القوم ما قال فلان ، أى أذعنوا وأطاعوا .

والتمثال فى العربية، وكذلك mesl — messale — amsal فى الحبشية كلها بمعنى (الشيء المصور) ولكن من اليسير — فيما نرى — أن نجد صلة ما بين المعنيين إذا رجعنا إلى المفهوم القديم لمعنى التمثال فى اللغات السامية . فقد أورد القرآن بعض الألفاظ الدالة على الصور المعبودة ، ومن بينها لفظة تماثيل إشارة إلى معبودات قوم إبراهيم [قرآن ٢١ : ٥٢] ووردت كذلك للدلالة على أشياء مصورة ليست مخصوصة بالعبادة [قرآن ٣٤ : ١٣] فاللفظ أطلقه العرب القدماء على الصور التى تصنع لأغراض شتى منها العبادة .

وكان السحر من أهم أغراض هذه الصناعة عند الساميين . فالبابليون أفرغوا فى صناعة التماثيل جهداً ضخماً لأغراض سحرية .

والساحر البابلى كان يستهدف الغلبة والسيطرة على العوامل المشئومة التى تكتنفه من كل جانب . فكان إذا أراد أن ينتقم من عدوه وهو غائب عنه عمد إلى صورة ما يصنعها بيده ثم يحرقها بحرابه أن يشعل فيها النار اعتقاداً منه أن

(١) قاموس عبرى مادة Hakam , Masal

ذلك يصل إلى جسم عدوه . وجملة القول أن التمثال فى اعتقاده كان وسيلة تمكنه من السيطرة على الأصل . وهناك طائفة من التماثيل الصغيرة كان يستخدمها العبرانيون فى مساكنهم الخاصة ويسمونها الترافيم Teraphim وهى بمثابة حمائل وطلاسم لحماية السكان من الشر والأذى .

فالتمثال فى ذهن السامى القديم ، كان رمز السيادة والإخضاع : إذ هو الوسيلة إلى الحماية والبقاء ، أو هو السيد القوى الذى يرجى خيره ويخشى من شره .

وهنا نعود إلى المعنى السابق فنفترض أن السامى القديم حين سمى الصورة (مسل mesl) أو تمثالا ، اشتق اللفظ من معنى الغلبة والسيطرة .

ثم نجد فى المادة اللغوية معانى يبدو أنها متفرعة من معنى (الشىء المصور) من ذلك معنى القيام والانتصاب . قال العرب « مثل الشىء » إذا انتصب ومنه الحديث « من سره أن يمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ، ومنه حديث عائشة تتحدث عن أبيها « فحنت له قسيها وامتثلوه غرضا » أى نصبوه هدفاً لسهام ملامهم وأقوالهم .

ومن الشىء المصور لمح الناطقون معنى المشابهة والمشاكلة فورد اللفظ فى الساميات (المثل ، masal ، Metal ، metaı) بمعنى الشبيه والنظير . واشتقوا الفعل masal فى العبرية ، masalu فى الآشورية ، masala فى الحبشية القديمة والأمهرية ، metal فى الآرمية ، meetsl فى السريانية ، وكلها أفعال تدل على المشابهة والمشاكلة .

واشتق العرب من المادة لفظاً يؤدى معنى القصاص (العقاب بالمثل) وتفردوا بإطلاق لفظ يدل على معنى القصاص من مادة (م ث ل) فقالوا (المثال) وقالوا : أمثل الحاكم فلاناً من فلان إذا أقصه منه ، وامتثل منه اقتص . وقد يكون منشأ هذه التسمية أنهم لحوا فى القصاص معنى المشابهة والمشاكلة وذلك بأن يجعل شخص نظير شخص آخر فى القتل . ومن المثال أو العقاب بالمثل ربما أخذوا معنى التنكيل فقالوا مثل يمثل مثلا ومثلة بالرجل أى نكل به وانتقم منه ، وأصبحت المثلة دالة بذاتها على الآفة والعقوبة التى تقترن بالتشهير . وورد هذا المعنى فى التوراة بضع مرات بلفظى masa,meso

ففى التثنية (٢٨ : ٢٧) «وتكون دهشاً ومثلا وهزأة فى جميع الشعوب»، وفى القرآن «فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين» (٤٣ : ٨) وقوله «فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين» (٤٣ : ٥٦) وورد عدد من الأحاديث النبوية فى هذا المعنى أما فى الأناجيل فلم يعثر الباحثون على هذا الاستعمال[1].

الحكمة والمثل ومدلولهما الاصطلاحى

الحكمة :

الحكمة : قول بليغ موجز صائب ، يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكما مسلماً ، تقبله العقول وتأنس به الأفئدة ، وتتقادله النفوس والمشاعر[2].

وكان للعرب فى الجاهلية حكماء شهروا بأصالة الرأى ، وبعد الغور ، ودقة التفكير ، والنظر الصائب . والفهم الصحيح للحياة وأحداثها وتجاربها ، وتنطلق ألسنتهم بالحكمة البليغة الرائعة ، كلما حدث حادث ، أو نزل خطب ، أو أخذ رأيهم فى مسألة .

وكان العرب يلتجئون إلى هؤلاء الحكماء فى الخصومات والمفاخرات

---

(١) الأمثال : لعابدين ٢ — ٧ .

(٢) والحكمة فى اللغة : المنع ، وحكمه : منعه عما يريد . ومنه حكمة الدابة — وهو ما أحاط بحنكها من اللجام — لأنها تذللها لراكبها وتمنعها الجماح ، ومنه اشتقت الحكمة لأنها تمنع صاحبها من الآثام والرذائل . راجع أساس البلاغة للزمخشرى (مادة حكمة) ١ : ١٩٠ ، ومن الممكن أن ترد مادة «ح ك م» فى اللغات السامية إلى معنى المنع والفصل . ومن : فصل الشىء ومنعه ، يشتق معنى التوضيح والتمييز ، وما ورد فى القرآن الكريم يرجع إلى معنى القول الفصل ، أى الكلام الواضح البين المتميز ، قال تعالى فى موضع من حوالى ثلاثين موضعاً ورد فيها لفظ الحكم «إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين» ، ويفسر الحكم اقترانه بالقصص والفصل وهو الإبانة والتمييز . والعرب تطلق الحكم والحكمة بمعنى ، وفى الحديث «إن من الشعر لحكما» والحكم هنا هو الحكمة ؛ أى العلم والتفقه أو بعبارة أدق القول الفصل .

والمنافرات ومشكلات الأمور ، بل كان فى كل قبيلة حكيم تفزع إلى رأيه فى الخطوب ، وتستعين بتجاربه فى المشكلات ، وتستضىء برأيه فى جميع شئون حياتها . وقد يكثر الحكماء فى القبيلة ، فيكونون عونا لها فى الشدائد ، وتحلهم القبيلة من نفسها مكاناً علياً . واشتهرت بعض النساء فى العصر الجاهلى أيضاً بالحكمة ، ولهن آثار تروى ، وحكم مخلدة فى صحف التاريخ الأدبى .

والحكم من البلاغة بمكان كبير : لإيجازها ، ووضوحها ، وفصاحتها ، ودقة معناها ، وروعة تأثيرها ، وخصب خيالها ، وصدق تجاربها الإنسانية ، وهى تكسب الكلام سحراً ، وحلاوة وتجعله مقبولا من الذوق ، قريباً للقلب ، مسلماً به من العقل والشعور والوجدان .

إذا التمسنا تعريف الحكمة عند الفرنجة فى بعض الموسوعات الأدبية الحديثة ، نجدها تعرف على هذا النحو :

Aphorim and Maxim may alike be Briefly defined as pittlhy sentences with a general basing on Pite

أى أنها : « عبارة جامعة سديدة ذات صلة عامة بالحياة » إلا أن كلمة Maxim ذات مدلول أضيق لأنها تدل على المبدأ الذى يعتنقه المؤلف (الكاتب) ويستهدى به فى الحياة أو ينشد به هداية الآخرين . مثال ذلك أن تقول : إن مبدأ لو تسى « Tao · Lse » هو :

lwould meet trust with trust : lwould bewise meetsuspicion Mith trust

الفرق بين الحكمة والمثل :

وقد تشتهر الحكمة وتذيع بين الناس فتصبح مثلا . وعلى هذا سار المؤلفون فى الأمثال ، حيث لم يفرقوا بين ما صدر فى حادثة معينة مثل «رجع بخفى حنين» أو ما فاض به لسان حكيم .

والباحثون فى الآداب السامية لم يهتدوا إلى نوع الصلة التى ربطت بين هذين الاصطلاحين : حكمة ومثل ، فى المراحل الأولى : أكانا لفظين مترادفين أم أن كلا منهما يختص بلون من الكلام ، أم أن الحكمة كانت أعم وأشمل فى مدلولها من المثل . ومهما يكن من شىء ، فقد قرر الاصطلاح العلمى المتأخر

الذى اتفق عليه الباحثون ، على أن أدب الحكمة Wisdom Literature أعم من أدب الأمثال ، فكل مثل حكمة . وليس كل حكمة مثلا .

المثل وخصائصه : عندما قام الفرنجة بترجمة أسفار التوراة والإنجيل إلى اليونانية ثم إلى سائر اللغات الأوربية أدركوا أن كلمة masal فى العبرية والآرامية ذات مدلول واسع ، فاتخذوا للتعبير عنها عدة الفاظ ، ومنها الكلمتان اليونانيتان اللتان تقابلان فى الإنجليزية كلمتى (Parable) ، (Proverb) . وكان الاصطلاح الأول منهما هو اللفظ الشائع للمثل عندهم . فإذا عرفوه قالوا : « وهو العبارة التى تتصف بالشيوع والإيجاز وحدة المعنى وصحته » فالإيجاز ركن من أركان المثل عندهم وبذلك حدده أرسطو (١) . وهنا يلتقى العرب واليونان القدامى ، فأبو عبيد القاسم بن سلام + ٢٢٤ هـ يرى اجتماع ثلاث خلال فى المثل : إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه ، وإبراهيم بن سيار النظام + ٢٢١ هـ = ٨٤٦ م يقول : « يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة » ثم يأتى الفارابى الفيلسوف فيفرق بين النادرة والمثل بقوله : « النادرة حكمة صحيحة تؤدى ما يؤدى عنه المثل إلا أنها لم تشع فى الجمهور ، ولم تجر إلا بين الخواص ، وليس بينهما وبين المثل إلا الشيوع وحده » . وهذا يطابق ما ذكره العالم بنتسن Bentzen فى تقسيم أدب الحكمة إلى قسمين : الجملة الجامعة sentence والمثل Proverb .

وقد عرف المثل بعض نقاد الأدب العربى ومنهم المبرد بأنه « قول سائر يشبه مضربه بمورده ، أو يشبه فيه حال المقول فيه ثانياً بحال المقول فيه أولا » .

ويعرفه آخرون ومنهم المرزوقى بأنه « جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده منها من غير تغيير يلحقها فى لفظها . . . » وهذا التعريف الأخير يجمع الحكمة والمثل . فالمقتضبة من أصلها هى المثل الذى له أصل وقصة أو حادثة معينة ، والمرسلة بذاتها هى الحكمة التى ينطق بها الحكيم بعد

(١) Encyclopaedia of religion and Ethics

طول التجربة والخبرة ، وعليه يسير ابن رشيق ، والميدانى ، وأبو هلال العسكرى وسواهم . وقد جمع أبو هلال والميدانى فى كتابيهما كثيراً من ذلك ، وجعلاهما كلها من الأمثال ، سواء كانت من النوع الأول أو النوع الثانى .

بيد أن هذا التحديد لا ينطبق إلا على بعض فنون المثل ، فقد أطلق العرب القدامى مع إخوانهم الساميين كلمة المثل على عبارات لا يشترط فيها الإيجاز - على الأقل - كالأمثال القياسية والأمثال الخرافية .

أشكال مدلول المثل

وقد أطلق الساميون لفظ (مثل) على فنون من التعبير بعضها موجز وبعضها مطول . أطلقوه على الكلمة الموجزة التى اكتسبت صفة الشيوع والشهرة فى الناس ، والكلمة الجامعة المركزة الدالة على مهارة الصنعة والقدرة على الألغاز والتعمية ، وأطلقوه على القطعة الأدبية التى قد تبلغ الفقرة والفقرتين من الكلام والتى تقص نبوءة من النبوءات ، أو تنزع منزع الأنشودة الشعرية . أو ترد قياساً ومقارنة لتفسير فكرة ، أو توضيح عبارة ، أو تحكى قصة خرافية ذات مغزى .

وفيما يلى أشكال مدلول المثل :

١ - أمثال الأحلام والنبوءات :

نظر الناطق القديم إلى أحلام النائم ، وتهيؤات الكاهن ، وتنبؤات النبى . فعدها أمثالا ، فأطلقت التوراة هذا اللفظ على نبوآت بلعام وميخا وحبقوق ، ويزعم بعض الباحثين أن القدامى عدوا هذا الشكل مثلا لأنه كلام فيه تشبيه ، وكان الكاهن والعراف فى أشد الحاجة إلى الصورة المجازية يجد فيها مجالا للمواربة والإيماء والرمز والإلغاز . ونجد عدداً من الأمثال الملغزة منسوبة إلى أقوال كهان العرب ، أمثال : عزى سلمة الكاهن ، والشعثاء الكاهنة وهى تصف سبعة إخوة ، وطريفة الكاهنة وهى تخاطب قوم عمرو بن عامر ، وكاهنة ذى الخلصة وهى تتكهن بما فى بطن رقية بنت جشم ، والكاهنة السعدية تخاطب العجفاء وصواحباتها .

٢ – المثل القياسي :

وأطلق الساميون لفظ مثل على صورة مجازية أخرى ليست عبارة موجزة ولكنها حكاية أو وصف قصد به توضيح فكرة أو البرهنة عليها بطريق المقارنة والقياس والتمثيل . ويمكن أن نسمي هذا المثل « المثل القياسي » ويسميه الفرنجة Prrable عرف قديماً في تعاليم بوذا ؛ إذ كان المثل القياسي وسيلة تعليمية محببة إليه .

رووا أن بوذا أخذ يوما يشرح تعاليمه لتلامذته فذكر لهم أن المجاهدين في سبيله سيلقون جزاءهم ولكنه سيحتفظ لأشدهم تمسكا بتعاليمه بهدية المعرفة ، وأن مثلهم في ذلك كمثل الملك الذي كافأ جنوده بأشياء كثيرة ولكنه احتفظ لأشدهم إخلاصاً بدرة تاجه . . . وكثر استخدامه في أيدي الأحبار والربانيين في توضيح التعاليم اليهودية وتفسيرها . ثم نجده في أقوال الإنجيل والقرآن ورجال الديانتين المسيحية والإسلامية .

والظاهر أن المثل القياسي في الآداب السامية بنوع خاص قد نشأ في أحضان الديانات . وقد يلتقي المثل القياسي بالخرافة حتى يصعب التمييز بينهما ، وإن كان بعض علماء اللاهوت يفرقون في الاصطلاح بين المثل القياسي والخرافة .

٣ – المثل الخرافي :

ويصف (توراندريه T, Andrae) الصلة بين اللغز والخرافة بقوله « في كليهما يتجلى الضباب والرياح كائنات حية ، وتتمثل السحب أبقاراً كما في كتابات رج – فيدا ، وفي ألغاز الألمان . ويبدو الليل والنهار شقيقين يتعهدان ولديهما الشمس والقمر . . »

وحين نطلق كلمة (خرافة) فإنما نقصد ما سماه الفرنجة Fable ، وهو الذي يتخذ أداة تعليمية بنوع خاص . وهذا النوع هو الذي أطلق عليه الساميون كلمة مثل في أكثر الأحيان . أطلقها العبرانيون المتأخرون على هذه الصورة المجازية سواء أكانت مركزة أم مطولة . ففي القرن الأول الميلادي أطلق اليهود

كلمة masa على عدد من قصص الثعالب وخرافات كوبسيم أوكوبسيس .

وأطلق العرب على قصص الحيوان أمثالا . وفى السريانية تؤدى كلمة matla هذا المعنى نفسه .

٤ — المثل الشعبى :

وأطلق لفظ (المثل) على العبارة الموجزة المعبرة عن رأى الشعب أو اتجاهه Folk-Proverp والآداب السامية تحتفظ بعدد من الأمثال الشعبية دونها جامع الأمثال فوصلت إلينا . ومن الأمثال الشعبية المصرية القديمة قولهم « إنها لم تحدث لنا منذ أيام رع » ، ولذلك نجد عدداً كبيراً من هذه الأمثال فى التلمود والأدهرية والعربية . ونلاحظ أن بعض هذه الأمثال لا يفهم إلا إذا عرفنا مناسبته وقصته ، فهو بذاته أشبه باللغز الذى يحتاج إلى حل : ولهذا حرص الرواة على إيراد قصص لهذه الأمثال لشرحها وتفسيرها . وهذه الأمثال فى معظم الأحيان لا تعدو ملاحظات بسيطة لا تصل إلى حد التعمق والتأمل الفلسفى البعيد ، ولا تعدو كلاماً مرسلا على السجية لا صنعة فيه ولا محاولة شعرية ظاهرة فى سرد العبارة ، كما أنها لا تلتزم التعبير المجازى دائماً وإن كان لا يخلو عدد كبير منه .

٥ — المثل الأدبى :

وأطلق لفظ (مثل) على العبارة الموجزة الأدبية Cnome التى تتميز عن النوع السابق بأنها تدل على عقل واع وتأمل بعيد ، وصنعة ظاهرة فى تنميق العبارة وتنسيقها . فمن ذلك قول العربى « رب عجلة تهب ريثا ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا » وقول سفر الأمثال (١ : ٨ — ١٠) « اسمع يابنى تأديب أبيك ولا ترفض شريعة أمك ، لأنهما إكليل نعمة لرأسك وقلائد لعنقك » .

ولا يشترط فى هذه الأمثال أن تكون معبرة عن نفسية طبقات الشعب وذوق الجمهور بل هى مبادىء وأقـــوال يقررها أفراد من الصفوة المثقفة

كالحكماء ورجال الدين، وتصدر عن روية وتفكير واتقان، وهي بهذا كله تختلف عن الأمثال الشعبية. وهذا النوع من الأمثال يقترن في تاريخه الطويل بالكتابة والحكمة والتعليم الديني.

المثل القولي والمثل الكتابي والفرق بينهما:

قسم بعض الباحثين الأمثال العربية إلى قسمين:

(الأول) المثل الشعبي أو القولي في مختلف صوره وأشكاله.

(والثاني) المثل الكتابي الذي تظهر فيه صنعة التركيب، وروية الكاتب وتأمل المفكر[1].

ومن الملاحظ أن المثل الشعبي الذي يمثل الاتجاه العربي الخالص كان يرسم خطاً واضحاً في الاستعمال العام في تاريخ الأدب العربي إلى أن ضعف النفوذ العربي في أواخر القرن الأول الهجري.

أما المثل الكتابي فهو يمثل خطاً آخر واضحاً تبدأ بواكيره في الجاهلية. ثم يزدهر بظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم، وعناية المسلمين بالحكمة والتعليم الديني والدنيوي، ويشق هذا الاتجاه طريقه في خلال العصور[2].

فالمثل العربي القديم لم يخل من آثار كتابية، ولكنها كانت منحصرة في جانبين: أحدهما ما قام به الكتابيون من الآراميين والفرس من تشجيع لحركة جمع الأمثال وتدوينها، والثاني ما أودعه العرب في أمثالهم من حوادث وأفكار كتابية استمدوها من نصوص مدونة، أو من الأوساط الكتابية، التي كانت تشغل مناطق من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وبالرغم من هذا التأثير الكتابي. ظل المثل العربي القديم محتفظا بطابعه، متميزا بصبغته، واستطاع سلطان اللغة أن يخضع هذه الأفكار أو تلك الموضوعات الكتابية فيصوغها في قالب عربي قديم.

فالتأثير الكتابي في المثل الشعبي القديم — حيثما وجد — تأثير جزئي لا يمس

---

(١) الأمثال في النثر العربي القديم ص ٢٢ — ٢٤.

(٢) الأمثال في النثر العربي القديم ص ٢٣ — ٢٤.

قالب المثل وصورته ، ولا يطغى على الطابع الإقليمى الذى يميزه .

فالشعبية أو الإقليمية هى الميزة الأولى للمثل الشعبى ، وثمة فرق آخر بين المثل الكتابى والقولى وهو تلك النغمة التأديبية التى تسرى فى المثل الكتابى قوية واضحة ، يصوغها الحكيم فى معنى كلى ، أو مبدأ إنسانى ، أو قاعدة عامة . فإذا لجأ إلى المجاز والتصوير ، اتخذ ذلك وسيلة للعبارة عن المعنى الكلى ، أو للإبانة عن تلك النغمة التأديبية . أما المثل الشعبى فغايته فنية غالبا — أو بعبارة أدق — يستهدف وصف جزئية من الجزئيات كحادثة أو شخص ، أو هيئة ، أو حركة ، أو نكتة لفظية .

وفرق آخر يتعلق بالنشأة والمورد ، فمؤرخ المثل الشعبى العربى ينبغى أن يتجه فى فهم صورته ومادته ، إلى البيئات العربية التى صدر عنها . أما المثل الكتابى فهو فى خصائصه العامة ـ على الأقل ـ تراث مشترك بين شعوب مختلفة يمثل وحـــدة ثقافية بينهم[1] .

خصائص المثل العربى فى اللغة والأسلوب :

يجنح الأسلوب السامى الأصيل إلى تلاصق العبارات . . فتتألف القطعة الأدبية من وحدات Units بسيطة متتالية أشبه بحبات العقد ، كل منها جوهر فرد فإذا انفصل عن العقد شىء ظل العقد دون أن يضار فى جوهر بنائه وفى أساس نظامه . وقد يلجأ هذا الأسلوب إلى نوع من التركيب ، ولكنه يستخدم عادة روابط هينة خفيفة . على حين نجد فى الأدب اليونانى العبارات الطويلة المركبة Periodes التى تترابط فيما بينها ترابط أعضاء الكائن الحى أو أجزاء التمثال ، يتوقف بعضها على بعض . فإذا انهار جزء منها أثر ذلك فى تصميم الهيكل ، وفى أساس التكوين . فالساميون القدماء قد صنعوا أدبهم على طريقة نظم العقود وليس على طريقة تصميم التمثال أو الكائن الحى .

« وإذا نظرنا إلى الأمثال العربية القديمة ، وتدرجنا معها من المثل الطويل المسهب

---

(1) Introduction to the Old Testament by Aage Bentzen Vol, 1. P. 110 .

كمثل الخرافة ، إلى الإشارة المثلية الموجزة ، وجدنا أن أسلوبها المسهب ، أميل إلى التسوية والتلاصق ، تكثر فيه الفواصل ، والقفزات السريعة والحروف العاطفة الخفيفة ، كالواو والفاء ونحوهما ولا يلجأ المثل إلى التركيب إلا في القليل ، ولا يلجأ إلى أدوات الشرط والوصل وما شاكلها من الروابط « الثقال » إلا عند الضرورة القصوى . ففي خرافة الحية والفأس نجد مثل هذه العبارة « فعمد إلى الفأس : فأحدها ، ثم قعد لها ، فمرت به فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ، ووقع الفأس بالجبل فوق جحرها فأثر فيه » ومعظم عبارات هذه الخرافة متلاصقة متكافئة سريعة القفزات .
وفي الأمثال المركبة المؤلفة من جملتين أو أكثر نجد التسوية العطفية تسود كقولهم « رب عجلة تهب ريثا ، ورب فروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا » وقد لا يصطنع العطف ، وربما استعملوا الجمل الحالية كقولهم « أضرطاً وأنت الأعلى » أو الجمل الشرطية كقولهم « من عز بز[1] » .

فتركيب الأمثال العربية إذن لا يخرجها عن سمة الإيجاز والتركيز ، وإذا أنعمنا النظر في هذه الأمثال ألفينا ظاهرة لا مثيل لها في الأمثال السامية الأخرى ؛ هذا الإيجاز البالغ الذي يصل أحيانا إلى أن يكون المثل لفظا واحداً أو صفة وموصوفا أو مضافاً ومضافاً إليه ، أو جاراً ومجرورا . فمن أمثالهم (أيها) ومعناه نعم . وأصلها (أي ها الله) ثم كثر في كلامهم حتى وصلوا . ومن ذلك قولهم (اللهم) كان أصله — والله أعلم — يا الله أمنا بخير ، ثم كثر حتى وصلوا الله بحرف من أمنا .

ومن المضاف عدد من الأمثال أوردها الثعالبي في كتابه « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » كقولهم : غراب نوح ، وذئب يوسف ، وعصا موسى ، وخاتم سليمان ، وبرد محارب ، وعطر منشم ، ومواعيد عرقوب ، وجزاء سنمار إلخ .

وذكروا ما سموه « المكنى والمبنى والمثنى » وهي أمثال أحصاها حمزة الأصفهاني فبلغت ثلاثمائة وسبعين ، والمكنى والمبنى من هذه الأمثال هما عبارة

---

(١) الأمثال لعابدين ص ٩٩ — ١٠٠ .

عن أسماء للأشخاص والأشياء والمعانى ، أطلقها العرب عليها مبدوءة بأب أو أم أو بنت .

ومن أمثال المثنى قولهم : الجديدان لليل والنهار والأسودان للتمر والماء . والقمران للشمس والقمر .

ومن أمثال المكنى قولهم : أبو الحارث كنية الأسد ، وأبو حباحب كنية النار التى لا ينتفع بها ، وأم فروة كنية النعجة .

ومن أمثال المبنى قولهم : ابن جلاء ، وهو لأول النهار ، وطامر بن طامر للبرغوث وابن الأيام للرجل الجلد المجرب . وجابر بن حبة للخبز ، وبنت الجبل للصدى . وبنت الشفة للكلمة .

ولعل أمثال المكنى والمبنى والمثنى هى من جملة الأمثال التى تدفقت على المثل العربى القديم بعد أن اشتدت حركة أئمة اللغة فى جمع شواهد العرب وأساليبهم التقليدية expressions من أهل البوادى العربية ، وقد عد كثير من هذه الأساليب أمثالا ، فاقتحمت باب المثل باعتبارها كلاما مأثوراً يعبر عن طرائق مألوفة فى لغتهم(١) .

وهذه الخصائص التى أسلفنا ذكرها تشمل الأمثال العربية جميعها حجازية كانت أو غير حجازية .

المثل الحجازى

يعتبر كتاب « أمثال العرب » للمفضل الضبى أقـــدم ما وصل إلينا من كتب الأمثال وهو يعالج إلى حد ما أمثالا جاهلية ، أو بعبارة أدق ، أمثالا تصور فى صياغتها وموضوعها نزعة جاهلية . وقلما يعثر الباحث فيه على قصص وأمثال تشير إلى واقعة إسلامية .

وهو يشتمل على حوالى مائة وخمسين مثلا موجزاً تندرج الكثرة الغالبة

(١) الأمثال لعابدين ١٠٥ — ١٠٧ .

منها فى قصص ، ويبلغ عدد هذه القصص قرابة المائة وتتضمن القصة مثلا أو أكثر .

ويستغرق نصف صفحات كتاب الضبي تقريباً الحديث عن وقائع قصص وأمثال مستمدة من منطقة (تميم) بقبائلها المختلفة .

وهناك عدد من القصص يروى ما كان بين اليمامة والمناذرة ، وقصص عن امرىء القيس ، وعدد من القصص يشير إلى أهل هجر (البحرين) ، ومنه ما روى عن طرفة والمتلمس .

وإذا تجاوزنا عدداً من الأخبار ليس فيه إشارة واضحة إلى أسماء ووقائع معينة . وهذه لا تزيد على بضعة عشر خبراً ، وجدنا عدداً آخر يتحدث عن الغساسنة والحجازيين من سكان الجانب الغربى ، وفى أخبار الغساسنة — وهى حوالى سبعة — إشارة إلى الخصومة التى نشبت بينهم وبين المناذرة ، أو بين بعض عشائر قضاعة ، وظاهر أن هذه الأخبار مستمدة من مصادر شرقية أيضاً ، لأنها تسجيل لحوادث تهم المناذرة بنوع خاص ، والأخبار الحجازية لا تتجاوز الخمسة وأكثرها فكاهات ولبعضها صلة بأهل الحيرة والنزعات الدينية التى يهمهم أن يعرفوها عن الحجاز[1] .

مصدر هذه القصص إذن هو الشرق ، أو إذا أردنا التحديد فهو منطقة المناذرة وجهات القبائل التى تقع تحت سلطانهم .

وطبيعى أن تكون عناية الضبى بأمثال نجد والمناذرة أكثر من عنايته بأمثال الحجازيين ، فهو ينتمى إلى قبيلة « ضبة » إحدى قبائل المنطقة الشرقية ويعتبر رأى المدرسة الكوفية الضبية . وليس بمستبعد أن يكون المناذرة أنفسهم قد أمروا بتدوين هذه الأمثال والأخبار وجمعها ، ثم تداولها الرواة فى الجاهلية حتى وصلت إلى الضبى فى القرن الثانى للهجرة ، فهى فى مجموعها سجل لمفاخرهم وأحوالهم الأدبية والاجتماعية ملوكاً ورعية .

---

(١) قسم الباحثون المثل العربى إلى قسمين :
(ا) المثل الشرقى ، وموطنه العراق والبحرين وعمان وحضرموت ونجد .
(ب) المثل الغربى : وبيئته الحجاز واليمن .

ومهما يكن من شيء فما لاشك فيه أن الحجازيين فى العصر الجاهلى قد كانت لهم أمثال ، مثل ما كان لليمنيين والغساسنة ، والنجديين والمناذرة . ولكن يلاحظ أن أمثال الحجازيين واليمنيين والغساسنة أقل من أمثال النجديين والمناذرة ، فما السر فى هذا وهل يمكن أن نتصور شعباً كشعب الحجاز — قد أعد لكى يؤثر فى الحياة الإنسانية . عامة وكانت ميزته الكبرى التفوق فى الفصاحة والبلاغة ولزعمائه الفصل فى الخصومات بين العرب — لم يكن له حظ وافر من هذا التراث الضخم من الأمثال ؟

إننا نعتقد أن بيئة الحجاز قد كانت عامرة بالأمثال ، بيد أن الزمن قد عفى على كثير منها ، لأنها لم تظفر من العناية والتسجيل والتدوين بما ظفرت به أمثال المناذرة والبقاع التى كانت تقع تحت نفوذهم ولم تجد من السلطان القائم فى تلك الأزمنة من يرعاها ويحميها ويحفظها من الضياع . . هذا إلى أن تيارات الدعوات الكتابية كانت تهاجمها وتسعى جاهدة لمحوها باعتبارها مظهراً من مظاهر الأمجاد الوثنية القومية . وخاصة إذا علمنا أن المسيحية كانت تجد لها ظهيراً قوياً من الروم والغساسنة . ومهما يكن من شيء ، فثم تراث ضخم من الأمثال العربية انبت عن أصله ، ولم تعين بيئته ، حجازية أم نجدية أم غيرها ، بأية وسيلة من الوسائل الكاشفة المميزة كاللهجة أو الحادثة أو القائل . . وللحجازيين فى هذا التراث العام — كما نرجح — نصيب كبير .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى عدد من حكماء الحجاز فى الجاهلية ، وقد ذكرنا جملة منهم فى فصل سابق — ومن هؤلاء أمية بن عوف الكنانى وكان من أتباع الحنيفية ، يدعو إلى ترك الآلهة والتمسك بإله واحد ، وكان يعظ العرب فى فناء البيت ، وعامر ابن الظرب العدوانى ، وهو حكيم قيس ، وكان متصلا بملوك غسان ، وهاشم بن عبد مناف ، وعبد المطلب ، وأبو طالب من حكماء قريش . وكان بعض الحكماء يورثون أبناءهم الحكمة ، كما صنع حكماء الشرق القديم ، حين كانوا يلقنون أولادهم تعاليم الحكمة ، فورثت ابنة عامر بن الظرب الحكمة من أبيها . وكانت ذرية هاشم بن عبد مناف حكماء قريش فى الجاهلية ، ونعنى هشاماً وعبد المطلب وأبا طالب . أما فى الإسلام فقد اشتهر بها على بن أبى طالب ، وعمرو بن العاص كما عرف بها أبوه العاص بن وائل فى الجاهلية .

وأمثال الحجاز فى الجاهلية كانت — بوجه عام — تستقى من منابع ثلاثة :

المنبع الأول : تلك الأمثال التى نطق بها الحجازيون قبل الإسلام وعليها طابع الحجاز المحلى، وارتسمت عليها صورة بيئتهم وعبرت عن طرائقهم فى التفكير والتعبير ، أو اقترنت بحادثة كاشفة أو لهجة مميزة أو تفوه بها زعيم من زعمائهم أو فصيح من فصحائهم .

المنبع الثانى : الأمثال التى قيلت فى بيئة المناذرة والمناطق التى كانت تدور فى فلكها كنجد وهجر والبحرين ، ثم انتقلت إلى الحجاز وشاعت فى بيئتهم الاجتماعية ودارت على ألسنتهم واختلطت بأمثالهم الصميمة ، وتناولوها بالتغيير والتحوير حتى تنسق مع ميولهم ونزعاتهم ولهجاتهم وقد أصبحت هذه الأمثال جزءاً من تراثهم الفنى .

المنبع الثالث : الأمثال التى كتب لها الرواج فى منطقة الحجاز وكان مصدرها كتابياً تعليمياً ، ودلت الدلائل على أنها مستقاة من تعاليم قديمة ، أو كتب مقدمة ، ثم أخذت صيغة الأمثال الشعبية . فقد كانت هناك جاليات آرامية وغير آرامية استقر بعضها فى مناطق عدة من الحجاز ، فى أخصب البقاع حول المدينة ، وأمرع الواحات بين الحجاز والشام وذاعت فى تلك المناطق قصص من التوراة وغير التوراة . وكان من أثر التيارات والدعوات الكتابية أن ضعف إلى حد ما نفوذ الوثنية، وذاعت بعض الأفكار السماوية والتعاليم الدينية . وكان بعضها فى صورة حكم وأمثال .

أقدم الأمثال :

ومن أمثال العرب القديمة : « السليم لا ينام ولا ينيم » ويضرب لبيان أن الضرر لا يقتصر على منبعه وحده ، بل يتعداه إلى غيره .

وينسب هذا المثل إلى « إلياس بن مضر » أبى الحجازيين . وإلياس هو الجد السادس عشر للنبى (ص) ومن إلياس إلى عدنان ٤ أجيال ، فمتوسط الأجيال من إلياس إلى عصر النبوة = ٢٢٫٦٥ – ٤ = ١٨٫٦٥ جيلا ومدتها ١٨٫٦٥ × ٤٠ = ٧٤٦ سنة [الجيل أربعون سنة] .

أى أن إلياس كان قبل الهجرة بنحو ٧٤٦ سنة ، وقبل الميلاد المسيحى بنحو ١٢٤ سنة ، وثمت تقدير آخر لتعيين زمن إلياس وهو الاعتماد على سلسلة النسب الطاهر للنبى (ص) الذى يبلغ ما بينه و بين عدنان اثنين وعشرين جيلا . ومدتها ٢٢ × ٤٠ = ٨٨٠ . وبحذف الأجيال الأربعة بعد مضر إلى عدنان يكون الباقى من الناس إلى النبى محمد (ص) ١٨ جيلا . ومدتها ١٨ × ٤٠ = ٧٢٠ سنة أى أن إلياس كان قبل الهجرة بنحو ٧٢٠ سنة وقبل الميلاد المسيحى بنحو ٩٨ سنة[١] .

والذى نريد أن نصل إليه — على افتراض صحة هذا التقدير أو ذاك صحة نسبة المثل إلى إلياس — أن الأمثال العربية عامة . والأمثال الحجازية خاصة ، ضاربة فى القدم ، وأن عمر هذا المثل أكثر من سبعة قرون ، وأن إلياس أرسله فى القرن الثامن قبل الهجرة .

وحديث هذا المثل فيما ذكر الكلبى[٢] عن الشرقى بن القطامى ، أن إبل إلياس ندت ليلا فنادى ولده وقال : « إنى طالب الإبل فى هذا الوجه ، وأمر عمرا ابنه أن يطلب فى وجه آخر ، وترك عامراً ابنه لعلاج الطعام قال . فتوجه إلياس وعمرو ، وانقطع عمير ابنه فى البيت مع النساء فقالت ليلى بنت حلوان امرأته لاحدى خادميها : اخرجى فى طلب أهلك وخرجت ليلى فلقيها عامر محتقباً صيداً قد عالجه ، فسألها عن أبيه وأخيه فقالت : لا علم لى . فأتى عامر المنزل وقال للجارية قصى أثر مولاك فلما ولت قال لها : تقرصعى أى اتئدى وانقبضى فلم يلبثوا أن أتاهم الشيخ وعمرو ابنه قد أدرك الإبل فوضع لهم الطعام فقال الياس : السليم لا ينام ولا ينيم فارسلها مثلا وقالت ليلى امرأته : والله إن زلت أخندف فى طلبكما وآلهة . قال الشيخ فأنت خندف . قال عامر : وأنا والله كنت أدأب فى صيد وطبخ . قال : فأنت طابخة . قال عمرو : فما فعلت أنا أفضل أدركت الإبل قال : فأنت مدركة وسمى عميراً قمعة لانقماعه فى البيت . فغلبت هذه الألقاب على أسمائهم . ويضرب مثلا لمن لا يستريح ولا يريح غيره .

---

(١) الأسس المبتكرة لدراسة الشعر الجاهلى ١٠٥ — ١٠٦ .

(٢) الميدانى ١ : ٣٥٢ .

أثر البيئة فى الأمثال الحجازية

تعتبر الأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير ، فهى مرآة للحياة الإجتماعية والعقلية والسياسية والدينية واللغوية ، وهى أقوى دلالة من الشعر فى ذلك ، لأنه لغة طائفة ممتازة ، وأما هى فلغة جميع الطبقات .

فالمثل — إذن — هو صوت الشعب وصورته ، ورسمه ومثله ، ينبع من قلب الجماهير ، ويصب فيها ، والسمة الشعبية ركن من أهم أركان المثل الشعبى .. ويتضح عنصر الشعبية فى اشتقاق اللفظ الدال على المثل فى اللاتينية واليونانية . فى اللاتينية تدل الكلمة Provsrqium على (الكلمة التى تقال امام الملأ) ويرادفها لفظ adaguim ويردونها عادة إلى العبارة ad agendum aptum واشتقت الانجليزية كلمة adage وكلها تدل على هذا العنصر الشعبى ،كما تدل على مغزى خلقى ،وتنطق بالوظيفة العملية للمثل . أما الكلمة اليونانية التى تقابل كلمة المثل العربية فهى تدل على التعبير الشائع الذى تبتذله العامة .

ولذا كان من الطبيعى أن تكون الأمثال الحجازية فى العصر الجاهلى صورة صادقة لنفسية الحجازيين وحياتهم الخلقية والدينية وأن تنعكس على مرآتها بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ، وتصور عاداتهم وتقاليدهم ونزعاتهم وميولهم وهزلهم وجدهم، وطرائقهم فى التفكير والتعبير . وماذا عسى أن ينتج من بيئات اشتغل أهلها بالزراعة والتجارة ، وكانت لهم المصارف ، وضربوا فى جنبات الصحراء يحدون القوافل الموقرة بالسلع المختلفة لحسابهم ، أو لحساب غيرهم ، حتى أصبح لهم حظ من الثراء والترف والحضارة ، وكانت بديارهم المواسم والمجتمعات والأسواق التجارية والأدبية كما امتازوا بجوارهم للبيت الحرام الذى يقصده العرب جميعاً لأداء الشعائر الدينية ؟ . كل ذلك كان له أثره العميق فى نفوسهم وفيما ينتجون من أدب بصفة عامة وما يرسلون من حكم وأمثال بصفة خاصة .

وهكذا كانت الأمثال الحجازية التى وصلت إلينا ترجماناً صادقاً عن حياة الحجازيين الاجتماعية ، وشمائلهم الخلقية نرى فيها شجاعتهم وبأسهم ، وجرأتهم وفتكهم ، فقد ضرب المثل بالبراض الكنانى ، فقيل : أفتك من البراض ، وفى قصة المثل المشهور : « عند جهينة الخبر اليقين » بعد أن فتك الأخنس ابن كعب الجهنى بالحصين بن عمرو ، وقفل راجعاً إلى قومه رأى امرأة تنشد الحصين ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : أنا امرأة الحصين . قال : أنا قتلته ، فكذبته وقالت : أما لو لم يكن الحى خلوا ما تكلمت بهذا . فانصرف وفى ذلك يقول :

كصخرة إذ تسائل فى مراح ... وأنمار ، وعلمهما ظنون
تسائل عن حصين كل ركب ... وعند جهينة الخبر اليقين

وسيأتى تفصيل الحديث عن هذين المثلين .

وفى بيئات الحجاز الزراعية كخيبر والمدينة حيث تنتشر النخيل نجد أن الحجازيين قد اتخذوا من « التمر » مادة للأمثال يعالجون بها أطرافاً من شئونهم المعاشية وحياتهم الاجتماعية ، فقالوا :

« كمستبضع التمر إلى خيبر » ويقال للدلالة على خطإ هذا الفعل ، فخيبر مصدر التمر ، والذى يجلب إليها التمر مخطىء أعظم الخطأ مقضى على تجارته بالبوار والكساد وهذا من بديهيات التجارة ، والشىء يجب أن يوضع فى موضعه ، ويوجه لمن هو فى حاجة إليه ، قال النابغة الجعدى :

وإن امرأ أهدى إليك قصيدة ... كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرا

وقالوا : « كل خاطب على لسانه تمرة »[1] وفى التمرة حلاوة والخاطب عادة يحلو لسانه حتى يحوز الرضا ، ويفوز بحبة قلبه . وهو يضرب للذى يلين كلامه إذا طلب حاجة . وقالوا : « التمرة إلى التمرة تمر » وينسب هذا المثل إلى أحيحة بين الجلاح الأوسى وذلك أنه دخل حائطاً له ، فرأى تمرة ساقطة

---

(١) الميدانى ٢ : ٩٨ .

فتناولها ، فعوتب فى ذلك ، فقال ذلك القول يريد أن ضم الآحاد يؤدى إلى الجمع . ويضرب فى استصلاح المال .

وكان من عادتهم فى الجاهلية أن يقوم مناد على أطم من آطام المدينة حين يدرك البسر ، فينادى : « التمر فى البئر .. التمر فى البئر » يحثهم على أن يكثروا من سقى نخلهم فإن من سقى وجد عاقبة سقيه فى تمره،وهذا قريب من قولهم « عند الصباح يحمد القوم السرى » ويراد بالمثلين : أن من عمل عملا كان له ثمرته[1] .

وفى بيئات الحجاز التجارية كمكة مثلا يجد الباحث أمثالا تصور حياتهم الاقتصادية كقولهم :

أقرش من المجبرين :

والقرش الجمع والتجارة والتقرش التجمع ، ومن هذا سميت قريش قريشا زعم أبو عبيدة أنهم أربعة رجال من قريش وهم أولاد عبد مناف بن قصى أولهم هاشم ثم عبد شمس ثم نوفل ثم المطلب بنو عبد مناف ، سادوا بعد أبيهم . لم يسقط لهم نجم ، جبر الله تعالى بهم قريشا فسموا المجبرين وذلك أنهم وفدوا على الملوك بتجاراتهم فأخذوا منهم لقريش العصم، أخذلهم هاشم حبلا من ملوك الشام حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض الشام وأطراف الروم،وأخذلهم عبد شمس حبلا من النجاشى الأكبر حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة وأخذلهم نوفل حبلا من ملوك الفرس حتى اختلفوا بذلك السبب إلى أرض فارس والعراق وأخذلهم المطلب حبلا من حمير حتى اختلفوا بذلك السبب إلى بلاد اليمن[2] . وانعكست على أمثالهم كذلك صور من عاداتهم الدينية ، وبيئتهم المقدسة فقالوا : « آمن من حمام مكة » وآمن من الظبى بالحرم وهما من الأمن وقالوا : آلف من حمام مكة ، لأنه لا يثار ولا يصاد ، وقالوا : أصح من عير أبى سيارة ، وهو رجل من بنى عدوان اسمه عميلة بن خالد بن الأعزل وكان

---

(١) الميدانى ١ : ١٤٤ وجمهرة الأمثال ١ : ١٨٥ .
(٢) الميدانى ٢ : ٧٢ وقد تقدم ذلك فى هذا الكتاب عن القالى أيضا .

له حمار أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة إلى منى أربعين سنة وكان يقول : أشرق ثبير كيما نغير . وهو أول من سن الدية مائة من الإبل(١) .

وفى مكة تبرز أمثال تصور مبلغ ما وصل إليه بعض القرشيين من الثراء والترف كقولهـــم .

أقرى من حاسى الذهب :

وحاسى الذهب هو عبد الله بن جدعان التيمى سيد مكة فى الجاهلية . وسمى بذلك لأنه كان يشرب فى إناء من الذهب . وهو الذى أطعم العرب الفالوذ ، وفيه قال أبو الصلت الثقفى :

له داع بمكة مشمعل — وآخر فوق دارته ينادى
إلى ردح من الشيزى ملاء — لباب البر يلبك بالشهاد(٢)

ونجد أمثالا أخرى تصور جودهم وسخاءهم كقولهم :

أقرى من زاد الركب :

وهذا المثل من أمثال قريش ضربوه لثلاثة من أجوادهم : مسافر بن أبى عمرو بن أمية ، وأبى أمية بن المغيرة ، وأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى . سموا زاد الركب لأنهم كانوا إذا سافروا مع قوم لم يتزودوا معهم وقد ذكرنا نبأهم فيما سبق .

ومن أمثال المكيين التى تحكى اعتزازهم وتفاخرهم قولهم :

أنا ابن كَدِيِّهَا وكَدَائِهَا :

وكدى وكداء جبلان بمكة والهاء راجعة إلى مكة وهذا مثل يضربه من أراد الافتخار على غيره(٣) .

ومن أمثالهم التى تصور جمالهم ووسامتهم قولهم :

(١) الميدانى ١ : ٤٢٢ وجمهرة الأمثال للعسكرى ٢ : ١٢٨ .
(٢) الميدانى ٢ : ٧٢ .
(٣) الميدانى : ٢ : ١٩٧ .

أجمل من ذى العمامة : وهو مثل من أمثال مكة وذو العمامة سعيد بن العاص ابن أمية : وكان فى الجاهلية إذا لبس عمامة ، لا يلبس قرشى عمامة على لونها ، وإذا خرج لم تبق امرأة إلا برزت للنظر إليه من جماله[1] .

ومن الأمثال العربية قولهم :

كُسَيْرٌ وعُوَيْرٌ وكل غير خيرٍ[2] .

ولا يزال الحجازيون حتى اليوم يذكرون معنى هذا المثل بعد أن حولوه إلى اللهجة العامية ، فيقولون « صوير وعوير ، وإلا ما فيه خير » . ومن الأمثال الحجازية الشعبية قولهم . « شاهد الثعلب ذنبه » وقد جاء هذا المثل فى خبر لأبى بكر الصديق رضى الله عنه[3] وسار عبر القرون حتى العهد الحاضر فإذا هو يدور على ألسنة الحجازيين على النحو الآتى :

« قالوا : مين يشهد لك يا أبو الحصين ؟ قالوا : ذنبى » . وأبو الحصين — كما هو معروف : كنية الثعلب .

* * *

أما حكمهم وأمثالهم التى تجلت فيها قدرتهم الفائقة على فن التعبير ، وبرزت فيها سمات الوجازة والبلاغة الممتازة حتى دارت على الألسنة وتأثرت بها القلوب فحسبنا أن نشير إلى قولهم : « الحرب سجال » ، « ولا فى العير ولا فى النفير » ، « وكل الصيد فى جوف الفرا » ، « والسليم لا ينام ولا يديم » ، « ورب زارع لنفسه حاصد سواه » .

وقد يصور المثل الحجازى حادثة أو شخصية جاهلية كقولهم (أندم من أبى غبشان) وهو من خزاعة . يروى أنه أسلم قصى بن كلاب مفاتيح البيت الحرام وهو سكران ، فطار بها من الطائف (وهو موضع اجتماعهم) إلى مكة ، وقال : معاشر قريش ! هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم . وأفاق أبو غبشان فندم ، فقيل : أندم من أبى غبشان .

---

(١) الميدانى : ٢ : ١٩٨ .

(٢) الأغانى ١ : ٢٩٣ دار الكتب .

(٣) جمهرة الأمثال العسكرى ٢ : ١٨ .

ويعلق بعض الباحثين على هذه القصة بقوله : فإذا فرضنا ان هذه القصة قد اشتهرت بين الحجازيين حتى اصبح ابو غبشان فيها مضرب المثل فليس من المحقق ان يكون هذا التركيب بهذه الصيغة كان مثلا شائعا بينهم وفرق بين القصة والمثل ، وبين معنى المثل وصيغته بل نرجح ان الرواة المتأخرين قد (ترجموا) عن الشهرة بعبارة من صنع انفسهم ، فترجمها بعضهم (أندم من ابى غبشان) وترجمها بعضهم (أحمق من أبى غبشان) وترجمها غيرهؤلاء وأولئك (أخسر صفقة من أبى غبشان) . فاختلاف التعبير عن القصة قد يحمل الدليل على أن المثل مفتعل ، وإن كان مستفادا من قصة مشهورة ، فهو متأخر عنها وضعه الواضعون بعد ان اشتهرت القصة . وهذا ما يجعلنا نرجح أن صيغة المثل إسلامية(١) .

ونحن مع تقديرنا لهذا الرأى نرى أن المثل جاهلى صميم إذ من غير المعقول أن تظل هذه الحادثة الخطيرة طيلة هذه الفترة الطويلة دون أن يتناولها الحجازيون ، ويضربوا بصاحبها المثل . ومن المؤكد عندنا أن صيغة واحدة من صيغ هذا المثل كانت أسبق إلى الظهور . وان هذه الحادثة لما لها من الخطر وعمق التأثير فى حياتهم الاجتماعية والدينية ، قد اشتقت منها الأقوال والأمثال بصيغ مختلفة ، واختلط الأمر بعد ذلك على الرواة فرووا هذه الصيغ جميعها ، ولم يحفظوا أقدم الروايات ويفردوها بالنص . فالمثل — فى رأينا — جاهلى صحيح ، وليس إسلاميا مفتعلا .

وبهذه المناسبة نذكر أن الأستاذ أحمد السباعى فى كتابه « تاريخ مكة » قد سجل جملة من الحكم والأمثال عزاها إلى قريش فى العصر الجاهلى . والواقع ان بعض ما أرده إسلامى القائل والقصة ، كالمثل « عند الصباح يحمد القوم السرى(٢) » فقد تفوه به خالد بن الوليد حين نجا هو وجيشه من الهلاك عطشاً ، بعد أن سلك المفازة بين اليمامة والعراق(٣) ، بناء على أمر الخليفة أبى بكر رضى الله عنه له بأن يتجه إلى العراق .

---

(١) الأمثالى لعابدين ص ٩٣ — ٩٤ .

(٢) الميدانى ١ : ٤٦٤ . (٣) وفى الكامل لابن الأثير : بين الشام والعراق .

وبعضها مولد كقولهم : « يبنى قصراً ويهدم مصراً»(١) ، ويضرب لمن شره أكثر من خيره وقد ذكره الميدانى فى أمثال المولدين ، وقولهم « إذا أراد الله هلاك نملة أنبت لها جناحين »(٢) .

وبعضها ليس قرشياً كالمثل : « حسبك من شر سماعه »(٣) فقد نسبه الميدانى لأم الربيع بن زياد العبسى ، ونسبه المفضل لفاطمة بنت الخرشب من بنى أنمار بن بغيض .

الأمثال الحجازية والمصادر الأجنبية :

وقد يجد الباحث فى الحجاز أمثالا قد دونت فى المصادر الشرقية ، كقولهم : « مكره أخوك لا بطل » . روى الضبي : « أخوك » على الإعراب بالحروف ، ثم نجدها فى لهجات بعض المناطق الغربية : « مكره أخاك لا بطل » بالبناء على الألف . وورد فى الضبى المثل : « إذا عز أخوك فهن » ، فإذا به يروى : « إذا عز أخاك فهن » . ولكن الجاحظ يعده لحنا .

ثم نلمح السمة الحجازية أحياناً فى الأمثال ، حين يختلف الرواة فى شرح قصصها ومواردها ، فيردونها إلى مصادر مختلفة . ففى شرح المثل القائل : « حدا حدا وراءك بندقة » . يرى شرق بن القطامى الكوفى أن : « حدا » علم على قبيلة ، هى حدا بن نمرة ابن سعد العشيرة ، وهم بالكوفة ، وبندقة من مظة : وهو سفيان بن سلهم بن الحكم ابن سعد العشيرة وهو باليمن . أغارت حدا على بندقة فقتلت منهم ، أما أبو عبيدة البصرى ، فيرى أن المراد هو هذا الحدأ الذى يطير ، والبندقة ما يرمى به ، وهى كرة تطلق من السهم يلعب بها الصبيان ، وهو مثل يضرب فى التحذير .

فعلى قول أبى عبيدة يكون اللفظ جمع حدأة أسقطوا همزته وفى اللسان : « العامة تقول : حدا حدا بالفتح غير مهموز » فالأقرب أن يكون المثل متأثراً

(١) الميدانى ٢ : ٣٩٣ .
(٢) المرجع السابق ١ : ٩١ .
(٣) المرجع السابق ١ : ٢٠٣ .

بلهجة غربية أو هو غربي المورد ، فإن حذف الهمزة في نحو «حدا» هو ظاهرة مميزة للهجات الحجازية على أنه قد يصعب الاهتداء إلى مصدر المثل في كثير من الأحيان ، كما في شرح : «أنا النذير العريان» ، فقد أورد ابن الكلبي قصة وقعت حوادثها في الحيرة في أيام المنذر بن ماء السماء . أما ابن سلمة فيشرح المثل بما يدل على أن مصدره حجازي ، إذ ينسبه إلى رجل من خثعم ، حمل عليه يوم ذي الخلصة .

ومن الأمثال التي يبدو الأثر الأجنبي في صيغتها قولهم : «إلا دَهٍ فلا دَه» ، وهو كلمة قالها الكاهن عُزَىّ سلمة حين أتاه جماعة من ثقيف ، ومعهم عبد المطلب ابن هاشم يخبئوا له ، وقالوا : (لاده) أي بَيِّن هذا الشيء ، فأجابهم الكاهن بكلام مبهم ، فقالوا له : (لاده) قال لهم : (إن لاده فلاده) هو رأس جرادة في خرز مزادة الخ . . . قال الخليل بن أحمد : (لاده) فارسية الأرض ، ورده أبو عبيدة إلى أصل عربي قال : (أريد كذا وكذا ، فإن قيل له : ليس يمكن ذا ، قال : فكذا وكذا). وقال الأصمعي : إن معناه إن لم يكن هذا الآن ، فلا يكون بعد الآن . وقال المنذري : (قالوا معناه إلا هذه ، فلا هذه ، يعني أن الأصل إلا ذه فلا ذه ، بالذال المعجمة) .

وبالرغم من أن حوادث القصة حجازية ، فإن المثل فيما نظن عبارة مأثورة من تلك المصطلحات العتيقة التي تتسرب عادة إلى أهل الحرفة من عصور بعيدة الآماد .

ويرجح بعض الباحثين أن العبارة متأثرة بلهجة آرامية أو فارسية ، وأنها جاءت من جهة العراق .

ولا ننسى طائفة أخرى من الأمثال هي خرافات شعبية ، نشأت وترعرعت في أوساط كتابية غالباً في الفترة التي ظهر فيها الإسلام أو بعده بقليل .

وهنالك نوع من قصص الخلق نجدها منتشرة في الأوساط الكتابية ، يذيعها المعلمون والوعاظ لبيان حكمة الخالق في خلقه ، وهنالك عدد من قصص الخلق ذاعت في الكتب المقدسة القديمة ، وقد نجح صانعو هذا القصص في صياغتها بعبارات شعبية :

قالوا : زعمت الأعراب أن النعامة ذهبت تطلب قرنين ، فرجعت بلا أذنين . فلذلك يسمون ذكر النعام الظليم ، ومن أمثالهم « كطالب القرن جدعت أذنه » ويروى أن بشاراً تمثل فقال « ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد بلا أذنين » .

وورد المثل فى شعر بعض الهذليين المخضرمين ، وهو أبو العيال الهذلى ، والهذليون مساكنهم فى الحجاز ، وهو يشير إلى النعامة لا إلى الحمار .

وهناك مثل آرامى يهودى يقول : « ذهب الجمل يطلب قرنين فرجع بلا أذنين » وبذلك يتبادل الدور ثلاثة من الحيوان ، ويبدو أن الجمل أقدمها وروداً فى المثل ، فقد ورد فى نص آرامى ، كما أن الحمار يمثل خلطا من الناطقين المتأخرين بين المثل الأصلى، ومثل آخر يذكر أذنى الحمار .

ثم إن هناك ما يسمى بـ « الخرافات الحوارية » التى تعتبر من وسائل تعليم الشعب وتسليته . وأكثر هذه القصص الحوارية يتسم بسمة (الحيلة) ومن ذلك الخرافة الحوارية التى رويت عن على بن طالب رضى الله عنه :

يقول الميدانى : يروى أن أمير المؤمنين عليا رضى الله تعالى عنه قال : « إنما مثلى ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كن فى أجمة : أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شىء ، لاجتماعهن عليه . فقال للثور الأسود والثور الأحمر ، لا يدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض ، فإن لونه مشهور ، ولونى على لونكما ، فلو تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة . فقالا : دونك فكله . فأكله . ثم قال للأحمر : لونى على لونك ، فدعنى آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة . فقال : دونك فكله . فأكله . ثم قال للأحمر إنى آكلك لا محالة . فقال دعنى أنادى ثلاثا . فقال : افعل فنادى ألا إنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض . ثم قال على رضى الله تعالى عنه : ألا إنى هنت — ويروى وهنت — يوم قتل عثمان، يرفع بها صوته . وهو مثل يضربه الرجل يرزأ بأخيه . وقد ورد هذا المثل فى كتاب كليلة ودمنة ، ولاحظ هذا أبو هلال . كما أنه ورد مختصراً فى خرافات إيسوب . ويعلق الدكتور عبد المجيد عابدين على ذلك بقوله : فإذا صحت رواية هذا المثل عن

على بن أبي طالب ، وهو أسبق في التاريخ من ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة ، فمن الممكن أن نفترض أن المثل عرفه الآراميون ، الذين سكنوا في الحجاز أو اليمن ، من طريق الترجمة السريانية لكتاب كلية ودمنة — وقد ترجم حوالى ٥٧٠ م — أو نفترض أن المثل عرفه الكتابيون في هذه المنطقة من طريق خرافات إيسوب التي كانت قد عرفها اليهود من قبل وتدارسوها في مجالسهم ومدارسهم .

وقصة استسقاء وفد عاد بمكة ومعهم لقمان معروفة مشهورة ؛ وسنذكرها في موضع آخر إن شاء الله ، ونحب أن نشير هنا إلى أن عناصر هذه القصة وثنية قديمة ، لكنها امتزجت بعناصر كتابية فيما بعد في الفترة القريبة من الإسلام .

« ولم يلبث أن أصبح لقمان مشتهراً بالحكمة الكتابية قبيل الإسلام ، بعد أن كان صانع أمثال شعبية ، تكاد تكون خالية من النغمة الكتابية الظاهرة وقوامها الألغاز ، ويكثر فيها المجاز والإيماء والإشارة ومعاريض الكلام . ولم يكد يظهر الإسلام في شبه الجزيرة حتى كان عرب اليمن الذين سكنوا في الحجاز أو اتصلوا بالجانب الغربي من شبه الجزيرة قد مهدوا لظهور لقمان الجديد، لقمان القرآني، فرأينا كعب الأحبار وأصله من يهود المدينة ثم أسلم قد أذاع عدداً من أخبار لقمان . ورأينا سويد بن الصامت يقدم إلى مكة ، ويعرض على الرسول مجلة لقمان . ونكاد نرجح أن هذه المجلة كانت تتضمن شيئاً عن لقمان في صورته الكتابية . يدلنا على ذلك أن سويداً كان ممن قرأوا الكتب في الجاهلية ، وأنه كان من أهل المدينة ، وأن لفظ مجلة[1] ، عبرى أو آرامى الأصل » [2] .

الفرق بين المثل اليمنى والمثل الحجازى :

وقد اختلطت الأمثال اليمنية بالأمثال الحجازية ، فقد لبست جميعها ثوباً من العربية الفصحى وأصبح من العسير على الباحث التمييز بينها .

بيد أنه يلاحظ أن بعض الصيغ قد ترد في المال فنشير إلى أصله اليمنى .

(١) يرى السهيلي في الروض الأنف ١ : ٢٦٦ أن لفظ مجلة مشتق من الجلالة أو الجلال .

(٢) راجع جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكرى ١ : ٢٨٢ وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ١ : ٢٤٢ ، والأمثال في النثر العربي القديم ص ٥٠ — ٥١ .

ومن ذلك — فيما يظن بعض الباحثين — صيغة (فعال) الاسم المؤنث المبنى على الكسر ، (وقد جمع الباحث ك . فولرز Vollers طائفة من أسماء الأماكن الواردة على وزن فعال المنتهية بالكسر ، ورأى أن معظمها يرجع إلى اليمن وما جاورها . وصلة اليمن بالحبشة معروفة وإذا رجعنا إلى الحبشة القديمة وجدنا أن فعال faal هى صيغة المؤنث لوزن فعيل ، فيقال حديس (جديد) ومؤنثه حداس (جديدة) ويقال طبيب (حكيم) ومؤنثه طباب . وفى أمثالهم (من دخل ظفار حمر — أو تحمر) وظفار بلد باليمن وحمر تكلم بالحميرية . وقالوا : (روغى جعار وانظرى أين المفر) جعار الضبع ، وهو مثل يضرب للذى يهرب ولا يقدر أن يغلب صاحبه . وقالوا : تيسى جعار) يضرب للاستكذاب ولم يعرف أصل هذه الكلمة . والتيس جبل باليمن . ويقال فلان يتكلم بالتيسية أى بكلام أهل ذلك الجبل[١] .

الأمثال الغريبة :

وفى الحجاز يصادف الباحث عدداً من الأمثال يتسم بسمة الإغراب ، ويستغلق معناه على الفهم . ومن ذلك قول الحجاج بن يوسف الثقفى : « ده درين سعد العشيرة » ويروى (دهدرين وطرطبين) . قاله الحجاج لقوم من الفرس فلم يفهموه ؛ ففُسِّرَ لهم ، وهو مثل يقال لمن يأتى بالباطل استهزاء به . ولم يعرف الأصمعى أصله ، وقال أبو هلال : إنه كلمة لا معنى لها . وقال ابن الأعرابى : (وتركوا تنوين سعد استخفافاً ونصبو دهدرين على إضمار فعل)[٢] ولعل هذا المثل من بقايا لهجة حجازية بائدة كانت تمثل مرحلة سابقة على الطور الأدبى .

ورُوِى أن عمر بن الخطاب جاءه رجل يحمل لقيطاً ، فقال عمر : (عسى الغوَيْر أبوساً) والغوير : تصغير غار ، والأبؤس : الشدائد جمع بؤس ، أى لعلك

---

(١) راجع ٤٩ ، ١٥٦ .
Ancient West Arabiau, By C· Radin.
والمزهر ١ : ٤٩ ، والأمثال العربية لعابدين ٦٥ — ٦٦ .
(٢) أبو هلال العسكرى ١ : ٢٩٥ .

صاحب هذا اللقيط تعريضاً بالرجل ، وقال اللغويون فى معناه . « لعل الغوير يصير أبؤساً » ، وقالوا عسى بمعنى كان . وتركيب المثل غريب لأن هذا الاستعمال لم يرد فى القرآن الكريم ، وإنما وردت كلمة « عسى » مقرونة بأن والفعل . فلعلها لهجة حجازية سبقت طور العربية الفصحى .

ويرى بعض الباحثين أن عسى تقابل فى الاستعمال الكلمة العبرية asah أى « صنع » ويكون معنى المثل : « صنع الغوير أبؤساً ، أى شدائد ونكبات »[1] والمثل — وإن تمثل به عمر — فهو قديم كما قال أبو هلال . أما رواية الميدانى القائلة بأن أصل المثل من قول الزباء ، فليست صحيحة ، لأنها لا تنطبق على ما ورد فى أقدم نص لقصة الزباء فى كتاب الضبى[2] .

طائفة من الأمثال الحجازية

أفتك من البراض

هو البراض بن قيس الكنانى . ومن خبر فتكه : أنه كان وهو فى حيه عياراً فاتكاً يجنى الجنايات على أهله ، فخلعه قومه ، وتبرؤا من صنيعه ، ففارقهم وقدم مكة ، فحالف حرب بن أمية ثم نبا به المقام بمكة أيضاً ففارق أرض الحجاز إلى أرض العراق ، وقدم على النعمان بن المنذر الملك فأقام ببابه . وكان النعمان يبعث إلى عكاظ بلطيمة كل عام تباع له هناك فقال وعنده البراض والرحال — وهو عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب وسمى رحالا لأنه كان وفادا على الملوك — : من يجيزلى لطيمتى هذه حتى يقدمها عكاظ . فقال البراض . أبيت اللعن أنا أجيزها على كنانة فقال النعمان : ما أريد إلا رجلا يجيزها على الحيين قيس وكنانة . فقال عروة الرحال : أبيت اللعين ، أهذا العيار الخليع يكمل لأن يجيز لطيمة الملك ، أنا المجيزها على أهل الشيح والقيصوم من نجد وتهامة . فقال : خذها . فرحل عروة بها ، وتبع البراض أثره ، حتى إذا صار عروة بين ظهرانى

---

(١) الأمثال فى النثر العربى القديم ص ٦٧ .

(٢) أمثال العرب ٦٤ — ٦٨ .

قومه بجانب فدك نزلت العير فأخرج البراض قدحاً يستقسم بها فى قتل عروة ، فمر عروة به ، وقال : ما الذى تصنع يا براض قال : أستخير القداح فى قتلى إياك ، فقال : « استك أضيق من ذاك » ، فوثب البراض بسيفه إليه فضربه ضربة خمد منها ، واستاق العير ، فبسببه هاجت حرب الفجار بين حيى خندف وقيس ، فهذه فتكة البراض التى بها المثل قد سار ، وقال فيها بعض شعراء الإسلام :

والفتى من تعرقته الليالى — والفيافى كالحية النضناض
كل يوم له بصرف الليالى — فتكة مثل فتكة البراض[1]

إن العصا قرعت لذى الحلم

عمرو بن مالك بن ضبيعة[2] :

قيل إن أول من قرعت له العصا عمرو بن مالك بن ضبيعة ، أخو سعد بن مالك الكنانى ، وذلك أن سعدا أتى النعمان بن المنذر ومعه خيل له قادها وأخرى عراها فقيل له : لم عريت هذه وقدت هذه ؟ قال لم أقد هذه لأمنعها ، ولم أعر هذه لأهبها ، ثم دخل على النعمان فسأله عن أرضه . فقال : أما مطرها فغزير وأما نبتها فكثير . فقال النعمان : إنك لقوال ، وإن شئت أتيتك بما تعيا عن جوابه . قال : نعم . فأمر وصيفاً له أن يلطمه ، فلطمه لطمة . فقال : ماجواب هذه ؟ قال : رب يؤدب عبده . قال : الطمه أخرى . فلطمه . قال : ماجواب هذه ؟ قال : ملكت فأسجح ، فأرسلها مثلا . قال : النعمان، أصبت. فامكث عندى وأعجبه مارأى منه فمكث عنده ما مكث . ثم إنه بدا للنعمان أن يبعث رائدا فبعث عمرا أخا سعد فأبطأ عليه فاغضبه ذلك فأقسم لئن جاء ذاما للكلأ أو حامدا له ليقتلنه فقدم عمرو وكان سعد عندالملك فقال سعد: أتأذن أن أكلمه . قال : إذن يقطع لسانك . قال فأشير إليه قال : إذن تقطع يدك، قال فأقرع له العصا قال فاقرعها ، فتناول سعد عصاجليسه وقرع بعصاه قرعةواحدة فعرف

(١) مجمع الأمثال للميدانى ٢ : ٣٤

(٢) الميدانى ١ : ٣٩ — ٤٢ ، وجمهرة الأمثال للعسكرى ٢ : ١٢٨ .

انه يقول له مكانك ثم قرع بالعصا ثلاث قرعات ثم رفعها إلى السماء ومسح عصاه بالأرض ، فعرف انه يقول له لم أجد جدبا ثم قرع العصا مرارا ثم رفعها شيئاً وأومأ إلى الأرض فعرف انه يقول ولا نباتاً ثم قرع العصا قرعة وأقبل نحو الملك فعرف أنه يقول كلمة فأقبل عمرو حتى قام بين يدى الملك ، فقال له : أخبرنى هل حمدت خصباً او ذممت جدبا؟ فقال عمرو : لم أذمم هزلا ولم أحمد بقلا ، الأرض مشكلة ، لاخصبها يعرف ، ولا جدبها يوصف ، رائدها واقف ومنكرها عارف وآمنها خائف . قال الملك اولى لك : فقال سعد بن مالك يذكر قرع العصا :

قرعت العصا حتى تبين صاحبى ولم تك لولا ذاك فى القوم تقرع
فقال رأيت الأرض ليس بممحل ولا سارح فيها على الرعى يشبع
سواء فلا جدب فيعرف جدبها ولا صابها غيث غزير فتمرع
فنجى بها حوباء نفس كريمة وقد كاد لولا ذاك فيهم تقطع

أو عامر بن الظرب العدوانى :

وقال آخرون فى قولهم « إن العصا قرعت لذى الحلم » ، إن ذا الحلم هذا هو عامر ابن الظرب العدوانى وكان من حكماء العرب لا تعدل بفهمه فهما ولا بحكمه حكما ، فلما طعن فى السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبنيه : إنه قد كبرت سنى وعرض لى سهو فإذا رأيتمونى خرجت من كلامى واخذت فى غيره فاقرعوا لى المجن بالعصا . وقيل كانت له جارية يقال لها خصيلة فقال لها : إذا انا خولطت فاقرعى لى العصا ، وأتى عامر بخنثى ليحكم فيه فلم يدر ما الحكم فجعل ينحر لهم و يطعمهم ويدافعهم بالقضاء ، فقالت خصيلة : ما شأنك قد اتلفت مالك ، فخبرها انه لايدرى ماحكم الخنثى : فقالت اتبعه مباله ، قال الشعبى ، فحدثنى ابن عباس بها ، قال فلما جاء الإسلام صارت سنة فيه ، وعامر هو الذى يقول :

ارى شعرات على حاجبى بيضا نبتن جميعا توأما
ظللت اهاهى بهن الكلا ب احسبهن صوارا قياما
وأحسب أنى إذا ما مشيـ ـت شخصاً أمامى رآنى فقاما(١)

(١) الميدانى ١ : ٣٩ ، ٤٠ .

عند جهينة الخبر اليقين

خرج حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب ومعه رجل من جهينة يقال له الأخنس ابن كعب ، وكان الأخنس قد أحدث فى قومه حدثا فخرج هاربا فلقيه الحصين ، فقال له : من أنت ؟ ثكلتك أمك . فقال له الأخنس : بل من أنت ثكلتك أمك ، فردد هذا القول حتى قال الأخنس : أنا الأخنس بن كعب فأخبرنى من أنت وإلا أنفذت قلبك بهذا السنان ، فقال له الحصين : أنا الحصين ابن عمرو الكلابى . ويقال بل هو الحصين ابن سبيع الغطفانى ، فقال له الأخنس : فما الذى تريد ؟ قال : خرجت لما يخرج له الفتيان . قال الأخنس : وأنا خرجت لمثل ذلك ، فقال له الحصين : هل لك أن نتعاقد أن لا نلقى أحداً من عشيرتك أو عشيرتى إلا سلبناه . قال : نعم فتعاقدا على ذلك وكلاهما فاتك يحذر صاحبه ، فلقيا رجلا فسلباه فقال لهما : هل لكما أن تردا على بعض ما أخذتما منى وأدلكما على مغنم ؟ قالا نعم ، فقال هذا رجل من لخم قد قدم من عند بعض الملوك بمغنم كثير وهو خلفى فى موضع كذا وكذا ، فردا عليه بعض ماله وطلبا اللخمى فوجداه نازلا فى ظل شجرة وقدامه طعام وشراب فحيياه وحياهما وعرض عليهما الطعام فكره كل واحد أن ينزل قبل صاحبه فيفتك به فنزلا جميعا فأكلا وشربا مع اللخمى ، ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه فرجع واللخمى يتشحط فى دمه ، فقام الجهنى وهو الأخنس وسل سيفه لأن سيف صاحبه كان مسلولا وقال : ويحك فتكت برجل قد تحرمنا بطعامه وشرابه . فقال : يا أخا جهينة ، أتدرى ما صعلة وما صعل ؟ قال الجهنى : هذا يوم شرب وأكل ، فسكت الحصين حتى إذا ظن أن الجهنى قد نسى ما يراد به قال : يا أخا جهينة هل أنت للطير زاجر ؟ قال : وما ذاك ، قال : ما تقول هذه العقاب الكاسر ؟ قال الجهنى : وأين تراها ؟ قال : هى ذه ، وتطاول ورفع رأسه إلى السماء فوضع الجهنى بادرة السيف فى نحره فقال أنا الزاجر والناصر واحتوى على متاعه ومتاع اللخمى وانصرف راجعاً إلى قومه ، فمر ببطنين من قيس يقال لهما مراح وانمار ، فإذا هو بامرأة تنشد الحصين بن سبيع . فقال لها : من أنت ؟ قالت أنا : صخرة امرأة الحصين ، قال : أنا قتلته . فقالت : كذبت ما مثلك يقتل مثله ؟

أما لو لم يكن الحى خلوا ما تكلمت بهذا . فانصرف إلى قومه فأصلح أمرهم ثم جاءهم فوقف حيث يسمعهم وقال : —

وكم من ضيغم ورد هموس … أبى شبلين مسكنه العرين
علوت بياض مفرقه بعضب … فأضحى فى الفلاة له سكون
وأضحت عرسه ولها عليه … بعيد هدوء ليلتها رنين
وكم من فارس لا تزدريه … إذا شخصت لموقعه العيون
كصخرة إذ تسائل فى مراح … وأنمار وعلمهما ظنون
تسائل عن حصين كل ركب … وعند جهينة الخبر اليقين
فمن يك سائلا عنه فعندى … لصاحبه البيان المستبين
جهينة معشرى وهم ملوك … إذا طلبوا المعالى لم يهونوا

ويضرب هذا المثل فى الرجل يعرف حقيقة الأمر .

رب زارع لنفسه حاصد سواه

قاله عامر بن الظرب وذلك أنه خطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته فقال : يا صعصعة إنك جئت تشترى منى كبدى وأرحم ولدى عندى ، منعتك أو بعتك ، النكاح خير من الأيمة والحسيب كفء الحسيب والزوج الصالح يعد أبا ، وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك ، ثم أقبل على قومه فقال : يا معشر عدوان ، أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غير رغبة عنكم ولكن من خط له شىء جاءه ، رب زارع لنفسه حاصد سواه . ولولا قسم الحظوظ على غير الحدود ما أدرك الآخر من الأول شيئا يعيش به ، ولكن الذى أرسل الحيا أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلا لكل فم بقلة ومن الماء جرعة إنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذى قلب واع ولكل شىء راع ولكل رزق ساع ، إما أكيس وإما أحمق وما رأيت شيئا قط إلا سمعت حسه ووجدت مسه وما رأيت موضوعا إلا مصنوعا وما رأيت جائيا إلا ذاعيا ولا غانما إلا خائبا ولا نعمة إلا ومعها بؤس ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ، فهل لكم فى العلم العليم ؟ قيل ما هو ؟ قد قلت فأصبت وأخبرت

فصدقت . فقال : أمورا شتى وشيئا شيا حتى يرجع المبت حيا ويعود لا شيء شيا ، ولذلك خلقت الأرض والسماء ، فولوا عنه راجعين ، فقال : ويلها نصيحة لو كان من يقبلها(١) .

كل شاة برجلها معلقة

قاله وكيع بن سلمة بن زهير بن إياد وكان ولى أمر البيت بعد جرهم فبنى صرحا بأسفل مكة — عند سوق الحياطين اليوم — وجعل فيه أمة يقال لها حزورة وبها سميت حزورة مكة وجعل فى الصرح سلما فكان يرقاه ويزعم أنه يناجى الله تعالى وكان ينطق بكثير من الخير وكان علماء العرب يزعمون أنه صديق من الصديقين وكان من قوله : مرضعة أو فاطمة ووادعة وقاصمة والقطيعة والفجيعة وصلة الرحم وحسن الكلم . ومن كلامه : زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا وبالشر عقابا ، إن من فى الأرض عبيد لمن فى السماء هلكت جرهم وربلت إياد ، وكذلك الصلاح والفساد . فلما حضرته الوفاة جمع إيادا فقال لهم : اسمعوا وصيتى الكلم كلمتان والأمر بعد البيان ، من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه وكل شاة برجلها معلقة فأرسلها مثلا(٢) .

صكة عمى

يقال لقيته صكة عمى وصكة أعمى وهو أشد الهاجرة حرا ، وعمى تصغير أعمى مرخما ؛ قال اللحيانى : هى أشد ما يكون من الحر أى حين كان الحر يعمى من شدته ، وقال الفراء حين يقوم قائم الظهيرة . وعمى رجل من عدوان كان يفتى فى الحج فأقبل معتمرا ومعه ركب حتى نزلوا بعض المنازل فى يوم شديد الحر ، فقال عمى : من جاءت عليه هذه الساعة من غد وهو حرام بقى حراما إلى قابل ، فوثب الناس إلى الظهيرة يضربون أى يسيرون حتى وافوا البيت وبينهم وبينه من ذلك الموضع ليلتان

---

(١) الميدانى ١ : ٣٢٥ .
(٢) الميدانى ٢ : ٨٨ .

فضرب مثلا فقيل ، أتانا صكة عمى إذا جاء فى الهاجرة الحارة ، وفى ذلك يقول كرب بن جبلة العدوانى :

وصك بها نحر الظهيرة غائراً عمى ولم ينعلن إلا ظلالها
وجئن على ذات الصفاح كأنها نعام تبغى بالشظى رئالها
فطوفن بالبيت الحرام وقضيت مناسكها ولم يحل عقالها(١)

قد كان ذلك مرة فاليوم لا

قالته فاطمة بنت مر الخثعمية وكانت قد قرأت الكتب فأقبل عبد المطلب ومعه ابنه عبد الله يريد ان يزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب فمر على فاطمة وهى بمكة فرأت النبوة فى وجه عبد الله فقالت له : من انت يافتى ؟ فقال : انا عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، فقالت هل لك ان تقع على واعطيك مائة من الإبل ؟ فقال :

اما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تنوينه يحمى الكريم عرضه ودينه

ومضى مع ابيه فزوجه آمنة وظل عندها يومه وليلته فاشتملت بالنبى ﷺ ثم انصرف وقد دعته نفسه إلى الإبل فأتاها فلم ير منها حرصا فقال لها : هل لك فيما قلت لى ؟ فقالت : قد كان ذلك مرة فاليوم لا فأرسلت مثلا يضرب فى الندم والإبانة بعد الاجترام ثم قالت له : اى شىء صنعت بعدى ؟ قال : زوجنى ابى آمنة بنت وهب فكنت عندها ، فقالت : رأيت فى وجهك نور النبوة فأردت ان يكون ذلك فى ، فأبى الله تعالى إلا ان يضعه حيث أحب ، وقالت :

بنى هاشم قد غادرت من اخيكم امينة إذ للباه يعتلجان
وما كل ما نال الفتى من نصيبه بحزم ولا ما فاته بتوانى
فأجمل إذا طالبت امراً فإنه سيكفيكه جدان يصطرعان

---

(١) تاج العروس ٧ : ١٥٤ .

وقالت فى ذلك أيضاً :

إنى رأيت مخيلة نشأت فتلألأت بصائم القطر
لله ما زهرية سلبت ثوبيك ما استلبت وما تدرى[1]

أى الرجال المهذب ؟

أول من قاله النابغة حيث قال : —

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أى الرجل المهذب[2]

لقد استبطنتم بأشهب بازل

قاله العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه لأهل مكة أى بليتم بأمر صعب مشهور كالبعير الأشهب البازل ؛ وهو الأبيض القوى ، والباء فى « بأشهب » زائدة ، يقال : استبطنت الشىء إذا أخفيته [3] .

لا فى العير ولا فى النفير

قال المفضل : أول من قال ذلك أبو سفيان بن حرب وذلك أنه أقبل بعير قريش وكان رسول ﷺ قد تحين انصرافها من الشام فندب المسلمين للخروج معه ، وأقبل أبو سفيان حتى دنا من المدينة وقد خاف خوفاً شديداً فقال لمجدى بن عمرو : هل أحسست من أحد من أصحاب محمد ؟ فقال : ما رأيت من أحد أنكره إلا راكبين أتيا هذا المكان وأشار له إلى مكان عدى وبسبس عينى رسول الله ﷺ ، فأخذ أبو سفيان أبعاراً من أبعار بعيريهما ففتها فاذا فيها نوى فقيل : علائف يثرب ، هذه عيون محمد فضرب وجوه عيره فساحل بها وترك بدراً يساراً وقد كان بعث إلى قريش حين فصل من الشام يخبرهم بما يخافه من النبى صلى الله عليه وسلم فأقبلت قريش

---

(١) الميدانى ٢ : ٥١ — ٥٢ .
(٢) الميدانى ١ : ٢٥ .
(٣) الميدانى ٢ : ١٥٣ .

من مكة فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير ويأمرهم بالرجوع فأبت قريش أن ترجع ورجعت بنو زهرة من ثنية أجدى ، عدلوا إلى الساحل منصرفين إلى مكة ، فصادفهم أبو سفيان فقال : يا بنى زهرة لا فى العير ولا فى النفير : قالوا : أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ومضت قريش إلى بدر فواقعهم رسول الله ﷺ فأظفره الله تعالى بهم ، ولم يشهد بدراً من المشركين من بنى زهرة أحد . قال الأصمعى : يضرب هذا للرجل يحط أمره ويصغر قدره[1] .

لا قرار على زأر من الأسد

من قول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد

تمثل به الحجاج حين سخط عليه عبد الملك[2] .

لا يجمع سيفان في غمد

قال أبو ذؤيب :

تريدين كيما تجمعينى وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد[3]

ألذمن الغنيمة الباردة

قال الجاحظ : إن أهل تهامة والحجاز لما عدموا البرد فى مشاربهم وملابسهم إلا إذا هبت الشمال سموا الماء النعمة الباردة ، ثم كثر ذلك منهم حتى سموا ما غنموه « البارد » تلذذاً منهم كتلذذهم بالماء البارد[4] .

---

(١) الميد فى ٢ : ١٧٢ .
(٢) الميدانى ٢ : ١٧٦ .
(٣) الميدانى ٢ : ١٨١ .
(٤) الميدانى ٢ : ٢٠٣ .

الحرب سجال

المساجلة أن تصنع مثل صنيع صاحبك من جرى أو سقى . وأصله من السجل وهو الدلو فيها ماء قل أو كثر . ولا يقال لها وهي فارغة سجل . قال الفضل بن العباس ابن عتبة بن أبي لهب :

من يساجلني يساجل ماجداً   يملأ الدلو إلى عقد الكرب

وقال أبو سفيان يوم أحد بعد ما وقعت الهزيمة على المسلمين : اعل هبل ، اعل هبل، فقال عمر : يا رسول الله ألا أجيبه قال : بلى يا عمر ، قال عمر : الله أعلى وأجل : فقال أبو سفيان : يا ابن الخطاب إنه يوم الصمت ، يوم بيوم بدر ، وأن الأيام دول، وإن الحرب سجال . فقال عمر : ولا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار . فقال أبو سفيان : إنكم لتزعمون ذلك لقد خبنا إذن وخسرنا[١]

آكلة الشيطان

يضرب في كل شيء ذهب فلم يوجد له أثر . وآكلة الشيطان حية في الجاهلية لا يقوم لها شيء ، تأتي البيت الحرام في كل حين فتضرب بنفسها الأرض فلا يمر بها شيء إلا أهلكته[٢] .

قد صرحت بجلدان

هو حمى قريب من الطائف لين مستو ، كالراحة ، لا خمر فيه يتوارى به . يضرب للأمر الواضح البين الذى لا يخفى على أحد[٣] .

وجلدان بكسر أوله وإسكان ثانية وبالدال المهملة على وزن فعلان ، وهي أرض سهلة ولذلك قالوا : أسهل من جلدان . قال الشاعر :

ستشمظكم عن بطن وج سيوفنا   ويصبح منكم بطن جلدان مقفرا[٤]

---

(١) الميداني ١ : ٢٢٣ .   (٢) الميداني ١ : ٥١ .
(٣) الميداني ٢ : ٤٥ .
(٤) تشمظكم : تمنعكم . وج : الطائف . معجم ما استعجم ٢ : ٣٨٩ .

أعدى من الشنفرى

خرج الشنفرى هو وتأبط شراً وعمرو بن براق فأغاروا على بجيلة فوجدوا لهم رصدا على الماء ، فلما مالوا له فى جوف الليل قال لهما تأبط شرا : إن بالماء رصدا ، وإنى لأسمع وجيب قلوب القوم ، فقالا ما نسمع شيئاً وما هو إلا قلبك يجب. فوضع أيديهما على قلبه وقال : والله ما يجب وما كان وجابا ، قالوا : فلا بد لنا من ورود الماء . فخرج الشنفرى فلما رآه الرصد عرفوه فتركوه حتى شرب من الماء ورجع إلى أصحابه فقال : والله مابالماء أحد ولقد شربت من الحوض ، فقال تأبط شرا للشنفرى: بلى ولكن القوم لايريدونك وإنما يريدوننى ثم ذهب ابن براق فشرب ورجع ولم يعرضوا له فقال تأبط شرا للشنفرى : إذا أنا كرعت فى الحوض فإن القوم سيشدون على فيأسروننى ، فاذهب كأنك تهرب ثم كن فى أصل ذلك القرن ، فإذا سمعتنى أقول خذوا خذوا فتعال فاطلقنى . وقال لابن براق : إنى سآمرك أن تستأسر للقوم فلا تنأ عنهم ولا تمكنهم من نفسك ثم مر تأبط شرا حتى ورد الماء فحين كرع فى الحوض شدوا عليه ، فأخذوه وكتفوه بوتر ، وطار الشنفرى فأتى حيث أمره وانحاز ابن براق حيث يرون فقال تأبط شرا : يامعشر بجيلة هل لكم فى خير أن تياسرونا فى الفداء ويستأسر لكم ابن براق قالوا : نعم . فقال ويلك يا ابن براق أما الشنفرى فقد طار وهو يصطلى نار بنى فلان وقد علمت ما بيننا وبين أهلك ، فهل لك أن تستأسر ويأسرونا فى الفداء ؟ قال : لا والله حتى أروز نفسى شوطاً أو شوطين فجعل يستن نحو الجبل ويرجع حتى إذا رأوا أنه قد أعيا طمعوا فيه فاتبعوه ونادى تأبط شرا خذوا خذوا فخالف الشنفرى إلى تأبط شرا فقطع وثاقه فلما رآه ابن براق وقد خرج من وثاقه مال إلى عنده فناداهم تأبط شرا يا معشر بجيلة أعجبكم عدو ابن براق أما والله لأعدون لكم عدوا ينسيكم عدوه . ثم احضروا ثلاثتهم فنجوا . فكل هؤلاء الثلاثة كانوا عدائين ولم يسر المثل إلا بالشنفرى[١] .

---

(١) الميدانى ١ ، ٥٠٧ .

إن البيع مرتخص وغال

قالوا : أول من قال ذلك أحيحة بن الجلاح الأوسي سيد يثرب ، وكان سبب ذلك أن قيس بن زهير العبسي أتاه وكان صديقاً له لما وقع الشر بينه وبين بني عامر وخرج إلى المدينة ليتجهز لقتالهم حيث قتل خالد بن جعفر زهير بن جذيمة فقال قيس لأحيحة : يا أبا عمرو ، نبئت أن عندك درعاً فبعنيها أو هبها لي . فقال : يا أخا بني عبس ليس مثلي يبيع السلاح ولا يفضل عنه ولولا أني أكره أن أستلئم إلى بني عامر لوهبتها لك ولحملتك على سوابق خيلي ، ولكن اشترها بابن لبون فإن البيع مرتخص وغال ، فأرسلها مثلا ، فقال له قيس : وما تكره من استلامك إلى بنو عامر ؟ قال : كيف لا أكره ذلك وخالد بن جعفر الذي يقول(١) :

إذا ما أردت العز في دار يثرب ... فناد بصوت يا أحيحة تمنع
رأينا أبا عمرو أحيحة جاره ... يبيت قرير العين غير مروع
ومن يأته من خائف يلس خوفه ... ومن يأته من جائع البطن يشبع
فضائل كانت للجلاح قديمة ... وأكرم بفخر من خصالك أربع

كل الصيد في جوف الفرا

قال ابن السكيت : الفرا الحمار الوحشي وجمعه فراء وأصله أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين . فاصطاد أحدهم أرنبا ، والآخر ظبياً ، والثالث حماراً . فاستبشر صاحب الأرنب ، وصاحب الظبي بما نالاه وتطاولا عليه . فقال الثالث : «كل الصيد في جوف الفرا» ، أي هذا الذي رزقت وظفرت به يشتمل على ما عندكما . وذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي . قاله النبي (ص) لأبي سفيان يتألفه . ويلوح لنا أن المثل قديم . ويضرب لمن يفضل على أقرانه(٢) .

---

(١) الميداني ١ : ٢١ .
(٢) الميداني ٢ : ٨٢ .

إنما النشيد على المسرة

قاله الشنفرى قبيل قتله . وذلك أن نفراً من بنى سلامان الذين كان يغير عليهم فيمن تبعه من قبيلته فهم حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا ، فكمنوا له واحتالوا عليه حتى أسروه وأدوه إلى أهلهم : وقالوا له أنشدنا ، فقال ، « إنما النشيد على المسرة » فذهبت مثلا . ثم ضربوا يده فقطعوها ثم قالوا له حين أرادوا قتله ، أين نقبرك ؟ فقال :

لا تقبرونى إن قبرى محرم ... عليكم ولكن أبشرى أم عامر
إذا احتملت رأسى وفى الرأس أكثرى ... وغودر عند الملتقى ثم سائرى
هنالك لا أرجو حياة تسرنى ... سجيس الليالى مبسلا بالجرائر(١)

أحمى من مجير الظعن

هو ربيعة بن مكدم الكنانى ومن حديثه فيما ذكر أبو عبيدة أن نبيشة بن حبيب السلمى خرج غازيا فلقى ظعناً من كنانة بالكديد فأراد أن يحتويها فمانعه ربيعة بن مكدم فى فوارس وكان غلاماً له ذؤابة . فشد عليه نبيشة فطعنه فى عضده فأتى ربيعة أمه وقال ، شدى على العصب أم سيار فقد رزقت فارساً كالدينار فقالت أمه :

إنا بنى ربيعة بن مالك ... برزأ فى خيارنا كذلك
من بين مقتول وبين هالك

ثم عصبته فأسقاها ماء . فقالت ؛ اذهب فقاتل القوم فإن الماء لا يفوتك فرجع وكر على القوم فكشفهم ورجع إلى الظعن وقال : إنى لمائت وسأحميكن ميتا كما حميتكن حياً أن أقف بفرسى على العقبة واتكى على رمحى فإن فاضت نفسى كان الرمح عمادى فالنجاء النجاء فإنى ارد بذلك وجوه القوم ساعة من النهار فقطعن العقبة ووقف بإزاء القوم على فرسه متكئاً على رمحه

---

(١) الميدانى ، وبلوغ الأرب ص ١٤٦ ج ٢ .

ونزفه الدم فغاظ والقوم بإزائه يحجمون عن الإقدام عليه فلما طال وقوفه فى مكانه ورأوه لا يزول عنه رموا فرسه فقمص وخر ربيعة لوجهه فطلبوا الظعن فلم يلحقوهن، ثم إن حفص بن الأحنف الكنانى مر بجيفة ربيعة فعرفها فأمال عليها أحجاراً من الحرة وقال يبكيه:

لا يبعدن ربيعة بن مكدم — وسقى الغوادى قبره بذنوب
نفرت قلوصى من حجارة حرة — بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفرى ياناق منه فانه — شراب خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعده من مهمه — لتركتها تحبو على العرقوب

قال أبو عبيدة قال أبو عمرو بن العلاء: ما نعلم قتيلا حمى ظعائن غير ربيعة ابن مكدم[1].

أشبه امرأ بعض بزه

وهو مثل أرسله ذو الإصبع العدوانى، وقصته أن ذا الإصبع بعد أن زوج بناته الأربع مكثن برهة ثم اجتمعن إليه، فقال للكبرى: يا بنية، ما مالكم؟ قالت: الإبل قال: فكيف تجدونها؟ قالت خير مال، نأكل لحومها مزعا ونشرب ألبانها جرعا، وتحملنا وضعيفنا؛ قال فكيف تجدين زوجك؟ قالت: خير زوج يكرم الحليلة، ويعطى الوسيلة[2]؛ قال: مال عميم وزوج كريم. ثم قال للثانية: يا بنية ما مالكم؟ قالت البقر؛ قال فكيف تجدونها؛ قالت: خير مال، تألف الفناء وتودك السقاء[3]، وتملأ الإناء، ونساء فى نساء؛ قال: فكيف تجدين زوجك؟ قالت: خير زوج يكرم أهله، وينسى فضله؛ قال حظيت ورضيت. ثم قال للثالثة ما مالكم؟ قالت: المعزى؛ قال: فكيف تجدونها؟ قالت: لا بأس بها نولدها فطما، ونسلخها أدما قال: فكيف

---

(١) الميدانى ١: ٢٣١.
(٢) الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير.
(٣) تودك السقاء: تجعل فيه الودك وهو الدسم.

تجدين زوجك؟ قالت لا بأس به ليس بالبخيل الحكر[1] ولا بالسمح البذر، قال جدوى مغنية .

ثم قال للرابعة : يا بنية ما مالكم؟ قالت الضأن ؛ قال وكيف تجدونها؟ قالت : شر مال، جوف[2] لا يشبعن ، وهيم[3] لا ينقعن ، وصم لا يسمعن[4] وأمر مغويتهن يتبعن ؛ قال : فكيف تجدين زوجك؟ قالت : شر زوج ، يكرم نفسه، ويهين عرسه، قال : « أشبه امرأ بعض بزه[5] » . وفى رواية « أشبه امرؤ بعض بزه » وأرسله مثلا .

أساء سمعا فأساء إجابة

قال ذلك سهيل بن عمرو وقد خرج ذات يوم ومعه ابنه أنس فأقبل ابن شريق الثقفى وقال لسهيل من هذا؟ قال سهيل : هو ابنى فقال ابن شريق الثقفى : حياك الله يا فتى ، فقال الفتى : لا والله ما أمى فى البيت ، إنما انطلقت إلى أم حنظلة تطحن دقيقا، فقال أبوه : أساء سمعاً فأساء إجابة . . . فأرسلت مثلا .

---

(١) الحكر : المستبد بالشىء .

(٢) جوف : عظام الأجواف .

(٣) هيم لا ينقعن : عطاش لا يروين .

(٤) شبهت الضأن بما لا يسمع لبلادتها والعرب تقول : « أبلد ما يرعى الضان » .

(٥) الأغانى ص ٩٥ - ٩٦ ج ٣ ط دار الكتب ، والكامل للمبرد ص ٣١٨ ج ١ ط أوربا ، والميدانى ج ١ .

الفصل الثانى

الخطب والوصايا

تمهيد :

الخطابة فن من فنون النثر، ولون من ألوانه، وهى فن مخاطبة الجمهور الذى يعتمد على الإقناع والاستمالة والتأثير ، فهى كلام بليغ يلقى فى جمع من الناس لإقناعهم برأى أو استمالتهم إلى مبدأ ، أو توجيههم إلى ما فيه الخير لهم فى دنيا أو آخرة .

والخطابة ضرورية لكل أمة فى سلمها وحربها ، فهى أداة الدعوة إلى الرأى والتوجيه إلى الخير ، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين ، والزعماء والمصلحين ، فهى ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية .

وإنما تقوى الخطابة ويرتفع صوتها فى زمن الحرية ، وفى ظلال الديمقراطية ، حيث تستطيع الأمة أن تتنفس بآمالها ومشاعرها ، وتنطلق من قيود الذل والظلم ، إلى حيث تتكلم أفواهها بما تجيش به الخواطر ، وتضطرم به النفوس ، وتتجه إليه الآمال فى ظلال الحرية ، تتقارع الآراء ، وتتصارع الأفكار ، وتتنازع المبادىء ، وتتنافس المذاهب ، وتتعدد الخصومات ، وفى ذلك كله غذاء للخطابة ، ومدد لها وداع إليها .

والخطابة إما سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وقد ازدهرت فى العصر الحديث الخطابة القضائية والبرلمانية . وفن الخطابة قديم وجد فى الأمم القديمة كقدماء المصريين واليونان والرومان .

وكان للخطابة شأن عظيم فى العصر الجاهلى ، وكان للخطيب مركز ممتاز لا يقل عن مركز الشاعر ، حتى إن أبا عمرو بن العلاء يقول : إن الخطيب فى الجاهلية كان فوق الشاعر(١) .

---

(١) ١٧٠ جـ١ البيان والتبيين .

ولا بـــدع ، فنحن نعلم أن العرب كانوا قبائل متناحـــرة متنازعة ، تقتتل لأوهى الأسباب ، وأتفه الأمور ، ومن أبرز شمائلهم العزة والأنفة، والنفور من العار وحماية الجار والحرص على الأخذ بالثأر ، والمباهاة بالعصبية ، والمفاخرة بالنسب ، والتشدق بالبيـان . فالخطـابة إذن ضرورة من ضروراتهم وحاجة من حاجاتهم . يتخذونها في السلم أداة للمفاخرة والمنافرة ويصطنعونها في الحرب لتثبيت الجنان وتحميس الجبان ، وبعث الحمية في النفوس . وجمع الـكلمة وتوحيد الصفوف .

ولهذا علت منزلة الخطيب . وراح الشعراء يفتخرون بالخطابة . ويتغنون بها فيما يتغنون به من المفاخر .

وقد زادها رفعـة أنهـا كانت لسان الأشراف والرؤساء والنابهين من القبائل ، يفضلونها على الشعر الذي غض منه امتهان الشعراء له بالتـكسب والارتزاق .

فازدهار الخطابة إذن في الجاهلية يرجع إلى الحرية التي لا يحدها سلطان ولا تقيدها حـكومة ، وإلى القتال الدائم بين القبائل وما يتطلبه من تحميس أو حض على ثأر ، وإلى حب المفاخرة المتأصل في العرب ، وإلى تأصل ملـكة البيان فيهم ، وقدرتهم على التصرف في وجوه القول وتشقيق الـكلام ، وإلى ابتذال الشعر آخر الأمر بالتـكسب واختصاص الرؤساء والزعماء بها .

وهـكذا كانت موضوعاتها تدور حول الحث على القتال والأخذ بالثأر ، والدعوة إلى الصلح بالتنفير من الحرب وويلاتها ، والمفاخرة بالمـكارم والعصبيات ، والسفارة بين القبائل العربية ، أو بينها وبين جيرانها : في التعازي والتهاني والاستنجاد وتأمين السبل وحراسة التجارة . وكان من موضوعاتها خطب النـكاح ، كما كانت تتناول الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ، والتبشير برسوله كما سنرى في خطب دعاة التوحيد ، مثل : قس بن ساعدة ، وأكثم بن صيفي ، والمأمور الحارثي .

والخطب الجاهلية قصيرة بوجه عام ، وفي الغالب . ولعل ذلك راجع إلى إيثار الإيجاز ورغبتهم في حفظها وانتشارها . قيل لأبي عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ فقال : نعم ليسمع منها ، فقيل له : وهل كانت توجز ؟ فقال : نعم ليحفظ عنها ولـكل مقام .

أما الخطيب فكانوا يشترطون فيه السيادة فى القوم ، والكـــرم فى الخلق ، والعمل بما يقول ، ولا بد أن يكون جهير الصوت ، رابط الجأش ، ثابت الجنـان ، قوى الحجة ، فصيح اللسان ، قليل الحركة ، حسن السمت ، جميل المظهر . وكان من عادته أن يقف على نشز[1] مرتفع معتجراً بعامته ، قابضاً بيده على سيف أو عصا . وذلك كله للتأثير بإظهار الملامح ، وإبعاد مدى الصوت . ومنهم من كان يمسك العصا فى السلم والقوس فى الحرب .

ويظهر أنهم كانوا يرتجلون القول ارتجالا . بلا معاناة ولا مكابدة . وإنما يصرفون الهمم إلى الغرض . فتأتى المعـانى متدفقة ، وتنثال الألفاظ انثيـــالا ، كما يقول الجاحظ[2] . ويشيع فى الخطابة الجاهلية السجع ، وقصد التجويد والتحبير . والمأثور من خطب الجاهليين ، قليل أقل من الشعر المروى عنهم ، والسبب فى ذلك صعوبة حفظ النثر بعدم تقيده بوزن أو قافية ، وسرعة نسيانه ، وعدم تدوينه ، لأميتهم وغير ذلك ، مما أدى إلى ضياع الكثير من الخطب . واختلاف الرواية فيما بقى منها بطول العهد وتناقل الرواة .

دفاع عن الخطابة الحجازية :

يقول الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى : « كان فى العرب قبل الإسلام خطباء ، ولكنى لا أتردد فى أن خطابتهم لم تكن شيئاً ذا غناء ، وإنما الخطابة العربية فن إسلامى خالص ، وذلك أن الخطابة ليست من هذه الفنون الطبيعية التى تصدر عن الشعوب عفوا : يغنى بها الأفراد لنفسها ، وإنمـا هى ظـاهرة اجتماعية ملائمة لنوع خاص من الحياة ، وكل الحياة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام لم تكن تدعو إلى خطابة قوية ممتازة ، فالحواضر كانت حواضر تجـارة ومال واقتصاد ، ولم

(١) نشز : مرتفع ، وهذه العادة فى عهد الرواج .

(٢) ويرى بعض الباحثين أن خطباء العرب كانوا يذهبون مذهب أصحاب التجويد والتحبير ، وأنهم صاغوها صياغة فنية وهذا بعيد (الفن ومذاهبه فى النثر العـــربى ص ١٢ — ١٤ (لشوقى ضيف) .

يكن للحياة السياسية فيها خطر يذكر ولم تكن لهم حياة دينية قوية تحتاج إلى إلقاء الخطب كما تعود النصارى والمسلمون . وأهل البادية كانوا فى حرب وغزو وخصومات ، وهذا يدعو إلى الحوار والجدال لا إلى الخطابة ، فالخطابة تحتاج إلى الاستقرار والثبات والاطمئنان إلى الحياة المدنية المعقدة ، وأنت لا ترى عند اليونان خطابة أيام الملوك ولا أيام البداوة ولا أيام الطغيان ؛ وإنما الخطابة اليونانية ظاهرة ملازمة للحياة السياسية العامة ولم يعرف الرومان الخطابة أيام البداوة ولا أيام الملوك ولا أيام الجمهورية الأرستقراطية ، وإنما عرفوها حين تعقدت حياتهم السياسية وظهرت فيهم الخصومات الحزبية ، ولم تظهر الخطابة فى أوربا إلا فى العصر الديمقراطى حين نضجت الحياة السياسية واشتركت فيها الشعوب . . . فلا تصدق إذن أنه قد كانت للعرب فى الجاهلية خطابة ممتازة إنما استحدثت الخطابة فى الإسلام ، استحدثها النبى والخلفاء ، وقويت حين ظهرت الخصومة السياسية الحزبية بين المسلمين »[1] .

ولسنا نوافق الدكتور طه حسين على هذا التهوين من شأن الخطابة الجاهلية :

١ — فقد علمنا أن الأمة العربية أمة حربية توفرت لديها دواعى الخطابة من الأنفة من العار ، والأخذ بالثأر ، والتفاخر بالأنساب ، وكانت لها أيام حربية ووقائع لا تنتهى دعت إليها حياتهم وطبيعة بيئتهم وبداوتهم ، وهذه المقامات تستدعى الخطابة وتجعلها قوية مزدهرة . ولقد كانوا يتنازعون السلطة فى الرفادة والحجابة وغيرهما . وكان اتصالهم السياسى بالأمم المجاورة كالفرس والروم مدعاة إلى هذه الحروب والأيام المشهورة التى كان صوت الخطابة فيها قوياً بجانب الشعر .

٢ — ومع هذه النهضة السياسية كانوا على جانب من الحضارة اكتسبوه من اليمن وهذه الأمم المجاورة التى اتصلوا بها واشتبكوا معها فى الحروب . فقد تهيأ لهم ما ينكره الدكتور طه من الحضارة والتنازع السياسى والدينى .

٣ — على أنه لا يعقل أن تظفر الخطابة ، من ضعفها الذى يدعيه ، إلى هذه

---

(١) ٣٧٤ الأدب الجاهلى لطه حسين .

القوة العظيمة التى يعترف بها هو فى صدر الإسلام . وإلا فكيف تكون شيئاً مذكور من شىء لا غناء فيه ؟

٤ - ولقد اتفق علماء الأدب الأقدمون على قوة الخطابة الجاهلية وازدهارها . وهذا هو الجاحظ : يصف الخطباء الجاهليين وحركاتهم ومواقفهم وأزياءهم ومزاياهم، ويروى فى ذلك الكثير من الأشعار التى يستشهد بها . فكيف يشيد الجاحظ وأمثاله بشىء لا غناء فيه ؟

كل ذلك يدلنا على أن الخطابة بلغت من الرقى مبلغاً عظيما قبل الإسلام ، وخاصة فى الحجاز

خصائص الخطابة الحجازية :

تمتاز الخطابة الحجازية بأن ألفاظها كانت تأتى كثيراً سهلة جميلة واضحة كما ترى فى خطب أبى طالب وما شابهها .

ولم يكن الجاهليون يتأنقون فى اختيار اللفظ ذى النغمة المتشابهة أو الجرس المتآلف ، وكانوا لا يقصدون إلى المحسنات البديعية أو يتعمدونها ، ويقل الترادف فى نثرهم ، إذ كانوا يؤثرون الإيجاز فى كلامهم .

وتمتاز هذه الخطب أيضاً بوضوح المعانى وقربها وصدقها ، كما رأينا ، لأنها تمثل حياتهم البسيطة الواضحة التى لا تعقيد فيها ولا التواء ، فهم لا يبالغون ولا يهولون ، وإنما يعبرون عما يشعرون به فى بساطة ودون تكلف ، فمتى فهم اللفظ اتضح معناه دون معاناة فى فهمه .

ويغلب على الخطب الحجازية السجع كما فى خطب هاشم وعبد المطلب . وأحياناً تجىء مرسلة أو مترددة بين الإرسال والازدواج أو السجع كما ترى فى خطبة أبى طالب : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل . . . الخ » .

ويشيع فى النثر الحجازى بألوانه قصر الجمل ، والايجاز ، وإيثار الكناية الغريبة على التصريح ، وتكثر فيه الحكم والأمثال كما رأينا فى معظمها ، وقد تأتى الخطبة كلها حكما وأمثالا .

ونلاحظ على الخطب الحجازية الجاهلية ضعف الربط وعدم التماسك بين الجمل، وعدم وحدة الموضوع فى بعض الأحيان كما كان أيضاً فى الوصايا، ولعل ذلك راجع إلى الارتجال الذى تقسم به حياتهم، وإلى كثرة الحكم والأمثال التى تشيع فى خطبهم، والتى لا يمكن الربط بينها، فإننا لو قدمنا بعضها وأخرنا البعض لم يختل المعنى ولا نظام الخطبة .

وأخيراً تتسم الخطب الحجازية الجاهلية بقوة التأثير وحرارة العاطفة . وبالاشراق والبيان والعذوبة والبلاغة والحكمة، وبالحض على الخير وعلى عمل المعروف .

أشهر الخطباء الحجازيين فى العصر الجاهلى

١ ـ كعب بن لؤى القرشى[١]:

من أجداد رسول الله صلوات الله عليه، وأحد خطباء العرب المشهورين، وكان أبوه لؤى كذلك من خطباء العرب[٢]، وكعب فى الذروة من المجد والسيادة فى قريش ومكة والحجاز، بل العرب عامة، وكان على الحنيفية البيضاء دين إبراهيم وإسماعيل .

وكانت قريش تجتمع عليه كل جمعة، فيخطبهم خطبة، يأمرهم فيها بالإطاعة والفهم والتعلم والتفكر فى خلق السموات والأرض، والاعتبار بأحداث التاريخ وعظاته، ويحضهم على صلة الرحم، وإفشاء السلام، وحفظ العهد، والتصدق عن الفقراء والأيتام، ويذكرهم بالموت واليوم الموعود، ويبشرهم بمبعث رسول قد قرب زمانه، وأنه سيكون من ولده، ويحثهم على اتباعه إن أدركوه، وأنه يخرج من بيت الله الحرام، ويقول الجاحظ فيه . كان يخطب

---

(١) راجع ٢٨١ / ٢ بلوغ الارب، الروض الانف، الطبرى، الكامل لابن الاثير، ٢١١ / ١ صبح الاعشى، البيان والتبيين للجاحظ ٢٢٦ / ١ .

(٢) الروض الانف، ١/٢٣ البيان والتبيين للجاحظ .

العرب عامة ، ويحض كنانة خاصة على البر ، فلما مات أكبروا وفاته ، فلم تزل كنانة تؤرخ بموته إلى عام الفيل[1] .

٢ — هاشم بن عبد مناف القرشي :

سيد قريش والحجاز والعرب عامة ، ملك بعد أبيه الرفادة والسقاية وصارت له السيادة على مكة ، وكان يحمل ابن السبيل ، ويؤدى الحقوق ، وضرب بسخائه المثل ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وكان يصنع الطعام لحجاج بيت الله ، ويسمى ذلك « الرفادة » . ويروى أنه كان إذا أهل هلال ذى الحجة ، قام فى الصباح فأسند ظهره إلى الكعبة وخطب العرب وقريشا . . ومن خطبه هذه الخطبة الشريفة :

يا معشر قريش :

إنكم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسط العرب أنسابا ، وأقرب العرب بالعرب أرحاما .

يا معشر قريش :

إنكم جيران بيت الله ، أكرمكم الله بولايته ، وخصكم بجواره ، دون بنى إسماعيل ، وإنه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته ، فهم أضيافه ، وأحق من أكرم أضياف الله أنتم ، فأكرموا ضيفه وزواره ، فإنهم يأتون شعثا غبرا من كل بلد على ضوامر[3] كالقداح ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فورب هذه البنية[4] لو كان لى مال يحتمل ذلك لكفيتكموه ، وأنا مخرج من طيب مالى وحلالى ما لم يقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله

(١) ١/٢٢٦ البيان والتبيين .

(٢) ١/٢٢١ بلوغ الارب ، الروض الانف ، الطبرى ، ابن الأثير ، ٤٥٨/ ٢ ابن أبى الحديد ، شفاء الغرام للفاسى .

(٣) جمع ضامر : الجمل المهزول .

(٤) الكعبة .

لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ غصبا .

فكانوا يجتهدون فى ذلك ، ويخرجون من أموالهم ، فيضعونه فى دار الندوة .

٣ — عبد المطلب بن هاشم القرشى :

جد الرسول ، ومن حكام قريش وأشرافها وسادتها ، وكان يسمى « شيبة الحمد » لكثرة حمد الناس له إذ كان مفزع قريش فى الخطوب ، وملاذها فى النائبات ، وملجأها فى المعضلات ، وكان كذلك يدعى « الفياض » لجوده .

وكان من حلماء قريش وحكمائهم وفصحائهم وخطبائهم ، حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية ، وكان يتلألأ النور فى وجهه ، وتلوح سمات الخير والمجد والسيادة فى أساريره ، وكان يأمر ولده بترك البغى والظلم ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن سفاسف الأمور ، وكان يقول فى وصاياه : من يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة ، وكان يقول والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسىء بإساءته .

وكان مجاب الدعاء ، وهو أول من تعبد بحراء ، وكان يعبد الله على الحنيفية ، دين إبراهيم وإسماعيل ، وكانت قريش تستسقى به عندما يصيب الناس قحط ، وكان إذا رأى هلال رمضان صعد إلى حراء يطعم المساكين .

وقد ورث عبد المطلب السقاية والرفادة والرياسة عن أبيه ، وعقد المعاهدات مع ملوك الشام وأقيال حمير باليمن وصارت رحلته إليهما ، وهو الذى حفر بئر زمزم ، ووضع الحجر فى الركن .

وكان مهيب الجانب ، مرهوب الكلمة ، سيدا عظيم القدر ، مطاع الأمر ، نجيب النسل ، مر به أعرابى ، وهو جالس فى الحجر ، وأبناؤه حوله كالأسد ، فقال : إذا أحب الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء ، فأنشأ الله تعالى لهم بالنبوة دولة عرضها المشرق والمغرب .

وقد رفض عبد المطلب عبادة الأصنام ، ووحّد الله ، وأوصى بالوفاء بالنذر

ونهى عن نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، ونهى عن قتل الموءودة ، وحرم الخمر والزنا ، ونهى أن يطوف إنسان بالبيت وهو عريان . ومن خطبه خطبته عند سيف بن ذى يزن ؛ روى أنه لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة ؛ وأجلاهم عن اليمن أتته وفود العرب للتهنئة ، وكان فيهم وفد من قريش ، وسيدهم هو عبد المطلب بن هاشم فلما مثلوا بين يديه قال عبد المطلب :

إن الله تعالى أيها الملك أحلك محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، باذخا شامخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، ونبل أصله ، وبسق فرعه ، فى أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت — أبيت اللعن — رأس العرب ، وربيعها الذى به تخصب ، وملكها الذى به تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلفه ، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا بكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة .

٤ - ابو طالب بن هاشم بن عبد مناف[(١)] :

عم الرسول وكافله بعد عبد المطلب ، وراعيه وحاميه ، ولد قبل مولد الرسول بخمس وثلاثين سنة ؛ وتوفى فى النصف من شوال فى السنة العاشرة من البعثة عن أكثر من خمس وثمانين سنة .

وكان من حكام قريش ، ونصر رسول الله وآزره حين قام بالدعوة ، وهو الذى مزق صحيفة قريش التى علقوها على الكعبة بمقاطعة بنى هاشم ، فزادهم ذلك بغيا وعدوانا ، فقال أبو طالب : يا معشر قريش : علام نحصر ونحبس ، وقد بان الأمر ، وتبين أنكم أهل الظلم والقطيعة ، ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة وهو يقول : اللهم انصرنا على من ظلمنا ، وقطع أرحامنا ، واستحل ما يحرم عليه منا .

(١) ٣٢٤ / ١ بلوغ الارب — الطبرى — ابن الأثير ، ابن أبى الحديد الجزء الثالث ٢١٢ / صبح الاعشى .

ولما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قريش وأوصاهم باتباع محمد ، وستأتى هذه الوصية فيما بعد، وله خطبة مأثورة رويت له عند خطبته خديجة لابن أخيه محمد بن عبد الله .

خطباء مشهورون :

ومن خطباء العرب عامة ومشهوريهم : قس ، وأكثم ، وكان قس يقيم فى الحجاز وكان أكثم يتردد كثيرا عليه .

١ — أما قس بن ساعدة الأيادى :

فقد كان من حكماء العرب ، وأعقل من سمع به منهم ، وأول من كتب من فلان إلى فلان ، وأول من أقر بالبعث عن غير علم ، وأول من قال : أما بعد ، وأول من قال : البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، وقد عمر ثمانين ومائة سنة(١) ، ولما قدم وفد إياد على النبي ﷺ وفرغ من حوائجهم قال : هل فيكم من يعرف قس بن ساعدة ؟ قالوا كلنا نعرفه ، قال : فما فعل ؟ قالوا : هلك ؛ فقال كأنى به على جمل أحمر قائما يقول :

أيها الناس ، اجتمعوا واستمعوا وعوا ، كل من عاش مات ، وكل من مات فات ؛ وكل ما هو آت آت . إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، وبحار تموج ، وتجارة تروج ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، أقسم قس حقا ، لئن كان فى الأرض رضا ، ليكونن بعد سخط ، وإن لله — عزت قدرته — دينا ، هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ !

ثم ساق أبو بكر — رضى الله عنه — شعره فى هذه الخطبة ، وهو مشهور ،

(١) وقال المرزبانى : زعم كثير من العلماء أنه عمر ستمائة ؟ وكان حكيما عاقلا حليما ، له نباهة وفضل وقد ضرب به المثل فى الحلم والخطابة قال الحطيئة :

وأقول من قس وأمضى إذا مضى ... من الرمح إذ مس النفوس نكالها

وراجع الكلام على قس وبلاغته فى « بلوغ الأرب » ص ١٥٥ / ٣ و ٢٢٤ / ٢

وقد رويت هذه الخطبة بروايات أخرى في صبح الأعشى ، والبيان والتبيين ، والأغاني وغيرها ، وفي بعض هذه الروايات : أن الرسول سأل : من يحفظها منكم ؟ فرواها بعضهم له .

٢ — وأما أكثم بن صيفي التميمي :

فهو وإن كان ليس من القبائل الحجازية ، لكنه تردد على الحجاز كما استفاضت الروايات بذلك ، وطارت شهرته وصار يعد حكيم العرب عامة كما كان من أبلغ حكماء العرب ، وأعرفهما بأنسابها ، وأكثرها ضرب أمثال ، وإصابة رأى ، وقوة حجة ، وكان خطيبا مفوها ، وحكما موفقا ، رفيع المكانة في قومه ، يعد من أشرافهم ومن كبار المحكمين فيهم ، وقل من جاراه من خطباء عصره في معرفة الأنساب ، وضرب الأمثال ، والاهتداء لحل المشكلات ، والسداد في الرأى وهو زعيم الخطباء المصاقع [١] الذين أوفدهم النعمان على كسرى وكلهم خطباء بلغاء ، ولسن مقاول ، ولقد بلغ من إعجاب كسرى به أنه قال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى .

وقد عاش في الجاهلية وعمر طويلا حتى أدرك مبعث النبي ﷺ ، وجمع قومه وحثهم على الإيمان به .

وكان قليل المجاز حسن الإيجاز ، حلو الألفاظ ، دقيق المعاني ، مولعا بالأمثال ، لا يلتزم السجع ، يميل إلى الإقناع بالبرهان ، ويعتمد في خطابته على قوة تأثيره وشدة عارضته [٢] لا على المبالغة والتهويل فهو هو في وصاياه وخطبه وحكمه قوى الأسلوب بليغ الأداء عميق الفكرة دقيق المعنى مشرق الديباجة محكم النسج .

ومن صور خطابته ما يروى عنه أنه قال من خطبته أمام كسرى :

إن أفضل الأشياء أعاليها . وأعلى الرجال ملوكهم وأفضل الملوك أعمها نفعاً ،

---

(١) المصاقع : جمع مصقع وهو البليغ أو العالي الصوت أو الذي لا يرتج عليه في كلامه ولا يتعتع

(٢) العارضة : البيان واللسن والجلد والصرامة والقدرة على الكلام .

وخير الأزمنة أخصبها . وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة . والكذب مهواة . والشر لجاجة(١) ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء(٢) . آفة الرأى الهوى . والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة(٣) ، وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بطانته كان كالغاص(٤) بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها ، وشر الملوك من خافه البرىء . الصمت حكم(٥) وقليل فاعله .

ومن وصية لأكثم بن صيفى :

تباروا فإن البر يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقاً ، الصدق منجاة ، لا ينفع التوقى مما هو واقع ، فى طلب المعالى يكون العناء ، الاقتصاد فى السعى أبقى للجمام ، أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ، ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا أقبل ؛ وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق ، البطر عند الرخاء حمق ، والعجز عند البلاء أمن ، لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير ، لا تجيبوا فيما لا تسألون عنه ، ولا تضحكوا مما لا يضحك منه ، حيلة من لا حيلة له الصبر ، إن تعش تر ما لم تره ، المكثار كحاطب ليل ، من أكثر أسقط ، لا تجعلوا سراً إلى أمة(٦) .

وعزى أكثم ملك العرب عمرو بن هند عن أخيه فقال : أيها الملك ، إن أهل هذه الدار سفر ، لا يحلون عقد الترحال إلا فى غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سيظعن عنك

---

(١) اللجاجة : التمادى فى الخصومة والنزاع والنقاش .

(٢) سهل .

(٣) الورطة : الهلكة ، وكل أمر تعسر النجاة منه .

(٤) الشرق بالماء .

(٥) الحكم : الحكمة ، ومنه قوله تعالى « وآتيناه الحكم صبياً » ، والمعنى الصمت حكمة وقل من يفعله .

(٦) ٢ : ١٣٥ مجمع الأمثال .

ويدعك ، إن الدنيا ثلاثة أيام : فأمس عظة وشاهد عدل ، فجعك بنفسه ، وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلته ، وغد لاتدرى من أهله ؟ وسيأتيك إن وجدك ، فما أحسن الشكر للمنعم ، والتسليم للقادر ، وقد مضت أصول نحن فروعها فما بقاء الفروع بعد أصولها !.

وقد أدرك أكثم بعثة الرسول ، وبعث ابنه حبيشا ليأتيه بخبره ، فلما رجع جمعهم وخطبهم قائلا : كما فى الجزء الثانى من مجمع الأمثال(١) : يابنى تميم ، لاتحضرونى سفيها ، فإنه من يسمع يخل(٢) ، إن السفيه يوهن من فوقه ، ويثبط من دونه ، لاخير فيمن لا عقل له ، كبرت سنى ، ودخلتنى ذلة ، فاذا رأيتم منى حسنا فاقبلوه ، وإن رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقم ، إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره وكتابه ، يأمر فيه بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه . إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم ، فان يكن الذى يدعو إليه حقا فهو لكم دون الناس ، وإن

---

(١) رواها أبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى برواية أخرى جـ ٢ صـ ٢٤٧ ، وزاد أنه خرج إلى النبى صلى الله عليه وسلم فمات عطشا ، وأوصى من معه باتباع النبى وأشهدهم على إسلامه ونزل فيه : (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله . .) الآية ، ومن عجب أن نرى أكثر الحكم العربية منسوبة إليه ، وأن تكون خطبه ووصاياه كلها حكما ، وقد أتينا على بعضها ، وتركنا كثيرا منها لطوله ، وفى الميدان جـ ١ صـ ٧٨ وصية جمعت خمسة وثلاثين مثلا ، وفى صفحة ٢١٠ جـ ١ من أمثال العسكرى الحكم التى بعث بها إلى النعمان بن حميصة البارقى فى كتاب وهى تعد بالعشرات . وفى صـ ١٠٣ جـ ١ من أمثال العسكرى خطبة أخرى له جمعت حكما كثيرة . والنسخة التى نعنيها هى طبع المطبعة الخيرية سنة ١٩١٠ م .

(٢) قال ابو هلال العسكرى : من يسمع الشىء ربما ظن صحته ، وقيل من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع فى نفسه المكروه عليهم ، أى أن مجانبة الناس أسلم .

يكن باطلا ، كنتم أحق الناس بالكف عنه ، وبالستر عليه ، وقد كان أسقف[1] نجران يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمدا ، فكونوا فى أمره أولا ، ولا تكونوا آخرا ، ائتوا طائعين ، قبل أن تأتوا كارهين إن الذى يدعوا إليه محمد ، لو لم يكن دينا ، كان فى أخلاق الناس حسنا ، أطيعونى ، واتبعوا أمرى ؛ أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبدا ، وأصبحتم أعز حى فى العرب ، وأكثرهم عددا ، وأوسعهم دارا ، فانى أرى أمرا لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه ذليل إلا عز .

إن الأول لم يدع للاخر شيئا ؛ وهذا له ما بعده ، من سبق إليه غمر[2] المعالى ، واقتدى به التالى ، والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز .

فقال مالك بن نويرة[3] : قد خرف شيخكم ، فقال أكثم ؛ ويل الشجى من الخلى (انظر فى ضبط الكلمتين وتصريفهما التاج وأمثال أبى هلال) والهفى على أمر لم أشهده ، ولم يسعنى ! ؛ — مجمع الأمثال ٢ : ٢١٧ —

وأوصى أكثم بن صيفى قومه ؛ فقال :

يابنى تميم ، لا يفوتنكم وعظى ، إن فاتكم الدهر بنفسى ، إن بين حيزومى[4] وصدرى ، لكلاما ، لا أجد له إلا أسماعكم ، ولا مقار إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب داعية ، تحمدوا مغبته .

الهوى يقظان ؛ والعقل راقد ، والشهوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفس مهملة ، والروية[5] مقيدة ، وإن جهل التوانى وترك الروية يتلف الحزم ، ولن يعدم المشاور مرشدا ، والمستبد برأيه موقوف على مداحض[6] الزلل ،

(١) لقب دينى لمن فوق القس ودون المطران كلمة يونانية .

(٢) غمر : غطى .

(٣) شاعر فارسى ولاه النبى صدقات قومه ، فلما توفى الرسول فرقها فيهم ، وقتل بأمر خالد بن الوليد ، ولامه أبو بكر وعمر . انظر معجم الشعراء .

(٤) ضلع القلب ، أو ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر .

(٥) الروية ؛ اسم مصدر من روى فى الأمر بتشديد الواو ؛ فكر .

(٦) جمع مدحض ؛ مزلق ، وفعله كخضع .

ومن سمع(١) سمع به ، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ، ولو اعتبرت مواقع المحن ، ما وجدت إلا مقاتل(٢) الكرام وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجدد(٣) ، أمن العثار ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه . ويشغل فكره ، ويؤرث(٤) غيظه ، ولا تجاوز مضرته نفسه .

يابنى تميم ، الصبر على جرع الحلم ، أعذب من جنى ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه دون ماله ، استهدف(٥) للذم ؛ وكلم اللسان ! أنكى من كلم السنان ، والكلمة مرهونة ، ما لم تنجم من الفم ، فاذا نجمت ، فهى أسد محرب(٦) . أو نار تلهب ، ورأى الناصح اللبيب ، دليل لا يجوز ، ونفاذ الرأى فى الحرب أجدى من الطعن والضرب(٧) .

الوصايا

الوصايا جمع وصية . والوصية ما توجهه إلى إنسان أثير لديك من ثمرة تجربة وحكمة أو إرشاد وتوجيه . فهى بمعنى النصيحة .

والوصية من ألوان الخطابة . قاصر على الأهل والأقارب والأصدقاء ، والفرق بينهما أن الوصية تكون من المراة لابنتها ؛ ومن الرجل لقومه او ابنائه ، عند الارتحال او الشعور بدنو الأجل أو نحو ذلك ... والخطابة تكون فى المشاهد والمجامع العامة والحروب والمعارك وفى المفاخرة والمنافرة ؛ وفى الوفادة على ملك او امير ، وفى المواسم والحوادث الجسام .

---

(١) شنع .
(٢) الظاهر أنه جمع مقتل .
(٣) الأرض المستوية .
(٤) يوقد .
(٥) انتصب هدفاً .
(٦) حرب كفرح : كلب واشتد غضبه ، ومحرب مغضب .
(٧) مجمع الأمثال — وهى بروايات أخرى فى جمهرة الأمثال ٢ : ٢١٢ .

والوصايا كثيرة فى النثر الجاهلى وخاصة الحجازى. وتمتاز بجمالها وتناسب جملها واساليبها . وبرقتها وروعتها . وما يشيع فيها من حكمة ، وصدق تعبير ، ونفاذ فكر ، وبعد نظر ، لأنها لاتصدر إلا من حكيم مجرب ، او كبير عرك الحياة ، وعركته الحياة. وربما كانت الوصية فى الأدب الحجازى مزيجاً من الشعر والنثر كما فى وصية ذى الأصبع العدوانى التى سنذكرها فيما بعد .

وإليك طائفة من وصايا الحجازيين فى الجاهلية .

١ — وصية ابى طالب لقريش حين حضرته الوفاة :

يامعشر قريش : انتم صفوة الله من خلقه ، وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدام الشجاع ، الواسع الباع ، واعلموا انكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ، ولاشرفا إلا ادركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم إلب[1] ، وإنى اوصيكم بتعظيم هذه البنية — الكعبة — فان فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش ، وثباتا للوطأ ، صلوا ارحامكم فان فى صلة الرحم منسأة[2] فى الأجل ، وزيادة فى العدد ، اتركوا البغى والعقوق ففيهما شرف الحياة والممات ؛ وعليكم بصدق الحديث ، واداء الأمانة ، فان فيهما محبة فى الخاص ، ومكرمة فى العام .

وإنى اوصيكم بمحمد خيرا ، فانه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما اوصيتكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان[3] ، وانكره اللسان ، مخافة الشنآن . . وايم الله كأنى انظر إلى صعاليك العرب واهل الأطراف والمستضعفين من الناس، قداجابوا دعوته ؛ وصدقوا كلمته، وعظموا امره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها اذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها اربابا ؛ وإذا

---

(١) واحد يجتمعون عليه بالظلم والعدوان .
(٢) أى فسحة .
(٣) القلب .

أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه احظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأصفت له بلادها ، واعطته قيادها ، يامعشر قريش : كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك احد سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ بهديه أحد إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ، وفى اجلى تأخير ، لكففت عنه الهزاهز ، ولدافعت عنه الدواهى (١) .

٢ - وصية ذى الإصبع العدوانى :

لما احتضر ذو الإصبع ، دعا ابنه أسيدا فقال له : يابنى ، إن اباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته ، فاحفظ عنى : الن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، واعزز جارك ، واعن من استعان بك ، واكرم ضيفك ، واسرع النهضة فى الصريخ ، فان لك اجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسئلة احد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك ، ثم أنشأ يقول :

اأسيد إن مالا ملكـ ... ـت فسر به سيرا جميلا
آخ الكرام إن استطعـ ... ـتَ إلى إخائهم سبيلا
واشرب بكأسهم وإن ... شربوا به السم الثميلا
أهن اللئام ولا تكن ... لإخائهم جملا ذلولا
إن الكرام إذا توا ... خيهم وجدت لهم فضولا
ودع الذى يعد العشير ... ة ان يسيل ولن يسيلا
ابنى أن المال لا ... يبكى إذا فقد البخيلا

* * *

أأسيد إن ازمعت من ... بلد إلى بلد رحيلا

---

(١) ٣٢٧ ج بلوغ الأرب طبعة ١٩٢٤.

فاحفظ وإن شحط المزا ... ر أخا أخيك أو الزميلا
واركب بنفسك إن همم ... ت بها الحزونة والسهولا
وصل الكرام وكن لمن ... ترجو مودته وصولا[١]

ومن أمثلة الوصايا الحجازية : وصية أوس بن حارثة لابنه مالك ، وقد رواها صاحب الأمالي ، وهي مشهورة[٢] .

---

(١) الأغاني دار الكتب ص٩٩ - ١٠٠ ج ٣ .
(٢) ١٠٢/١ الأمالي لأبي على القالي - طبعة دار الكتب .

الفصل الثالث

المحاورات والمفاخرات والمنافرات

وسجع الكهان

المحاورة هى التحاور والتراجع فى الكلام والحديث . وهى من ضرورات الاجتماع والحياة

وكان العرب كثيرى المحاورة ، لكثرة خصوماتهم ومفاخراتهم وتنازعهم على الشرف وسواه .

وتشمل المحاورات : المنافرة ، والمفاخرة . ونحوهما من الجدال فى مختلف شئون الحياة والمعرفة . فالمفاخرة : مصدر فاخر . وهى تفاخر القوم بعضهم على بعض ، وكانوا يفاخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والعزة والثروة وكثرة العدد .

والمنافرة هى المحاكمة فى المفاخرة . وأصلها من قولهم : أينا أعز نفرا، فهى التحاكم إلى المحكمين ، ليفصلوا بينهم ، ويقضوا بالشرف لأحدهم .

ومن أمثلة المحاورة : ما جرى بين هند وأبيها عتبة بن ربيعة فى زواجها قبل أن يزوجها من أبى سفيان بن حرب[1] .

ومن أمثلة المحاورات كذلك : محاورة عامر بن الظرب العدوانى وعمه بن رافع ، وكذلك قول ضمرة بن ضمرة ، المشهور بالمعيدى ، للنعمان ، جوابا على قوله له : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » : مهلا أيها الملك ، إن الرجال لا يكالون بالصيعان وإنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن قاتل قاتل بجنان ، وإن نطق نطق ببيان ، فقال : صدقت ، لله درك !! هل لك علم بالأمور والولوج فيها ؟ قال : والله إنى لأبرم منها

---

(١) راجع ١٠٤ / ٢ امالى القالى .

المسحول(١) ، وأنقض منها المفتول ، وأحيلها حتى تحول ، وليس للأمور بصاحب ، من لم ينظر فى العواقب ، قال : صدقت ، ولله درك ! ! فأخبرنى : ما العجز الظاهر ، والفقر الحاضر ، والداء العياء(٢) ، والسوءة السوءاء ؟ قال : أما العجز الظاهر ، فالشاب القليل الحيلة ، الملازم للحليلة ، الذى يحوم حولها ، ويسمع قولها ، إن غضبت ترضاها ، وإن رضيت تفداها ، وأما الفقر الحاضر ، فالمرء لا تشبع نفسه ، وإن كان من ذهب حلسه ، وأما الداء العياء ، فجار السوء إن كان فوقك قهرك ، وإن كان دونك همزك ؛ وإن أعطيته كفرك ، وإن منعته شتمك ، فإذا كان ذلك جارك ، فأخل له دارك ، وعجل منه فرارك ، وإلا فأقم بذل وصغار ، وكن ككلب هرار وأما السوءة ، فالحيلة الصخابة(٣) الخفيفة الوثابة ، السليطة(٤) العيابة ، التى تعجب من غير عجب ، وتغضب من غير غضب ، الظاهر عيبها ، المخوف غيبها ، فزوجها لا يصلح له حال ، ولا ينعم له بال ، إن كان غنياً لا ينفعه غناه ، وإن كان فقيراً أبدت له قلاه ، فأراح الله منها بعلها ، ولا متع الله بها أهلها .

ومن أمثلة المفاخرة : ما وقع — على ما قيل — من بعض سادة العرب بين يدى كسرى ، وقد قال لهم : ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه ، وليصدقن ، وكان حذيفة بن بدر أول متكلم ، فقال : قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم ، والعز الأعظم ومآثر للصنيع الأكرم . فقال من حوله : ولم ذاك يا أخا فزارة ؟ قال : ألسنا الدعائم التى لا ترام ، والعز الذى لا يضام ؟ قيل له : صدقت .

ثم قام الأشعث بن قيس ، فقال :

« لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكبر ، وزحفها الأكبر ، وأنا غياث اللزبات(٥) . فقالوا : لم يا أخا كندة ؟ قال : لأنا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا بحبوحه(٦) الأكرم » .

---

(١) المفتول على طاقة واحدة (٢) الذى لا يرجى برؤه (٣) كثير اللغط والجلبة .
(٤) البذيئة . (٥) اللزبات بسكون الزاى : جمع لزبة وهى الشدة .
(٦) بحبوحة الدار بضم الباء : وسطها . وبحبوحة العيش : رغده وخياره .

ثم قام بسطام بن قيس ، فقال :

« قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذى لا يزول ، ومغرس عزها الذى لا يحول .

قالوا : ولم يا أخا شيبان ؟ قال : لأنا أدركهم للثار ، وأضربهم للملك الجبار ، وأقولهم للحق ، وألدهم للخصم .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى ، فقال : قد علمت العرب أنا فرع دعامتها وقادة زحفها . قالوا : ولم ذاك يا أخا بنى تميم ؟ قال : لأنا أكثر الناس عديداً ، وأنجبهم طراً وليداً ، وأعطاهم للجزيل ، وأحملهم للثقيل » .

ثم قام قيس بن عاصم ، وقال :

« لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم فى المكرمات دعائم ، وأثبتهم فى النائبات مقادم(١) . قالوا : ولم ذاك يا أخا بنى سعد ؟ قال : لأنا أدركهم للثار ، وأمنعهم للجار ، وأنا لا ننكل إذا حملنا ، ولا نرام إذ حللنا » .

يروى أن الأوس والخزرج تفاخرتا . فقالت الأوس : منا غسيل الملائكة ، حنظلة بن الراهب ، ولنا عاصم بن الأفلح الذى حمت لحمه الدبر ، ومنا ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت ، ومنا الذى اهتز لموته العرش سعد بن معاذ . فقالت الخزرج : منا أربعة قرأوا القرآن على عهد رسول الله لم يقرأه غيرهم : زيد بن ثابت ؛ ومعاذ بن جبل ، وابى بن جبل ، وابى بن كعب ؛ ومنا الذى ايده الله بروح القدس فى شعره حسان ابن ثابت(٢) .

ومن امثلة المنافرات ، واشهرها : منافرة (٣) عامر بن الطفيل : وعلقمة بن علاثة العامريين ، وقد تنازعا الرياسة ومنافرة هاشم بن عبد مناف وامية بن عبد شمس .

---

(١) مقادم : جمع مقدام ومقدامة وهو الشجاع .
(٢) ١٨٧ / بلوغ الارب .
(٣) راجعها فى ١٨٨ / ١ بلوغ الأرب .

منافرة هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس :

لما تولى هاشم أمر مكة بعد أبيه ، وساد قومه ، بما كان عليه من محاسن الأخلاق ، وجليل الشيم ، وكمال الشجاعة ، وروعة الكلام ، وغاية الفصاحة ، وسوى ذلك من المآثر والمفاخر الجليلة ، حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف عجزاً عن اللحاق به وعن مباراته فى صنيعه وفى شيمه ، ونشبت العداوة بين أمية وهاشم وأراد منافرته ، فكره ذلك هاشم لنسبه وقدره ، فلم تدعه فى قريش حتى نافره إلى الكاهن الخزاعى فى خمس نوق سود الحدق ، ينحرها ببطن مكة والجلاء عن مكة عشر سنين ، فخرج كل منهما فى نفر ، ونزلوا على الكاهن ، فقال قبل أن يخبروه خبرهم : والقمر الباهر ، والكواكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر .

فنفر الخزاعى هاشما ، وقال لأمية : تنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأحسن منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل منك صفدا ؟

فقال أمية : من انتكاث الزمان أن جعلناك حكما ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضرها . وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين .

ومنافرة قريش وخزاعة إلى هاشم وخطبة هاشم فى هذا[1] ، وكذلك منافرة عامر ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ، مشهورتان فى كتب الأدب .

سجع الكهان

وينبغى أن نشير إلى لون آخر من ألوان النثر الجاهلى ، ونعنى به ذلك السجع الذى كان الكهان يلتزمونه ، ويحتشدون له ، ويؤثرونه على كل أسلوب ، ويتكلفون فيه ، للتأثير على الناس ، وللتعمية فى الجواب .

والكهانة هى الإخبار عن الأمور المغيبة ماضية كانت أو مستقلة . وكان

---

(١) راجع ٣٣٢ ج ١ بلوغ الأرب .

فى العرب كهان ، لهم فيهم اعتقاد . . ومن أشهرهم : سطيح ، وشق وطريفة الخير ، وفاطمة الخثعمية[١] .

وكان العرب يفزعون إلى كهانهم فى كل ما يطرأ عليهم من أمر ، أو يستعصى عليهم من مشكلات وأزمات وشدائد ، ويستطبونهم فى الأدواء .

وكانت الكهانة منتشرة فى الجاهلية قبيل البعثة — وتدور غالباً حول التبشير بنبى يبعث ، وتفسير الرؤى ، ومعرفة ما أشكل من الأمور ، أو خفى من الحوادث .

والكهانة الصادقة على أى حال نوع من الفراسة والإلهام وصدق الحس وصفاء الروح — وكثيراً ما نرى ذلك حتى اليوم .

ويقول الجاحظ : « كان كهان العرب يتحاكم إليهم أكثر الجاهلية ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن[٢] » .

وكان كلام هؤلاء الكهان فى تنبؤاتهم يدور حول ما يستفتون فيه من مسائل ومشكلات .

وكان هذا الكلام كله مسجوعاً . وكان الكهان يعتمدون فيه على الإغراب التعمية فى الجواب .

ومهما يكن من شىء فإن حرفة الكهانة فى ذلك العصر قد أثمرت ضرباً طريفاً من الخطابة كان يتكىء على السجع والتوقيع ؛ كما كانت تكثر فيه الأقسام ، والألفاظ الغريبة ، ويتسم بقصر الجمل غالباً .

وقد روى أن النبى ﷺ نهى عن سجع الكهان ، وذلك لمكانه من التكلف والاغراب والغموض ، وبعده عن الصدق . وادعائه المشاركة فى علم الغيب .

ومن الكواهن والكاهنات : زبراء ، وشق أنمار ، وسطيح الذهبى .

وفى كتب الأدب صور كثيرة للكهانة تدل على حذق الكهان وبراعتهم

---

(١) كانت فاطمة بمكة ولها قصة مع عبد الله والد الرسول صلوات الله عليه قبل زواجه بآمنة .

(٢) ١٩٥ جـ ١ البيان والتبيين . .

فى معرفة طوايا النفوس والكشف عن خبايا الأمور ، ومن ذلك ما يرويه صاحب الأغانى :

كانت هند بنت عتبة ، عند الفاكه بن المغيرة . وكان الفاكه من فتيان قريش . وكان له بيت للضيافة بارز يغشاه الناس من غير إذن . فخلا البيت ذات يوم فاضطجع هو وهند فيه . ثم نهض لبعض حاجته ، فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت . فولجه . فلما رآها رجع هاربا ، وأبصره الفاكه ، فأقبل إليها فضربها برجله ، وقال : من هذا الذى خرج من عندك ؟ قالت ما رأيت أحداً ولا انتبهت حتى أنبهتنى ، فقال لها : ارجعى إلى أمك . وتكلم الناس فيها ، وقال لها أبوها : يا بنية ، إن الناس قد أكثروا فيك ، فأنبئينى نبأك فإن يكن الرجل صادقاً ، دسست عليه من يقتله ، فتنقطع عنك المقالة ، وإن يكن كاذباً ، حاكمته إلى بعض كهان اليمن ، فقالت : لا والله ماهو بصادق ، فقال له : يافاكه ، إنك قد رميت بنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى بعض الكهان .

فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى جماعة من عبد مناف ، ومعهم هند ونسوة . فلما شارفوا البلاد . وقالوا : غدا نرد على الرجل ، تنكرت حال هند . فقال لها عتبة : إنى ارى ماحل بك من تنكر الحال ، وما ذاك إلا لمكروه عندك . قالت ، لا والله يا ابتاه . ما ذاك لمكروه ، ولكنى اعرف انكم تأتون بشرا يخطىء ويصيب . ولا آمن ان يسمنى ميسما يكون على مسبة ، فقال لها إنى سوف اختبره لك ، ثم ادخل فى إحليل فرسه حبة بر ، واوكأ عليها بسير فلما قدموا على الرجل اكرمهم ونحر لهم ، وقال له عتبة : جئناك فى امر ، وقد خبأت لك خبئاً أختبرك به ، وانظر ما هو قال ثمرة فى كمرة . قال : اوضح ؛ قال حبة بر ، فى إحليل مهر ، قال صدقت ، انظر فى امر هؤلاء النسوة ، فجعل يدنو من إحداهن ، فيضرب بيده على كتفها ويقول : انهضى ، حتى دنا من هند ، فقال لها : انهضى غير رسحاء[1] ولازانية ، وستلدين ملكا يقال له معاوية ، فنهض إليها الفاكه ، فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده ، وقالت إليك عنى ، فوالله لأحرص ان يكون ذلك من غيرك ، فتزوجها ابو سفيان .

(١) الرسحاء قليلة لحم العجز والفخذين

الشعـــــر

الباب الأول

فكرة عامة

عن

الشعر الحجازى فى العصر الجاهلى

الفصل الأول

نماذج هذا الشعر

— ١ —

كانت قريش قد تحالفت على بنى هاشم لحمايتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو طالب بن عبد المطلب يذكر تلك المحالفة ويرد عليها :

فلما رأيت القوم لا ود فيهم — وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى — وقد طاعوا أمر العدو المزايل (١)
صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة — وأبيض عضب من تراث المقاول (٢)
وأحضرت عند البيت أهلى وإخوتى — وأمسكت من أثوابه بالوصائل (٣)
قياما معا مستقبلين رتاجه — لدى حيث يقضى حلفه كل نافل (٤)

---

(١) المزيل : المفارق .

(٢) سمحة : أى لينة يريد بها الرمح ؛ والعضب : القاطع يريد به السيف ، والمقاول : ملوك اليمن .

(٣) الوصائل : جمع وصيلة وهى حبرات اليمن ، وكانت تكسى بها الكعبة ، وأول من كساها بها تبع أبو اليمن ، والمراد بإمساك الوصائل : إمضاء العهد على المقاومة .

(٤) الرتاج : الباب المعظم ، والنافل : المقطوع .

أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ومن ملحق فى الدين مالم نحاول(١)
وبالبيت حق البيت من بطن مكة وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل
وليلة جمع (٢) والمنازل من منى وهل فوقها من حرمة ومنازل ؟
فهل بعد هذا من معاذ لعائذ وهل من معيذ يتقى الله عادل
يطاع بنا أمر العدا ا ودَّ أننا يسد بنا أبواب ترك وكابل
كذبتم وبيت الله نترك مكة ونظعن إلا أمركم فى بلابل(٣)
كذبتم وبيت الله يبزى (٤) محمد ولما نطاعن حوله ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم بالحديد إليكم نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل(٥)
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل(٦)
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى رحمة وفواضل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
حدبت بنفسى دونه وحميته ودافعت عنه بالذرا والكلاكل

(١) الكاشح : الذى يضمر العداوة .

(٢) جمع : هى المزدلفة ، يجتمع فيها الناس قبل نزولهم منى .

(٣) نترك مكة : أى لا نتركها ، والبلابل جمع بلبلة — بفتح الباءين — وهى الهم والوسواس .

(٤) يبزى : أى يقهر ويستذل ، وهو من حذف حرف النفى .

(٥) الروايا : جمع راوية ، وهى الناقة التى تحمل الماء ، وذات الصلاصل : بقية الماء فى الروايا — القرب .

(٦) هذا وصف لرسول الله صلى الله عليه وسلم . الثمال : الملجأ والغياث .

(٧) الحدب : العطف والاشفاق . ذروة الناقة : أعلى سنامها . كلكلها ما بين عنقها إلى ما مس الأرض منها .

— ٢ —

وكان بين بنى النجار وبين خطمة منازعة فى حليف لبنى النجار من عبس ابن بغيض فالتقوا يوما بالدرك وجمع بعضهم لبعض حتى نال بعضهم بعضا بالجراح ولم يكن بينهم قتلى ومنعت بنو النجار حليفها فقال حسان بن ثابت قبل الإسلام فى ذلك :

فدا أمى لعوف كلها وبنى الأبيض فى يوم الدرك
منعوا ضيمى بضرب صائب تحت أطراف السرابيل هتك
وبنان نادر أطرافها وعراقيب تقسا كالفلك(١)

فأجابه يزيد بن طعمية الخطمة :

إذ تنادوا بالعوف أركبوا ليس ستين قوى وركك
فاجتمعنا فنضنا جمهم بالصعيداء وفى يوم الدرك
قذفوا سيدهم فى ورطة قذفك المقلة شطر المعترك(٢)
أبلغا عوفا بأنا معقل تمنع الضيم ، وفرع مشتبك
وإذا ما ملك حاربنا ضمن الخوف لنا قلب الملك(٣)

— ٣ —

وقال حسان فى الجاهلية :

ما هاج حسان رسوم المقام ومظعن الحى ومبنى الخيام
والنؤى قد هدم أعضاده تقادم العهد بواد تهام

---

(١) تحت أطراف السرابيل هى الدروع وفى التنزيل وسرابيل تقيكم بأسكم ، أى الدروع . وهتك أى قطع وخرق صفة الضرب الصائب . والضيم الذل . وبنان متعلق بمنعوا أيضا أى منعوا ضيمى بضرب صائب وبنان الخ . وتقسا تشتد .

(٢) ركك جمع ركيك وهو من الرجال الفسل الضعيف فى عقله ورأيه . والصعيداء تصغير صعيد الموضع العريض الواسع . والورطة الشدة التى يقع فيها الإنسان .

(٣) فرع مشتبك يكنى بذلك عن لحمة النسب بينهم . وضمن الخوف الخ : أى فزع منا الملك فلم يقو على محاربتنا .

قد أدرك الواشون ما حاولوا فالحبل من شعثاء رث الزمام
جنية أرقنى طيفها تذهب صبحاً وترى فى المنام
هل هى إلا ظبية مطفل مألفها السدر بنعفى برام
تزجى غزالا فاتراً طرفه مقارب الخطو ضعيف البغام(١)
كأن فاها قهوة مزة حديثة العهد بفض الختام(٢)
شجت بصهباء لها سورة من بيت رأس عتقت فى الخيام
عتقها الحانوت دهراً فقد مر عليها فرط عام فعام
نشربها صرفاً وممزوجة ثم تغنى فى بيوت الرخام
تدب فى الجسم دبيباً كما دب دبى وسط رقاق هيام(٣)
كأساً إذا ما الشيخ والى بها خمساً تردى برداء الغلام
من خمر بيسان تخيرتها ترياقة تسرع فتر العظام
يسعى بها أحمر ذو برنس مختلق الذفرى شديد الحزام
أروع للدعوة مستعجل لم ينشه الشان خفيف القيام(٤)
دع ذكرها وانم إلى جسرة جلدية ذات مراح عقام

---

(١) النؤى هو الحفير حول الخباء يدفع عنها السيل يمينا وشمالا ويبعده ، وأعضاده نواحيه ، ورث الزمام أى بال خلق . جنية إنما أراد مرأة كالجنية إما فى جمالها وإما فى تلونها وابتذالها ولا تكون الجنية هنا منسوبة إلى الجن الذى هو خلاف الإنس حقيقة . ومطفل أى صاحبة أولاد . والنعف من الرملة مقدمها وما استرق منها . وبرام اسم موضع . وتزجى غزالا ضعيف البغام أى تسوق غزالا صغيرا صوته ضعيف .

(٢) مزة هى الخمر التى فيا مزازة وهو طعم بين الحلاوة والحموضة .

(٣) كما دب دبى هو أصغر ما يكون من الجراد والنمل . والرقاق الأرض من غير رمل . وهيام صفة أى ذات تراب يخالطه رمل ينشف الماء نشفاً .

(٤) بيسان موضع تنسب إليه الخمر . وترياقة العرب تسمى الخمر ترياقة لأنها تذهب بالهم، والترياق فى الأصل دواء السموم قال الأعشى :

سقتنى بصهباء ترياقة متى ما يلين عظامى تلن
=

دفقة المشـــــــية زيافة تهوى خنوفا فى فضول الزمام
تحسبها مجنونة تغتـلى إذا لفع الآل رؤوس الإكام (١)
قومى بنو النجـار إذ أقبلت شهباء ترمى أهلها بالقتـام
لا نخذل الجـار ولا نسلم الـ ـمولى ولا نخصم يوم الخصام
منـا الذى يحمـد معروفه ويفرج اللزبة يوم الزحام (٢)

— ٤ —

قال حسان بن ثابت للحارث بن عامر وكان فيمن سرق غزال الكعبة :

ياحار قد كنت ولولا مارميت به لله درك فى عز وفى حسب (٣)
جللت قومك مخزاة ومنقصة ما إن يجلله حى من العرب (٤)
ياسالب البيت ذى الأركان حليته أد الغزال فان يخفى لمستلب (٥)
سائل بنى الحارث المزرى لمعشره أين الغزال عليه الدر من ذهب ؟
بئس البنون وبئس الشيخ شيخهم تبا لذلك من شيخ ومن عقب

= وضمير بها يعود إلى الخمر أى يطوف علينا بها رجل أحمر الخ : ومختلق الزفرى أى تام الخلق والجال شاب طويل . أروع للدعوة أى نشيط خفيف عند الدعوة .

(١) دع ذكرها : انتقال من وصف الخمر إلى وصف ناقته فقوله « وانم » أى اسند الحديث وارفعه إلى ذكر جسرة وهى الناقة الماضية وجلدية أى شديدة غليظة وعقام لا تلد . وزيافة مختالة فى مشيتها . وتهوى خنوفا أى تميل بيديها فى أحد شقيها من النشاط . ولفع الآل أى إذا شمل وغطى السراب رءوس الإكام .

(٢) إذا أقبلت شهباء : أى سنة شهباء ذات جدب وقحط . والقتام الغبار . ولا نخصم : أى نغلب بالحجة ، واللزبة الشدة .

(٣) لولا مارميت به أى لولا ما وصمت به من العار وجواب لولا محذوف أى لكنت شريفا .

(٤) جللت قومك مخزاة أى ألبستهم عارا وخزيا والمنقصة العيب .

(٥) ياسالب البيت إلى آخر القصيدة قيل أول من علق المعالبق بالكعبة فى الجاهلية عبد المطلب علقها بالغزالين من الذهب اللذين وجدهما فى زمزم حين حفرها وكانا معلقين =

— ٥ —

وقالت قتيلة بنت النضر بن الحارث (١) ترثى أخاها :

يا راكبا إن الأثيل مظنة — من صبح خامسة ، وأنت موفق (٢)
أبلغ بها ميتا بأن تحية — ما إن تزال بها النجائب تخفق (٣)
منى إليك ، وعبرة مسفوحة — جادت بواكفها ، وأخرى تخنق (٤)
هل يسمعنى النضر إن ناديته — أم كيف يسمع ميت لا ينطق (٥)
أمحمد يا خير ضنء كريمة — فى قومها ، والفحل فحل معرق (٦)

= مدة حتى سرقوهما وقصته أن جماعة من قريش كانوا فى ليلة من الليالى يشربون الخمر وفيهم أبو لهب وهو معنى قول الشاعر « بئس الشيخ شيخهم » وكان معهم القيان ولما فنيت أسباب طربهم عمدوا إلى باب الكعبة وسرقوا الغزالين وباعوهما من تجار قدموا مكة بالخمر وغيرها واشتروا بثمنها جميع مافى العير من الخمر والمزة واشتغلوا بالطرب واللهو شهرا ولم يدر من سرق حتى مر العباس بن عبد المطلب فى ليلة من الليالى بباب الدار التى تلك الجماعة فيها فسمع القيان يغنين بقصة سرقة الغزالين من باب الكعبة وبيعهما من أهل القافلة وأخبر بها العباس قريشا فأخذوهم وضربوهم وقطعوا أيدى بعضهم ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج .

(١) قتيلة بنت النضر وقيل أخته نشأت فى قومها بنى عبد الدار بن قصى من قريش . وكان أخوها أو أبوها النضر مع قريش على الرسول فى غزوة بدر فأمر الرسول عليه السلام بقتله وترى أن شعرها على قوته أكرم شعر موتور وأعفه وأكفه وأحلمه .

(٢) الأثيل : موضع فيه قبر النضر فى وادى الصفراء بقرب المدينة ، تقول : إن الأثيل يظن أن تبلغه فى صبح الليلة الخامسة ، إذا وفقت ولم يعقك عائق .

(٣) النجائب : جمع نجيبة . وهى جياد الإبل . وخفقان النجائب : شدة اهتزازها ، وإن زائدة .

(٤) منى متعلق بأبلغ ، والمسفوحة : المصبوبة ، أى بلغه منى رسالة ، واذكر له عبرة على فقده سالت ، وعبرة أخرى جمدت ، وأخذ حزنها بالحلق فخنقه .

(٥) أم هنا للإضراب : أى بل كيف يسمع الخ .

(٦) الضنء : الأصل ، والولد . والكريمة : النجيبة . والمعرق : من له أصول واضحة فى الكرم ، المعنى أن أمك شريفة وأباك عريق فى المجد .

ما كان ضرك لو مننت ؟ وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق(١)
أو كنت قابل فدية فلينفقن بأعز ما يغلو به ما ينفق(٢)
فالنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق(٣)
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق !(٤)
صبراً يقاد إلى المنية متعباً رسف المقيد ، وهو عان موثق(٥)

— ٦ —

وقال أمية بن أبي الصلت (٦) يعتب على ابن له :

غذوتك مولودا وعلتك يافعاً تعل بما أدنى إليك وتنهل(٧)
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت لشكواك إلا ساهراً أتململ(٨)

(١) المعنى : إذا كنت كذلك فما كان ضرك لو مننت على أخى وأطلقته فقد يعفو الكريم ، وهو منطو على الغيظ والحنق .

(٢) أى وما ضرك لو قبلت فدية ، فإنك إن فعلت أنفقنا لفديته أعز وأغلى ما نملك.

(٣) كان تامة : أى وأحقهم بأن يعتق إن حصل منك عتق وفكاك .

(٤) تنوشه : تتناوله ، ولله أرحام ، تعجب ، أى لم يقتله أحد غير بنى أبيه فعجبا من أرحام يقطعها أصحابها .

(٥) صبر أى حبسا حتى يقتل ، والمعنى : أنه يقاد للموت بعد الحبس وهو متعب يرسف رسف المقيد ، أى وهو أسير موثق .

(٦) هو عبد الله بن أبى ربيعة الثقفى نشأ بالطائف جاهليا يلتمس المعارف الدينية متعبدا راجيا أن يكون نبى العرب ، حتى إذا كانت بعثة النبى صلى الله عليه وسلم نفسها عليه ، وناضله مع أعدائه حتى مات بالطائف سنة ٩ هـ . ويمتاز شعره بالسهولة ، والدخيل من الألفاظ ، وتناول الأساطير ، والأمور الدينية ، مع المدح والحكمة ، وكان أكثر مدحه فى عبد الله بن جدعان القرشى .

(٧) غذاه : قام بقوته ، وعاله : كفله وقام به ، واليافع : من قارب العشرين ، تعل : من العلل ، وهو الشرب الثانى . والنهل : الشرب الأول ، يريد أنه يسبغ عليه من نعمه مرة بعد مرة .

(٨) أتململ : أتقلب على الملة وهى الجمرة .

كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى ، وعينى تهمل[1]
تخاف الردى نفسى عليك ، وإنها لتعلم أن الموت حتم مؤجل[2]
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مـدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى منك جبها وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل[3]
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل[4]
وسميتنى باسم المفـند رأيه وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل[5]
تراه معـداً للخلاف كأنه برد على أهل الصواب موكل[6]

— ٧ —

ومن مدائح النابغة الذبيانى فى عمرو بن الحارث الغسانى ، هذه المدحة الرائعة التى استهلها بوصف ليله النابغى المضروب به المثل ، والتى يصف فيها الجيش بملازمة النصر له ، حتى إن الطير عرفت ذلك ، فهى تتبعه فى كل غزاة ثقة منها بأنه سيشبعها من جثث قتلاه :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب[7]

---

(١) تهمل : أى يسيل منها الدمع .

(٢) الردى : الهلاك ، حتم أى لا مفر منه . مؤجل أى له وقت .

(٣) الجبه : مقابلة الانسان بما يكره .

(٤) أى ليتك إذا أبيت أن تعاملنى معاملة الأب عاملتنى كما يعامل الجار جاره .

(٥) فنده : نسبه إلى سوء العقل ، أى وسمتنى بسوء الرأى والغباوة ، ولو عقلت لعلمت أن الفند حقيق بأن ينسب إليك لا إلى .

(٦) معدا : أى محضرا ومهيئا ، أى أنه يهىء الخلاف ، ويقابل به كل شىء كأنه كلف أن يفند آراء أهل الصواب .

(٧) كلينى لهم : دعينى وهمى من وكله للشىء أى أسلمه له ، وأميمة : اسم امرأة تصغير أم ، وناصب صفة لهم أى هم ذو نصب أو ناصب صاحبه . وبطىء الكواكب : أى بطىء غروب كواكبه ، توهم أن ليله بطىء الكواكب وأنه طويل لكثرة ما يقاسيه فيه من الهموم .

تطاول ، حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذى يرعى النجوم بآيب(١)
وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب(٢)
على لعمرو نعمة بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب(٣)
وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت   كتائب من غسان غير أشائب(٤)
إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدى بعصائب(٥)
يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم   من الضاريات بالدماء الدوارب(٦)
تراهن خلف القوم خزرا عيونها   جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب(٧)

---

(١) وليس الذى يرعى النجوم بآيب . أى وحتى قيل ليس الذى « البيت » . والذى يرعى النجوم يريد النجم الذى يتقدمها فيكون بمنزلة الراعى لها يؤيد ذلك رواية (وليس الذى يهدى النجوم) ، وإياب النجوم والشمس مغيبها كأنها رجعت إلى مبدئها ومسقطها: أى وحتى قيل إن أول النجوم الطالعة فى هذا الليل لا تغيب مع أنه سابقها فكان حقه أن يكون أول غائب . وكل ذلك كناية عن طول الليل .

(٢) وصدر . أى وكلينى أيضا لصدر . وأراح الليل : من الرواح ، وعازب : غائب . والمعنى : دعينى أيضا وصدرى المتضاعف الحزن ، الذى أرجع هذا الليل ما كان غائبا من همه . ثم اقتضب الكلام اقتضابا وشرع فى مدح عمرو بن الحارث فقال : على لعمرو .

(٣) عقارب النعمة : تكديرها بالمن والأذى . والمعنى : على لعمرو نعمة حديثة بعد نعمة قديمة لوالده لم يكدرهما من ولا أذى .

(٤) أشائب : جمع أشابة وهم الأخلاط ، أى أن هذه الكتائب كلها من صلب غسان .

(٥) أى إذا غزوا حلقت عليهم جماعات النسور والعقبان والرخم لتأكل ممن يقتلونهم.

(٦) أى تسير جماعات الطير معهم كأنها تغير باغارتهم على الأعداء ضاريات متدربات على دماء القتلى .

(٧) خزرا : جمع أخزر وخزراء ، أى ضيقة العيون خلقة ، أو أنها تتخازر أى تقبض أجفانها لتحدد النظر . جلوس الشيوخ الخ : أى أنها عند اشتداد القتال تقع على أعالى الأرض والهضاب كأنها فى ريشها ووقوفها وتحديد النظر تترقب القتلى جالسة جلوس الشيوخ إذا التفوا بأكسية المرانب يحددون النظر إلى شىء بعيد . مرانب : جمع مرنبانى وهو الثوب المبطن بفراء الأرانب .

جوانح قد أيقن أن قبيله | إذا ما التقى الجمعان أول غالب(١)
لهن عليهم عادة قد عرفنها | إذا عرض الخطى فوق الكواثب(٢)

— ٨ —

وقال أبو صخر الهذلى ، ويقال إنه أغزل شعر قالته العرب :

أما والذى أبكى وأضحك والذى | أمات وأحيا والذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى | أليفين منها لا يروعهما الذعر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة | ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها | فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وما هو إلا أن أراها فجاءة | فأبهت لا عرف لدى ولا نكر

— ٩ —

ومن مراثى الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمى فى أخويها معاوية وصخر ، قولها فى معاوية :

أريقى من دموعك واستفيقى | وصبراً إن أطقت وان تطيقى
وقولى إن خير بنى سليم | وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل ترجعن لنا الليالى | وايام لنا بلوى الشقيق
وإذ نحن الفوارس كل يوم | إذا حضروا وفتيان الحقوق
وإذ فينا معاوية بن عمرو | على أدماء كالجمل الفنيق(٣)
فبكيه فقد أودى حميداً | أمين الرأى محمود الصديق
فلا والله لا تسلاك نفسى | لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنى رأيت الصبر خيراً | من النعلين والرأس الحليق(٤)

---

(١) جوانح : أى مائلات للوقوع .

(٢) أى القنا الخطى المنسوب إلى الخط بلد بالبحرين ، والكواثب : جمع كاثبة ، وهى من جسم الفرس ما تحت الكاهل إلى الظهر بحيث إذا نصب عليه السرج كانت أمام القربوس .

(٣) الفنيق : الضخم .

(٤) كان من عادة النساء حلق الرأس وتعليق النعلين حزنا .

وقولها فى صخر :

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجرىء الجميـــل ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما د ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القوم ما عالهم وإن كان أصغرهم مولدا
ترى الحمد يهوى إلى بيته يرى أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثم ارتدى

— ١٠ —

وقال دريد بن الصمة فى رثاء أخيه :

أرث جديد الحبل من أم معبد بعاقبة ، أم أخلفت كل موعد
وبانت ، ولم أحمد إليك نوالها ولم ترج منا ردة اليوم أو غد
كأن حمول الحى إذ متع الضحى بناصية الشحناء ، عصبة مذود(١)
أو الأثاب العم المحرم سوقه بكابة لم يخبط ، ولم يتعضد
فقلت لعارض وأصحاب عارض ورهط بنى السوداء . والقوم شهدى
علانية : ظنوا بألفى مدجج سراتهم فى الفارسى المسرد
وقلت لهم : إن الأحاليف هذه مطنبة بين الستار وثهمد
ولما رأيت الخيل قبلا كأنها جراد يبارى وجهة الريح مغتدى(٢)

---

(١) رث الحبل : بلى ، والمراد العهد . متع الضحى : بلغ آخر غايته . العصبة بفتح بفتح فسكون : الشجرة تعلق فى شىء عال لتكون كالخيمة عليه وهو الشجر المتسلق كاللبلاب مثلا . مذود : اسم جبل . الاثاث : شجر . العم : العظيم كابة موضع . لم يخبط : لم تعصب فروعه وتضرب بالعصى فتكسر . لم يتعضد : لم يقطع . عارض : اسم أخ للشاعر

(٢) الأحاليف : المتحالفون على نصرة بعضهم . قبلا : عيانا ومقابلة .

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم ، وقد أرى غوايتهم أنى بهم غير مهتدى
وهل أنا إلا من غزية ؟ إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
دعانى أخى ، والخيل بينى وبينه فلما دعانى لم يجدنى بقعدد(١)
أخ أرضعتنى أمه من لبانها بثدى صفاء بيننا لم يجدد
فجئت إليه ، والرماح تنوشه كرقع الصياصى فى النسيج الممدد
وكنت كذات البو ريعت فأقبلت إلى قطع من جلد بو مجلد(٢)
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهنهت وحتى علانى حالك اللون أسود
قتال امرىء آسى أخاه بنفسه ويعلم أن المرء غير مخلد
تنادوا، فقالوا: أردت الخيل فارساً؟ فقلت : أعبد الله ذلكم الردى ؟
فإن يك عبد الله خلى مكانه فما كان وقافاً ولا طائش اليد
ولا برما إما الرياح تناوحت برطب العضاه والضريع المعضد(٣)
وتخرج منه صرة القر جزأة وطول السرى درى عضب مهند
كميش الإزار خارج نصف ساقه صبور على الضراء طلاع أنجد(٤)
قليل تشكيه المصيبات ذاكر من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد

---

(١) غزية : حى من بنى جشم . القعدد : الجبان يقعد عن نصرة قومه .
(٢) الصياصى : جمع صيصاة ؛ شوكة يسوى بها الحائك نسجه . البو : ولد الناقة والبقرة ؛ يحشى جلده تبنا فتجد رائحته فيه فتدر اللبن له .
(٣) البرم : من لا يدخل مع القوم فى الميسر ضنا بالجزور ، وكانوا يطعمون لحومها الفقراء . تناوحت الريح : لعبت من كل ناحية وذلك زمن الشتاء . العضاه : الشجر الشائك . الضريع : نبات خبيث لا تقربه الدواب .
(٤) كميش الإزار : كناية عن الخفة والنجدة : طلاع أنجد : كناية عن اقتحام الصعاب .

إذا هبط الأرضَ القضاء تزيَّدَتْ ... لرؤيته كالمأتم المتبلّد
وكم غارةٍ بالليل واليومِ قبله ... تداركها منّى بسيدٍ عمرَّد(١)
سليمِ الشظى عبلِ الشوى شنجِ النسا ... طويلِ القرا نهدٍ أسيلِ المقلّد
يفوت طويلَ القوم عقدُ عذاره ... منيفٌ كجذع النخلة المتجرّد
وكنتُ كأنى واثق بمصدّرٍ ... يمشّى بأكناف الجبيلِ فهمدَ(٢)
له كلُّ من يلقَ من الناس واحداً ... وإن يلقَ مثنى القوم يفرحْ ويزدد
وهوّن وجدِى أننى لم أقل له : ... كذبتَ ، ولم أبخلْ بما ملكتْ يدى

---

(١) السيد العمرد : الذئب الشرس فى عسلانه ، يريد به فرسه . الشظى : العظم اللازق بالساعد أو الساق . العبل : الضخم . الشوى : الاطراف . النسا : عصب يجرى فى الفخذ والساق . الشنج : المنقبض . المقلد : العنق . القرا : الظهر .

(٢) المصدر : الاسد . الجبيل فهمد : موضعان .

الفصل الثاني

لمحة عامة

عن الشعر الحجازى الجاهلى

— ١ —

ذكر علماء الأدب ومنهم أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى فى طبقات الشعراء « أن الشعر كان أولا فى ربيعة ؛ وهى قبائل كثيرة ، منها بكر وتغلب وعبد القيس والنمر بن قاسط ويشكر وعجل ولجيم وضبيعة وشيبان وذهل وسدوس ، كانوا يقيمون فى الحجاز ، وتهامة الحجاز ، ثم فى نجد ، ثم نزحت بكر وتغلب نحو العراق »[1] .

ثم تحول الشعر فى قيس وعيلان ، ومن بطونها : عبس وذبيان وغطفان وهوازن وسليم وعدوان وثقيف وعامر بن صعصعة ونمير وجعدة وقشير وعقيل وخفاجة ، وكانت هذه القبائل فى نجد وأعالى الحجاز . ومن ثم يمكننا اعتبار كثير من شعراء هذه القبائل من شعراء الحجاز ، وعلى رأسهم النابغة الذبيانى وزهير .

ثم استقر الشعر فى تميم ؛ وهى قبيلة كبيرة من مضر ، ومن بطونها : مازن ، ودارم ، ويربوع ، ومجاشع ، ومالك ، وبهدلة . وكانت تقيم تميم فى تهامة ، ثم نزحت فى أواسط القرن الثانى - قبل الهجرة - إلى بادية العراق وما يليها جنوبا ، ومنهم أوس بن حجر ؛ وكان شاعر مضر فى الجاهلية ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وهما حجازيان ثم ظهر الشعر فى بطون مدركة ، وهى : هذيل وأسد وكنانة وقريش والدئل ؛ وأغلب هؤلاء من أهل البادية .

---

(١) ومن شعرائها : المهلهل ، والمرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ؛ وهو أشعر المرقشين ، وسعد بن مالك ، وعمرو بن قميئة ، وطرفة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيب ابن علس ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم .

— ٢ —

وأما الحواضر فكانت قليلة فى بلاد العرب، وهى: المدينة، والطائف، ومكة. وقد نبغ منها فى العصر الجاهلى كثيرون، وأشعر الحواضر فى الجاهلية حسان ابن ثابت (١) ولا بأس من أن نذكر الآن أسماء طائفة من الشعراء الحجازيين من أهل الحواضر، أما الحجازيون الآخرون فهم كثيرون فى العصر الجاهلى وسيأتى تفصيل الحديث عن هؤلاء وأولئك فيما يأتى من أبواب وفصول.

وأشهر شعراء المدينة: حسان، وكعب بن مالك، وابن رواحة، وقيس بن الخطيم، وابن الأسلت (٨٤ — ٩٣ طبقات الشعراء). وكان فيها جماعة من اليهود الشعراء، منهم: السموأل، والربيع بن أبى الحقيق، وكعب بن الأشرف، وشريح ابن عمران، وشعبة بن غريض، وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الذيال، ودرهم بن زيد (١١٥ — ١٢٠ طبقات الشعراء).

وكان لقريش شعراؤها وشعرها، وإن كان قليلا فى الجاهلية، يقول ابن سلام: نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية، فاستكثرت منه فى الإسلام.

وأشهر شعراء مكة: عبد الله بن الزبعرى، وأبو طالب، وأبو سفيان، ومسافر ابن أبى عمرو بن أمية، وضرار بن الخطاب، وأبو عزة الجمحى، وعبد الله بن حذافة السهمى، وهبيرة بن أبى وهب بن عامر بن عائذ بن عمران بن مخزوم، والزبير ابن عبد المطلب صاحب البيت المشهور:

إذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصه (٢)

وأشهر شعراء الطائف: أبو الصلت، وأمية بن أبى الصلت، وغيلان، وكنانة ابن عبد ياليل (٣).

---

(١) راجع ٢١، ٢٢ طبقات الشعراء لابن سلام، ٢٩٥ / ٢ المزهر للسيوطى.
(٢) ٦٢ طبقات الشعراء.
(٣) ١٠٧ — ١١٣ طبقات الشعراء.

— ٣ —

ومن القبائل الحجازية الشاعرة قبيلة هذيل ، وكانت اولى القبائل التى يقتدى بها فى البلاغة والبيان ، وهذيل تمت إلى قريش بالنسب والمصاهرة والجوار ، وكانت تحاكى قريشا فى انتقاء الأفصح من الألفاظ ، بما يسهل على اللسان فى النطق ، ويحسن عند المتذوق والسامع المتفهم .

والهذليون من مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ، وكانوا يجاورون القرشيين ، فقد كانت قريش تسكن مكة ، وكانت هذيل تسكن حولها أو قريبا منها ، ومن ثم كان الهذليون والقرشيون قسماء فى الفصاحة .

وقد نبغت هذيل من الشعر خاصة ، حتى كان الرجل منهم ربما أنجب عشرة من البنين كلهم شعراء ، يقول ابو الفرج الأصبهانى : « كان بنو مرة عشرة : ابو خراش ، وابو جندب ، وعروة ، والأبح ، والأسود ، وابو الأسود ، وعمرة ، وجنادة ، وسفيان ، وزهير ، وكانوا جميعا شعراء دهاة » ويروى عن الأصمعى انه قال : إذا فاتك الهذلى ان يكون شاعراً او رامياً فلا خير فيه .

وحسبك ما جمعه كتاب (ديوان الهذليين) الذى نشرته دار الكتب المصرية بالقاهرة من اعلام الشعراء الهذليين (١) ، وقد طبع فى اوروبا مجموعات ثلاث فى شعراء هذيل وهى :

١ — ما بقى من اشعار الهذليين ، ويعرف بالغية ويحتوى على سبعة وعشرين شاعراً

٢ — شرح ديوان الهذليين ، لأبى سعيد السكرى ، ويحتوى على تسعة وعشرين شاعراً .

٣ — مجموعة اشعار الهذليين ، المطبوع فى ليبزج ، ويشمل ستة شعراء .

ويروى أن الرواة لم يكونوا يأخذون عن لخم وجذام وقضاعة وغسان وإياد وتغلب والنمر ، وإنما كانوا يأخذون العربية عن قيس وأسد وتميم وهذيل وبعض كنانة ، وكانوا يأخذون عن قيس وأسد وتميم الاعراب والتصريف والغريب ، من حيث كانوا يأخذون عن قريش وهذيل الفصاحة والبلاغة .

---

(١) وهو عن مجموعة خطية للشنقيطى (رقم ٦ أدب ، ش بدار الكتب) .

ومن شعراء هذيل : أبوذؤيب ، وأبو خراش ، وساعدة بن جؤية ، وأبو العيال ، وأبو قلابة ، وأبو المثلم ، وأبو جندب ، ومالك بن خالد ، وبدر بن عامر ، والمتنخل وأبو كبير ، ومعقل بن خويلد ، والبريق ، وأمية بن أبي عائذ ، وصخر الغي ، وعمرو ذو الكلب ، وحبيب الأعلم ، وعبد مناف بن ربع ، والمعطل ، وقيس بن عيزارة ، وأسامة بن الحارث ، وساعدة بن العجلان ، وجنادة بن عامر ، وأبو بثينة ، والعجلان ابن خليد ، وحذيفة بن أنس ، وخالد بن زهير ، ومالك بن الحارث ، وعمرو بن الداخل ، وأسامة بن الحارث .

— ٤ —

ويجعل ابن سلام شعراء المدينة الفحول خمسة : ثلاثة من الخزرج ، واثنان من الأوس . فمن الخزرج من بنى النجار : حسان بن ثابت . ومن بنى سلمة . كعب بن مالك . ومن بنى الحارث بن الخزرج : عبد الله بن رواحة ، ومن الأوس : قيس بن الخطيم من بنى ظفر ، وأبو قيس بن الأسلت من بنى عمرو بن عوف . وأشعرهم حسان (١) . ومما يدل على انتشار الشعر فى يثرب ، ما يرويه ابن عبد ربه عن أنس بن مالك ، أنه قال : « قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما فى الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر ، قيل له : وأنت يا أبا حمزة ؟ قال : وأنا » . ويقول : وفى يهود المدينة وأكنافها شعر جيد (٢) .

ويقول : وبالطائف شعراء وشعرهم ليس بالكثير ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، والذى قلل شعر قريش كذلك أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا (٣) .

— ٥ —

وللشعر الحجازى خصائصه الواضحة فى الأسلوب واللفظ والمعنى والخيال والغرض . ويلاحظ اشتماله على كثير من الحكمة وقصص الأنبياء ، واحتواؤه على

(١) ٨٤ طبقات الشعراء .
(٢) ١١٥ طبقات الشعراء . (٣) ١٠٧ المرجع .

فكرة التدين ، إلى جزالته وفصاحته ومتانة أسلوبه ، فى عذوبة ، وقد ترتفع العذوبة إلى منزلة عالية فى البلاغة .

وتتمثل كذلك فى الشعر الحجازى ـ فى الأغلب ـ عفة اللفظ وشرف المعنى ونبل الغرض ، فلم يفحش كثير من الشعراء الحجازيين فى قول ولم يسفوا فى بيان ، ولم ينزلوا عن مستواهم الرفيع فى شرفهم وحسبهم ومنزلتهم الاجتماعية العالية ، ويضاف إلى ذلك الطبع وعدم التعجل فى التكلف فى شعر شعراء الحجاز عامة ، إلى العذوبة والرقة فى شعر شعراء الحواضر .

ولقد كان الشعر الحجازى ممثلا للفكر العربى بما فيه من طموح ومن قوة ، ومن شرف وعزة وإباء ، وتطلع وحيرة ، ومعرفة وخبرة وتجربة ، ففيه الكثير من معارف العرب وآرائهم فى الحياة ، وفهمهم لها ، وإدراكهم للتاريخ ، مما سيتجلى فى حديثنا عن عن الشعراء الحجازيين .

ويرى ابن سلام أن شعر قريش كان قليلا فى الجاهلية [1] . لقلة حروبهم.. وقد يرد على هذا بعام الفيل وما ورد فيه من شعر كثير [2] ، وبالخصومات الكثيرة بين القبائل الحجازية ، مما كانت الأيام الحجازية أثرا لها ، وبالخصومات التى وقعت بين الرسول وأعداء الإسلام .

ومن شعراء قريش فى العصر الجاهلى : زيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، ونبيه ابن الحجاج ، وابن الزبعرى ، وعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومى ، وعدى بن نوفل ، وورقة بن نوفل ، وأميمة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، ومسافر بن أبى عمرو بن أمية ، وأبو سفيان [3] .

* * *

وبعد فهذه فكرة عامة عن الشعر الحجازى فى العصر الجاهلى . أما الحديث المفصل عن هذا الشعر فسينتظم الفصول والأبواب الآتية ، وسنبدأ فى الباب التالى بتمحيص الشعر الحجازى الجاهلى حتى تستقيم دراستنا على أسس ثابتة ، إن شاء الله .

---

(١) ٦٢ طبقات الشعراء . (٢) ٢٥١ — ٢٦٢ / ١ بلوغ الارب .
(٣) راجع مهذب الأغانى ، الجزء الثانى ، فى ترجم هؤلاء الشعراء .

الباب الثانى

الشعر الحجازى بين الصحة والوضع

— ١ —

الوضع والنحل من الظواهر الأدبية التى لا تقتصر على أمة دون أمة ، ولا عصر دون عصر ، ولا جيل دون جيل ، وإنما هى ظاهرة عامة تشمل الأجيال كافة ، والعصور جميعا ، حتى العصر الحديث ؛ عصر العلم والحضارة فهو لم يخل من هذه الظاهرة .

وقد سطا لصوص الأدب - ولا يزالون يسطون - على تراث الأموات بل وتراث الأحياء على السواء ، وادعوه لأنفسهم دون خجل أو حياء . وفى عصرنا الحاضر نرى أن قصة ما أو مقالة أو قصيدة قد تنسب لغير كاتبها أو ناظمها ، لغرض التعمية أو التنادر ، أو الإغاظة ، أو الخوف ، أو السرقة ، أو غير ذلك من الأغراض ، مما نشاهده فى حياتنا الأدبية الحاضرة .

وظاهرة النحل ، والانتحال ، قد عرفت فى الأدب العربى منذ عهد بعيد ؛ عرفتها عهود الإسلام الأولى ، بل عرفتها الجاهلية نفسها ؛ فقد قال أبو عبيدة : كان قراد بن حنش من شعراء غطفان ، وكان جيد الشعر قليله ، وكان شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ، ادعى هذه الأبيات :

إن الرزية لا رزية مثلها ... ما تبتغى غطفان يوم أضلت
إن الركاب لتبتغى ذا مرة ... بجنوب نخل إذا الشهور أحلت
ولنعم حشو الدرع أنت لنا إذا ... نهلت من العلق الرماح وعلت
ينعون خير الناس عند كريهة ... عظمت مصيبتهم هناك وجلت [1]

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٥٦٨ — ٥٦٩ .

وروى أن النابغة الجعدى دخل على الحسن بن على فودعه ، فقال له الحسن : أنشدنا من بعض شعرك ، فأنشد :

الحمد لله لاشريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال له : يا أبا ليلى ، ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت . قال : يا ابن رسول الله ، والله إنى لأول الناس قالها ، وان المسروق من سرق أمية شعره [1] .

وسألت عائشة ـ أم المؤمنين ـ من صاحب هذه الأبيات :

جزى الله خيرا من إمام وباركت   يد الله فى ذاك الأديم الممزق
فمن يستمع أو يركب جناحى نعامة   ليدرك ما حاولت بالأمس يسبق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها   بوائق فى أكمامها لم تفتق
وما كنت أخشى أن تكون وفاته   بكفى سبنتى أزرق العين مطرق

فقالوا : مزرد بن ضرار . قالت عائشة : فلقيت مزردا بعد ذلك ، فحلف بالله ما شهد تلك السنة الموسم [2] .

حتى أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قد نحلوه الشعر . وقد روى الزهرى عن عروة عن عائشة أنها قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر فى الإسلام !

وقد تنبه كثير من الرواة العلماء فى القرنين الثانى والثالث لأمر الوضع ، حتى لا نكاد نجد أحداً من هؤلاء الثقات لا ينص على أن بيتاً أو طائفة من الأبيات موضوعة منحولة .

— ٢ —

ويمكن تقسيم الشعر الجاهلى من حيث الصحة والوضع إلى ثلاثة أقسام : الشعر الصحيح ، الشعر المنحول ، الشعر المختلف عليه .

(١) الشعر الصحيح :

فأما الشعر الصحيح ، فالواقع أن رواة الشعر قد أجمعوا على كثير من الشعر الجاهلى ولم يختلفوا إلا فى بعضه قال . ابن سلام : وقد اختلف العلماء فى بعض

(١) المرجع السابق : ١٠٦ — ١٠٧ والاغانى ٥ : ١٠ .
(٢) ابن سعد ٣ / ٢٤١ .

الشعر ، كما اختلفوا فى بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج منه». وقال فى إجماعهم على الموضوع من الشعر : « وليس لأحد — إذا أجمع أهـــل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى »[1] .

وهذا النص يكشف لنا عن مدى تقريرهم لإجماع الرواة فى رواية الشعر ، سواء منه الصحيح والمنحول ، فما أجمعوا على صحته قبلناه ، وما أجمعوا على وضعه رفضناه .

ومما اعتمدوا عليه كذلك فى صحة الشعر ، وجود القصيدة أو الأبيات فى ديوان الشاعر أو ديوان القبيلة مما رواه العلماء الثقات ، يقبلون منه ما يجىء فى صورة اليقين والجزم ، ويقفون أو يشكون فيما اختلف فيه ، وربما قبلوا النظر فيه وأصدروا عليه أحكاماً نقدية خاصة . وقد أورد أبو الفرج الأصبهانى قصيدة لدريد بن الكلبى ، عدتها ثلاثة عشر بيتاً ، ومنها قوله :

أمن ذكر سلمى ماء عينيك يهمل كما انهل خرز من شعيب مشلشل
وماذا ترجى بالسلامة بعدما نأت حقب وابيض منك المرجل
وحالت عوادى الحرب بينى وبينها وحرب تعل الموت صرفا وتنهل
قراها إذا باتت لدى مفاضة وذو خصل نهد المراكل هيكل[2]

وعلق أبو الفرج على هذه الأشعار والأخبار التى وردت فيها بقوله : وهذه الأخبار التى ذكرتها عن ابن الكلبى موضوعة كلها ، والتوليد فيها بين وفى أشعارها . ويستدل على وضعها بقوله : وما رأيت شيئاً منها فى ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات[3] .

وقد يحكمون ذوقهم الأدبى الذى صقلته التجربة وطول الدرس والمعاناة فى تمييز الصحيح من الفاسد من الشعر ، إلى جانب المقاسين السابقين ، وهما :

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، ص ٦ .

(٢) شلشل الماء : قطر . المرجل : الشعر ، يقال : رجل الشعر إذا سرحه . المفاضة هنا : الدرع . وذو خصل : يريد فرساً . والمراكل : جمع مركل ، وهو حيث تصيب رجلك من الدابة . وفرس نهد المراكل : واسع الجوف . والهيكل : الضخم .

(٣) الأغانى ١٠ : ٣٩ — ٤٠ ، دار الكتب .

(ا) إجماع الرواة .

(ب) وجود الشعر فى ديوان القبيلة أو الشاعر .

وإذا ما اطمأنوا إلى صحة الشعر الذى يوردون وصفوه بعبارات تثبت صحته وقدمه، كما فعل أبو عبيدة حين أورد شعراً جاهلياً ، ووصفه بقوله إنه « الشعر الثابت الذى لا يرد » ، وكما فعل الواقدى حين أورد شعرا لحسان ، وعلق عليه بقوله: « ثبت قديمه » ، وغير ذلك من العبارات التى تدل على القطع واليقين .

(٢) الشعر المنحول : وأكثر هذا الضرب هو ما وضعه القصاص ليزينوا به قصصهم ، ويتلمسوا به الثقة فى نفوس السامعين أو القارئين ، وما وضعه بعض الرواة ليثبتوا به نسباً أو يدلوا به على أن لبعض العرب قدمة سابقة .

وقد أرسل الواضعون لأنفسهم العنان ، فنسبوا شعراً لأناس لم يقولوا شعراً قط ، بل أو غلوا فى ضلالهم فوضعوا شعراً على لسان بعض العرب البائدة كعاد وثمود ، بل على لسان آدم أبى البشر — عليه السلام — وغيره من الأنبياء .

وقد هاجم ابن سلام محمد بن إسحق ، عالم السيرة المعروف ، الذى ضمن سيرته أشعاراً كثيرة موضوعة ، فقال فى معرض نقده له : « أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : «فقطع دابر القوم الذين ظلموا » ، أى لا بقية لهم . وقال أيضاً : « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى » . والشعر إما أن يكون موضوعاً على وجه اليقين القاطع ، أو على الترجيح الغالب : ومن السهل اكتشاف أمره وافتضاح سره فهو لا يكاد يخفى على الباحث .

(٣) الشعر المختلف عليه : وأما الشعر المختلف عليه ، فيظهر للقارىء المتعجل عظيما كبير القدر ، ولكنه فى الواقع ليس بالكثرة التى يبدو بها ، فقد يروى الثقة ديوان شاعر عن روايتين أو ثلاث من الطبقة الأولى ، فيورد كثيراً من قصائد الديوان والإجماع منعقد على صحتها ، ثم يشير فى قصائد قليلة إلى أن

هذه القصيدة قد رواها فلان ، ولم يروها فلان ، أو أن تلك القصيدة قد تنسب إلى فلان وهو غير صاحب الديوان . وقد يجمع هذا الراوية — وهو من الطبقة الثانية أو الثالثة — أبياتاً متفرقة ، ومقطعات صغيرة يضمها عنوان هو «المنحول من شعر فلان» وهو يقصد بالمنحول ما لم يروه هؤلاء الرواة العلماء الذين رووا هذا الديوان . فإذا ما أحصيت هذه الأبيات التى نص فى تضاعيف الديوان أنها مما رواه فلان دون فلان ، وضممت إليها « المنحول » ، وجدتها كلها لا تكاد تعد شيئاً مذكوراً إذا قيست بالقصائد التى أجمع الرواة على صحتها[1] .

وأمر آخر جدير بالعناية ، وهو أن كثيراً من النص على « النحل » لا يعنى أن هذا الشعر منحول موضوع حقاً ، وإنما غاية ما يعنى أن هذا الراوية لعالم يذهب إلى أن هذا الشعر منحول ؛ بينما يذهب غيره إلى أنه صحيح . فمرد الأمر إذن إلى خلاف فى الحكم والرأى مرجعه اختلاف المصادر أو اختلاف المناهج[2] . . . فقد ذكر أبو خليفة الفضل بن الحباب ، أنه روى لعباس بن مرداس بيت فى عدنان ، قال :

وعك ابن عدنان الذين تلعبوا　　بمذحج حتى طردوا كل مطرد

ثم قال : « والبيت مريب عند أبى عبد الله » يعنى بن سلام . ولعل ابن سلام ارتاب فى البيت لذكره عدنان « ولم يذكر عدنان جاهلى غير لبيد بن ربيعة » . بينما أورده ابن هشام على أنه صحيح غير مريب ، وذكر أنه أخذه عن أبى محرز خلف الأحمر ؛ وعن أبى عبيدة . وكذلك أورده أبو عبد الله المصعب الزبيرى على أنه صحيح ، ولم يشر إلى ارتيابه كما أشار إلى ارتيابه فى غيره من الأبيات التى تذكر الأنساب[3] .

وبما قد يوهم بالنحل والوضع أيضاً اختلاف الرواة فى نسبة الشعر ، فتراهم

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، للدكتور ناصر الدين الأسد ٤٧٠ — ٤٧١ .

(٢) المرجع السابق ٤٧٣ .

(٣) طبقات فحول الشعراء : ١٠ — ١١ ، والسيرة ١ : ٩ ، ونسب قريش : ٥ .

ينسبون بعضه إلى شاعرين أو ثلاثة شعراء جاهليين . والأمثلة على هذا كثيرة جدا . ومن ذلك أن القصيدة التي منها :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما

نسبها يونس للنابغة الجعدي ، ونسبها أبو عبيدة لأمية ، ثم سئل خلف الأحمر عنها فقال : « للنابغة ، وقد يقال لأمية » .

ويلاحظ أن الشعر في هذا المثل — وفي كثير غيره — نسب إلى شعراء جاهليين ، وأن الخلاف في نسبته لم يخرجه عن نطاق الشعر الجاهلي : فجاهلية هذا الشعر إذن ثابتة لاشك فيها عند هؤلاء الرواة العلماء ، وإن كانوا اختلفوا في الشاعر الجاهلي نفسه[1] .

— ٣ —

الشعر الحجازي في الميزان :

وعلى هذا المقياس سندرس الصحيح والمنحول والمختلف عليه من الشعر الحجازي ، وسنناقش خلال بحثنا طائفة من النصوص وأقوال القدماء ، وآراء المحدثين من عرب ومستشرقين حتى يستقيم لنا رأي ممحص في الشعر الحجازي ، وتبقى لنا منه بعد نفي المنحول مادة تصلح لأن تكون أساساً يعتمد عليه الباحثون في الأدب الحجازي في العصر الجاهلي .

ونحب أن نشير هنا — قبل المضي في البحث — إلى أننا قد حرصنا فيما سبق من هذا الباب ، أن تكون الشواهد والنصوص التي أوردناها ، وثيقة الصلة بشعراء حجازيين ، حجازيين : كزهير بن أبي سلمى ، وأمية بن أبي الصلت ، ومزرد بن ضرار ، ودريد بن الصمة ، وحسان بن ثابت ، وعباس بن مرداس .

ولعل أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث ، تلك العبارة التي أوردها ابن سلام عن قريش ، إذ يقول : « وقد نظرت قريش ، فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية « فاستكثرت منه في الإسلام » ، وعقب الدكتور طه حسين عليها بقوله :

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ٤٧٥ — ٤٧٦ .

« وليس من شك عندى فى أنها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذى يهجى به الأنصار » .

والدكتور طه يعتقد أن السياسة كانت سبباً فى انتحال الشعر ، وأن العصبية بين قريش والأنصار دعت إلى أن يتزيد كل فريق من أشعار الهجاء فى الفريق الآخر . وسود تسع صفحات فى مسألة « المهاجاة بين المهاجرين والأنصار » وحدها ، ولكنه لم يذكر فى بحثه الطويل كلمة واحدة تتصل بأن فريقاً من الفريقين اختلق شعراً ونسبه إلى شعرائه فى الجاهلية .

ويقول الشيخ محمد الخضر حسين فى نقده لهذا الرأى : « وبعد ذلك كله ، ألم يكن من واجب المؤلف — وهو أستاذ كبير — أن يذكر لقراء كتابه بعض الشعر الذى وضعته قريش فى الإسلام ، ونسبته إلى بعض شعرائهم فى الجاهلية ، وكان الداعى إلى وضعه السياسة ؟ »[1] .

ونحن نعتقد أن الشعر القرشى قد دخله شىء من التزيد لهذا السبب أو لغيره من الأسباب ، ولكن هذا الاعتقاد لا يجعلنا نطرح هذا الشعر جملة من حساب التاريخ ، وإنما حسبنا ما نبه إليه الأقدمون من مواطن الكذب أو الانتحال ، نشير إليها ، ونطرحها لتبقى لنا بعد ذلك أشعار صحيحة ، راجحة الكفة أو أدنى إلى الرجحان فى هذا الميزان .

وقد تحدث صاحب الأغانى بإسناد له ، عن عبد العزيز بن أبى نهشل ، أنه قال : قال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وجئته أطلب منه مغرما : ياخال هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة ، وقل سمعت حسانا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : أعوذ بالله أن أفترى على الله ورسوله ، ولكن إن شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها فعلت . فقال : لا ، إلا أن تقول سمعت حسانا ينشدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس . فأبى على ، وأبيت عليه . فأقمنا لذلك لا نتكلم عدة ليال . فأرسل إلى ، فقال : قل أبياتا

(١) فى الأدب الجاهلى ، ص ١٢٤ .

تمدح هشاما - يعنى ابن المغيرة وبنى أمية ؛ فقلت : سمهم لى . فسماهم ، وقال : اجعلها فى عكاظ واجعلها لأبيك ، فقلت :

ألا لله قــوم و لدت أخت بنى سهم
هشام وابو عبد منـاف مدره الخصم
وذو الرمحين أشباك على القوة والحـزم
فهذان يذودان وذا من كثب يرمى
أسود تزدهى الأقرا ن منـاعون للهضم
وهم يوم عكاظ منعـوا الناس من الهزم
وهم من ولدوا أشبوا بسر الحسب الضخم
فـان أحلـف وبيت الله لا أحلـف عـلى إثم
لمـا من أخـوة تبنى قصور الشأم والردم
بأزكى من بنى ريطة أو أوزن فى الحـلم

قال : ثم جئت ، فقلت : هذه قالها أبى . فقال : لا ، ولـكن قل قالها ابن الزبعرى قال : فهى إلى الآن منسوبة فى كتب الناس إلى ابن الزبعرى[1] . ويعلق الدكتور طه حسين على ذلك بقوله : « فانظر إلى عبد الرحمن بن الحارث بن هشام كيف أراد صاحبه على أن يكذب وينتحل الشعر على حسان ؛ ثم لا يكفيه هذا الانتحال حتى يذيع صاحبه أنه سمع حسانا ينشد هذا الشعر بين يدى النبى ، كل ذلك بأربعة آلاف درهم . ولـكن صاحبنا كره أن يكذب على النبى بهذا المقدار، واستباح أن يكذب على عائشة . وعبد الرحمن لا يرضيه إلا الكذب على النبى ؛ فاختصما . وكلاهما شديد الحاجة إلى صاحبه ، هذا يريد شعرا لشاعر معروف ، والآخر يريد المال ؛ فيتفقان آخر الأمر على أن ينحل الشعر عبد الله بن الزبعرى شاعر قريش[2] » .

---

(١) الاغانى ١ : ٦٣ ، دار الكتب . واشباك . حسبك ، كما فى الأمالى . وفى مخطوط الأغانى : أشبال .

(٢) فى الشعر الجاهلى ٧٥ — ٧٦ .

وعلى هذه الرواية ، فهذه القصيدة منحولة قطعا ، وذكر محمد بن طلحة : أن قائل هذه القصيدة هو عمر بن أبي ربيعة[1] . ومن العجيب أن ابن سلام على تشدده ودقته فى ميزان التحقيق العلمى لم يشر إلى هذه القصيدة ـ وقد أوردها فى كتابه ـ بما يفيد أنها منحولة أو موضوعة أو مشكوك فى صحة نسبتها إلى ابن الزبعرى(٢) .

وذكر ابن سلام أبا طالب « فقال : انه كان « شاعرا جيد الكلام ، وأبرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه　　　ربيع اليتامى عصمة للأرامل

ثم قال : « وقد زيد فيها وطولت . رأيت فى كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة ، وقد علمت أن قد زاد الناس فيها ، فلا أدرى أين منتهاها . وسألنى الأصمعى عنها . فقلت : صحيحة جيدة . قال اتدرى أين منتهاها ؟ قلت : لا ادرى ... »(٣) . وقد ذكر ابن هشام ما صح له من هذه القصيدة وهو اربعة وتسعون بيتا . وقال ابن كثير عنها : إنها قصيدة بليغة جدا لا يستطيع ان يقولها إلا من نسبت إليه ؛ وهى افحل من المعلقات السبع وابلغ فى تادية المعنى . وقد شرح الشيخ حمزة فتح الله منها اربعة واربعين بيتا فى كتيبا(٤) .

وذكر ابن سلام بيتين قال : إن الناس يروونهما لأبى سفيان بن الحارث ، ثم قال :(٥) « واخبرنى اهل العلم من اهل المدينة : ان قدامة بن موسى بن عمر بن قدامة بن مظعون الجمحى قالهما ونحلهما ابا سفيان ؛ وقريش ترويهما فى اشعارها » .

ومما يؤكد صحة النص الأدبى ؛ ما يظاهره من اخبار واحاديث تثبت روايته الصحيحة . ومثال ذلك ما رواه ابو وداعة ؛ حيث قال : « رايت رسول الله (ص) وابا بكر رضى الله عنه عند باب بنى شيبة ، فمر رجل وهو يقول :

---

(١) الاغانى ١ : ٦٤
(٢) طبقات فحول الشعراء ٢٠٠ — ٢٠١ .
(٣) طبقات فحول الشعراء . ٢٠٤ .
(٤) المواهب الفتحية ، ج ١ ، ص ١٤٨ — ١٦٤ .
(٥) طبقات فحول الشعراء : ٢٠٨ — ٢٠٩ .

يأيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك لونزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقتار

فالتفت رسول (ص) إلى أبى بكر فقال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذى بعثك بالحق ، لكنه قال :

يأيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن أقراف
الخالطين فقيرهم بغنيهم حتى يعود فقيرهم كالكافى
ويكللون جفانهم بسيوفهم حتى تغيب الشمس فى الرجاف(١)

فتبسم رسول الله (ص) . وقال : هكذا سمعت الرواة ينشدونه .

وقد ذكرنا ـ فيما سبق ـ طرفاً من نقد ابن سلام لابن إسحق . والآن نسوق هذا النقد كاملا :

قال ابن سلام(٢) : وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه : محمد بن إسحق بن يسار ـ مولى آل مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف ـ وكان من علماء الناس بالسير . . . فقبل عنه الناس الأشعار ، وكان يعتذر منها ، ويقول : [لا علم لى بالشعر ، أوتى به فأحمله] . ولم يكن ذلك له عذرا . فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ؛ إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : «فقطع دابر القوم الذين ظلموا» ؛ أى : لا بقية لهم ، وقال أيضاً : (وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى) ، وقال فى عاد (فهل ترى لهم من باقية ؟) ، وقال : (وقروناً بين ذلك كثيرا) .

---

(١) الأمالى للقالى ١ : ٢٤١ ، والرجاف : البحر .
(٢) طبقات فحول الشعراء : ٨—٩

وقال ابن سلام كذلك (١) : « ولأبى سفيان بن الحارث شعر كان يقوله فى الجاهلية، فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نعد مايروى ابن اسحق له ولا لغيره شعرا . ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم » .

ويقول فى موطن ثالث (٢) : « فلو كان الشعر مثل ماوضع لابن إسحق ومثل مارواه الصحفيون ، ماكانت إليه حاجة ، ولا فيه دليل على علم » .

وأكثر ماأورده ابن اسحق من شعر ينسب لشعراء حجازيين وفى دراسة هذا الشعر وتحقيقه يتضح لنا كثير من الصحيح والمنحول المختلف عليه من شعر الحجاز عامة ، وشعر قريش خاصة . وقد عنى بذلك ابن هشام فى سيرته المعروفة .

— ٤ —

استدراكات ابن هشام على ابن إسحاق :

وقد تتبع بعض الباحثين كل ماأخذه ابن هشام على ابن اسحق ونقده فيه ،فوجده لايعدو واحدا من أمور أربعة :

الأول : أنه يورد أبيات الشعر التى أوردها ابن إسحق وينسبها إلى من نسبها إليه ابن إسحق، ثم يضيف أنها قد تنسب كلها أو بعضها إلى غيره . وقد تكرر منه ذلك فى ثمانية وعشرين موضعا (٣) . ونكتفى بذكر بعضها على سبيل المثال :

فمن ذلك مايروى لأمية بن أبى الصلت مما روى لغيره أيضا . فقد أورد أبياتا عن

---

(١) المصدر السابق ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق ١١ .

(٣) نذكر فيما يلى أرقام صفحاتها ، كما وردت فى سيرة ابن هشام على سبيل الحصر السيرة : ح ١ : ١٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٥ ، ١٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ح ٢ : ١٥٩ ، ٢٢٣ ، ٢٥٦ ، ٣١٠ ؛ ح ٣ : ١٦ ، ٢٠ ، ٨٣ ، ١٢٩ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٨٢ ، ٣٦٢ ؛ ح ٤ : ٥١ ، ٩٠ ، ١٩٩

ابن اسحق من شعر أبى قيس بن الأسلت ، ثم عقب عليها بقوله (١) : « وقال ابن هشام ، وهذه الأبيات فى قصيدة له ، والقصيدة تروى لأمية بن أبى الصلت » . . . وكذلك قال ابن إسحق (٢): « وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى فى شأن الفيل » ويذكر الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام . قال ابن هشام : تروى لأمية بن أبى الصلت ابن أبى ربيعة الثقفى » . وقال ابن إسحق (٣) : « وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى » قال ابن هشام وتروى لأمية بن أبى الصلت » . وأورد ابن إسحق أبياتا نسبها إلى زيد بن عمرو بن نفيل ، فقال ابن هشام (٤) : « هى لأمية بن أبى الصلت فى قصيدة له إلا البيتين الأولين والبيت الخامس وآخرها بيتاً » .

وأورد كذلك أبياتاً نسبها إلى ورقة بن نوفل بن أسد فقال ابن هشام (٥) : « وروى لأمية بن أبى الصلت البيتان الأولان منها وآخرها بيتا فى قصيدة له » ، وقد أورد أبياتا رواها ابن إسحق ونسبها إلى سيف بن ذى يزن الحميرى ، فعقب عليها ابن هشام بقوله (٦) : « وهذه الأبيات فى أبيات له . وأنشدنى خلاد ابن قرة السدوسى آخرها بيتاً لأعشى بنى قيس بن ثعلبة فى قصيدة له . وغيره من أهل العلم بالشعر ينكرها له » . وأورد ثلاثة أبيات من الرجز نسبها إلى [رجل من العرب] فقال ابن هشام (٧) : « من الناس من ينحلها امرأ القيس بن حجر الكندى » . وذكر إسحق بيتا نسبه إلى أعشى بنى قيس بن ثعلبة هو قوله (٨) :

بين الخورنق والسدير وبارق   والبيت ذى الكعبات من سنداد

فقال ابن هشام : « وهذا البيت للأسود بن يعفر النهشلى . . . فى قصيدة له . وأنشدنيه أبو محرز خلف الأحمر :

---

(١) السيرة ، جـ ١ ، ص ٦٠

(٢) المصدر السابق ١ : ٦٢

(٣) المصدر السابق ١ : ٦٧

(٤) السيرة ١ : ٢٤٢

(٥) السيرة ١ : ٢٤٧

(٦) السيرة ١ : ٦٦ — ٦٧

(٧) السيرة ١ : ٨٨ — ٨٩

(٨) السيرة ١ : ٩١

أهل الخورنق والسدير وبارق والبيت ذى الشرفات من سنداد

وذكر ابن إسحق أبياتاً نسبها إلى عبد الله بن الزبعرى ، فقال ابن هشام(١) : « وتروى للأعشى بن زرارة بن النباش » ، وكذلك ذكر أبياتاً لحسان فقال ابن هشام(٢) « ويقال بل قالها عبد الله بن الحارث السهمى » .

وأورد أبياتاً لحسان بن ثابت فعقب عليها ابن هشام بقوله(٣) : « وآخرها بيتا يروى لأبى خراش الهذلى ، وأنشدنيه له خلف الأحمر . وتروى . . الأبيات أيضاً لمعقل بن خويلد الهذلى » ... وذكر أبياتاً نسبها ابن إسحق لحسان بن ثابت شاعر رسول الله (ص) ، ثم عقب عليها ابن هشام بقوله(٤) : « أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب ابن مالك » .

وأما الضرب الثانى : من تعقيبه ابن إسحق ، فهو إيراده الحادثة التاريخية ، كما وردت فى سيرة ابن إسحاق ، حتى إذا وصل إلى الشعر الذى قيل فى هذه الحادثة أسقطه ولم يثبته ، لأنه لم يصح عنده . ولعل ذلك قد تكرر منه فى مواطن كثيرة ، لأنه ذكر فى المقدمة أنه ترك أشعاراً ذكرها ابن إسحق ولم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها . غير أنه لم ينص على تركه الأشعار إلا فى موضعين اثنين ، فقد أورد مسير أبى كرب تبان أسعد إلى يثرب وغزوه إياها ، فلما أن وصل إلى شعر خالد بن عبد العزى الذى فيه(٥) :

حنقاً على سبطين حلا يثربا أولى لهم بعقاب يوم مفسد

قال ابن هشام : (الشعر الذى فيه البيت مصنوع ، فذلك الذى منعنا من إثباته) .

وكذلك أورد ما ذكره ابن إسحق من نذر عبد المطلب ذبح ولده ، وحذف ما جاء فى أثناء هذا الحديث من شعر ، وقال(٦) : (وبين أضعاف هذا الحديث رجز لم يصح عندنا عن أحد من أهل العلم بالشعر) .

---

(١) السيرة ٢ : ١٦ (٢) السيرة ٢ : ٢٠ .
(٣) السيرة ٢ : ٨٣ (٤) السيرة ٣ : ١٣٨ — ١٣٩
(٥) السيرة ١ : ٣٤ (٦) السيرة ١ : ١٦٤

وضرب ثالث من تعقيباته : يذكر فيه أبياتاً من الشعر الذى أورده ابن إسحق ويكتفى بها ولا يورد باقيها ، ثم يقول إن ذلك ماصح له منها . وقد تكرر منه ذلك فى ثمانية مواضع[1] منها : أن ابن إسحق أورد أبياتاً لعكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف ، وقد اجتزأ ابن هشام بثلاثة أبيات منها ، وقال[2] : «قال ابن هشام هذا ما صح له منها» .

وروى ابن إسحق أبياتاً كثيرة لأبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، ومع أن ابن هشام قال إنها تروى لابنه أمية «فقد قال أيضاً[3]» هذا ماصح له مما روى ابن إسحق منها إلا آخرها بيتاً قوله :

تلك المكارم لاقعبان من لبن شِيبا بماء فعادا بَعْدُ أبوالا

فانه للنابغة فى قصيدة له .

وذكر ابن سلام أن هذا البيت تروبه عامر للنابغة ، والرواة يجمعون على أن أبا الصلت بن أبى ربيعة قاله . وقد أتى به مثلا على أن الشاعر قد يستزيد فى شعره بيتاً قاله قائل قبله ؛ كالمتمثل حين يجىء موضعه من غير أن يقصد اجتلابه أو سرقته .

وأورد ابن اسحق قصيدة أبى طالب ، فذكر ابن هشام منها أربعة وتسعين بيتاً ، ثم قال[4] . «هذا ما يصح لى من هذه القصيدة وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها» .

والضرب الرابع : مثل ما يؤثر من أن ابن هشام كان يورد الشعر الذى أورده ابن إسحق كاملا لا يخرم منه بيتاً ثم يذكر أنها منحولة . وقد تكرر

---

(١) ج ١ : ٥٣ ، ٦٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ٢٩٩ — ج ٣ ، ص : ١٨٧ — ج ٤ ص ٣٤
(٢) السيرة ١ : ٥٣ .
(٣) السيرة ١ : ٦٨ — ٦٩ .
(٤) السيرة ١ : ٢٩٩ .

منه ذلك فى ستة وثلاثين موضعا[١] : ويكاد يلتزم فى تعبيره عن شكه أربعة أنواع من العبارة :

(أ) يورد ما رواه ابن إسحق من شعر لأبى بكر الصديق[٢] وعبد الله ابن الزبعرى[٣]، وسعد بن أبى وقاص، وحمزة بن عبد المطلب، وأبى جهل، وهند بنت أثاثة، وحسان بن ثابت، وميمونة بنت عبد الله، وكعب بن الأشرف، وعلى بن أبى طالب، والزبرقان بن بدر، والحارث بن هشام، ويعقب على كل قصيدة يوردها لهؤلاء بقوله « وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له »[٤].

(ب) ويورد ما رواه ابن إسحق من شعر لمالك بن الدخشم[٥]، ومكرز بن حفص، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وضرار بن الخطاب، والحارث بن هشام، وهند بنت عتبة، وحسان بن ثابت، وعبدالله بن لزبعرى، وعمرو بن العاص، وخبيب بن عدى، ومسافع بن عبد مناف، ويعقب على كل قصيدة يوردها لهؤلاء بقوله « وبعض أهل الشعر ينكرها له ».

(ح) وإذا كان قد ذكر فى العبارات الأولى « أكثر أهل العلم بالشعر » وفى العبارات الثانية « بعض أهل العلم بالشعر » فى عبارة ثالثة يقول « إنه لم ير أحدا من أهل العلم بالشعر يعرف هذه الأبيات ».

---

(١) ج ١ : ١٧٩ — ج ٢ : ٤٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨، ٣٠٣، ٣٠٤ — ٣٠٥ — ج ٣ : ٨، ١١، ٢٤، ٢٩، ٣٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٥٦، ٥٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٤، ١٦٣، ١٧٤، ١٧٨، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٣، ٢٠٦، ٢٣٦، ٢٨٠، ٢٨١ — ج ٤ : ٣٤، ٦٢، ٩٠، ٢٠٩، ٢٣١.

(٢) السيرة : ٢ : ٢٤٢. (٣) السيرة ٢ : ٢٤٤.

(٤) السيرة ٢ : ٢٤٥، ٢٤٦، ٣ : ٨، ٢ : ٢٤٨، ٣ : ٤٤، ٣ : ٥٦ ؛ ١٦٣، ١٩٣، ٣ : ٥٧ ؛ ٢٣٦. ٤ : ٢٠٩، ٣ : ٨ — ١١

(٥) ٢ : ٣٠٤، ٣٠٥، ٣ : ٢٤، ٢٩، ١٤٨، ١٧٤، ٣ : ٣٠، ٤١، ٢ : ٤، ١٧٨، ١٥١، ١٨٦، ١٨٧، ٢٨١، ١٥٤، ١٨٥، ٢٨٠.

ومن ذلك أن ابن إسحق روى عن محمد بن سعيد بن المسيب خبر وفاة عبد المطلب بن هاشم ، وبكاء بناته الست عليه ، وهن : صفية ، وبرة ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة ، وأروى . وقد بكت عليه كل واحدة بشعر أورده ابن هشام ، ثم عقب عليه بقوله[1] « ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر ، إلا أنه لما رواه عن محمد بن سعيد بن المسيب كتبناه » .

وكذلك روى ابن إسحق قصيدتين ، الأولى : لعلى بن أبى طالب فى يوم بدر ، والثانية : نقيضتها وهى للحارث بن هشام بن المغيرة ، وقد أوردهما ابن هشام وقال : « ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها ، وإنما كتبناهما لأنه يقال إن عمرو بن عبد الله بن جدعان قتل يوم بدر ولم يذكره ابن إسحق فى القتلى ، وذكره فى هذا الشعر[2] .

وروى ابن إسحق أبياتاً لعلى بن أبى طالب ، فأوردهما ابن هشام ، وقال « قالها رجل من المسلمين يوم أحد غير على ، فيما ذكر لى بعض أهل العلم بالشعر ، ولم أر أحداً منهم يعرفها لعلى »[3] .

(د) وقد نص فى موضع واحد على اسم عالم من علماء اللغة والشعر والأخبار ، هو : أبو عبيدة ؛ وذلك أنه أورد قصيدة من اثنى عشر بيتاً ، رواها ابن إسحق لعمرو ابن معد يكرب ، ثم قال إن أبا عبيدة أنشده الأبيات الثلاثة الأولى منها ، وفيها خلاف فى رواية بعض ألفاظها ، وأنه لم يعرف سائرها[4] .

وثمة مآخذ أخرى استدركها ابن هشام على ابن إسحق ، ولم تدخل فى الضروب الأربعة السالفة . وهى :

١ — يروى ابن إسحق قصيدة لأمية بن أبى الصلت يبكى زمعة بن الأسود وقتلى بنى أسد ويوردها ابن هشام كما رواها ابن إسحق ، ويعقب عليها بقوله : « هذه الرواية لهذا الشعر مختلطة ليست بصحيحة البناء ، ولكن أنشدنى أبو محرز خلف الأحمر وغيره ، وروى بعض ما لم يرو بعض » . ثم يورد القصيدة بهذه الرواية الأخرى ، صحيحة البناء مستقيمة الوزن[5] .

---

(١) ٢ : ١٧٩ . (٢) السيرة ٣ : ١١ . (٣) السيرة ٣ : ١٧٤ .
(٤) السيرة ٤ : ٢٣١ . (٥) السيرة ٣ : ٣٤ .

٢ — ويروى ابن إسحق قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً للعباس بن مرداس ، وقد رواها كلها متتابعة على أنها قصيدة واحدة — إذ أنها ذات وزن واحد وروى واحد — وأوردها على ذلك ابن هشام ، ثم عقب عليها بقوله : (قال ابن هشام : من قوله (أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها) الخ ، فى هذا اليوم ، وما قبل ذلك فى غير هذا اليوم . وهما مفصولتان ولكن ابن إسحاق جعلهما واحدة)(١) .

٣ — ويحذف ابن هشام بيتاً أو أبياتاً من قصيدة رواها ابن اسحق ، لا لشك فى صحة الشعر ونسبته ، وإنما لأن الشاعر أقذع فيه . وكذلك أبدل كلمات من شعر رواه ابن إسحق ، لأن الشاعر (نال فيها من النبى ﷺ) وترك بيتين من قصيدة لأمية بن أبى الصلت ؛ لأنه (نال فيهما من أصحاب رسول الله ﷺ)(٢) .

٤ — وله أحياناً تعليقات على ما يورد من الشعر من حيث العروض أو من حيث جمال الشعر . فمن ذلك أن يذكر كلاما لرئى من الجن هو : (ألم تر إلى الجن وإبلاسها ، وإبساسها ، من دينها ؛ ولحوقها بالقلاص وأحلاسها) ، ثم يعقب عليه بقوله : (قال ابن هشام : هذا كلام سجع وليس بشعر)(٣) وذكر قولهم : (لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة) . وعقب عليه بقوله : (هذا كلام وليس برجز)(٤) .

ويورد كذلك أبيات سبيعة بنت الأحب ، ومطلعها :

أبنى لا تظلم بمـ ـكة لا الصغير ولا الكبير

ثم قال : يوقف على قوافيها لا تعرب(٥) وأورد أبياتاً على الكاف المكسورة رواها ابن إسحق لأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ثم عقب عليها بقوله : (بقيت منها أبيات تركناها لقبح اختلاف قوافيها) .

---

(١) السيرة ٤ : ٨٤ . (٢) ٣ : ١١ ؛ ٣٣ .
(٣) السيرة ١ : ٢٢٣ — ٢٢٤ . (٤) السيرة ٢ : ١٤٢ .
(٥) السيرة ١ : ٢٧ .

ويورد أبياتاً لحسان بن ثابت يذكر عدة أصحاب اللواء يوم أحد ، ثم يعقب عليها بقوله : « هذا أحسن ما قيل » .

ويورد أبياتاً رواها ابن إسحق لأبى أسامة معاوية بن زهير بن قيس ، ويعقب عليها بقوله [1] : « وهذه أصح أشعار أهل بدر »[2] .

* * *

هذا ما ذكره ابن هشام عن الشعر الجاهلى الذى رواه ابن إسحق فى سيرته ومعظمه شعر حجازى .

— ٥ —

وأورد ابن سلام ما يروى عن الشعبى ، عن ربعى بن خراش من أن عمر بن الخطاب قال : أى شعرائكم الذى يقول :

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

وعلق عليه بقوله : هذا غلط على الشعبى أو من الشعبى ، أو من ابن خرش .

أجمع أهل العلم على أن النابغة لم يقل هذا ، ولم يسمعه عمر ، ولكنهم غلطوا بغيره من شعر النابغة . وقد عد الجاحظ أيضاً البيت السالف من منحول شعر النابغة [3] .

وكذلك ذكر مرجوليوث هذا البيت ، أثناء حديثه عن الأدلة التى ساقها لإثبات نظريته فى أن الشعر الذى نقرأه على أنه شعر جاهلى ، إنما نظم فى العصور الإسلامية . ويرى أن النابغة كان يعرف قصة نوح بتفصيلاتها ، ويعقب على ذلك بقوله : (ويبدو أن القرآن هو المصدر الوحيد عن هذا الأمر) ، ثم يورد بيت النابغة ، ويقول : وهنا إشارة إلى الصفة (أمين) وهى فى القرآن من صفات

---

(١) السيرة ٣ : ٢٢٣ ، ١٥٦ ، ٣٥ .

(٢) راجع فى هذا الموضوع : (مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية) ، ٣٣٧ — ٣٤٥ :

(٣) الحيوان : ٢ : ٢٤٦ .

« نوح » ، ويعنى بذلك الآيات : (كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون : إنى لكم رسول أمين)[١] .

وقد ذكر ابن سلام حسان بن ثابت ، فقال عنه : (٢) « إنه كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد . لما تعاضهت قريش واستبت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنقى(٣) » .

وذكر أبو عمرو بن العلاء ، أن ذا الأصبع العدوانى قال يرثى قومه (٤) :

وليس المرء فى شىء ... من الإبرام والنقض
إذا يفعل شيئاً خا ... له يقضى وما يقضى
جديد العيش ملبوس ... وقد يوشك أن يفضى

ثم نص على أنه لا يصح من أبيات ذى الأصبع الضادية هذه إلا الأبيات التى أنشدها ، وأن سائرها منحول بينما نرى أبا الفرج نفسه يورد من هذه القصيدة غير الأبيات المتقدمة نحواً من أربعة وعشرين بيتاً آخر(٥) .

وذكر الجاحظ فى الحيوان ، قول غيلان بن سلمة :

فى الآل يخفضها ويرفعها ... رَيعٌ كأنّ متونهُ السحلُ
عقلا ورقما ثم أردفه ... كِللٌ على ألوانها الخملُ
كدم الرعاف على مآزرها ... وكأنهنّ ضوامراً إجلُ

ثم علق على ذلك بقوله : وهذا الشعر عندنا للمسيب بن علس ، فهو إذن يجزم بأن هذا الشعر محمول على غيلان ، ولكن دون حجة أو دليل .

ولننتقل بعد هذا لدراسة لاميتى الشنفرى وتأبط شراً .

---

(١) راجع مقالة مرجوليوث عن أصول الشعر العربى ، فى عدد يوليو ١٩٢٥ من المجلة الملكية الآسيوية .

(٢) طبقات الشعراء : ١٧٩ — تعاضهوا : تراموا بالإفك والشتيمة .

(٣) الأغانى ٣ : ١٠٦

(٤) المصدر نفسه ٣ : ٩٦

(٥) المصدر نفسه : ١٢ : ١٠٧ — ١٠٨

لامية العرب بين الشنفرى وخلف الأحمر : فأما لامية الشنفرى فقصيدة مشهورة تسمى لامية العرب وقد قال أبو علي القالي [1] كان أبو محرز — وهى كنية خلف بن حيان الرواية الشهير بخلف الأحمر — أعلم الناس بالشعر واللغة وأشعر الناس على مذاهب العرب . حدثني أبو بكر بن دريد : أن القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى التي أولها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم　　　فإني إلى قوم سواكم لاميل

له ، وهى من المقدمات فى الحسن والفصاحة والطول ، فكان أقدر الناس على قافية .

ومن العجيب أن أبا بكر بن دريد على تفضيله خلفا على الأصمعى وجعله الأول بحراً والثانى ثماداً ، قد ذكر أن خلفا هو قائل هذه اللامية ، ولكن مما يضعف هذا الاتهام ويرجح أن القصيدة للشنفرى ، أن ابن سلام ينص على علم خلف بالشعر ، وينص كذلك على توثيقه فى الرواية . ثم لا يكتفى بأن يجمل ذلك رأيا خاصاً به ، وإنما يذكر أن هذا الرأى هو إجماع علماء البصرة ، قال ابن سلام (أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لساناً ، كنا لا نبالى إذا أخذنا عنه خبراً او أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه) ، ولرأى ابن سلام قيمة خاصة إذ أن ابن سلام هو من نعرف شكا فى بعض الشعر الجاهلي ، ونصا على بعض المنحول منه ، والحق أن ابن سلام لم يكتف بكل هذا الذى قاله فى توثيق خلف ، وإنما أضاف إليه أقوالا أخرى ذهب فيها إلى أن خلفا كان ناقدا للشعر الجاهلي ، يميز صحيحه من فاسده وينص على المنحول منه ، ويردد كثيرا مما كان يروى فى زمنه . ومن أجل هذا جاءه خلاد بن يزيد الباهلى وكان خلاد حسن العلم بالشعر ، يرويه ويقوله فقال له : بأى [2] شىء ترد هذه الأشعار التى تروى ؟ فقال له خلف : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال . نعم . قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت .

(١) الأمالى ١ : ١٥٦
(٢) طبقات الشعراء : ٨

وهو يصوره أيضا أنه — فى شكه فى بعض الشعر الجاهلى — لا يقطع ولا يجزم، وإنما يقول: إن هـذه الأبيات أو تلك القصيدة «يقال» إنها لفلان؛ فمن ذلك أن ابن سلام سأله عن بيت من الشعر: من يقوله؟ فأجابه: «يقال للزبير بن عبد المطلب(١)».

ولقد تجنى بعض الرواة على خلف، حتى إنهم وضعوا على لسانه شعراً ورجزاً، ثم نسبوا إليه أنه وضع ذلك الشعر ونحله الشعراء القدماء.

قال الجاحظ(٢): «ولقد ولدوا على لسان خلف الأحمر، والأصمعى، أرجازاً كثيرة، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء؟»، وكل ذلك يرجح رأينا فى أن هذه القصيدة قد نظمها الشنفرى، ولم ينحله إياها خلف الأحمر.

لامية تأبط شرا:

وقد اختلف النقاد كذلك فى نسبة اللامية التى مطلعها:

إن بالشعب الذى جنب سلع لقتيلاً دمه ما يطلّ

فنسبها بعضهم؛ كأبى تمام فى حماسته(٣)، إلى تأبط شرا، ولم يشر إلى أنها قد تنسب إلى غيره. ونسبها بعضهم إلى الشنفرى(٤)، ولم يشر كذلك إلى أنها قد تنسب إلى غيره. ونسبها بعضهم إلى ابن أخت تأبط شراً، قالها فى خاله.

وسواء أكانت هذه القصيدة لتأبط شراً أم لابن أخته أم للشنفرى، فهى جاهلية صحيحة وليست منحولة. وهؤلاء جميعا كانوا يضطربون فى بيئة حجازية — فناظم هذه القصيدة إذن — وأيا كان هذا الاختلاف — جاهلى حجازى، بيد أن عقدة هذا الموضوع فيما ذكروه من أن خلفا هو ناظم هذه القصيدة، وقد نحلها تأبط شرا

---

(١) طبقات الشعراء: ٢٠٥

(٢) الحيوان ٤: ١٨١ — ١٨٢

(٣) ج ١ ص: ٣٤٨

(٤) الأغانى ٦: ٨٦ — ٨٧، وأمالى المرتضى ١: ٢٨

فلنبدأ بمناقشة أقوال من ذهب إلى أنها منحولة، ثم نعقب بما يثبت رأينا من الأخبار والأقوال.

قال التبريزى، قال: قال النمرى[1]: ومما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها • جل حتى دق فيه الأجل •، فإن الأعرابى لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا. قال أبو محمد الأعرابى[2]: هذا موضع المثل (ليس بعشك فادرجى) وليس هذا كما ذكره، بل الأعرابى قد يتغلغل إلى أدق من هذا لفظا ومعنى. وليس من هذه الجهة عرف أن الشعر مصنوع، لكن من الوجه الذى ذكره لنا أبو الندى[3].

قال: (مما يدل على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سلعا، وهو بالمدينة، وأين تأبط شراً من سلع؟ وإنما قتل فى بلاد هذيل ورمى به فى غار يقال له رخمان). وفى هذا النقض دليل على إحساس الأقدمين أنفسهم بضعف قول من قال إن هذه القصيدة لخلف نحلها تأبط شراً أو ابن اخته، وما هو هذا المعنى الفلسفى العميق الذى لا يستطيع أن يتغلغل إليه الأعرابى؟ إنه كما قالوا نصف بيت فى القصيدة كلها وهو قوله: جل حتى دق فيه الأجل. فإذا كشفت عن هذا المعنى لم تجده يعنى شيئا غير قوله: إن وفاة هذا الرجل لأمر عظيم يصغر بإزائه كل عظيم من الأمور. فأى عمق فى هذا القول لا يدركه الأعرابى ومن هو دون الأعرابى[4].

بيد أن الدليل الذى أقامه أبو الندى على أنقاض هذا الدليل؛ لإثبات أن هذه القصيده مصنوعة، وهو أن الشاعر ذكر سلعاً وسلع: جبل بالمدينة،

---

(١) أحد شراح حماسة أبى تمام المتقدمين. قبل التبريزى.

(٢) هو الحسن بن أحمد. المعروف بالأسود الغندجانى. علامة نسابة. عارف بأيام العرب وأشعارها. من رجال آخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس (ترجمته فى نزهة الألباء: ٢٣٩؛ ومعجم الأدباء ٧: ٢٦١ — ٢٦٥).

(٣) هو محمد بن أحمد، أبو الندى، كان أبو محمد الأعرابى يكثر من الرواية عنه والاعتماد عليه (معجم الأدباء ١٧: ١٥٩ — ١٦٤).

(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها. تاليف: الدكتور عبد الله الطيب ص: ٧٦ — ٧٧. التعليق رقم: ١

منقوض أيضاً . فإن سلماً — كما ورد فى القاموس ، مادة سلع ، وفى معجم البلدان : اسم لعدة مواضع — ومنها كما نص الأقدمون أنفسهم جبل بهذيل — وقد وضح نقض هذا الخبر الذى يتهم خلفاً بوضع هذه القصيدة ونحلها الشنفرى أو تأبط شراً أو ابن أخته ، حيث قد رجح لدينا أن أكثر هذه القصيدة لا يمكن أن يكون موضوعا متكلفاً منحولا .

ويجدر بنا — بعد هذا — أن نورد كيف التبس الأمر على القوم فى هذه القصيدة ، فقد أورد الخالديان إثنى عشر بيتاً من هذه القصيدة ونسباها للشنفرى ، ثم قالا : وقد زعم قوم من العلماء أن الشعر الذى كتبنا للشنفرى هو لخلف الأحمر ، وهذا غلط . ونحن نذكر الخبر فى ذلك : أخبرنا الصولى ، عن أبى العيناء ، قال : حضرت مجلس العتبى ، ورجل يقرأ عليه الشعر للشنفرى ، حتى أتى على القصيدة التى أولها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيـــلا دمه ما يطل

فقال بعض من كان فى المجلس : هذه القصيدة لخلف الأحمر . فضحك العتبى من قوله ، فسألناه عن سبب ضحكه ؟ فقال . والله ما لآل أبى محرز خلف من هذه القصيدة بيت واحد ، وما هى إلا للشنفرى ، وكان لها خبر طريف لم يبق من يعرفه غيرى . قلنا . وما خبرها ؟ قال . جلسنا يوماً بالمربد ، ونحن جماعة من أهل الأدب ، ومعنا خلف الأحمر نتذاكر أشعار العرب ، وكان خلف الأحمر أروانا لهـا وأبصرنا بها ، فتذاكرنا منها صدراً ، ثم أفضينا إلى أشعارنا ، فخضنا فيهـا ساعة ، فبينـا خلف ينشدنا قصيدة له فى روى قصيدة الشنفرى هذه وقافيتها يذكر فيهـا ولد أمير المؤمنين عليهم الرحمة ، وما نالهم وجرى عليهم من الظلم ، إذ هجم علينـا الأصمعى ، وكان منحرفا عن أهل البيت ، وقد أنشد خلف بعض الشعر ؛ فلمـا نظر الأصمعى قطع ما كان ينشده من شعره ودخل فى غيره إلا أنه على الوزن والقافية ، ولم يكن فينـا أحد عرف هذا الشعر ولا رواه للشنفرى . فتحيرنا لذلك وظنناه شيئاً عمله على البديهة . فلما انصرف الأصمعى قلنا له . قد عرفنا غرضك فيما فعلت . وأقبلنـا نطريه

ونقرظه ، فقال : إن كان تقريظكم لى لأنى عملت الشعر ، فما عملته والله ، ولكنه الشنفرى رثى تأبط شراً ، ووالله لو سمع الأصمعى بيتاً من الشعر الذى كنت أنشدكوه ما أمسى أو يقوم به خطيباً على منبر البصرة فيتلف نفسى : فادعاء شعر ، لو أردت قول مثله ما تعذر على ، أهون عندى من أن يتصل بالسلطان ، فألحق باللطيف الخبير .

قال أبو العيناء : فسألنا العتبى شعر خلف الذى ذكر فيه أهل البيت ، فدافعنا مدة ، ثم أنشد :

قَدْكَ منى صارم ما يفل   وابن حزم عقده لا يحل
ينثنى باللوم من عاذليه   ما يبالى أكثروا أم أقلوا

(وهى ٤٧ بيتاً أوردها كلها ، ثم قال) : كتبنا هذه القصيدة بأسرها لأنها فى سادتنا عليهم السلام ، ولأنها أيضاً غريبة لا يكاد أكثر الناس يعرفها[1] .

شعر أمية بن أبى الصلت الربعى :

ومن أشهر من شك فى شعر أمية بن أبى الصلت الدكتور طه حسين ، والواقع أن الدكتور طه حسين ، لم يشك فى شعر أمية وحده إنما أمسك بمعول الشك يهدم به الشعر الجاهلى ولا سيما ذلك الذى ينسب إلى ربيعة ، واليمن . وقد شك بخاصة فى شعر شعراء سماهم بأسمائهم وهم : امرؤ القيس ، وعلقمة وعبيد بن الأبرص ، وعمرو بن قميئة ، ومهلهل ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة ، والحارث بن حلزة والمتلمس ، والأعشى . . . أما شعراء مضر ، فقد وقف منهم موقفاً وسطاً بين القبول والرفض . » . وقد قال فى كتابه «فى الشعر الجاهلى» الذى أحدث ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية والدينية بمصر وغير مصر .

«ولنا فى شعر مضر رأى غير رأينا فى شعر اليمن وربيعة ، لأننا نستطيع أن نؤرخه ونحدد أوليته تقريباً ، ولأننا نستطيع أن نقبل بعض قديمه دون

---

(١) حماسة الخالديين (مخطوط فى دار الكتب المصرية رقم ٥٨٧ أدب) ، ورقة : ١٢٠ — ١٢٢ .

أن تحول بيننا وبين ذلك عقبة لغوية عنيفة ، وإذن فنحن نستطيع أن نستأنف هذا البحث فى سفر آخر ، وسترى أن الشعراء الجاهليين من مضر قد أدركوا الإسلام كلهم أو أكثرهم ، فليس غريباً أن يصح من شعرهم شىء كثير[1] ، وقد وفى بوعده فذكر فى كتابه : «فى الأدب الجاهلى» رأيه فى الشعر المضرى الذى يتلخص فى قوله : «ونحن لا نقف من الشعر المضرى الجاهلى موقف الرفض أو الإنكار ، لأن الصعوبة اللغوية التى اضطرتنا إلى أن نرفض شعر الربعيين واليمنيين لا تعترضنا بالقياس إلى المضريين ، فقد بينا غير مرة أننا نعتقد أن لغة القرشيين قد ظهرت فى الحجاز ونجد قبيل الإسلام ، وأصبحت لغة أدبية فى هذا القسم الشمالى من بلاد العرب . وإذن فليس يبعد — بوجه من الوجوه — أن يكون الشعراء الذين نجموا فى هذه الناحية ، قد قالوا الشعر فى هذه اللغة القرشية الجديدة ، بل نحن لا نشك فى هذا ولا نتردد فى القطع به . . .[2] »

لسنا نشك فى أن قد كان لمضر شعر فى الجاهلية ، ولسنا نشك أيضاً فى أن هذا الشعر قديم العهد ، بعيد السابقة ، أقدم وأبعد مما يظن الرواة ، والمتقدمون من العلماء . ولكننا لا نشك أيضاً فى أن هذا الشعر قد ذهب ، وضاعت كثرته ، ولم يبق لنا منه إلى شىء قليل جداً لا يكاد يمثل شيئاً ، وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر ، قد اضطرب ، وكثر فيه الخلط والتكلف والنحل ، حتى أصبح من العسير جداً — إن لم يكن من المستحيل — تلخيصه وتصفيته .

ويلخص الدكتور طه حسين موقفه من الشعر الجاهلى بقوله :

«إننا نرفض شعر اليمن فى الجاهلية ، ونكاد نرفض شعر ربيعة أيضاً . . . وأقل ما توجبه علينا الأمانة العلمية ، أن نقف من الشعر المضرى الجاهلى ، لا نقول موقف الرفض أو الإنكار ، وإنما نقول موقف الشك والاحتياط »[3] .

---

(١) فى الشعر الجاهلى ، ص ١٨١ — ١٨٢ ، الطبعة الأولى ١٩٢٦

(٢) الادب الجاهلى ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦

(٣) فى الادب الجاهلى : ٢٧١ ، ٢٧٥ .

وقد كان الباحثون من الفرنجة يرون خطأ وإثما أن القرآن تأثر باليهودية والنصرانية ، ومذاهب أخرى كانت شائعة فى البلاد العربية وما جاورها . ولكنهم رأوا أن يضيفوا إلى هذه المصادر مصدرا عربياً خالصاً ، والتمسوا هذا المصدر من شعر العرب الجاهليين ، ولا سيما الذين كانوا يتحنفون منهم . وزعم « كليمان هوار » — فى فصل طويل نشرته له المجلة الأسيوية سنة ١٨٠٤ — انه قد ظفر من ذلك بشيء قيم ، واستكشف مصدرا جديدا من مصادر القرآن ؛ هذا الشيء القيم وهذا المصدر الجديد هو شعر امية بن ابى الصلت . وقد اطال (هوار) فى هذا البحث وقارن بين هذا الشعر الذى ينسب إلى امية بن ابى الصلت وبين آيات القرآن ؛ وانتهى من هذه المقارنة إلى نتيجتين :

الأولى : أن هذا الشعر الذى ينسب إلى أمية بن ابى الصلت صحيح ؛ لأن هناك فروقاً بين ما جاء فيه وما جاء فى القرآن من تفصيل بعض القصص ، ولو كان منتحلا لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن ، وإذا كان هذا الشعر صحيحاً فتجب فى رأى الأستاذ (هوار) أن يكون النبى قد استعان به قليلا او كثيرا فى نظم القرآن .

الثانية : أن صحة هذا الشعر واستعانة النبى به فى نظم القرآن قد حملتا المسلمين على محاربة شعر امية بن ابى الصلت ومحوه ؛ ليستأثر القرآن بالجدة ، وليصح ان النبى قد انفرد بتلقى الوحى من السماء .

وعلى هذا النحو العجيب استطاع (هوار) او خيل إليه انه استطاع أن يثبت أن هناك شعرا جاهليا صحيحاً وان هذا الشعر الجاهلى قد كان له فى رايه الخاطىء أثر فى القرآن .

ويعلق الدكتور طه حسين على ذلك بقوله : والغريب من أمر المستشرقين فى هذا الموضوع أنهم يشكون فى صحة السيرة نفسها ، ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود ، فلا يرون فى السيرة مصدرا تاريخيا صحيحا ، وإنما هى عندهم طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمى الدقيق ليمتاز صحيحها من منتحلها . هم يقفون هذا الموقف من السيرة ويغالون فى هذا

الموقف ، ولكنهم يقفون من أمية بن أبى الصلت وشعره موقف المستيقن المطمئن مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ فى الصحة من أخبار السيرة .

فما سر هذا الإطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون النحو الآخر ؟

أيمكن أن يكون المستشرقون أنفسهم لم يبرءوا من هذا التعصب الذى يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات ؟

ويقف الدكتور طه حسين من شعر أمية نفس الموقف الذى وقفه من شعر الجاهليين جميعا ، فيقول : « وحسبى أن شعر أمية بن أبى الصلت لم يصل إلينا إلا من طريق الرواية والحفظ لاشك فى صحته كما شككت فى صحة امرىء القيس والأعشى وزهير، وإن لم يكن لهم من النبى موقف أمية بن أبى الصلت» .

ثم إن الموقف نفسه ، يحملنى على أن أرتاب فى شعر أمية بن أبى الصلت ، فقد وقف أمية من النبى موقف الخصومة ، هجا أصحابه ، وأيد مخالفيه ، ورثى أهل بدر من المشركين ، وكان هذا وحده يكفى لينهى عن رواية هذا الشعر ، وليضيع هذا الشعر كما ضاع الكثير من الشعر الوثنى الذى هجى فيه النبى وأصحابه حين كانت الخصومة شديدة بينهم ، وبين مخالفيهم من العرب الوثنيين واليهود . وليس يمكن أن يكون من الحق فى شىء أن النبى نهى عن رواية شعر أمية لينفرد بالعلم والوحى وأخبار الغيب . فما كان شعر أمية بن أبى الصلت إلا شعراً كغيره من الشعر ، لايستطيع أن ينهض للقرآن كما لم يستطع غيره من الشعر أن ينهض للقرآن . وماكان علم أمية بن أبى الصلت بأمور الدين إلا كعلم أحبار اليهود ورهبان النصارى ، وقد ثبت النبى لأولئك وهؤلاء واستطاع أن يغلبهم ؛ فأمر النبى مع أمية بن أبى الصلت كأمره مع هؤلاء الشعراء الكثيرين الذين هجوه وناهضوه وألبوا عليه .

ومن هنا نستطيع أن نفهم مايروى من أن النبى أنشد شيئاً من شعر أمية فيه دين وتحنف ، فقال : « آمن لسانه وكفر قلبه » . آمن لسانه لأنه كان يدعو إلى مثل ماكان يدعو إليه النبى ، وكفر قلبه لأنه كان يظاهر المشركين على صاحب هذا الدين محمد الصادق الأمين ، فأمره كأمر هؤلاء اليهود الذين أيدوا النبى ووادعوه ، حتى إذا

خافوه على سلطانهم السياسى والاقتصادى والدينى ظاهروا عليه المشركين من قريش »

ليس إذا شعر أمية بن أبى الصلت بدعاً فى شعر المتحنفين من العرب أو المتنصرين أو المتهودين منهم ، وليس يمكن أن يكون المسلمون قد تعمدوا محوه إلا ما كان منه هجاء للنبى وأصحابه ونعياً على الاسلام ؛ فقد سلك المسلمون فيه مسلكهم فى غيره من الشعر الذى أهمل حتى ضاع .

ولكن فى شعر أمية أخباراً وردت فى القرآن : كأخبار ثمود ، وصالح ، والناقة ، والصيحة . ويرى (هوار) أن ورود هذه الأخبار فى شعر أمية مخالفة بعض المخالفة لما جاء فى القرآن دليل على صحة هذا الشعر من جهة ، وعلى أن النبى كما يزعم كذباً هوار قد استقى منه أخباره من جهة أخرى .

ولكن من الذى زعم أن ما جاء فى القرآن ؟ من الأخبار كان مجهولا من قبل ومن الذى يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآنى كان معروفا بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب انفسهم ؟ ولم يكن من العسير اذن أن يعرفه المتصلون بأهل الكتاب .

ثم كان النبى وامية متعاصرين ، فلم يكون النبى هو الذى أخذ عن أمية ولا يكون أمية هو الذى أخذ عن النبى ؟ ثم من الذى يستطيع أن يقول إن من يتحمل الشعر ليحاكى القرآن ملزم أن يلائم بين شعره وبين نصوص القرآن ؟ اليس من المعقول أن يخالف بينهما ما إستطاع ليخفى الانتحال ويوهم أن شعره صحيح لا تكلف فيه ولا تعمل ؟ بلى ! .

ثم يلخص طه رأيه فى شعر أمية وغيره من المتحنفين ، فيقول(١) : —

« ونحن نعتقد أن هذا الشعر الذى يضاف إلى امية بن ابى الصلت وإلى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبى او جاءوا قبله ، انتحل انتحالا ؛ انتحله المسلمون ليثبتوا ان الإسلام قدما ، وسابقة فى البلاد العربية . ومن هنا لا نستطيع أن نقبل ما يضاف إلى هؤلاء الشعراء والمتحنفين إلا مع شيء من الاحتياط والشك غير قليل » .

---

(١) فى الشعر الجاهلى ٨١ — ٨٦ .

ونحن مع الدكتور طه حسين فى دفاعه القوى البليغ عن القرآن فى هذا الموضع من كتابه ، ضد بعض المستشرقين الذين اصطنعوا هذه الأسلوب المشين للتشكيك فى القرآن ، واتخذوا من البحث فى شعر أمية بن أبى الصلت تكأة للنيل من الإسلام. ولكننا لسنا معه فى الشك فى شعر أمية بن أبى الصلت جملة وتفصيلا ، وإن كنا نعتقد أن كثيراً من شعر أمية قد ضاع ، فقد وقف الحجاج بن يوسف الثقفى — يوماً — على المنبر ، فقال : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراس الكلام !! » ، وبين الحجاج وأمية نحو من ثمانين سنة . كما أن طائفة منه قد تعرضت للنحل والوضع وقد نص النقاد على بعض مواضع الانتحال ، فالأصمعى ينفى عنه القصيدة المنسوبة إليه التى منها :

من لم يمت غبطة يمت هرما　　　الموت كأس فالمرء ذائقها

وينسبها لرجل من الخوارج ، وينقد قوله (الموت كأس) .

أما من نسب هذه القصيدة لأمية فهو الزبير بن بكار عن شيوخه وعن الحسن البصرى أيضاً .

وقد سبق أن ذكرنا حديث النابغة الجعدى مع الحسن بن على ، حين أنشده قصيدته :

الحمد لله لا شريك له　　　من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال له الحسن : يا أبا ليلى ، ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبى الصلت . قال : يا ابن رسول الله ، والله إنى لأول الناس قالها .

كما نلاحظ أن بعض شعر أمية مشكوك فى نسبته إليه ، وقد نص بعض المؤرخين على شعر له يروى لشعراء آخرين ، كما فعل ابن هشام فى تعقيباته على ابن اسحق(١) . والقصيدة التى منها :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ　　　يبنون من دون سيله العرما

---

(١) راجع السيرة ١ : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ .

نسبها يونس للنابغة الجعدى ، ونسبها أبو عبيدة لأمية ؛ ثم سئل خلف الأحمر عنها فقال : للنابغة ، وقد يقال : لأمية .

واختلاف الرواة فى نسبة الشعر الجاهلى لا يعنى أن هذا الشعر منحول ، لأن هذا الخلاف لا يخرجه عن نطاق الشعر الجاهلى . ومعنى هذا أن جاهلية هذا الشعر لا شك فيها عند الرواة ؛ وإنما الخلاف فى قائليها . ومن الممكن ترجيح نسبة القصيدة لشاعر بعينه إذا كانت مشاكلة لشعره ، وتبدو فيها شخصيته .

وكان الجاحظ يقول إذا ما شك فى نسبة الشعر : (وقال أمية إن كان قالها) .

وما ذكره الدكتور طه من أن النبى ﷺ نهى عن رواية شعر أمية ، وأن هذا وحده كاف لأن يضيع هذا الشعر ، يرده ما جاء فى الحديث الصحيح ، من أن النبى استنشد رجلا شعر أمية ، فظل ينشده حتى أنشد مائة بيت . ولو صح أن النبى نهى عن شعره لكان هذا النهى مقصوراً على قصيدة أمية التى رثى بها قتلى قريش فى وقعة بدر .. على أنا نجد هذه القصيدة التى يقولون إن النبى ﷺ نهى عن روايتها واردة فى بعض كتب السير والمغازى وقد رواها ابن هشام فى نحو ثلاثين بيتاً . . . .

وينكر الدكتور طه حسين كل ما روى من الشعر والأخبار الممهدة للبعثة النبوية مع أن انتظار بعض علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى لبعثة نبى عربى من المسائل التى ذكرها القرآن . ثم ما الذى يمنع أن يسبق نبوة محمد ﷺ شعر أو خبر يتصل بها ؟ ليس هناك ما يمنع من ذلك ، !! وإنما شأن هذه الأشعار والأخبار الممهدة لرسالة النبى الكريم شأن الأشعار الجاهلية كلها ، أن توضع على محك النقد الصحيح ، ويفحص ما ورد فى هذا الصدد فحصاً دقيقاً حتى يتميز صحيحه من فاسده ، ويتخذ مكانه من الوضع أو الضعف أو الصحة . وكذلك فعل العلماء الثقات فحكموا على جانب من ذلك بالوضع والنحل ، كالأخبار والأشعار المعزوة إلى قس بن ساعدة .

على أننا لا يمكن أن نتجاهل — كما يقول نيكلسون — أن قدراً كبيراً من المشاعر الدينية ممثل فى الشعر الجاهلى ، وإذا كان قد سبق قول بعض العلماء بأن بعض تلك القصائد منحول ، فإن هذا القول لم يعد قائماً ، والفضل فى تقويضه أولا إلى فون كريمر ، وسير شارلس ليال ، وفلهاوزن ، لأنهم أثبتوا :

(ا) أن الشعور الدينى الذى تمثله هذه القصائد ليس فى كثير من الحالات إسلاميا فى لهجته .

(ب) وأن الموضوعات التى ورد فيها ليست من الإسلام .

(ج) وأنه نتيجة طبيعية لتأثير المسيحية واليهودية الذى عم انتشاره[1] .

ولننتقل بعد هذا الدراسة الدواوين الشعرية ، وهى على نوعين : دواوين القبائل والدواوين المفردة .

— ٨ —

دواوين القبائل الحجازية :

فأما (دواوين القبائل) فتطلق على تلك المجموعات الشعرية التى تشتمل كل ضميمة منها على شعر شعراء القبيلة وما يتصل بذلك من أنساب وأخبار وقصص وأحاديث . . وهذه الدواوين تسمى مرة « كتباً » ومرة أخرى « أشعاراً » . وقد عد طائفة منها : « ابن النديم » فى « الفهرست » ، والآمدى فى « المؤتلف والمختلف » .

أما ابن النديم فقد ذكر تسعة وعشرين ديواناً من دواوين القبائل العربية عامة ، نسب ثمانية وعشرين منها إلى صانعها أبى سعيد السكرى ، وواحداً منها إلى ابن الكلبى . وأما الآمدى فقد ذكر منهـا ستين ديواناً لم ينسبها إلى جامع أو صانع من الرواة العلماء ، ما عدا إشارة إلى ديوانين منها ، وهما : « أشعار بنى تغلب » ، و « أشعار الرباب » ، فقد قال عن الأول فى معرض حديثه عن ابن جعيل التغلبى . « وله فيما تنخلته من أشعار بنى تغلب مقطعات حسان » ، كما قال عن الثانى « ووجدت فى أشعار الرباب

---

(١) Niholson.p 140 .

عن المفضل وحماد . . . الخ » ، مما يشير إلى أن ديوان الرباب كله — أو جله — عن المفضل وحماد ، هذه الوفرة العددية فى دواوين القبائل ، ما هى إلا غيض من فيض .

فالسكرى لم يصنع من دواوين القبائل العربية إلا جزءاً ، إذ لم يتح له أن يستوعب القبائل كلها ، وأبو عمرو الشيبانى ذكر له البغدادى ديوان بنى تغلب ، وديوان بنى محارب ، ولم يذكر له ابن النديم شيئاً : مع أنه — كما روى ابنه عمرو — جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، كل قبيلة وحدها فى ديوان مستقل[1] . فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها للناس كتب مصحفاً وجعله فى مسجد الكوفة ، حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه . هذا فضلا عما صنعه الرواة الثقات الآخرون ممن لم نذكرهم ، أمثال : معمر بن المثنى ، وخالد بن كلثوم الكلبى ، ومحمد بن حبيب .

ومع هذا المجهود الضخم الذى بذله العلماء الثقات فى جمع أشعار القبائل ، وكثرة الأسماء التى ذكرتها المصادر ، فإن ابن قتيبة يقول : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره فى التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها[2] » . وما أشد أسف الباحث ، إذا ما علم أن هذا الكنز الثمين من دواوين القبائل العربية ، لم تبق لنا منه أيدى الضياع إلا ديواناً واحداً هو : « ديوان هذيل » الذى سنتحدث عنه عما قليل .

والذى يهمنا فى هذا البحث هو دواوين القبائل الحجازية التى استطعنا تجريدها مما ذكره الآمدى وابن النديم ؛ فقد ذكر الآمدى ثمانية عشر ديواناً حجازياً ، كما ذكر ابن النديم تسعة دواوين حجازية انفرد بديوان واحد منها هو : « أشعار بنى مخزوم » ، واشترك مع الآمدى فى ثمانية منها ، وهى : أشعار أشجع ، وأشعار بجيلة ، وأشعار بنى عدوان ، وأشعار بنى فزارة ، وأشعار فهم ، وأشعار كنانة ، وأشعار مزينة ، وأشعار هذيل . كما انفرد الآمدى بذكر عشرة دواوين .

---

(١) الفهرست : ١٠١ .

(٢) الشعر والشعراء ١ : ٤ .

وهذا ثبت بأسماء دواوين القبائل الحجازية :

ثبت بأسماء دواوين القبائل الحجازية

١ — كتاب أشجع .
٢ — كتاب بجيلة .
٣ — كتاب جهينة .
٤ — كتاب بلى .
٥ — كتاب خثعم .
٦ — كتاب خزاعة .
٧ — كتاب بنى سليم .
٨ — كتاب عدوان .
٩ — كتاب بنى عذرة .
١٠ — كتاب فزارة .
١١ — أشعار فهم .
١٢ — كتاب بنى قريظة .
١٣ — أشعار بنى مخزوم .
١٣ — كتاب كنانة .
١٥ — كتاب بنى مرة بن عوف
١٦ — كتاب مزينة .
١٧ — كتاب نهد .
١٨ — كتاب بنى هاشم .
١٩ — شعر هذيل .

ويجب أن نلاحظ أننا أغفلنا بعض الأسماء المشتركة بين القبائل الحجازية وغير الحجازية ؛ كبنى عدى ، وبنى سعد.

— ٩ —

ديوان الهذليين :

والديوان الوحيد الذى بقى لنا من دواوين القبائل الحجازية ، بل من دواوين القبائل العربية كافة ، هو ديوان الهذليين .

قال أبو سعيد : « قيل لحسان بن ثابت الأنصارى — رضى الله عنه — : أى الناس أشعر ؟ فقال : رجل بأذنه ، أم قبيل بأسره ؟ قال : بل قبيل بأسره ، قال : هذيل فيهم نيف وثلاثون شاعرا أو نحو ذلك ، وبنو سنان مثلهم مرتين ليس فيهم شاعر واحد » .

وإذا فهمنا من هذ النص أن جميع من روى له شعر من هذيل « نيف وثلاثون شاعراً أو نحو ذلك » ، يكون ديوان هذيل الذى بين أيدينا قد ضم بين دفتيه جميع

هؤلاء الشعراء ؛ إذ أن ديوان الشعراء الهذليين فيه نحو من أربعين شاعراً . بيد أن أكثر من نصفهم قد روى لكل منهم أقل من خمسة وعشرين بيتا ، بل إن بعض هؤلاء لم يرو له إلا بيتان أو ثلاثة أو أربعة . أما الشعراء الذين تجاوز شعرهم مائة بيت فسبعة فقط . وإذا كان غير محتمل أن يسمى حسان — فى عبارته المتقدمة — من لم يقل إلا البيتين أو الثلاثة أو الأربعة — شاعراً ، فنحن إذن بين اثنتين : إما أن يكون عدد الشعراء كاملا أو مقاربا ، ولكن ماروى لهم من الشعر ناقص غير مستوفى ، وإما أن يكون كثير من الشعراء لم يذكروا فى الديوان الذى بين أيدينا .

وكلا الأمرين ينتهيان بنا إلى نتيجة واحدة ، هى : أن ما بين أيدينا من شعر هذيل غير كامل[1] .

ويؤكد ذلك ما قيل عن الإمام الشافعى[2] عن أنه « كان يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل ، بإعرابها وغريبها ومعانيها » . والذى بين أيدينا من هذا الشعر — فى أطول رواياته — لا يكاد يبلغ ثلاثة آلاف بيت .

والشعر الذى بين أيدينا للهذليين أقل من نصف ما كان يحفظه الشافعى ، كما أن بعض العلماء قد استدركوا ما فات السكرى ذكره من شعر هذيل ، ومنهم ابن جنى الذى ألف كتاب « التمام فى تفسير أشعار هذيل ، مما أغفله أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى — رحمه الله — وحجمه خمسمائة ورقة ، بل يزيد على ذلك(٣) .

وقد طبع ديوان هذيل فى مجموعتين : الأولى فى أوروبا ، والثانية فى مصر . وهناك أربع مجموعات :

١ — « شرح أشعار الهذليين ، صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى » ، طبعت فى لندن سنة ١٨٥٤ م ؛ بتحقيق وتقديم المستشرق جودفرى وزكوجارتن .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ، الدكتور ناصر الدين الأسد ، ص : ٦٥٣

(٢) ابن حجر : توالى التأسيس بمعالى ابن ادريس ، المطبعة العامرة ببولاق سنة ١٣٠١ ص : ٥٩ .

(٣) ياقوت : إرشاد ١٢ : ١٠٩ .

٢ — « أشعار الهذليين ما بقى منها فى النسخة اللندنية غير مطبوع » ، طبعت فى برلين سنة ١٨٨٤ م ، وفيها تعليقات وترجمة الشعر باللغة الألمانية ، للمستشرق فلهاوزن .

٣ — « ديوان أبى ذؤيب » ، وهو الجزء الأول من « مجموع دواوين من أشعار الهذليين » نشره المستشرق الألمانى يوسف هل ، وطبعه فى هانوفر سنة ١٩٢٦ .

٤ — « أشعار ساعدة بن جوية ، وأبى خراش ، والمتنخل ، وأسامة بن الحارث » ، وهو الجزء الثانى من « مجموعة أشعار الهذليين » نشرها يوسف هل ، فى ليبزج سنة ١٩٣٣ .

وقد طبعت المجموعتان الأولى والثانية عن نسخة مخطوطة مضبوطة قديمة محفوظة فى ليدن ، كتبت فى سنة ٥٢٩ — ٥٣٩ هـ ، كتبها محمد بن على بن إبراهيم بن زبرج العتابى ٤٨٤ — ٥٥٦ هـ ؛ وكان إماما فى النحو وعلوم العربية ، مشهورا بجودة الخط مع الصحة والضبط ، وقد نقلها من نسخة بخط السمسمى المتوفى سنة ٤٢٥ هـ ، والمعروف باتقان الخط والتحقيق ، والذى ذكر العتابى فى آخر المخطوطة أنه قابلها أيضا بنسخ أخرى ، منها نسخة بخط شيخه الجواليقى ، ونسخة بخط الحميدى(١) .

وقد روى هذه النسخة أبو الحسن على بن على بن عبد الله الرمانى ٢٩٦ — ٣٨٤ هـ عن أبى بكر أحمد بن محمد بن عاصم الحلوانى (بينه وبين أبى سعيد السكرى نسب قريب ، فروى عنه كتبه وكانت كثيرا ما توجد بخطه) (٢) ، عن أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى (المتوفى سنة ٢٧٥ هـ) .

وهكذا تنتهى رواية هذه النسخة إلى السكرى . غير أنها ناقصة ، والموجود منها هو هو الجزء الثانى فقط ، وهو المطبوع فى لندن سنة ١٨٥٤ م ، وفى برلين سنة ١٨٨٤ م ، وهى تظهر لنا صدق الأقدمين فى وصفهم السكرى بأنه كان الغاية فى الجمع .

---

(١) انظر وصف المخطوطة فى مقدمة « شرح أشعار الهذليين » ص : ٤ .

(٢) ياقوت : ارشاد ٤ : ١٨٧ — ١٨٨ ، وإنباه الرواة : ١٨ .

وقد اعتمد السكرى فى جمعه ديوان هذيل على ثلاث روايات ، هى :

(ا) رواية بصرية : الرياشى ، عن الأصمعى ، عن عمارة بن أبى طرفة الهذلى .

(ب) ورواية كوفية : محمد بن حبيب ، عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى .

(ج) ورواية جمعت بين الروايتين : محمد بن الحسن الأحول ، عن عبد الله بن إبراهيم الجمحى[1] .

وقد نص السكرى على كل قصيدة انفرد بها بعض هؤلاء الرواة دون غيرهم ، وترك القصائد التى أجمعوا جميعاً عليها من غير أن ينص على روايتها ، وحسبنا أمثلة قليلة توضح ذلك :

(ا) فقد أورد تسعة عشر بيتا لمالك بن الحارث ، اتفق الرواة جميعاً على نسبة الأبيات الستة الأولى منها له ، ثم اختلفوا بعد ذلك ؛ فمنهم من جعل بقيتها قصيدة منفصلة نسبوها لتأبط شرا يرد بها على مالك بن الحارث ، ومنهم من جعلها كلها قصيدة واحدة منسوبة إلى مالك ، ولذلك قال السكرى عند البيت التاسع منها : « هذا آخر ما فى رواية الجمحى وأبى عبدالله ، قالا : فأجابه تأبط شراً الفهمى ثم العدوى به ؛ وأما أصحاب الأصمعى فيجعلونها قصيدة واحدة ويروونها لمالك بن الحارث إلى آخرها » .

(ب) وأورد قصيدة لحبيب الأعلم ، وقال فى مقدمتها : « لم يروها أبو نصر ، ولا أبو عبد الله ، ورواها الباهلى والجمحى » .

(ج) وأورد قصيدة لساعدة بن العجلان ، وقال فى مقدمتها : « رواها الأصمعى ، ولم يروها ابن الأعرابى » .

(د) وأورد عشرة أبيات لساعدة بن العجلان ، قال عند البيت السادس منها : « هذا آخرها فى رواية الأصمعى ، والباقى عن الجمحى والباهلى وأبى نصر وأبى عمرو ، قال أبو نصر : لم يرو الأصمعى من ها هنا إلى آخرها » .

(هـ) وأورد قصيدة لأبى جندب ، قال عند البيت الرابع منها : « هذا أولها عند بى عبيدة » .

---

(1) مصادر الشعر الجاهلى : ص ٥٦٥ .

(و) وأورد قصيدة لأبى جندب أيضاً ، قال فى مقدمتها : « رواها الأصمعى ، ولم يروها ابن الأعرابى ولا أبو عمرو ولا الجمحى » .

(ز) وقصيدة أخرى لأبى جندب ، قال فى مقدمتها : « قال الأصمعى : وتروى لأبى ذؤيب » .

(ح) وقصيدة رابعة لأبى جندب ، قال فى مقدمتها : « لم يروها أبو عبد الله ولا أبو نصر ولا الأخفش ، ورواها أبو نصر والجمحى »[1] .

ولم يكتف السكرى بهذا ، وإنما زاد على ذلك أن نص على رواية الأبيات التى اختلفوا عليها ؛ فكان يذكر البيت – فى القصيدة – ثم ينص على أن فلاناً لم يروه ، وأن فلان رواه فمن ذلك :

(ا) أنه أورد بيتاً فى قصيدة لصخر الغى ، ثم قال « لم يرو هذا البيت والبيتين بعده الأصمعى ، ورواها الجمحى وابن الأعرابى » .

(ب) وأورد بيتاً فى قصيدة أخرى لصخر أيضاً ، ثم قال : « رواه أبو عبد الله الجمحى » .

(ح) وأورد بيتاً لأبى المثلم ، ثم قال : « لم يرو هذا البيت والبيتين اللذين بعده أحد غير الباهلى عن الأصمعى ، ولم يرو هذا أبو عمرو ولا أبو عبد الله ولا أبو نصر ولا الأخفش » .

(د) وأورد بيتا لصخر الغى ، وقال : « لم يرو هذا البيت والبيت الذى بعده الأصمعى وأبو عبد الله » .

(هـ) وأورد بيتاً فى قصيدة لأبى المثلم ، وقال : « رواه الجمحى وأبو عمرو وأبو عبد الله » .

(و) وذكر بيتاً آخر من القصيدة نفسها ، وقال : « لم يروه والبيت الذى بعده إلا أبو عمرو وأبو عبد الله والجمحى » .

(ز) وأورد أرجوزة لصخر الغى ، قال عنها : « وروى الأصمعى من هذه الأرجوزة ثلاثة أبيات عليها صح صح ، وسائرها عن أبى عبد الله والجمحى[2] » .

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ط . لندن ، ص : ٤ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ٩٤

(٢) شرح أشعار الهذليين : ط . لندن ، ص : ١٦ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢

(ح) وقال عن بيت فى قصيدة أخرى لصخر : «لم يروه الأصمعى ، ورواه أبو عبد الله والجمحى» .

(ط) وقال عن بيت آخر فى القصيدة نفسها : «لم يروه إلا عبد الله وأبو عمرو والجمحى» .

(ى) وأورد بيتاً فى قصيدة لعامر بن العجلان ، ثم قال : «لم يروه والبيت الذى بعده الأصمعى ، ورواهما أبو عمرو والجمحى وأبو عبد الله» .

(ك) وأورد بيتا فى قصيدة لأبى جندب ، ثم قال : «لم يروه أبو عبد الله ولا أبو نصر ولا الأخفش ، ورواه الجمحى وأبو عمرو والأصمعى»[1] .

وقد ذهب السكرى إلى أبعد من ذلك فى تحريه ودقته ، فقد نص ـ فى داخل البيت نفسه ـ على روايات ألفاظه المختلفة ، فذكر فى كثير من الأبيات رواية الأصمعى أو أبى عمرو أو ابن الأعرابى أو ابن حبيب أو الجمحى أو الأخفش لهذه اللفظة أو لتلك .

وقد قدم السكرى بذكره رواية الديوان فى مجموعه ، ثم رواية القصيدة فى جملتها ، ثم رواية الأبيات المفردة فى القصيدة الواحدة ، ثم رواية الألفاظ فى البيت الواحد ، فقدم مادة خصبة للدرس ، إذ يستطيع الدارس المتتبع أن يستخرج رواية الديوان البصرية : أى رواية الأصمعى ، ويفردها وحدها ، ويستطيع كذلك أن يستخرج رواية الديوان الكوفية : أى رواية ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ، ويفردها وحدها ، ثم يثبت ما بينهما ، من اختلاف واتفاق ، وينتهى من كل ذلك إلى دراسة ممتعة لهذا الديوان .

هذه هى النسخة الليدنية التى طبعت منها المجموعتان الأولى والثانية من الطبعة الأوربية ، وأما المجموعة الثالثة ، وهى «ديوان أبى ذؤيب» التى طبعها يوسف هل فى هانوفر سنة ١٩٢٦ ، فمع أنه طبعها عن نسخة فى دار الكتب ـ رقمها ١٩ أدب ش ـ إلا أن هذه النسخة أيضاً من رواية السكرى .

(١) شرح أشعار الهذليين : ط . لندن ، ص : ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٨٧ .

ويرجح الدكتور ناصر الدين الأسد[1] أنها منقولة عن النسخة اليدنية أو عن نسخة منقولة عنها ، فتكون بذلك جزءاً من القسم الأول المفقود من النسخة اليدنية .

وأما المجموعة الأخيرة من الطبعة الأوربية ، وهي : مجموعة أشعار الهذليين — « الجزء الثانى » المطبوعة فى ليبزج سنة ١٩٣٣ ، بتحقيق يوسف هل ، وتشتمل على أشعار ساعدة بن جؤية وأبى خراش ، والمتنخل وأسامة بن الحارث — فتتفقة فى إيراد الشعر وترتيبه وشرحه ، مع ما ورد من أشعار هؤلاء الشعراء الأربعة فى طبعة دار الكتب ، ولذلك نستغنى عنها بما سنورده من حديث عن هذه الطبعة .

طبعة دار الكتب :

وأما طبعة دار الكتب ، فمأخوذة من نسخة خطية محفوظة فى الدار ، برقم ٦ أدب ش ، مكتوبة بخط مغربى ، وكانت ملك الشيخ محمد الشنقيطى ، وقد كتب عليها : « ملك هذا المجموع . محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطى المدنى ثم المكى ، وكتبه مالكه وواقفه محمد محمود ، سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف » . وأصل هذه النسخة بخط يحيى بن المهدى الحسينى ، كتبه سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة .

وفى أول الأصل هذه المقدمة « كتاب ديوان الهذليين ، وهو يشتمل على ثمانية أجزاء : خمسة منها من رواية أبى سعيد عن الأصمعى ، وهى الثانى والثالث والرابع والخامس والسابع . ولم نظفر من نسخة رواية أبى سعيد إلا بهذه الخمسة ، وضاع الثانى ، وهى ثلاثة من نسخة الأصل ، ثم وقفنا بعد ذلك على نسخة أخرى ليست من رواية أبى سعيد ، وهى كتاب واحد غير مجزأ يخالف نسخة رواية أبى سعيد فى الترتيب وفى رواية بعض الأشعار ونسبتها إلى قائليها ، فأخذنا ما وجدناه فيها مما ليس رواية أبى سعيد ، وقسمناه إلى ثلاثة أجزاء ، وهى : الأول والسادس والثامن ، وجعلناه تماماً لهذه النسخة ، وألحقنا كل شىء من ذلك بموضعه اللائق به حسبما أمكن وبالله تعالى التوفيق » .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى : ٥٧٠ .

والشرح فى هذه النسخة مختصر موجز، والرواية فيها قليلة لا تكاد تسعف الدارس وذكر أبى سعيد فيها فيه لبس وإبهام ، فهو أحيانا أبو سعيد السكرى ، كما فى قوله : « قال أبو سعيد ـ وحدثنى الرياشى قال : قال الأصمعى ـ » ، وأحياناً أخرى أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، ونستدل على ذلك ممن روى عنهم ، وذلك مثل قوله : « وأنشدنا أبو سعيد . قال : وأنشدنا أبو عمرو بن العلاء » . وكثير ما يورد شروحاً أو استشهادات شعرية يرويها عن أبى عمرو بن العلاء ومثل قوله : وسمعت عيسى ابن عمر يقول ، أو « حدثنى عيسى بن عمر » ، وقوله : « قال أبو سعيد : وحدثنا شعبة عن سماك بن حرب » ، وقوله : « قال أبو سعيد : سألت ابن أبى طرفة عن هذا فلم يعرفه ولم يكن عند أبى عمرو فيها إسناد » ، وقوله : « قال أبو سعيد وأنشدنا الهذلى[1] » .

— ١٠ —

الدواوين المفردة :

وأما الدواوين المفردة فتعتبر أهم المصادر التى يجب أن يعتمد عليها الباحث فى دراسة الشعر الجاهلى ، بعد تصفيتها وتنقيتها واستخلاص ما أجمع عليه الرواة من ديوان كل شاعر .

ولعل الطريقة المثلى لدراسة هذه الدواوين ـ كما يراها بعض الباحثين ـ هى :

١ — أن ندرس الروايات المختلفة لديوان الشاعر دراسة مقارنة .

٢ — ثم نفرد القدر الذى اتفق عليه العلماء الرواة جميعهم واشتركوا فى روايته ، لنتخذه أصلا معتمدا لديوان الشاعر .

٣ — وبعد ذلك ندرس هذا القدر المشترك دراسة دقيقة ، تكشف عن خصائص الشاعر الفنية التى تميز شخصيته الأدبية .

---

(١) ديوان الهذليين : ط . دار الكتب : ٢ : ٢٣٦ ، ١ : ٢١٥ ، ١ : ١٨٧ - ٢ : ٩٢ ، ١ : ٩ ، ١ : ١٨٧ ، ١ : ٢١٣ ، ١ : ١٥٩ ، ٣ : ١٧ ، ومصادر الشعر الجاهلى : ص ٥٧١ — ٥٧٢ .

٤ — ثم نتخذ هذا المقياس الفنى الذى نستخرجه محكا نعرض عليه القصائد المتفرقة التى انفرد كل عالم راوية بروايتها ، فما استقام منها مع هذا المقياس ترجحت صحته ، وضممناه إلى الديوان ، وما لم يستقم رجحنا أنه مما اختلطت نسبته على ذلك الراوية العالم .

هذه الطريقة إن لم تنته بنا إلى يقين نقطع به ، فستنتهى بنا إلى شبه يقين نطمئن إليه(١) .

وما أجدر الباحث فى الشعر الحجازى الجاهلى أن يتخذ له من هذا المنهج القويم نبراساً يضىء له السبيل لدراسة الدواوين والمجموعات الشعرية الحجازية ؛ كديوان حسان ، وقيس بن الخطيم ، والنابغة ، والخنساء ، وأمية بن أبى الصلت ، ودريد بن الصمة وغيرهم ، يستقصى مخطوطات كل ديوان ورواياته المختلفة ، ثم يوازن بينها ويستخلص القدر المشترك ، ثم يدرسه دراسة فنية تكشف عن شخصية الشاعر ، ثم يضيف من الروايات المختلف عليها ما يشاكل روح هذه الشخصية ! وكنا نود القيام بهذا لولا أن هذا العمل يحتاج إلى مجهود خاص ودراسة خاصة ليس هذا الكتاب مجالها . ومع هذا فسنطبق هذا المنهج إلى حد ما على بعض الشعراء الحجازيين — على سبيل المثال — مستعينين بمن سبقنا من الباحثين .

* * *

ومن المجموعات الشعرية التى رويت فى القرن الثانى الهجرى ، تلك المجموعة التى تضم شعر امرىء القيس ، والنابغة ، وزهير ، وطرفة ، وعلقمة ، وعنترة ؛ لأن هؤلاء الشعراء منذ عهد طويل ، هم فى المرتبة الأولى عند كثير من نقاد الأدب العربى وقد أخملوا كثيرا من شعراء زمانهم ، ولم يلحقهم من أتى بعدهم ، وكان لهم تأثير قوى على الأدب العربى .

وكان هؤلاء الشعراء الذين ضمت هذه المجموعة دواوينهم فى الصدارة من تبعه

(١) مصادر الشعر الجاهلى : ٥١٤ .

الشعراء الجاهليين ، بل شعراء العربية قاطبة ؛ وذلك لأنهم - فضلا عما تقدم - لم تكن حياتهم محدودة راكدة ليس فيها إلا حوادث البادية المألوفة كما كان حال غيرهم من الشعراء ، بل شهدوا حوادث لها أثر فى تاريخ الأمة العربية ، وذات أثر فعال فى مقومات شخصيتها ، واتصلوا بأشخاص لهم وزنهم فى التاريخ ، وبذلك كان شعرهم موضع اهتمام منذ قيل ، ووجد فيه علماء اللغة ، وطلاب الأدب والمعانى جل طلباتهم ؛ فعكفوا على درس شعرهم منذ جمع قبيل منتصف القرن الثانى للهجرة ، فى كل صقع حل به العرب ، وشرح شعرهم عشرات من العلماء . وليس بصحيح ما قيل من أن الاهتمام بشعرهم كان وقفا على أهل المغرب ، وربما نجم هذا الظن من كثرة المخطوطات التى عثر عليها بخط مغربى ، فإن ثمة نسخا أخرى وجدت بالخط النسخى ، كما أن المشارقة عنوا جد العناية بشرح شعرهم(١) ، وقد نشر هذه المجموعة وليم بن الورد البروسى W. Ahlwardt ، سنة ١٨٧٠ م بلندن ، وكتب لها مقدمة قيمة بعد أن راجع عدة مخطوطات ، وقد جاء فى مقدمته : « إن هذه المجموعة رواها أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى ، المعروف بالأعلم الشنتمرى النحوى اللغوى ٤١٠-٤٧٠ هـ ، وله عليها شرح كامل وقد قال فى مقدمتها : إنه اعتمد القصائد التى رواها الأصمعى وعدها صحيحة ، وأضاف إلى كل شاعر ما رآه بعض الرواة الثقات غير الأصمعى صحيحا ، وقد كان الأصمعى يعرف هذه القصائد كذلك ، بيد أنه شك فيها أو رآها منحولة .

ويظهر أن الأصمعى كان له شرح على هذه المجموعة ، يدل على ذلك أن الأعلم الشنتمرى كثيرا ما يرجع إلى تفسير الأصمعى فيقول : الأصمعى يفسر هذه الكلمة بكذا » ، و « الأصمعى لا يعترف بهذا البيت » ، وغير ذلك من التعليقات التى اعتمد فيها على الأصمعى .

---

(١) من مقدمة وليم بن الورد البروسى على هذه المجموعة . ترجمها نيكلسون إلى الانجليزية عن الألمانية .

وثمة نسخ أخرى تضم دواوين بعض شعراء هذه المجموعة مثال ذلك : شعر زهير ابن سلمى فقد رواه ثعلب ، وقد روى أبو بكر محمد بن القاسم المعروف بابن الأنبارى ديوانى زهير والنابغة وشرحهما .

وجمع السكرى دواوين امرىء القيس ، وزهير ، والنابغة . وإن كان يلوح أن (الأعلم الشنتمرى) لم ينتفع بمجهودات من سبقه ، إذ لم يشر إليهم قط . أما القصائد التى شك فيها الأصمعى ، فقد أثبتها (الأعلم) بناء على أدلة ظهرت له ، وقد اعتمد فى شعر النابغة ما رواه الطوسى عن ابن الأعرابى .

وقد وجـــد (وليم بن الورد) كثيرا من الأبيات منسوبة إلى هؤلاء الشعراء فى مختلف كتب الأدب ، فاسترعى ذلك نظره ، وأخذ يتساءل : هل كل هذه الأبيات مزورة ، ولماذا ؟ فصارت هذه الأسئلة تلح عليه ردحا طويلا من الزمن ، وهو يرى هذه الأبيات تتردد فى كتب أخرى منسوبة إلى هؤلاء الشعراء أنفسهم ، مما قوى عنده أنها ليست مزورة ، وأن الأعلم رفضها عن غير قصد ، لأنها ليست مما رواه الأصمعى ، وقد تكون من مرويات غيره .

ورأى من جهة أخرى أن استشهادات ابن قتيبة فى (الشعر والشعراء) ، وأبى الفرج فى (الأغانى) ، والجوهرى فى (الصحاح) لا تقتصر على ما اعتمده الأعلم الشنتمرى من رواية الأصمعى .

ويستدرك ابن الورد ، فيقول : « إن بعض هذه الأبيات مشكوك فيه لا ريب فى ذلك ، وبعضها جاء من اختلاط الأسماء » ، ويضرب على ذلك مثلا كلمة (بجل) ؛ فالجوهرى يستشهد على تفسيرها ببيتين من الشعر وينسبهما إلى زهير ، فيتبادر إلى الذهن أنه زهير بن أبى سلمى ، ولكن ابن قتيبة ينسبها إلى زهير بن جناب ، ويقع هذا التشابه فى اسم النابغة ، ففى نسخة باريس من هذه المجموعة نجد البيتين الآتيين منسوبين إلى النابغة الذبيانى :

فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا
فتى كملت أخلاقه غير أنه ... جواد فما يبقى من المال باقيا

وهما للنابغة الجعدى .

وقد يكون التزوير ناجماً عن خطأ فى الرواية ، فالبيت الاتى لاشك أنه من شعر الحطيئة ، ولكنه منسوب للنابغة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

ولكن معظم الأبيات صحيحة ، ونسبتها إلى قائليها نسبة لاريب فيها . وقد اعتمد ابن الورد فى إخراج هذ المجموعة على عشر مخطوطات .

وقد بذل ابن الورد مجهودا فيما فى إخراج هذه المجموعة التى تضم ما رواه الأصمعى من أشعار هؤلاء الفحول الستة ، ولكنه لم ينشر معها شرح الأعلم الشنتمرى عليها . وبعد أن فرغ من تدوين ما رواه الأصمعى ألحق به ما عثر عليه فى كتب الأدب ، لكل شاعر من هؤلاء الشعراء ، تحت عنوان (الشعر المنحول) ، وقد لايكون كل هذا الشعر منحولا كما مر بنا ، ولكنها رواية غير الأصمعى ، ثم أشار فى ملحق آخر إلى اختلاف النسخ ، وكذلك ترتيب الإبيات فى القصائد مشيراً الى كل مخطوطة ، وفى ملحق ثالث أثبت مارواه الأعلم الشنتمرى وغيره من مقدمات القصائد التى تلقى ضوءا على مناسباتها والأسباب التى دعت إلى قولها .

— ١١ —

رواية ديوان النابغة :

والذى يهمنا نحن هنا هو ما يتصل بشعر النابغة وزهير بوصفهما شاعرين حجازيين ، فأما النابغة فقد روى له الأصمعى فى هذه المجموعة أربعا وعشرين قصيدة فحسب ، ولكن ابن الورد أضاف سبع قصائد أخرى من مرويات غير الأصمعى من مثل ما رواه أبو عمرو بن العلاء ، والمفضل الضبى ، وأبو سعيد السكرى ، والطوسى عن ابن الأعرابى وغيرهم من الثقات ، وبذلك صار ديوان النابغة ٣١ قطعة غير الملحق ، ثم زاد فى ملحقه للنابغة سبعا وخمسين قطعة شعرية وواحدة نثرية ، وهذه القطع فيها البيت الواحد وفيها القصائد الطويلة ، مثل قصيدته التى أولها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار؟

وقد نشر (ديرنبورج) Derenbourg فى سنة ١٨٦٨ م ، فى المجلة الاسيوية ديوان النابغة الذبيانى نقلا عن مجموعة الأعلم الشنتمرى ، وأضاف إليه القصائد السبع التى رواها الطوسى عن ابن الأعرابى ، ثم أفرد هذا الديوان فى كتاب خاص . وقد اعتمد على مخطوطتى باريس ـ اللتين أشرنا إليهما آنفا ـ وعلى مخطوطة فينا رقم ٤٥٦ . وهى بخط مغربى وعليها شرح لأبى بكر البطليوسى ، وقد قدم (ديرنبورج) الديوان النابغة بترجمة وافية منقولة عن كتب الأدب ؛ كالشعر والشعراء لابن قتيبة ، والأغانى لأبى الفرج وغيرهما ، مع رجوع إلى ما كتبه المستشرقون أمثال (دى پرسفال) عن العرب فى الجاهلية ، وله فيها مجهود خاص يستحق الثناء .

ثم أصدر (درنبورج) فى سنة ١٨٩٩ ملحقا لديوان النابغة بعد أن عثر على المخطوطة رقم ٦٥ من مجموعة Schefer فى مؤتمر المستشرقين بباريس سنة ١٨٩٧ ، وقد كتبت هذه المخطوطة فى ساوة[١] ببلاد فارس بخط أبى القاسم محمد بن أبى القاسم الخاستى فى التاسع من جمادى الاخرة سنة ٥٩٢ ﻫ ويقول ياقوت فى معجم البلدان : «كان بساوة أكبر مكتبة فى العالم ، وقد بلغنى أن التتار أحرقوها ، وقد عثر أبو القاسم فى هذه المكتبة على هذه النسخة القيمة فنقلها . وفى هذه النسخة ثمان وخمسون قصيدة وقطعة للنابغة الذبيانى ، بما فى ذلك القصائد السبع التى أضافها الطوسى عن ابن الأعرابى كما وجدت فى مخطوطة (بطر سبورج) .

وبهامش هذه النسخة كتاب مجمع الأمثال للميدانى ، وهى مكتوبة بخط جميل . وفى مخطوطة (ساوة) تجد مثلا القصيدة المشهورة :

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب

تسعة وعشرين بيتا ، بينما هى فيما نشره ابن الورد عن الأعلم الشنتمرى ، وفيما نشره ديرنبورج فى سنة ١٨٦٨ لا تزيد عن إثنى عشر بيتا ، وتراها فى مخطوطة بطر سبورج عشرين بيتا .

وقد وجد (ديرنبورج) فى مخطوطة ساوة زيادات ليست فى مخطوطة بطر سبورج غير القصيدة السابقة ، وليست فى ملحق ابن الورد ؛ ولذلك قام

(١) تقع ساوة بين همذان والرى .

بنشر هذه المخطوطة فيما يتعلق بديوان النابغة فحسب ، سالكا سبيل الاختصار .
فالقصائد التى سبق له نشرها أو نشرها ابن الورد ، أشار اليها دون أن يذكرها ،
ومعلقاً على ترتيب الأبيات واختلافها فى المخطوطات العديدة . أما القصائد التى لم
تنشر من قبل فقد أوردها بأكملها مع المقدمات التى تشرح ظروف القطعة وأسباب
قولها ، وكذلك الزيادات التى اختصت بها مخطوطة (ساوة) فى القصائد التى رواها
الأصمعى أو الطوسى ، أو رواها ابن الورد فى ملحقه .

وقد نشر الأب لويس شيخو فى شعراء النصرانية ديوان النابغة ، كما رواه الأعلم
الشنتمرى وأضاف اليه ملحق ابن الورد .

ومن الجدير بالملاحظة أن ثمة أربعا وعشرين قصيدة قد أثبتها جميع المخطوطات
وتلك القصائد هى التى رواها الأصمعى ، ثم سبع قصائد أخرى أثبتها مخطوطة
(بطرسبورج) ومخطوطة (ساوة) ، وهى ما رواه الطوسى عن ابن الأعرابى ،
وبذلك تكون القصائد التى يرى الرواة الثقات أنها للنابغة الذبيانى — بغض النظر
عن اختلاف الروايات فى بعض الكلمات ، وبعض الزيادات - إحدى وثلاثين قصيدة.

وإذا عرفت أن الأصمعى كان متزمتاً يضيق ولا يعتمد إلا أصح اللغات ،
ويلح فى دفع ما سواه ، ولا يفسر من القرآن ولا من اللغة شيئاً له نظير واشتقاق
فى القرآن ، وأنه كان يتحرج فى الحديث ، ولا ينشد من الشعر ما كان فيه ذكر
الأنواء ، ولا يفسره ، لقوله ﷺ : « إذا ذكرت النجوم فأمسكوا » ، وأنه لم
ينشد أو يفسر شعراً فيه هجاء ، أدركت أى رواية كان الأصمعى فى تثبته وتحقيقه ،
وتحرجه .

ولقد تعقب الأزهرى فى كتابه التهذيب رواة الشعر واللغة فاحصاً منقباً مدققاً
ملتمساً مواطن الثقة فيما يرويه عنهم منبهاً على الكلام المصحف ، وبعد أن أنعم
النظر والتثبت قال : إنه وجد معظم ما روى لابن الأعرابى ؛ وأبى عمرو الشيبانى ،
وأبى زيد ؛ وأبى عبيدة ، والأصمعى معروفاً فى الكتب التى رواها الثقات عنهم ،
والنوادر المخطوطة لهم . . . فخص هؤلاء بالثقة دون سائر الرواة ووصفهم
بالاتقان والتحرز .

وكان الأصمعي أعرف الرواة بالصحيح والمنحول من الشعر ، ولم يكن شاعراً حتى يتزيد ويختلق كما فعل غيره ، ولذا كان ما رواه عن النابغة أصح شعر يروى له (١) .

— ١٢ —

رواية ديوان زهير :

وأما زهير بن أبي سلمى فهو حجازي — وإن كان قد نشأ في بني عبد الله ابن غطفان بنجد — لأنه من مزينة إحدى القبائل الحجازية ، ولا تذكر لنا المصادر العربية — من العلماء الذين جمعوا ديوانه — غير ستة ، وهم :

١ — يعقوب بن إسحاق السكيت .

٢ — أبو الحسن علي بن عبدالله بن سنان الطوسي .

٣ — محمد بن هبيرة الأسدي ، المعروف بصعوداء .

٤ — أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري .

٥ — أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري .

٦ — يوسف بن سليمان ، الأعلم الشنتمري .

وليس بين هذه الأسماء عالم واحد من رواة الطبقة الأولى ممن يعدون أصولا ، إنما هم جميعاً إما من تلاميذ هذه الطبقة : مثل ابن السكيت — وهو كوفي المذهب ، أخذ عن أبي عمرو الشيباني والفراء وابن الأعرابي — وإما من الجماع الذين جمعوا بين الروايات المختلفة ، فرجحوا كفة الكوفيين حينا مثل : صعوداء ، والطوسي ؛ وابن الأنباري . أو رجحوا كفة البصريين حينا آخر مثل : السكري ، والأعلم .

فأين إذن روايات ديوان زهير التي تعد أصولا ؟ لقد أغفلت ذكرها المصادر العربية ، ولكنها بقيت — مع ذلك — فيما وصل إلينا من نسخ هذا الديوان ، أو فيما تضمنته هذه النسخ من إشارات للرواة والروايات . وهذه الأصول لديوان زهير قسمان :

أصول بصرية ، وأصول كوفية .

---

(١) النابغة الذبياني : ص ١٠٤ .

الأصول البصرية :

وهى أصلان : رواية أبى عبيدة معمر بن المثنى التيمى ، ورواية أبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى :

١ — رواية أبى عبيدة :

أما رواية أبى عبيدة فلم يبق لنا منها إلا قصائد متفرقة ذكر فى مقدمتها أنها من رواية أبى عبيدة ، أو ألفاظ فى أبيات من قصائد أشير فيها إلى روايته . كما أشير فيها إلى رواية غيره من العلماء .

فقد ذكر الأعلم عند حديثه عن قصيدة زهير :

أبلغ بنى نوفل عنى فقد بلغوا   متى الحفيظة لما جاءنى الخبر

أن أبا حاتم قال : «لم يعرفها الأصمعى ، وعرفها أبو عبيدة» . وكذلك ذكر عند حديثه عن قصيدته :

أبلغ لديك بنى الصيداء كلهم   أن يساراً أتانا غير مغلول

أن أبا حاتم قال : «لم يعرفها الأصمعى ، وعرفها أبو عبيدة» . وذكر ثعلب عند حديثه عن قصيدته .

شطت أميمة بعد ما صقبت   ونأت وما فنى الجناب فيذهب

أنه «لم يروها أبو عمرو لزهير ولا لكعب ، ورواها أبو عبيدة لزهير» ، وذكر عند حديثه عن قصيدته :

فعد عما ترى إذ فات مطلبه   أضحى بذاك غراب البين قد نعقا

أن هذه الأبيات لم يملها أبو عمرو ولا أبو نصر ، ولم يعرفها الأصمعى ، ولكن «رواها أبو عبيدة وهى صحيحة عنده» ، وأنكر أبو عبيدة زهير :

إن الرزية لا رزية مثلها   ما تبتغى غطفان يوم أضلت

وقال : إنها لقراد بن حنش من شعراء غطفان ، وأن زهيراً ادعى هذه الأبيات.

أما روايات أبى عبيدة لبعض الألفاظ فى أبيات من قصائد زهير فكثيرة جداً ، وقد أشار إليها الأعلم وثعلب فى مواطن كثيرة من شرحيهما .

٢ – رواية الأصمعى :

أما رواية الأصمعى فقد حفظت لنا كاملة ، حفظها الأعلم الشنتمرى فى مجموعته «دواوين الشعراء الستة» ، وقد اعتمد الأعلم من هذه الأشعار على أصح رواياتها ، وأوضح طرقاتها ، وهى رواية الأصمعى لتواطؤ الناس عليها ، واعتيادهم لها ، واتفاق الجمهور على تفضيلها، وأتبع ما صح من رواياته قصائد متخيرة من رواية غيره.

وعلى هذا أورد الأعلم ثمانى عشرة قصيدة ومقطعة لزهير فى ختامها ما يلى :

« كمل جميع شعر زهير مما رواه الأصمعى من شعر زهير ، ونصل به بعض ما رواه غيره إن شاء الله » . . . ثم يورد قصيدتين ذكر أنهما مما رواه أبو عمرو والمفضل ، ويختم نسخته بقوله : « كمل جميع شعر زهير مما رواه الأصمعى وأبو عمرو والمفضل . . . » .

وقد أورد الأعلم ثلاث قصائد ليست من رواية الأصمعى ، وقد نص فى الأوليين منها – وقد مر ذكرهما – على أن أبا حاتم السجستانى قال : «لم يعرفها الأصمعى وعرفها أبو عبيدة» . وذكر فى حديثه عن القصيدة الثالثة ، وهى :

ألا ليت شعرى هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا

أن الأصمعى قال : «ليست لزهير ، ويقال : هى لصرمة الأنصارى ولا تشبه كلام زهير» .

وسنعود إلى الحديث عن رواية الأصمعى بعد الحديث عن الأصول الكوفية .

الأصول الكوفية :

أما علماء الكوفة من الطبقة الأولى من الرواة الذين رووا ديوان زهير فهم : حماد الراوية ، والمفضل بن محمد الضبى ، وأبو عمرو الشيبانى . غير أن روايات هؤلاء العلماء جاءتنا مختلطة متداخلة فى مجموعة نسبت مع شرح أبياتها إلى ثعلب ، وقد طبعت هذه المجموعة من الروايات بدار الكتب المصرية ، وفى مقدمتها حديث مفصل عن ترجيح نسبتها إلى أبى العباس ثعلب وقد اعتمدت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية .

ودراسة هذه الطبعة تدلنا على أن ثعلبا قد جمع فى مجموعته بين الروايات الكوفية والبصرية ، فكثيراً ما يورد فى شرحــه شروحاً للأصمعى وأبى عبيدة ، وكثيراً ما يورد روايتهما المختلفة فى الألفاظ والأبيات ، وحسبنا أمثلة قليلة على ذلك : فقد أورد سبعة وثلاثين بيتاً من قصيدة زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

ثم قال : « وهذه آخر رواية أبى عمرو ، وروى أبو عبيدة والأصمعى ... » ثم يورد سبعة أبيات من روايتهما . أما فى قصيدته :

إن الخليط أجد البين فانفرقا وعلق القلب من أسماء ما علقا

فهو يثبت فى أصل أحد أبياتها ، وهو قوله :

وقابل يتغنى كلما قدرت على العراق يداه قائماً دفقا

رواية أبى عبيدة ، ويقول : « روى أبو عبيدة قائماً بالنصب ، ورواه غيره بالرفع » ثم يذكر بيت زهير :

وذاك أحزمهم رأياً إذا نبــأ من الحوادث آب الناس أو طرقا

وهو من غير رواية أبى عمرو ، ثم ينص على أن البيت فى رواية أبى عمرو ، هو :

ومن يفوقهم أمراً إذا فرقوا من الحوادث أمراً آب أو طرقا

ثم يورد ستة أبيات ينص على أنها من رواية أبى عمرو ، وأربعة أبيات أخرى ينص على أنها مما روى أبو عمرو والأصمعى ، ويورد فى آخرها بيتين يذكر أنهما « من غير هذه الرواية » ، و « أن الأصمعى لم يروهما » . وكذلك ذكر ستة عشر بيتاً من قصيدة زهير :

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر

ثم يقول : « هذا آخر رواية أبى عمرو » ، ويكمل القصيدة فى اثنين وعشرين ، وكثيراً ما يثبت فى أصل البيت لفظة أو ألفاظاً من غير رواية أبى عمرو ، وينص على ذلك ، ثم يذكر روايته فى تلك الألفاظ . وأكثر من ذلك أنه يورد قصيدة لم يروها أبو عمرو لزهير ولا لكعب ، ورواها أبو عبيدة لزهير .

ويتضح لنا من ذلك ان هذه النسخة قد جمعت من قصائد زهير ما رواه البصريون والكوفيون . غير أن هذا الجمع بين روايات المدرستين لا ينفى نسبة هذه النسخة إلى أبى العباس ثعلب . وذلك أن ثعلبا — مع أنه كان كوفى المذهب ، بل إمام أهل الكوفة فى زمنه — قد روى كتب علماء البصرة أيضاً ، فروى « عن ابن نجدة كتب أبى زيد ، وعن الأثرم كتب أبى عبيدة ، وعن أبى نصر كتب الأصمعى . .) ، وقد ذكر أبا نصر والأثرم فى مواطن كثيرة من نسخته هذه .

وقد تضمنت هذه النسخة ثلاثاً وخمسين قصيدة ومقطعة لزهير ، روى خمساً منها عن حماد الراوية ، ونص على واحدة منها بقوله (وهى متهمة عند المفضل) ، ومع ذلك رواها أبو عمرو . وذكر فى أربع أخر منها أنها يشك فى نسبتها إلى زهير ، وأنها قد ترى لغيره .

ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد أن هذه النسخة ـ بالرغم من جمعها بين روايات مختلفة — ربما اتخذت من رواية أبى عمرو الشيبانى أصلا ، ثم أضاف جامع هذه النسخة عليها ما وجده عند غيره من تعليقات أو اختلاف فى روايات الألفاظ . والذى حمله على هذا الافتراض أنه عثر على نسخة مصورة على ميكروفلم فى معهد إحياء المخطوطات العربية — وأصلها محفوظ فى مكتبة نور عثمانية بتركيا — وقد نص فى آخر هذه النسخة على ما يلى :

(فهذا جميع ما رواه أبو عمرو ، وأبو نصر ، والأصمعى ، لزهير من الشعر . . . وكتب محمد بن منصور بن مسلم ـ رحمه الله ـ بمنبج سنة خمسة (كذا) وسبعين وخمسمائة ، والأصل الذى نقله منه كتب من أصل ابن كيسان النحوى رحمه الله فى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، وكان قد قرأ جميعه على أحمد بن يحيى ثعلب ، وكان قد قرىء على أبى عمرو الشيبانى . . .) . وفى هذه النسخة سبع وخمسون قصيدة ، خمس منها غير موجودة فى النسخة المطبوعة ، وتمتاز هذه النسخة ـ على النسخة المطبوعة ـ بكثرة ما فيها من إشارات إلى الشك فى صحة نسبة بعض القصائد إلى زهير . فقد ذكر قصيدته :

انويت ام اجمعت انك غاد وعداك عن لطف السؤال عواد ؟

وقال : (ابو عمرو لم يرو هذه القصيدة ، وقال إنها لكعب ابنه) مع ان هذه التعليقة غير مذكورة فى المطبوعة . وذكر كذلك قصيدته :

ألا أبلغ لديك بنى سبيع وأيام النوائب قد تدور

وقال إن أبا عمرو قال «هذه لرجل من بنى عبد الله بن غطفان»، وليست هذه التعليقة فى المطبوعة .

وذكر قصيدته :

وخالى الجبا أوردته القوم فاستقوا بسفرتهم من آجن الماء أصفرا

وقال : «قال أبو عمرو الشيبانى : هذه لكعب ابنه ، وليست فى المطبوعة أيضاً .

وذكر مقطعته» :

أرادت جوازاً بالرسيس فصدها رجال قعود فى الدجى بالمعابل

وقال : «ويروى أنها لكعب بن زهير ، وهى فى شعره طويلة» ، وليست هذه التعليقة فى المطبوعة .

وذكر قصيدته :

هل تبلغنى إلى الأخيار ناجية تخدى كوخد ظليم خاضب زعر

وقال : (ويقال هى منحولة) .

وذكر قصيدته :

لو كان يقعدفوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

وقال : (ولم يملها أبو نصر ، ويقال هى لأبى الجويرية العبدى ، وهى فى شعره طويلة)

وذكر قوله :

هاج الفؤاد معارف الرسم قفر بذى الهضبات كالوشم

قال : (ولم يملها أبو نصر . قال أبو عمرو الشيبانى : هى لأوس بن أبى سلمى)

وجميع هذه التعليقات ، زيادة فى هذه النسخة ، غير مذكورة فى النسخة المطبوعة . . أما التعليقات المذكورة فى المطبوعة فوجودة ايضاً فى هذه النسخة . فإذا أضفنا هذه القصائد التى نص على الشك فى صحة نسبتها لزهير — وهى سبع — إلى القصائد الخمس التى نص فى المطبوعة على هذا الشك فيها ، كان مجموع هذه القصائد المشكوك فيها اثنتى عشرة قصيدة من ثلاث وخمسين . وبذلك تكون رواية الكوفيين — فى مجموعها — لقصائد زهير إحدى واربعين قصيدة ومقطعة ،

وهى تتضمن القصائد التى أوردها الأعلم من رواية الأصمعى وأبى عبيدة، والقصيدتين اللتين اختارهما من رواية أبى عمرو والمفضل .

فإذا عدنا إلى الحديث عن رواية الأصمعى وجدنا أنها خمس عشرة قصيدة ومقطعة فقط ، وذلك أن الأعلم قد أورد ثمانى عشر قصيدة ذكر فى ختامها أنها رواية الأصمعى ، ولكن الأعلم ذكر — فى معرض حديثه عن ثلاث من هذه القصائد — أن الأصمعى لم يكن يعرفها وأنه أسقطها من روايته . وبذلك يكون ما صححه فى روايته، من شعر زهير خمس عشرة قصيدة ومقطعة . وقد وجدنا أن هذه القصائد الخمس عشرة كلها مضمنة فى القصائد التى رواها علماء الكوفة لزهير ، وأن أحداً من العلماء لم يطعن عليها فى صحة نسبتها بشىء ، وإن كان ثمة خلاف فى نسبة أبيات قليلة من بعض هذه القصائد .

وبذلك نستطيع أن نطمئن إلى أن هذه القصائد الخمس عشرة هى التى أجمع الرواة، من البصريين والكوفيين ، على صحة نسبتها لزهير ، فنتخذها أصلا صحيحا لديوانه ، ندرسها دراسة فنية تكشف خصائصها، وتبين ما فيها من عناصر شخصية الشاعر ،لنتخذ من ذلك مقياسا فنيا نحتكم إليه فى القصائد الأخرى التى رواها الكوفيون ، فما انطبق منها على هذا المقياس رجحنا صحة نسبته إلى زهير وضممناه إلى ديوانه ، وما لم يستقم منها مع هذا المقياس رجحنا أنه مما نسب خطأ إلى زهير أو وضع عليه .

فإذا ما بحثنا عن الجذور الأولى لديوان زهير ، وجدناها جذورا عميقة تضرب فى القدم حتى لتكاد تتصل بزهير نفسه ، ثم تمتد منه خلال القرن الأولى حتى تتصل - فى مطلع القرن الثانى - بأبى عمرو بن العلاء ، وبحماد الراوية ، ثم من بعدهما بالأصمعى وسائر علماء البصرة والكوفة . فقد ذكر السكرى أن ديوانى زهير وكعبا كانا عند بنى غطفان ، فكانوا يحفظون شعرهما ، وذلك لأن زهيرا وابنه كعبا كانا مقيمين فى بنى عبدالله بن غطفان . وكان عمر بن الخطاب يقدم زهيرا ويفضله ، وكذلك جرير الذى قال عنه : إنه أشعر أهل الجاهلية .

وكان الحطيئة رواية زهير ، وقد اتصل الشعر فى ابنه كعب بن زهير ، وابن كعب عقبة المضرب ، وابن ابنه : العوام بن عقبة ، حتى ، لقد قرأ أبو عمرو الشيبانى شعر زهير أو بعضه على بعض بنى زهير .

وكان ممن درس شعر زهير ودرسه منذ مطلع القرن الثانى : أبو عمرو بن العلاء . قال المازنى : « قال لى أبو زيد : قرأت هذه القصيدة ـ يعنى معلقة زهير ـ على أبى عمرو ابن العلاء ، فقال لى : قرأت هذه القصيدة منذ خمسين سنة ، فلم أسمع هذا البيت إلا منك » . يعنى : بيته :

ومن لايزل يستحمل الناس نفسه ولم يغنها يوما من الناس يسأم

وكذلك قرأ الأصمعى على أبى عمرو وروى عنه فى مواطن متعددة ، بعضها فيه نقد أدبى .

ويبدو أن الأصمعى لم يكتف برواية شعر زهير عن أبى عمرو بن العلاء وحده . وإنما أضاف إلى روايته ما أخذه عن غيره من العلماء أو ماسمعه عن الأعراب الرواة ، ثم قرأ ذلك كله وقرىء عليه ، وآية ذلك أننا نجد للأصمعى روايات لبعض الألفاظ وشرحا لبعض الأبيات فى القصائد التى أسقطها من روايته ونص على أنها ليست لزهير

ويرجع الدكتور ناصر الدين أن الأصمعى قد وجد أمامه ديوان زهير تراثاً يتناقل ويروى ويتدارس ، فكان لابدله من أن يقره جميعه ، ويقرئه تلامذته ، ولكنه كان كلما مر بقصيدة نص على رأيه فى صحة نسبتها إلى زهير ، إثباتاً أو نفياً ، ثم يشرح القصيدة فى الحالتين ، ويذكر بعض روايات ألفاظها ، غير أنه لم يثبت فى نسخته من ديوان زهير إلا ماثبت لديه أنه لزهير حقا ، وهى تلك القصائد الخمس عشرة

قصائد زهير ومقطعاته

مرتبة كما جاءت فى رواية الأصمعى

ومقارنتها بما فى النسخ الأخرى

١ ـ أمن أم أوفى دمنة لم تكلم   بحومانه الدراج فالمتثلم

(١) القصيدة الأولى فى ثعلب .

(٢) والأولى كذلك فى مخطوطة نور عثمانية ، وفيها بعد البيت الأول « قال أبو عمرو : قرأت على بعض بنى زهير : الدراج برفع الدال » .

٢ ـ صحا القلب عن سلمى وقد كاد لايسلو

وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

(١) القصيدة الخامسة فى ثعلب .

(٢) والسادسة عشرة فى نور عثمانية ، إلا أنها هنا شطرت شطرين ، فجعلت قصيدتين لاقصيدة واحدة ، وذلك بأن ذكرت بعض أبياتها الأخيرة فى هذه المخطوطة ، (ورقها ٥٤) ، وقبلها قوله : « وهذه الأبيات زيادة لم يروها أبو نصر ، وليست فى روايته ، أنشدها بعض العلماء » .

٣ ـ صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعرى أفراس الصبا ورواحله

(١) آخرها فى رواية الأصمعى :

يهد له مادون رملة عالج   ومن أهله بالغور زالت زلازله

قال الاعلم ص ٣٣ : « وهذا البيت آخر القصيدة فى رواية الأصمعى ، ويلحق بالقصيدة البيتان اللذان بعده ، وهما لخوات بن جبير الأنصارى . . . »

(٢) القصيدة السابعة فى ثعلب ، وقد قال فى ص ١٤٢ :

« وهذه آخر رواية أبى عمرو ، وروى أبو عبيدة والأصمعى . . . » ، ثم ذكر سبعة أبيات .

(٣) القصيدة التاسعة فى نور عثمانية .

٤ ـ إن الخليط أجد البين فانفرقا   وعاق القلب من أسماء ماعلقا

(١) آخرها فى رواية الأصمعى :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنق

وذكر الأعلم ص ٤١ بيتين بعده عن غير الأصمعى .

(٢) القصيدة الثانية فى ثعلب ، وقد أورد قبيل آخرها ستة أبيات نص على أنها من رواية أبى عمرو (ص ٤٩ — ٥٢) ، ثم أربعة أبيات نص على أنها مما روى أبو عمرو والأصمعى (ص ٥٣ — ٥٤) ، ثم بيتين فى اخرها نص على أنهما « من غير هذه الرواية » وأن الأصمعى لم يروهما (ص ٥٥) .

(٣) القصيدة الثانية كذلك فى نور عثمانية ، وقد ذكر أن أبا عمرو لم يرو اخرها بيتا .

٥ — بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا

وزودوك اشتياقاً أية سلكوا

(١) القصيدة التاسعة فى ثعلب .

(٢) والخامسة فى نور عثمانية .

٦ — تعلم أن شر الناس حى ينادى فى شعارهم يسار

(١) القصيدة الخامسة والعشرون فى ثعلب .

(٢) والثامنة والعشرون فى نور عثمانية .

٧ — قف بالديار التى لم يعفها القدم بلى ، وغيرها الارواح والديم

(١) الثامنة فى ثعلب ، والسابعة عشرة فى نور عثمانيه .

٨ — لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن شهر

(١) ذكر الأعلم اخرها بيتاً عن غير الأصمعى ، ، ٦٤ .

(٢) القصيدة الرابعة فى ثعلب ، وهو يورد منها ستة عشر بيتاً ثم يقول : « هذا اخر رواية أبى عمرو » ، ص ٩٤ ، ويكمل عدة القصيدة اثنين وعشرين بيتاً .

(٣) القصيدة العشرون فى نور عثمانية .

٩ — عفا من آل فاطمة الجِــواء فيمن فالقــوادم فالحِســاء

(١) ذكر الأعلم البيت السابع منها عن غير الأصمعى ، ص ٦٥ .

(٢) القصيدة الثالثة فى ثعلب .

(٣) والثالثة أيضاً فى نور عثمانية .

١٠ — لمن طللٌ برامةَ لا يريم عفا وخــلا له حُقُبٌ قديم

(١) القصيدة الثانية عشرة فى ثعلب ، والتاسعة عشرة فى نور عثمانية .

١١ — ألا أبلغ لديك بنى تميم وقد يأتيك بالخبر الظنون

(١) القصيدة العاشرة فى ثعلب ، ولم يرو أبو عمرو فيها الأبيات الثلاثة الأخيرة فى رواية الأصمعى .

(٢) القصيدة الرابعة فى نور عثمانية .

١٢ — رأيت المنى آل امرىء القيس أصفقوا
علينـا وقالوا إننـا نحن أكثر

(١) القصيدة الثالثة عشرة فى ثعلب ، والثانية عشرة فى نور عثمانية .

١٣ — إن الرزية لا رزية مثلهـا ما تبتغى غطفـان يوم أضلت

(١) القصيدة الثامنة والثلاثون فى ثعلب ، والسادسة والعشرون فى نور عثمانية .

(٢) رواها الأصمعى — فى الأعلم — فى ثلاثة أبيات ، وجاءت فى ثعلب ونور عثمانية فى خمسة أبيات ، ووردت فى طبقات ابن سـلام فى أربعة أبيـات (ص ٥٦٨ — ٥٦٩) ، وقال ابن سـلام : « حدثنى أبو عبيدة قال : كان قراد ابن حنش من شعراء غطفان ، وكان جيـد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ادعى هذه الأبيات » .

« ولما كان إجماع الرواة منعقداً على أن زهيرا قال هـذا الشعر ، فإننا نرجح أن الأبيات الثلاثة التى رواها الأصمعى صحيحة النسبة لزهير ، أما البيتان الآخران فلعلهما من شعر قراد بن حنش الذى أدخل فى شعر زهير » .

١٤ ــ لعمرك والخطوب مغيرات وفى طول المعاشرة التقالى

(١) الثالثة والأربعون فى ثعلب ، والخامسة والثلاثون فى نور عثمانية .

١٥ ــ وقالت أم كعب لا تزرنى فلا والله مالك من مزار

(١) التاسعة والثلاثون فى ثعلب .

(٢) والسابعة والعشرون فى نور عثمانية(١) .

° ° °

وخاتمة المطاف بعد هذه الجولة السريعة فى دراسة الشعر الحجازى الجاهلى على النحو السالف هى :

١ ــ (أ) أن الدواوين الشعرية بعد تمحيصها على النحو السالف ، هى أصح ما يجب أن يعتمد عليه الباحث فى الأدب الحجازى .

(ب) وكذلك ما أجمع الرواة على صحته من الأشعار الحجازية فى غير الدواوين .

٢ ــ وأن ما نص الثقاة على وضعه من الأشعار يعتبر موضوعاً منحولا .

٣ ــ وأن ما اختلفت فيه الأخبار من الشعر ، ثم أثبت التحقيق العلمى نسبته لشاعر حجازى ، يكون أدنى إلى الصحة ؛ كما فى لاميتى الشنفرى ، وتأبط شرا .

٤ ــ أن نسبة الشعر إلى غير واحد من الشعراء الجاهليين الحجازيين ليست دليلا على وضعه ، فهو شعر جاهلى حجازى إلى أن الخلاف فى تعيين قائله .

٥ ــ أن طائفة كبيرة من الأشعار الحجازية لم يتناولها النقاد بالتجريح أو الشك ، وهذه أدنى إلى الرجحان فى ميزان التحقيق ما دام عليها طابع العصر الجاهلى .

٦ ــ أو ما كان مهلهل النسج لا يشاكل فى صياغته وروحه البيئة الجاهلية ، خليق أن يشك فى صحته .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الأسد ، ص ٥٣٨ ــ ٥٤٢ .

الباب الثالث

فنون الشعر الحجازى

فى العصر الجاهلى

الفصل الأول

الشعر السياسى

(أولا) أيام الحجازيين فى الجاهلية

— ١ —

كان كثير من الحجازيين والعرب عامة فى جاهليتهم بدوا ، لا يخضعون لنظام ، ولا يدينون لحكومة ، ولا يربطهم إلا قانون القبيلة .

وقد فرضت عليهم طبيعة أرضهم القاحلة أن يعيشوا على رعى الإبل والأغنام يتتبعون بها مواقع الغيث ومواطن الكلأ ، يتنقلون بينها ، ويسيمون ماشيتهم فيها . فإذا أخلفت السماء وأمحلت الأرض ، لجأوا إلى الإغارة والغزو ، ودفعهم الجدب إلى الحرب .

كذلك كان دأبهم النفرة من الضيم ، والنهوض لحماية الجار ، والحرص على الأخذ بالثأر والاعتزاز بالعصبية ، والاعتزاز بالقرابة الواشجة ، والمفاخرة والمنافرة ، والإباء والشمم .

كل ذلك كان يدفع العربى إلى الحرب ؛ ويجعلها أثيرة عنده ؛ يثيرها لأوهى سبب ، ويشنها لأدنى حدث ، صارت عادة مألوفة ، وسنة معروفة ، وحتى أنفوا أن يرزقوا من عمل غير السيف ، أو يكسبوا إلا من أسنة الرماح ، فإذا لم يجدوا عدواً أغاروا على الأقرباء ، كما يقول القطامى :

ومن تكن الحضارةُ أعجبته ... فأيَّ رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فإن فينا ... قَنَاً سُلُباً وأفراساً حسانا (١)
وكن إذا أغرن على جناب ... وأعوزهن نهب حيث كانا (٢)
أغرن من الضباب على حلول ... وضبة إنه مَنْ حَان حانا (٣)
وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

وهذا قليل من كثير مما أثر عن العرب فى حب الحرب ، وخوض المعارك ، ولهم أيام مشهورة(٤) .

فالعرب بطبيعتهم أمة مغالبة مجالدة ، مساورة معاندة ، لا ترضى بالضيم ، ولا تقيم على الذل ، ولا تغضى على الهوان ، ولقد مردوا على المخاطرة ، واعتادوا القتل والقتال وألفوا الصولة والصيال ، فانتزعت من نفوسهم غريزة الخوف ، وغلبت عليهم الحرية الشخصية ، وصارت الحرب عندهم تهيج لأوهى سبب ، وتشغل لأقل حادث ، وما تخبو إلا لتستعر . وقد تظل ملتهبة بين القبائل أعواماً طوالا ، لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها

وللعرب كثير من الوقائع العظيمة التى هاجت قبائلهم ، وأثارت عصبياتهم ، والتى تحدث عنها الشعراء فى أشعارهم ، وكانت مادة رائعة للسمار والمحدثين فى حقب طويلة ، وأعصار بعيدة . قال ابن عبد ربه : « إنها — أيام العرب —

---

(١) القنا : الرماح ، سلبا : تسلب النفوس جمع سلوب .
(٢) الجناب : الناحية .
(٣) الضباب : عدة قبائل منها ضبة وحسل . الحلول : الذين يكونون فى مكان واحد . حان حانا : أى من هلك بغزونا فقد هلك حقاً ، أو من حان أجله هلك .
(٤) الأيام : أى الوقائع التى حدثت فى الأيام ، وفى القرآن الكريم : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله » ، قال الزمخشرى : أى أنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها . قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

ومن هنا كانوا يقولون : يوم لك ويوم عليك .

مآثر الجاهلية، ومكارم الأخلاق السلبية، قيل لبعض أصحاب رسول الله : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم فى مجالسكم ؟ : كنا نتناشد الشعر، ونتحدث بأخبار جاهليتنا.

وقد سميت هذه الوقائع بأيام العرب، وهى ينبوع ثجاج من ينابيع الأدب، وميدان فسيح من ميادين البيان، بما اشتملت عليه من روائع القصص، وبدائع القول، ومأثور الحكم، وبليغ الخطب والشعر، كما أنها صورة صحيحة للعرب وعاداتهم وتقاليدهم، وتصوير صادق لأسلوب حياتهم وشأنهم فى الحرب والسلم والنجعة والاستقرار.

— ٢ —

ولهذه الأيام أثر واضح فى الأدب، بما تهيج من عاطفة، وتبعث من شعور، وتثير من شاعرية ... كان الشعراء والخطباء من وراء الفوارس يذكون حميتهم، ويلهبون شجاعتهم، ويصفون خيلهم وسلاحهم، ويشيدون ببطولتهم ومواقفهم، ويندبون بقوافيهم الباكية صرعى الأيام، ويحرضون على الثأر والانتقام، وقد ينفرون من الحرب وويلاتها، ويحملون لقبائلهم غصن الزيتون !!

ومن أجل آثار هذه الأيام ما يلى :

١ – أن الشعر الجاهلى عامة، والفخر والحماسة والرثاء والهجاء منه خاصة، ترتبط بهذه الأيام ارتباطا وثيقا، فأكثر القصائد وهذه الفنون الأدبية فى الشعر الجاهلى قيلت فى هذه الأيام وكانت صدى لها، ونظمها أصحابها فخرا بمآثر القبيلة، ودفاعا عن أحسابها، أو هجاء لخصومها وثلبا لأعدائها، أو تحميسا لأبناء القبيلة ليهبوا للدفاع عن كيانها وحفظ شرفها، أو رثاء للقتلى من أبنائها فى حومة القتال وميادين النضال.

٢ – وفى الشعر الجاهلى قصائد كثيرة قيلت فى وصف المعارك، وفى الدعوة إلى السلام وتصوير فظائع الحرب، أو الدعوة إلى الانتقام وطلب الأخذ بالثأر.

٣ - وأوصافهم فى شعرهم للخيول والرماح والسيوف والدروع وغيرها من أدوات القتال، أثر من أثر هذه الأيام فى الشعر الجاهلى .

٤ - ولا يقتصر أثر هذه الأيام على الشعر، بل إنها تشغل جزءاً كبيراً من النثر الجاهلى أيضاً، كما تجد فى خطبة هانىء بن قبيصة فى قومه يحرضهم على الحرب يوم ذى قار[1] وفى سواها من الخطب، وفى الكثير من المفاخرات والمنافرات والمحاورات، التى تتصل بأيام العرب فى جاهليتهم فى قريب .

٥ - وفوق ذلك فإن أثر هذه الأيام فى تاريخنا الأدبى أثر جليل، فالأدب الذى خلفه لنا الشعراء والأدباء صورة مفصلة لحياة العرب الاجتماعية والسياسية واصلاتهم بالأمم المجاورة لهم، وهو مرآة ناطقة بأخلاقهم وفضائلهم وعاداتهم وشمائلهم، وماتحدثت به الرواة عن هذه الأيام يشغل جانبا كبيرا فى كتب الأدب العربى ومصادره، وهو يمثل ألوانا طريفة من فنون الأدب المتصلة بفن القصص والأساطير .

٦ - وقد ألفت فى أيام العرب كتب أدبية كثيرة ضاعت على مر الأجيال :

(١) فلأبى عبيدة، الأديب الرواية، المتوفى عام ٢٠٩ هـ، كتاب صغير فيها حوى خمسة وسبعين يوما، وكتاب آخر كبير جمع فيه ألفا ومائتى يوم .

(ب) ولأبى الفرج الأصفهانى، المتوفى سنة ٣٥٦ هـ، كتاب فى أيام العرب، جمع فيه ألفا وسبعمائة يوم .

(ج) وقد ألف لفيف من الأساتذة المعاصرين كتاباً فى «أيام العرب فى الجاهلية» وطبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى عام ١٩٤٢ م .

---

(١) راجعها فى الأمالى : ١٦٩ ج ١، وفى سواه من كتب الأدب .

— ٣ —

أيام الأوس والخزرج(١)

نشبت فى الجاهلية ، بين الأوس والخزرج ، حروب كثيرة ، من أشهرها :

حرب سمير : للأوس على الخزرج .

« حاطب : للخزرج على الأوس.

حرب كعب : « « « .

يوم بعاث : للأوس على الخزرج .

١ — يوم بعاث(٢) بين الأوس والخزرج :

وسببه : أن الأوس طلبت إلى قريظة والنضير ، أن يحالفوهم على الخزرج ، فبعث الخزرج إلى اليهود يهددونهم إن حالفوهم ، فلم يسع اليهود إلا أن ينزلوا على رغبة الخزرج ، وأكدوا ذلك بتسليمهم أربعين غلاما ، رهائن لديهم ، وافتخر بذلك أحد شعراء الخزرج ، قائلا :

فذلوا لرهن عندنا فى حبالنا — مصانعة يخشون منا القوارعا
وذاك بأنا حين نلق عدونا — نصول بضرب يترك العزخاشعا

---

(١) راجع : ٤٠٢/١ ابن الأثير ، الأغانى ١٨ / ٣ طبعة دار الكتب المصرية ، ٢٤٧ و ٢٥٨ جمهرة أشعار العرب ، المفضليات ١٣٥ ، رغبة الآمل من كتاب الكامل ٢١٢ / ٢ ، مهذب الأغانى ١٢٢ / ١ ، الأغانى الجزء الثالث عشر ص ١١٨ طبعة الساسى، العرب قبل الاسلام ص ٢٥٠ ؛ تاريخ العرب القدامى ص ٢٥٠ ، ص ٦٣ / ١ أيام العرب فى الجاهلية طبعة عيسى البابى الحلبى — سنة ١٩٥٣ .

(٢) بعاث بالعين والغين كغراب ويثلث . وقيل : هو بضم الباء مع العين المهملة موضع بالمدينة ، أو بالقرب منها ، وقعت به اخر حرب بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بنحو خمس سنين .

فأغضب ذلك الشعر قريظة والنضير ، ونقضوا عهدهم ، وحالفوا الأوس على الخزرج ، فقتل بعض الخزرجيين رهائنه .

فاجتمعت الأوس قريظة والنضير وقبائل أخرى يهودية على حرب الخزرج ، والتقوا ببعاث ، وعلى الأوس حضير الكتائب ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى « نسبة إلى بياضة كسحابة : قبيلة » ، ودارت رحى الحرب بشدة ، فانهزم الأوس ، فبرك حضير ، وطعن قدمه بسنان رمحه ، وصاح : واعقراه !! والله لا أعود حتى أقتل ، فإن شئتم أن تسلمونى فافعلوا ، فعطفوا عليه ، وأصاب سهم عمرو بن النعمان البياضى فقتله ، فانهزم الخزرج ، وصاح صائح : يامعشر الأوس ، أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم ، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم ، وإنما سلبهم اليهود ، وحملت الأوس حضيرا مجروحا ، فمات ، ورثاه خفاف بن ندبة بقوله :

أتانى حديث فكذبته ... وقيل خليلك فى المرمس[1]

فياعين بكى حضير الندى ... حضير الكتائب والمجلس

وسمى ابن الأثير هذا اليوم : يوم : يوم الفجار الثانى ، لقتل الغلمان فيه . وقيل : إن قتل الغلمان كان بسبب امتناع اليهود عن إخلاء دورهم الجيدة الهواء للخزرج الذين كانوا يراودونهم على ذلك .

وقد ألف الله بين قلوب الأوس والخزرج بعد ذلك بالإسلام ، وأصبحوا لرسوله أنصارا (٢) .

٢ — يوم سمير :

سببه : أن رجلا يقال له كعب بن العجلان من بنى ذبيان ، نزل على مالك ابن العجلان زعيم الخزرج محالفة ، وأقام معه ، فخرج كعب يوما إلى السوق ، فرأى رجلا من غطفان ومعه فرس وهو يقول : « ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب » ، فقال رجل : فلان الأوسى . وقال غيره ، فلان الخزرجى -

(١) المرمس كملعب : القبر .
(٢) تاريخ ابن الأثير .

وقال ثالث : فلان اليهودى أفضل أهلها . وقال رابع : مالك بن العجلان . فدفع الغطفانى الفرس إليه ، فقال كعب : ألم أقل لكم إن حليفى مالكا أفضلكم ؟ فغضب لذلك رجل من الأوس ، فقام له سمير وشتمه وافترقا . . ثم حدث بعد ذلك أن كعباً قصد سوقاً لهم بقباء ، فقصده سمير وانتظر حتى خلت السوق فقتل كعباً وأخبر مالك ابن العجلان بقتله ، فأرسل إلى آل سمير يطلب قاتله ، فقالوا : لا ندرى من قتله . . . وترددت الرسل بينهم ، وهو يطلب سميرا وهم ينكرون قتله ، ثم عرضوا عليه الدية فقبلها ، وكانت دية الحليف فيهم نصف دية النسيب . فأبى مالك إلا أخذ دية كاملة ، ولج الأمر بينهم حتى إلى المحاربة : فاجتمعوا ، والتقوا ، واقتتلوا قتالا شديدا ، وافترقوا ، ثم التقوا مرة أخرى واقتتلوا ، حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفر يومئذ للأوس ، ثم أرسلت الأوس تطلب أن يحكم بينهم المنذر بن حرام الخزرجى جد حسان بن ثابت الشاعر ، وأجابهم إلى ذاك ، وحكم المنذر : بأن يعطوا كعباً حليف مالك دية الصريح ، ثم يعودوا إلى سنتهم القديمة ، وفرحوا بذلك وحملوا الدية ، وافترقوا وقد تمكنت البغضاء والعداوة فى نفوسهم .

٣ — يوم السرارة :

وسببها : أن رجلا من بنى عمرو من الأوس ، قتله رجل من بنى الحارث من الخزرج ، فعدا أهل القتيل على القاتل وقتلوه غيلة ، وعرف ذلك أهله ، فكانت حرب بين الفريقين شديدة ، حمل راية الخزرج فيها عبدالله بن سلول ، وراية الأوس حضير ابن سماك ، وصبر القوم بعضهم لبعض أربعة أيام ثم انصرفت الأوس إلى دورها ، فضخرت الخزرج بذلك .

٤ — يوم حاطب :

توالت الحروب بعد يوم السرارة ، حتى إذا مرت مائة سنة من يوم سمير ، إذ بحرب تعرف بيوم حاطب وقعت بين فريقين .

وسببها : أن حاطبا الأوس — وكان شريفاً سيدا فى قومه — أتاه ضيف من بنى ثعلبة ، ثم غدا يوما إلى سوق بنى قينقاع ، فرآه يزيد الخزرجى ، فقال

لرجل من اليهود : لك ردائى إن كسعت هذا الثعلبى : فأخذ الرداء وكسعه ، فنادى الثعلبى . ياالحاطب كسع ضيفك وفضح . وعرف حاطب الأمر ، فجاء وضرب اليهودى بالسيف فقتله ، وعلم يزيد الخزرجى فأسرع خلف حاطب فلم يدركه ، فقتل رجلا من أهله . فقامت الحرب بين الأوس والخزرج ، وسعى بينهما جماعة من فزارة بالصلح ، فلم تفلح مساعيهما ، واستمرت الحرب بينهما سجالا : يوماً للأوس ، ويوما للخزرج حتى انتهت بظفر الخزرج .

وتجددت الحرب بعد ذلك ، وكان الفريقان يتصالحان على الديات ، وطال أمر الحروب حتى سئمت الأوس ، فصارت إلى قريش بمكة تطلب محالفتها ، فأجابت قريش طلب الحلف ، ثم تحللت منه ، فطلبت الأوس إلى بنى قريظة وبنى النضير الحلف على الخزرج ، فأجابوهم إلى ذلك ، ثم عادوا فنقضوا .

— ٤ —

أيام قريش

ولقريش أيام ، من أهمها حروب « الفجار » ، ولاسيما الفجار الرابع . وهذه هى :

الفجار الأول : جلس بدر بن معشر الغفارى فى مجلس له بعكاظ — وكان بدر رجلا حدثا منيعاً مستطيلا بمنعته على من ورد عكاظ — فجعل يقول ، ورجل على رأسه قائم :

نحن بنو مدركة بن خندف من يطعنوا فى عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يغطرف كأنهم لجة بحر مسدف

وهو باسط رجله يقول : « أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضرب هذه بالسيف فهو أعز منى » . فوثب رجل من بنى نصر بن معاوية ، فضربه على ركبته فأندرها ، ثم قال له : « خذها إليك أيها المخندف » ، وأنشد وهو ماسك سيفه :

نحن بنو دهمان ذى التنطرف بحر لبحر زاخر لم ينزف

نبنى على الأحياء بالمعروف

فتحير الحيان عندذلك ، وثارا حتى كادت تكون فتنة ودماء : ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير . وذكروا رواية أخرى فى الفجار الأول ، وهى ما سنذكره فى الفجار الثالث ، وهذا الذى هاج أول أيام الفجار بين كنانة وهوازن .

الفجار الثانى : أما الفجار الثانى ، فقد كان بين قريش وهوازن . وكان الذى هاجه ، أن فتية من قريش جلسوا فى سوق عكاظ إلى امرأة وضيئة من بنى عامر ابن صعصعة — وقيل : بل أطاف بها شباب من بنى كنانة لا من قريش — وعليها برقع وهى فى درع فضل ، فأعجبهم ما رأوا من هيئتها ، فسألوها أن تسفر عن وجهها ، فأبت عليهم ، فأتى أحدهم من خلفها فشد ذيلها بشوكة إلى ظهرها وهى لا تدرى . فلما قامت تقلص الدرع من خلفها فضحكوا ، وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهها فقد رأينا خلفها . فنادت المرأة : « يا آل عامر ! » فتحاور الناس ، وكان بينهم قتال ودماء يسيرة ، فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم .

الفجار الثالث : وهو بين كنانة وهوازن — وكنانة هم حلفاء قريش — وكان الذى هاجه أن رجلا من بنى كنانة عليه دين لرجل من بنى نصر بن معاوية . وكان الكنانى فقيرا ، فرآه دائنه النصرى بسوق عكاظ ، ومع النصرى قرد وأتى به السوق . فوقف فى السوق ونادى : « من يبيعنى مثل هذا القرد بما لى على فلان الكنانى ؟ » وجعل يعيد النداء حتى أكثر ، تعييرا للكنانى ولقومه . فمر به رجل من بنى كنانة فسمعه وضرب القرد بسيفه فقتله . فهتف النصرى : ياآل هوازن ؟ وهتف الكنانى : ياآل كنانة ! فتهايج الناس حتى كاد يكون بينهم قتال . ثم رأوا أن الخطب أيسر مما تكلفوا له ، فتراجعوا ولم يتفاقم الشر بينهم .

الفجار الرابع : وقعت هذه الحرب ، وكان يود قريش ألا تقع ، لميلها إلى السلم الضرورى لتجارتها ، وكانت تجنح إلى السلم فى كثير من أمورها وخاصة مع قبيلة هوازن التى لها القوة والمنعة حول عكاظ ، فإن قريشاً ترهب جانبها وتجتنب ما يعكر الصفو بينها وبين هوازن حرصاً على سلامة الموسم وعلى تجارتها فيه .

وقد سميت بالفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم وهى الشهور التى تعظمها العرب وتحرم فيها القتل والقتال فيما بينها . فلما خرج المتحاربون فيها على شريعة العرب كانوا فاجرين بذلك . وأيامها خمسة تفرقت على أربع سنين.

سنتها : من الصعب تعيين سنة هذه الحروب لما ورد فيها من تضارب الروايات ، فقد أجمعت المصادر على أن رسول الله ، ﷺ ، حضرها بنفسه ، ثم افترقت فرقتين :

فابن هشام ومن تابعه يجعلون سن الرسول لما حضرها أربع عشرة سنة ، ومنهم صاحب العقد الفريد الذى يروى فى ذلك حديثاً هذا نصه : « كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة » .

وابن إسحق ومن تابعه — ومنهم صاحب القاموس والأصفهانى وابن سعد — جعل سنه حينئذ عشرين سنة .

وهناك غموض آخر اشترك فيه الفريقان معا ، وهو أن أيام الفجار الآخر تفرقت على أربع سنين ، فنى أيتهن كان عمره أربع عشرة ؟ ونبله ﷺ على أعمامه فسر بوجهين : أما صاحب العقد الفريد فقال : أنبل بمعنى أناولهم النبل ، وهو خلاف ما ذهب إليه ابن هشام فى سيرته من أن معناه أنه كان يرد عنهم نبل عدوهم.

إلا أن تعدى الفعل بـ (على) ترجح التفسير الأول ، فقد جاء فى القاموس : نبل عليه : لقط له النبل . وروى الحديث (فى ماده فجر) ، وكذلك رواه ابن سعد على هذه الصيغة . « كنت أنبل على عمومتى يوم الفجار ، ورميت فيه بأسهم ، وماأحب أنى لم أكن فعلت » .

فإن يكن رسول الله ، ﷺ ، حضر الأيام جميعها ، وكانت سنه أول ما هاجمه خمس عشرة سنة — على إحدى روايتي ابن هشام — أمكن التوفيق بين الروايات على وجه التقريب ، فتكون الحرب قد وضعت أوزارها وقد أشرفت سنه على العشرين . فكان يلتقط السهام فى أولها ويرمى بنفسه فى آخرها ، فعلى الرواية الأولى تكون الحرب قد وقعت قبل البعثة بخمسة وعشرين عاماً ، وتوافق سنة (٥٨٥) للميـــلاد المسيحى .

سبب الحرب :

من عادة النعمان بن المنذر — ملك الحيرة — أنه يرسل كل عام إلى سوق عكاظ لطيمة (وهى الجمال تحمل المسك والطيب) ، بحماية رجل شريف من أشراف العرب ، يحميها له حتى تصل إلى السوق فتباع فيها ويشترى له بثمنها أدم من أدم الطائف .

ولا يقوم عادة بعبء حمايتها إلا رجل منيع ، لقومه عدد وعزة ، وكان الذى يجيرها فى الغالب سيد مضر[1] .

فلما جهز النعمان اللطيمة لهذا العام (٥٨٥ م) ، قال : « من يجيرها ؟ » . وكان بحضرته أناس من أشراف القبائل ، فانبرى له البراض بن قيس الضمرى ، وكان فتاكاً يضرب بفتكه المثل ، فقال ، « أنا أجيرها على بنى كنانة » ، فقال النعمان : « ما أريد إلا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة » ، فقام عروة الرجال — أحد أشراف هوازن وكبرائهم — فقال :

« أكلب خليع يجيرها لك ؟ أبيت اللعن ، أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم » يريد عامة العرب — فحقدها عليه البراض ، وقال : « أعلى بنى كنانة تجيرها يا عروة؟» قال : « نعم ، وعلى الناس كلهم » . فحمى البراض إذ عدها استهانة به واستخفافاً بقومه : وأضمرها فى نفسه غدرة شنعاء .

(١) الأغانى ١٩ : ٧٥ .

دفع النعمان اللطيمة إلى عروة فخرج بها . فتبعه البراض وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه شيئاً ، لأنه مخيع بين قومه من غطفان ، حتى إذا بلغوا (فدك) نزل عروة فى أرض يقال لها « أوارة » ، فشرب الخمر وغنته قينة ثم قام فنام .

اغتنم الفرصة البراض ، وانسل إليه فى خبائه ، فلما رآه عروة ناشده واعتذر إليه ، وقال : « كانت منى زلة » ، فلم يفد الاعتذار شيئاً ولم يخفف مما يضطرم فى صدر البراض من الحقد ، فانقض على عروة فقتله ، وخرج يرتجز ، ويقول :

قد كانت الفعلة منى ضلة

هلا على غيرى جعلت الزلة

فسوف أعلو بالحسام القلة

ثم أنشد :

وداهية يهال الناس منها | شددت لها بنى بكر ضلوعى

هدمت بها بيوت بنى كلاب | وأرضعت الموالى بالضروع

جمعت له يدى بنصل سيف | فخر يميد كالجذع الصريع

واستاق اللطيمة إلى خيبر ، وبعث رسولا مستعجلا إلى حرب بن أمية ، يخبره أنه قتل عروة فليحذر قيساً ، فتبعه رجلان من غطفان يريدان قتله ، فكان هو أول من لقيهما ، فعرف ما قصدا إليه فنوى التعجيل بهما ، فقال لهما : « من الرجلان ؟ » ، قالا : « من غطفان وغنى بهذه البلدة ؟ » — قالا — : « ومن أنت ؟ » ، قال : « من أهل خيبر » ، قالا : « ألك علم بالبراض ؟ » ، قال : « دخل طريداً خليعاً فلم يؤوه أحد بخيبر ولا أدخله بيتاً . » ، قالا : « فأين يكون ؟ » ، قال : « فهل لكما به طاقة إن دللتكما عليه ؟ » ؛ قالا : « نعم » ، قال : « فانزلا » ، فنزلا فعقلا راحلتيهما . قال البراض : « فأيكما أجرأ عليه وأمضى مقدماً وأحد سيفاً ؟ » ، قال الغطفانى : « أنا » ، قال : « فانطلق أدلك عليه ويحفظ صاحبك راحلتيكما . » ، ففعل .

وانطلق البراض يمشى بين يدى الغطفانى حتى انتهى إلى خربة فى جانب خيبر ، خارجه عن البيوت ، فقال البراض : « هو فى هذه الخربة وإليها يأوى .

فأنظرنى حتى أنظر أثم هو أم لا . » ، فوقف له الرجل ودخل البراض ثم خرج إليه » وقال : « هو نائم فى البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت . فهـــل عندك سيف فيه صرامة ؟ » ، قال : « نعم » : قال : « أرنى سيفك أنظر إليه أصارم هو ؟ » ، فأعطاه إياه ، فهزه البراض ، ثم ضربه به فقتله ، ووضع السيف خلف الباب .

وأقبل على الغنوى فقال : « ما وراءك ؟ » ، قال البراض : « لم أر أجبن من صاحبك » تركته قائماً فى الباب الذى فيه الرجل — والرجل نائم — لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه » . قال الغنوى : « يا لهفاه ! لو كان أحد ينظر راحلتينا .) ، قال البراض : (هما على إن ذهبتا .) ، فانطلق الغنوى والبراض خلفه ، حتى إذا جاوز الغنوى باب الحربة أخذ البراض السيف من خلف الباب ثم ضربه به حتى قتله ، وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق .

— ٥ —

وفيما يلى تفصيل أيام الفجار الرابع :

يوم نخلة :

بلغ قريشاً خبر البراض وقتله عروة ، وفزعوا أن تعلم بذلك هوازن فتدهمهم وكانوا فى عكاظ فى الشهر الحرام فخلصوا نجيا (واتفق رأيهم أن يخاطبوا عامر بن مالك سيد قيس بذلك ، فأتوه وأخبروه ، فأجاز مالك بين الناس وأعلم قومه ما قيل له وأوشكوا أن يصطلحوا) لكن فريقاً منهم خافوا أن يكون قومهم بمكة فى ضيق » فانسلوا من عكاظ وهوازن لا تشعر بهم وتوجهوا نحو مكة رجاء أن ينصروا .

وكان من عادة العرب إذا وفدت على عكاظ أن تدفع أسلحتها إلى عبد الله ابن جدعان — وكان هذا سيداً حكيما مثرياً من المـال — فتبقى عنده أسلحة النـاس حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم فيردها عليهم إذا ظعنوا . فلـما كان من أمر البراض ما كان ، قال حرب بن أمية لابن جدعان : (احتبس قبلك سلاح هوازن) »

فقال عبد الله : (أبا الغدر تأمرني يا حرب ؟ فوالله لو أعلم أنه لا يبقى فيها سيف إلا ضربت به ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئاً . ولكن لكم مئة درع ومئة رمح ومئة سيف تستعينون بها .) ، ثم صاح ابن جدعان في الناس : (من كان له قبلي سلاح فليأت وليأخذه ؛) ، فأخذ الناس أسلحتهم .

وبعث ابن جدعان وحرب بن أمية وهشام والوليد ابنا المغيرة إلى أبي براء سيد قريش : (إنه قد كان بعد خروجنا حرب وقد خفنا تفاقم الأمر فلا تنكروا خروجنا .) ، وساروا راجعين إلى مكة (اغاني ١٩ : ٧٦) ، فلما كان آخر النهار بلغ ابا البراء قتل البراض عروة فقال : (خدعني حرب وابن جدعان) ، وركب فيمن حضر عكاظ من هوازن في إثر القوم فأدركوهم في نخلة قبيل الحرم ، فناوشوهم شيئاً من القتال يسيراً حتى جاء الليل ، ودخلت قريش الحرم فأمسكت هوازن عنهم ونادوهم : يا معشر قريش ! إنا نعاهد الله ان لا نبطل دم عروة الرحال ابداً او نقتل به عظيما منكم ؛ وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام المقبل . ونادى رجل من بني عامر :

لقد وعدنا قريشاً وهي كارهة بأن تجيء إلى ضرب رعابيل

فقال حرب بن امية لأبي سفيان ابنه : قل لهم : (إن موعدكم قابل في هذا اليوم). وتعرف هذه الوقعة بيوم نخلة [1] وقد تعطلت السوق فلم تقم تلك السنة . فقال خداش ابن زهير يذكر قريشاً بها ويعيرهم ، وكانت العرب تسمى قريشاً (سخينة) ، لأكلها السخينة وهى طعام رقيق يتخذ من دقيق :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

إذ يتقينا هشام بالوليد ولو أنا ثقفنا هشاما شالت الجذم

---

(١) (يوم نخلة) هما نخلتان والمقصود هنا نخلة اليمانية وهو الوادي الممتد من السيل الكبير إلى ما بعد الزيمة ، وقرية الزيمة على جانبه . أما نخلة الشامية فتعرف باسم وادي المضيق ووادي اليمون وتقع شمال نخلة اليمانية ويفصل بينهما سلسلة من الجبال ثم يلتقيان أسفل قريتي الزيمة وسولة ، فيكونان وادياً واحداً يعرف في القديم باسم وادي مر ، ومر الظهران ويعرف حديثاً باسم وادي فاطمة .

لما راوا خيلنا تزجى اولتلها ... آساد غيل حمى اشبالها الأجم

ولوا سلالا وعظم الخيل لاحقة ... كما تخب إلى اعطانها النعم

بين الأراك وبين المرج تبطحهم ... زرق الأسنة فى اطرافها السهم

فإن سمعتم بجيش سالك سرفا ... وبطن مر فأخفوا الجرس واكتتموا

وهذا غاية فى التعبير وفى وصف هدة الحرب حتى صار الأخ يفتدى نفسه بأخيه.

يوم شمظة[1] :

شمظة موضع فى عكاظ ، نزلته كنانة بعد عام من يوم نخلة حسبما اتعدوا هم وهوازن . فاحتشدت كنانة : قريشها ، وعبد منافها والأحابيش ومن لحق بهم ، وسلح يومئذ عبد الله بن جدعان مئة كمى بأداة كاملة سوى من سلح من قومه . وعلى إحدى مجنبتى كنانة عبد الله بن جدعان ؛ وعلى الثانية كريز بن ربيعة ، وامر الجميع إلى حرب بن امية الذى كان فى القلب . اما هوازن واحلافها فأمرها إلى مسعود بن معتب الثقفى . واعتزل فريق من الحيين فلم يشهد الحرب . ثم تناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض ، فكانت الدائرة اول النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت ، فانقشعت كنانة واستمر القتل فيهم ، فقتل منهم تحت رايتهم مئة رجل ، ولم يقتل من قريش يومئذ احد يذكر ، وذلك قول خداش بن زهير :

فأبلغ إن عرضت بنا هشاما ... وعبد الله ابلغ والوليدا

اولئك إن يكن فى الناس خير ... فإن لديهم حسباً وجودا

هم خير المعاشر من قريش ... واوراهم إذا قدحت زنودا

بأنا يوم (شمظة) قد اقمنا ... عمود المجد إن له عمودا

---

(١) شمظة : من عكاظ ، هو الموضع الذى نزلت فيه قريش وحلفاؤها من بنى كنانة بعد يوم نخلة . وهو أول يوم اقتتلوا به من أيام الفجار بحول على ما تواعدت عليه مع هوازن وحلفائها من ثقيف وغيرهم ؛ فكان يوم شمظة لهوازن على كنانة وقريش . وهو من المواضع المجهولة اليوم . [معجم ما استعجم ٣ : ٩٦١]

جاءوا عارضاً بردا وجئنا ... كما أضرمت فى الغاب الوقودا
فعانقنا الكماة وعانقونا ... عراك النمر واجهت الأسودا
ونادوا يالعمرو لا تفروا ... فقلنا لا فرار ولا صدودا
فولوا نضرب الهامات منهم ... بما انتهكوا المحارم والحدودا[1]
فلم أر مثلهم هزموا وفلوا ... ولا كذيادنا عنقاً مذودا

يوم العبلاء[2] :

عاد الأحياء المذكورون من هؤلاء وأولئك ، فالتقوا من قابل فى اليوم الثالث من أيام عكاظ بالعبلاء فاقتتلوا على التعبئة التى تقدمت .

فكان هذا اليوم أيضا لهوازن على قريش وكنانة . فأصيبت قريش وقتل أحد صناديدها : العوام بن خويلد ، والد الزبير بن العوام ، حوارى رسول الله ﷺ ، قتله مرة بن متعب الثقفى ، فقال فى ذلك رجل من ثقيف يفتخر بقتله لما له من الخطر :

منا الذى ترك العوام منجدلا ... تنتابه الطير لحما بين أحجار

وفى هذا يقول شاعر هذه الحروب من هوازن ، خداش بن زهير :

ألم يبلغكُمُ أنا جدعنا ... لدى العبلاء خندف بالقياد
ضربناهم ببطن عكاظ حتى ... تولوا طالعين من النجاد

ويقول :

ألم يبلغك ما لقيت قريش ... وحى بنى كنانة إذ أبيروا
دهمناهم بأرعن مكفهر ... فظل لنا بعقوتهم زهير[3]

(١) راجع خزانة الادب وابن سلام ص ١٢١ — ١٢٢ ، والاغانى ١٩ : ٧٨

(٢) العبلاء : قرية ذكر الهمدانى أنها خربت . وتقع بقرب العبيلاء ، قرية عدوان المعروفة ، وتقع جنوب عكاظ مجاورة له . وفيها كان يوم العبلاء لهوازن على قريش وكنانة . [راجع موقع عكاظ صفحة ٦٤ تعليق الاستاذ حمد الجاسر] .

(٣) أبيروا : أهلكوا . العقوة : ما حول الدار ، المحلة .

يوم شرب[1] .

ثم التقوا على رأس الحول فى اليوم الثالث من عكاظ أيضاً بشرب ، وشرب من عكاظ . ولم يكن بين الفريقين يوم أعظم منه ، صدقوا فيه الحملة ، وصبروا حفاظاً وحمية ، وقد أبلت فيه قريش بلاء حسنا . وكان الذى أحامم أن لهوازن عليهم يومين ذهبوا بفخرهما . فحافظت قريش وكنانة وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر ، وقيد ثلاثة من شجعان قريش وأشرافها أنفسهم ، وقالوا : « لا يبرح منا رجل من مكانه حتى يموت أو نظفر » ، وهم : أبو سفيان وحرب ــ ابنا أمية ــ وأبو سفيان بن حرب والد معاوية .

وكان على الفريقين رؤساؤهم السابقون ، واستمر القتال بهذه الشدة حتى انهزمت هوازن وقيس كلها رغم عددها وعدتها ، إلا بنى نصر فإنهم صبروا مع ثقيف ؛ وذلك لأن عكاظ بلدهم ، لهم فيها نخل وأموال ، إلا أنهم لم يغنوا شيئا ثم انهزموا أيضاً وقتلت هوازن يومئذ قتلا ذريعاً . وذهبت بفخر هذا اليوم كله كنانة وقريش ، فارتفعت أصوات شعرائهم تخلد هذا النصر المؤزر ، وما لها لا تفعل ، وقد لقيت خزيا كبيراً من شعراء هوازن ؟ ! وما شأن شاعر تفقده أمته يوم الحاجة ؟ ! وأى غناء لشاعر لا قوم له ؟ ! فقال أمية بن أبى الأسكر الكنانى :

---

(١) شرب . وهو واد عظيم أعلاه وادى العقيق ، الواقع غــرب الطائف وشماله ثم ينحدر ماراً بمزارع القيم فأم الحمض ، فالقديرة ، يلتقى به وادى الحوية من الغرب ، فيكونان وادياً واحداً يدعى وادى « شرب » وعلى مسافة ميل واحد من الحوية تقع قرية شرب فى الوادى نفسه ، ثم يجوز السلسلة الجبلية ، ويفضى إلى الأرض البراح فثم عكاظ حتى تنتهى إلى وادى الأخيضر الواقع شرقا عن وادى شرب ويفضى الواديان فى ركبة ، وقد يطلق على سوق عكاظ اسم شرب كما فى قول الكميت ــ الذى أورده البكرى فى معجمه (ص ٨٠٩) .

وفى الحنيفة فاسأل عن مكانهم بالموفقين ، وملقى الرحل من شرب

(موقع عكاظ صفحة ٦٤ تعليق الأستاذ حمد الجاسر)

وشرب هو المكان الذى وقع فيه يوم شرب وانتصرت فيه قريش وكنانة على هوازن.

ألا سائل هوازن يوم لاقوا | فوارس من كنانة معلمينا
لذى شَرِب وقد جاشوا وجشنا | فأوعب فى النفير بنو أبينا[1]

وقال :

قومى اللذو بعكاظ طيروا شرراً | من روس قومك ضرباً بالمصاقيل[2]

وقال جِذْلُ الطعان :

جاءت هوازن أرسالا وإخوتها | بنو سليم فهابوا الموت وانصرفوا
فاستقبلوا بضراب فض جمعهمُ | مثل الحريق فما عاجوا ولا عصفوا

يوم الحريرة[3] :

وهو آخر أيامهم ، ثم التقوا على رأس الحول بالحريرة ، وهى حرة إلى جنب عكاظ مما يلى مهب جنوبها ، وعلى كل قوم رؤساؤهم السابقون . فاقتتلوا قتالا شديداً كان شؤماً على قريش وأحلافها ، قتل فيه من كنانة ثمانية نفر ، وقتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب جد معاوية . وكان يوما لهوازن نخره ونصره ، فلعلع صوت شاعر هوازن بهذه الصاعقة المجلجلة :

إنى من النفر المحمر أعينهم | أهل السواء وأهل الصخر واللوب[4]
الطاعنين نحور الخيل مقبلة | من كل سمراء لم تغلب ، ومغلوب
وقد بلوتم فأبلاكم بلاؤهم | يوم الحريرة ضرباً غير مكذوب
لاقتهم منهم آساد ملحمة | ليسوا بدارعة عوج العراقيب
فالآن إن تقبلوا نأخذ نحوركم | وإن تباهوا فإنى غير مغلوب

---

(١) أوعب : جمع .

(٢) المصاقيل : السيوف .

(٣) الحريرة : هى حرة إلى جنب عكاظ ، مما يلى مهب جنوبها . وهى تصغير حرة. وتعرف الآن بـ «ضلع الخاص» ، والضلع هو الجبيل ، وهذا الخاص : جبيل أسود صغير يقع فى الجنوب بميل قليل نحو الشرق من موقع عكاظ [موقع عكاظ صفحة ٦٦ تعليق الأستاذ حمد الجاسر] [معجم ما استعجم ٣ : ٩٦٢] .

(٤) اللوب : جمع لابة ، وهى الحرة .

وقال الحارث بن كلدة الثقفى :

تركت الفارس البذاخ منهم   تمج عروقه علقاً عبيطا
دعست بنانه بالرمح حتى   سمعت لمتنه فيه أطيطا
لقد أرديت قومك يابن صخر   وقد جشمتهم أمرا شطيطا
وكم أرسلت منكم من كمى   جريحاً قد سمعت له غطيطا(١)

ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقى الرجل ، والرجلان يلقيان الرجلين فيقتل بعضهم بعضا . فلقى ابن محمية بن عبد الله الديلى زهير بن ربيعة أبا خداش ، فقال زهير : «إنى حرام ، جئت معتمرا ، فقال له . : ما تلقى طوال الدهر إلا قلت : أنا معتمر : ، ثم قتله .

انقضت هذه الأيام الخمسة فى أربع سنين ثم تداعى الفريقان إلى السلم على أن يذروا الفضل فى الدماء والأموال ، ويتعاهدوا على الصلح .

عقدوا على ذلك المواثيق ، وبقيت هذه الأحداث الذكرى والفخر ، يتمجد كل شاعر قوم بما فعل قومه ، ويتغنى بما كان لهم من محامد . وانظر إن شئت أن ترى آثار ذكرها فى مثل قول الشاعر :

وإن قصيا أهل عز ونجدة   وأهل فعال لا يرام قديمها
هم منعوا يومى عكاظ نساءنا   كما منع الشولَ الهجانَ قرومُها(٢)

أو قول عاتكة بنت عبد المطلب تخلد نصر قومها فى هذه المقطوعة الرائعة :

سائل بنا فى قومنا   وليكف من شر سماعه
قيسا وما جمعوا لنا   فى مجمع باق إشناعه
فيه السنور والقنا   والكبش ملتمع قناعه

---

(١) البعير البذاخ : الهدار المخرج لشقشقته . العلق العبيط : الدم المتجمد . دعس : طعن . الاطيط : صوت الغطيط البعير : هديره ، والنائم صوته .

(٢) الشول : النوق التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، الواحدة شائلة . والهجان : الإبل الكرام . والقروم : الفحول .

بمكاظ يعشى الناظر ... ن إذا هم لمحوا شعاعه
فيـه قتلنا مالـكا ... قسرا وأسلمه رعاعُـه
ومجـدلا غادرنـه ... بالقـاع تنهشه ضباعُـه

هذا كانت تجارة العراق فى عكاظ وما يفيده من يجيرها من أرباح مادية ومعنوية هو وقبيلته ، سبباً مغرياً فى هذه الحروب.

* * *

وأيام الحجازيين كثيرة لا نستطيع استيعابها فى هذا المجال . وحسبنا ما ذكرنا منها ، على أننا نشير إلى طائفة أخرى منها كالأيام التى اشتبكت فيها قبيلة ذُبيان مع غيرها من القبائل ، كعبس وبنى عامر ، وكيوم حوزة الأول لسليم على غطفان ، ويوم حوزة الثانى ، ويوم الكديد لسليم على كنانة ، ويوم فزارة لكنانة على سُليم ، ويوم الفيفاء لسليم على كنانة — الخ(١) .

(ثانيا) صميم الشعر السياسى

— ١ —

يجمل بنا فى صدر هذا الموضوع أن نلم بالمعانى اللغوية لكلمة « سياسة » والمادة التى اشتقت منها قبل أن نعرض لمعناها الاصطلاحى الذى يبنى عليه تعريف « الشعر السياسى » .

تقول كتب اللغة : السَّوْس : الرياسة . وإذا رأس القوم أحدا قيل سوَّسوه ، وأساسوه . وساس الأمر سياسة : قام به . ورجل ساسٌ من قوم ساسة ، وسوَّاس . وأنشد ثعلب :

سادة قادة لكل جميع ... ساسة للرجال يوم القتال

---

(١) راجع كتب « أيام العرب » قديماً وحديثاً ، ومنها « نهاية الأرب » ج ١٥

وسست الرعية سياسة . وفى الحديث الشريف : «كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم» ، أى تتولى أمورهم ، كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية .

فالسياسة إذن — كما وردت فى المعاجم العربية — تعنى تدبير أمور الناس والقيام بشئونهم ، والرياسة عليهم ، وتملك زمام الحكم فيهم .

فما العلاقة بين هذا المعنى وهو تدبير أمور الرعية ، والمعانى اللغوية الأخرى ؟

وردفى هذه المادة : السياسة القيام على الشىء بما يصلحه ، والسياسة : فعل السائس . يقال هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها[1] . ويقال : سوس له أمراً أى روضه وذلله . ومن هذا نستنتج أن الأصل الملحوظ فيمن يسوس أمور الناس ، أن يتوخى أسباب الإصلاح ، وأن السياسة تقتضى تذليل الصعاب وحل المشكلات ، وترويض الشمس من الأفراد ، كما يروض السائس الأفراس .

هذا فى العربية ، وأما فى اللغات الإفرنجية ، فكلمة سياسة هى : « policy » فى الإنجليزية ، وأصلها فى الإغريقية : « politeia » ، وفى اللاتينية . « politia » ومعانى هذه الكلمة فى المعاجم الغربية تمضى على النحو الآتى :

١ ـ فن أو طريقة تنظيم أو توجيه السلوك .

٢ ـ طريقة العمل .

٣ ـ المنهج أو الأشكال التى يستطيع بها حكومة الإقليم أو الإدارات أن تسير بها الأمور .

٤ ـ نظام للادارة توجه المصالح أكثر مما توجه المبادىء .

٥ ـ الحذق فى الإدارة .

٦ ـ البراعة ، الحذق ، الفطنة .

٧ ـ الخداع[2] .

---

(١) راجع لسان العرب ، مادة (سوس) .

(٢) راجع : policy مادة Twentieth Century dictionary .

ونلاحظ أن المعانى اللغوية الأخرى لمادة (سياسة) فى اللغات الافرنجية وثيقة الصلة بالمعنى الجوهرى الذى يعنينا ، وهو : الهيمنة على أمور الأمة وتنظيم شؤونها . ذلك أن السياسة ـ فى الواقع ـ تقتضى الحذق والبراعة ، والفطنة واللباقة ... ولم تذكر هذه المعانى فى المادة (سياسة) العربية . إلا أن هذه المادة وردت كما سبق بمعنى الترويض والترويض تطبيعته يقتضى الحذق والمهارة والقدرة الفائقة على تذليل الصعاب .

ووردت السياسة بمعنى الخداع والمكر فى الإنجليزية ، ولم ترد كذلك فى العربية . ولعل فى هذا المعنى يكمن الفرق بين النفس العربية والنفس الإنجليزية .

وإذا قصدنا معنى السياسة عند المحدثين وجدناها تعنى : حكم الأمم أو فن هذا الحكم ، ووجدنا علم السياسة : هو ما يبحث فى حكم الأمم من حيث أشكاله ونظمه ومقدار ملاءمته لأحوال الشعوب سواء أكان هذا البحث تاريخيا يتناول نظم الحكم فى أطوارها المتعاقبة أم واقعيا يتناولها كما هى الان . وإذا كان علم السياسة يتناول الحياة الداخلية للدولة أولا ، ثم يتناول العلاقات بين الدول ثانيا . ومعنى ذلك أن يكون موضوع هذا العلم ذا شقين : النظم والأشكال التى تخضع لها الحكومات كل فى داخلها ، والنظم والالتزامات التى تربط الدول كلا بالأخرى . وهناك الجانب الثانى وهو ما يدعى فى القانون الدولى بالسياسة داخلية وخارجية كما هو معروف ، والسياسة الخارجية تقوم بين الدول على قوانين السلم والحرب(١) .

وإذا كانت هذه هى السياسة ، فماذا عسى أن يكون الشعر السياسى ؟! إنه بالطبع ذلك الشعر الذى يتصل بها سواء كانت داخلية أو خارجية . وبعبارة أخرى هو : ذلك الفن من الكلام الذى يتصل بنظام الدولة الداخلى ؛ وعلاقتها الخارجية بالدول الأخرى .

---

(١) راجع كتاب (الشعر السياسى) ص ٣ . و

Leacock : Elements bf Political Science .

— ٢ —

ويحسن بمؤرخى الأدب العربى أن يذهبوا فى تفسير الشعر الجاهلى مذهباً أوسع أفقا، فيفسروه على اعتبار أن كثرته شعر قبلى أو سياسى قيل فى سبيل القبيلة أو الإمارة أو الجمهورية، وكان خاضعاً فى إنشائه لهذه الغاية وهى مكانة القبيلة، وسيادتها، على الرغم من أنه كان مدحاً وهجاء وفخراً ورثاء، فكل تلك، كانت فى الغالب، فنوناً جزئية أو معانى فرعية لهذا الموضوع العام أو الهدف الرئيسى وهو دولة القبيلة أو الإمارة أو الجمهورية كما سنرى.

والشعر القبلى والسياسى فى الجاهلية يمكن رده إلى الأبواب الآتية: —

أولا: شعر يقال فى تأييد القبيلة والتغنى بها، وبكاء موتاها، ووصف مرابعها، ونحو ذلك مما هو تاريخ لحياتها الخاصة.

ثانياً: شعر يقال ثورة عليها وهجاء لها، إذ قصرت فى رعاية الفرد أو فى الاحتفاظ بمكانتها وشرفها.

ثالثاً: شعر هو فخر بالقبيلة على أعدائها وهجاء لهم ووعيدهم بالويل والثبور، ثم تأييد لمكانة القبيلة عند احتكام أو مفاخرة.

رابعاً: شعر هو ثورة على النظام القبلى أو الاجتماعى كله، ولا سيما ذلك النظام الاقتصادى الذى كون فى نفوس الفقراء تبرماً فكان منهم الصعاليك[1].

— ٣ —

أول ما يلقانا من هذا الشعر القبلى ما كان تحفياً بالقبيلة واعتزازاً بمكانتها، لأنها موئل الشاعر ومعقد رجائه؛ ودولته التى يعيش فى كنفها ويرتبط معها بهذا العقد الاجتماعى الذى أصلته التقاليد ووثقته العادات والنظم؛ فصار كلا الطرفين مكملا للآخر لا يستغنى عنه؛ هذا الاعتزاز بالقبيلة يدفع الشاعر إلى التغنى بمآثرها وذكر قديمها وما تمتاز به بين القبائل دون أن يكون ذلك تعالياً على قبيلة بعينها أو رداً على

(١) الشعر السياسى: ص ٢١.

شاعر خاص وإن كان روحه مشعراً بفضل قومه على من سواهم ؛ هو شعر قبلى يصور العشيرة كما هى أو كما يتصورها شاعرها الممتاز . . . ومن أمثلة ذلك فى شعر الحجازيين قول حسان بن ثابت من قصيدة فى مدح عمرو بن الحارث الغسانى : —

ولقد تقلدنا العشيرة أمرها ونسود يوم النائبات ونعتلى
ويسود سيدنا جحاجح سادة ويصيب قائلنا سواء المفصل
ونحاول الأمر المهم خطابة فيهم ونفصل كل أمر معضل
ونزور أبواب الملوك ركابنا ومتى نحكم فى البرية نعدل

فقومه زعماء مقدمون فى الشدائد سديدو الرأى أمجاد عدول تحترمهم الملوك . وحسان هنا يصور مجد عشيرته الخزرج اليمنيين الذين يتصلون بالغساسنة ملوك الشام . وهو شعر فى سبيل قومه ، ومن ذلك قوله من قصيدة :

لنا حاضر فعم وباد كأنه شماريخ رضوى عزة وتكرما
متى ما تزنا من معد بعصبة وغسان نمنع حوضنا أن يهدما
بكل فتى عارى الأشاجع لاحه قراع الكماة يرشح المسك والدما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما
نسود ذا المال القليل إذا بدت مروءته فينا وإن كان مقدماً . . . ألخ

وكلها صور تقوم على الفضائل الجاهلية المتصلة بالسيادة والمجد وشرف النسب وسعة السلطان ، وقد بقيت نزعة السيادة هذه فى شعر حسان سمة لقومه حتى بعد إسلامه . ولعلها كانت صدى لهذه المنافسة بين المهاجرين والأنصار ، وقد دل على ذلك بقوله :

وكنا ملوك الناس قبل محمد فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
أولئك قومى خير قوم بأسرهم فما عد من خير فقومى له أهل

ومن أمثلة هذا النوع من الشعر القبلى هذه القصيدة المنسوبة للسموءل بن عادياء اليهودى :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

هذه الصورة الأولى من الشعر القبلى يغلب فيها عكوف الشاعر على قبيلته أو دولته الصغرى محتفيا بها ، معجباً بمآثرها ، لا يتحدى فيها شخصا ولا قبيلة ، يمدحها به إيثارا لها على سائر القبائل ، هو شعر قبلى داخل فى سبيل كيان القبيلة وعزتها ، أو هو شعر متصل بالنظام الأساسى للعشيرة وتدبير شئونها وسياستها[1] .

— ٤ —

وهناك صورة أخرى لهذا الشعر القبلى هى من حيث النزعة عكس سابقتها ؛ فهى ثورة على القبيلة وتهوين شأنها ، وهجاؤها ؛ لأنها قصرت فى الواجب عليها نحو الشاعر أو غيره ، وكأنها بذلك نقضت هذا العهد الاجتماعى القاضى بحمايته والانتصار له ، فكانت بذلك دون القبائل الأخرى ، وتعرض كيانها للهوان ، فكان على الشاعر أن يقومها ويلزمها القانون »[2] .

— ٥ —

ويلى ذلك نوع آخر من الثورة على النظام القبلى أو على النظام الاقتصادى والاجتماعى كله ، ثورة الصعاليك ، وهم جماعة فقراء من قبائل شتى ، جمعت بينهم الخصاصة والحاجة وإعوازهم من مال هو عند غيرهم ، فخرجوا على قبائلهم وتحللوا من نظمها ، وأنكرهم قومهم ، وأخذوا هم أنفسهم بالإغارة والنهب وسلب القبائل والأفراد مالهم ثم توزيعها فيما بينهم ، وكانوا رجالا أشداء عدائين ، يسبقون الخيل ، خبيرين بدروب الصحراء ومجاهلها ، كراماً ، حديدى الإرادة ، حسنى الحيلة للخلاص إذا أسروا ... نذكر منهم ممن كان يعيش فى منطقة الحجاز الشنفرى وتأبط شرا ، فهؤلاء وزملاؤهم مثلوا الخروج على النظام القبلى ، وجعلوا وكدهم الحصول على المال ولو قتلوا أصحابه ، لا يبالون فى هذا قرابة . وقد طرحوا عن كواهلهم تقاليد العرب إلا ما ارتضوه لأنفسهم ، يعطفون على الفقراء والمرضى والضعاف يبذلون ما عندهم

---

(١) تاريخ الشعر السياسى : ص ٣١ ، ٣٢ .
(٢) الشعر السياسى : ص ٣٣ ، ٣٤ .

بني سخاء، يجمعون بين صفتي الكرم والسلب، فهم لصوص كرام شجعان يعفون عن المحارم.

هذا التحلل من النظام القبلي تبعه تحلل من شخصية القبيلة في الشعر، فلم يعن هؤلاء الصعاليك بتمثلها والتعبير عنها، هم انفردوا بأنفسهم في الحياة وانفردوا بها في الشعر، فكان قصيدهم مثالا قويا لشخصياتهم وسلوكهم لا يكتمون منه شيئا ولا يقصرون في التعبير عنه، فامتازوا بالصدق والصراحة والقوة، وظهرت هذه الصفات في قتهم، فكان طريفاً مقبولا، هو من الشعر الغنائي الصحيح الذي يعتز بالشخصية الفردية وبهذا المذهب الثوري أو الاشتراكي.

والذي يعنينا هنا أن شعر هؤلاء كان مثالا لشعر سياسي طريف، هو شعر الثورة والكفر بأوضاع فرضت عليهم الحرمان والفقر المدقع، بجانب هذا الفقر العام في البلاد كلها، حتى كانت حياة العرب خشنة مضطربة المناهج[1]

وفي شعر الشنفرى وتأبط شراً من صعاليك الحجاز، وغيرهم من صعاليك العرب عامة، نرى مثالا واضحاً لشعر المعارضة الثائر؛ الذي يصور تصويراً دقيقاً حياة الصعاليك وفتكهم وجراءتهم، وقدرتهم الفائقة على العدو، وصبرهم على الجوع والمكاره، وخروجهم على نظام القبيلة العام، ونقدهم لهذا النظام، وثورتهم على الأغنياء البخلاء الذين يختصون بالأموال دون الفقراء.

والصعلوك يفارق قومه، ويقلي عشيرته؛ لأنها تقيم على ضيم، وهو يأبى الضيم، ولأنها تذيع السر، وهو يحفظ السر، ولأنها تخذل الجاني بما ارتكب من جنايات، وهو ينفر من هذا الخذلان. ولذا فهو يلتمس له مضطرباً في الأرض ينأى به عن الأذى، ومنعزلا فيها يشعره بالحرية والكرامة، ويقيه أسباب القلى والبغض، وهو يستبدل بأهله وعشيرته أهلا وعشيرة من الحيوان والوحش؛ من كل ذئب قوي سريع ونمر أرقط ناعم الأديم، وضبع عرفاء (كثيفة شعر الرقبة)؛ من كل أبي باسل من هذه المخلوقات التي لا تذيع سراً ولا تخذل صديقاً أياً كانت جريرته.

---

(١) الشعر السياسي: ص ٢٤ - ٢٥.

والصعلوك يأنس بالوحش ؛ كما تأنس به الوحش؛ فهذه الوعول الحمر تروح وتجيء حوله ، بياض النهار ، كأنها العذارى تجرر أذيالها . حتى إذا ما أقبل الأصيل ركدت حوله العصم من الوعول ، وقد بدا فى ذراعيها البياض ، وهو بينها كالأدفى : الذى طال قرنه جداً حتى ذهب قبل أذنيه ، لا تنكره ولا ينكرها كأنه واحد منها لطول ما خالطها وعاشرها . ولنستمع إلى الشنفرى وهو يصور ذلك ، فيقول :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم ... فإنى إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر ... وشدت لطيات مطايا وارحل(١)
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرىء ... سرى راغباً أو راهبا وهو يعقل
ولى دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط ذهلول وعرفاء جيأل(٢)
هم الأهل لا مستودع السر ذائع ... لديهم ولا الجانى بما جر يخذل
وكل أبى باسل غير أننى ... إذا عارضت أولى الطرائد أبسل
... ...

إلى أن يقول :

ترود الأراوى الصحم حولى كأنها ... عذارى عليهن الملاء المذيل
ويركضن بالآصال حولى كأننى ... من العصم أدفى ينتحى الكيح أعقل(٣)

---

(١) أقام صدر مطيته : جد فى السير أو الأمر ، والمعنى : استيقظوا وجدوا فى أمركم فإنى راحل عنكم لغفلتكم وتراخيكم وإقراركم بالضيم . وحم الشىء : قدر وهيىء . والطية : النية والمنزل . يقول : تنبهوا من رقدتكم ، فهذا وقت الحاجات ، ولا عذر لكم فإن الليل كالنهار فى الضوء .

(٢) القلى : البغض . والسيد : الذئب . والعملس بثلاث فتحات وشد اللام : القوى على السير السريع . والأرقط : النمر . والزهلول : الأملس . جيأل : اسم الضبع ، والعرفاء : الكثيرة شعر الرقبة .

(٣) ترود : تذهب وتجىء . الأرواى : جمع أروية ، وهى أنثى الوعل الجبلى . الصحم : الحمر . المذيل : طويل الذيل . العصم من الوعل : جمع أعصم ، وهو الذى فى ذراعيه بياض . الأدفى : الذى طال قرنه جداً . ينتحى : يقصد . الكيح : عرض الجبل . الأعقل : الممتنع فى الجبل العالى .

وتأبط شراً فى القصيدة الآتية يصور سرعة عدو الصعلوك وحسن حيلته للخلاص من الأعداء :

يا عيد مالك من شوق وإيراق ... ومر طيف على الأهوال طراق(١)
يسرى على الأين والحيات محتفياً ... نفسى فداؤك من سار على ساق(٢)
إنى إذا خلة ضنت بنائلها ... وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق(٣)
نجوت منها نجائى من بجيلة إذ ... ألقيت ليلة خبت الريط أرواقى(٤)
ليلة صاحوا وأغروا بى سراعهم ... بالعيكتين لدى معدى ابن براق(٥)
كأنما حثحثوا حصا قوادمه ... أو أم خشف بذى شث وطباق(٦)

(١) العيد : ما اعتاد من حزن وشوق . مالك : ما أعظمك . الإيراق : مصدر الأرق والأسلوب للتعجب ، كقولك من فارس وأنت تتعجب من فروسيته وتمدحه . طراق : يقول يطرقنا ليلا فى موضع البعد والمخافة .

(٢) يسرى الطيف : يسير ليلا . الأين : نوع من الحيات . أو : الأعياء . محتفيا : حافيا .

(٣) الخلة : الصداقة . النائل : ما ينال . بضعيف الوصل : بحبل ضعيف . الأحذاق : المتقطع .

(٤) بجيلة : القبيلة التى أسرته . الخبت : اللين من الأرض . ألقيت أرواق : استفرغت مجهودى فى العدو . يقول : إذا ضن على صديق بنائلة ، وكان وصاله ضعيفا : أحذاقا ، خليته ونجوت منه كنجائى من بجيلة .

(٥) العيكتان : موضع . معدى : مصدر ميمى ، أو اسم مكان من عدا يعدو . ابن براق هو عمرو وهو والشنفرى صديقاً تأبط شرا وكانا معه ليلة انفلاته من بجيلة .

(٦) حثحثوا : حركوا . من الحث . القوادم : ما ولى الرأس من ريش الجناح . والحص : جمع أحص : وهو ما تناثر ريشه وتكسر يشير بذلك إلى الظليم وهو ذكر النعام المخف وله الظبية . الشث والطباق : نبتان طيبا المرعى ، يغمران راعيهما ويهدان لحمهما . أى : كأنما حركوا بحركتهم إياى ظليما أو ظبية ، والنعام والظباء مضرب المثل فى سرعة العدو .

لا شيء أسرع منى ليس ذا عذر | وذا جناح بجنب الريد خفاق(١)
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى | بواله من قبيض الشد غيداق(٢)
ولا أقول إذا ما خلة صرمت | ياويح نفسى من شوق وإشفاق(٣)
لكنما عولى إن كنت ذا عول | على بصير بكسب الحمد سباق(٤)
سباق غايات مجد فى عشيرته | مرجع الصوت هدا بين أرفاق(٥)
عارى الظنابيب ، ممتد نواشره | مدلاج أدهم واهى الماء غساق(٦)
حمال ألوية شهاد أندية | قوال محكمة جواب آفاق(٧)
فذاك همى وغزوى أستغيث به | إذا استغثت بضافى الرأس نغاق(٨)

---

(١) العذر : جمع عذرة ، وهى ما أقبل من شعر الناصية على وجه الفرس . الريد : الشمراخ الأعلى من الجبل .

(٢) السلب : ما يسلب فى الحرب . الواله : الذاهب العقل . الشد ، القبيض : الجرى السريع . الغيداق : الكبير الواسع ، يريد أنه نجا من بجيلة مسرعا كالواله : فيكون قد جرد من نفسه شخصا كاد يذهب عقله من سرعة الهرب والطلب .

(٣) صرمت : قطعت .

(٤) العول ، بفتح الواو مع فتح العين وكسرها : مصدر بمعنى العويل ، وهو رفع الصوت بالبكاء والاستغاثة . وبالكسر فقط جمع عولة بفتح فسكون . أو بمعنى المعول عليه المستغاث به . بدأ فى وصف الرجل الكامل يبكى فقد صداقته أو الذى يعول عليه .

(٥) مرجع الصوت : يصبح آمراً ناهيا . هدأ . رافعاً صوته : الأرفاق : الرفاق ، يصفه بأنه رئيسهم ، يصدرون عن رأيه فيما يأمر وينهى .

(٦) الظنابيب : جمع ظنبوب ، وهو حرف عظم الساق جعلها عارية لهزالها . النواشر : عروق ظاهر الذراع . مدلاج كثير سفر الليالى بطولها . الأدهم : الليل واهى الماء : مطره شديد أى أن سحابه لا يمسك الماء . الغساق : الشديد الظلمة وهما نعت للادهم يقول : يدلج فى الليل الممطر المظلم . فهو ذو عزم وجرأة .

(٧) المحكمة . الكلمة الفاصلة . جواب آفاق : صاحب أسفار وغزو .

(٨) غزوى : مقصدى ، من الغزو وهو القصد . ضافى الرأس : كثير الشعر : نغاق ونعاق بمعنى .

كالحقف حدأة الناموس قلت له ... ذو ثلتين وذو بهم وأرباق(١)
وقلة كسنان الرمح بارزة ... ضحيانة فى شهور الصيف محراق(٢)
بادرت قنتها صحبى وما كسلوا ... حتى نميت إليها بعد إشراق(٣)
لا شىء فى ريدها إلا نعامتها ... منها هزيم ومنها قائم باق(٤)
بشرثة خلق يوقى البنان بها ... شددت فيها سريحاً بعد إطراق(٥)
بل من لعذالة خذالة أشب ... حرق باللوم جلدى أى تحراق(٦)
يقول أهلكت مالا لو قنعت به ... من ثوب صدق ومن بز وأعلاق(٧)
عاذلتى إن بعض اللوم معنفة ... وهل متاع وإن أبقيته باق
إنى زعيم لئن لم تتركوا عذلى ... أن يسأل الحى عنى أهل آفاق

---

(١) الحقب : ما اعوج من الرمل : وحدأة الناموس : أى صلبوه بدوسهم إياه وصعودهم عليه والناموس من نما بمعنى صعد وارتفع : والثلة القطعة من الغنم . والبهم أولاد الشاة : والأرباق جمع ربق بكسر فسكون . وهو حبل يجعل كالحلقة يشد به صغار الغنم لئلا ترضع، شبه تلبد شعر الراعى النفاق بالحقف الذى لبده الناموس عليه . ثم يقول له : أنت ذو ثلتين مالك وللحرب ، يحقره بذلك .

(٢) القلة : أعلى الجبل . ضحيانة : بارزة الشمس . محراق : يحرق من فيها .

(٣) القنة والقلة بمعنى : أراد أعلى جزء فيها . نميت : ارتفعت ، يريد أنه سبقهم وهم على جد .

(٤) الريد : أعلى الجبل . النعامة : خشبات تكون فى أعلى الجبل يأوى إليها الربيئة وهو العين والطليعة فى القتال ، هزيم : منكسر .

(٥) بشرثة خلق : يقول : صعدت إلى هذه القنة بنعل ممزق . السريح : السيور تشد بها النعل . الإطراق : أن يجعل تحت النعل مثلها .

(٦) العذالة : الكثير العذل . والخذالة : الذى يكثر خذلان صاحبه . والأشب : المختلط المعترض ، يريد من يعينى على هذه العذالة .

(٧) ثوب صدق : مقابل ثوب سوء . عنى به الجيد . والبز : الثياب أو السلاح . الأعلاق : كرائم الأموال يريد أنه يأمره ، بالبخل وإمساك ماله .

أن يسألَ القومُ عنى أهل معرفة ... فلا يخبرهُمْ عن ثابت لاقِ (١)
سَدِّدْ خِلاَلَكَ من مالٍ تُجَمِّعُه ... حتى تلاَقِى الذى كلُّ امرىءٍ لاقِ (٢)
لتقرعنَّ علىَّ السِّنَّ من نَدَمٍ ... إذا تذكرتَ يوماً بعض أخلاقِ

والصعلوك أنوف يسلب ولا يطلب، وهو يفضل أن يستف تراب الأرض على أن تكون لأى إنسان يد فى عنقه . وهو يجوع ، ولكنه يقتل الجوع بالصبر عليه . . وإنها لتجربة شعورية عجيبة أن يميت الإنسان الجوع بإطالة مدى الجوع !! ولولا أنفة الصعلوك لعاش فى بحبوحة من العيش ، ولكنها نفسه الحرة التى لا تقبل الضيم ولا ترضى المذلة .

ولنستمع إلى الشنفرى وهو يصور كل ذلك ، فيقول : —

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كى لايرى له ... على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذم لم يلف مشرب ... يعاش به إلا لدى ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بى ... على الضيم إلا ريثما أتحول

— ٦ —

وقد كانت الصلات بين القبائل العربية قائمة على التنافس والتربص وانتهاز الفرص للظفر بمال أو شرف ، وهذا هو ما نراه بين الدول فى كل العصور ... فهو تنافس فى السيادة والاستعمار وكسب الأسواق التجارية ومناطق المواد الأولية ، وليس الصراع بين الدول الحديثة إلا صورة لما كان بين القبائل البدوية القديمة ، فالأسباب واحدة وإن اختلفت الوسائل واتسعت الميادين .

هذا التنافس يرجع بين القبائل الجاهلية إلى عاملين رئيسين : مادى ، وأدبى فهو إما طمع فى إبل أو مرعى أو بئر أو حمى أو فرس أو متاع ما ، وإما رغبة

---

(١) معنفة : عنف . زعيم : كفيل وضمين . ثابت : هو تأبط شراً .

(٢) الخلال : جمع خلة ، وهى الحاجة والفقر ، يقول : سد بمالك فقرك حتى تلاقى الموت ، والخلال : الخصال .

فى رياسة أو أخذ بثأر أو اعتزاز بنفس أو مفاخرة بقوة أو غضب لجار أهين أو عهد نقض أو مجاراة لسفيه .

تلك الأسباب تركت الجزيرة العربية دائمة الغارات أو الحروب لا تعدم فى ناحية من نواحيها غارة مشنونة ، أو صراعا يشعاً يستمر أياما بل شهوراً ، وصارت حياة الناس رخيصة تذهب بسبب كلمة أو هفوة أو بلا سبب سوى السفاهة والعبث[1] . وأيام العرب الكبيرة كثيرة تجاوزت الألف بكثير سوى المغاورات الصغيرة .

ويجب أن نشير إلى أن أشعار الأيام وحوادثها قد دخلها التزيد والمبالغة استجابة لدواعى العصبية وما تقتضيه طبيعة القصص من تهويل وتجميل ، ومع ذلك فثمة قسط يمكن أن يوصف بالصحة استناداً إلى الطابع الفنى الجاهلى ، أو صحة روايته أو اتصاله بما يؤيده من أخبار وشواهد وثيقة .

وشعر الأيام فنون شتى تشمل الفخر والحماسة والمديح والرثاء ووصف المعارك الحربية والإشادة بشجاعة الشجعان وصبرهم وثباتهم سواء كانوا من قوم الشاعر أو من أعدائهم وغير ذلك من المعانى ، إلا أن هذه الألوان جميعها تخضع لهدف رئيسى واحد وهو مكانة القبيلة وقوتها ونفوذها وسلطانها بين القبائل الأخرى فهو إذن — مع بعض التجاوز — شعر السياسة الخارجية القبيلة . .

وقد ذكرنا فى صدر هذا الفصل أطرافا من أيام الحجازيين فى الجاهلية ، مستشهدين بشىء مما قيل فيها من شعر فى بعض الأحيان وسنشير هنا إلى طائفة من الأشعار التى صبغتها الأيام بصبغة خاصة ، ففى يوم بعاث قال قيس بن الخطيم قصيدته الحماسية التى مطلعها :

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب   لعمرة وحشا غير موقف راكب

وفيها يفتخر قيس أنه من دعاة السلام ، وأنه لا يبعث الحرب ظالما ، ولكن إذا ما أبى الأعداء إلا الحرب أشعل نيرانها فى كل جانب :

---

(١) الشعر السياسى ص ٣٨

دعوت بنى عوف لحقن دمائهم   فلما أبوا سامحت فى حرب حاطب
وكنت امرأ لا أبعث الحرب ظالما   فلما أبوا أشعلتها من كل جانب

ويمضى فى وصف معركة بعاث ، وكيف هرب أعداؤه رجالا ونساء وكيف ردوا بنى عوف على أعقابهم إلى ذرى الآطام ، وظهور المشارب ، وكيف رجع المنتصرون إلى أبنائهم ونسائهم تاركين القتلى والجرحى ومن يعانى ذل الإسار من خصومهم المنهزمين :

ويوم بعاث أسلمتنا سيوفنا   إلى نسب فى جذم غسان ثاقب
يعرين بيضا حين نلقى عدونا   ويغمدن حمرا ناحلات المضارب
أطاعت بنو عوف أميرا نهاهم   عن السلم حتى كان أول واجب
أويت لعوف إذ تقول نساؤهم   ويرمين دفعا ليتنا لم نحارب
صبحناهم شهباء يبرق بيضها   تبين خلاخيل النساء الهوارب
أصابت سراة ملأ غر سيوفنا   وغودر أولاد الإماء الحواطب
فلولا ذرى الآطام قد تعلمونه   وترك الفضا شوركتم فى الكواعب
فلم تمنعوا منا مكانا نريده   لكم محرزا إلى ظهور المشارب
فهلا لدى الحرب العوان صبرتم   لوقعتنا والبأس صعب المراكب
ظأرناكم بالبيض حتى لأنتم   أذل من السقبان بين الحلائب
فليت سويد اراء من جر منكم   ومن فر إذ يحدونهم كالجلائب
فأبنا إلى أبنائنا ونسائنا   وما من تركنا فى بعاث بآئب(١)

وقد أجابه عبد الله بن رواحة بقوله :

إذا عيرت أحساب قوم وجدتنا   ذوى نائل فيها كرام المضارب
نحامى على أحسابنا بتلادنا   لمفتقر أو سائل الحق راغب
بخرس ترى الماذى فوق جلودهم   وبيضا نقاء مثل لون الكواكب

* * *

(١) واجب : ميت . المشارب : الغرف . ظأرناكم : عطفناكم على ما نريد . السقبان : جمع سقب ، وهو الذكر من أولاد الإبل .

وفي يوم «الربيع» من أيام الأوس والخزرج قال حسان بن ثابت، قصيدته الرائعة التي مطلعها :

لقد هاج نفسك أشجانها وعاودها اليوم أديانها

وفيها يقول : —

ويثرب تعلم أنا بها إذا التبس الأمر ميزانها
ويثرب تعلم أنا بها إذا قحط القطر نوآنها
ويثرب تعلم أنا بها إذا خافت الأوس جيرانها
ويثرب تعلم أن النـبيت عند الهزاهز ذلانها
متى ترنا الأوس في بيضنا نهز القنا تخب نيرانها
وتعط القياد على رغمها وينزل من الهام عصيانها[1]

ويمكننا أن نعتبر قصيدة حسان لخفتها وعذوبة بحرها وروحها الحماسية الدافقة «نشيد الخزرج» الوطني، كما نعتبر قصيدة قيس بن الخطيم التي يرد بها على حسان للأسباب ذاتها «نشيد الأوس» القومي، ونحن لا نستبعد أن شبان الأوس كانوا ينشدونها جماعات في نواديهم وسوامرهم كما ينشد الشبان وطلاب المدارس اليوم الأناشيد الحماسية. وكذلك كان يهزج شبان الخزرج بنشيد حسان ومطلع قصيدة قيس :

أجد بعمرة غنيانها فتهجر أم شاننا شانها

وفيها يقول :

ونحن الفوارس يوم الربيـع قد علموا كيف فرسانها
رددنا الكتيبة مفلولة بها أفنها وبها ذانها
وقد علموا أن متى نبعث على مثلها تذك نيرانها

---

(١) ديوان حسان ص ٤١٦. ميزانها : قوامها. نوآنها : جمع نوء أي كنا مطرها. النبيت : هو عمرو بن مالك بن الأوس. الهزاهز : الحروب والشدائد. ذلانها : أي أذلاؤها. البيض : السلاح. تخب : تسكن. يقول متى رأتنا الأوس محفزين استخذت وزال الجموح من رءوسها.

ولولا كراهة سفك الدماء لعاد ليثرب أديانها
ويثرب تعلم أن النبيت راس بيثرب ميزانها
حسان الوجوه حداد السيوف يبتدر المجد شبانها(١)

— ٧ —

ومن المعروف فى التاريخ أنه نشأت بالشام دولة الغساسنة وبالحيرة دولة المناذرة ونحن لا يعنينا من أمر هاتين الدولتين أو الامارتين إلا ما كان من اتصال النابغة الشاعر الحجازى بهما وما لابس ذلك من شعر سياسى .

فقد اتصل النابغة بملوك الحيرة ومدحهم وطالت صحبته للنعمان بن المنذر فقربه ، واتخذه نديما له وصديقا حتى وشى به عند النعمان أحد بطانته فهم بقتله ، ولكن عصاما حاجب النعمان أسر إلى النابغة بالأمر فهرب النابغة إلى الغساسنة المنافسين المناذرة ، ومدح عمرو بن الحارث الأصغر وأخاه النعمان ، ولذلك اشتد سخط النعمان بن المنذر على النابغة فأخذ هذا يعتذر إليه حتى رضى عنه وأعاده إلى منزلته عنده .

ربما صحت الرواية القائلة بغضب النعمان بن المنذر على شاعره بسبب الوشايات. وربما كانت المسألة أن أمر النابغة بالغساسنة فدحهم ـ وكان ذلك بتدبير الغساسنة لحسدهم المناذرة على هذا الشاعر العظيم ـ فغضب النعمان لذلك واستغلها الوشاة عنده حسداً للنابغة فعاد هذا يعتذر ، وسواء كان هذا أم ذلك ، فالأمر لا يخلو من استغلال النابغة لما بين الإمارتين من تنافس ، أو استغلال الامارتين شعر النابغة فأضفى ذلك عليه صفة السياسة وجعل له قيمة ممتازة فى سبيل هاتين الدولتين أو فى سبيل ملوكهما على أقل تقدير .

ويظهر لنا أن هناك أموراً أخرى لابست هذه المسألة فعقدتها ، كتفوق النابغة شاعر المناذرة على حسان شاعر الغساسنة ، وكجودة الشعر الذى قاله النابغة فى آل حسان ،

---

(١) أجد . استمر . وغنيانها : استغناؤها . الربيع : الجدول الصغير . الأفن نقص العقل . والذان العيب . الأديان : جمع دين أى الأمور التى تعرفها . راجع ديوان قيس ص ٧ وهو مخطوط .

وكذكره يوم حليمة وهو الحارث بن جبلة الغسانى ملك الشام على المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة . ثم تعددت قصائد النابغة فى ملوك الشام مما يحمل المسألة — فيما يظهر — أن شعر النابغة قسم نفسه بين الإمارتين وإن حن إلى الحيرة ، ولا شك أن شعر النابغة يؤرخ إلى حد كبير موقف الإمارتين معاً ، وصلة النابغة منهما ، وقيمة شعره ومكانته فى هذه البيئة العربية القديمة . يقول فى مدح عمرو بن الحارث الأصغر الغسانى من قصيدة : —

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم　　　عصائب طير تهتدى بعصائب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　　بهن فلول من قراع الكتائب
تورثن من أزمان يوم حليمة　　　إلى اليوم قد جربن كل التجارب

ويعتذر إلى النعمان بقوله : —

أنبئت أن أبا قابوس أوعدنى　　　ولا قرار على زأر من الأسد
مهلا فداء لك الأقوام كلهم　　　وما أثمر من مال من ولد

وقد قلنا فيما مضى باختلاف النعمان بن المنذر والنابغة الذبيانى فى تفسير مدائح النابغة فى ملوك الشام . فالنعمان فسره تفسيراً سياسياً عاما إذ هو التجاء إلى خصم منافس وتقوية لشأنه وبخاصة عقب انتصار الشام على الحيرة ولكن النابغة فسره تفسيراً شخصيا قريبا بأنه شكر على صنيع ينهض به جميع الشعراء ولاشك أن النابغة لم يخل سلوكه مطلقا من السياسة الشامية الحيرية فكان شعره سياسيا لذلك[1] » .

فإذا نظرنا إلى علاقة الغساسنة بالقبائل وجدنا فى ديوان النابغة وغيره صوراً شعرية لهذه العلاقة السياسية ، وحين غزا النعمان بن الحارث الغسانى بنى جن من عذرة — على غير رأى النابغة الذبيانى — التحم قوم النابغة ببنى جن والتقوا مع آل غسان فهزموهم وحازوا على ما معهم من الغنائم ، فقال النابغة فى ذلك : —

لقد قلت للنعمان يوم لقيته　　　يريد بنى جن ببرقة صادر

---

(١) راجع تاريخ الشعر السياسى ص ٤٩ — ٥٠ .

تجنب بنى جن فإن لقاءهم ... كريه وإن لم تلق إلا بصابر
عظام اللهى أولاد عذرة إنهم ... لهاميم يستلهونها بالحناجر
هم منعوا وادى القرى عن عدوهم ... بجمع مبير للعدو المكاثر

وسائر القصيدة تصوير لقوة هذه القبيلة وسلطانها وآثارها الحماسية مما يدل على أن قلب النابغة كان معها على الغسانيين ، ولا غرو فقد كان النابغة من مادحى العذريين[1] . وسنتحدث بتفصيل ما عن شعر النابغة السياسى عندما نعرض لترجمته إن شاء الله .

— ٨ —

وقد آن لنا بعد ذلك أن نتحدث عن الشعر السياسى بمكة حيث قامت حكومة قريش . ولسنا بحاجة هنالك إلى أن نعيد القول فى الظروف السياسية التى أحاطت بنشأة « الحكومة المكية » ، ولا فى العوامل المختلفة التى ساعدت على نموها وتطورها حتى تسامق ذلك الكيان السياسى لقبيلة قريش التى اجتمعت لها خصائص دينية وأدبية واقتصادية واجتماعية لم تتوافر لغيرها من القبائل . فقد استوعبنا ذلك فى باب الحياة السياسية ، ولا سيما الفصل الخاص « بطبيعة الحكم فى الحجاز » ، وإنما نريد هنا أن نلقى ضوءاً يسيراً على هذا الشعر الذى قيل فى سبيل هذه الدولة الفنية ، وتثبيت كيانها والدفاع عن حوزتها أو فى نقدها وتجريحها وتهديدها .

وقد علمنا — فيما مضى — أن قصياً احتال على أبى غبشان الذى كانت بيده مفاتيح الكعبة ، فاستاءت خزاعة لذلك فقامت الحرب بينها وبين قريش ، واستنجد قصى بأخيه رزاح بن كلاب فنصره على خزاعة وحلفائها وآزره حتى كسب المعركة واستقام له الأمر ، وينسب لرزاح فى تصوير هذه الحادثة قوله :

لما أتانى من قصى رسول ... فقال الرسول أجيبوا الخليلا
نهضنا إليه نقود الجياد ... ونطرح عنا الملول الثقيلا

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢ — ٥٣

فمن سراع كورد القطا ... يجبن بنا من قصى رسولا
فلما انتهينا إلى مكة ... أبحنا الرجال قبيلا قبيلا
قتلنا خزاعة فى دارها ... وبكراً قتلنا وجيلا لجيلا

كما ينسب إلى قصى بن كلاب قوله :

أنا ابن العاصمين بنى لؤى ... بمكة منزلى وبها ربيت
إلى البطحاء قد علمت معد ... ومروتها رضيت بها رضيت
فلست لغالب إن لم تأثل ... بها أولاد قيذر والنبيت

وقد أسلفنا الحديث فيما سبق عن حلف الفضول(١) ، ذلك الحلف الذى عقدته قريش بدار ابن جدعان على ألا يظلم بمكة قريب ولا غريب ، وأن يكونوا على المظلوم حتى ينتصفوا ولو من أنفسهم . . وفى هذا الحلف العظيم الذى يعتبر قوة لها خطرها فى سبيل الأمن الداخلى ، يقول الزبير بن عبد المطلب الذى يقال إنه أول من دعا إليه :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم ... وإن كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا ... يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا ... أباة الضيم نهجر كل عار

وقد ذكرنا فيما سبق بعض الأشعار التى قيلت فى أيام قريش كيوم شرب أو يوم عكاظ وهو لكنانة وقريش على هوازن وحلفائها . . ومن طريف ما حدث فى هذا اليوم أن مسعوداً الثقفى ضرب على امرأته سبيعة بنت عبد شمس أم بنيه خباء ، ثم رآها تبكى حين تدانى الناس . فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : لما يصاب غداً من قومى ، فقال لها : من دخل خباءك فهو آمن . فجعلت توصل فيه القطعة بعد القطعة ، والخرقة والشىء ليتسع فخرج وهب بن متعب حتى وقف عليها . وقال لها : لا يبقى طنب من أطناب هذا البيت إلا ربطت به رجلا من بنى كنانة ، فنادت بأعلى صوتها : إن وهبا يأتلى ويحلف أن لا يبقى طنب من أطناب هذا البيت إلا ربط به رجلا من كنانة فالجد الجد . فلما هزمت

(١) راجع ماسبق من هذا الكتاب .

قيس لجأ نفر منهم إلى خباء سبيعة بنت عبد شمس حتى أخرجوها منه فخرجت فنادت : من تعلق بطنب من أطناب بيتي فهو آمن في ذمتي . . . فداروا بخبائها حتى صاروا حلقة فأمضى ذلك كله حرب بن أمية لعمته ، فكان يضرب في الجاهلية بمدار قيس المثل ، ويعيرون بمدارهم يومئذ بخباء سبيعة بنت عبد شمس . وفي هذا اليوم يرتفع صوت الشاعر القرشي ضرار بن الخطاب الفهري فيقول :

ألم تسأل الناس عن شأننا ... ولم يثبت الأمر كالخابر
غداة عكاظ إذا استكملت ... هوازن في لفها الحاضر
وجاءت سليم تهز القنا ... على كل سلهبة ضامر
وجئنا إليهم على المضمرات ... بأرعن ذي لجب زاخر
فلما التقينا أذقناهم ... طعانا بسمر القنا العاثر
ففرت سليم ولم يصبروا ... وطارت شعاعا بنو عامر
وفرت ثقيف إلى لاتها ... بمنقلب الخائب الخاسر
وقاتلت العنس شطر النها ... ر ثم تولت مع الصادر
على أن دهمانها حافظت ... أخيرا لدى دارة الدائر

وفي هذا اليوم يعترف شاعر هوازن خداش بن زهير بالهزيمة ويشير بصولة قريش التي كان حدها يفلق الصخر فيقول :

أتتنا قريش حافلين بجمعهم ... عليهم من الرحمن واق وناصر
فلما دنونا للقباب وأهلها ... أتيح لنا ريب مع الليل فاجر
أتيحت لنا بكر وحول لوائها ... كتائب يغشاها العزيز المكاثر
جثت دونهم بكر فلم نستطعهم ... كأنهم بالمشرفية سامر
وما برحت خيل تثور وتدعى ... ويلحق منهم أولون وآخر
لدن غدوة حتى أتى وانجلى لنا ... عماية يوم شره متظاهر
وما زال ذاك الدأب حتى تخاذلت ... هوازن وارفضت سليم وعامر
وكانت قريش يفلق الصخر حدها ... إذا أوهن الناس الجدود العواثر (١)

---

(١) الاغاني ١٩ : ٧٩ — ٨٠ ساسي .

وفى أعقاب يوم الحريرة الذى كان لقيس على كنانة وقريش بكت الشاعرة الحجازية أميمة بنت أمية بن عبد شمس عشيرتها ومن قتل من قومها بشعر نسب إليها تقول فيه :

أبى ليلك لا يذهب ... ونيط الطرف بالكوكب
ونجم دونه الأهوال ... بين الدلو والعقرب
وهذا الصبح لا يأتى ... ولا يدنو ولا يقرب
بعقر عشيرة منا ... كرام الخيم والمنصب
أحال عليهم دهر ... حديد الناب والمخلب
فحل بهم وقد أمنوا ... ولم يقصر ولم يشطب
وما عنه إذا ما حل ... من منجى ولا مهرب
ألا يا عين فابكيهم ... بدمع منك مستغرب
فان أبك فهم عزى ... وهم ركنى وهم منكب
وهم أصلى وهم فرعى ... وهم نسبى إذا أنسب
وهم مجدى وهم شرفى ... وهم حصنى إذا أرهب
وهم رمحى وهم ترسى ... وهم سيفى إذا أغضب
فكم من قائل منهم ... إذا ما قال لم يكذب
وكم من ناطق فيهم ... خطيب مصقع معرب
وكم من فارس فيهم ... كمى معلم محرب
وكم من مدره فيهم ... أريب حوله مغلب
وكم من جحفل فيهم ... عظيم النار والموكب
وكم من خضرم فيهم ... نجيب ماجد منجب[1]

---

(١) الاغانى ١٩ : ٨٢ ساسى .

— ٩ —

وقد سجل الحجازيون فى أشعارهم بعض الحوادث الجلى التى انتابتهم ومن ذلك حادثة الفيل التى ذكرها القرآن الكريم ، فقد أراد أبرهة ملك الحبشة غزو مكة وهدم البيت الحرام ، وسار بجيشه وكتائبه العظيمة حتى وصلوا المغمس ، وبعث القائد الحبشى رسولا إلى مكة يطلب زعيمها ، وكان إذ ذاك عبد المطلب بن هاشم ، فانطلق حتى أتى معسكر الأحباش ، وهناك سأله أبرهة حاجته ، فقال الترجمان : حاجتى أن يرد الملك على مائتى بعير أصابها لى . فقال أبرهة الترجمان : قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ! أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ فأجابه عبد المطلب : « إنى أنارب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه ويحميه » .

ورجع عبد المطلب إلى قريش ، وأنبأهم بعزم الطاغية على هدم بيت الله الحرام ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب ثم أخذ بحلقة باب الكعبة يدعو الله أن ينصرهم ومعه نفر من قريش ، وكان يهتف بالأبيات المشهورة : لاهم إن العبد إلخ . وطلع الصباح ، وتحرك جيش الأحباش تتقدمه الفيلة متجهة نحو الكعبة ما عدا كبيرهم ، فقد ظل جامداً فى مكانه ، وأبى أن يتحرك فى الطريق إلى مكة فإذا وجهوه إلى اليمن أسرع وهرول .

وحلت عليهم نقمة الله الذى صرفهم عن بيته ، بالطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، حتى جعلهم كعصف مأكول . ولعل تلك الطير أول قاذفات قنابل جاءت إلى العالم لم يصنعها إنسان ليفتك بأخيه الإنسان ، ولكن صنعها العزيز القهار ليحطم بها قوى الظلم والعدوان .

وحادثة الفيل حادثة لها خطرها فى تاريخ الحجازيين خاصة ، والعرب عامة . وقد هزت الكيان القومى ، لا للمكيين وحدهم ، وإنما للعرب أجمع ؛ فإن البيت الحرام

يعتبر رمزاً للوحدة العربية، وشعاراً لحرية العرب، وما غزو أبرهة له إلا محاولة للقضاء على هذه الحرية وتلك الوحدة. ولا غرو إذا ما هتف شعراء الحجاز بالقصيد يصبون جام غضبهم على المعتدى الأثيم، ويهزجون بأهازيج النصر.

وفى هذه الحادثة يقول أبو قيس بن الأسلت من شعراء يثرب:

ومن صنعه يوم فيل الحبو ش إذ كلما بعثوه رزم
محاجنهم تحت أقرابه وقد كلموا أنفه فانخرم
وقد جعلوا سوطه معولا إذا يمموه قفاه كلم
فولى وأدبر أدراجه وقد باء بالظلم من كان ثم
فأرسل من فوقهم حاصباً يلفهم مثل لف القزم(١)
تحض على الصبر أحبارهم(٢) وقد ثأجوا كثؤاج الغنم(٣)

ويقول أيضا:

قوموا فصلوا ربكم وتعوذوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكمو منه بلاء مصدق غداة أبى يكسوم هادى الكتائب
فلما أجازوا بطن نعمان ردهم جنود الاله بين ساف وحاصب
فولوا سراعاً نادمين ولم يؤب إلى أهله م الحبش غير عصائب(٤)

وقد روى المؤرخون أن أبرهة حينما حل بأرض خثعم وهو فى طريقه إلى مكة، عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلى خثعم: شهران، وناهس

---

(١) رزم: ثبت ولزم موضعه. والقزم، بالتحريك: صغار الغنم.
(٢) وفى رواية الأزرقى: يحث على الطير أجنادهم.
(٣) ثؤاج الغنم: صوتها. راجع بلوغ الارب ١ : ١٥٨ — ٢٥٩، والحيوان ٧ : ١٩٦ وأخبار مكة ١ : ٩٧.
(٤) الحيوان ٧ : ١٩٧.

ومن تبعه من قبائل العرب ، وقاتله ليصرفه عن هدم الكعبة ، فقد رأى نفيل — كما رأى ذو نفر من قبل أن جهاده هذا الطاغية حق مقدس فى عنقه ، إلا أن أبرهة هزمه ، وأسره ، فلما هم بقتله قال له نفيل : أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب ، فخلى سبيله وصحبه معه يدله على الطريق .

ورووا عن نفيل هذا شيئاً عجيباً ، وهو أن الأحباش لما وجهوا الفيل إلى مكة ، أقبل عليه نفيل ثم أخذا بأذنه وقال : ابرك محمود — وهذا اسم الفيل — وارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل . . . وأصعد نفيل فى الجبل ، وكان ما كان من أمر هلاكهم ، ولما فاجأتهم تلك الغارات الجوية الإلهية خرجوا هاربين فزعين يسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمين ، وفى ذلك يقول نفيل :

ألا حييت عنا يا ردينا   نعمنا كم مع الإصباح عينا
رُدَينة لو رأيتِ فلا تريه   لدى جنب المحصَّب ما رأينا
إذن لعذرتنى وحمدت أمرى   ولم تأسى على ما فات بينا
حمدتُ الله إذ أبصرتُ طيراً   وخفتُ حجارة تُلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل   كأنَّ علىَّ للحبشان دينا(١)

— ١٠ —

وقد كان زعماء الحجاز وأدباؤه يتفاعلون مع الأحداث العظيمة التى تنتاب البلاد العربية . ولما جلا الأحباش عن اليمن أقبلت وفود قريش على سيف بن ذى يزن تهنئة بالنصر العظيم مما يشعرنا بوثاقة الروابط بين أجزاء الجزيرة العربية . كما أن أمية بن أبى الصلت الشاعر الحجازى يشيد بما أحرزه سيف من انتصار ، موثقاً أواصر الوحدة العربية ، ولنستمع إليه وهو يقول :ـ

---

(١) بلوغ الارب ١ : ٢٥٢ ، ٢٥٥ — ٢٥٧ . المحصب : موضع بمكة . بينا : مصدر بان يبين .

لله درهم من عصبة خرجوا ... ما إن ترى لهم فى الناس أمثالا(١)
بيضا مرازبة غـــرا جحاجحة ... أسداً تُرببُ فى الغيضات أشبالاَ(٢)
لا يرمَضُون إذا حَرَّت مغافرهم ... ولا ترى منهم فى الطعن ميالاَ(٣)
امن مثل كسرى وسابور الجنود له ... أومثل وهرز يوم الجيش إذ صالاَ(٤)

---

(١) رواه ابن هشام فى السيرة ١ : ٦٧ ، وفى التيجان : ٣٠٥ — ٣٠٧ ، والأزرق ١ : ٩٣ والعقد ٢ : ٢٢ وغيرهم كثير . والاختلاف فى روايتها وفى ترتيبها شديد .

(٢) بيض : لم يعن بياض الألوان ، إنما عنى نقاء الأعراض والشيم مما يعيبها ، ومرازبة جمع مرزبان (بفتح الميم وسكون الراء وضم الزاى) : معرب من الفارسية وهو عندهم رئيس القوم الفارس الشجاع المقدم عليهم دون الملك . غر جمع أغر : وهو الأبيض الوجه المتلألىء المضىء ، وجحاجحة جمع جحجاح ، وهو السيد الكريم . تربب : تربى وترعى وتحفظ . والغيضات جمع غيضة : وهى الأجمة ، والأشبال جمع شبل : وهو ولد الأسد إذا شب وبلغ الصيد .

(٣) رمض الرجل (بكسر الميم) يرمض : إذا اشتد عليه الحر أو الوجع فقلق وتململ . وحر الشىء يحر : سخن واشتدت حرارته . والمغافر جمع مغفر : زرد ينسج من حلق حديد على قدر الرأس يلبسه المحارب تحت القلنسوة . ويسبغ على العنق فيقيه . وينزل إلى العاتقين . فاذا اشتد الحر وحميت الشمس آذى المحارب بحره . يقول : هم صبر فى الحرب فلا يضجرهم حر القتال ولا حر الحديد من طول اعتيادهم . ميال : يميل عن سرج فرسه فى شدة الحرب ، جبنا أو فزعا .

(٤) يعنى من له من النـاس ملوك وأبطال مثـل هؤلاء . وكسرى ملك الفرس يومئذ أنوشروان ، وسابور الجنود هو كسرى سابور ذو الأكتاف . وهرز وهو الذى أرسله كسرى أنوشروان مع سيف بن ذى يزن ، وملكه على اليمن لقتال الحبشة وإخراجهم .

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً ... فى رأس غُمدان دارا منك محلالاً (١)
واضطم بالمسك إذ شالت نعامتهم ... وأسبل اليوم فى بُردَيك إسبالاً (٢)
تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيئاً بماء فعادا بعدُ أبوالاً (٣)

— ١١ —

وقد ألف الناس فى العصور الحديثة ، بين حين وآخر ، أن يطلع عليهم الصباح ، فاذا دور الحكومات والبرلمانات وغيرها ، قد ألصق بجدرانها عدد من المنشورات السياسية ضد السلطان القائم والحزب الحاكم . . . وكثيرا ما تصافح وجوه المواطنين كتابات معادية على القصور . . . التى بنيت من دماء الشعب ، تعلن السخط والحقد

---

(١) مرتفق : متكىء على وسادة وكذلك كانوا يفعلون فى مجالس الملوك . وغمدان : قصر عظيم كان بصنعاء اليمن كانت ملوكهم تنزله . ويقال أرض محلال إذا كانت سهلة لينة مرعة خصيبة جيدة النبات ، مختارة لنزول الناس ، يكثرون الحلول بها لطيبها ، يدعو له بالنعمة وطيب المنزل والرفاهية .

(٢) هكذا رواية ابن سلام : واضطم ، وهى فى حماسة البحترى ص ١٦ : واضطم وكأنها خطأ وتحريف . وروى الأزرقى — والنط ، وهذه روايات مشكلة . وسائر الروايات : واطل بالمسك . ثم اطل . اضطمخ بالمسك وتضمخ : تلطخ به وتطيب .

وقوله إذ شالت نعامتهم : أى ارتحلوا من منازلهم وتفرقوا أو ذهب عزهم ودرست طريقتهم . وأسبل ثوبه : طوله طولا وأرخاه وأرسله إلى الأرض إذا مشى ، يفعل المرء كذلك كبراً واختيالا وضمن أسبل معنى اختال . ولذلك عداه بحرف الجر فى ، كأنه قال له : سر مختالا فى برديك مرخيا من أذيالك بعد الذى فعلت وبلغت من النصر .

(٣) القعب : القدح الغليظ الجافى ، من خشب مقعر ، يروى الرجل . وشاب اللبن بالماء خلطه ومزجه . يقول له : الذى فعلت هو المكارم والمآثر ، إذ بلغت ما بلغت من عدوك ، أما ما يتمدح به المتمدح من بذل شربة لبن إلى ضيف ، فليس بمكرمة تذكر ؛ راجع طبقات فحول الشعراء ٢١٨ — ٢٢٠

والنقمة عليها . . . وقد عرف الحجازيون فى العصر الجاهلى هذا اللون من نقد السلطة الحاكمة والتشهير بها على الحيطان فى شكل مصغر للمنشورات السرية أو السياسية ، لنقد الحكومات فى العصور الحديثة . . . ومن ذلك ما ذكروه من أن الناس فى مكة قد أصبحوا ذات يوم فإذا مكتوب على دار الندوة :

ألهى قصيًّا عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير
وأكلُها اللحمَ بحتاً لاخليط له وقولها رحلت عِير، أتت عِيرُ(١)

فأنكر الناس ذلك ، وقالوا : ماقالها إلا ابن الزبعرى ! وأجمع على ذلك رأيهم ، فمشوا إلى بنى سهم — وكان مما تنكر قريش وتعاقب عليه ، أن يهجو بعضها بعضاً — فقالوا لبنى سهم : ادفعوه إلينا نحكم فيه بحكمنا . قالوا : وما الحكم فيه ؟ قالوا : قطع لسانه . قالوا : فشأنكم ، واعلموا والله أنه لا يهجونا رجل منكم إلا فعلنا به مثل ذلك . والزبير بن عبد المطلب ، يومئذ غائب نحو اليمن . فانتحت بنو قصى بينهم ، فقالوا : لا نأمن الزبير ان بلغه ما قال هذا ، أن يقول شيئاً ، فيؤتى إليه مثل ما نأتى إلى هذا ! وكانوا أهل تناصف ، فأجمعوا على تخليته ، فخلوه . فقال له الناس ، وحملوه على قومه : أسلمك قومك ولم يمنعوك ، ولو شاءوا منعوك ! فقال :

لعمرُكَ ما جاءت بنكْرٍ عشيرتى وإن صالحت إخوانها لا ألومها
يَوَدُّ جُناة الغىِّ أن سيوفنا بأيماننا مَسلولة لا نشيمُها(٢)

---

(١) قصى . أراد بنى عبد مناف بن قصى ، وفيهم كان الحكم والسلطان . والاساطير : أباطيل الاحاديث ولعله أراد بها إخراج قصى خزاعة ، وولايته البيت ، وتجميعه لقبائل فهر ، واتخاذه دار الندوة ، ورياسته لها الخ . السفاسير : جمع سفسير ، وهو السمسار الذى يدخل بين البائع والمشترى لامضاء البيع . وقوله : «رحلت عير أتت عير» ينتقد به انغماسهم فى الحياة التجارية .

(٢) النكر : الامر المنكر القبيح . شام السيف : سله وأغمده ، ضد . والمقصود هنا نغمدها . راجع طبقات فحول الشعراء ١٩٦ — ١٩٨ .

وفى رواية أخرى لهذه الحادثة عن يونس عن ابن إسحق أنهم « استعدوا عليه بنى سهم ، فأسلموه إليهم فضربوه ، وحلقوا شعره ، وربطوه إلى صخرة بالحجون ، فاستغاث قومه فلم يغيثوه . فجعل يمدح قصيا ويسترضيهم ، فأطلقه بنو عبد مناف منهم وأكرموه فمدحهم بأشعار كثيرة(١) » .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك فإن الذى يعنينا هنا هو الإشارة إلى أن هناك نوعاً من النقد السياسى اصطبغ بصبغة أدبية أو شعرية . وهو الشعر الذى يمثل وجهة نظر المعارضة فى الحكومة القائمة .

— ١٢ —

وأقوى ما يكون الشعر السياسى ، حين يتجه إلى الملوك والحكام المستبدين ، بالنقد والسخط ، والغضب والحقد ، والتهديد والوعيد ، فيعلنها الشاعر الحر ثورة عارمة فى وجوه الطغاة ، ويشنها عليهم حرباً كلامية حامية الوطيس ، مشتعلة الأوار .

وهذا اللون من الشعر ديدنه الحرية ، والوقوف فى وجه الطغيان ، ولا غزو إذا ما تجاوبت معه النفوس فى كل زمان ومكان ، ذلك لأنه مبنى على إنكار الذات ، ويستند إلى عاطفة إنسانية عميقة الجذور فى النفس البشرية .

وقد عرف الحجازيون فى العصر الجاهلى هذا اللون من الشعر الثائر ، والسخط على الطغاة المستبدين ، لإبائهم وشممهم ، ونفورهم من التحكم والاستبداد ، بل إن منهم من بلغت به الجرأة أن يركب الهول ، ويقتحم على الملك مخدعه غير عابىء بأسلحة الحراس التى يكمن فيها الموت الزؤام ، فيعلو الظالم الغشوم بسيفه ويطعنه طعنة نجلاء تودى بحياته وتتركه مثله للحاكمين الظالمين . . . ذلك هو مالك بن العجلان الخزرجى الذى فتك بالفطيون حاكم يثرب . لأنه اعتزم أن يرتكب الفحشاء مع أخته قبل أن تزف إلى زوجها .

---

(١) الروض الانف ١ : ٩٤ .

وقد سلفت هذه القصة أثناء حديثنا عن «الحكم فى يثرب» . وفى هذه الحادثة يقول بعض الشعراء الحجازيين :

هل كان للفطيون عقر نسائكم   حكم النصيب فبئس حكم الحاكم
حتى حباه مالك بمرشة   حمراء تضحك عن نجيع قاتم (١)

وهذا الشداخ بن عوف الكنانى يشرع سيفه فى وجه الملوك ، ويصور إباء قومه وأنفتهم ، فهم لا يسمحون لأى إنسان أن يستبد بمظلمة لهم سواء كان ملكاً كبيرا أو صعلوكا صغيرا . وإذا ما ساورت أى مستبد نفسه أن يظلمهم فلن يرى إلا الرماح المشرعة ، والسيوف الصارمة التى يأخذ العين لمحها كما يأخذها برق الصواعق . ولنستمع إليه وهو يقول :

أبينا فلا نعطى مليكاً ظلامة   ولا سوقة إلا الوشيج المقوما
وإلا حساماً يبرق العين لمحه   كصاعقة فى غيث مزن تركما

وكان الشاعر الحجازى الحارث بن ظالم الذبيانى أحد سراة بنى مرة وأشرافهم وأشرافهم جريئاً . فاتكا ، فتك بخالد بن جعفر الكلابى ، وهو نازل على النعمان ، بل فتك بابن النعمان نفسه ، وكان فى حجر أخته سلمى بنت ظالم المرى . . .

وما أروع موقفه فى قصيد ثائر ، وهو يخاطب النعمان ويتهدده ويتوعده بالقتل ، كما قتل بأن ، وخالد بن جعفر من قبل . . . وإن الشاعر هنا ليثور لجيران له أصابهم شر المليك ، فى إبلهم وأموالهم وأنفسهم . . . ويقسم أنه لولا ما يتحجب به الملك من الحجاب والحراس ، لمزقه بسيفه الصارم ، ولنستمع إليه وهو يقول :

قفا فاسمعا أخبركما إذ سألتما   محارب مولاه وثكلان نادم (٢)

---

(١) طعنه مرشة : واسعة ذات رشاش من الدم . وراجع فى هذه الحادثة ص ١٥٢ من هذا الكتاب . واسم الفطيون مختلف فيه أهو الفطيون أم الفيطون ، أم القيطون ، أم القيطور .

(٢) محارب مولاه ، يقصد نفسه لأنه فتك بابن الملك . وثكلان نادم ، يعنى الملك لأنه فقد ولده .

فأقسم لولا من تعرّض دونه ... لخالطه صافى الحديدة صارمُ(١)
حسِبت أبا قابوس أنك سالم ... ولما تُصِبْ ذلا وأنفُك راغم
فإن تك أذوادٌ أصِبْنَ وصِبية ... فهذا ابن سلمى رأسه متفاقمُ(٢)
علوتُ بذى الحيات مَفرِقَ رأسه ... وهل يركبُ المكروه إلا الأكارمُ
فتكت به كما فتكتُ بخالد ... وكان سلاحى تحتويه الجماجم
أخُصَيِّيَ حمارٍ بات يكدِمُ نجمةً ... أنأ كل جيرانى وجارُكَ سالمُ ؟(٣)
بدأتُ بهذى ثم أثنى بهذه ... وثالثة تَبْيَضُّ منها المقادم

بل إن من الشعراء الحجازيين من يفخر بأنه جندل بسيفه الصارم كثيراً من الملوك ، كما فعل فارس خزاعة فى زمنه معاذ بن صرم الخزاعى ، إذ يقول :

ولستُ بِرعديد إذا راع مُعْضِلٌ ... ولا فى نوادى القوم بالضيِّق المُسكِ
وكم ملك جدّلته بمهند ... وسابغة بيضاء محكمة المسك(٤)

---

(١) أى لولا الحجاب والحراس الذين يحتمى بهم الملك لقتله بسيفه .

(٢) الذود : الجماعة من الإبل . وهو يشير إلى ما كان من انتهاب إبل جار له . متفاقم : غير ملتئم . ويعنى بابن سلمى ، ابن الملك لأنه كان فى حجر سنان بن أبى حارثة ، وسلمى زوجة سنان .

(٣) يكدم : يعض . نجمة : واحدة النجم وهو النبت لا ساق له . يسب النعمان ويهدده ويقول له : ياخصيى حمار ! أمن المعقول أن تأكل مال جيرانى . ثم أترك جارك سالما ؟

(٤) الرعديد : الجبان . المسك : بضم الميم العقل . جدله : رماه وصرعه على الجدالة أى الأرض . السابغة : الدرع التامة الطويلة الوافرة . محكمة المسك : ضيقة الحلق .

الفصل الثاني

الشعر الحماسي

— ١ —

تحتل الحماسة مكانا بارزاً في الشعر العربي عامة والشعر الجاهلي خاصة حتى ان أبا تمام حين جمع مختاراته المشهورة وضمنها الأبواب العشرة الآتية : الحماسة ، والمراثي ، والأدب ، والنسيب والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء ، أطلق عليها اسم « ديوان الحماسة » باسم أول باب فيها وهو « الحماسة » الذي يستغرق نحوا من نصف الكتاب تقريباً وليس ذلك محض مصادفة بل لأهمية الحماسة التي تشير إلى الفضائل التي يفخر بها العرب ، كالشجاعة في المعركة ، والصبر عند المصيبة ، وصد القوى ، والسعي الكادح لنيل المراد ، وعدم الاستسلام أو الخضوع لما يوجب الذلة والامتهان .

وقد قال معاوية بن أبي سفيان : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر أدبكم ، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض أريد الهرب من شدة البلوى ، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو ابن الاطنابة [وهو شاعر حجازي من شعراء الخزرج الجاهلين] : —

أبت لي همتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

والشعر الحماسي هو الذي يصور تلك المعاني السالفة من شجاعة ، ونجدة وبأس ، وقوة ، وصبر عند اللقاء ، وإقدام على الموت ، وحماية للجار ، ومنع

الحريم ، وما إلى ذلك من الصفات التى يعتز بها العربى وقد ذكرنا فى فصل الشعر السياسى طائفة من هذا الشعر ؟ إلا أن مكانة الحماسة فى الشعر الحجازى تجعلنا نفرد لها هذا الفصل .

وقد عرف الأدب الحجازى الجاهلى طائفة من الشعراء الأشراف وأخرى من الشعراء الفرسان الذين جمعوا بين الشجاعة والبطولة ، وبين الموهبة الشعرية الفائقة ، وثالثة من الصعاليك الفاتكين فمن سادة : الحصين ابن الحمام المرى ، وأبو قيس بن الأسلت الأوسى ، وعمرو بن الاطنابة الخزرجى ، ومن الفرسان : قيس بن الخطيم . وأبو محجن الثقفى الذى أدرك الإسلام ، ومن الصعاليك الشنفرى ، وتأبط شرا .

— ٢ —

وكان الحجازيين فى هذا اللون من الشعر باع طويل ، حتى انهم كانوا يرون الموت على الفراش سبة وعاراً ، أما فى ميادين الحرب وتحت ظلال القنا والسيوف فشرف أى شرف .

قال السموأل بن عادياء :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجال لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل[1]

وأيقن بعض الشعراء الحجازيين أن الإقدام على الردى هو الحياة والفرار من المعركة هو الموت . قال الحصين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما[2]

---

(١) الحماسة ١ : ٣٨ .

(٢) الحماسة ١ : ٦٧ .

وكان الحجازيون يخوضون غمار الحرب ، ولا يبالون بالموت ، يقول العباس ابن مرداس :

أشُدُّ على الكتيبة لا أبالى … أحتفى كان فيها أم سواها

بل إن منهم من يطلب الموت ، ولا يريد بقاء النفس ، يقول قيس بن الخطيم :

وإنى فى الحرب الضروس مُوَكَّلٌ … بإقدام نفس ما أريد بقاءها

وهم يأبون الموت إلا فى ساحة الوغى ، فكأنهم فى معركة مع الثأر لا تنتهى إما أن يقتصوا لأنفسهم أو يثأر منهم . وهذه عندهم هى الشجاعة وأولئك هم الشجعان . . والأبيات اللاحقة التى هتف بها الشاعر دريد بن الصمة تصور ذلك وتشيد بثباتهم وشجاعتهم ، فهم يهجمون حين يتهيب الأبطال أن يهجموا ، ويتنافسون على الإقدام فى حلبة الموت الزؤام ، ويفخرون بكثرة من قتلوا من الأعداء :

أبى القتل إلا آل صمة إنهم … أبوا غيره والقَدْرُ يجرى إلى القدر

فإما ترينا لا تزال دماؤنا … لدى واتر يسعى بها آخر الدهر

فإنا للَحْمُ السيف غيرَ نكيرة … ونلحمُهُ حينا وليس بذى نكر

يغار علينا واترين فيُشتفى … بنا إن أصبنا ، أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا … فما ينقضى إلا ونحن على شطر[1]

— ٣ —

وكانوا لا يتجاوزون الحق والإنصاف إذا دارت دائرة الحرب بينهم وبين أعدائهم فهم يذكرون لهم صدق بلائهم وشجاعة أبطالهم كما أنهم لا ينفكون ويذكون نار الحماسة فى قومهم ، حتى ينالوا النصر . فكلا الفريقين قد عاد مثخنا بجراحه — مكسرة رماحه ، منحنية سيوفه ، كما أسفرت المعركة بينهما عن جرحى مصابين وعاجزين عن المسير .

(١) الحماسة ١ : ٣٤٧ — قصد بقوله القدر تجرى إلى القدر : إنهم مقدرون للقتل وهو مقدر لها . النكيرة : العيب والمنكر .

ويصور كل ذلك عبد الشارق بن عبد العزى الجهنى فيقول :

ألا حييت عنا يا ردينا ... نحييها وإن كرمت علينا[1]
ردينة لو رأيت غداة جئنا ... على أضماننا وقد احتوينا[2]
فأرسلنا أبا عمرو ربيئا ... فقال ألا انعموا بالقوم عينا
ودسوا فارسا منهم عشاء ... فلم نغدر بفارسهم لدينا
فجاءوا عارضا بردا وجئنا ... كمثل السيل نركب وازعينا
تنادوا يالبهثة إذ رأونا ... فقلنا أحسنى ضربا جهينا
سمعنا دعوة عن ظهر غيب ... فجلنا جولة ثم ارعوينا
فلما أن تواقفنا قليلا ... أنخنا للكلاكل فارتمينا
فلما لم ندع قوسا وسهما ... مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلألؤ مزنة برقت لأخرى ... إذا حجلوا بأسياف ردينا
شددنا شدة فقتلت منهم ... ثلاثة فتية وقتلت قينا
وشدوا شدة أخرى فجروا ... بأرجل مثلهم ورموا جوينا
وكان أخى جوين ذا حفاظ ... وكان القتل للفتيان زينا
فآبوا بالرماح مكسرات ... وأبنا بالسيوف قد انحنينا
وباتوا بالصعيد لهم أحاح ... ولو خفت لنا الكلمى سرينا[3]

(١) القصيدة فى الحماسة لأبى تمام رقم١٥٢ (راجع شرح المرزوق ١ — ٤٤٢) وعيار الشعر لابن طباطبا ٦٢ — ٦٣ .

(٢) الأضم : الغضب . ويروى البيت وقد « اجتوينا » و « اختوينا » واحتوينا معناه احتوينا الأموال والغنائم والحريم . ويرى المرزوقى أن اجتوينا (بالجيم) مع ذكر الأضم أشبه (١ — ٤٤٢) .

(٣) وفى رواية ابن طباطبا : سلمينا. ردينا : أسرعنا ، قين : اسم فارسهم . وقد شبه لمعان السلاح الكثيف بالمزنة البارقة فى قوله : تلألؤ مزنة .

وقد عد ابن طباطبا هذه الأبيات من الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعانى ، الحسنة الرصف ، السلسة الألفاظ التى قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاما ، فلا استكراه فى قوافيها ، ولا تكلف فى معانيها[١] .

ومن المنصفات قول العباس بن مرداس السلمى ينصف أعداءه :

فلم أر مثل الحى حيا مصبحا ... ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا ... صدور المذاكى والرماح المداعسا
إذا الخيل جالت عن صريع نكرها ... عليهم فما يرجعن إلا عوابسا[٢]

— ٤ —

ومع هذه الروح الحربية فقد كان فى العرب الجاهليين دعاة للسلام يحتملون المغارم فى سبيل إيقاف نار الحرب كما فعل الحارث بن عوف وهرم بن سنان اللذان توسطا بين عبس وذبيان واحتملا ديات قتلاهما . وقد أشاد بهما زهير بن أبى سلمى فى معلقته إذ يقول :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما ... تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم
فأدكتما عبسا وذبيان بعد ما ... تفانوا ، ودقوا بينهم عطر منشم

ثم يمضى زهير فى وصف شرور الحرب التى تشتعل فتحرق وتستشرى فتفترس ولا تنتج إلا غلمان شؤم موتورين حاقدين .

---

(١) عيار الشعر ص ٤٨ — ٤٩ تحقيق الدكتورين طه الحاجرى ، ومحمد زغلول سلام . القاهرة ١٩٥٦ م .

(٢) المذاكى : الخيل التامة السن . والكاملة القوة . المداعس : الطاعنة . والدعس : الطعن . ومعنى البيت الثالث أن تلك الخيول التى يكرون بها على الأعداء ترجع عابسة الوجوه لما تلاقى من شدة الخصوم .

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم … وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة … وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها … وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم … كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها … قرى بالعراق من قفيز ودرهم

والشاعر الحجازى حلحلة بن قيس الكنانى قصيدة رائعة يصور فيها شرور الحرب وآثارها المدمرة حتى على المنتصرين أنفسهم، وقد نهى فيها أبا عمرو عن الحرب ودعاه إلى السلم ولما لم يلته وأمعن فى شره اضطر إلى أن يقابل الشر بالشر والرمى بالرمى حتى نكبوا جميعا وأصبح الفريقان يندبون قتلاهم فى المعركة التى أوقد لظاها ذلك السفيه الجهول :

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو يرى … برأى رشيد أو يؤول إلى عزم
وقلت له : دع عنك بكراً وحربها … ولا تركبن منها على مركب وخم
ومهلا عن الحرب التى لا أديمها … صحيح ولا تنفك تأتى على سقم
فإن يظفر الحزب الذى أنت فيهم … وآبوا بدهم من سباء ومن غنم
فلا بد من قتلى ، وعلك فيهم … وإلا فجرح ليس يكمى عن العظم
دعانى يشب الحرب بينى وبينه … فقلت له : لا ، بل هلم إلى السلم
فلما أبى أرسلت فضلة ثوبه … إليه فلم يرجع بعزم ولا حزم
وأمهلته حتى رمانى بحرها … تغلغل من غى غوى ومن إثم
فلما رمانيها رميت سواده … ولا بد أن ترمى سواد الذى يرمى
فبتنا على لحم من القوم غودرت … أسلتنا فيه ، وباتوا على لحم
وأصبح يبكى من بنين وإخوة … حسان الوجوه طيبى الجسم والنسم
ونحن نبكى إخوة وبنيهم … وليس سواء قتل حق على ظلم[1]

وفى هذا المعنى يقول معن بن أوس :

دعانى أشب الحرب بينى وبينه … فقلت له لا بل هلم إلى السلم
وإياك والحرب التى لا أديمها … صحيح ولا تنفك تأتى على رغم

(١) حماسة البحترى ٧٣ — ٧٤ .

فلما أبى خليت فضل عنانه ... إليه فلم يرجع بحزم ولا عزم
فكان صريع الخيل أول وهلة ... فبعداً له مختار جهل على علم[1]

وكانوا من عادة بعضهم بذل الود واللجوء إلى السلم ورعاية صداقات الرجال حتى إذا لم يجدوا ذلك عمدوا إلى الحزم والعزم ففلقوا هامات الأعداء وقطعوا منهم الأكف والمعاصم ، لأنهم لا يبتاعون الحياة بالذلة ولا يفرقون من الموت فيرتقوا سلم النجاة خشية منه ، وفى هذا يقول حصين بن الحمام المرى من قصيدة :

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه ... وإن كان يوما ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر منا سجية ... بأسيافنا يقطعن كفا ومعصما
تفلق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما
ولما رأيت الود ليس بنافعى ... عمدت إلى الأمر الذى كان أحزما
فلست بمبتاع الحياة بذلة ... ولا مرتق من خشية الموت سلما

— ٥ —

وكانت المرأة الحجازية تشارك مشاركة فعلية فى الحرب ، وإلى ذلك أشار قيس بن الخطيم بقوله :

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهم ... عن السلم حتى كان أول واجب
رأيت لعوف أن تقول نساؤهم ... ويرمين دفعاً : ليتنا لم نحارب[2]

وإذن فقد كان النساء الخزرجيات يقذفن الحجارة على رءوس الأوس من الحصون والآطام وكان ذلك فى حرب حاطب .

بل لقد كانت المرأة الحجازية تقدم حيث يحجم الرجل ، وتشجع حين يجبن ، ففى يوم أحد سقط لواء قريش فلم يتقدم لرفعه أحد ، وشمرت هند بنت عتبة وصواحبها ليهربن ، فتقدمت عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعته ، فتراجع

---

(١) جمهرة الأمثال لأبى هلال ٩٣ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم . واجب : ميت . يرمين دفعاً : يرميننا من فوق الآطام دفاعاً عن أنفسهن .

المشركون ، واجتمعوا حولها ، واقتتلوا القتال (١) وفيها يقول حسان بن ثابت :

إذا عضلٌ سيقت إلينا كأنهم جداية شِرك معلماتُ الحواجب
أقمنا لكم طعناً مبيراً منكلاً وحزناكمُ بالضرب من كل جانب
ولولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون فى الأسواق بيع الجلائب (٢)

وقد شهدت هذه الموقعة نسيبة بنت كعب المازنية أم عمارة هى وزوجها وابناها فقاتلت يومئذ قتالا شديدا وأبلت بلاء حسنا ، حتى قيل إنها جرحت اثنى عشر جرحا بين طعنة رمح وضربة سيف ، ولما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله وجعلت تقاتل عنه وتذب بسيفها ، وترمى دونه بقوسها حتى كثرت جراحها ، وأصابها عمرو ابن قمئة بجرح غائر فى عاتقها ، وأصابته هى إصابات . ولم يقه منها إلا درعان كانتا عليه . ورأى النبى بلاءها ، فأعجب بها ، وقال : من يطيق ماتطيقين ياأم عمارة ؟

وفى حديثها عن هذا اليوم : وأقبل الرجل الذى ضرب ابنى فقال رسول الله : هذا ضارب ابنك . فاعترضت له فضربت ساقه فبرك ، فرأيت الرسول تبسم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : استقدت ياأم عمارة. ثم أقبلنا على الرجل نعلوه بالسلاح حتى أتينا عليه ، فقال النبى : الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينك (٣).

ولما انهزم المسلمون فى يوم أحد وولى بعضهم ولقيتهم أم أيمن ناكصين حثت فى وجوههم التراب ، وقالت لبعضهم : هاك المغزل اغزل به ، وهات سيفك ، وقصدت إلى أحد مع بعض النساء (٤) .

وقد حاربت نسوة كثيرات بالسيوف والرماح ، منهن : الربيع بنت معوذ بن عقبة الأنصارية ، وصفية بنت عبد المطلب ، وخولة بنت الأزور ، وهؤلاء اللائى حاربن

---

(١) سيرة ابن هشام ، المرأة فى الشعر الجاهلى ٣٤٧ — ٣٤٨ .
(٢) ديوان حسان ٢٥ — ٢٦ . الجلائب : العبيد .
(٣) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٣٤٨ .
(٤) المغازى ص ٢٧٣

فى مشرق الإسلام كأخواتهن اللاتى حاربن فى الجاهلية، دليل على بطولة المرأة العربية وقدرتها على أن تصطلى نار الحرب، وتمارس أحياناً ما يمارس الرجال[١].

وكانت المرأة الحجازية ما نفتأ تحرض قومها على القتال وتبث فيهم روح الشجاعة والإقدام، وتثير حفيظتهم للثأر والانتقام وكان لسانها ينطلق بذلك شعراً كما تنطلق ألسنة الرجال الشعراء. وهذه الخنساء.. ما أكثر ما حرضت على الثأر انتقاما لأخيها صخر. فلنستمع إليها وهى تقول:

ولن أسالم قوما كنت حربهم   حتى تعود بياضا جؤنة القار
لا نوم حتى تعود الخيل عابسة   ينبذن طرحا بمهرات وأمهار
أو تحفزوا حفزة والموت مكتنع   عند البيوت حصينا وابن سيار
فتغسلوا عنكم عارا تجللكم   غسل العوارك حيضا بعد أطهار[٢]

وكان دعاء المرأة للحرب يصادف هوى من نفوس المكافحين الثائرين، فيستجيبوا لندائها لأنهم يأملون أن يحققوا أملها فى شجاعتهم ونجدتهم، وإذ ما هزم قومها وولوا الأدبار صبت عليهم جام غضبها وقرعتهم أعنف تقريع كما فعلت إذا تقول:

ألا هل أتاها على نأيها   بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتى فارس   فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيول   ضأناً لها حالب قاعد[٣]

وربما شادت بمن يثأر لها فيشفى نفسها ويثلج صدرها حين انتقم لها قيس بن عامر الجشمى فقتل هاشم بن حرملة الذى قتل أخاها معاوية، إذ مدحته وفدته بنفسها وقومها، ظاعنهم ومقيمهم، وبكل حميم لديها، لأنه أثلج صدرها وأقر عينها. وكانت قبل ذلك — لا تنام ولا تنيم:

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى.

(٢) ديوان الخنساء ١١٢. جؤنة: سواد. تحفزوا: تطعنوا. مكتنع: دان. تريد حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار المريين. العوارك: الحوائض.

(٣) البيان والتبيين ١: ٢٠٨.

فدى للفارس الجشمي نفسي أفديه بمن لي من حميم
أفديه بكل بني سليم بظاعنهم وبالأنس المقيم
كما من هاشم أقررت عيني وكانت لاتنام ولا تنيم
خصصت بها أخا الأمراء قيسا فتى في بيت مكرمة كريم[١]

— ٦ —

ولقد تحدث « نيكلسون » عن الشنفرى وتأبط شراً بوصفهما طرازين يصوران المثل الأعلى للبطل العربي فقال ما فحواه : « نستطيع أن نتخذ الشنفرى الأزدى وزميله تأبط شراً نموذجا للبطل العربي المثالي ، فكلاهما خليع خارج على النظام ، سريع العدو ، وشاعر ممتاز ، ولا سيما الأول منهما[٢] » .

حقا إنه يتجلى في هذين البطلين كثير من السمات العربية الأصيلة كالشجاعة والكرم ، والشاعرية الجيدة ، والاشتراكية ، إلا أنهما يعتبران من صعاليك العرب الخارجين على القانون والنظام العام المتعارف عليه لدى القبائل ، ومن اللصوص المغيرين — وإن كانا في الواقع أشرف ألف مرة من المستعمرين الغربيين في القرن العشرين — ونحن لا نعترض على « نيكلسون » في اعتبارهما بطلين ، وإنما اعتراضنا على ضربهما مثلا أعلى للبطولة العربية لأن في هذا جرحا لهذه البطولة ومن ذا الذي يقدر هذا المثل ، إذا عددنا ، من مميزاته الأصالية ، اللصوصية والنهب والسلب والتشرد في متاهات الصحراء وأفنان الجبال مع الذئاب والنمور والضباع ؟ .

لقد كانت قريش تعف عن السلب والنهب ، ولهذا اتخذت لها من التجارة رحلة في الشتاء والصيف كوسيلة شريفة للكسب الحلال . . .

فإذا أردنا أن نلتمس المثل الأعلى للبطولة العربية ، فإنه يجدر بنا أن نبحث عن شخصية أكثر تكاملا ، شخصية تدنو من معنى « الفتوة » عند العرب ،

---

(١) ديوان الخنساء ٢٣١ وبلاغات النساء ١٦٧ والأغاني ١٣ : ١٤٠ ولسان العرب ١٦ : ٧٨ .

Aliterary History of the Arabs P. 79 (٢)

والبطل العربي المثالي في رأينا هو الذي جمع من الفضائل ما يجعله مرموق المنزلة في قومه ومجتمعه العربي فهو لين الجانب لقومه يستشير كبارهم، ويكرم صغارهم ويسمح بماله ويحمى حريمه، ويعز جاره ويعين من استعان به، ويسرع إذا ناداه الصريخ ويبسط حمايته على الضعيف، ويقف في وجه القوى.

وقد جمع شيئا من هذه الخصال ذو الإصبع العدواني في وصيته إلى ابنه «اسيد» إذ يقول:

«ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويشأ على مودتك صغارهم، واسمح بمالك واحم حريمك، وأعزز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ فإن لك أجلا لا يعدوك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك يتم سؤددك».

وفي كتب الأدب العربي شخصية رائعة، وهي خليقة بأن تضرب مثلا للفروسية العربية في أروع مظاهرها. وتلك هي شخصية «ربيعة بن مكدم الكناني» أحاط بها شيء يشبه الأساطير، فقد ذكروا عنه أنه حمى الظعينة وهو ميت، وضرب به المثل فقيل «أحمى من مجير الظعن» حتى قال أبو عمرو بن العلاء: ما نعلم قتيلا حمى ظعائن غير ربيعة بن مكدم. وهو من بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة، وهم أنجد العرب، وكان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم [1].

وربيعة هو الذي كاد يقتل الفارس الشهير عمرو بن معد يكرب. وقد أكبر عمرو شجاعته وأشاد بها. وهو كذلك الذي صرع ثلاثة من خيرة الفرسان واحداً بعد الآخر. وذلك أن دريد بن الصمة الفارس المشهور خرج ذات يوم في فوارس من بني جشم حتى إذا كان بواد لبني كنانة وقع له رجل من ناحية الوادي معه ظعينة، فقال لأحد فرسانه صح به: أن خل الظعينة وانج بنفسك، وهو لا يعرفه والماصاح به

---

(١) نهاية الأرب ١٥ : ٣٧٢.

الفارس ، لم يكترث به ربيعة ، بل ألقى زمام الراحلة للظعينة وقال :

سيرى على رسلك سير الآمن   سير رداح ذات جأش ساكن
إن انثنائى دون قرنى شائنى   أبلى بلائى واخبرى وعاينى

ثم حمل على الفارس فصرعه . فبعث إليه دريد فارساً ثانياً وثالثا ، وكان مصيرهما مصير أولهما ، وفى كل مرة يتمثل بأبيات من الشعر . إلا أن رمحه انكسر حينما طعن الفارس الثالث فصرعه . وارتاب دريد ولحق بهم فوجد ربيعة لا رمح له ، ووجد القوم قد صرعوا ، فقدر دريد شجاعته وقال : إن مثلك لا يقتل وإن الخيل ثائرة بأصحابها ولا أرى معك رمحا وأراك حديث السن فدونك هذا الرمح فإنى راجع إلى أصحابى فمثبط عنك . فأتى دريد أصحابه فقال : « إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم وانتزع رمحى ولا طمع لكم فيه » ، فانصرف القوم . وفى تصوير قتله أولئك الفرسان ينسب الرواة إليه أنه قال :

إن كان ينفعك اليقين فسائلى   عن الظعينة يوم وادى الأخرم
إذ هى لأول من أتاها نهبة   لولا طعان ربيعة بن مكدم
إذ قال من أدنى الفوارس ميتة :   خل الظعينة طائعا لا تندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه   عمدا ليعلم بعض مالم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل إهابه   فهوى صريعاً لليدين وللفم
ومنحت آخر بعده جياشة   نجلاء فاغرة كشدق الأضجم[1]
ولقد شفعتهما بآخر ثالث   وأبى الفرار الغداة تكرمى

---

(١) نهاية الأرب ١٥ : ٣٧٠ — ٣٧٢

الفصل الثالث

الشعر الاجتماعى

أما الشعر الاجتماعى، فباب واسع يمكن أن يندرج تحته كثير من الموضوعات. وسنتناول هنا بالدرس بعض ما لم نتحدث عنه فى فصول خاصة، ويمكن تقسيم البحث إلى ثلاث نقاط جوهرية:

(ا) شئون الأسرة.

(ب) الحياة الخلقية.

(جـ) العادات الاجتماعية.

وقد أدمجنا الأخلاق فى هذا الفصل، لما بينها وبين الحياة الاجتماعية من تفاعل وتجاوب، فكلاهما مؤثر بالآخر.

(ا) علاقات الأسرة فى شعر الحجاز الجاهلى

— ١ —

المـــرأة

من الطبيعى أن يكون شأن المرأة عند الشاعر الحجازى عظيما كما هو كذلك عند شعراء العرب عامة، فالشاعر حتى فى وحدته وعزلته يرى طيف المـــرأة ويخاطبه، وهو يهتم بها لأنه يحبها ولأنها تشاركه حياته وتقاسمه مسئولياته، فهى التى تعد الطعام للضيوف، وهى التى تبارك طموحه وتشجعه، وتسأل عن أخباره، وتشير عليه بما ينبغى أن ينهجه حتى فى أهم مشاكله، مثل المعارك الحربية.

لهذا فليس من الغريب أن يكون للمرأة جزء كبير من نتاج الشاعر ، فقد تسلطت على مقدمة القصيدة واستحوذت عليها فى كل الأغراض تقريباً . فالشاعر يتوجع من رحيلها ومن هجرها وغير ذلك مما صار تقليداً سلكه حتى الشعراء المتأخرون .

فالشاعر الحجازى لا يكفيه أن يعلم الناس أنه شجاع وانه كريم ومرح ، ولكنه يريد أن ينتزع الاعتراف بذلك من زوجته ، لأنها هى المرجع والحكم فى كل ذلك . ومهما استفاضت شجاعته ، وطابت سمعته عند مجتمعه ، فإن الكلمة الأخيرة فى ذلك تبقى لزوجته التى يغار عليها أن تفضل عليه أحداً . والحجازى يفخر بأنه شجاع وبأن زوجته تعلم أنه شجاع فى حالتى الكر والفر ويتجشم المتاعب فى سبيل أمانيه ، وأنه كريم للضيوف ، ويضحى بناقته فى سبيل إكرام ندمائه ، ويضحى بردائه ليعلن عن مروءته .

ومن بواعث الشجاعة عند العرب فى قتالهم أن يحموا نساءهم من السبى والعار ، فلو هربوا عنهن لكان معنى ذلك أن يستبيحهن الأعداء : والشاعر والمرأة كلاهما ينفر من ذلك ، وهى تحرضه ليستميت دفاعاً عنها . مما يدل على خطرها ورفيع منزلتها عند مجتمعها . وإذا وصلت المرأة إلى درجة أن تحمى قومها ، وتحول سير المعركة إلى صالحهم فينتصرون بعد أن كادوا يهزمون ، فقد ساوت الرجال ذوى المكانة السامية فى المجتمع الحجازى . فإن صاحب اللواء فى الحرب ذو رتبة علية ، قد ارتقت إليها بسالة وإعجاب ، عمرة بنت علقمة الحارثية لما أنقذت لواء قريش فى غزوة أحد وحولت النصر إلى جانبهم بعد أن سقط لواؤهم ، وفى ذلك يقول حسان :

فلولا لواء الحارثية أصبحوا   يباعون فى الأسواق بيع الجلائب[1]

والنساء مشاركات حتى فى الحروب ، فهن يسرن مع الجيش يعالجن الجرحى ويحملن الماء ، ويحرضن المقاتلين وفى حروب الرسول نرى منهن أم عمارة بنت كعب وأم حكيم بنت الحارث[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٦ .
(٢) زاد المعاد ٣/١٣١ .

وهذه هند بنت عتبة ، تكاد تتزعم جيش قريش يوم أحـــد ، فهى تحرض قومها وتتمثل :

نحن بنات طارق   تمشى على النمارق
الدر فى المخانق   والمسك فى المفارق
إن تقبلوا نعانق   أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق (١)

وللمرأة تأثير كبير فهى تستشار قبل البت فى أمر زواجها . وطبيعى أنه ليس كل الحجازيين يعمل هذا ، ولكن هناك طبقات تسير على هذا النهج ، ولاسيما إذا أثبتت المرأة كفاءة تمكنها من الاختيار الصائب كما رأينا فى اختيار هند بنت عتبة لأبى سفيان (٢) وكذلك اختارت الخنساء زوجها ورفضت أمية بن أبى الصلت (٣) .

ومن كل ما تقدم نستبين مكانة المرأة فى الحجاز وأنها مكانة سامية تعارف عليها الناس ولم ينكروا على المرأة أن تبلغ هذه المنزلة الرفيعة ، واعترف بها الشعر فأصبحت حقيقة ملموسة ، تدعو إلى الإعجاب الشديد إذا قارنا حالة المرأة فى هذا المجتمع بحالتها عند الأمم السابقة التى كانت ترى فى المرأة مجرد متاع يباع ويشترى ويورث .

وسنتحدث بتفصيل ما عن المرأة الحجازية بوصفها أما وبنتاً وزوجة ، ومدى تأثيرها فى الشعر الحجازى الجاهلى .

(١) الأغانى ١١/ ١٢١ ساسى .
(٢) الأمالى ٢/ ١٤٠ .
(٣) ديوان الخنساء — المقدمة .

— ٢ —

الأم

أما الأم فهى ينبوع الحنان الذى لاينضب وهى المصدر الذى يغذى الكون بالأفراد فتتكون الأسر وتنشأ المجتمعات . وقد أغرم الحجازيون بأن يباهوا بنسبهم ويفخروا بآبائهم وأمهاتهم ولا سيما إذا كانت الأم حرة فحينئذ يستكمل الحجازى الشرف من جهتيه قال الشنفرى :

أنا ابن خيار الحجر بيتاً ومنصباً   وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها[1]

والحرة هى وحدها التى يدفع لها المهر بالزوج ومن هنا جاء الفخر بالمهيرات أى ذوات المهر — فهذه الخنساء ترثى صخراً أخاها فتذكر إلى شرف أبيه وأجداده أن أمه وجداته مهائر ذوات شيم ماجدة :

يا ابن القروم ذوى الحجا   وابن : الخضارمة المرافد
وابن المهائر للمهائر   زانها الشيم المواجد[2]

وذو الأصبع العدوانى يفتخر ويعير ابن عمه بأن أمه أمة ترعى الإبل :

عنى إليك فما أمى براعية   ترعى المخاض ولا رأيى بمغبون

ولما كانت الكثرة عند الحجازيين هى التى ترجح الكفة عند النزال ، فمن الطبيعى أن يفتخروا بالأمهات المنجبات ونعرف من الحجازيات المنجبات عاتكة بنت هلال ابن مرة وقد ولدت هاشماً وعبد شمس والمطلب أبناء عبدمناف وفيها يضرب المثل فيقال : أنجب من عاتكة[3] ولا ينسى الحجازى الفخر بأمه حتى فى المعركة ، فهذا سلمة ابن دريد بن الصمة يفخر بأمه سمادير حين قتل أبا عامر الأشعرى :

إن تسألوا عنى فانى سلمة   ابن سمادير لمن توسمه
أضرب بالسيف رؤس المسلمه

---

(١) الأغانى ٢١/٨٨ .
(٢) ديوان الخنساء ٦٢
(٣) مجمع الامثال ٢ / ٢٧٦ .
(٤) سيرة ابن هشام ٤ / ٨٧ .

ومن مظاهر فخرهم بالأم وإجلالهم لها أن يفدوا بها ، وهم لايفدون إلا بما يحبونه أعظم الحب ، فهذا العباس بن مرداس يمدح حليا النصرى الذى أخذ الثار لأخيه :

فدى لك أمى إذ ظفرت بقتله   وأقسم أبغى عنك أما ولا أبا(١)

وهذا حسان بن ثابت يفدى بأمه وخالته أولئك الذين انتقموا من أعدائه :

فدى لبنى النجار أمى وخالتى   غداة لقوهم بالمثقفة السمر(٢)

والأم أعظم رباط بين الاخوة ولا سيما فى وقت الشدائد كما نرى عند الشنفرى :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم   فإنى إلى قوم سواكم لأميل

ولذلك فهم ينكرون أشد الإنكار هرب الأخ من أخيه فى المعركة قال حسان معيرا الحارث بن هشام فراره عن أخيه الحكم وتركه فى أرض المعركة يوم بدر :

هلا عطفت على ابن أمك إذ ثوى   قعص الأسنة ضائع الأسلاب

ويتضح ذلك أكثر من تلك المراثى الحارة والدموع السخينة التى يذرفها الحجازى على أخيه الشقيق أو أخيه لأمه لأن رابطة الأمومة هى التى توحد بينهما ولا تجعل النسيان يتطرق إلى قلب الحى منهما . فهذا أبو العيال الهذلى يرثى أخاه لأمه عبد بن زهرة فيذكر شجاعته وصبره فى الحرب ويذكر حاله هو إذا عاودته ذكرى أخيه فدمعه ينسكب والليل يأتيه بهم جديد :

ألا لله درك من   فتى قوم إذا رهبوا
وقالوا : من فتى للحرب   يَرْقبنا ويُرْتقب
فكنت فتاهم فيها   إذا يدعى لها يثب
ذكرت أخى فعاودنى   صداع الرأس والوصب

---

(١) الأغانى ١٣ / ٦٦ .

(٢) معجم البلدان ٤ / ٩٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٣٨٦ : قعص الأسنة القتل بها فى سرعة .

فدمع العين من برحاء ما فى الصدر ينسكب
كما أودى بماء الشنة المخروزة السرب
على عبد بن زهرة طول هذا الليل أكتئب[1]

وكان إعزازهم للأم يتبعه فخرهم بالخال واعتزازهم به ، والأخوال يشعرون بميل نحو ابن أختهم وينصرونه إن ظلم ، فعبد المطلب شكا عمه نوفلا إلى رجال قريش فلم يعينوه ، فبعث إلى أخواله بنى النجار فى المدينة يخبرهم أنه ابنهم وأنه منهم وأن عمه نوفلا أراد إذلاله :

أبلغ بنى النجار إن جئتهم ‏ ‏ أنى منهم وابنهم والخميس
وأن عمى نوفلا قد أبى ‏ ‏ إلا التى يغضى عليها الخسيس

فأنقذه أخواله وهددوا عمه حتى أرجع ما اغتصبه فقال عبد المطلب :

بهم رد الإله على رُكْحى ‏ ‏ وكانوا فى التنسب دون قومى

وفى ذلك يقول سمرة بن عمير الكنانى مثنياً على بنى النجار إغاثة ابن أختهم :

لعمرى لأخوالُ شيبة قَصْرَةً ‏ ‏ من أعمامه أبرُّ وأوصل
جزى الله خيراً عصبة خزرجية ‏ ‏ تواصوا على بر وذو البر أفضل
أجابوا على بعد دعاء ابن أختهم ‏ ‏ ولم يثنهم إذ جاوز الحق نوفل

ومنزلة الخال عند الحجازيين رفيعة ، ومكانته سامية . ولهذا فلا يجرؤ أحد على تحقير خال فرد إلا تعرض لعداوته وحربه . وقد تتعرض السعادة الزوجية للتقويض بسبب الخال . . فحسان بن ثابت يحب زوجته وهى تحبه ولكن لسانها زاق مرة فحقرت أخواله ، فكان جزاؤها الطلاق :

سألت حسان من أخواله ‏ ‏ إنما يسأل بالشىء الغَمَر[3]

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١٣٧ .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ / ١٧٨ .
(٣) ديوان حسان ٥٢ . الغمر : قليل التجربة .

— ٣ —

البنت

ليس كل الحجازيين يبغضون البنات . والحجازى يحب البنت لأنها صديقة وفية لا تنسى أباها فى حالتى الرخاء والشدة ، وهى تؤدى حقه بالنوح والبكاء بعد موته كما يقول معن بن أوس :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم ... وفيهن لا تُكْذَبْ نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى ... عوائد لا يمللنه ونوائح[1]

وهذا الزبير بن عبد المطلب يبتهج لمرأى بنته أم الحكم ويغيظ زوجها :

يا حبذا أم الحكم ... كأنها ريم أجم
يا بعلها ماذا يشم ... ساهم فيها فسهم

وكثيراً ما تكون البنت ميمونة النقيبة ، وسبباً من أسباب المفاخر ، فهذا النعمان ابن وائل الكلبى — قائد الحارث بن أبى شمر الغسانى — يغير على بنى ذبيان ويسبى منهم ، وحين وجد من بينهم ابنة النابغة أطلقها وحدها أولا ، ثم أطلق الجميع رجاء مدح من أبيها وهكذا فعل النابغة ، فقد قال يمدح النعمان ، ويذكر الجميل الذى أسداه إلى بنى ذبيان :

يقودهم النعمان منه بمحصف ... وكيد يغم الخارجى مناجد
فآب بأبكار وعون عقائل ... أوانس يحميها امرؤ غير زائد
غرائر لم يلقين بأساء قبلها ... لدى ابن الجلاح ما يثقن بوافد
أصاب بنى غيظ فأضحوا عباده ... وجللها نعمى على غير واحد
فسكنت نفسى بعدما طار روحها ... وألبستنى نعمى ولست بشاهد[3]

---

(١) الأغانى ١٠ / ١٥٧ .
(٢) الأغانى ٢ / ١١٧ .
(٣) شعراء النصرانية ٦٦٨ .

وابنتا ربع الهذلى يعولان على أبيهما لا يرقدان الليل كأن فى أحشاء الواحدة منهن مزماراً ينبعث منه الأنين وهما يلطمان بالنعال كما يقول أخوهما عبد مناف :

ما ذا يفيـد ابنتى ربع عويلها　　لا ترقدان ولا بؤسى لمن رقدا
كلتاهما أبطنت أحشاؤها قصباً　　من بطن حلية لارطباولا نقدا
إذا تأوب نوح قامتا معه　　ضربا أليما بسبت يلعج الجلدا[1]

ومن التصوير الخالد تلك الدموع التى صاغتها قتيلة بنت النضر بن الحارث فى رثاء أخيها ومعاتبة الرسول على قتله له :

يا راكبا إن الأثيل مظنة　　من بطن خامسة وأنت موفق

إلى آخر الأبيات التى ذكرناها فى النماذج الشعرية .

— ٤ —

الزوجة

كانت المرأة الزوجة ذات تأثير فعال لا على شخص زوجها فقط ؛ ولا على أسرتها وأسرته ، وإنما على العلاقات بين قبيلتيهما إذا كانتا متباعدتين ؛ فان الإصهار يربط بينهما برباط وثيق ، ويضيق سبل العداوة ، ولا سيما إذا كان الزوج زعيـما وأسرة زوجته مرموقة المكانة .

وكانوا يختارون للزواج المرأة الحسيبة العاقلة ويفضلون الشابة البكر على الثيب ، فهذا حكيمهم الحارث بن كلدة الثقفى يقول : لا تتزوجوا من النساء إلا الشباب[2] .

وتهمهم طبعاً الزوجة الولود لأن همهم كان الكثرة ليغلبوا أعداءهم .

ولا يقربون المرأة الحمقى وحديثة النعمة ، ويكرهون أن تكون الزوجة عبوساً صخابة ، قال عبد الله بن أوفى الخزاعى فى زوجته :

(١) سمط اللآلى ١/ ٢٢١ .
(٢) مطالع البدور ٢/ ٢٧ .

نكحت ابنة المنتضى نكحة على الكره ضرت ولم تنفع
ولم تغن من فاقة معدماً ولم تجد خيرا ولم تجمع
منجذة مثل كلب الهراش إذا هجع الناس لم تهجع[1]
مفرقة بين جيرانها وما تستطع بينهم تقطع

فهو يندب حظه ويبكى آماله التى كان يعلقها على هذا الزواج نخابت ؛ فزوجته لم تغنه من الفاقة ولم تجلب له الخير ، بل على العكس من ذلك وجدها سليطة اللسان بذيئة تضمر السوء لجيرانها .

وكما كان للرجل أن يتطلب الخصال الحميدة من زوجته ، كان للزوجة نفس الحق أيضاً فهى تريده شاباً . ولهذا نرى الخنساء تعتب على أبيها أن يطلب الزواج من دريد ابن الصمة الهرم وقالت لأخيها معاوية شقيقها وكان يميل إلى هذا الزواج غير المتكافىء :

اتكرهنى — هبلت — على دريد وقد أصفحت سيد آل بدر
معاذ الله يرضعنى حبركى قصير الشبر من جشم بن بكر[2]

وهكذا نراها ترفض الزواج من دريد لهرمه ولأن جشم بن بكر — قبيلته — لا تتناسب مع قبيلتها هى .

وربما أرادت المرأة فوق الشباب أن يكون زوجها غنياً ينفق ما له على لذاته وكرمه والعطر الطيب . قالت بنت ذى الأصبع العدوانى :

ألا ليت قومى من أناس ذوى غنى حديث الشباب طيب الريح والعطر[3]

والخنساء حين ترثى أخاها صخراً تذكر فيه صفات الزوج المثالى فى نظر المرأة آنذاك فهو جميل المحيا شجاع صبور :

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٤/٤٢ ؛ منجذة : مجرب ما عندها . الهراش : تحريش كلب بكلب .

(٢) ديوان الخنساء ص ١٢٠ .

(٣) الاغانى ٣/٤٩ الدار .

جلد جميل المحيا كامل ورع ... وللحروب غداة الروع مسعار
مثل الردينى لم تنفد شبيبته ... كأنه تحت طى البرد أسوار[1]
عبل الذراعين قد تخشى بديهته ... له سلاحان أنياب وأظفار

والمرأة تسأل الرجل عن أصله وأجداده . وهذا أمية ابن الصلت يسارع بالإجابة:

فأما تسألى عنى لبينى ... وعن نسبى أخبرك اليقينا
ثقى أنى النبية أبا وأما ... وأجداداً سموا فى الأقدمينا[2]

والمرأة كما قلنا هى التى تختار ، فحينما خطب سهيل بن عمرو ، وأبو سفيان هند بنت عتبة استشارها أبوها فسألته أن يصف لها أخلاق كل منهما ، وبعد ذلك اختارت أبا سفيان فغضب سهيل وقال :

نبئت هندا تبر الله سعيها ... ثابت وقالت وصف أهوج مائق
فلم تنكحى يا هند مثلى وإننى ... لمن لم يمق فاعلمى غير وامق[3]

وكان مقدار مهر المرأة يرتفع تبعاً لمكانتها وكانوا يميلون إلى التغالى فى المهور ، فهذا عبد المطلب يمهر فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب[4] وهم يرون فى ضخامة المهر دليلا على قوتهم وتمكنهم من السيادة ، فهذا الأبيرد بن هرثمة العذرى يقول: إنه كريم وسمح . والدليل على ذلك أنه يفنى الأعداد الكثيرة من إبله إذ يقدمها مهوراً لزوجاته :

إنى لسمح إذا فرج بينها ... بأكثبة البقار ياأم هاشم
فأفنى صداق المحصنات إفالها ... فلم يبق إلا جلة كالبراعم[5]

وخالد بن جعفر يرى أنه أحسن صنعاً بقتل زهير بن جذيمة ورفع بذلك مهر بنات هوازن :

وجعلت مهر بناتهم ودماءهم ... عقل الملوك هجائنا أبكاراً[6]

---

(١) ديوان الخنساء ص ٨٠ .
(٢) جمهرة أشعار العرب ص ١٨٧ .
(٣) العقد الفريد ٣/٢١٢ .
(٤) إنسان العيون ١/ ٥٠ .
(٥) معجم الشعراء ص ٢٥ .
(٦) الاغانى ١٠/١٤ .

— ٥ —

الحب والزواج

ولقد احتلت الزوجة الحجازية من قلب خطيبها أو زوجها مكاناً ممتازاً فقد يسبق الزواج بالحب وقد يأتي الحب بعد الزواج ويكون حاراً فعالا كما نرى عند زهير.

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم(١)

والزوجة تجد من زوجها صدراً رحيبا، يحسن عشرتها ويكلف بها ولا يقحمها فى مشكلاته العويصة لئلا يفجعها كما قال ذو الأصبع العدوانى:

ثم سلا جارتى وكنتها هل كنت فن أراب أو فزعا

أو دعتانى فلم أجب ولقد تأمن منى خليلتى الفجعا(٢)

ولكن الزوجة قد تقحم نفسها فى تلك المشكلات فهذه زوجة حماس بن قيس يوم فتح مكة تسأله لماذا يسن حربته ولما أخبرها بأنه يعدها لجيش محمد قالت إنه لا شيء يصد محمداً وجيشه، وفعلا حدث ذلك بعد قليل إذ رجع إليها وقال «أغلق على الباب»، ولما أنبته على فراره اعتذر بفرار السادة من قريش وصور لنا فزعهم من سيوف المسلمين:

إنك لو شهدت الخيل يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمنة ولحقتنا بالسيوف المسلمة
يفلقن كل ساعد وجمجمه ضربا فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وغمغمة لم تنطقى باللوم أدنى كلمة(٣)

ومع هذا فالرجل يعلم فى سريرته أنه هو السيد المطاع من زوجته ويريد من زوجته أن تنفذ رغباته فالشنفرى يقول إن زوجته إذا خالفته تكون هى البعل إن لم ينكر عليها عملها:

إذا ما جئت ما أنهاك عنه ولم أنكر عليك فطلقينى
فأنت البعل يومئذ فقومى بسوطك لا أبالى فاضربينى(٤)

(١) شرح القصائد العشر ص ١٠٣ (٢) الأغانى ٣/ ٩٣.
(٣) السيرة ٤/ ٢٦ (٤) محاضرات الادباء ٢/ ١٢٧.

ودريد بن الصمة ينكر على زوجته أن تشتم أخاه ويرى فى هذا تطاولا لا يسوغ منها :

أعيذ الله لو شتمتك عرسى | تساقط لحم بعضى فوق بعضى
معاذ الله أن يشتمن عرضى | وأن يملكن إمرارى ونقضى
إذا عرس الفتى شتمت أخاه | فليس بحامض الرئتين محضى

ومن صور الحب المتبادل بين الزوجين حرص الزوجة على حياة زوجها وتخوفها عليه ونصحها له بأن يرتاد طرق السلامة لئلا يقتل . ولكنه غالباً ما يعصيها ويرجع سالما فيذكرها نصيحتها ويطلب منها أن تكف عن مثل ذلك :

قال عمرو بن براقة الهمدانى :

تقول سليمى لا تعرض لتلفة | وليلك عن ليل الصعاليك نائم

وفى هذا المجتمع المضطرب يقتل الزوج وتحل النكبة بزوجته أو حبيبته . والمرأة الحجازية تعبر عن جزعها لموت زوجها بخمش وجهها وجذ شعرها وقد يصفقن وجوههن وشعورهن بالنعال كما فعلن ذلك على قتلى بدر ، إذ كانت المصيبة كبيرة . يقول عبدمناف ابن ربع الهذلى :

يريع قلب ابنتى ربع عويلهما | لا ترقدان ولا بؤسى لمن رقدا

إلى آخر الأبيات السالفة ، ولكن الخنساء تتصبر ولا تحلق رأسها فضلا عن ضربه بالنعال رغم حزنها الشديد :

ولكنى رأيت الصبر خيرا | من النعلين والرأس الحليق [1]

وترثى الزوجة زوجها كما نرى عند فاطمة بنت الأحجم الخزاعية فهى تبكى وتستبكى لأن زوجها كان يحميها فذهب ، وكان جناحاً يظلها فانكسر ، وأصبحت بعده خاضعة حسيرة الطرف لا تجسر على دفع ظلامها :

يا عين بكى عند كل صباح | جودى بأربعة على الجراح
قد كنت لى جبلا ألوذ بظله | فتركتنى أضحى بأجرد ضاح
قد كنت ذات حمية ما عشت لى | أمشى البراز وكنت أنت جناحى

---

(١) لسان العرب ١١/٣٤٥

فاليوم أخضع للذليل وأتقى ... منه وأدفع ظالمى بالراح
وأغض من بصرى وأعلم أنه ... قد بان حد فوارسى ورماحى
وإذا دعت قرية شجناً لها ... يوماً على فنن دعوت: صباحى [1]

وإذا كنا قد رأينا فيما تقدم الحب المتبادل بين الزوجين وأثره فى الحياة وبعد الموت، فإن هناك من الأزواج من كره الحياة مع زوجته، ورأى أنها ورطة وقع فيها وينبغى أن يخرج منها بأقصى سرعة .

وقد تنفر الزوجة من زوجها وهو لها وامق، فيمنيها ويعدها ويتوسل إليها كما نرى سعيد بن عمرو بن نفيل يتوسل إلى زوجته :

تلك عرساى تنطقان على عمـــدلى اليوم قول زوز وهتر
سألتانى الطلاق أن رأتا مالى قليلا قد جئتمانى بنكر
فلعلى أن يكثر المال عندى ... ويعرى من المغارم ظهرى
وترى أعبدا لنا وإماء ... ومناصيف من خوادم عشر
وتجرا الأذيال فى نعمة زو ... ل تقولان ضع عصاك لدهر [2]

والرجل يؤدب زوجته بالضرة مما يثير غيرتها وخوفها وحرصها على إرضاء زوجها، فهذا شاعر يخشى أن يموت من غير أن ينغص على زوجته بضرة تؤذيها وتشاكسها :

لقد خشيت أن يقوم قابرى ... ولم تمارسك من الضرائر
ذات شذاة جمة الصراصر ... حتى إذا جرس كل طائر
قامت تغطى بك سمع الحاضر ... تصر إصرار العقاب الكاسر

وفى الحجاز نرى كثيراً من هذا حتى فى زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام مما يدل على أن الغيرة شىء كامن فى نفوس النساء عامة .

---

(١) الأمالى ٢/١
(٢) البيان والتبيين ١/١٩٩ .

الطلاق :

وقد عرف الحجازيون — كما عرف العرب — الطلاق الذي يقوض بنيان الزوجية، وقد يحدث لعدة أسباب: فمنها الفقر حيث تسأل الزوجة زوجها أن يطلقها كما رأينا عند سعيد بن عمرو بن نفيل حيث قال :

سألتاني الطلاق أن رأتا مالي قليلا قد جئتماني بنكر

وقد يطلق الزوج زوجته لنوازع قبلية حيث تحتقر الزوجة قبيلة زوجها أو أسرته كما نرى عند حسان بن ثابت إذ طلق زوجته عمرة بنت الصامت الأوسية إذ عيرته بأخواله(١) . وكذلك رأينا ما كان من طلاق دريد بن الصمة زوجته حينما حقرت أخاه عبد الله .

وقد يطلقها لأنها رغبت عنه بعد أن أدركه الكبر إلى غير ذلك .

وكان أهل مكة يطلقون مرة واحدة ثم يرجعون ويطلقون الثانية فيرجعون . أما الثالثة فلا رجعة فيها(٢) . ويجمعون الثلاث دفعة واحدة أحيانا ، فهذا شاعر يهدد زوجته بأن تحسن عشرته وإلا طلقها ثلاثا لا رجعة بعدها :

فإن ترفقي يا هند فالرفق أيمن وإن تخرقي يا هند فالخرق أشأم
فأنت طلاق والطلاق عزيمة ثلاث ومن يخرق أعق وأظلم
فبيني بها إن كنت غير رفيقة وما لامرىء بعد الثلاث مقدم

وقد يكون الطلاق خلعاً بأن تفتدى الزوجة نفسها من زوجها فتدفع كل ما تسلمته من مهر كما فعل عامر بن الظرب مع ابن أخيه زوج بنته فقد رد عليه صداقها وخلعها منه(٣) .

وقد تميزت المرأة العربية بأن لها الحق بأن تكون العصمة بيدها فتطلق الرجل وبأن لها أن تطالب الرجل بالطلاق سواء أكان على بدل أم لم يكن . وهذا حق لم تظفر به امرأة من الأمم التي عاصرت العرب فكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال في

(١) الاغانى ١٤/٣ الدار .
(٢) معجم البلدان ١٣٨/٨
(٣) فتح البارى ٢٤٦/٩ .

الجاهلية وكان طلاقهن أنهن إن كن فى بيت شعر حولن الخباء فإن كان بابه قبل المشرق حولته قبل المغرب وإن كان بابه قبل اليمن حولته قبل الشام . فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتها . ولعل السبب فى هذا المظهر أن الخباء كان عند الساميين ملكا للمرأة وهو عند أهل المدر كالبيت عند أهل الحضر فإذا جاء الرجل ووجد المرأة قد حولت باب خبائها علم أنها قد أعرضت عنه وطلقته . أما الحضريات فكان لهن طريقة أخرى فى الإعلام بالتطليق وذلك أنهن لا يعالجن للرجل طعامه إذا أصبح كما نقل ذلك بعض الباحثين(١) ، وهو يذكر من هؤلاء النسوة سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب ، كانت لاتتزوج إلا وأمرها بيدها فإذا كرهت من زوجها شيئاً تركته ، وأم خارجة عمرة بنت سعد البجلية وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج السلمية . ويستشهد بقول الشنفرى:

إذا ما جئت ما أنهاك عنه ولم أنكر عليك فطلقينى

وكما رأينا زوجتى عمرو بن سعيد بن نفيل تطلبانه الطلاق وزوجة عبد الله بن جدعان ضباعة بنت عامر بن قرط تسأله الطلاق لكبر سنه ، ولأن هشام بن المغيرة المخزومى أغراها بشبابه وماله .

فإذا حدث الطلاق فقد تهيج بالزوجين الذكرى ويندمان أو أحدهما على التسرع .. طلق زهير بن أبى سلمى زوجته أم أوفى بسبب الغيرة ، وتأسف بعد ذلك ، فهو يذكر عهدها ويدعى أنها نسيت عهده ، وهو يطلب إليها أن تحسن القول فيه وألا تتقول عليه ما لم يحدث ، وهو يذكرها بما كان بينهما وما نالت منه :

لعمرك والخطوب مغيرات وفى طول المعاشرة التقالى
لقد باليت مظعن أم أوفى ولكن أم أوفى لا تبالى
فاما إذا ظعنت فلا تقولى لذى صهر أذلت ولم تذالى
أصبت بنى منك ونلت منى من اللذات والحلل الغوالى (٢)

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور الحوفى ص ٢١٣ .

(٢) ديوان زهير ٢٤٢ .

وقد يكون الطلاق بالإكراه كما نرى عند عبد الله بن العجلان فإن والده أرغمه على طلاق هند زوجته ، فقال :

فارقت هندا طائعا ... فندمت عند فراقها
فالعين تذرى دمعها ... كالدر من آماقها
متحلباً فوق الرداء ... يجول من رقراقها

وقال :

فما معول تبكى لفقد أليفها ... إذا ذكرته لا يكف زفيرها
بأغزر منى عبرة إذ رأيتها ... يحث بها قبل الصباح بعيرها(١)

وما زال هذا الشاعر البائس يندفع فى تيار الحزن والأسى حتى قضى نحبه شوقاً إلى زوجته التى فارقها كرهاً .

— ٦ —

الحياة الخلقية

لا جرم أن بين الأخلاق والمجتمع علاقة وثيقة ، فكل منهما مرآة تنعكس عليه صورة الآخر . فبين الأخلاق والمجتمع إذن تجاوب وتفاعل وكلاهما مؤثر ومتأثر فى وقت واحد ، والأخلاق لا يمكن أن تنشأ وتتكون وتنمو وتتطور إلا فى مجتمع ، والمجتمع بدوره رهين فى سيره وتقدمه ، واتجاهه وتحوله بأخلاق الأفراد التى تكيفه بكيفية خاصة ، وتوجهه وجهة معينة ، وربما كانت العلاقة بينهما فى بعض الأحيان التناقض الذى لا معدى عنه ، والصراع الذى يدفع الحياة دفعا قويا .

ولهذا الارتباط الوثيق بينهما آثرنا ألا نتحدث عن الشعر الذى يمثل الحياة الخلقية، فى فصل مستقل بل أدمجناه فى فصل الشعر الاجتماعى . وبذلك تبرز حياتهم الاجتماعية واضحة المعالم بارزة السمات .

---

(١) الاغانى ١٠٤/١٩

وقد سجل الشعر الحجازى حياة الحجازيين الخلقية تسجيلا رائعاً، رسم شجاعتهم وبأسهم، وصور عفتهم وطهرهم وكرمهم ووفاءهم وغير ذلك من خلالهم الحميدة؛ وقد تحدثنا عن شجاعتهم وأثرها فى شعرهم فى فصل «الشعر الحماسى» كما ضربنا مثلا لعفة نسائهم فى قصة الفيطون، وممن سجل افتخاره بعفة قومه وطهرهم عمرو بن الأطنابة الشاعر الخزرجى وذلك إذ يقول:

المانعين من الخنا جاراتهم والحاشدين على طعام النازل

كما أن النابغة الذبيانى وصف ممدوحيه بطيب الحجزات وهى ما يشد على الوسط، يكنى بذلك عن عفتهم ونقاء سريرتهم وذلك حين يقول:

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

وسنتحدث فيما يلى عن ثلاث من أبرز خلالهم وأعظمها أثراً فى حياتهم ومجتمعهم وهى: الكرم، والوفاء، والحلم.

الكرم:

كان الثراء عند الحجازيين — شأنهم شأن العرب جميعاً — وسيلة لا غاية، والمال — فى نظرهم — غاد ورائح؛ ولكن طيب الذكر وحسن الأحدوثة هو الباقى على الدهر وكان من بواعث الكرم لدى أجوادهم وأغنيائهم إقبالهم على الميسر زمن الجدب والقحط لينحروا الجزر للمحتاجين والجائعين. وأحاديث كرمهم وقراهم للضيوف معروفة مشهورة، فكرم عبد المطلب — الذى كان يقرى الأنس والجن والوحش والطير من الصفحات الخالدة —. وكذلك الشأن فى سماحة أزواد الركب ومطاعيم الريح، وعبد الله بن جدعان الذى كان له مناد ينادى بمكة وآخر من فوق دارته المسماح يدعوان الناس ليقبلوا على تناول الفالوذج وغيره من جفانه الواسعة التى كان يأكل منها القائم والراكب لعظمها. وقد أشاد أمية بن أبى الصلت بكرمه فيما أسلفنا له من شعر.

وإذا ضنت السماء بالغيث؛ وشحت النفوس بما عندها، فان الحجازى ينحر جزره ويطعمها لجميع الناس. تقول الخنساء فى رثاء أخيها صخر الذى تسميه بصخر الندى:

وإن صخراً لكافينا وسيدنا … وإن صخراً إذا نشتو النحار

كذلك كان هاشم بن عبد مناف يهشم الخبز لقومه فى السنين الجدباء ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه … ورجال مكة مسنتون عجاف

ولما رثى معية بن الحمام أخاه الحصين أشاد بسماحته وكرمه وذلك إذ يقول :

نعيت حيا الأضياف فى كل شتوة … ومدره حرب إذ تخاف الزلازل

ومن لا ينادى بالهضيمة جاره … إذا أسلم الجار الألف المواكل(١)

ورثى أبو طالب عم النبى ﷺ أبا أمية بن المغيرة أحد أزواد الركب فوصفه بأن داره كانت تجتمع فى ساحتها السمان من النوق والبقر ، وأنها إذا أكلها الضيوف والمعتفون حل محلها غيرها ، ثم يخاطبه مادحاً بقوله :

ضرب بنصل السيف سوق سمانها … إذا عدموا زاداً فانك عاقر

وإلا يكن لحم غريض فإنه … تكب على أفواهن الغرائر(٢)

أما افتخارهم بالكرم ، فكثير ، وحسبنا أن نشير إلى قول الشمخى الفزارى :

ألم تعلمى يا عمرك الله أننى … كريم على حين الكرام قليل

وأنى لا أخزى إذا قيل : مقتر … جواد وأخزى أن يقال بخيل

وقول عمرو بن الأطنابة الخزرجى فى الفخر بقومه الذين يخلطون الفقراء بالأغنياء ، ويبذلون العطاء لكل سائل:

الخالطين فقيرهم بغنيهم … والباذلين عطاءهم للسائل

---

(١) الأمالى ١ — ٦٢ . الألف : العاجز العيى بالأمور .

(٢) كان من عادتهم إذا أرادوا نحر الناقة ، ضربوا ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها. والمعنى أنه كان ينحر النوق وقت العدم والمحل . وإذا لم يكن هناك غريض — أى طرى — من اللحم ، أمر بمدول أو أكياس الدقيق والحنطة وغيرها أن تكب على أفواهها ليصنع منها الطعام الوفير . راجع بلوغ الأرب ١ : ٩٣ .

الوفاء :

وخلة الوفاء من السجايا العربية الأصيلة فى العربى عامة ، والحجازى خاصة . وقد كان الرجل ينطق الكلمة . فإذا هى عهد مبرم يجب أن يفى به ، وإلا تعرض شرفه للتجريح والثلم . وقد كان الحجازيون يوثقون عهودهم الجماعية بالله وبالدم ، وبالماء والطيب ، وكانوا يتمسحون بالكعبة لتثبيتها وتوكيدها وكان الغدر بالعهد والميثاق مخزاة تثلم الشرف ، ومعرة يجب اجتنابها . وكانت العرب ترفع لواء فى سوق عكاظ تشهيراً بالغادر الناكث للعهد .

ولما أحست قريش بخطر حرب الفجار — وكانت العرب ، كعادتها فى المواسم ، قد أودعت أسلحتها لدى عبد الله بن جدعان — طلبت إليه أن يسلمها الأسلحة المودعة لتدافع بها عن كيانها ، ولكنه أبى أن يفرط فى الأمانة حتى ولو كان السبب الذياد عن حياض الوطن . . وكفاهم مؤونة الأمر بأن أسهم مع المسهمين فى تزويدهم بأكبر قسط من العتاد والأسلحة .

وكان الحجازيون يفون بالعهد حتى لو طرأ ما يوجب النقض ، فقد كان البراض ابن قيس الكنانى سكيراً فاسقاً تبرأ منه قومه وخلعوه . ثم شرب فى بنى الدئل فخلعوه أيضاً ، فاستجار بحرب بن أمية فأجاره وأحسن جواره ، ولكنه شرب بمكة وأتى ما يستوجب التبرؤ منه ، وأحس هو بأن ما ارتكبه خليق أن يخلعه ، فقال لحرب : « إنك إن خلعتنى لم ينظر إلى أحد بعدك ، فدعنى على حلفك فأنا خارج عنك » ثم تركه وخرج ولحق بالنعمان ابن المنذر بالحيرة .

ولقد ضرب العرب المثل فى الوفاء بالسموءل ، وهو من أصل يهودى ولكنه نبت فى بيئة عربية حجازية ، فاستقى هو وأبوه هذه الخلة الحميدة من أخلاق العرب والحجازيين . وكان الشاعر امرؤ القيس قد أودعه مائة درع ، فأتاه الحارث بن ظالم أو الحارث الغسانى ، ليأخذها منه فتحصن منه فأخذ الحارث ابناً له غلاماً وكان فى الصيد فقال : « إما أن سلمت الأدراع إلى . وإما أن قتلت ابنك » فأبى السموءل أن يسلم إليه الأدراع ، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين . وفى ذلك يقول السموأل :

وفيتُ بذمة الكندى إنى ... إذ ما ذم أقوام وفيت
وأوصى عاديا يوما بألا ... تهدم يا سمو أل ما بنيتُ
بنى لى عاديا حصنا حصينا ... وماء كلما شئت استقيت

وما أروع وقائم لذلك العهد الذى ضربته بنو قصى على نفسها ، وهو ألا يظلم بمكة قريب ولا غريب فى الحلف الذى سمى بحلف الفضول . . وقد أوردنا فى باب الحياة السياسية ، والشعر السياسى طرفاً من أنبائه . ويروى فى سبب هذا الحلف أن رجلا من بنى زبيد قدم مكة معتمراً فى الجاهلية ومعه تجارة له فاشتراها منه العاصى بن وائل السلمى ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عنه حقه . ثم تغيب فابتغى الزبيدى متاعه فلم يقدر عليه فجاء إلى بنى سهم يستعديهم عليه ، فعرف أن لا سبيل إلى ماله ، فطوف فى قبائل قريش يستعين بهم فتخاذلت القبائل عنه ، وانتهره الأحلاف: عبد الدار ومخزوم ، وجمح ، وسهم ، وعدى ، وكعب . فلما رأى الزبيدى الشر ، أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس وقد أخذت قريش مجالسها حول الكعبة فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا آل فهر وبين الحجر والحجر
أقائم من بنى سهم بذمتهم ... أم ذاهب فى ضلال مال معتمر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وحلف ليعقدن حلفا بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوى من ظلم الضعيف والقاطن من ظلم الغريب وقال :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم ... وإن كنا جميعا أهل دار

وعقد الحلف كما سبق أن وصفنا فى دار ابن جدعان ، وفيه يقول الزبير ابن عبد المطلب :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتر فيهم سالم

(١) ذكرنا هذه الابيات فى فصل الشعر السياسى ص ٤٤٤ فلتراجع هناك .

الحـلم :

إن طبيعة الصحراء الملتهبة قد جعلت العرب أدنى إلى الطيش وسرعة الانفعال، ولكن بعض المجربين منهم والطاعنين فى السن اتصفوا بالحلم وطول الأناة ومن الشعراء الحجازيين الذين صوروا الحلم تصويراً رائعاً ذو الأصبع العدوانى وذلك فى مثل قوله :

ولى ابن عم على ما كان من خلق — مختلفان فأقليه ويقلينى
فإن ترد عرض الدنيا بمنقصتى — فإن ذلك مما ليس يشجينى
ولا ترى فى غير الصبر منقصة — وما سواه فإن الله يكفينى

على أنه سرعان ما يبدو التناقض بين هـذا التحلم ، وبين الوعيد والتهديد بالقتل فى القصيدة ذاتها :

ياعمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى — أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

ولمعن بن أوس قصيدة فى الحلم تحكى فلسفته فى الصداقة والحياة ، فهو يصور حال صديقه الذى بادره بالإساءة وأصر على قطيعته ، وأمعن فى سوء معاملته ولم يجد معه أناته وحلمه وصفحه ، حتى لكأن فى نفسه داء قديماً لا يشفيه إلا الإساءة إلى صديقه .

عجباً لهذه الحياة صديق صدوق ثابت على الود يبذل ماله فى سبيل أخيه يحارب من حاربوه ، ويصفح عما رأى منه ويغفر الزلة إثر الزلة ، ومع ذلك يصر هذا الأخ على الجفوة ، والثلب ، والقطيعة ، والحقد وإنزال الضر بصاحبه . إن حال هذا الرجل حال إنسان يمشى فى الدنيا بلا يمين :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل — على أينا تعدو المنية أول
وإنى أخوك الدائم العهد لم أخن — إن ابزاك خصم أو نبا بك منزل
أحارب من حاربت من ذى عداوة — وأحبس مالى إن غرمت فأعقل
وإن سؤتنى يوماً صفحت إلى غد — ليعقب يوماً منك آخر مقبل
كأنك تشفى منك داء مساءتى — وسخطى ، وما فى ريبتى ما تعجل
وإنى على أشياء منك تريبنى — قديماً لذو صفح على ذاك مجمل
ستقطع فى الدنيا إذا ماقطعتنى — يمينك فانظر أى كف تبدل ؟
وفى الناس إن رثت حبالك واصل — وفى الأرض عن دار القلى متحول (١)

(١) الحماسة ٢ : ٧. ابزاه : بطش به وغلبه.

— ٧ —

العادات الاجتماعية

أما العادات الاجتماعية فكثيرة ، ولا يمكننا الإحاطة بها . وقد اثبتت في[1] تضاعيف هذا الكتاب صور منها . وحسبنا أن نشير هنا إلى بعضها كالخمر والميسر .

الخمر :

كان الحجازيون في الجاهلية — كالعرب عامة — مولعين بشرب الخمر لتزيدهم شجاعة وجرأة ، وحماسة وحميّة في الحرب ، وليتنقلوا بها إلى عالم خيالي ملىء بالصور المبهجة والأحلام الجميلة فراراً من الواقع المر . وقد عبر حسّان بن ثابت عن هذين الباعثين تعبيراً جميلا واضحاً وذلك إذ يقول :

ونشربُها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما يُنهنهنا اللقاء

وقد أولع بشربها الحضر والبدو على السواء واشتهرت الطائف منذ عهد بعيد بكرومها حتى إن بيادر الزبيب بها كانت تبدو كأنها الجرار وكان بها حانات كثيرة ، وقد تمادى الثقفيون في شرب الخمر حتى بعد أن حرمها الإسلام ومنهم أبو محجن الثقفي الذى اشتهر بها اشتهاراً جعله يتطلب إلى صاحبه أن يدفنه في أصل كرمة تروّي جذورها عظامه ، حتى يستمتع بها حياً وميتاً .

إذا مِتُّ فادفنى إلى أصل كرمة تُروِّى عظامى فى التراب عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة فإننى أخاف إذا ما مت ألاّ أذوقها

كذلك كان أهل يثرب يستخرجون الخمر من التمر والبسر ، وكان اليهود يحملون إليها خمور الشام والطائف للتجارة ، وكثرت الخمر بها قال أنس : « إنها جرت فى سكك المدينة حين حُرِّمت » .

ويبدو أن مجالس الخمر كانت كثيراً ما يُمزج فيها بالغناء ؛ فهذا عمرو بن الأطنابة يفتخر باحتساء الخمر ، والاستمتاع بسماع القيان العازفات عا

---

(١) الاغانى ٩ : ٨٧ ط دار الكتب .

الدفوف ، ذكر صاحب الأغانى أنه دعا بشرابه وقيانه فغنين له قوله فى رثاء خالد بن جعفر لما قتله الحارث بن ظالم :

عللانى وعللا صاحبيا　　　واسقيانى من المروق ريا
إن فينا القيان يعزفن بالدف　　　ف لفتياننا وعيشاً رخيا

وربما امتدت مجالس الغناء والشراب حتى أعقاب الليل ، قال كعب بن الأشرف:

ولنا بئر رواء جمة　　　من يردها بإناء يغترف
ونخيل فى قلاع جمة　　　تخرج التمر كأمثال الأكف
وصرير فى مجال خلة　　　آخر الليل أهازيج بدف(١)

* * *

على أن طائفة من عقلاء العرب قد حرموا(٢) الخمر فى الجاهلية تكرما وصيانة لأنفسهم. ومن الحجازيين من آلوا على أنفسهم ألا يشربوها ومنهم عامر بن الظرب الذى يقول فى وصفها :

سآلة للفتى ما ليس فى يده　　　ذهابة بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أسقيها و أشربها　　　حتى يفرق ترب القبر أوصالى
تورث القوم أضغانا بلا إحن　　　مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى

ومنهم صفوان بن أمية الكنانى الذى أقسم على نفسه ألا يشربها طيلة حياته ، ولا يشفى بها سقيما أبداً وذلك حيث يقول :

رأيت الخمر صالحة وفيها　　　مناقب تفسد الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتى　　　ولا أشفى بها أبداً سقيماً

---

(١) [طبق]ات الشعراء ، لابن سلام . الصرير : الصياح . والخلة : الخمر .
(٢٠

وقد ذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه «ما من أحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء مما فيها من الدنس. ولقد عابها ابن جدعان قبل موته فقال:

شربت الخمر حتى قال قومي ... ألست عن السفاه بمستفيق
وحتى ما أوسد في مبيت ... أنام به سوى الترب السحيق
وحتى أغلق الحانوت رهني ... وآنست الهوان من الصديق

وكان سبب تركه الخمر أن أمية بن أبي الصلت شرب معه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب، فقال له: ما بال عينك؟ فسكت. فلما ألح عليه قال له: أنت صاحبها أصبتها البارحة. فقال: أو بلغ مني الشراب الحد الذي أبلغ معه من جليسي هذا؟ لا جرم لأدينها لك ديتين، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وقال: «الخمر على حرام أن أذوقها أبداً»، وترك من يومئذ[1].

وذكر ابن قتيبة أن كثيرا من أصحاب رسول الله ﷺ حرموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جناياتها. وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما شرب أبو بكر خمرا في جاهلية ولا إسلام»، وقال عثمان رضي الله عنه: «ما تغنيت ولا تمنيت ولا شربت خمراً في جاهلية ولا إسلام[2]».

وربما حرموا الخمر تحريما مؤقتا فتجافوا عنها وعن النساء والطيب وذلك حين يملأ قلوبهم الموتورة الحقد على الأعداء، وطلب الثأر والانتقام. قال قيس بن الخطيم:

ومنا الذي آلى ثلاثين ليلة ... عن الخمر حتى زاركم بالكتائب
ولما هبطنا الحرث قال أميرنا ... حرام علينا الخمر ما لم نحارب
فسامحه منا رجال أعزة ... فما برحوا حتى أحلت لشارب

ويبدو أن الخمر أم اللذائذ التي كانوا يصدون أنفسهم عنها حتى يثأروا.

---

(١) الأغاني: (٨: ٣٢٢ دار الكتب).
(٢) الأشربة ٢٧.

قال دريد بن الصمة :

شلت يمينى ولم أشرب معتقة إن أخطأ الموت أسماء بن زنباع

وقال تأبط شرا :

حلت الخمر وكانت حراما وبلأى ما ألمت تحل
فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخل(١)

المیسر :

وكان من عادة الحجازيين لعب الميسر ، ولا سيما وقت الشدة والجدب ، ومن طرقهم فى المياسرة أن يجتمع عشرة من اللاعبين ويحضروا جزوراً يضمنون ثمنا لصاحبها ، ويدفع الثمن بعد المياسرة الغارمون وحدهم ، وتجعل القداح العشرة فى خريطة وتجال وتحرك فيها ، ثم يخرج الحرضة أول قدح باسم أحدهم على ترتيب لا نعلمه — فربما كان بحسب جلوسهم أو أسنانهم أو تراضيهم — ويكون هذا القدح هو نصيبه ، فإن كان رابحا عرف مقدار ربحه وبقى القدح خارج الخريطة لا يعاد إليها . ثم يخرج قدحا باسم الثانى ويعرف مقدار ربحه وهكذا العشرة .

وكل رابح يأخذ ما خرج له ، والثلاثة الذين تخرج لهم القداح التى لا نصيب لها هم الذين يغرمون ثمن الجزور فيقسم عليهم أثلاثا(٢) .

وكان بعض اللاعبين يأخذ ما بقى من القداح ويقول للأيسار قد تممتكم إن لم يحضر من يتمم الأيسار وبذلك يفتخر النابغة فيقول :

إنى أتمم أيسارى وأمنحهم مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأدما(٣)

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ٢ : ١٦٠ . خل : ضعيف هزيل .
(٢) بلوغ الأرب ٣ : ٦٥ .
(٣) مثنى الأيادى : أن يأخذ القسم مرة بعد مرة أو هى الأنصباء التى كانت تبقى من الجزور فى الميسر فيشتريها ويعطيها .

النسيء :

ومن عاداتهم النسيء وقد مر الحديث عنه في « الحياة الاجتماعية » ويروى أن أول من نسأ الشهور على العرب هو سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، ثم من بعده ابن أخيه القلمس وهو عدي بن عامر بن ثعلبة ، ثم صار النسيء في ولده إلى آخرهم وهو أبو ثمامة جنادة بن عوف . ويروى ابن هشام أن القلمس هو أول ناسيء وفي صبح الأعشى أول من نسأ النسيء عمرو بن لحي وهو أبو خزاعة ، ولقد أكثر الشعراء من بني كنانة الافتخار بالنسأة من ذلك قول بعضهم : — ومنا ناسيء الشهر القلمس — وقال غيره :

نسئوا الشهور بها وكانوا أهلها — من قبلكم والعز لم يتحول

وقال عمير بن قيس جذل الطعان الكناني :

لقد علمت معد أن قومي — كرام الناس إن لهم كراما
فأي الناس فاتونا بوتر — وأي الناس لم نعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معد — شهور الحل نجعلها حراما ؟!

الفصل الرابع

الشعر الديني

تمهيد :

يرى الدكتور طه حسين أن الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الدينى القوى ، والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس ، والمسيطرة على الحياة العملية . وإنه من العجيب حقا أن يعجز الشعر الجاهلى كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين(١) ، على حين يرى نيكلسون أن قدراً كبيراً من الأحاسيس الدينية قد تمثل فى الشعر الجاهلى . فماذا عسى أن تكون الحقيقة بين هذين الرأيين المتناقضين أشد التناقض ؟

الواقع أن كثيرا من الشعر الجاهلى قد ضاع فى تلافيف الزمن واختفى فى مجاهله ولم يسلم لنا منه إلا القليل . قال أبو عمرو بن العلاء : (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير(٢)) . ومع ذلك فإن الباحث يجد أن هذا القليل قد تحدث فيما تحدث عنه ، عن ديانات العرب ومعتقداتهم ومشاعرهم الدينية وإذن فأحد الأسباب لقلة المأثور من الشعر الدينى هو ضياع كثير من الشعر الجاهلى .

أما ثانى الأسباب فهو إغضاؤهم عن رواية هذا الشعر الذى يتصل بالوثنية ورعاً وتقية بعد أن دخل الإسلام فى قلوبهم ، وحرصا على عدم نبش الماضى الذى يصور أفن الفكر وضعف العقل ويثير الضغائن فى النفوس . ثم إن الذين اعتنقوا اليهودية والنصرانية فى الجاهلية قد ترفعوا ، وتجافوا عن شعرهم الوثنى ، على أن هذا التحرج ذو أهمية نسبية لأنه لم يكن عاما ، ثم هو موقوت بظروفه

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٨٠ بتصرف .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٧ .

الإسلام الأولى إبان معركته ضد الشرك بدليل أن الرواة قد نقلوا لنا جملة صالحة من هذا الشعر وحفظوها .

وثمت سبب ثالث وهو أن كثيراً من الجاهليين وبخاصة الشعراء ، لم يكونوا يحفلون بالنزعة الدينية ؛ بل كانوا متحللين منها فى كثير من الأحيان . يقول بروكلمان: « ولم تكن الصلة بين القبيلة عند العرب وبين آلهتها وثيقة جداً كما كانت الصلة عند بنى إسرائيل مثلا بين يهوه وشعبه »(١) .

ويتفق نيكلسون مع بروكلمان فى هذا الرأى ، فيقول : (كان تأثير الدين على حياة العرب قبل الإسلام ضئيلا ، حتى لا نتوقع تأثيراً كبيراً له فى شعرهم . والعربى لم يكن يولى الدين اهتماما كبيراً ، كان تقديره لدينه يقتصر على مزاياه العملية ، وإذا غضضنا النظر عن الشهوات ، فقد كان العربى البدوى يجد فى الدين راحة وأمنا خلال الأشهر الأربعة المقدسة التى يمنع فيها الحرب ، فى حين كان موسم الحج فى مكة يمكنه من الاشتراك فى احتفال وطنى)(٢) .

هذا إلى ضعف الوثنية ذاتها فى أخريات العصر الجاهلى ، إذ صارت عبادة الأوثان عادة أكثر منها عقيدة . قال أبو رجاء العطاردى :

« كنا نعبد الحجر فى الجاهلية فإذا وجدنا حجر أحسن منه نلقى ذاك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ، ثم جئنا فحلبنا عليه ، ثم طفنا به(٣) » .

هذه طائفة من الأسباب الجوهرية التى تضافرت على قلة الشعر الدينى ، ومع ذلك فإن ما سلم من أيدى الضياع من هذا الشعر يمثل إلى حد ما حياة العرب الدينية سواء كانت وثنية أو غير وثنية .

أما مسألة الشك فى الشعر الدينى فقد تعرضنا لمناقشتها فى باب سابق ، وخاصة شعر أمية بن أبى الصلت الذى سنتحدث بعد قليل عن بعض دلائل الوضع والاختلاق فى قصصه الدينى وقصائده فى الكونيات ، وسنتناول بالدرس فى هذا شعر الوثنية والتوحيد .

---

(١) العرب والامبراطورية العربية ص ٢٦ .

(٢) A Literoyra Hitstory of The Arabs p, 135 .

(٣) بلوغ الأرب ٢ / ٢٢٧ .

— ١ —

الأصنام والشعر

كان الحجازيون — كالعرب عامة — يقسمون بأصنامهم. وقد جرى ذلك على ألسنة شعرائهم فأقسم عبد العزى بن وديعة المزني بمناة :

إني حلفت يمين صدق برة   بمناة عند محل آل الخزرج

وكانت قريش قد حمت لها شعبا من وادى حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة، فذاك قول أبي جندب الهذلي في امرأة كان يهواها :

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة   بفرع التي أحمت فروع سقام

لئن أنت لم ترسل ثيابي فانطلق   أباديك أخرى عيشنا بكلام

يعز عليه صرم أم حويرث   فأمسى يروم الأمر كل مرام

وحلف الشنفرى الأزدي بأثواب الأقيصر وهو صنم كان يعبد في الجاهلية :

وان امرأ أجار عمراً ورهطه   على — وأثواب الأقيصر — يعنف[١]

كما كان الحجازيون يطوفون بالأنصاب، ويسمون الذبائح لها عتائر والمذبح الذي تذبح فيه العتر. قال زهير بن أبي سلمى :

فزل عنها وأوفى رأس مرقبة   كمنصب العتر دمى رأسه النسك

ونافح بعض الحجازيين عن أصنامهم حماية لها من التدمير وكافحوا دونها حتى قتلوا، كما حدث لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وأسلمت العرب وكان في القادمين جرير بن عبد الله الذي جاء مسلماً، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى فوجهه إليه، فخرج حتى أتى بني أحمس من بجيلة، فسار بهم إليه فقاتلت خثعم وباهلة دونه، فقتل من سدنته من باهلة

(١) كان الأقيصر صنم قضاعة ولخم وجذام وغطفان، وكانوا يحجون إليه ويحلقون رءوسهم عنده ويلقون مع الشعر قره من دقيق. وقد ذكر اسمه في شعر لزهير بن أبي سلمى وللربيع بن ضبع الفزاري وللشنفرى كما رأيت.

يومئذ مائة رجل ، وأكثر القتل فى خثعم ، وقتل مائتين من بنى قحافة بن عامر بن خثعم ، فظفر بهم وهزمهم ، وهدم بنيان ذى الخلصة وأضرم فيه النار فاحترق ، فقالت امرأة من خثعم :

وبنو أمامة بالولية صرعوا ثملا يعالج كلهم أنبوبا
جاءوا لبيضتهم فلاقوا دونها أسداً تقب لدى السيوف قبوبا
قسم المذلة بين نسوة خثعم فتيان أحمس قسمة تشعيباً(١)

وربما طلبوا إلى الأصنام أن تدرأ عن نفسها الشر والضر فى شك مرير كما حدث حينما بعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بعد فتح مكة إلى العزى لهدمها ، فلما سمع صاحبها السلمى بمسيرة خالد إليها علق عليها سيفه وهرب فى الجبل الذى هى فيه ، وهو يقول :

أيا عز شدى شدة لا شوى لها على خالد ، ألقى القناع وشمرى
أيا عز إن لم تقتلى المرء خالدا فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

وقد ذكرنا فيما سبق أن قريشاً كانت تتعبد لصنم اسمه ود ، ونزيد هنا أن اسم « ود » ورد فى النصوص المعينة ، وفى النصوص الثمودية . وفى أحد هذه النصوص الثمودية كتابة معناها : « أموت على دين ود » وفى هذا دليل على مدى انتشار عبادته فى جزيرة العرب(٢) . وورددت كلمة « ود » تحية فى الكتابات الثمودية فى الغالب ، والتحية صلة بفكرة ود إلهاً ولا شك . وقد وردت اسماً للإله فى النصوص اللحيانية . وبمعنى التحية وردت كلمة « ود » فى هذا البيت الذى ينسب لنابغة بنى ذبيان :

حياك ود فإنا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد عزما

وكان الحجازيون — كالعرب — يستقسمون عند الأصنام بالأزلام ، وهى القداح يستشيرونها للسفر أو الغزو أو التجارة ، أو أى أمر يهمهم وهى ثلاث

---

(١) الولية : اسم موضع . ثملا : جمع ثملة وهى الحب والسويق . الانبوب : الرمح . تقب : تصخب وتقعقع أنيابها .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ص ١٢٦ .

قطع مكتوب على أحدها : نهانى ربى ، وعلى الثانى : أمرنى ربى ، وأما الثالث فغفل ، فإن خرج الآمر مضى لطيته ، وإن خرج الناهى أمسك ، وإن خرج الثالث أجالها.

وكان لهبل فيما يرى المؤرخون سبعة قداح يضرب بها على الميت والعذرة والنكاح وكان قربانه مائة بعير ، وكان له حاجب . وكانوا إذا جاءوا هبل بالقربان ضربوا بالقداح وقالوا :

إنا اختلفنا فهب السراحا ثلاثة يا هبل فصاحا
الميت والعذرة والنكاحا والمبرىء المريض والصحاحا
إن لم تقله فمر القداحا

* * *

أما الثورة على الأصنام والأوثان ، فنجدها لدى الحنفاء الذين وصلوا بعد طول التأمل والتدبر إلى اعتبارها أوهاماً باطلة ، وخزعبلات فاسدة لا تليق بالعقل الحصيف. وقد أسلفنا الحديث عن بعض هؤلاء الحنفاء ، وسنورد أطرافاً من الأشعار التى تكشف عن عقيدتهم وسماتها حين نتحدث عن شعر « التوحيد » فى الجاهلية .

ونكتفى هنا بتسجيل بعض الأخبار التى تدل على الانفعال العنيف ، والغضب الشديد ، والتحرر الثائر ، مما اتسمت به ثورة بعض الحجازيين ضد تلك الآلهة الفارغة والأباطيل الشاخصة .

فقد كان لمالك وملكان ابنى كنانة بساحل جدة صنم يقال له « سعد » ، وكان صخرة طويلة . فأقبل رجل من بنى ملكان بإبل مؤبلة ، ليقفها عليه ابتغاء بركته فيما يزعم ، فلما أدناها منه ورأته وكان يراق عليه الدماء نفرت منه ، فذهب فى كل وجه فغضب ربها فتناول حجرا فرماه به ، وقال : « لا بارك الله فيك إلهاً أنفرت على إبلى » ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ثم انصرف وهو يقول :

أتينا إلى « سعد » ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعو لغي ولا رشد[1]

ومما يدل على عدم اكتراثهم بعقيدتهم الوثنية ، ذلك التناقض الذي يشعرون به حين يعبدون الأصنام التي يلتمسون بعبادتها أن تقربهم زلفى إلى الله في الوقت الذي يرون فيه تلك الأصنام لا تدفع عن نفسها الضر والأذى فقد كان عادي بن عبدالعزى سادنا لصنم لبني سليم فبينا هو عنده إذ أقبل ثعلبان يشتدان فبالا على الصنم ، فقال :

أرب يبول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذل من بالت عليه الثعالب[2]

بل لقد روى أن عمرو بن حبيب من محارب بن فهر قد أكل إله بكر ، وذلك أن « بكراً » كان لهم سقب يعبد ، يعبدونه من دون الله تعالى ، فأغار عليهم عمرو فأخذه وأكله ، وسمي لذلك آكل السقب[3] .

- ٢ -

التوحيد والشعر

الله :

ورد لفظ الجلالة في الأشعار المنسوبة إلى الجاهليين ، وهو اسم الإله في الإسلام. فهل عرف الجاهليون هذا الاسم ونطقوا به حقاً ؟ أو هو لم يكن معروفاً لديهم ، وإنما شاع وعرف لنزول الوحي به .

لقد ذهب « ولهاوزن » إلى أن رواة الشعر وحملته في الإسلام هم الذين أدخلوا اسم الجلالة في هذا الشعر ، وذلك بأن حذفوا منه أسماء الأصنام ، وأحلوا محلها اسم الله . فما جاء فيه اسم « اللات » حل محله اسم « الله » . ولكن ليس في أيدينا دليل محسوس ينص

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي . ٢ : ٢٠٨ .

(٢) يراد بالرب هنا الصنم . وهو مثل يضرب للشيء يستذل .

(٣) جمهرة الأنساب ١٦٩ ، وابن سعد ٥ : ٢٣٦ ، السقب ولد الناقة .

على وجود مثل هذا التغيير والتبديل . ثم إن « اللات » لم يكن صنم جميع العرب ، فلم خص « اللات » بالقسم فى الشعر مثلا دون سائر الأصنام ؟ ثم إن إدخال لفظ « الله » فى مواضع أسماء الأصنام الأخرى لا يمكن أن يستقيم دائماً ، فلا بد أن يؤثر إدخاله على وزن الشعر ؟ فكيف عولج الميزان ؟ وكيف صحح الشعر ؟

أما « ولهوزن » فيرى أن عدم ورود أسماء الأصنام فى الشعر الجاهلى إلا فى النادر ، ليس بسبب تغيير الرواة الإسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام وإنما سببه هو أدب الجاهليين وعادتهم فى عدم الإسراف والاسفاف فى ذكر الآلهة خاصة ، وذلك على سبيل التأدب تجاه الأرباب ، فاستعاضوا عن الصنم بلفظة « الله » التى لم تكن تعنى إلهاً معيناً ، وإنما تعنى ما تعنيه كلمة رب وإله . ومن هنا كثر استعمالها فى القسم وفى التمنى أو التشفى وأمثال ذلك من حالات .

فمن المستشرقين من يرى أن الكلمة عربية أصيلة ، ومنهم من يرى أنها من إلاها Aiaha ، ومعناها « الاله » بلغة بنى إرم . أما الذين قالوا بعربيتها ، فيرون أنها من « اللات » . واللات اسم صنم ، تحرف وتولد منه هذا الاسم .

بيد أن ورود هذا الاسم فى الشعر الجاهلى يفيد أن الجاهليين كانوا يعتقدون بوجود إله واحد أعلى ، خلق هذا الكون ، وبيده تدبيره وهو الذى ينزل المطر ويحيى الأرض بعد موتها ، ولذلك توجهوا إليه وأقسموا به . ولهذا الرأى سند فى القرآن الكريم ؛ ففيه أن قريشاً كانت تعترف بأن الله هو رب السماوات والأرض : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل : الله . قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . قل : هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم . قل : الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار[1] » .

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٥ : ٤١٨ — ٤٢٢ .

أما جوهر الخلاف بين النبي (ص) وبين العرب ، فهو أنهم يشوبون إيمانهم وتوحيدهم بالشرك ، لاعتقادهم أن تلك الأصنام تقربهم إلى الله زلفى ، ويدل على ذلك قوله تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

واستعمال الجاهليين لاسم الجلالة ، يشير إلى أنهم كانوا ينظرون إليه نظرة المسلمين ، أى أنه كان اسم علم خاص بالجلالة ، فهو مقابل « يهوه » عند العبرانيين . ومنا هنا عبر عنه بإله واحد ، واحد ، وهو اسم مفرد ليس له جمع ، لأنه إله واحد . أما لفظة « إله » فإنها تعبر عن مفرد له جمع ، هو « آلهة » والإله فى مقابل « إيلوهيم Elohim » عند العبرانيين .

* * *

وسنعرض فيما يلى لبعض مظاهر التوحيد فى شعر الحجازيين .

القسم بالله :

كان الحجازيون كالعرب — يقسمون بالله — قال ذو الأصبع العدوانى :

والله لو كرهت كفى مصاحبتى لقلت إذ كرهت قربى لها بينى

وقال زهير :

فو الله إنا والأحاليف هؤلا لفى حقبة أظفارها لم تقلم

وقالوا فى قسمهم : تالله ولعمر الله . قال الشاعر :

تالله ذا قسما لقد علمت ذبيان عام الحبس والأصر

وقال :

تعلما لعمر الله ذا قسما فاقصد بذرعك وانظر أين تنسلك؟

ويرى النابغة أن القسم بالله ما بعده قسم :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وحلفوا برب الكعبة . قال النابغة أيضاً :

فلا ، لعمر الذى مسحت كعبته وما هريق على الأنصاب من جسد
ما قلت من سيء مما أتيت به إذن ، فلا رفعت سوطى إلى يدى

وحلفوا بالكعبة ذاتها لصلتها بالله قال زهير :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

قدرة الله :

وأسندو إلى الله تعالى النفع والضرر والثواب والعقاب ، واعتقدوا أنه هو المعطى وهو المانع وعنده جزاء الصالحات . قال أبو قيس بن الأسلت حين أجارت الأوس مخلد بن الصامت الساعدى :

أجرت مخلدا ودفعت عنه وعند الله صالح ما أتيت

والله هو المعين على إحراز النصر . قال أبو قيس بن الأسلت أيضاً :

وأحرزنا المغانم واستبحنا حمى الأعداء والله المعين

وهو القابض الباسط الذى يعلم السر والجهر . قال ذو الأصبع العدوانى يشكو من ابن عمه :

إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها إن كان أغناك عنى سوف يغنينى
الله يعلمكم والله يعلمنى والله يجزيكم عنى ويجزينى

وهو الذى يبدع الجمال ويمنحه لمن يشاء . قال قيس بن الخطيم متغزلا :

قضى لها الله حين صورها الـ ـخالق ألا يكنها سدف

وهو الذى يجزى على البر والإحسان ، قالت هند بنت الخس تمدح القلمس وكان سيدا حكيما ينسىء الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها :

إذا الله جازى منعما بوفائه فجازاك عنى يا قلمس بالكرم

وقال زهير :

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

علام الغيوب :

واستأثر الله بعلم الغيب ، وهم بشر لا حيلة لهم فى هتك الحجب واستشفاف ماوراء الواقع المحسوس ، قال أحيحة بن الجلاح :

وما يدرى الفقير متى غناه | وما يدرى الغنى متى يعيل ؟
وما تدرى وإن ألقحتَ شولاً | أتلقحُ بعد ذلك أم تحيل
وما تدرى إذا ذمّرتَ سقْبا | لغيرك أم يكون لك الفصيل ؟
وما تدرى وإن جمّعت أمراً | بأى الأرض يدركك المقيل[1] ؟

والله هو الذى يعلم السر وما تكنه الصدور ، قال زهير :

ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة | وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمنّ الله ما فى نفوسكم | ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

الإيمان بالبعث :

وآمن بعض الحجازيين بالبعث ويوم القيامة حيث تجزى كل نفس بما عملت إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر قال زهير بعد البيتين السابقين :

يؤخر فيوضعْ فى كتاب فيدخر | ليوم الحساب أو يُعجّل فيُنقم

وقال أمية بن أبى الصلت يذكر البعث والحشر والحساب والميزان :

ويوم موعدهم أن يُحشروا زمرا | يوم التغابن إذ لا ينفع الحذرُ
وأبرزوا بصعيد مستو جُرُز | وأنزل العرش والميزان والزُبُرُ

— ٣ —

حادثة الفيل

ومن الحوادث التى أثرت تأثيراً عميقاً فى نفوس الحجازيين حادثة الفيل ، ولهذه الحادثة سمة سياسية وأخرى دينية . وقد تحدثنا عن الأولى فى فصل « الشعر السياسى » وسنتناول هنا السمة الثانية .

---

(١) يعيل : يفتقر . الشول : الناقة التى تطلب اللقاح : ذمر : حبس السقب : ولد الناقة .

يؤكد الجاحظ حادثة الفيل كما ذكرها القرآن الكريم ، ويسوق الحجج فى صرف الله الفيل ، بالطير الأبابيل ، وصد أبى يكسوم عن البيت الحرام ، فقد أنزل الله سورة الفيل ، وقريش يومئذ مجلبون فى الرد على النبى ﷺ وما شىء أحب إليهم من أن يروا له سقطة أو عثرة أو كذبة ، أو بعض ما يتعلق به مثلهم ، فلولا أنه أذكرهم أمراً لا يتدافعونه ، ولا يستطيع العدو إنكاره ، للذى يرى من إطباق الجميع عليه ، لوجدوا أكبر المقال فى تكذيبه والتشنيع عليه .

وقد كان بين ثقيف وقريش لقرب الدار و المصاهرة ، والتشابه فى الثروة ، والمشاكلة فى المجاورة تحاسد وتنافر . وقد كان هنالك فيهم الموالى والحلفاء والقطان والنازلة ومن يحج فى كل عام . وكان البيت مزورا على وجه الدهر يأتونه رجالا وركبانا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، وبشق الأنفس كما قال الله تعالى : « فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم » . وكانوا بقرب سوق عكاظ وذى المجاز وهما سوقان معروفان . وما زالتا قائمتين حتى جاء الإسلام فلا يجوز أن يكون السالب والمسلوب والمفتخر به والمفتخر عليه والحاسد والمحسود والمتدين به والمنكر له ، مع اختلاف الطبائع وكثرة العلل يجمعون كلهم على قبول هذه الآية وتصديق هذه السورة . وكلهم مطبق على عداوة النبى ﷺ والكفر به .

والحلون من العرب ممن كان لا يرى للحرم ولا للشهر الحرام حرمة طىء كلها وخثعم كلها وكثير من أحياء قضاعة ويشكر والحارث بن كعب وهؤلاء كلهم أعداء فى الدين والنسب .

هذا مع ما كان فى العرب من النصارى الذين يخالفون دين مشركى العرب كل الخلاف ، كتغلب ، وشيبان ، وعبد القيس وغيرهم خلطاء وأعداء ، يغارون ويسبون ، ويسبى منهم . وفيهم الثؤور والأوتار والطوائل . وهى العرب وألسنتها الحداد وأشعارها التى إنما هى مياسم ، وهممها البعيدة وطلبها للطوائل . وذمّها لكل دقيق وجليل من الحسن والقبيح فى الأشعار والأرجاز والأسجاع والمزدوج والمنثور . فهل سمعنا بأحد من جميع هؤلاء الذين ذكرنا أنكر شأن الفيل ، أو عرض فيه بحرف واحد ؟ !

ويستشهد الجاحظ على إثبات حادثة الفيل بأشعار شعراء من غير قريش أوحلفائها كربيعة بن أبي الصلت . وهو ثقفي طائفي ، وهو جاهلي ؛ وثقيف يومئذ أضداد بالبلدة والمال والحدائق والجنان ، وبهم اللاتُ والغبغب ، وبيت له سدنة يضاهون بذلك قريشاً ، وهو مع اجتماع هذه الأسباب التي توجب الحسد والمنافسة :

إنّ آيات ربنـــا بيناتٌ ... ما يمـارى فيهن إلا الكفورُ
حَبسَ الفيـل بالمغمس حتى ... ظل يحبو كـأنه معقـورُ
واضعاً حلقة الجران كما قُـطّـ ... ـرَ صخرٌ من كبكب محدورُ (١)

وقد فسر الإمام محمد عبـده الطير الأبابيل بأنها الرياح المتجمعة حملت إليهم ميكروب الجدرى ففتك بهم وأن الحجارة من السجيل هي ذرات التراب التي حملت الميكروب وقد رد على ذلك الأستاذ محمد الطيب النجار ، ونقضه بقوله : « إنه لم يعهد في لغة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبابيل أي جماعات من الطير ولا ينبغى أن يقال ذلك إلا بطريق مجازى بعيد ، ولا يصح أن يُلجأ إلى مثل هذا المجاز ما دامت الحقيقة غير مستحيلة على قدرة الله ولا يقبل أيضاً أن يقال ذرات التراب إنها حجارة من سجيل أي من طين مطبوخ وهو الآجر .

وإذا كانت الريح قد حملت ميكروب الجدرى فلماذا هلك الأحباش وحدهم ؟ ولم يهلك معهم العرب ؟

وإذا كـان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول ﷺ فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول في وقت كـان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم وبعضهم من أعداء الرسول فلو لم تـكن الطيور طيورا حقيقة والحجارة حجارة حقيقة لظهر من العرب من يسارع إلى تـكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على

(١) وتنسب الأبيات كذلك إلى أمية بن أبي الصلت . الجران : باطن عنق البعير . قطر : ألقى على جانبه . وكبكب جبل خلف عرفات . راجع الحيوان ٧ : ٢١٥ — ٢١٧ ، ١٩٨ .

رؤوس الأشهاد وينتهزها فرصة فى الكيد لمحمد والطعن عليه ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لا شك فيها ولا يجرؤ أحد على إنكارها .

* * *

وقد هز ذلك الخطر الداهم الذى كان موشكا أن يجتاح مكة وأهلها نفوس الشعراء والزعماء ، وعلى رأس هؤلاء عبد المطلب بن هاشم الذى توجه إلى الله مع نفر من قريش وراح يهتف بهذا الشعر وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهمّ إن المرء يمنـــع رحله فامنـع حلالك
لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم أبدا محالك
إن كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمر ما بدا لك
فلئن فعلت فإنه أمر يتم به فعالك
اسمع بأرجس ما أرا دوا العدوّ وانتهكوا حلالك
جروا جميع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلاً وما رقبوا جلالك

وممن هزتهم حادثة الفيل فتفتقت قرائحهم بالشعر ، عبد الله بن الزبعرى الذى يقول :

تنكلوا عن بطن مكة إنها كانت قديما لا يرام حريمها
لا تخلق الشعرى ليالى حرمت إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم والله من فوق العباد يقيمها

---

(١) من وحى البلد الأمين ص ١٤ — ١٥ .

— ٤ —

مكانة الحرم والشعائر الدينية

كان للحرم مكانة قدسية لدى العرب منذ عهد بعيد ، فكانوا لاينفرون صيد الحرم ولا يؤذونه وينسبون لعمرو بن مضاض الجرهمي أنه قال :

فسحت دموع العين تبكى لبلدة بها حرم أمن وفيها المشاعر
وتبكى لبيت ليس يؤذى حمامه تظل به أمنا وفيه العصافر
وفيه وحوش لاترال أبية إذا خرجت منه فليست تغادر

وقال النابغة الذبيانى :

والمؤمن العائذات الطير تمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

وكانوا يحرمون غزو الحرم والقتال فيه وشاهد ذلك قول حرب بن امية لأبى مطر الحضرمى يدعوه إلى حلفه ونزول مكة :

أبا مطر هلم إلى صلاح فتكنف كالندامى من قريش
وتأمن وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هديت لخير عيش
وتسكن بلدة عزت قديما وتأمن أن يزورك رب جيش

وكانوا يكرهون الظلم فى الحرم ونسبوا لرجل من جرهم أنه قال لعمرو بن لحى لما ظلم بمكة .

ياعمرو لاتظلم بمكة إنها بلد حرام

ونسبوا لسبيعة بنت الأجب بن زبينة ، وهى تنهى ابنها خالد بن عبد مناف عن الظلم فى الحرم ، وتعظم حرمة مكة قولها :

ابنى لاتظلم بمكة لا الكبير ولا الصغير
واحفظ محارمها ولا يغررك بالله الغرور
أبنى من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور
أبنى يضرب وجهه ويلح بخديه السعير
أبنى قد جربتها فوجدت ظالمها يبور

والله أمنها وما بنيت بعرصتها قصور
والله أمن طيرها والعصم تأمن فى ثبير

ولقد كان اجتناب الظلم فى الحرم شريعة عامة ، وقاعدة مرسومة لا يحيدون عنها . ومن النادر حدوث اعتداء على النفس أو المال فيه كما آذى مشركو قريش زيد بن عمرو بن نفيل فى مكة لما اطرح عبادة الأصنام كراهة أن يفسد عليهم دينهم فقال وهو يعظم حرمته على من استحل منه ما استحل من قومه :

لا هم إنى محرم لا حله وإن بيتى أوسط المحلة
عند الصفا ليس بذى مضله

وكانوا إذا أحرموا كرهوا تسريح الشعر وقتل القمل : قال أمية بن أبى الصلت:

مساجى أيا طلهم يتزعوا تفثا ولم يسلوا لهم قملا وصئبانا(١)

وكانوا يهللون ويلبون فى الحج يدل على ذلك قول نبيه بن الحجاج :

إننى والذى يحج له شم ط إياد وهللوا تهليلا
ومبيتاً بذى المجاز ثلاثا ومتى كان حجنا تحليلا

وبعض تلبيات العرب فى الجاهلية مسجوع كقولهم : لبيك ربنا لبيك ، والخير كله بيديك . وبعضها موزون كقولهم وهو من منهوك الرجز :

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
إلا شريك هو لك تملكه وما ملك
أخو بنات بفدك

وفدك قرية حجازية قديمة وكان بها فى الجاهلية أصنام .

وإذا أرادت بجيلة التلبية (وهى قبيلة حجازية) قالت :

لبيك عن بجيله الفخمة الرجيلة
ونعمت القبيلة جاءتك بالوسيله
تؤمل الفضيلة

(١) التفث الوسخ .

وكانوا فى الجاهلية يطوفون فى الحج بالبيت الحرام، قال مضاض بن عمرو ابن الحارث الجرهمى:

ونحن ولينا البيت من بعد نابت   فطوف بذاك البيت والخير حاضر

وكان بعض العرب يطوف بالبيت مكشوف السوأة فى غير الحج لغرض يقصده فقد مرض أبو جندب وهو شاعر جاهلى — وكان له جار من خزاعة اسمه خاطم فقتله زهير اللحيانى وقتلوا امرأته، فلما برىء أبو جندب من مرضه خرج من أهله حتى قدم مكة فاستلم الركن وكشف عن استه وطاف فعرف الناس أنه يريد شراً فقال:

إنى امرؤ أبكى على جاريه   أبكى على الكعبى والكعبية
ولو هلكت بكيا عليه   كانا مكان الثوب من حقويه

فلما فرغ من طوافه وقضى من مكة حاجته خرج فى الخلعاء من بكر وخزاعة فاستجاشهم على بنى لحيان فخرجوا معه حتى صبح بهم بنى لحيان فى العرج فقتل فيهم وسبى من نسائهم وذراريهم (١).

اللقا : وكان من عادة العرب ألا يطوف أحد بالبيت إلا عريانا — ماعدا الحمس فإنهم كانوا يطوفون وعليهم الثياب وكان إذا حدث أن طاف الرجل أو المرأة من غير الحمس فى ثيابه فإنه يجىء بتلك الثياب التى طاف بها ويطرحها «لقى» حول البيت فلا يمسها أحد ولا يحركها حتى تبلى من وطء الأقدام ومن الشمس والرياح والمطر. وقد ذكر ورقة بن نوفل «اللقاء» فى بعض ما أثر عنه، وذلك إذ يقول:

كفى حزناً كرى عليه كأنه   لقى بين أيدى الطائفين حريم

نذر الأبناء للكعبة :

وربما نذروا أبناءهم لخدمة الكعبة. ومن ذلك ماروى أن امرأة من جرهم تزوجها أخزم بن العاص، وكانت عاقراً فنذرت إن رزقت غلاماً أن تصدق به على الكعبة يخدمها ويقوم عليها، فولدت من أخزم «الغوث». وتصدقت

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١١٣ طبعة مكة .

به عليها ، فكان يخدمها فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، وولى الإجازة بالناس لمكانه من الكعبة ، وقالت أمه حين أتمت نذرها :

إنى جعلت رب من بنيه ربيطة بمكة العليا (١)
فبارك لى بها إليه واجعله لى من صالح البريه

— ٥ —

وكما تحدث الشعر الحجازى عن الوثنية والتوحيد ، أشار كذلك إلى اليهودية والنصرانية وعبادة الجن والشجر وغيرها.

شعائر اليهود والنصارى :

وترددت فى أشعار بعض الحجازيين شعائر اليهود والنصارى . فقد وصف مزرد بن ضرار الذبيانى البيضة والحلق المتصل بها الذى يطرح على الظهر لستر العنق ، فقال إن بيضة يمنية سلسلة ملساء لينة تنزلق الحجاره عنها ، وشبه لمعانها فى شعاع الشمس بمصابيح الرهبان تلمع :

وتسبغه فى تركه حميرية دلامصة ترفض عنها الجنادل
كأن شعاع الشمس فى حجراتها مصابيح رهبان زهتها القنادل (٢)

كما أن النابغة الذبيانى ذكر فى شعره يوم الشعانين وأشار إلى الصليب والمجلة وذلك فى قوله :

ظلت أقاطيع أنعام مؤبلة لدى صليب على الزوراء منصوب (٣)

وقوله :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

(١) أخبار مكة ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) تسبغة : زرد مشتبك الحلقات متصل بالبيضة يطرح على الظهر لستر العنق . تركة بيضاء مستديرة . دلامصة : سلسلة لينة . حجرات : جوانب .

(٣) الأقاطيع : جمع قطيع وهو الطائفة من الغنم . المؤبلة : التى تتخذ للقنية فلا تركب.

وفى شعر أمية تعبير من صميم المسيحية لايزال حيا يتردد صداه حتى الآن وهو قوله :

مجدوا الله وهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرا

عبادة الجن والشجر :

وبعض العرب عبد الجن ، وهذا أمية بن أبى الصلت يسجل هذه العبادة ويتبرأ منها ، ويتوجه برجائه خالصا لله ربه :

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجائيا

ومنهم من عبد الشجر فقد اعتقدوا أن العزى شيطانة كانت « تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة » وفى فتح مكة أمر النبى ﷺ خالد بن الوليد أن يعضدها ، فعضد الأولى والثانية فلم ير شيئاً ؛ فأمره النبى أن يعضد الثالثة فأتاها ، فإذا بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها ، وخلفها دبية بن حرمى الشيبانى — وكان سادنها — فلما نظر إلى خالد قال بيتين ذكرناهما سابقاً .

فقال خالد : يا عز كفرانك لا سبحانك ، إنى رأيت الله قد أهانك . ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هى حممة ثم عضد الشجرة وقتل دبية السادن .

وبعض الحجازيين كان دهريا لا يؤمن بالبعث والجزاء . قال شداد ابن الأسود بن عبد شمس يرثى كفار قريش يوم بدر :

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟

— ٦ —

القصص الدينى

ويتميز الشعر الحجازى الجاهلى بالقصص الدينى ، ورائد هذا اللون الذى كاد يختص به هو أمية بن أبى الصلت . ويمكن أن نقسم قصص أمية الدينى من حيث قيمته الفنية ، وتأثره بالقرآن أو عدم تأثره إلى الألوان الآتية :

(ا) لون يبدو أنه لم يتأثر فيه بالقرآن الكريم ، والراجح أنه نظمه قبل الإسلام وتظهر فيه قوة الأداء كخرافة تطويق الحمامة التى كانت سببا فى نجاة سفينة نوح أو دلت من بها على اليابسة وهى التى يقول فيها :

وأرسلت الحمامة بعد سبع تزل على المهالك لا تهاب
فجاءت بعد ما ركدت بقطف على الثأط والطين الكثاب[1]
فلما فتشوا الآيات صاغوا لها طوقا كما عقد السخاب[2]
إذا ماتت تورثه بنيها وإن تقتل فليس له استلاب
جزى الله الأجل المرء نوحا جزاء البر ليس له كذاب
بما حملت سفينته وأنجت غداة أتاهم الموت القلاب[3]
وفيها من أرومته عيال لديه لا الظماء ولا السغاب

ومثلها فى القوة وعدم الاستعانة بالقرآن قصيدته فى « فزعة الهدهد » وستقرؤها فى ترجمته .

(ب) ولون آخر يبدو فيه الحشو والتفكك والابتذال وسوء المحاكاة كقصته فى الذبيح حين هم إبراهيم بذبح ولده ففداه الله بذبح عظيم . وفيها يقول :

أبنى إنى نذرتك لله شحيطا فاصبر فدا لك خالى

---

(١) الثأط : الحمأ . والكثاب : الأسود .

(٢) السخاب ككتاب : عقد من قرنفل أو غيره لا جوهر فيه .

(٣) الموت القلاب : الناشىء من داء فى القلب .

فأجاب الغلام أن قال فيه　　كل شيء لله غير انتحال
أبني إني جزيتك بالله　　تقيا به على كل حال

وستأتي في ترجمته، وكذلك تصويره لقصة مريم، فمحاكاته فيها للقرآن بينة وفيها حشو وفضول كثير.

(ج) ولون وسط، لا تبدو فيه كلفة المحاكاة للقرآن كقوله في خراب (سدوم) مدينة قوم لوط:

ثم لوط أخو سدوم أتاها　　إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا　　قد نهيناك أن تقيم قراها

إلى آخر القصيدة التي ستأتي فيما بعد.

ويتجلى في قصصه الديني عامة، وحدة الموضوع، وانسياق المعاني في الغالب، مع الضعف الفني في بعض الأحيان، وذلك لصعوبة النظم في الموضوعات الدينية.

ونحب أن نشير إلى أن كثيراً من القصص الديني الوارد عن شاعرنا أمية هو من القصص الموضوع ألفه الوضاعون، ولا يستبعد الدكتور جواد على أن يكون هذا القصص قد ظهر في أيام الحجاج عصبية وتقربا إليه[1] فكلاهما ثقفي.

وقصيدة أمية في عيسى بن مريم وحمل أمه به، وكثير من قصائده الأخرى، تجد عليها المسحة الإسلامية بارزة ظاهرة، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من القول بوجود أبيات قد تكون من نظم أمية حقا، في هذا المنظوم الديني. غير أن هذا الموجود، هو على كل حال مما لا يتعارض مع عقائد الإسلام. ومن الممكن إدراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره، وبهذه الطريقة نتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين[2].

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج إلى دليل، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً. فالقصيدة التي مطلعها:

لك الحمد والمن رب العبا　　د أنت المليك وأنت الحكم

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٣٨٠.
(٢) المرجع نفسه ٥ : ٣٩٣.

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعر لم يؤمن بالإسلام إيمانا عميقا من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلا :

محمد أرسله بالهدى فعاش غنيا ولم يهتضم

ثم الأبيات الآتية فيها :

أطيعوا الرسول عباد الإلا ه تنجون من شر يوم ألم
تنجون من ظلمات العذاب ومن حر نار على من ظلم
دعانا النبي به خاتم فمن لم يجبه أسر الندم
نبي هدى صادق طيب رحيم رءوف بوصل الرحم
يموت كما مات من قد مضى يرد إلى الله بارى النسم

اقرأ هذه المنظومة ، ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع أن تقول إنه كان شاعراً مغاضباً للرسول ، وأن صاحبه رثى كفار قريش ، وأنه قال ما قال في الإسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا . فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الإيمان ، وهو واعظ ومبشر ، ، يخاطب قومه فيدعوهم إلى الإسلام وإلى طاعة الله والرسول . انه مؤمن قلبا ولسانا ، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، وأنه مات وهو على كفره وعناده وحسده الرسول . ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول[1] .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٣٩٠ — ٣٩٢ .

— ٧ —

معتقدات الحجازيين

ولم يبق بعد ذلك إلا أن نتحدث عن معتقداتهم الخرافية أو أوهامهم . وهى فى جوهرها معتقدات العرب عامة وأوهامها . وسنشير إلى أمثلة منها دون محاولة الاستقصاء :

الغول :

فى الميثولوجيا العربية يبدو للباحث كثرة الحديث عن الجن ، ومن أصناف الجن عندهم السعالى والغيلان ، ويطلق الغول على « كل شىء من الجن يعرض للسفار ويتلون فى ضروب الصور والثياب ذكراً كان أو أنثى ، إلا أن الأكثر على أنه أنثى والسعلاة اسم لواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السفار . قالوا : وإنما هذا منها على العبث ، أو لعلها تفزع إنسانا فيتغير عقله » .

وزعموا أن خلق الغول كالانسان ، ولكن رجليها رجلا حمار . ولا يزال أهل مكة يتحدثون عن « الدجيرة » وهى فى سماتها كالغول فرجلاها رجلا حمار إلا أن وجهها وجه امرأة . وهى لا تسير إلا ليلا ، وإذا سارت تنطلق من خطواتها وسوسة الخلاخيل ، وربما حملت على ذراعيها طفلا ملفوفا فإذا ما قابلها رجل فى الطريق أظهرت أنها تنوء بحمل ذلك الطفل ثم تستنجد بالرجل فيحمله عنها ويسيران ، ورويداً رويداً يشعر الرجل أن الطفل يكبر حجمه ويطول . . ويطول . . فيخاف . . ويرتعد . . وربما أغمى عليه أو عراه الجنون ، وربما قذف بالطفل وفر هاربا بين قهقهات « الدجيرة » وسخريتها :

وكان الحجازيون — كالعرب — يزعمون أن الغول تموت بضربة واحدة ، وإذا ضربت ضربة أخرى قبل أن تموت فلا تموت . وفى هذا يصف تأبط شراً معركة بينه وبين الغول : —

ألا من مبلغ فتيان فهم بما لاقيت عند رحا بطان
بأنى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان

فقلت لها : كلانا نضو أرض ... أخو سفر ، نخلى لى مكانى
فشدت شدة نحوى فأهوت ... لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلادهش ، فخرت ... صريعا لليدين وللجران
فقالت ثن . قلت لها : رويدا ... مكانك إننى ثبت الجنان
ولم أنفك مضطجعا لديها ... لأنظر مصبحا ماذا دهانى
إذا عينان فى رأس دقيق ... كرأس الهرمشقوق اللسان
وساق مخدج ولسان كلب ... وثوب من عباء أو شنان[1]

وتنسب إلى تأبط شرا أبيات أخر وصف فيها لقاءه للغول وأنه عن نفسه وطلبها بضعها ، فلما أبت جللها بسيفه الصارم :

فأصبحت الغول لى جارة ... فيا جارتا لك ما أهولا
فطالبتها بضعها فالتوت ... فكان من الرأى أن تقتلا
فجللتها مرهفا صارما ... أبان المرافق والمفصلا

التطير :

شاع فى العرب زجر الطير والوحش وإثارتها . قال ابن دريد : أهل نجد كانوا يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بالبارح . وأهل العالية على عكسهم . وقال أبو جعفر النحاس : السانح عند أهل الحجاز ما أتى من اليمين إلى اليسار ، والبارح عندهم ما أتى من اليسار إلى اليمين . وهم يتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح ، وأهل نجد بالضد من ذلك ، والسانح عند أهل نجد هو البارح عند أهل الحجاز[2] .

---

(١) بلوغ الارب ٢ : ٣٤٢ : الصحصحان : المكان المستوى . وجران البعير : مقدمة عنقه . المخدج : الناقص . الشنان : جمع شن وهو القربة الخلقة .
(٢) العمدة ٢ : ٢٠٣ ، والاغانى ٩ : ١٥٧ ساسى .

وليس فى الأرض شىء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه ، ولعل ذلك راجع إلى لونه وإلى حمله أو اسمه الذى اشتقت منه الغرابة والاغتراب والغريب.

ومن الشعراء الحجازيين الذين تشاءموا بنعيق الغراب زهير بن أبى سلمى حيث توجس أن يرتحل عنه الأحبة :

ألق فراقهم فى المقلتين قـذى ... أمسى بذاك غراب البين قد نعقا

وكذلك فعل النابغة :

زعم العوازل أن رحلتنا غدا ... وبذاك تنعاب الغراب الأسود[1]

على أن بعض الشعراء اطرحوا التطير جانبا ومضوا لسبيلهم فظفروا وغنموا . روى أن النابغة خرج هو وزبان بن منظور الفزارى للغزو ، فسقطت جرادة على النابغة فتطير وعاد ، وأما زبان فمضى فظفر وغنم ، فقال :

تعلم أنه لا طير إلا ... على متطير ، وهى الثبور
بلى ! شىء يوافق بعض شىء ... أحايينا ، وباطله كثير

شيطان الشعر :

وكانوا يعتقدون أن لكل شاعر شيطانا يلهمه الشعر ، قال حسان فى جاهليته يعزو إلى شيطانه أنه قائل بعض شعره :

إذا ما ترعرع فينا الغلام ... فما إن يقال له : من هوه
إذا لم يسد قبل شد الإزار ... فذلك فينا الذى لا هـوه
ولى صاحب من بنى الشيصبان ... فطوراً أقول ، وطوراً هوه

العقر على القبور :

وكانوا يعقرون على قبر الميت إعظاما له ، وتكريما وإعلانا عن فضله ، وقيل لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت ، فكأنهم يثأرون لهم منها ، أو لأن الإبل أنفس أموالهم ، فكانوا يريدون بعقرها أنها قد هانت عليهم لعظام المصيبة .

(١) الاغانى ٩ : ١٥٧ ساسى .

وقد مر حسان بن ثابت أو غيره على قبر ربيعة بن مكدم الفارس الحجازى الجهير فقال :

نفرت قلوصى عن حجارة حرة ... بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفرى ياناق منه ، فإنه ... شريب خمر ، مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمه ... لتركتها تحبو على العرقوب

الهامة والصدى :

وهذه خرافة مبعثها ولو عهم بالثأر ، وأى تحريض على الثأر أقوى من زعمهم أن القتيل الذى لم يؤخذ بثأره يخرج من هامته طائر يسمى الهامة ، فلا يزال يقول : اسقونى اسقونى ، حتى يقتل قاتله فيسكن .

يقول المسعودى : « إن من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط فى الجسم ، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم ، وهو أبداً مستوحش ، ويسكن فى الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور ، وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده ، فتخبره به [1] » .

قال شداد بن الأسود بن عبد شمس فى رثاء كفار قريش يوم بدر :
يخبرنا الرسول بأن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام
وقال ذو الأصبع العدوانى مهدداً ابن عمه المبغض له :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى ... أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

أما الصدى فمن معانيه أنه طائر يخرج من رأس القتيل إذا بلى ، كما يزعم العرب ، ويظهر أنهم أطلقوه على غير القتيل فيما بعد .

---

(١) الامالى ١ : ١٢٩ ، ومروج الذهب ١ : ٢٥١ والحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٣٩ - ٤٠٠ .

تعليق الحلى على اللديغ :

وكانوا يجعلون الحلى فى يد الملدوغ ويحركونها لئلا ينام فيدب فيه السم ، وقيل لبعض الأعراب : أتريدون أن يسهر ؟ فقال : إن الحلى لا تسهر ، ولكنها سنة ورثناها. أو لأنهم زعموا أن حلى الذهب تبرئه ، وحلى الرصاص أو الرصاص يميته .

وقال بعض بنى عذرة يشبه أثر اللوعة فى نفسه بالسليم المحلى :

كأنى سليم ناله كلم حية ترى حوله حلى النساء موضعا

وقال النابغة :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع
تسهد من نوم العشاء سليمها لحلى النساء فى يديه قعاقع

كى السليم ليصح الأجرب :

ومن عجيب أوهامهم كى السليم ليصح الأجرب ، فقد كانوا كما قال الجاحظ : إذا أصاب إبلهم العر كووا السليم ليدفعه عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم(١) .

قال النابغة يشبه ما وقع عليه من ظلم بهذا الفعل الجائر :

وكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع

والراجح أن هذا مثل لا حقيقة، أو أنهم كانوا يكوون الصحيح لئلا يتعلق به الداء .

ضرب الثور لتشرب البقر :

وكانوا إذا عافت البقر الشرب لعدم العطش أو كدر الماء — يضربون الثور حتى يرد الماء فتتبعه البقر فتشرب . وعجب النابغة من أن يعاقب على ذنب لم يرتكبه ،

---

(١) الحيوان للجاحظ ١ : ١٧ طبعة هارون .

مشبها حاله بحال الثور المجنى عليه ، يضرب لأن البقر لا ترد الماء :

أتترك معشرا قتلوا هذيلا ... وتعقبنى بما فعلت جذام
كذلك يضرب الثور المعنى ... إذا ما عافت البقر الحيام

الاستمطار بالأبقار المحروقة :

كان الحجازيون كالعرب إذا أصابهم الجدب طلبوا السقيا واستمطروا بالأبقار يصعدون بها فى جبل وعر ثم يربطون السلع والعشر بأذنابها ، ثم يضرمون فيها النار ويضجون بالدعاء . وقد سجل أمية بن أبى الصلت خرافة السقيا بالأبقار المحروقة فقال :

سنة أزمة تخيل بالناس ... ترى للعضاه فيها صريرا
إذ يسقون بالدقيق وكانوا ... قبل لا يأكل شيئا فطيرا
ويسوقون باقر السهل للطود ... مهازيل خشية أن يبورا
عاقدين النيران فى شكر الأذناب ... عمدا كيما تهيج البحورا
فاشتوت كلها فهاج عليهم ... ثم هاجت إلى صبير صبيرا
فرآها الإله ترشم بالقطر ... وأمسى جنابهم ممطورا
فسقاها نشاطه واكف النبت ... منه إذا وادعوه الكبيرا
سلع ما ومثله عشر ما ... عائل ما وعالت البيقورا (١)

وقيل فى تعليل ذلك « أنهم كانوا يتفاءلون بالنار طلبا للبرق ، أو أنهم كانوا يحاكون عبادة قديمة تقرب الأبقار قربانا للآلهة » .

---

(١) تخيل بالناس : تفزعهم . العضاه : جمع عضاهة أعظم الشجر أو الخمط أو كل ذى شوك . باقر وبيقور : البقر . شكر الاذناب : جمع شكير الشعر فى الذيل . الصبير : السحابة البيضاء أو المكثيفة . منه : بالغ الغاية . عائل : مثقل أو كاف ونافع . عال : أثقل . ويروى غال بمعنى أهلك .

الفصل الخامس

الشعر الغزلى

معنى الغزل :

إذا رجعنا إلى أمهات كتب اللغة وجدنا أن الغزل والنسيب والتشبيب كلمات مترادفات : فابن سيده يقول : إن الغزل تحديث الفتيان الجوارى ، والتغزل : تكلف ذلك . والنسيب : التغزل بهن فى الشعر ، والتشبيب مثله .

وابن منظور يقول : إن الغزل حديث الفتيان والفتيات واللهو مع النساء . ومغازلتهن : محادثتهن ومراودتهن . والتغزل : التكلف لذلك . ونسب بالنساء ينسب نسبا ونسيبا ومنسبة : شبب بهن فى الشعر وتغزل . وشبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب . وهو يشبب بها أى ينسب بها . ويقول الزبيدى مثل ذلك[1] .

هذا هو رأى طائفة من أكبر علماء اللغة . فما رأى الأدباء ومؤرخى الأدب قديماً وحديثاً ، يرى ابن سلام — وهو فى طليعة الباحثين فى الأدب — أن الكلمات الثلاث متحدة المعنى فهو يقول : « كان لكثير فى التشبيب نصيب وافر وجميل مقدم عليه فى النسيب » . فالنسيب والتشبيب فى هذه العبارة مترادفان . ومرة أخرى يقول : « وكان عمر يصرح بالغزل ولا يهجو ولا يمدح وكان عبيد الله يشبب ولا يصرح ، ولم يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر »[2] . فالغزل والتشبيب هنا بمعنى واحد ، ويستخلص من ذلك أن الغزل والنسيب والتشبيب فى رأى ابن سلام كلمات مترادفات

---

(١) المخصص ٤/٥٤ — ٥٥ ، ولسان العرب وتاج العروس مادة شبب ونسب وغزل .
(٢) طبقات فحول الشعراء ، تحقيق شاكر ص ٤٦١ ، ٥٣٠ .

واستعمل صاحب الأغانى أبو الفرج الأصفهانى الغزل دالا على النسيب فى مواضع شتى من كتابه، وكذلك استعمل الجاحظ الغزل والتشبيب بمعنى واحد.

ويرى ابن رشيق أن التغزل والنسيب والتشبيب كلها بمعنى واحد وأن الغزل إلف النساء والتخلق بما يوافقهن، وقد اقتفى أثر قدامة فى أن الغزل غير التغزل. إلا أن الدكتور الحوفى لا يميل إلى التفرقة بين الغزل والتغزل، لأن التغزل ليس تكلف الغزل كما قد يتبادر، ذلك أن التاء هنا كالتاء فى مصادر أخرى مثل التقدم والترقى والتعلم. وقد حاول بعض القدماء أن يفرقوا بين هذه الكلمات. ومن هؤلاء التبريزى الذى يرى «أن النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف هواها به، وليس هو الغزل. وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن والنسيب ذكر ذلك [1]». وهذا الرأى مخالف لآراء الأدباء واللغويين من قبل.

أما فى العصر الحاضر فقد حاول المرحوم محمد هاشم عطية أن يصنع شيئاً يشبه أن يكون تحديداً لهذه الكلمات فقال: «ويترجح عندنا أن الغزل هو الاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن والعبث بذلك فى الكلام وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة: وأما التشبيب فهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال، توخياً لتعليق القلوب وتعقيداً لأسماع قبل المفاجأة بالغرض من الكلام. وأما النسيب فهو بث الحب وتباريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى وما يصفه من التجنى وما يعرض له من ذكر محاسن النساء» [2]. ويتفق معه الأستاذ السباعى بيومى فى أن التشبيب هو الغزل التمهيدى. ويختلف معه فى غير ذلك. فوصف جمال المرأة ومحاسنها وجاذبيتها نسيب عند الأستاذ هاشم وغزل عند الأستاذ السباعى.

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٣ : ١١٢.

(٢) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ١٠٧.

واستعمل طه حسين كلمة الغزل دالة على الأنواع كلها . وكذلك فعل الدكتور الحوفى فى رسالته للماجستير عن « الغزل فى الشعر الجاهلى » ، وهى فى رأيه أخف نطقاً وأكثر شيوعا ، كما أن عدم التفرقة هو رأى اللغويين والأدباء من القدماء .

فينوس الحجازيين

يغرم الحجازيون بالمرأة الجميلة ، ومقياس الجمال عندهم يتوفر فى المرأة : الكحلاء ، العيناء ، الزجاء ، الملجاء ، مع بياض فى البشرة واستقامة فى الأنف ، وأشر فى الأسنان وسمرة فى الشفتين وطول فى العنق وغيد فى الأعطاف . وتكون سوداء الشعر بيضاء النحر ، دقيقة الخصر ، طويلة ملتفة الساقين والساعدين ، تهتم بما يكمل هذه الأوصاف الجسدية من طيب وخضاب وملبس ملائم دون تكلف .

وكما نرى معاهد التجميل تنتشر فى أنحاء العالم ، كذلك كانت عند الحجازيين — مثل غيرهم من العرب — صانعات الجمال ، وهن النساء اللواتى يتعاهدان العرائس ويجملنهن ، وقد تنجح صانعة الجمال إلى درجة أن تجعل القبيحة جميلة مؤقتاً ، ولذلك أبطل الإسلام هذه العادة وحظر العمل بها لأنها خديعة .

ومن أنواع هذا الجمال المصنوع التنميص والتزجيج والتفليج والتلبية والوشر والوشم والوصل . . فأما التنميص فنزع ما بين الحاجبين من شعر حتى يصيرا كأنهما أبلجان ، والتزجيج حف الحاجبين وإطالتها بالأثمد . والتفليج تفريق ما بين الثنايا والرباعيات ، والتلبية خضاب الشفة واللثة بأثمد والوشر تحزيز الأسنان وتحديدها لتحكى الأشر لأنها من صفات الشابات ، والوشم معروف وأكثر ما يكون بالذراع والشفه واللثة ، والوصل إطالة الشعر بشعر معار[١] .

ولدينا قصيدة لقيس بن الحطيم يصور فيها جمال المرأة الحجازية كما يريدها

---

(١) الغزل فى العصر الجاهلى ١١٤ .

هو ، فهى مزيج من الفضائل المادية والمعنوية : فهى مرحة مدللة لا هى بالطويلة ولا بالقصيرة لا سمنة فيها ولا نحافة إلا خصرها فهو نحيف يكاد ينقصف ووجهها مشرق كالدرة التى أخرجت من الصدفة فيها حور العين وجيد العنق تكاد تضىء نؤوم الضحى كسول تنام عن شئونها فإذا قامت إليها ، فإنما تقوم رويداً كأنما تخشى أن تقع :

رد الخليط الجمال فانصرفوا ... ماذا عليهم لوا أنهم وقفوا
فيهم لَعُوبُ العشاء آنسة الد ... ل عروب يسوءها الخلفُ
بين شكول النساء خلقتها ... قصدٌ فلا جبلة ولا قَضَف
تفوق الطرف وهى لاهية ... كأنما شف وجهها نزف
قضى الإله حين صورها الـ ... خالقُ ألا يكنها سدف
تنام من كبر شأنها فإذا ... قامت رويداً تكاد تنغرف
حوراء جيداء يستضاء بها ... كأنها خطوط بانة قَصِف
تمشى كمشى الزهراء فى دمث الر ... مل إلى السهل دونه الجرف
كأن لباتها تضمنها ... هزلى جراد أجوازه خلُف
كأنها درة أحاط بها الـ ... غواص يجلو عن وجهها صدف[1]

وهذا سلامة بن جندل يجمع عدة أوصاف لحبيبته فى بيت واحد فهو يذكر امتلاء أردافها وطولها وبياض بشرتها مما تتميز به المرأة الحرة عن الأمة :

ليست من الزول أردافا إذا انصرفت ... ولا القصار ولا السود العناكيب[2]

---

(١) الاصمعيات ١ / ٤٥ ، الاغانى ٣ / ٢٢ . جبلة : غليظة . قضف ، نحافة . تنغرف : تنقطف من دقة خصرها . قصف لين : الزهراء :البقرة الوحشية .دمث : لين . جرف : جمع جرف وهو ما تجرفته السيول وأ كلته من الارض . خلف ، جمع خليف وهو السهم الحديد ، الطرير . أجوازه . أواسطه . يجلو : يعلو .

(٢) ديوان سلامة بن جندل ٢٦ .

والنابغة ينسب إلى حبيبته صفات المرأة الحرة بنفي صفات الاماء عنها فهي ليست من السود ولا تبيع قدور النحاس في المجتمعات :

ليست من السود أعقابا إذا انصرفت ولا تبيع بجنبي نخلة البرما(١)

والمزرد بن ضرار يقول عن المرأة الجميلة في نظره أنها بيضاء ، تميل إلى اللهو وإلى الغزل :

وبيضاء فيها للمخالم صبوة وفيها لمن يرنو إلى اللهو شاغل(٢)

وكما وصفوا بالبياض نجدهم أحيانا يصفون بالصفرة كما نجد عند قيس بن الخطيم :

صفراء أعجلها الشباب لداتها موسومة بالحسن غير قطوب(٣)

والنابغة يرى من جمال حبيبته أن تكون صفراء كثوب من حرير :

صفراء كالسيراء أكمل خلقها كالغصن في غلوائه المتأود(٤)

ومفهوم أن مرادهم من وصف المرأة بالصفرة الغزل والتشبيب والابتهاج لمرأى هذه الصفرة وإذا فلا بد أن تكون الصفرة المحمودة هي التي تنشأ عن كسل المرأة وحسن التغذية . وهذا هو فهم من التغزل بالبياض أيضا ، فليسوا يحمدون البياض الناشيء عن مرض وإنما هو بياض الصحة والشباب كما نرى عند حسان إذ يصف بياض المرأة بالبرد :

يحملن حوأ حور المدامع في الريـ ـط وبيض الوجوه كالبرد(٥)

وقيس بن الخطيم يصف حبيبته ببياض الأسنان وقلة لحم اللثة :

تنكل عن حمش اللثات كأنه برد جلته الشمس في شؤبوب(٦)

ويصفون النهد بالبروز وطغيانه على الصدر كما نرى عند النابغة :

والبطن ذو عكن لطيف طيه والنحر تنفجه بثدي مقعد(٧)

---

(١) ديوان النابغة ٦٥ .
(٢) المفضليات ٩٢/١ .
(٣) ديوانه .
(٤) ديوان النابغة ٣٨ .
(٥) ديوان حسان ١٣ .
(٦) ديوانه ٦ .
(٧) ديوانه ٢٨ .

وإذا وصفوا الشعر فتنوا بسواده وغزارته ، والنابغة يشبهه فوق ذلك بعناقيد العنب الثقيلة :

وبفاحم رجل أثيث نبته كالكرم مال مع الدعام المسند(١)

وإذا وصفوا الساق شبهوه فى التفافه واندماجه بالبردى ، وقد وصفه بذلك شاعران واتفقا فى التعبير قال قيس بن الخطيم :

تخطو على برديتين غذاهما غدق بساحة حائر يعبوب(٢)

وقال المزرد بن ضرار :

وتخطو على برديتين غذاهما نمير المياه والعيون الغلاغل(٣)

ولصوت الحبيبة على الشاعر الحجازى تأثير كبير ولهذا فإن قيس بن الخطيم لا يمل حديثها ويفزع إذا سكتت لأن حديثها عذب شهى لا ينبغى أن ينقطع :

ولا يغث الحديث ما نطقت وهو بفيها ذو لذة طرف

تخزنه وهو مشتهى حسن وهو إذا ما تكلمت انف(٤)

ومما يفتن الشاعر الحجازى ويخلب لبه ابتسامة الحبيبة فالنابغة يرى فى ضحكتها قوة فعالة ستنزل العصم من الجبال والغيث من المزن :

وإن ضحكت للعصم ظلت دوانيا إليها وإن تبتسم إلى المزن يبرق(٥)

والشاعر الحجازى تعجبه المرأة العفيفة التى تضن بوصلها وتحافظ على شرف أسرتها وسمعة أقاربها ؛ فقيس بن الحدادية يشهد الله أن نعما حبيبته ضنت بوصله على أنهما تجاورا شهورا عديدة :

أجدك أن نعم نأت أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع

قد اقتربت لو أن فى قرب دارها نوالا ولكن كل من ضن مانع

وقد جاورتنا فى شهور كثيرة فما نولت والله راء وسامع(٦)

والمرأة العفيفة حيية وهذا الحياء يعجب الشاعر الحجازى ، فهو يريد المرأة

---

(١) ديوان النابغة ٣١ .
(٢) ديوانه .
(٣) المفضليات ١/٩٢ .
(٤) ديوانه ١٧ .
(٥) ديوان النابغة ٢٩ .
(٦) الأغانى ١٣/٦ .

التي تحافظ على قناعها ولا تتلفت ولا ترفع بصرها كما يقول الشنفرى .

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها   إذا ما مشت ولا بذات تلفت
كأن لها في الأرض نسياً تقصه   على أمها وإن تكلمك تبلت(١)

وقيس بن الأسلت يشيد بالمرأة التي تستحوذ على تقدير جاراتها فيمنعها حياؤها من زيارتهن ويجئن لزيارتها :

وتكرمها جاراتها فيزرنها   وتعتل عن إتيانهن فتعذر
وليس بها أن تستهين بجارة   ولكنها منهن تحيا وتخفر(٢)

ويشيد النابغة بأنها لا تذيع أسرارها الداخلية بين صديقاتها فهى لا تنشر أخبار غضبها إن غضبت ولا أسباب سرورها إن رضيت :

إذا غضبت لم يشعر الحى أنها   أربت وإن نالت رضا لم تدهدق(٣)

والشاعر يعذر المرأة إذا انصرفت عنه لكبر سنه، بل ويعتب على نفسه أن يستميل النساء بعد ما شاخ ، فالنابغة يستنكر على نفسه الحب بعد شيب قذاله ومفرقه :

علقت بذكر المالكية بعد ما   علاك مشيب في قذال ومفرق(٤)

وفي موضع آخر يكرر هذا العتاب :

على حين عاتبت المشيب على الصبا   وقلت : ألما أصح والشيب وازع(٥)

وحسان بن ثابت يعجب من تطلعه إلى التصابي بعد التجربة وبعد الشيب الذي كسا مفرقه :

وكيف لا ينسى التصابي بعد ما   تجاوز رأس الأربعين وجربا
وقد بان ما يأتي من الأمر واكتسى   مفارقه لونا من الشيب مغربا(٦)

---

(١) الأغاني ٢١ / ٩١ .
(٢) الأغاني ١٥ / ١٩٥ .
(٣) ديوان النابغة ٣٩ . الدهدقة : الضحك الشديد .
(٤) ديوانه ٣٩ .
(٥) ديوان النابغة ٤٩ .
(٦) ديوان حسان ١٢ .

أنواع الغزل

نعرف أن الشعر الغزلى يصدر إما عن عاطفة الحب والغرام ، وإما أن ينبعث بدافع الشهوة والسعى وراء الغريزة ، وإما أن يكون غزلا عفوياً كالذى يجىء فى أوائل القصائد العربية فى الجاهلية والإسلام نوعاً ما ، وهذا الغزل لا يصدر فى أغلب أحواله عن عاطفة وإنما سبيله سبيل ما سنراه عند الشعراء الحجازيين من الغزل الكيدى الذى يتخذه الشاعر وسيلة للنيل من خصمه بذكر محارمه فى شعره ، فالغزل هنا وسيلة لا غاية . والشعر الذى ينبثق غزله من العاطفة هو الغزل العذرى والغزل المادى .

الغزل العذرى :

أما الحب العذرى فهو الحب الذى لا يدنسه الحبيبان بالشهوة ولا تحوم فوقهما طيور المادية ، وقد نسب هذا الحب إلى بنى عذرة لأن الحب كان يفتك بهم وكانوا يستعذبون آلام الحب ويستزيدون أحباءهم منها ، وهناك اختلاف فى نشأة هذا النوع من الغزل : فالدكتور طه حسين يراه وليد السياسة الأموية والمستشرق ماسيليون يراه أثراً من آثار أفلاطون فى الشعر العربى ، ولكن الدكتور الحوفى يؤكد أنه نشأ فى العصر الجاهلى(١) وأورد على ذلك شواهد هى قصائد مستقلة للحب الخالص لا شىء فيها سوى الغزل منها لقيس بن الحدادية قصيدة غزلية فى أربعة وأربعين بيتاً وأخرى لحسان فى سبعة عشر بيتاً وهذه القصائد أثر الغزل المادى فيها ضئيل ، فنحن نرى النابغة قصيدة من هذا النوع يتغزل بحبيبته نعم ، ويتشوق إلى عهدهما الماضى يوم كانا معاً يتناجيان والزمان غافل عنهما فيتبادلان الأسرار المكتومة والحب الصافى . . وينتقل إلى المرحلة التالية حيث هجرته نعم فإذا هو يدعو قلبه للإفاقة من سكرة الحب ولكن أنى له ذلك فقد عذر حبيبته وبكى رحيلها :

---

(١) الغزل فى العصر الجاهلى ١٥٩ .

وقد أرانى ونعماً لاهيين معاً　　والدهر والعيش لم يهمم بإمرار
أيام تخبرنى نعم وأخــبرها　　ما أكتم الناس من حاجى وأسرارى
لولا حبائل من نعم علقت بها　　لأقصر القلب عنهـا أى إقصار
فإن أفاق فقـد طالت عمايتـه　　والمرء يخلق طورا بعد أطوار
نبئت نعما على الهجران عاتبة　　سقيا ورعيا لذاك العاتب الزارى
رأيت نعما وأصحابى على عجل　　والعيس للبين قد شدت بأكوار
فريع قلبى وكانت نظرة عرضت　　حينـا وتوفيق أقدار لأقدار(١)

والعذريون الحجازيون يصورون عواطفهم وعواطف أحبائهم فى أسلوب شبه قصصى كما يفعل شعراء الغزل المادى ، فقيس بن الحدادية يورد ما يجيش به خاطره وما تبثه حبيبته فى حوار فهو يسألها متى ترجع فتجيبه بأن البعد لن يقطع ما بينهما من عهد ومودة وراحت تشكو إليه ما تلقاه من الوشاة الذين يشون عن حبهما الإشاعات المؤلمة فيعزيها عن ذلك وينصحها بالصبر والكتمان فتقول : إن السر لن يتسرب منها لأنه دون حجاب ودون الحجاب الأضالع أيضاً . . وحين يأتى المنادى بالرحيل يهرع إليها ويخاطر بحياته ليراها ويودعها ، فتبثه خوفها عليه وتتعجب من جرأته :

وقلت لها فى السر بينى وبينها　　على عجل أيان من سار راجع
فقالت لقـاء بعـد حول وحجة　　وشحط النوى لا اذى العهد قاطع
وقد يلتقى بعد الشتات أولو النوى　　ويسترجع الحى السحاب اللوامع
سعى بينهم واش بأفلاق برمة　　ليفجع بالإظعان من هو جازع
بكت من حديث بثـه وأشاعه　　ورصعه واش من القوم راصع
بكت عين من أبكاك لا يعرف البكا　　ولا تتخالجك الأمور النوازع
فلا يسمعن سرى وسرك ثالث　　ألا كل سر جاوز اثنين شائع
وكيف يشيع السر منى ودونه　　حجاب ومن دون الحجاب الأضالع
وما راعنى إلا المنادى ألا اظعنوا　　ولا الرواعى غدوة والقعاقع

---

(١) ديوان النابغة ٣٨ .

فجئت كأنى مستضيف وسائل ... لأخبرها كل الذى أنا صانع
فقالت تزحزح ما بنا كبر حاجة ... إليك ولا منا لفقرك راقع
فما زلت تحت الستر حتى كأننى ... من الحر ذو طمرين فى البحر كارع
فهزت إلىّ الرأس منى تعجباً ... وعضض مما قد فعلت الأصابع

ومن العذريين الحجازيين الذين قضوا حياتهم يترنمون بحبيبة واحدة مسافر ابن عمرو الذى قضى عليه الحب فإنه كان يحب هنداً بنت عتبة وهى تبادله الحب أيضاً ولكن أبا سفيان تزوجها وأخبر المسافر بذلك وهما فى الحيرة عند النعمان فاعتل علة شديدة وقال :

ألا إن هنداً أصبحت منك محرما ... وأصبحت من أدنى حموتها حما
وأصبحت كالمقمور جفن سلاحه ... يقلب بالكفين قوساً وأسهما

وحاول أطباء الملك علاجه ولكنهم عجزوا ، ومات مسافر فى طريقه إلى مكة(٢) .

الغزل المادى :

وهو الغزل الحسى الذى أساسه حب تمتزج به ميول شهوانية وعواطف خالية من التحرج وأوصاف ربما لا يرضى عنها إلا أنصار الأدب المكشوف(٣) والظاهر أنه نشأ فى البيئة الحجازية من تأثير الإماء اللواتى كن لا يتحرزن ولا يبالغن فى العفة وكن يأتين إلى الحجاز من طرق شتى ، ويكفى أن نعرف أن جوائز الملوك للشعراء تكون من الإماء بعض الأحيان ، قال النابغة يمدح النعمان بأنه يبذل الإماء المنعمات فى هباته جنباً إلى جنب مع الإبل الغلاظ الشداد :

الواهب المائة المعكاء زينها ... سعدان توضح فى أوبارها اللبد
والراكضات ذيول الريط فانقها ... برد الهواجر كالغزلان بالجرد(٤)

---

(١) الاغانى ٦/١٣ . (٢) الأغانى ٤٦/٨
(٣) الاصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن ٧٤ .
(٤) ديوان النابغه ٢١ .

وكان بعضهن يكرهن على البغاء فى الحجاز فلما شكت جارية عبد الله بن أبى إلى الرسول أنه يجبرها على البغاء نزل تحريم ذلك فى القرآن [١] ، ولا ينبغى أن نفهم أن تردد الرجال على بيوت البغاء يعطى النساء نفس الحق فى الحجاز فإن ذلك كان مما تأباه نفس الحرة الأبية ، وقد رأينا شيئا من هذا عند هند بنت عتبة حينما استنكرت أن يعاهد نساء قريش ألا يزنين وقالت : « وهل تزنى الحرة يارسول الله [٢] » والقرآن عبر بالفتيات وهن الإماء فى النهى عن إكراه الإماء على البغى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً » ، والمرأة الحجازية تنفر من هذا النوع من الإماء ولا تقبل حتى مجرد المشاركة فى الاسم ، فقد غضبت زوجة عمر بن الخطاب حينما حول اسمها من عاصية إلى جميلة لأنه اسم أمة (٣) .

وسحيم عبد بنى الحسحاس — الذى فتح باب الغزل المادى على مصراعيه — لم يكن عربياً مما يدل على أن نشأة هذا الغزل المادى كانت أجنبية عن العرب فهو عبد أسود نوبى اشتراه عبدالله بن أبى ربيعة وعرضه على عثمان فرده واشتراه بنو الحسحاس . . وتأثر خطاه عمر بن أبى ربيعة وإن لم يفحش مثله .. فسحيم يتمادى فى التصوير ويبرز التجربة كما هى دون تحوير ، فهى توسده كفها وتدغدغه بالآخر وتثنى رجلها من ورائه وسوف يشهد أنه رآها ويديها ورجليها كلها من ورائه :

توسدنى كفاً وتثنى بمعصم على وتحوى رجلها من ورائيا
فما زال بردى طيبا من ردائها إلى الحول حتى أنهج البرد باليا (٥)
وأشهد عند الله أن قد رأيتها وعشرين منها إصبعا من ورائيا

ولم يتركه فحشه وبذاؤه حتى ساعة قتله ، ففى طريقه إلى الموت شمتت به إحدى صويحباته فذكرها بما ضمها معه :

---

(١) تفسير الطبرى ١٨ / ١٠٣ .
(٢) الاصابة ٨/٢٩٥ .
(٣) الاصابة ٨/٤٠ .
(٤) ديوان سحيم ١٩ .

فإن تضحكي مني فيارب ليلة تركتك فيها كالقباء المفرج (١)

ولما حان قتله لم ينس أن يعيد إلى ذكراه الحي أفاعيله مع بنتهم :

شدوا وثاق العبد لا يفلتكم إن الحياة من الممات قريب
فلقد تحدر من جبين فتاتكم عرق على متن الفراش رطيب (٢)

وشعر الغزل المادي يصف جرأة الشاعر في وصوله إلى حبيبته رغم حذر أهلها ورقابتهم ويسكن من روع المرأة إن شعرت بالخوف . فهذا سحيم يخرجها من خدر أمها ويلاعبها في الخلاء بدليل أن المسك يتفتت من عليها فيلتقطه :

ومثلك قد أبرزت من خدر أمها إلى مجلس تجر بردا مسهما
فنفضت ثوبيها ونظرت حولها ولم أخش هذا الليل أن يتصرما
أعفى بآثار الثياب مبيتها وألقط رضا من وقوف تحطما (٣)

وقد يحدث العكس فتسعى المرأة إلى الرجل وتجتهد في رؤيته ، فسحيم نفسه يذكر أنه اجتمع عنده ثمان نسوة يعدنه وهن سبب دائه :

تجمعن من شتى ثلاثا وأربعاً وواحدة حتى كملن ثمانيا
وأقبلن من أقصى الخيام يعدنني بقية ما أبقين نصلا يمانيا
يعدن مريضا هن قد هجن داءه ألا إنما بعض العوائد دائيا (٤)

الغزل التمهيدي :

ونأتي أخيرا إلى الشعر التمهيدي الذي قلنا إنه لا يصدر عن عاطفة الحب ولا يدفع الشهوة وإنما هو وسيلة لجذب الانتباه وتهيئة الجو للشاعر كي ينفذ إلى القلوب لينال ما يريد . ومن الغريب أن هذا الغزل فرض سلطانه على جميع أغراض الشعر فالشاعر الحجازي قدم الغزل حتى في قصائد الرثاء ، فهذا دريد ابن الصمة يرثي أخاه عبد الله فيمهد لذلك بالتساؤل عن عهد حبيبته وهل لا تزال هي متمسكة بهذا العهد أم أنها قد تحولت إلى سواه ، فقد افترقا دون أن تنوله شيئا . وبعد ذلك ينتقل إلى موضوع الرثاء :

(١) ديوان سحيم ٦٠ .
(٢) المفضليات ١/٨١
(٣) ديوان سحيم ٣٥ .
(٤) ديوان سحيم ٢٣

أرث جديد الحبل من أم معبد بعاقبة أم أخلفت كل موعد
وبانت ولم أحمد إليها نوالها ولم ترج فينا ردة اليوم أو غد
أعاذل إن الرزء فى مثل خالد ولا رزء فيما أهلك المرء عن يد(١)

وحسان بن ثابت حين رثى حمزة قدم لهذا الرثاء بأبيات من الغزل يبكى فيها الأطلال ويسائلها عن سكانها ، فلم تحر الأطلال جواباً فتركها واتجه إلى موضوعه وهو الرثاء:

أتعرف الدار عفا رسمها بعدك صواب المسبل الهاطل
سألتها عن ذاك فاستعجمت لم تدر مامرجوعة السائل
دع عنك داراً قد عفا رسمها وابك على حمزة ذى النائل (٢)

ولدينا غير هاتين القصيدتين أيضا رثاء النابغة للنعمان بن الحارث ، ومراثى المهلهل فى أخيه والحارث بن عباد فى ابنه وعريقة بن مسامع العبسى فى أخيه مما يناقض ماقاله ابن الكلبى من أنه لا يعلم إلا قصيدة واحدة فى الرثاء قدم لها بغزل هى قصيدة دريد فى رثاء أخيه .(٣)

ومادام الغزل التمهيدى قد تسرب إلى الرثاء فليس بغرب بعد ذلك أن نجده فى كافة أغراض الشعر ومن بينها الفخر الذى ينبغى أن يعمد إليه الشاعر قبل كل شىء . ولكنها التقاليد الشعرية اضطرت شعراءنا إلى غير ذلك ونجدها متحكمة فى الهجاء أيضاً وبعد أن يقضى الشاعر أربه من الغزل ينتقل إلى موضوعه مباشرة وقد يعرج على موضوع آخر غير ذلك مثل وصف الناقة ويعلل الأستاذ جب ذلك « بأن الخلق الفنى لدى العرب سلسلة من بواعث منفصلة وكل منها تام ومستقل بنفسه لاترابط بينها غاية أو انسجام أو اتفاق ، اللهم إلا وحدة العقل الفردى الذى أبدعها » . وهو يقول :

« ان القصيدة العربية تتألف من سلسلة من الصور تعرض جوانب متعددة من الحيـــاة العربية جرت العادة بترتيبها وترابطها ، فالشاعر فى أول قصيدته

---

(١) الأصمعيات ٢٣/١ . (٢) سيرة ابن هشام ١٣٢/٣ .
(٣) العمدة ١٢١/٢ .

يتحدث على ظهر جمله مع صاحب أو اثنين وينطلق إلى منزل الحى الذى رحلوا عنه فيقف على الطلل ويتذكر ماضيه فيه ويصف ماكان بينه وبين حبيبته . . وبعد ذلك يصف بدقة جمله أو حصانه الذى يشبه الحمار الوحشى فى سرعته ، وحينئذ يصف هذا الحيوان وطريقة صيده ثم يدخل إلى الموضوع وهكذا سهل الأمر على المصنفين بعد ذلك فجعلوا كل جزء وحدة قائمة بذاتها (١) . . ومن هذا النص للعلامة جب نرى كيف يفهم المستشرقون ترابط أجزاء القصيدة العربية .

الغزل الكيدى :

وإذا قد انتهينا من أنواع الغزل الثلاثة نصل إلى موضوع هام بالنسبة إلى الشعراء الحجازيين ذلك هو الغزل الكيدى الذى يخالف كل ماسبق من الأنواع الغزلية فليس بالعذرى ولا المادى ولا التمهيدى ، وإنما هو نوع آخر غير ذلك يراد به تحقير الخصم وامتهان كرامته وتجريحه .

وأكثر مايحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم إذ يحاول كل منهم أن يكسب المعركة بأى سلاح حتى ولو كان التشهير بالخصم فى التغزل بقريباته وتدوين أسمائهن لتلوكها الألسن بعد ذلك .

وقد لج الهجاء بين قيس بن الخطيم وعبد الله بن رواحة فتغزل الأول بعمرة أخت عبدالله ولكن غزله كان عفيفاً ، فعمرة محجبة محتشمة لاترى إلا وقت الحج :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب ... لعمرة وحشاً غير موقف راكب
ديار التى كانت ونحن على منى ... تحل بنا لولا نجاء الركائب
تراءت لنا كالشمس تحت غمامة ... بدا حاجب منها وضنت بحاجب
ولم أرها إلا ثلاثا على منى ... وعهدى بها عذراء ذات ذوائب
ومثلك قد أحببت ليست بكنة ... ولا جارة ولا حليلة صاحب(٢)

---

(١) Arapic Literature q 20

(٢) طبقات الشعراء ٨٩ .

ورد عليه عبد الله يتغزل بليلى أخت قيس :

أشاقتك ليلى فى الخليط المجانب ... نعم فرشاش الدمع فى الصدر غالبى

وبين حسان وقيس بن الخطيم حدث شىء من هذا فإن حسانا فى معرض فخره على الأوس تغزل بليلى أخت قيس :

لقد هاج نفسك أشجانها ... وعاودها اليوم أديانها
تذكرت ليلى وانى بها ... إذا قطعت منك أقرانها
وحجل فى الدار غربانها ... وخف من الدار سكانها
وغيرها معصرات الرياح ... وسح الجنوب وتهتانها
مهاة من العين تمشى بها ... وتتبعها ثم غزلانها
وقفت عليها فسائلتها ... وقد ظعن الحى ما شانها
فعيت وجاوبنى دونها ... بما راع قلبى أعوانها

فلم يسكت قيس على هذا النيل الجارح ، ورد على خصمه يتغزل بزوجته عمرة :

أجد بعمرة غنيانها ... فتهجر أم شأننا شانها
وإن تمس شطت بها دارها ... وباح لك اليوم هجرانها(١)

ولهذا النوع من الغزل خطره الشديد على نفوس الحجازيين ويرون فيه إهانة بالغة قد يحتاجون فى غسلها إلى الدم ، فإن كعب بن الأشرف اتخذ من الغزل الكيدى وسيلة إلى تجريح المسلمين والتندر عليهم والتعريض بهم ، فها هو ذا يتغزل بأم الفضل بنت الحارث فيعجب كيف يرحل ويتركها فى المدينة رغم أنها منعمة مرهفة عطلة وهى شريفة فى قومها وأبوها رأس العشيرة وهى جميلة تشرق كالشمس :

أراحل أنت لم تحلل بمنقبة ... وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت ... من ذى القوارير والحناء والكتم
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها ... إذا تأتت قياما ثم لم تقم

(١) الأغانى ١٢/٣ .

وأشباه أم حكيم إذ تواصلنا ... والحبل منها متين غير منجذم

إحدى بنى عامر جن الفؤاد بها ... ولو تشاء شفت كعبا من السقم

فرع النساء وفرع القوم والدها ... أهل المحلة والإيفاء بالذمم

لم أر شمسا بليل قبلها طلعت ... حتى تجلت لنا فى ليلة الظلم[1]

واستمر كعب يتغزل بنساء المسلمين على هذا المنوال حتى دفع حياته ثمناً لهذه الحماقات التى رددها لسانه . وحقاً إن كعبا لم يكن عفيف الغزل حين شبب بنساء المسلمين لأن عداوة الدين هى التى تدفعه إلى هذا الكيد . أما إذا كان الغزل الكيدى بدافع المفاخرة القبلية أو الهجاء الشخصى فإنه يلتزم الاحتشام والعفة غالباً ، حتى لنرى النعمان بن بشير يسمع بسرور غناء عزة الميلاء بشعر قيس بن الخطيم فى أمه عمرة بنت رواحة قائلا : « إنه لم يذكر إلا كرما وطيباً[2] » .

(١) تاريخ الطبرى ٣/٣ .

(٢) الأغانى ٣ / ١٢ .

الفصل السادس

الشعر الهجائي

— ١ —

اشتقاق الهجاء في العربية والإفرنجية :

يرى الزمخشري أن الهجاء مأخوذ من هجاء الحروف فهو تعديد للمعايب . فالمرأة تهجو زوجها هجاء قبيحاً إذا ذمت صحبته وعددت عيوبه ، وهو تفريع غريب . فالكلمة جاهلية قديمة ، وهي بأن تكون سابقة الهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة أشبه . على أنه إن كان كل ما لحظ في نقلها هو التعديد فلم يكن تعديد المفاخر والفضائل هجاء أيضاً ؟ .

الواقع أن في المادة معاني أخرى هي أقرب لأن تكون أصلا للمعنى الأدبي . ففي اللغة الهجا والهاجة الضفدع وهجو يومنا : اشتد حره . وفي اليائي من المادة : هجي البيت هجياً انكشف ، وهجيت عين البعير : غارت . ومما هو قريب من المادة : الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب ، والهوج بمعنى الحمق والطيش والتسرع ، والهوجاء : الريح التي تقلع البيوت .

وقد يكون الهجاء بمعناه الأدبي مأخوذاً من الضفدع فهو قبيح الشكل بشع الصوت . وقد يكون مأخوذاً من اشتداد الحر ففيه معنى التنكيل والتعذيب . وقد يكون مأخوذاً من الأصل اليائي فهو يكشف عن سيئات المهجو (١) .

أما اشتقاق كلمة « الهجاء » في الإفرنجية ، فإن أصل المادة « Satire » في اللاتينية، هو Satura Satira ويقصد بها حشو المشوى ، ثم انتقل الاشتقاق إلى Satura المجازية وهي « الصحفة الممتلئة » التي تحوي مجموعة من الفواكه المختلطة تقدم لواحد من الآلهة الريفية أو الجبلية .

---

(١) أساس البلاغة . مادة « هجاء » و « الهجاء والهجاءون في الجاهلية » ص ١٤ .

وفى الاستعمال الأخير اتحدت كلمة Satire بالحيل والخدع أو الزخارف التى تنسب إلى الساطير Satyr وهى « جنية الحرجات » [الأساطير] .

أما فى الإنجليزية ، فقد عزز هذا الاتحاد بين المعنيين ما نراه ملحوظاً من الفوضى فى تهجى الكلمتين [١] .

وفى دائرة معارف « كاسل » ، « أن أول استعمال أدبى لهذه الكلمة يدل على نوع من النكتة والتشهير .

— ٢ —

تعريف الهجاء وخصائصه :

يعرف بعض الباحثين الهجاء بأنه أدب غنائى يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء . وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق والمذاهب ، فالهجاء لا يصطنعه — كما يقول برونونيير — إلا وسيلة للتعبير عن طريقته فى الحس والتفكير ، معارضاً طرق الآخرين فى حسهم وتفكيرهم ، تلك الطرق التى تثير بالمعارضة ذاتها غضبه أو سخطه واستشناعه أو خوفه واحتقاره أو استهزاءه .

وهذا التعريف يخالف المشهور عند نقاد العرب من وجهين .

الوجه الأول : شموله للشعر والنثر ، والمشهور لا يكون إلا شعراً .

والوجه الثانى : أن موضوعه شامل الفرد والجماعة والأخلاق والمذاهب والمشهور عندهم أنه مقصور على الأفراد(٢) .

ومما يؤيد هذا أن الجاحظ يسمى بعض رسائله النثرية هجاء فيقول فى مقدمة كتاب الحيوان(٣) ، وعبتنى بكل ما كتبت إلى إخوانى وخلطائى من مزح وجد ، ومن هجاء لا يزال ميسمه باقياً ، ومديح لا يزال نامياً الخ .

---

(١) مادة « Satire » Dictionary of world Literature' p 502

(٢) دائرة المعارف الفرنسية مادة والهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ١٤ .

(٣) جـ ١ ص ٣ .

وصاحب العقد الفريد يجمل فى القرآن هجاء فيقول (١) : قال الله تبارك فى هجو المشركين : «والشعراء يتبعهم الغاوون . الآية» . وأبو هلال العسكرى يروى فى باب الهجاء شعراً أخلاقياً لا يدخل فى الهجاء بمعناه الضيق عند قدامة وأشياعه . ويذكر فى هذا الباب نثراً مسجوعاً فى أغلب الأحيان ، ولكنه يسميه ذماً . والنويرى فى نهاية الأرب يجمل النثر والهجاء الأخلاقى فى باب الهجاء فيقول (٢) : «وإن للشعراء والبلغاء فى الذم والهجاء نظماً ونثراً سنورد منهما طرفاً» ، ويجعل من الهجاء قسماً هو هجاء أخلاقى ، كهجاء الحسد والسعاية بالبغى والغيبة والنميمة .

والذى يعنينا فى بحثنا هذا هو : ذلك الشعر الغنائى الذى يوجه فيه صاحبه الملامة والنقد والامتهان والاحتقار والكره والبغض لكل ما هو معيب مرذول ؛ أو هزأة ضحكة من الأفراد أو الجماعات والمذاهب أو الأخلاق .

«والهجاء ساخط على المجتمع ثائر على ما فيه ضيق به . والهجاء نتيجة عقدة نفسية وربما فى كثير من الأحيان نتيجة لمركب نقص» .

«ومن مميزات الهجاء دقة الملاحظة ، فالهجاء طلعة بصير يفطن إلى أدق التوافه وألطفها مما يحيط به» .

والهجاء يعتمد على التأثير السريع والوضوح الخلاب ، فأسلوبه يمتاز بالبساطة التى لا أثر فيها للتكلف . وقد يصل فيه الإسفاف والهبوط إلى مستوى النكتة العامية والحديث الشائع المتداول بين العامة . «وأصحاب المطبوع أقدر على الهجاء من أهل المصقوع» ، ذلك لأن «الهجاء نقد للحياة ، فهو يأخذ مادته من الواقع ، ولا يستمدها من الخيال أو التفكير ، ولذلك كانت أبرز صفاته الواقعية البعيدة عن الإسراف فى الصناعة ، والتى تقوم على تجارب الحياة ودقة الملاحظة ، لما يجرى فيها من أحداث» (٣) .

---

(١) ج ٦ : ص ١٤٥ .
(٢) ج ٣ : ص ٢٦٩ .
(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ٢٧ — ٣٢

— ٣ —

الفرق بين الهجاء والشعر التهذيبي :

والواقع أن الجاهليين حين تصوروا الهجاء بمعناه الأدبي على شكله الشخصي كانوا محقين . فقد نشأ الهجاء عندهم كما نشأ الهجاء عند غيرهم من الأمم تنديداً بالمعايب الشخصية أول الأمر ، ثم تقدم الهجاء عندهم كما تقدم عند غيرهم ، وارتفع من الأحقاد الخاصة إلى عنصر الحياة العامة . فكان منه السياسي ، وكان منه الأخلاقي ، وكان منه الديني .

وهنا يجب أن نشير إلى فرق دقيق بين نوعين من الأدب لا ينبغي أن نخلط بينهما : هما شعر الهجاء والشعر التهذيبي (أو الأدب) كما كان يسميه بعض نقادنا القدماء . فالشعر التهذيبي يقصد به الوعظ والإرشاد ، أما الهجاء فيرمي به صاحبه إلى العقوبة والانتقام . فالأول يقدم درساً في الأخلاق أو الدين والفلسفة .

أما الهجاء فهو شريعة القصاص — كما يقول أرنولد — من المجرمين الذين لا تنالهم يد القانون القصيرة ، فالهجاء يرى أن هناك طائفة من المجرمين قد غلظت طبائعهم بما أشربوا في قلوبهم الباطل والإثم والغرور ، حتى ما يؤثر فيهم نصح أو تحذير فهو ينشر على الناس مخازيهم ، ويجعلهم أضحوكة ومثلة ، وقد لا يرجو من وراء عمله هذا أن يصلحهم أو يطهرهم . فالعلاقة بين الشعر التهذيبي والشعر الهجائي هي كالصلة بين المدرسة والمحكمة . أحدهما يسعى لتكوين الفضيلة ونشر الحكمة . والآخر ينزل عقابه بالرذيلة ويهتك الستر عن الحماقة والسفه . . دافع الشعر التهذيبي رغبة صادقة في الإصلاح ، ودافع الهجاء شهوة الغضب والانتقام(١) .

---

(١) الهجاء والهجاءون ١٦ ، ١٧ .

— ٤ —

علاقة الهجاء بالسحر :

وقد كان فن الهجاء من أكثر الفنون الشعرية ارتباطاً بالسحر فى أوهام العرب ذلك لأن الخفاء والغموض اللذين لازماً فن الشعر ، كانا أليق بالشر ، وأدنى أن يبعثا الرهبة والخوف فى قلوب الناس . فقد كانت العرب تزعم أن لكل شاعر رئيا من الجن يسمونه تابعاً أو هاجساً وذلك واضح فى قصصهم وفى شعرهم(١) .

ووجه الشبه بين السحر والهجاء واضح . فالسحر كلمات تقال فيصيب شرها المسحور ، وينصب ما تضمنت من لعنة على المقصود بالإيذاء ، والهجاء كذلك كلمات تقال فيها معنى الشر واستمطار اللعنة . والساحر يتوسل إلى شياطينه وأرواحه الشريرة أن تعينه على إلحاق الأذى بالمسحور ، والهجاء يستلهم شياطينه الهجاء ويستعينها على المهجو . ولذلك غلب ذكر شياطين الشعر فى الهجاء بنوع خاص ولأمر مانسب الناس هذه القوة الخفية التى تمد الشاعر بالشعر للشر ولم ينسبوها للخير ، فقالوا « شياطين الشعر » ، ولم يقولوا « ربة الشعر » كما تعود اليونان أن يقولوا .

وقدكان الشاعر إذا هجا ربما خرج على الناس فى زى غريب غير مألوف وبالغ فى مسخ شكله وتشويه خلقته . وكان حسان بن ثابت يلوث شاربه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أســد والغ فى الدم ، وروى الألوسى فى بلوغ الأرب : « أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء دهن إحدى شق رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلا واحدة(٢) » . لذلك كان العرب شديدى الخوف من الهجاء . وكانوا يرون بيت الهجاء متضمناً قوى خفيــة ، ولعنة تصيب من تحل به . ويقول مزرد بن ضرار الذبيانى (أخو الشماخ بن ضرار)

---

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ٨٠ ، ٤١٦ .

(٢) بلوغ الأرب ٣ : ٤٠٧

فى رجل من بنى عبد الله بن غطفان خدع غلاما من قومه فاشترى إبله بغنم .. وهو هنا يندد بخدعة الرجل ، طالبا إليه أن يرد الإبل، وقد صورها مصابة بالجرب وبمختلف الأدواء ، وكأنه يريد أن يشأمها وينزل بها اللعنة والبوار :

فيا آل ثوب إنما ذَوْدُ خالد كنار الظلى لاخير فى ذود خالد (١)
بهن دوره من نُحاز وغدة لها ذربات كالثدى النواهد (٢)
جربن فما يُهنأن إلاّ بغلقة عطين وأبوال النساء القواعد (٣)
فلم أر رزءاً مثله إذ أتاكم ولا مثل مايهدى هدية شاكد (٤)

ويؤيد ذلك ماروى صاحب السيرة ، من أن أبا سفيان بن حرب ألقى ابنه معاوية أرضاً ، فرقاً من دعوة خبيب حين قال وقد أخذوه ليصلبوه : « اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً » . وقد كانت العرب تزعم أن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه (٥) .

وكان الشاعر ربما عجز عن دفع مظلمة ، أو رد حق غصب منه ، فلا يستعين على ذلك إلا بلسانه فيهاب الناس هجاءه أكثر مما يخافون سيف الفاتك الجبار .

---

(١) الذود : الجماعة القليلة من الإبل .

(٢) الدوره : جمع درة بفتح فسكون وهو النتوء . النحاز : داء يأخذ الدواب والإبل فى رئاتها فتسعل سعالا شديداً . الغدة : طاعون الإبل . الذربات : جمع ذربة بفتح فكسر وهو رأس الخراج .

(٣) جربن : أصابهن الجرب . يهنأن : يطلين الغلقة : شجر يدبغ به عطين : معطون لأنها لا يدبغ بها إلا بعد عطنها .

(٤) الشاكد المهدى والشكد الإهداء .

(٥) السيرة ٣ : ١٨٢ .

— ٥ —

أقسام الهجاء :

ينقسم الهجاء إلى ثلاثة أقسام : هجاء شخصي وهجاء أخلاقي وهجاء سياسي .

فالهجاء الشخصي يعتمد على مهاجمة الأفراد . وهو أقدم أنواع الشعر الهجائي وهو في معظم الأحيان متأثر بالأهواء الشخصية ، بعيد عن العدل والإنصاف . لأنه لا يرتقي إلى عناصر الحياة العامة إلا في القليل من نواحيه ، فهو أقرب للسباب ، وأدنى إلى أن يتورط في الفحش . ومثل هـذا الشعر قد يعجب المعاصرين ويسترعى انتباههم ، فيرددونه شامتين أو ساخطين ، ولكنه يفقد جزءاً كبيراً من قيمته بتداول العصور ، فلا يتحمس له الناس ولا يجدون فيه المتعة إلا بمقدار مايشتمل عليه من نادرة طريفة ، أو سخرية مسلية أو نكتة مضحكة .

أما الهجاء الأخلاقي ، فموضوعه الجرائم الأخلاقية أو الدينية والمفاسد الاجتماعية ، والعادات القبيحة والعيوب الإنسانية على وجه العموم . وقد يعم بالهجاء جنساً من الأجناس لا يعين منه أفراداً ، كالذي نجده في شعر المعرى من السخط على المرأة أو رجال الدين . ومن أمثلته في الأدب الحجازي وصف العقوق لأمية بن أبي الصلت .

والنوع الثالث من الهجاء هو الهجاء السياسي . وهو يتميز عن سالفيه بأن صاحبه يرى مثله الأعلى في حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف أو مذهب من المذاهب ، فهو يهاجم كل مايتعارض مع هذا المثل من نقائص ومعايب تتمثل في أنصار حزب . وهو يزعم في كل هذا — صادقاً أو متصنعاً — أنه يهاجم في سبيل الفضيلة والحق .

ونستطيع أن نلحق بهذا القسم الهجاء الديني والهجاء القبلي . أما الهجاء الديني فنجد له أمثلة فيما كان بين شعراء المسلمين وشعراء قريش أول ظهور الإسلام . وأما الهجاء القبلي فيصور الشعر السياسي في طوره البدائي عند العرب . فقد كان العربي يحمل لقبيلته من القداسة والإجلال مثل مايحمل المواطن لوطنه

بل أشد : وكان للفرد على قبيلته من الحقوق ، مايشبه حق المواطن على وطنه ، فهى مكلفة بحمايته من كل اعتداء وهو بعد هذا مسئول أمامها، مرتبط بها ، لارأى له إلا مارأت ، وهو يضع سيفه ولسانه فى خدمتها . ولها أن تحرمه من جنسيته بأن تتبرأ منه وتعلنه طريداً[1] ... وقد ذكرنا أمثلة لذلك فى الشعر السياسى وسنتناول بالتفصيل هذه الأقسام ..

— ٦ —

أما الهجاء الشخصى فبعثة تلك المنازعات الفردية ، والخلافات الشخصية التى تنشأ بين الأفراد فى كل زمان ومكان بحكم أن الحياة كلها صراع على العيش ، ونزاع على المال والجاه والسلطان .

وقد كان هذا اللون صورة سريعة حادة لانفعال الغضب لدى الجاهليين ، فلم يتح له الصقل ، ولا الأناة التى هى سبيل التجويد ، فهو فقير فى الصور والمعانى ، ضئيل الحظ من الخيال .. وهو بعد معركة كلامية هائجة تستعر بين فردين يتقاذفان بالشتائم .

ويتميز الهجاء الشخصى بما يأتى:

(١) بسط اللسان ، وكيل الشتائم واختلاق المثالب والمعايب . وكثيرا ما يكون السباب مفحشاً مقذعاً يفضح العورات دون مراعاة لأدب اللياقة أو الاحتشام .

(٢) الفخر بالأحساب والأنساب ، والأهل والمال ولوالد وكريم السجايا والتعالى بها على الخصوم والأعداء ، وتعييرهم بنقائصهم فى هذه المفاخر .

(٣) تهديد الخصم بالقتل ، وبالشعر الذى يسمه بميسم الذل ويظل لعنة تلاحقه فى كل سامر وناد ، ويبقى على الأيام ذل الدهر وعار الأبد ووصمة الحياة !

هذه هى المعانى التى لايكاد يخرج عنها الهجاء الفردى .

---

(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

وقد كان الشعراء الحجازيين نصيب فى هذا اللون من الهجاء ، يقول المزرد بن ضرار الذبيانى (أخو الشماخ) :

يهزون عرضى بالمغيب ودونه ... لَقِرْمِهِم مندوحة ومآكل
على حين أن جرّبتُ واشتد جانبى ... وأنبحَ منى رهبة من أناضل
وجاوزت رأس الأربعين فأصبحت ... قناتى لا يُلفَى لها الدهر عادل
فقد علموا من سالف الدهر أننى ... معن إذا جدّ الجراء ونابل
زعيم لمن قاذفته بأوابد ... يغنِّى بها السارى وتُحدَى الرواحل
مذكرة تلقى كثيراً رواتها ... ضَوَاح لها فى كل أرض أزَامل
تكُرُّ فلا تزداد إلا استنارة ... إذا رازت الشعر الشفاهُ العوامل
فمن أرمه منها ببيت يلحْ به ... كشامة وجه ليس للشام غاسل
كذاكِ جزائى فى الهدىّ وإن أقل ... فلا البحر منزوح ولا الصوت صاحل (١)

وكان المزرد فارساً مشهوراً ، وكان هجّاء خبيث اللسان ، حلف لا ينزل به ضيف إلا هجاه ، ولا يتكسب بيته الا هجاء ، إلا أنه أدرك الإسلام فأسلم ، ويبدو أنه أقلع عن الهجاء أخيرا لقوله فيما نقل صاحب اللسان (٤ : ٤٨٤) عن ابن السكيت :

تبرأت من شتم الرجال بتوبة ... إلى الله منى لا ينادَى وليدها

(١) القوم : الأكل بمقدم الفم . يقول قد كان لهم مندوحة ومنصرف عن أكل عرضى فى غيابى . أنبح منى : صار من أناضلهم ينبحون كالكلاب . المعن المعترض فى كل شىء . الجراء . الجرى . النابل : الحاذق فى النبل . الأوابد : الوحوش أو غرائب الشعر . أزامل : جمع أزمل وهو كل صوت مختلط . رازت الشفاه الشعر : جربته . العوامل : النواطق بالشعر . الهدى : التهادى بالشعر ، يقصد المهاجاة . الصحل : بحة الصوت . يقول إنه لا يكل ولا ينضب معينه .

على أننا نجد حظا وافراً من الجمال الفنى فى قصيدة ذى الأصبع العدوانى التى يهجو بها ابن عم له :

ولى ابن عم على ما كان من خلق ... مختلفان فأقليه ويقلينى
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا ... فخالنى دونه بل خلته دونى
ياعمرو إن لاتدع شتمى ومنقصتى ... أضربك حتى تقول الهامة اسقونى
لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب ... عنى ولا أنت ديانى فتخزونى
ولا تقوت عيالى يوم مسغبة ... ولا بنفسك فى العزاء تكفينى
إنى لعمرك ما بابى بذى غلق ... بالفاحشات ولا فتكى بمأمون
عف ندود إذا ماخفت من بلد ... هوناً فلست بوقاف على الهون
عنى إليك فما أمرى براعية ... ترعى المخاض وما رأيى بمغبون
كل امرىء راجع يوما لشيمته ... وإن تخالق أخلاقا إلى حين
إنى أبى أبى ذو محافظة ... وابن أبى أبى من أبيين
لا يخرج القسر منى غير مأبية ... ولا ألين لمن لايبتغى لينى
وانتم معشر زيد على مائة ... فأجمعوا أمركم كلا فكيدونى
فإن عرفتم سبيل الرشد فانطلقوا ... وإن جهلتم سبيل الرشد فأتونى
ماذا على وإن كنتم ذوى كرم ... أن لا أحبكم إن لم تحبونى
لو تشربون دمى لم يرو شاربكم ... ولا دماؤكم جمعا ترونى
الله يعلمنى والله يعلمكم ... والله يجزيكم عنى ويجزينى
قد كنت أوتيكمو نصحى وأمنحكم ... ودى على مثبت فى الصدر مكنون
ياعمرو لو لنت لى ألفيتنى بشراً ... سمحاً كريما أجازى من يجازينى
والله لو كرهت كفى مصاحبتى ... لقلت إذ كرهت قربى لها بينى

ويصادف الباحث فى الأدب الحجازى بعض الهجاء المفحش كالأشعار التى تنسب لحسان بن ثابت حتى بعد أن خالط الإسلام روحه ، فها هو ذا فى المعركة الناشبة بين الإسلام والشرك فى يوم أحد يهجو هند أم معاوية فيقول :

أشرت لكاع وكان عادتها لؤم إذا أشرت مع الكفر
لعن الإله وزوجها معها هند الهنود طويلة البظر
أخرجت مرقصة إلى أحد فى القوم معنقة على بكر(١)

ثم يقول :

أقبلت زائرة مبادرة بأبيك وابنك يوم ذى بدر
ونسيت فاحشة أتيت بها يا هند ويحك سبة الدهر
فرجعت صاغرة بلا ترة مما ظفرت به ولا وتر
زعم الولائد أنها ولدت ولداً صغيراً كان من عهر

بل إنه ليتهمها بأنها كانت تسقط أولادها من السفاح وتدفنهم سراً فى بطحاء أجياد ستراً للفضيحة والعار فيقول :

لمن سواقط صبيان منبذة باتت تفحص فى بطحاء أجياد
باتت تمخض ما كانت قوابلها إلا الوحوش وإلا ضبة الوادى

ويهجو بنى سهم وعمرو بن العاص بن وائل (وأمه النابغة امرأة من عنزة) فيقول :

أما ابن نابغة العبد الهجين فقد أنحى عليه لساناً صارما ذكراً
ما بال أمك راغت عند ذى شرف إلى جذيمة لما عفت الأثرا
ظلت ثلاثا وملحان معانقها عند الحجون فما ملا ولا فترا
يا آل سهم فإنى قد نصحت لكم لا أبعثن على الأحياء من قبرا

---

(١) مرقصة : ترقص البعير وذلك حين تسرع فى السير . معنقة : مسرعة كذلك .

أما هشام فرجلا قينة جنحت ... باتت تغمز وسط السامر الكمرا (١)
لولا النبي وقول الحق مغضبة ... لما تركت لكم أنثى ولا ذكرا

ويقول فى هجاء بنى المغيرة :

هلا منعتم من المخزاة أمكم ... عند الثنية من عمرو بن يحموم
أسلمتموها فباتت غير طاهرة ... ماء الرجال على الفخذين كالموم

ولا نريد المضى فى هذا الشعر الفاحش بل الممعن فى الفحش الذى لا نكاد نجد له نظيراً فى الشعر الجاهلى ، ولعل كثيراً منه مشكوك فيه لا تصح نسبته لحسان .

ويمتاز حسان « ببراعته فى خلق الصور الفنية وابتكارها وهذه الموهبة تتيح للهجائين بنوع خاص كثيراً من الشهرة والذيوع ، فهى تصور إلى جانب الذكاء بصيرة هجائية ، وروحا فكهة ، فكهة ، لا تنظر إلى الأشياء إلا لتسخر منها ، وترى فيها شبها قريباً بألوان مضحكة من الصور » . يقول فى هجاء رجل من بنى عابد بن عبد الله المخزومى :

فإن تصلح فإنك عابدى ... وصلح العابدى إلى فساد
وإن تفسد فما ألفيت إلا ... بعيداً ما علمت من السداد
على ما قام يشتمنى لئيم ... كخنزير تمرغ فى رماد

ويقول فى هجاء الحارث بن كعب (رهط النجاشى) الشاعر :

حار بن كعب ألا الأحلام تزجركم ... عنا وأنتم من الجوف الجماخير

---

(١) راغت : مالت عن القصد : ذو شرف : موضع . جذيمة اسم رجل . يقول له هلا خبرتنى خبر أمك انحرفت عن الطريق إلى ذلك الرجل معفية آثار أقدامها على الرمال خشية أن تتبع . ملحان : عبد لخزاعة . الحجون : جبل بمكة . الماجن : الذى يرتكب المقابح المخزية ولا يبالى العذل والتقريع . الكمر : جمع كمرة وهو رأس الذكر . الغمز : العصر والكبس باليد .

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم　　جسم البغال وأحلام العصافير
ذروا التخاجؤ وامشوا مشية سجحا　　إن الرجال ذوو عصب وتذكير
كأنكم خشب جوف أسافله　　مثقب فيه أرواح الأعاصير
ألا طعان ألا فرسان عادية　　إلا تجشؤكم حول التنانير(١)

— ٧ —

الهجاء السياسي :

وأما الهجاء السياسي في الحجاز فألوان شتى منها :

(ا) هجاء الفرد قبيلته .

(ب) هجاء الفرد قبيلة أخرى يصور فيه مثالبها وما بينها وبين قبيلته من منازعات ومنافسات .

(ح) هجاء يتجه إلى الملوك الطغاة الذين يذلون القبائل ويفرضون عليها الاتاوات الفادحة .

(د) هجاء يصور الملاحاة التي كانت بين الاسلام وبين أعدائه .

وقد تحدثنا عن الألوان الثلاثة الأولى في « الشعر السياسي » . كما أسلفنا طائفة من الشعر الذي قيل في نقد الملوك الطغاة وتهديدهم ، وذكرنا نبأ الحارث ابن ظالم المري الذي فتك بخلد بن جعفر وقتل ابنا للنعمان كان في حجر أخته سلمى بنت ظالم وأوردنا قصيدته التي مطلعها:

قفا فاسمعا أخبركما إذ سألتما　　محارب مولاه وثكلان نادم

ونزيد هنا أن سنان بن أبي حارثة المري – وهو يومئذ رأس غطفان – قال للنعمان بعد هذه الحادثة : « أبيت اللعن والله ما ذمة الحرث لنا بذمة ولا جاره لنا

(١) الجوف : ج أجوف . الجخور : الواسع الجوف والمراد الضعفاء المسترخون . التخاجؤ : التباطؤ في المشي . العصب : شدة الخلق . المشية السجح : السهلة . التجشؤ : تنفس المعدة عند الامتلاء . التنانير : ج تنور وهو ما يخبز فيه . ديوان حسان ص ٢١٣ و « الهجاء والهجاءون ص ٢٢٢ » .

بجار ، ولو أمنته ما أمنه . فقال الحرث يندد بالنعمان وسنان ويتوعدهما ويسخر منهما :

ألا أبلغ النعمان عنى رسالة   فكيف بخطاب الخطوب الأعاظم
وأنت طويل البغى أبلج معور   فزوع إذا ماخيف إحدى العظائم
فما غرة والمرء يدرك وتره   بأروع ماض الهم من آل ظالم
أخى ثقة ماضى الجنان مشيع   كيش التوالى عند صدق العزائم
فأقسم لولا من تعرض دونه   لعولى بهندى الحديدة صارم
فأقتل أقواماً لئاماً أذلة   يعضون من غيظ أصول الأباهم
تمنى سنان ضلة أن يخفنى   ويأمن ، ما هذا بفعل المسالم؟
تمنيت جهداً أن تضيع ظلامتى   كذبت ورب الراقصات الرواسم
بين امرىء لم يرضع اللؤم ثديه   ولم تتكنفه عروق الألائم

* * *

أما اللون الرابع الذى يصور الصراع بين الشرك والاسلام ، فيمكن أن نسميه « الهجاء الدينى » .

— ٨ —

الهجاء الدينى :

وقد أدرك النبى صلوات الله علية قيمة الحرب الكلامية وأثرها الفعال فى تعزيز الحرب الفكرية ، والمعارك الحربية بينه وبين قريش الوثنية ؛ فانتدب حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة للذود عن الاسلام ومنافحة المشركين ، وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم الكفر ، ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر . فكانوا فى ذلك الزمان أشد شىء عليهم قول حسان وكعب ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام ، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة(١) .

(١) الأغانى ١٥ : ٢٨ .

وكان النبي صلوات الله عليه يصلح بعض هذا الشعر ويوجهه ، ويطلب إلى حسان أن يستفيد من علم أبي بكر في الأنساب ليعرف مخازي قريش وعوراتها .

« وقد كان أثر هذه العناية بالدعاية للدين واضحا في نمو فن الهجاء وعنفه ، ولكنه لم يترك أثراً واضحا في أسلوب هذا الفن ، فقد ظل كما كان جاهليا في صميمه ، معتمداً على الأنساب ، والتعبير بضعف العصبية ، وخمول الذكر ، والعجز عن حماية الجار ، والاستسلام للمهاجمين من الأعداء ، والقعود عن الثأر ، إلى أمثال هذه الخصال التي تصور المثل الجاهلية ، ولم يتأثر بالقيم الجديدة إلا قليلا . والنبي صلوات الله عليه يقول لشعراء المسلمين : قولوا لهم مثل مايقولون لكم ، ذلك لأنه قصد إلى التأثير في الجماهير ، ولم يكن التعبير بالشرك ، وعبادة ما لا يعقل ، ومخالفة الخلق القويم ، ليصنع في هذا المقام شيئاً ، فالهجاء فن يعتمد على الواقع وعلى القيم الأخلاقية الاجتماعية كما يتصورها العصر [1] » ومن أمثلة هذا الشعر قول عبد الله بن الزبعرى في غزوة أحد قبل أن يسلم :

يا غراب البين أسمعت فقل ... إنما تنطق شيئاً قد فعل
إن للخير وللشر مدى ... وكلا ذلك وجه وقبل
أبلغا حسان عني آية ... فقريض الشعر يشفي ذا الغلل
كم قتلنا من كريم سيد ... ماجد الجدين مقدام بطل
صادق النجدة قرم بارع ... غير ملتاث لدى وقع الأسل
ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكت بقباء بركها ... واستحر القتل في عبد الأشل
ثم خفوا عند ذاكم رقصا ... رقص الحفان يعلو في الجبل
فقتلنا الضعف من أشرافهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لا ألوم النفس إلا أننا ... لو كررنا لفعلنا المفتعل
بسيوف الهند نعلو هامهم ... عللا نعلوهم بعد نهل

---

(١) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ١٧٧ و ١٧٨ .

وقول حسان بن ثابت فى غزوة بدر :

لقد علمت قريش يوم بدر غداة الأسر والقتل الشديد
بأنا حين تشتجرُ العوالى حماة الرّوع يوم أبى الوليد
قتلنا ابنى ربيعة يوم ساروا إلينا فى مضاعفة الحديد
وفرّ بها حكيم يوم جالت بنو النجار تخطر كالأسود
ووَلّت عند ذاك جموع فِهرٍ وأسلمها الحوَيرِث من بعيد
لقد لاقيتم خزياً وذلاً جهيزاً باقيا تحت الوريد
وكان القوم قد ولّوا جميعا ولم يَلووا على الحسب التليد[1]

(١) ديوان حسان ١٤٠ و ١٤١

الفصل السابع

فنون شعرية أخرى

تحدثنا فى الفصول السابقة بتفصيل ما عن طائفة من أغراض الشعر وفنونه، وسنتناول بالإجمال فى هذا الفصل أغراضا أخرى هى الوصف والمديح والرثاء.

الوصف

كان للشعراء الحجازيين فى الجاهلية مجال واسع فى ميدان الوصف، فقد وصفوا بيئتهم وما يتصل بحياتهم من مظاهر الطبيعة أو مظاهر الحضارة وغيرها، وصفوا الأرض والسماء والليل والكواكب والنجوم، والرياح والأمطار والبرق والسحاب، كما وصفوا النبات والأزهار والأشجار والصحراء وما بها من نجاد ووهاد، وشعاب وجبال وبطاح وكثبان، وما يدور فى فلك حياتهم من حل وترحال وكر وفر، وغارات وحروب، كما وصفوا الإبل والخيل والطير والنعام والآرام والظباء وغيرها. كما اهتموا بوصف المطاعم الرقيقة كالفالوذج والملابس الناعمة وألوان الحلى وسائر مظاهر الترف، والكتابة وأدواتها، والحروب وأسلحتها.

وكان الحجازيون إذا تناولوا بالوصف مكاناً أو حيواناً أو امرأة أو أى شىء فى الحياة، توخوا الدقة والصدق فى رسم الواقع، فهم بذلك واقعيون يمثلون الطبيعة كما هى، ولا يتحرجون فى ذكر الأعضاء التى يعد ذكرها خروجاً على أدب اللياقة. وكانوا لا يبالغون فى وصفهم. ومن النادر أن نجد المثل قول النابغة فى وصف السيوف الصارمة:

تقد السلوقى المضاعف نسجه وتوقد في الصحصاح نار الحباحب [1]

وهو فى هذا البيت يذهب إلى أن سيوف الممدوحين تقطع الدرع المضاعف ، ثم تقد الفارس والفرس ، ثم تنفذمنهما إلى الحجارة حيث تقدح فيها الشرر . وهى مبالغة قل أن تجد لها نظيراً فى الشعر الحجازى الجاهلى .

وكانوا إذا صوروا حادثة ، مثلوها دون إيغال فى استعمال الكناية أو المجاز كما فعل أبو ذؤيب الهذلى فى وصف حمر الوحش وصيدها[2] . وليس معنى هذا خلو أوصافهم من الجمال الفنى . . كلا ، فإننا نجد لهم تشبيهات رائعة واستعارات جميلة كما يتضح ذلك من القصيدة التى يصف فيها تأبط شراً تحيا له للخلاص من بجيلة فى إحدى مغامراته الظافرة .

وقصة هذه المغامرة أن بنى لحيان أخذت عليه طريق جبل ألقوه به يجنى عسلا . ولم يكن له درب سواه . فقالوا له : استأسر أو نقتلك ، فأبى أن يستأسر ، وهداه فكره اللماح إلى حيلة تخلصه من موقفه الحرج فصب ما معه من العسل على الصخر ، وترك جسمه ينزلق عليه حتى وصل إلى الأرض من غير طريقهم ، ونجا منهم دون أن يمسه أذى من الصخر ، والموت المحقق ينظر إليه خزيان لنجاته منه :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا ... به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حول ... إذا سد منه منخر جاش منخر
أقول للحيان وقد صفرت لهم ... وطابى ويومى ضيق الجحر معور
هما خطتا إما إسار ومنة ... وإما دم والقتل بالحر أجدر
وأخرى أصادى النفس عنها وإنها ... لمورد حزم إن فعلت ومصدر

---

(١) السلوقى : درع منسوب إلى بلدة « سلوقة » : من ساحل أنطاكية بالشام أو هى قرية باليمن . الصفاح : الحجارة العراض . نار الحباحب : شعاع يضىء بالليل من ذباب يسمى « الحباحب » .

(٢) راجع ديوان الهذليين ١ : ٦ وما بعدها .

فرشت لها صدري فزل عن الصفا … به جؤجؤ عبل ومتن مخصر
فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا … به كدحة والموت خزيان ينظر
فأبت إلى فهم ولم أك آئباً … وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

ونحن لانستطيع استيعاب الكلام فى هذا الباب الواسع ، وحسبنا أن نذكر لونين من ألوان الوصف . وهما أدوات القتال ، وأدوات الكتابة :

أدوات القتال :

تعتبر السيوف أشهر آلات القتال ذكراً وأكثرها أسماء ونعوتاً وأجود الأسلحة التى يستعملها العربي . وكانت السيوف تصنع أحيانا بالمدينة على يد بعض القيون كما اشتهر بصناعتها اليهود .

ومن أجود سيوف الحجازيين ، بل سيوف العرب عامة : المشرفية وهى منسوبة إلى المشارف وهى القرى التى تدنو من الريف مثل خيبر ودومة الجندل . وقيل تنسب إلى « مشرف » ، وهو رجل من ثقيف . ومن أشهرها « الهندية » المستوردة من الهند .

وقد برع الحجازيون فى وصف السيوف والفخار بها ومرونتهم فى استعمالها فقال قيس بن الخطيم :

كأن سيوفنا منا ومنهم … مخاريق بأيدى لاعبينا

كما برعوا فى وصف القسى والدروع والرماح ، وهذا المزرد بن ضرار يصف رمحه بأنه لين مهتز كأنما سقى بالزيت ، وبأنه مصمت يهتز أعلاه إذا ماهز مقبضه حتى لكأنه ثعبان حذر ، أما سنانه فحاد لامع كأنه هلال ناحل يضيء فى ظلمة الليل :

ومطرد لدن الكعوب كأنما … تغشاه منباع من الزيت سائل
أصم إذا ماهز مارت سراته … كما مار ثعبان الرمال الموائل
له فارط ماضى الغرار كأنه … هلال بدا فى ظلمة الليل ناحل(١)

---

(١) مطرد : لين مهتز . منباع : سائل . سراته : أعلاه . موائل : محاذر . فارط : سنان . غرار : حد .

ومزرد نفسه هو الذى قدم لنا صورة دقيقة بارعة لقوسه ، منذ أن كانت فرع ضالة مخبوءة فى مكان بعيد تصونها الفروع والأشجار الملتفة حتى وصل إليها القواس بعد أن نحى من طريقه كل رطب ويابس وأنفل تحت الشجر حتى نالها فاقتطفها ... إلى أن هيأها للرمى بعد عامين يلتمس فيهما اعوجاجها ، فإذا هى صفراء يغلى ثمنها المشترى الحاذق ، وإذا ماحرك الرامى وترها كان لها عويل ثكلى حزينة ، ثم يصف حرصه عليها إذا سقط الندى حيث يلفها بالحبير وهو الجديد المحبر ، لا بالمعاوز وهى الثياب الخلقة :

تخيّرها القوّاس من فرع ضالة ... لها شذب من دونها وحوازئ
فأمسكها عامين يطلب درأها ... وينظر منها ما الذى هو غامز
أقام الثقافُ والطريدةُ متنها ... كما أخرجت ضغن الشموس المهامز
إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ... ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز
كأنّ عليها زعفرانا تُميره ... خوازنُ عطار يمان كوانز
إذا سقط الأنداء صينت وأشعرت ... حبيراً ولم تدرج عليها المعاوز(١)

ويصف الشنفرى قوسه بأنها ملساء صلبة ذات صوت كأنها تهتف ، وقد زانتها الرصائع ، وإذا ما انطلق عنها السهم سُمِع لها حنين وإعوال كأنها امرأة منكوبة اصطلحت عليها الأرزاء :

هتوف من الملس المتون يزينها ... رصائع قد نيطت إليها ومحمل
إذا زلّ عنها السهم حنت كأنها ... مرزأة عجلى ترن وتعْوِل(٢)

---

(١) لها شذب وحوازئ : أى دون الوصول إليها عيدان مشذبة ، وحوازئ ، أوحوازئ فروع أوأصول مقطوعة . الدرء : الاعوجاج . الغامز : الشق فى القوس . الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الطريدة : القصبة يعرف بها اعتدالها . تميره : تحركه . الحبير : المحبر المنقوش .

(٢) المتون : الصلبة . الرصائع : ما يرصع به من جوهر أو غيره . المحمل : علاقة السيف . عجلى : مسرعة .

ووصف الحجازيون الدروع ونسبوها إلى سلوق كما سبق فى قول النابغة ، وإلى الفرس كما فى قول دريد بن الصمة فى رثاء أخيه :

نصحتُ لعارض وأصحاب عارض　　ورهط بنى السوداء والقوم شهَّدى
فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج　　سراتهم فى الفارسى المسرَّدِ

كما وصفوا المغفر أو القونس أو البيضة وهى التى يقون بها رءوسهم من السيوف فى الحرب قال العباس بن مرداس :

فلم أر مثل الحى حيّاً مصبحاً　　ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكر وأحمى للحقيقة منهمُ　　وأضرب منا بالسيوف القوانسا

ووصفوا المجن أو الترس أو الدرقة ، وهى جنة من جلد يتقون بها ضرب السيوف على الأبدان . ووصف المزرد بن ضرار ترسه وهو يلمع كأنه الشمس بين طيات السحاب فقال :

وَجوبٌ يرى كالشمس فى طخية الدجى　　وأبيض ماض فى الضريبة قاصل(١)

وذكر أبو قيس بن الأسلت عدده الحربية ومنها الترس فقال :

أحفزها عنى بذى رونق　　مهندٍ كالملح قطَّاع
صَدق حسام وادق حدُّه　　ومُجنأ أسمر قرَّاع(٢)

ووصفوا اللواء الذى لا يحمله عادة إلا كل بطل شجاع . وقد كان عثمان بن أبى طلحة فى يوم أحد يحمل لواء المشركين ويقول :

إنَّ على أهل اللواء حقا　　أن يخضبوا الصعدة أو تندقا(٣)

أدوات الكتابة :

أما الكتابة فسيتناول حديثنا عنها المواد التى كانوا يكتبون عليها والأدوات التى كانوا يكتبون بها ، وألوان كتابتهم ذاتها :

---

(١) جوب : ترس　　　المفضليات ١ : ٩٧
(٢) المفضليات ٢ : ٨٤ . مجنأ : منحنى ويقصد به الترس . قراع : صلب .
(٣) الصعدة : الأرض أو القناة المستوية .

والحجازيون — كالعرب الجاهليين — كانوا يكتبون على الجلد والقماش والنبات والخشب والحجارة والعظام والورق .

وكانوا يسمون الجلد : « الرق » و « الأديم » و « القضيم » . والفرق بينها غير واضح من النصوص والروايات ، بيد أن المعاجم تجعل « الرق » : الجلد الرقيق الذى يسوّى ويرقق ويكتب عليه ، وتجعل « الأديم » : الجلد الأحمر أو المدبوغ ، وتجعل « القضيم » : الجلد الأبيض يكتب فيه . وقد ورد ذكرها فى الشعر الحجازى الجاهلى .

فى الرق يقول معقل بن خويلد الهزلى :

وإنى كما قال مُمِلى الكتا ... ب فى الرق إذ خطه الكاتب(١)

وفى القضيم يقول النابغة الذبيانى :

كأن مجرّ الرّامسات ذيولها ... عليه قضيمٌ نمّقته الصوانع(٢)

وكانوا يطلقون على الصحف إذا كانت من القماش : المهارق — ومفردها : « المهرق » فارسى معرب وأصله مهر كرد — وهى خرق حرير أوقطن تصقل ويكتب فيها ، ويبدو أن المهارق كانت لارتفاع ثمنها لايكتب فيها إلا القليل من شئونهم ككتب الدين أو العهود والمواثيق والأمان .

وفى المهرق يقول شتيم بن خويلد الفزارى :

تسمع أصوات كدرى الفراخ به ... مثل الأعاجم تغشى المُهرق القلما(٣)

وأشهر ما كتبوا عليه من النبات العُسب جمع عسيب ، وهو السعفة أو جريدة النخل إذ يبست وكشط خوصها .

قال لبيد يصف كاتباً :

متعودٌ لِحنٌ يعيدُ بكفه ... قلماً على عُسبٍ ذبلْنَ وبان

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٧٠ .

(٢) ديوانه (خمسة دواوين) ص ٥٠ . الرامسات الرياح .

(٣) النقائض : ١٠٦ .

وكانوا يسمون الكتابة والنقش على الحجر : الوحى : قال زهير :

لمن الديار غشيتها بالفدفد كالوحى فى حجر المسيل المخلد

وذكروا فى أشعارهم الورق ، فهل كان الورق هو الجلد الرقيق الذى يشبه فى رقته ورق الشجر ، أم هو الورق المعروف بالورق الصينى جلبوه من البلاد المجاورة للصين كالهند وفارس ، وإذا فيقد عرفنا الورق الصينى كما يرجح بعض الباحثين ؟ وأيا كان الأمر فإننا نجد ذكر الورق فى مثل قول حسان بن ثابت :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحى فى الورق القشيب

* * *

وكان للمواد المكتوبة أسماء عامة من أشهرها الصحيفة والكتاب والزبور ، وقد وردت الصحيفة بصيغة الجمع فى شعر قيس بن الخطيم حيث تقول :

لما بدت غدوة جباههم حنت إلينا الأرحام والصحف

ويعنى بالصحف : العهود والمواثيق المسجلة فى الصحائف ، كما وردت فى قول درهم بن زيد الأوسى ، وهو يذكر الخزرج ما بينهم من أحلاف وعهود مكتوبة :

وإن ما بيننا وبينكم حين يقال : الأرحام والصحف

وربما كانت لفظة الكتاب أعم من الصحيفة ، إلا أنها أطلقت على الشىء المكتوب حتى لا تكاد تنصرف إلا إليه . وقد وردت فى شعر زهير حيث يقول :

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

أما الزبور — وجمعها زبر — فتطلق على الكتاب الدينى وغير الدينى ، قال أمية ابن أبى الصلت على المعنى الأول :

وأبرزوا بصعيد مستو جرز وأنزل العرش والميزان والزبر

واشتقوا من الزبور الفعل : يزبر بمعنى يكتب . قال أبو ذؤيب :

عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الكاتب الحميرى

ووصف الحجازيون الكتابة وصفاً جميلا بارعاً ، فهذا أبو ذؤيب الهذلي يشير إلى كاتب يكتب ديناً له ، ويصف كتابته بأنها كانت كتابة دقيقة يتأنف فيها ، حتى يجعلها مزخرفة مزينة كالعروس ليلة تهدى إلى زوجها فوصف أبو ذؤيب هذه الكتابة بأنها « رقم » و « وشى » و « نمنمة » ، ثم يصف لنا الصحف التي كان يكتب عليها . ويذكر أنها ناعمة رقيقة « كالرياط » ، ولا يكتفي بذلك بل إنه ليعرف أن هذه الصحف لا يكتب عليها الكاتب أول مرة ، وإنما يستخدمها بعد أن استخدمها غيره من قبله ، فجاء صاحبنا الدائن فمحا الكتابة السابقة ، وكتب عليها دينه ، ولكن آثار الكتابة السابقة مازالت باقية يشاهدها أبو ذؤيب فيعرفها ويصفها ، وذلك قوله :

عرفت الديار كرقم الدوا ... ة يزبرها الكاتب الحميرى
برقم ووشى كما زخرفت ... بميشمها المزدهاة الهدى
أدان وأنبأه الأولو ... ن أن المدان الملى الوفى
فنمنم فى صحف كالريا ... ط فيهن إرث كتاب محى(١)

ويشبه معاوية بن جعفر منازل حبيبته بالكتابة المجودة المنمقة فيقول :

فإن لها منازل خاويات ... على نملى وقفت بها الركابا
من الأجزاع أسفل من نميل ... كما رجعت بالقلم الكتابا
كتاب محبر هاج بصير ... ينمقه وحاذر أن يعابا

وكما وصفوا الكتابة المجودة المتقنة ، وصفوا كذلك الخط السريع المعمى الفعل الذى لا إتقان فيه . قال الشماخ يصف تعريض الخط .

كما خط عبرانية بيمينه ... بتيماء حبر ثم عرض أسطرا

وتعريض الخط هو تعميته وعدم تقويمه وترك تبيين حروفه .

---

(١) الميشم : الإبرة تشم بها المرأة على كفها ، زخرفت : زينت ، المزدهاة : التى استخفها الحسن والعجب ، الهدى : العروس ، أدان : باع بيعاً إلى أجل ، الملى : الميسر ، الرياط : الملاء جمع ملاءة .

واجع مصادر الشعر الجاهلى ص ١٢٢ ، وديوان الهذليين ج ١ ص ٦٤ — ٦٥

وذكر الحجازيون الأدوات الكتابية كالقلم والدواة والحبر . والقلم فى الجاهلية مصنوع فى القصب ، يقط ويقلم أو يبرى ثم يغمس فى مداد الدواة ، ويكتب به .

وقد مر ذكر القلم فى بيتى شقيم بن خويلد ، كما ورد فى شعر لأمية بن أبى الصلت وهو يمدح بنى إياد فيقول :

قوم لهم ساح العرق إذا   ساروا جميعاً والقط والقلم

أما الدواة فقد ذكرت فى قول أبى ذؤيب :

عرفت الديار كرقم الدو   اة يزبرها الكاتب الحميرى[1]

المديـــــح

والمديح لون من الشعر يزدى بصاحبه ، إذا كان غرضه الزلفى ، والتماس العطايا والهبات .. ولا غبار عليه إذا كان صادراً عن إحساس صادق ، وشعور لا زيف فيه تجاه الممدوح : شعور برىء من غرض التكسب ، أو النفاق .

ومن شعراء الحجاز الذين أسهموا بنصيب فى هذا الفن : النابغة الذبيانى ، وزهير ابن أبى سلمى . وكان الحجازيون إذا مدحوا يشيدون بفضائل الممدوح ، وكريم خلاله ، كالشجاعة والكرم ، والعفة والنجدة ، والشهامة والمروءة ، والصدق والوفاء وغيرها من الخلال .

ونظرة فى نماذج هذا الشعر التى سقناها ، كقصيدة أبى طالب فى مدح الرسول (ص) وقصيدة النابغة فى مدح عمرو بن الحارث الغسانى ، وشعر أمية بن أبى الصلت فى مدح عبد الله بن جدعان ، ترينا حسن تلطفهم فى الكشف عن محاسن ممدوحيهم ، وصدق إحساسهم فيما يسبغون عليهم من نعوت .

---

(١) راجع ابن هشام ١ : ٤٨

(٢) ص ٢٢٩ و ٢٣١ و ٢٣٨ من هذا الكتاب .

وقد رووا أن أمدح بيت قالته العرب قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وكان النابغة يتمتع بمكانة سامية لدى الغساسنة .. كان يتشفع لديهم ، فتقبل شفاعته ، وتطلق بوساطته الأسرى ، فيؤوبون مزودين بالهدايا والهبات الوافرة .

ولا غرو إذا ما قال فى مدحهم :

ولله عينا من رأى أهل قبة أضر لمن عادوا وأكثر نافعاً
وأعظم أحلاما ، وأكثر سيداً وأفضل مشفوعاً اليه وشافعاً
متى تلقهم لا تلق للبيت عورة ولا الضيف ممنوعاً ولا الجار ضائعا

وكان النابغة يعتبر الملوك إخوانا له يحكم فى أموالهم :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم فى أموالهم وأقرب

وفى الإشادة بشخصية حصن بن حذيفة الفزارى يقول زهير :

بكرت عليه غدوة فرأيته قعوداً لديه بالصريم عواذله
يفدينه طوراً ، وطوراً يلمنه وأعيا فما يدرين أين مخاتله
فأقصرن منه عن كريم مرزء عزوم على الأمر الذى هو فاعله
أخى ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يتلف المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وكان الحجازيون فى مدحهم يتوخون غالباً جانب البساطة والصدق فى التعبير عن الفضائل الحقيقية للممدوح ، ولا يعرفون المبالغة ولا الملق ولا النفاق ، مما نراه سائرا فى عصرنا الحاضر .

أما القــول الزائف الذى يغشى نفوسنا فى أيامنا الراهنة ، حيث تقلب الحقائق رأساً على عقب ، فإذا الظالم المستبد عادل ، بل لا أعدل منه ، وإذا

الفاسق الطالح صالح تقى ، بل هو مثال للصلاح والتقوى ، فهذا ما لم يكن يسيغه الحجازيون الأول .... كانوا لا يمدحون الطغاة المستبدين ، الذين يصادرون حريات الشعوب ، وإنما يشيدون غالباً بأنصار العدل والحرية ، وأنصار الأمن والخير والاستقرار كما فعل زهير فى مدحه لهرم بن سنان ، والحارث بن عوف المريين ، اللذين احتملا ديات القتلى من حى عبس . وذبيان فى حرب داحس والغبراء الشهيرة ، حتى تضع الحرب أوزارها . .

إن زهير بن أبى سلمى شاعر إنسانى شريف ، تضىء نفسه فكرة سامية مضيئة ، ألا وهى فكرة السلام ، فتدفعه لأن يشيد بأنصار السلام ضد تجار الحروب ، وأصحاب البغى والعدوان ، فيقول:

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعدما   تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله   رجال بنوه من قريش وجرهم
يميناً لنعم السيدان وجدتما   على كل حال من سحيل ومبرم (١)

وبهذه المكرمة العظيمة التى أسداها السيدان الحجازيان ، انتهت تلك الحرب الضروس التى مكثت أربعين سنة .

---

(١) السحيل : الخيط المفرد ، وهو كناية عن الرخاء . المبرم : الذى يجمع بين مفتولين وهو كناية عن الشدة .

الرثاء

وقد بكى الشعراء الحجازيون موتاهم ، وأظهروا اللوعة والحسرة لفقدان كل عزيز عليهم ، وأشادوا بمناقبه وشمائله من بطولة وشجاعة ، وكرم وعفة ، ونجدة وشهامة ، معقبين على ذلك فى بعض الأحيان بالحكم الخوالد التى تتصل بفلسفة الموت والحياة وأحداث الدهر وفواجع الزمان .

وكانوا أحياناً يستهلون مرثياتهم بالغزل ، ولعل اسم المتغزل فيه فى هذا الموقف رمز لنفس الشاعر الكليمة الحزينة ، ونجد ذلك فى رثاء أبى ذؤيب الهذلى لصديق له إذ يقول :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها
أبى الله إلا أم عمرو وأصبحت تحرق نارى بالشكاة ونارها

وفى رثاء دريد بن الصمة لأخيه عبد الله حيث يقول :

أرث جديد الحبل من أم معبد بعاقبة أم أخلفت كل موعد

ومرثية « دريد » هذه تعتبر نمطا عالياً من شعر الرثاء فى الأدب العربى ، وقد ذكرناها فى نماذج الشعر [ص ٣٤١] ، وهى تمتاز بالصدق والقدرة على مغالبة الدمع ، ووصف شمائل الفقيد وصفاً يشعر القارىء أو السامع باللوعة والأسى لفقده .

ولم يقتصر الرثاء على الرجال ، بل إن الشواعر الحجازيات قد أسهمن إسهاما ملحوظاً فى هذا الباب ، وبرزت الخنساء فى مراثيها التى بكت بها أخويها معاوية وصخراً . وقد أسلفنا نموذجين من شعرها فيهما (ص ٣٤٠ — ٣٤١) وقد تعاظمت هى وهند بنت عتبة مصيبتهما وادعت كل منهما أن مصيبتها أعظم ، ويضيق المجال عن ذكر شعرهما فى هذه المعاظمة ، فلتراجع فى الأغانى ٤ : ٢١١ — ٢١٢ .

وفى كثير من مراثى الشواعر ، تصوير لما أصابهن من ذلة وضعف بعد فقد من فقدن ، كقول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية فى رثاء أبيها :

قد كنت لى جبلا ألوذ به فتركتنى أضحى بأجرد ضاح
قد كنت ذات حمية ما عشت لى أمشى البراز وكنت أنت جناحى

فاليوم أخضع للذليل وأتقى منه وأدفع ظالمى بالراح
وإذا دعت قرية شجناً لها يوماً على فنن دعوت : صباح
وأغض من بصرى وأعلم أنه قد بان حدفوارسى ورماحى »[1]

وقد هيض جناح الخنساء بعد مصرع أخيها صخر وهى تصور ذلك فتقول :

دق عظمى وهاض منى جناحى هلك صخر فما أطيق براحا

ولا نجد أثراً لهذا التضعضع والذلة والانكسار فى رثاء الرجال مهما أمضهم الحزن. ونجد حديث اللوعة والفجيعة ، والبكاء والدموع ، فى شعر النساء أكثر منه فى شعر الرجال ، فالخنساء تتحدث عن شيبها قبل الألوان وكآبة حياتها وحرقة فؤادها على فقدان أخيها فتقول :

تقول نساء : شبت من غير كبرة وأيسر مما قد لقيت يشيب
أقول أبا حسان لا العيش طيب وكيف وقد أفردت منك يطيب؟
ذكرتك فاستعبرت والصدر كاظم على غصة منها الفؤاد يذوب
لعمرى لقد أوهيت قلبى عن العزا وطأطأت رأسى والفؤاد كئيب
لقد قصمت منى قناة صليبة ويقصم عود النصب وهو صليب[2]

وتطلب إلى عينها أن تفيض فيضا وتنهمر بالدمع الغزير :

ألا يا عين فانهمرى بغزر وفيضى فيضة من غير نزر
ولا تعدى عزاء بعد صخر فقد غلب العزاء وعيل صبرى

وإذا ما نضب معينها طلبت إليها أن تجود بالدمع السكوب :

يا عين مالك لا تبكين تسكابا إذ راب دهر وكان الدهر ريابا
يا عين جودى بدمع منك مسكوب كلؤلؤ جاء فى الأسماط مثقوب

---

(١) الأمالى ٢ : ١ ، والمرأة فى الشعر الجاهلى ٤٨٨ — ٤٨٩ .

(٢) أبو حسان : كنية صخر . النصب : عود النبع الذى تتخذ منه القسى . راجع ديوان الخنساء ص ١٥ .

أما الرجال فيصبرون على المصيبة ويتجلدون ، يقول أنس بن مدركة الخثعمى :

كم من أخ لى كريم قد فجعت به ثم بقيت كأنى بعده حجر
لا أستكين على ريب الزمان ولا أغضى على الأمر يأتى دونه العذر

وأية كارثة أعظم من أن يفقد الرجل سبعة من أبنائه فى يوم واحد ؟ ! ذلك ما حدث لأبى ذؤيب الهذلى ، ومع هذا لم يتضعضع . نعم إنه بكى واستعبر ، ولكنه ما لبث أن تجلد ، فقد روى أن بنيه السبعة شربوا من لبن شربت منه حية ، ثم قاءت[1] فيه فهلكوا . وقد رثاهم بقصيدته الرائعة التى تمضى على النحو الآتى :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمة ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أم ما لجنبك لا يلائم مضجعاً إلا أقض عليك ذاك المضجع
فأجبتها أن ما لجسمى أنه أودى بنى من البلاد فودعوا
أودى بنى وأعقبونى غصة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع
سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
فغبرت بعدهمو بعيش ناصب وإخال أنى لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهمو فاذا المنية أقبلت لا تدفع[2]
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيتَ كل تميمةٍ لا تنفعُ
فالعينُ بعدهمو كأنَّ حداقَها سُمِلت بشوكٍ فهى عُورٌ تدمعُ

(١) ديوان الهذليين ١ : ١ وفيه « ماتت » بدل « قاءت » وهو خطأ ، لأنها لو ماتت فى اللبن لرأوها فامتنعوا عن الشرب ، وأبو ذؤيب هو خويلد بن خالد بن محرث جاهلى إسلامى كان راوية لساعدة بن جؤية الهذلى . خرج فى غزاة نحو المغرب فمات . وقيل مات بأرض الروم ودفن هناك .

(٢) هوى : هواى وهى لغة هذيل فى الاسم المقصور المضاف إلى ياء المتكلم . وأعنقوا : أسرعوا . تخرموا : أخذوا واحداً بعد واحد . غبرت : بقيت .

حتى كأنى للحوادث مروة   بصفا المشرق كل يوم تقرع (١)
لابد من تلف مقيم فانتظر   أبأرض قومك أم بأخرى المصرع؟
ولقد أرى أن البكاء سفاهة   ولسوف يولع بالبكا من يفجع
وليأتين عليك يوم مرة   يبكى عليك مقنعا لا تسمع
وتجلدى للشامتين أريهمو   أنى لريب الدهر لا أتضعضع

وديوان الهذليين ملىء بالمراثى الجيدة، حتى ليعد شيوع الرثاء من أهم خصائص الشعر الهذلى.

ورثاء الشاعر تكثر فيه التعبيرات النسوية التى تدور على ألسنة النساء كلمة أوجعنى فى قول الخنساء:

تعرقنى الدهر نهساً وحزا   وأوجعنى الدهر قرعاً وغمزا (٢)

ومثل لفظتى «لهفى» و«ويلى» فى قولها:

فيا لهفى عليه ولهف أمى   أيصبح فى الضريح وفيه يمسى؟!

وقولها:

ويلى عليه ويلة   أصبحت حصنى منكسر

ويندر فى مراثى النساء إرسال الحكم، على حين تكثر الحكمة فى رثاء الرجال كقول أبى ذؤيب:

والنفس راغبة إذا رغبتها   فإذا ترد إلى قليل تقنع
كم من جميع الشمل ملتئم الهوى   باتوا بعيش ناعم فتصدعوا
والدهر لا يبقى على حدثانه   فى رأس شاهقة أعز ممنع

ومن نوادر الحكم النسائية قول الخنساء:

أرى الدهر يرمى ما تطيش سهامه   وليس لمن قد غاله الدهر مرجع

---

(١) سملت: فقئت. عور. جمع عوراء من العور بضم العين وتشديد الواو، وهو ما يصيب العين من رمد وقذى. المروة: حجر أبيض براق تقتدح منه النار، ويقال لمن كثرت مصائبه: قرعت مروته.

(٢) النهس: النهش. القرع: الضرب على الرأس. والغمز: النخس باليد.

نشيد الانتقام :

ومن القصائد الشهيرة فى الأدب العربى مرثية الشاعر الحجازى « تأبط شراً » . ومطلعها الذى يمضى على النحو الآتى ، يتسم بطابع الحنق والثورة على الجناة وطلب الثأر والانتقام :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل
خلف العبء على وولى أنا بالعبء له مستقل
ووراء الثأر منى ابن أخت مصع عقدته ما تحل
خبر ما نابنا مصمئل جل حتى دق فيه الأجل[1]

وهى فى جملتها وصف لما يتحلى به المرثى من كريم الخلال ، ورغبة عارمة فى الانتقام من الجناة ، ووصف الأخذ بالثأر ، وراحة نفسية وتشف بعد الأخذ به ولا نكاد نجد فيها أثر الحزن والفجيعة إلا قليلا كما فى قوله :

بزنى الدهر وكان غشوماً بأبى جاره ما يذل[2]

وقوله :

فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخل[3]

ولا غرو إذا ما أطلق عليها بعض المستشرقين « نشيد الانتقام » ومما يدل على مكانة هذه القصيدة وعمق تأثيرها ، أن « جوته » شاعر الألمان الأكبر قد تأثر بها فى إحدى قصائده[4] بعد أن ترجمها إلى الألمانية ، ونشرها فى الديوان الشرقى . كما أنها نقلت كذلك إلى الفرنسية والإنجليزية والإيطالية . وهى نمط جميل رائع لوحدة القصيدة فى الأدب الحجازى خاصة ، والأدب الجاهلى عامة .

---

(١) المصع : الثابت الشديد المقاتلة . والمصمئل : الشديد .

(٢) بزنى : سلبنى ، والمراد : فجعنى به .

(٣) خل : مهزول . راجع القصيدة فى الحماسة ١ : ٤٨٠ — ٤٨٨ ط . صبيح .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٤ : ٤٣٦ — ٤٣٧ .

رثاء القبائل :

ولم يقتصر رثاء الحجازيين على أقاربهم وأصدقائهم والشخصيات البارزة فى مجتمعهم بل إنهم رثوا قبائلهم التى طحنتها الحروب . ويعتبر رثاء القبيلة فى الجاهلية نواة الفن الشعرى الذى يسمى « رثاء الممالك » فى العصور اللاحقة » .

وللحجازيين فضل السبق فى هذا المضمار . والعلم الذى برز فى هذا اللون هو الشاعر الحجازى ذو الأصبع العدوانى . روى صاحب الأغانى بسنده قال :

نزلت عدوان على ماء فأحصوا فيهم سبعين ألف غلام أغرل سوى من كان مختوناً لكثرة عددهم ، ثم وقع بأسهم بينهم فتفانوا ، فقال ذو الأصبع :

وليس المرء فى شىء ... من الإبرام والنقض
إذا أبرم أمراً خا ... له يقضى ولا يقضى
يقول اليوم أمضيه ... ولا يملك ما يمضى
عذير الحى من عدوا ... ن كانوا حية الأرض
بغى بعضهم بعضا ... فلم يبقوا على بعض
فقد صاروا أحاديث ... برفع القول والخفض
ومنهم كانت السادا ... ت والموفون بالقرض
ومنهم حكم يقضى ... فلا ينقض ما يقضى
ومنهم من يجيز النا ... س بالسنة والفرض(١)
وهم من ولدوا أشبو ... بسر الحسب المحض
وممن ولدوا عامر ذو الطول وذو العرض
وهم بوءوا ثقيفا دا ... ر لا ذل ولا خفض(٢)

---

(١) يقصد بالحكم عامر بن الظرب العدوانى اذ كانت العرب تحتكم إليه ، ويعنى بمن يجيز الناس أبا سيارة أحد بنى وابش بن زيد بن عدوان .

(٢) الاغانى ٣ : ٨٩ ، ٩٢ ط دار الكتب .

ولما كبر ذو الأصبع ، وهش عظامه وخارت قواه ، كان ينهض ثم يسقط وتوكأ على العصا ، ورأته ابنته أمامة على هذه الحال فجزعت وبكت ، فقال يصف حاله وحال قومه الذين أبادتهم حوادث الدهر :

جزعت أمامة أن مشيت على العصا … وتذكرت إذا نحن م الفتيان
فلقبل ما رام الإله بكيده … إرماً وهذا الحى من عدوان
بعد الحكومة والفضيلة والنهى … طاف الزمان عليهم بأوان
وتفرقوا وتقطعت أشلاؤهم … وتبددوا فرقاً بكل مكان
جدب البلاد فأعقمت أرحامهم … والدهر غيرهم مع الحدثان
حتى أبادهم على أخراهم … صرعى بكل نقيرة ومكان
لا تعجبن أمام من حدث عرا … فالدهر غيرنا مع الأزمان(١)

وأمامة كانت شاعرة مثل أبيها ومن شعرها فى قومها الذين تساقوا بينهم كأس المنية فبادوا ، قولها ترثيهم :

كم من فتى كانت له ميعة … أبلج مثل القمر الزاهر
قد مرت الخيل بحافاته … كمر غيث لجب ماطر
قد لقيت فهم وعدوانها … قتلا وهلكاً آخر الغابر
كانوا ملوكا سادة فى الذرى … دهراً لهم الفخر على الفاخر
حتى تساقوا كأسهم بينهم … بغياً فيا للشارب الخاسر
بادوا فمن يحلل بأوطانهم … يحلل برسم مقفر دائر(٢)

وسيجد القارىء شواهد وصوراً أخرى للرثاء ، عندما نتحدث عن النواح فى باب الغناء .

---

(١) المرجع السابق ١٠٨ — ١٠٩ وذو الأصبع هو حدثان بن الحارث شاعر فارس من قدماء الشعراء فى الجاهلية وله غارات كثيرة فى العرب ووقائع مشهورة ، وسمى ذا الأصبع لأن حية نهشته فى إصبعه فيبست .

(٢) الميعة : أول الشباب وأنشطه ، اللجب : الصاخب من قعقعه الرعد ، الدائر : الدارس العافى .

الباب الرابع

الموسيقى والغناء

وعلاقتهما بالشعر الحجازى وأوزانه

لقد كان الحجاز منذ العصور السحيقة منبعاً للموسيقى، ومصدراً للغناء، ولا غرو فى ذلك، فالسمة الأصيلة للعقلية الحجازية، هى أنها عقلية وجدانية، وأنفس الحجازيين تمتاز برهافة الحس ودقة الشعور، وحسن الذوق، ولطف الوجدان، واستجابة خاصة لتذوق أسرار البهاء والرواء فى الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة والفنون الجميلة كالشعر والغناء والموسيقى، وميل قوى للطرب والاستمتاع بأفانين الجمال؛ وجمال اللحن، وجمال الصورة.. هـذا إلى ماعرفوا به من روح الدعابة والظروف والنزوع إلى التحرر، وعدم التزمت.

ومنذ عهد بعيد كانت لمعاوية بن بكر، عميد العمالقة؛ الذين سكنوا مكة فى قديم الدهر قينتان للهو والقصف والغناء، اسمهما يعاد وثماد؛ وتدعيان «جرادتين».

ولما اشتد القحط بقوم عاد، بعد أن ضنت عليهم السماء، بعثوا وفداً إلى مكة، يستسقى لهم، واستقبلهم معاوية بن بكر بالترحاب، وقضوا شهراً فى ضيافته بين اللهو والشراب، والاستماع إلى غناء الجرادتين، لاهين عما انتدبوا له من استسقاء... ثم أفاقوا واستسقوا ولكن دون جدوى، فقد حاقت نقمة الله على قوم عاد لما ارتكبوا من موبقات!

وهاتان الجرادتان كان لهما صيت ذائع، حتى ضرب بهما المثل فى سالف الدهر، فقيل: صار فلان حديث الجرادتين، إذا اشتهر أمره [1]. ويقال إنهما أول من غنى الغناء العربى. وكذلك بهما ضرب المثل فى جودة الغناء فقيل: ألحن من جرادتين ومعنى هذا إذا صحت هذه الرواية — أن الانبثاقة الأولى للغناء العربى قد انبعثت أول ما انبعثت من مكة الكبرى حاضرة الحجاز.

(١) مجمع الامثال، ٢:٢٠٧

الحداء والنصب :

ويتحدث مؤرخو العرب عن أصل هذا الفن الجميل ، فيعتبرون الحداء أول الغناء ويرجعون أصله إلى أبي الحجازيين مضر بن نزار بن معد الذي يسمى في العهد القديم « المواداد » .

وهناك قصة تقول : إن مضر سقط عن بعيره ، فانكسرت يده فجعل يقول متألما « وايداه ، وايداه ! » فكان من ذلك الرجز(١) .

أما نحن فنرجح أن الحداء والرجز قد استلهما من مسير الجمال في الشعاب والوديان والقفار فهما توأمان ، وإن هذه الصلة لتدلنا على ارتباط الغناء والشعر بالعمل والكدح ، فالعربي يعيش في بيئة شحيحة بالرزق والماء ، وهو يضطر إلى السفر الطويل يطوى فيه الفيافي انتجاعاً للعشب والكلأ ، والتماسا للقمة العيش ، وربما خرج تاجراً أو عاملا في تجارة ، وكثيراً مايقطع هذه المسافات الشاسعة على سفينة الصحراء التي تحمله وتحمل أثقاله إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق الأنفس . وما أحوجه في هذه الرحلات المضنية التي يحتمل فيها هو وجمله ما يحتمل من الجوع والعطش ، والمشقة والعناء ولهيب الرمضاء ، أقول ما أحوجه ، إلى وسيلة تسليه وتسرى عنه ، وتشحذ همته وهمة راحلته على المضى إلى الغاية والهدف البعيد .

وكما يتغنى الحطاب ، وهو يضرب الأشجار بالفأس ، والحجار وهو يكسر الصخور بالمتلة ، ليحكما الضربات وينجزا عملهما بسرعة وإتقان ، متجاوبين في ذلك مع حركة الفأس والمتلة رفعاً وخفضاً ، كذلك كان العربي في سفره المضنى يتجاوب مع الإيقاع الذى تحدثه حركات ناقته في اهتزازها ، ومسافات سيرها .

وإنى لأتصور أبا الحجازيين مضر بن نزار في إحدى رحلاته الشاقة ، وقد أضناه السرى ، لانأمة ولا نغمة إلا صوت خطى راحلته ، وهى تنتقل في حركات إيقاعية منتظمة ، فإذا هو يتفوه بهمهمة تخفف عناء الارتحال ، وإذا

---

(١) المسعودى ٢ : ٩٢ . ابن خلدون ٢ : ٣٥٩ .

هذه الهمهمة تتميز شيئاً فشيئاً فى نبرات متساوية، ومقاطع متساوية، وإذا هو يقول
تمْ تمْ ترمْ . . . . تم تَمترَمْ تمْ . . تمْ ترَمْ

وإذا هو يكرر ذلك على إيقاع الأخفاف، ويشعر براحة نفسية لهذه الحركات المنغومة، ثم لا يلبث حتى تسعفه قريحته بكلام ينتظم ذلك الضرب من الإيقاع، وإذا هو يخترع الرجز أول أوزان الشعر، والحداء أول أنواع الغناء [1] .. وهكذا ولد هذان التوأمان فى الأدب العربى، الشعر والغناء، مرتبطين بالكدح والعمل، وما يعانيه العربى من عناء وشقاء!

وهذا الارتباط الواضح بين أوزان الشعر وبين الموسيقى، قد أدركه المؤلفون العرب ودلوا عليه. يقول ابن خلدون: «وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر، يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة، ويفصلون الكلام فى تلك الأجزاء تفصيلا، ويكون كل جزء منها مستقلا بالإفادة لا ينعطف على الآخر ويسمونه البيت . . . وهذا التناسق الذى من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف، قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف فى كتب الموسيقى [2]».

ثم دار الزمن دورته، وخطا الغناء خطوة إلى الأمام. فاشتق المغنون من الحداء فناً آخر يسمى «النصب» وهو غناء يشبه الحداء إلا أنه أرق منه وأحكم وأقوم لحناً ووزناً. وفى الحديث الشريف، «كلهم كان ينصب»: أى يغنى النصب [3] وهذا يدل على أن موجة الغناء قد كانت طاغية على النفوس، وأن النصب كان غناء شعبياً سائداً وخاصة لدى قريش، ومن المحتمل فى رأى بعض الباحثين — أن أصل النصب يتصل بعقيدة تقديم القرابين على «النصب» (٤).

---

(١) قال الجوهرى: «الحدو سوق الإبل والغناء لها». وهذا يدلنا على أن غناء الحداء كان حظاً مقسوماً بين الحادى وراحلته، يحثه كما يحثها، ويسرى عنها كما يسرى عن نفسه. انظر اللسان ج ١٨ مادة «حدا».

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧ ط الشرقية.

(٣) اللسان ح ٢ مادة «نصب».

(٤) «النصب: كل مانصب وعبد من دون الله، والأنصاب هى الأوثان. وعلى هذا فالنصب ضرب من الأناشيد الدينية ينشد حول الأنصاب».

السناد والهزج والنوح :

ويذكر ابن رشيق من غناء العرب فى الجاهلية ثلاثة أنواع : النصب، والسناد، والهزج . فأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . . . وأما الهزج فالخفيف الذى يرقص عليه ، ويمشى بالدف والمزمار ، فيطرب ، ويستخف الحليم . قال إسحاق : « هذا كان غناء العرب حتى جاء الله بالإسلام (١) .

وإذا صح ماذكره ابن رشيق ، فإن الحجازيين فى الجاهلية قد عرفوا كذلك الهزج و « السناد » من ألوان الغناء . . وقد كان « النوح » ذلك الفن الحزين الذى تفوق فيه النساء شائعاً بينهم أيضا . وكانت هند بنت عتبة إحدى اللواتى اشتهرن بالنواح وندب الموتى . وتحدثنا كتب التاريخ والأدب أنه لما كانت وقعة بدر ، وقتل فيها من صناديد قريش أبوها عتبة ، وعمها شيبة ابنا ربيعة، وأخوها الوليد بن عتبة ، أقبلت هند ترثيهم وتصور فجيعتها فيهم . ومن ذلك شعرها الذى رثت به أباها وعمها وبكتهما فيه إذ تقول :

مَنْ حَسَّ لى الأخوين كالـ ... غصنين أو من رَاٰهما
قرمان لا يتظالمـا ... ن ولا يرامُ حماهما
ويلى على أبوى والـ ... قبر الذى وَارَاهما
لا مثل كهلى فى الكهو ... لِ ولا فتى كفتاهما
أسدان لا يتذللا ... ن ولا يرام حماهما
رمحين خطيين فى ... كبد السماء تراهما
ماخلفا إذ ودَّعا ... فى سودد شرواهما (٢)
ساد بغير تكلف ... عفواً يفيض نداهما

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٢٤١ .

(٢) حس : أحس . راهما : رآهما . القرم : السيد العظيم . شرواهما : مثلهما .
انظر الأغانى ط الدار جـ ٤ ص ٢١٠ .

وقد كانت هند تنوح وتبكى ، ويرتفع صوتها بذلك الشعر الحزين ترسل فيه زفراتها الحرى ، وكان النساء يرددن بعدها النواح بذلك الشعر .

ومن رثائها فيهم قولها :

لله عينا من رأى هلكا كهلك رجاليه
يا رب باك لى غداً فى النائبات وباكية
. . . .
قد كنت أحذر ما أرى فأنا الغداة مواميه(١)
يا رب قائلة غداً يا ويح أم معاوية

ويبدو أن ندب القتلى أو الموتى ، لم يكن قاصراً على النساء ، فقد كان الرجال فى غزوة بدر يجدون فى النواح تنفيساً لنفوسهم الكظيمة الحزينة ، وتخفيفاً عن قلوبهم التى احترقت بنيران الأسى ، وهم لم يكفوا عن البكاء إلا خشية أن يشمت بهم محمد وأصحابه . روى ابن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه قال :

« ناحت قريش على قتلاها ، ثم قالت : لا تفعلوا فيبلغ ذلك محمداً (وأصحابه) ، فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى فداء أسراكم حتى تيأسوا منهم ، لا يتأرب (يشدد) عليكم محمد وأصحابه فى الفداء . . . وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده ، زمعة ، وعقيل ، والحارث ، وكان يحب أن يبكى على بنيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة فى الليل ، فقال لغلامه وقد ذهب بصره : أنظر هل أحل النحيب وهل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة (يعنى زمعة) فان جوفى قد احترق ، فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته ، فذلك حيث يقول الأسود :

أتبكى أن أضل لها بعير ويمنعها البكاء من الهجود

---

(١) مواميه : مختلطة العقل . سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤١٦ .

ولا تبكى على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود(١)
على بدر سراة بنى هصيص ومخزوم ، ورهط أبى الوليد
وبكى إن بكيت على عقيل وبكى حارثاً أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمى جميعاً فما لأبى حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهمو رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا(٢)

وربما بكوا آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فقد خرج نساء ثقيف حسراً يبكين « الطاغية » لما هدمها المغيرة بن شعبة وأبو سفيان بن حرب بأمر النبى ﷺ ، وكن يقلن : إنها تدرأعنهن الشرور ، ويدمن ثقيفاً بالضعف والخور ، واللؤم ، لأنهم أسلموها ولم يحسنوا الدفاع عنها بحد سيوفهم :

ألا أبكين دفاع أسلمها الوضاع
لم يحسنوا المصاع(٣)

والدفاع هو الشىء العظيم يدفع به مثله ، والوضاع : اللئام ، والمصاع : الضرب بالسيف (راجع الطبرى ٣ : ١٤٢) .

كيفية غنائهم :

أما كيفية غنائهم فى الجاهلية ، فقد وصفها « برون » بقوله : « لم تكن الموسيقى قبل الإسلام أكثر من ترنم ساذج ينوعه ويجمله المغنى أو المغنية تبعاً لذوقه ، أو انفعاله ، أو ما يريده من تأثير . وتطول هذه التعبيرات أو بالأحرى الانطلاقات ، طولا غير متناه فى مقطع ، أو كلمة ، أو شطر ، وبصورة تجعل غناء المقطوعة ذات البيتين أو الثلاثة يمكن أن يستغرق ساعات . . . وميزة المغنى فى جمال صوته ، وذبذبته ، والشعور الذى يجعل الصوت مستمراً أو متموجاً(٣) .

---

(١) تقاصرت الجدود : تواضعت الحظوظ ، يريد أنه يستهين فقد المال ، ويستعظم فقد النفوس .

(٢) الأغانى ط . الدارج ٤ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٣) برون : نساء عربيات قبل الإسلام .

ويرى الدكتور شوقى ضيف ، أن الغناء فى العصر الجاهلى لم تكن له قواعد معروفة ، بل كان كل يُغنى حسب شعوره وعواطفه ، ومايريد من تأثير على سامعيه، إذ كان العرب أقرب إلى الفطرة فى كل فنونهم (١) . ونحن — مع احترامنا للدكتور شوقى ضيف — لا نوافقه على هذا الرأى ، إذا لم يكن الغناء الجاهلى من السذاجة والفوضى كما تصور حضرته . . . والدكتور ضيف يصف نهضة الغناء بالحجاز ، ويرى أن الطرب كان شائعاً بالمدينة، وأن موجة حادة من الغناء قد اكتسحت مكة فى العصر الجاهلى ، حتى بلغ من بعض القوم هناك أن يرتحل إلى العراق فيطلب تعلم الغناء ، ثم يعود فيعلمه قومه ، ويقول معلقاً على ذلك : « وهذا دليل نهضته » فهو إذن يقر بأنه قد كانت هناك نهضة غنائية بمكة ، وكيف تستقيم هذه النهضة مع الفوضى ثم لماذا يبتعث المغنون إلى الحيرة إن لم يكن لدراسة أصول الفن الجيل وقواعده ونظمه ... ؟ ثم ماذا عسى أن يعلموا — إذا رجعوا إلى بلادهم — إن كان الغناء ألحانا مضطربة لا تسير على نظم وقواعد مرسومة ؟ بل لقد حدثنا التاريخ أن مكة كانت مصدراً لتغذية القصور الملكية فى غسّان وغير غسّان بالمغنين والمغنيات ، وفيم يفد مطربو الحجاز على جبلة بن الأيهم الملك الغسّانى إن لم يكن لغنائهم لون خاص وشخصية خاصة لا يعرفها المغنون فى الشام والعراق ، وإن لم تكن هذه الشخصية — مهما قيل فى سذاجتها — متميزة قد بنيت على قواعد ورسوم ؟ وإن ثقاة الباحثين ليرون أن « مغنّى » فى الجاهلية كان يغنى فى نغمة واحدة ، أو مقام « » ، وأنهم قد عرفوا التأليف والموسيقى ، كتأليف الأنغام التى تبعثها آلات القرع المختلفة من أمثال الطبل والدف والقضيب ، وكذلك تشكيل اللحن بالزخارف من التموجات والدورات التى سموها « الزوائد (٢) » .

---

(١) الشعر الغنائى فى الامصار الإسلامية — فى المدينة ص ٥٥ — وفى مكة ص ٧٥ .
(٢) تاريخ الموسيقى العربية لفارمر ص ٢٣ .

وإذا لم يعرف الجاهليون تأليف اللحون المتفرقة المسماة «التي تؤثر في النفوس» كما عرفها الغربيون ، فإنهم قد عرفوا من أصول الموسيقى العربية ما كان له تأثير في تلك النهضة الغنائية التي ازدهرت في الحجاز وبخاصة — مكة والمدينة — في عصر بني أميّة .

وليس من شك في أن الغناء الحجازي في العصر الجاهلي قد تأثر بالغناء الفارسي والرومي واليمني . ومن الحيرة اقتبس الحجازيون غناء أكثر فنية من النصب الذي كان لحناً شعبياً سائداً لديهم(١) كما قدمنا ، وكان ذلك على يد النضر بن الحارث الموسيقيّ الشاعر الذي أدخل إلى الحجاز عدة ألوان جديدة متطورة استعارها من البيئات الغنائية في الحيرة مقتفياً في ذلك أثر والده الحارث بن كلدة الذي تعلم ضرب العود بفارس واليمن ثم قدم مكة وعلم أهلها (٢)

وهذا النص الأخير يدلنا على أن صلة الحجاز بالغناء الفارسي كانت منذ العصر الجاهلي ، لا كما يزعم أبو الفرج الأصبهاني ، الذي يقول « إن سعيد بن مسجح المكي الأسود المغني (وهو إسلامي) أول من نقل غناء الفرس إلى العرب (٣) » ، والواقع أن أبا الفرج قد تخبط فيمن كان له فضل السبق في إدخال الغناء الفارسي ، أو الرومي إلى الغناء العربي ، فهو مرة ابن مسجح ، وأخرى ابن محرز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نشيط ، وخامسة طويس .

ولم تكن موجة الغناء خاصة بمكة ، وإنما شملت كثيراً من المدن والقرى الحجازية في الجاهلية . يقول ابن عبد ربه : « وإنما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً ، وهي المدينة ، والطائف ، وخيبر ، ووادي القرى ، ودومة الجندل ، واليمامة . وهذه القرى مجامع أسواق العرب(٤) » ، وجميع هذه المدن حجازية ماعدا اليمامة .

---

(١) المرجع السابق ص ١١ .
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ /١٠٩ وأخبار الحكماء ص ١١١ .
(٣) الأغاني ج ٣ ص ٨٩ ط ساسي .
(٤) العقد الفريد ٣ : ١٨٦ .

الآلات الموسيقية :

وإذا رجعنا إلى الآلات الموسقية التى وردت فى الشعر الجاهلى . ألفينا أكثرها أجنبية عن العرب .

فالقنين كلمة حبشية ، والطنبور كلمة فارسية أصلها (دنبه بره) أى (إلية الحمل) والبربط : العود أعجمى من ملاهى الفرس شبة بصدر البط ، والصدر بالفارسية بر ، فقيل بربط . والون : الصنج الذى يضرب بالأصابع ، دخيل . والصنج : هو الآلة المصنوعة من صفر أعجمى معرب . والونج : هو المزهر والعود وقيل نوع من الصنج فارسى معرب أصله ونه ، ونطقه العرب الون . ومستق صينى : آلة يضرب عليها ، فارسية أصلها مشته صينى أى يؤخذ باليدين وفى القاموس : مستقة بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه معرب [1] .

أما كلمة عود ، ومزهر ، ودف ، وكران ، فعربية الأصل ، أخذها الفرس عن العرب . والكران نوع من العود أو الصنج .

ومن بين الآلات الموسيقية التى استعملت فى الحجاز فى العصر الجاهلى ، المزهر ، والمعزفة ، والقصابة والمزمار ، والدف .

وقد أدخل النضر بن الحارث الموسيقى الشاعر ، إلى الحجاز العود ذا التجويف الخشبى الذى يبدو أنه اغتصب مكان المزهر ذى التجويف الجلدى [2]

وكان لعرب الحجاز سلم موسيقى مخالف لسلم بزنطة ، وفارس ، وظلوا محتفظين بالسلم القديم من « الطنبور الميزانى » ، وربما دخلت بعض بدايات تذوق « السلم الفيثاغورى » فى الوقت الذى أدخل فيه النضر بن الحارث العود من الحيرة حوالى نهاية القرن السادس (٣) .

---

(١) راجع لسان العرب مادة قنن ، وطنبور ، وبربط ، وون ، وصنج ، وونج ، وكذلك القاموس ، والملاهى للطبى ٢١ مخطوط ، والمرآة فى الشعر الجاهلى ٤٠٩ .

(٢) تاريخ الموسيقى العربية ص ١٠ ، ٢٤ .

(٣) تاريخ الموسيقى العربية ص ٨٥ .

وكان الحارث بن كلدة الطبيب الحجازى الجهير الذى تخصص فى طب العيون وعالج عظماء الفرس وكبراءها ، موسيقيا بارعاً كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وكان يعزف على العود ... ولا يستبعد الأستاذ ابرهيم هاشم فلالى « أن الحارث — وهو الطبيب الماهر — قد اهتدى إلى أن للأنغام تأثيراً عظيما فى معالجة بعض الأمراض فاستعان بالموسيقى على أداء مهمته الصحية (١) .

وإذ صح ماارتآه السيد الفلالى ، فأى رقى عقلى وصل إليه الحجازيون فى ذلك الزمن السحيق ، وأية مهارة فنية كان عليها أساطين الموسيقى والغناء فى بيئتهم ؟ ! .

المتنزهات والغناء :

وكان من عادة الحجازيين أن يخرجوا إلى المتنزهات — وخاصة فى شهور القيظ — يلتجمون الضواحى الغناء والبساتين الزهرة ومسايل الأودية ، حيث يتخففون من أثقال الحياة ، ويروحون عن نفوسهم بالمناظر البهيجة ، وباللهو البرىء ، وغير البرىء وبالشعر والغناء ، وبالشراب فى بعض الأحيان فهؤلاء أعراب وادى القرى كانوا إذا ظفروا بشراب أتوا حوائط من النخل عند استواء الظهيرة ، حيث تطير الوراشن والفواخت إلى تلك الظلال فيشربون ويأنسون بتغريدها ويقيمون أصواتها مقام المزامير والأوتار (٢) .

وأهل الطائف كانوا لايفتأون يخرجون إلى الغدران والرياض للاسترواح ، ويتنزهون على حفافى وادى وج — وخاصة إذا سال — ويستمتعون بالطرب والغناء ومطارحة الأشعار والأحاديث العذاب وأكل الفواكه المثلوجة — من غير ثلج — بين عرائش الكروم وتحت ظلال الأشجار ، والأزهار والورود ، تضمخ أرواحهم بسر عبيرها الفواح .

وكذلك كان يفعل سكان يثرب حين يسيل العقيق الجميل ؟ .

---

(١) رجالات الحجاز ج ١ ص ١٢٥ الطبعة الأولى .
(٢) مطالع البدور ٢ : ٢٦١ .

أما أهل مكة فلهم متنزهاتهم الخاصة التى يقصدونها بين حين وآخر فى الأصائل وأوبقات القيلولة، وربما عقدوا سوامرهم بها وربما امتدت هذه السوامر حتى الهزيع الأخير من الليل بين لهـو وطرب وغناء، واستمتاع بالخضرة والجمال والنسمات العليلة.

ومن أشهر متنزهات مكة فى الجاهلية :

الليط : ويقع بأسفل مكة فيما يقرب من بركة «ماجن» متنزه المكيين اليوم. ويرجح بعض الباحثين أن يكون خلف القشلاق العسكرى أى فيما يلى جرول الخلفية.

ومن الممكن التوفيق بين القولين، فإن الوادى بعد بركة «ماجن» يتصل بالجادة التى تنتهى خلف القشلاق فلم لا يكون الليط هو ذلك الامتداد من أطراف المسفلة حتى جرول الخلفية.

وبمغنى «الليط» كانت أقحوانة بجلس أهل مكة حولها يتسامرون فى العشى وعليهم الثياب المورّدة والمحمرة والمطيبة وفى هذا يقول الشاعر الحارث بن خالد :

من ذا يسائل عنا أين منزلنا	فالأقحوانة منا منزل قمن
إذ نلبس العيش صفواً مايكدره	طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

شعب خم وحائط الحمام : ومن متنزهاتهم شعب «خم» وهو يتصل بالمسفلة اليوم وكان مزروعاً فيه عدة بساتين تتصل بالليط ثم بجرول.

وكانوا يخرجون إلى حائط الحمام بجوار المعلاة، فقد كان لهم هناك نخيل وزروع. وكانت بساتين تمتد إلى الحرمانية تدنو مما نسميه «المابدة» اليوم، ثم تمضى إلى المحصب فى الطريق المؤدى إلى منى.

وكان لهم فى المحصب دكة يجتمع المتنزهون بها أصيل كل يوم وكانت تشرف على نخيل باسق وبساتين تحتضنها شعاب الوادى الممتدة إلى منى.

فسخ وطوى : وكانت لهم بساتين فى وادى « فسخ » ونسميه اليوم « الشهداء » وأخرى بوادى « طوى » فى امتداده من الحجون إلى ريع الكحل ، وغير ذلك من المتنزهات فى ضواحى مكة العليا إلى مزدلفة فعرفة(١) .

وما يعنينا فى هذا المقام ، وهو الإشارة إلى أن هذه المتنزهات كثيرا ما كانت تضج بالغناء الذى يحبه الحجازيون حبهم لكثير من أفانين الجمال أو أشد حبا !

وليست السمات التى تعبر عنها هذه الرواية الآتية إلا سمات أصيلة للشخصية الحجازية تعمقت جذورها فى نفوس الحجازيين فى العصر الجاهلى ثم امتدت فروعها فيما تلا من عصور .

روى أن جريراً الشاعر المعروف رحل إلى مكة ، لسماع ابن سريج . حتى إذا غناه ابن سريج صاح جرير : « يا أهل مكة ، ماذا أعطيتم ؟ ! والله لو أن نازعاً نزع إليكم ليقيم بين أظهركم ، فيسمع هذا صباح مساء لكان أعظم الناس حظاً ونصيباً ، فكيف مع هذا بيت الله الحرام ، ووجوهكم الحسان ، ورقة ألسنتكم ، وحسن شارتكم(٢) » .

لجمال الوجوه ، وحسن الشارة ، ورقة الألسنة . وخفة الروح ، ولطف الذوق ، وسمو الإدراك ، وغلبة الروح الفنية التى تعشق الشعر والموسيقى والغناء بوصفهما من أرقى الفنون الجميلة . كل هذه الصفات تمثل معالم الشخصية الحجازية فى مظهرها الفنى .

القيان والغناء بالشعر :

وقد كان بالحجاز فى العصر الجاهلى مغنيات احترفن الغناء ، وهن القيان . والقينة الأمة المغنية ، من التقين ؛ وهو التزين . ومنه قيل للمرأة مقينة إذا كانت تزين النساء . ولا يزال الناس فى الحجاز يطلقون هذه الكلمة على من تزين العروس فى يوم جلوتها .

---

(١) تاريخ مكة للسباعى ١٨ — ١٩ .

(٢) الاغانى ١ : ١٢ ط ساسى .

وقيل القينة الأمة مغنية أو غير مغنية ، والقينة الجارية تخدم ، والأمة غنت أو لم تغن . والمغنية تسمى « قينه » إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر[1] .

وقد عرف الحجازيون القيان منذ عهد بعيد ، وقد مر بنا حديث قينتى معاوية ، ابن بكر سيد العمالقة بمكة . أما قينتا عبد الله بن جدعان أحد أشراف قريش ، فأمرهما مشهور ، وسماهما « جرادتى عاد » وكانتا تجذبان الناس بمكة حتى اضطر ابن جدعان إلى فتح أبوابه على الدوام . وقد غنتا له قول أمية بن أبى الصلت فى مدحه :

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين

الخ ، وذكر اسحق الموصلى فى المائة المختارة لحنا وهو :

أقفر من أهله مصيف فبطن نخلة فالعريف[2]

ونستطيع أن نرى فى الغزوات الأولى للنبى (ص) إلى أى حد صار القيان جزءاً مكملا للحياة الاجتماعية بالحجاز ، فحين سار أهل مكة إلى بدر أخذوا معهم « جميع آلات اللهو ، والقيان يعزفن على الآلات ، ويغنين على كل ماء ينزلون به ، ويبسطون ألسنتهن بهجاء المسلمين . وعندما سمع المكيون باقتراب النبى (ص) ، أشاروا على رئيسهم بالانسحاب بدل المخاطرة فى الحرب ، ولكنه أجاب : « والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثا ، وننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمور ، وتعزف علينا القيان » .

والقيان فى الحجاز كن فارسيات أو يونانيات من سوريا أو حبشيات وكن يغنين بالعربيه ، وربما غنين بلهجة أجنبية ، أو بلسانهن الأصلى ولا عبرة لما ذهب إليه « فون كريمر » من أن غناءهن كله كان بلسانهن اليونانى أو الفارسى ، فإن من الثابت

---

(١) لسان العرب ١٧ : ٢٣١ .
(٢) أوائل الأوائل لابى هلال ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان للجاحظ ٦٢ .

أن القيان كن يتغنين بالشعر العربى فقد روى أنه كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه[1] .

وكانت سارة مولاة لبنى عبد المطلب بن عبد مناف وكانت مغنية بمكة ، وقد قدمت إلى رسول الله (ص) بالمدينة ، وأسلمت وشكت حاجتها وطلبت منه الميرة ، فقال لها : أما كان فى غنائك ما يغنيك ؟ فقالت : إن قريشاً منذ قتلى بدر تركوا الغناء ، فوصلها صلى الله عليه وسلم[2] . وهذه الرواية تدلنا على أن الغناء كان حرفة يتكسب منها القيان .

وقد شمل غناؤهن بالشعر أغراضاً شتى : كالمدح والهجاء والرثاء والحماسه وغيرها . فقد تغنت الجرادتان بشعر ابن أبى الصلت فى مدح ابن جدعان كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وكذلك تغنين بالهجاء ، فإن خالد بن جعفر أشار لقينة اجتمع عندها هو والحارث ابن ظالم — وهما خصمان — أن تغنيه :

دار لهند والرباب وفرتنا ولميس قبل حوادث الأيام

وهن خالات الحارث ، فغضب الحارث[3] .

وكان لابن خطل قينتان يعلمهما الغناء بهجاء النبى ، فأمر (ص) بقتلهما يوم الفتح فأما قريبة فقتلها مصلوبة ، وأما فرتنا ففرت حتى استؤمن لها الرسول فأمنها فأمنت[4] .

وكن يغنين وراء المحاربين فيلهبن حماستهم ، ففى غزوة بدر خرجت قريش ومعها ثلاث قيان ، ثم أرسل أبو سفيان فردهن من الجحفة . وفى موقعة أحد خرجت قريش ومعها قيانها .

---

(١) الاغانى ٩ : ١٥٧ .
(٢) إنسان العيون ٣ : ٨٧ .
(٣) الاغانى ١٠ : ١٧ .
(٤) الطبرى ٣ : ١١٩ .

وربما استمعوا إلى الغناء ليشجعهم على الثأر والانتقام فقد اعتزم الحارث بن ظالم أن يقتل خالد بن جعفر ؛ إلى بنت عفزر فشرب عندها ، وقال لها : تغنى .

تعلم أبيت اللعن أنى فاتك   من اليوم أو من بعده يابن جعفر

ثم مضى إليه فقتله[1] .

وكن يغنين فى الأعراس ، والمآدب كما كن يغنين للتسلية والتطريب غزلا وغير غزل .

وفى الحانات وجدت القيان اللواتى يقمن باللهو والغناء والترجيع تسلية لطلاب الأنس واللهو . واللذة والإمتاع .

* * *

وكانت المغنية تلعب دوراً غير صغير فى الحياة الموسيقية والأدبية ، ولم يعرف عرب الجاهلية نظام « الحريم » ، ويبدوا أن النساء كان لهن مثل ما للرجال من الحرية تقريباً . وكان نساء القبائل يشتركن فى موسيقى الأعياد العائلية أو القبلية بآلاتهن . ولم يكن الغناء قاصرا على القيان المحترفات بل إن بعض سيدات القبيلة كن يعزفن ويغنين ، وكانت الخنساء شاعرة الرثاء الشهيرة تغنى مراثيها بمصاحبة الموسيقى ، وكانت هند بنت عتبة التى تمثل السيدة العربية الجاهلية — كما يقول فارمر — شاعرة وموسيقية ، وقد كانت على رأس النسوة اللائى يخففن متاعب السفر عن قريش فى أحد ، بالأغانى الحربية ورثاء قتلى بدر ، وضرب الدفوف ، وعند ماحمى الوطيس كن لا يزلن يغنين ويعزفن[2] . وقد سبق أن ذكرنا صورا لنواح هند بنت عتبة على أبيها وأخيها وعمها .

وقصارى القول فإن الموسيقى فى الجاهلية ، قد دخلت فى حياة الحجازيين الخاصة ، والعامة ، والدينية وغير الدينية ، وكما كان العامل الزراعى فى واحات

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٧ .

(٢) تاريخ الموسيقى العربية ص ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٠ .

النخيل يترنم ، كان السقاء الذى يمتح الماء من البئر يتغنى ، والحادى الذى يسوق الإبل فى الصحراء يرفع صوته بالحداء

وكما ظهر الغناء فى أعراسهم وأفراحهم ، تجلى كذلك فى مآتمهم وأتراحهم ، وكما ناح أهل مكة على قتلاهم ببدر تغنى أهل المدينة وهم يحفرون الخندق حول المدينة حين هددهم المشركون . وكما استخدموا الغناء فى الحماسة والرثاء ، استخدموه فى المديح والهجاء ، وكما أقاموا حفلات الطرب فى البيوت الخاصة ، سمرت سوامرهم بالغناء فى المتنزهات العامة .

فالموسيقى والغناء كانا مع الحجازيين من الترنيمة فى المهد إلى المرثاة فى اللحد .

علاقة الغناء بالشعر وأوزانه :

والشعر والغناء توأمان ، لأنهما يصدران عن الوجدان ، ويعتمدان على الموسيقى ، هذا موسيقى الأوزان ، وذاك موسيقى الألحان .

وقد رجحنا فيما سبق ميلادهما معاً ، أو فى فترتين غير متباعدتين . وكان الحجازيون — كشعراء الجاهلية عامة — ينشدون أشعارهم ، ويتغنون بها ، بل إنهم ليسمرن الإنشاد غناء فى بعض الأحيان لأنه ضرب منه . ومزرد بن ضرار الشاعر الحجازى أو أخوه جزء يهدد أعداءه ، ويقول إنه سيرميهم بأهاج دامغة لاتلبث أن تصبح حداء الحادى ، وغناء السارى :

زعيم لمن قاذفته بأوابد يغنى بها السارى وتحدى الرواحل[1]

وحسان بن ثابت يطلب من الشاعر أن يتغنى بالشعر فإن الغناء مجال لتقويم أوزانه وإصلاح موسيقاه :

تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

بل إن الحجازيين ليعبرون عن الشعر عامة بالغناء ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للنابغة الجعدى : أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك (أى شعرك) ، ويرى بروكلمان : « أنه من المحتمل جدا أن القصائد الجاهلية كان يقصد بها إلى أن تغنى

(١) المفضليات ١ : ٩٨ .

مقترنة بمصاحبة موسيقية بسيطة[1] ، ويعتقد فارمر «أن الشاعر كان فى الأعم الأغلب موسيقياً مثله شاعرا وإن يكن واضحاً أنه كان أحياناً يصطحب مغنياً لبغنى أشعاره ، مثلما كان يستخدم راوية لروايتها » .

والموسيقى الشعرية تخضع لذوق الأمم والأجيال ، وتتأثر بالمؤثرات التى تشكل فنون البيئات والمجتمعات ، وقد تحققت موسيقى الشعر عند أسلافنا الأقدمين ، بهذا النوع الملتزم لمجموعة تفاعيل بحر من البحور التى جمعها الخليل ، وبهذا الشكل المحافظ على قافية تتكرر فى نهايات سائر الأبيات . ولعل تلك الظاهرة الجزئية فى الشعر ، مرتبطة بالظاهرة الكلية فى سائر الفنون عندهم ، ذلك أنه يلاحظ فى ذوق العرب ونظرتهم إلى الجمال ، ميلهم إلى « الوحدة المكررة » فالزخرفة العربيه مثلا ؛ تعتمد غالباً على وحدة زخرفية ، كآية قرآنية مكتوبة ، أو جملة بيانية منقوشة ، أو شكل هندسى مرسوم ، وهذه الوحدة تتكرر فى أشكال وأوضاع متوازية حينا ومتقابلة حينا ، لتؤلف آخر الأمر الشكل الزخرفى الكلى .

وكذلك الموسيقى العربية تعتمد غالباً على الوحدة النغمية المكررة ، التى يتكون منها فى النهاية لحن عام ، أهم خصائصه التقابل ، والالتزام ، وعدم التوزيع أو التحرر . . ويمكن أن تلاحظ هذه الظاهرة من باقى الفنون التى كان للعرب فيها نشاط . فلعل ميلهم إلى الوزن الملتزم وإلى القافية الموحدة ، كان مظهرا من مظاهر نظرتهم الجمالية وذوقهم الفنى اللذين يؤثران الالتزام على التحرر ، ويفضلان الوحدة على التنويع . وليس معنى ذلك الطعن فى هذا الذوق ، أو الغض من هذا الاتجاه ، فالأمر أمر ذوق قبل كل شىء . لا يحتج بذوق على ذوق كما يقال[2] .

ومن حيث إن الشعر يعتبر موسيقى النفس الإنسانية ، يطرد مع عواطفها وانفعالاتها المختلفة ، ويجانس حالاتها وذبذباتها المتنوعة ، فإنا نرى أن الشعر

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ١ : ٤٠٣ .

(٢) مقالة « موسيقى الشعر » للدكتور أحمد هيكل عدد ٣٨ من مجلة « الرسالة الجديدة »

الجاهلي غنى بالأوزان التى تصور تلك الذبذبات والانفعالات على كثرتها وتعقدها . وبخاصة إذا لاحظنا ما يتفرع من بحور الشعر ، وما ينحدر منها وما يداخلها من الجزء والتشطير وغيرهما . بينما لا نجد هذا الغنى فى الشعر الإفرنجى الذى لم يبتكر أوزانه ابتكاراً أصيلا ، إذ نقلها عن الإغريق القدامى ، وعن العرب ؛ فقد أثر الشعر العربى فى الأوروبى فى أواخر القرون الوسطى ، وبواكير عصر النهضة عن طريقين : أولهما صقلية ، حيث أثرت فى إيطاليا ، وثانيهما : الأندلس حيث أثرت فى فرنسا . ثم اتسع نطاق هذا التأثير حتى شمل أنحاء كثيرة من أوربا . ولا جدال فى أن الشعراء الذين يسمون بالتروبادور فى فرنسا إنما هم من أثر التقاليد الشعرية العربية فى الأندلس ، كما أن القافية فى الشعر الأوروبى القديم تعتبر أثرا من آثار المدرسه العربية ، وصل إلى شعراء أوربا عن طريق شعراء صقلية وبروفانس وإيطاليا .

وعلى الرغم من مضى آماد طويلة على بحور الشعر الإفرنجى نما وتطور خلالها فإنها لاتزال أقل عددا وتنوعاً من بحور الشعر العربى .

وقد وصل إلينا الشعر الجاهلى ، وفيه جميع الأوزان الشعرية التى اكتشفها الخليل فيما بعد ، إلا وزنا واحداً أضافه الأخفش . ولم يستطع الشعراء فى العصر الإسلامى والأموى والعباسى أن يخلقوا وزناً واحداً جديداً وهذه الظاهرة تدلنا على أصالة الشعر الجاهلى ورسوخ قدمه ، وأنه استنفد أكثر الاحتمالات التى يمكن أن تدور على موسيقى الشعر فى النفس العربية فى العصور الماضية .

وعلى الرغم من أن موسيقى الشعر العربى أصيلة فيه ، وأن أوزانه نابعة من صميم النفس العربية ، فإن بعض الباحثين لا يزالون يشككون فى هذه الأصالة ، ويدعون أن بعض أوزانه قد اقتبست من الشعر الفارسى . فقد ذهب فون جريلبوم Gustave Gruebaum فى الفصل الذى كتبه عن نماء الشعر العربى وهيكله ، إلى أن الشعر الجاهلى تأثر بالفن الفارسى تأثرا عظيما ، ويشعر حديثه عن تطور هذا الشعر الجاهلى ، إلى أن ظهوره مدين من الناحية الفنية للأثر الفارسى ، ويضيف إلى ذلك قوله : إن الأوزان العربية : الرمل والمتقارب وربما الخفيف أيضا أخذت من الأوزان الفارسية » .

وهذه دعوى لم يقم عليها فون جرينبوم أى برهان علمى ، دعوى الغرض منها تجريد الشخصية العربية من أخص خصائصها وهو الفن الشعرى ، السامق البناء ، الذى يقوم عند العرب مقام الحضارة المادية لدى الأمم الأخرى .

وقد كان الغناء بالشعر ذا تأثير عميق فى أوزانه وتطورها ، وربما استعملوا من الزحاف فى الأوزان ما تعده بعض الأذواق نابياً مع أنه صحيح . والسر فى ذلك أن القدماء كانوا يجبرونها بنغمات يستعملونها فى مواضع من الشعر يستوى بها الوزن .

وكان الحجازيون على عادة العرب ، يتغنون بشعرهم ، ويمدون أصواتهم بإنشاده . بل إنهم كانوا يزفون شعرهم ويقومونه بالغناء .

وكان الغناء وسيلة للتنبيه على ما قد يكون بالشعر من عيب فى الوزن أو القافية . ومن ذلك أن النابغة أقوى فى قصيدته التى مطلعها :

أمن آل ميـة رائح أو مغتـد عجلان ذا زاد وغـير مزود

فلما دخل إلى المدينة قالوا له : قد أقويت فى شعرك ، فلم يأبه ، فجاءوا بقينة تغنيه « أمن آل مية إلخ » ، وتبين الياء فى مزودى ، ومغتدى ، ثم غنت البيت الآخر :

زعم الأحبـة أن رحلتنا غـداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود

فبينت الضمة فى قوله « الأسود » بعد الدال ففطن لذلك وأصلحه بقوله :

وبذاك تنعاب الغـــراب الأسود

وتلتزم القافية فى آخر الأبيات تمشياً مع الغناء لأنها تشبه وقفات المغنين ونهايات العازفين ، فى ذوق العرب القدامى الذى أثر على الشعر العربى آماداً طويلة ، ولا يزال .

وقد كانت المحافظة على عمود الشعر ، ووحدة القافية ، تقليداً مرعياً لدى شعراء الجاهلية عامة ، إلا أننا نجد فى شعر بعض الحجازيين لوناً من التحرر من قيود القافية . فهذه ابنة أبى مسافع بعد أن قتل أبوها يوم بدر وهو يحمى جيفة أبى جهل . تقول :

فـا ليث عرين ذو أظافـير وأقـدام
كحبى إذ تلاقوا و وجوه القوم أقران

وأنت الطاعن النجلا ... منها مزبد آن
وبالكف حسام صا ... رم أبيض خذام
وقد ترحل بالركب ... وما نحن بصحبان(١)

وقد عد انعقاد القدامى هذا التنوع فى حرف الروى وحركته عيبا . وفى الأبيات السالفة — كما يرون — عيبان :

أولهما : الإقواء ، وهو اختــــلاف حركة الروى الذى تبنى عليه القصيدة بين الرفع والجر فى قول الشاعرة « أقران » و « آن » .

وثانيهما : الإكفاء ، وهو اضطراب حرف الروى حث يجيىء مرة ميما ومرة نوناً فى قولها ، « أقران » و « خذام » . ونحن نحسب ما عدوه عيباً وغلطاً ميزة للشعر الحجازى . وهو وإن كان مثلا فردياً إلا أنه واضح الدلالة على النزعة التحررية ، لأنه ينتظم خمسة أبيات متحررة على حين أن ما روى لشعراء آخرين لا يتجاوز الشطرين أو البيتين .

ونحن نسجل للشاعـرة الحجازيه ابنـة مسافع ، نزوعها إلى التحرر والانفلات من أصفاد القافية وأغلالها .

وقد ذكر أبو العلاء فى كتابه الفصول والغايات « أن الأوزان القصار إنما عرفت فى العصر الإسلامى فى أشعار المكيين والمدنيين من أمثال عمر بن أبى ربيعة وكذلك عدى بن زيد فى القدماء لأنه كان من سكان المدر(٢) » .

ولكننا نؤكد أن الحجازيين قد نظموا الأوزان القصار قبل عمر بن أبى ربيعة . فشعراء الأوس والخزرج وقريش وغيرهم فى العصر الجاهلى كانوا يقرضون الشعر أحيانا من بحور قصيرة ، تتلاءم كل الملاءمة مع الغناء ، وتتساوق مع نغمات الموسيقى . ويظهر هذا فى شعر حسان بن ثابت وقيس ابن الخطيم ، وعمرو بن الإطنابة ، وغيرهم

(١) الموشح للمرزبانى ٢٠ ط السلفية .
(٢) الفصول والغايات ص ٢١٢ .

وبعض شعراء مكة وقد مرت أمثلة عدة على ذلك ، كقول الشاعرة المكية أميمة بنت أمية بنت عبد شمس :

أبى ليلك لا يذهب ونيط الطرف بالكوكب

إلى آخر القصيدة التى رثت بها عشيرتها[1] .

فلما التقى الناس فى موقعة أحد ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللواتى معها وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرضن فقالت هند فيما تقول :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وتقول : إيها بنى عبد الدار * إيها حماة الأدبار * ضربا بكل بتار[2]

ونرجح أن كثيراً من الأوس والخزرج كان يغنى به لخفة وزنه وقصر بحره بل إننا لنعتبر قصيدة ابن الخطيم التى مطلعها :

أجد بعمرة غنيانها فتهجر أم شاننا شانها

نشيداً وطنياً للأوس فى فترة من فترات حياتهم ، وأن فتيان الأوس كانوا يرددون ذلك النشيد الحماسى ، وهم يسيرون فى الطرقات يتحدون فتيان الخزرج . وكذلك تعتبر قصيدة حسان التى مطلعها :

لقد هاج نفسك أشجانها وعاودها اليوم أديانها

نشيداً يتغنى به فتيانها . وكلا النشيدين من ذلك البحر والموسيقى الرشيق الذى يصور سرعة الانفعال ، وانطلاق النفوس بالحماس .

---

(١) راجع ماسبق من هذا الكتاب . (٢) الأغانى ج ١٤ ص ١٦ .

الباب الخامس

خصائص الشعر الحجازي الجاهلي

— ١ —

يبدو فى الشعر الحجازى الجاهلى الطابع العام الموروث عن الشعر الجاهلى عامة ، من الجزالة والفصاحة ، ومن صدوره عن ملكات قوية ومواهب فنية أصيلة ، ومن جودة السبك وشدة الأسر وروعة الأداء ومتانة التركيب وفخامة النسج ، ومن خلوه عن الزخرف والتصنيع والوشى ، وعن التكلف والتعمل والإغراق والإحالة .

ويصور هذا الشعر بيئة الحجاز الاجتماعية والسياسية والفكرية ، تصويرا قويا واضحا ، لأنه ينبع من معينها ، ويصدر عن عقل ممتلىء بمشاهدها ، زاخر بشتى صورها وألوانها ومناظرها ، كما استبان للقارىء من حديثنا عن فنون الشعر الحجازى .

وإذا كان شعر النابغة مثلا صورة قوية للحياة السياسية للعرب عامة فى العصر الجاهلى على الرغم من أنه شاعر حجازى أصيل ، فإن شعر أمية بن أبى الصلت يصور إلى حد ما حياة الحجاز السياسية فى هذا العصر البعيد ، فضلا عن أنه صورة واضحة لحياته الدينية كما تبين مما سبق ، وكما يستبين مما يلى فى ترجمته .

وهناك خصائص أصيلة للشعر الحجازى الجاهلى لا بد من التنويه بها ، والإشارة إليها :

- ٢ -

فمن حيث الألفاظ نلاحظ فى الشعر الجاهلى ذيوع الروح الغنائية ، التى تعمل عملها فى صقل الالفاظ ، وإيثار ما كان منها عذبا سمحا كريما ، سهلا سلسا ؛ بعيدا عن العجمة والغرابة والحواشية فى أحيان كثيرة ، وبخاصة عند شعر المدن الحجازية كمكة والمدينة والطائف .

وهذه الروح الغنائية ، نجدها عند النابغة فى الفاظة وموسيقى شعره ، وخاصة فى رائيته المشهورة ، التى يجب أن يحتفل بها ، ونعدها فى طليعة الفن الغنائى فى الشعر الجاهلى ، وفى مطلعها يقول النابغة:

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار   ماذا تحيون من نؤى وأحجار ؟
أقوى وأقفر من نعم وغيره   هوج الرياح بهابى الترب موار

ويقول فيها :

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا   والدار لو كلمتنا ذات أخبار
وقد أرانى ونعما لاهيين بها   والدهر والعيش لم يهمم بإمرار
أيام تخبرنى نعم وأخبرها   ما أكتم الناس من حاجى وأسرارى
لولا حبائلُ من نعم علقتُ بها   لأقصر القلب عنها أى إقصار
فإن أفاق لقد طالت عمايته   والمرء يخلق طورا بعد أطوار
نبئت نعما على الهجران عاتبة   سقيا ورعيا لذاك العاتب الزارى

ففى القصيدة روح غنائية فريدة ، تسندها عاطفة قوية وتجربة شعورية حادة ، إلى جانب وحدتها وأصالتها واكتمال الفن الشعرى فيها .

وغنائية الشعر فى هذا العصر لعلها كانت فى كثير من أسبابها راجعة إلى البيئة الحجازية نفسها ، حتى إن النابغة كان يقوى فى شعره ، والإقواء اختلاف إعراب القافية ، فيقول مثلا فى قصيدة المتجردة :

زعم البوارح أن رحلتنا غدا   وبذاك خبرنا الغراب الأسود

ويقول :

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

وقد هاب النقاد أن يخبروه بهذا العيب ، فدسوا له قينة حجازية ، غنته بهذه الأبيات ، وأطالت من قوافيها ، حتى فطن من نفسه لهذا العيب وأصلحه ، فقال : « وبذاك تنعاب الغراب الأسود » ، وقال : « عنم على أغصانه لم يعقد » وكان يقول : « دخلت يثرب وفى شعرى بعض العاهة ، ثم خرجت منها وأنا أشعر الناس » . والنابغة من أجود الشعراء الذين غنى بشعرهم ، حتى قيل إنه لم يغن بشعر فى جاهلية ولا إسلام بمثل ما غنى بشعر النابغة ، وتجد هذا الفن الغنائى نفسه مكتملا عند أمية بن أبى الصلت ، فى مثل قوله يمدح عبد الله بن جدعان :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت قرم لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء

نجد فيه هذا الفن الغنائى الجميل بشتى خصائصه ومميزاته : من سلامة الألفاظ وسماحتها ورقتها وعذوبتها ، ومن موسيقى الشعر القوية فيها ، إلى غير هذه المميزات ، مما يرتفع بمستوى شعر أمية وشاعريته عند النقاد .

وهذه الغنائية هى التى استحالت بعد الإسلام وبتأثيره إلى الغزل العذرى والقصصى عند أمثال جميل والمجنون وابن أبى ربيعة وأترابهم من الشعراء الملهمين .

— ٣ —

ومن حيث الأسلوب نلاحظ أن أسلوب الشعر الحجازى خاصة يتسم بالصدق وجنوحه إلى الوضوح ، وإيثاره الإيجاز ، مع قوة العبارة وجمالها . وقوة الأداء ، فى أحيان كثيرة فمثل قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهم كوكب

لا يمكن أن يجارى فى بلاغته وإيجازه وقوة أدائه ، ولا فى جمال العبارة ، وحسن التشبيه ، ولطف المعرض ، وجودة النظم .

وعندما يقول زهير فى هرم وقومه :

وفيهم مقامات حسان وجوههم   وأندية ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم   مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

لا نجد أصدق من ذلك وصفا ، ولا أوضح تعبيرا ، ولا أبلغ أداء ، ولفظة « قد » هنا لها موقع من البلاغة ساحر ، وهذه الصورة جملة مع إيجازها لا يمكن أن يستطيع « فنان » رسمها بهذه القوة والجمال والفن والسحر .

— ٤ —

أما من حيث أفكار ومعانى الشعر الحجازى الجاهلى ، فنلاحظ أن له عدة خصائص واضحة لا يستطيع الجدل فيها إنسان ، وأهم هذه الخصائص هى : ذيوع الحكمة فى الشعر الحجازى :

فكثير من الشعراء الحجازيين ، ومن قصائد الشعر الحجازى الجاهلى ، تشيع فيه الحكمة شيوعا ظاهرا لاخفاء فيه ، فزهير فى معلقته شاعر حكيم ، خبير بالحياة ، وبالتجارب الإنسانية ، متطلع إلى التخفيف من ويلات الحياة وكوارثها . . وأمية فى شعره الدينى شاعر حكيم بعيد النظر إلى الحياة وحقائقها . . وأبو ذؤيب الهذلى وحسان وسوى هؤلاء الشعراء الحجازيين لهم فى شعر الحكمة منزلة كبيرة .

يقول زهير ، فى الحكمة ؛ من معلقته :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ، ومن تخطىء يعمر فيهرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم [1]
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

(١) المنسم : خف البعير .

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه　　وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه　　يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة　　وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ويقول لبيد من قصيدة بائية له :
أرى النفس لجت فى رجاء مكذب　　وقد جربت لو تقتدى بالمجرب
ويقول :

وما الناس إلا كالديار وأهلها　　بها يوم حلوها وغدوا بلاقع
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه　　يحور رمادا بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع　　ولا بد يوماً أن ترد الودائع

إلى ماسوى هذا من شعر الحكمة ، وما قارنه من ضرب المثل ، ووصف الأخلاق والطباع ، مما يذيع فى الشعر الحجازى فى هذا العصر ذيوعا كثيرا .

— ٥ —

شيوع العاطفة الدينية !

وهى ميزة أخرى واضحة للشعر الحجازى فى العصر الجاهلى ،كما تجد فى شعر أمية ، ولدى شعراء المدينة ومكة ، وسواهم ، ولا شك أن مكة بما تشتمل عليه من أماكن مقدسة ، ومن حرمات ظاهرة ، وبما يؤدى فيها من شعائر العبادة و الحج ، ومن البيئة الدينية السائدة فيها ، لها أثر كبير فى شيوع هذا اللون من الشعر ، الذى سبق أن قدمنا نماذج منه فى حديثنا عن أغراض الشعر الحجازى ، مما يغنينا عن اختيار نماذج أخرى فى هذا فى هذا المقام ، وحسبنا أن نشير وأن نضع الخطوط ؛ أما التفصيل فسهل بعد ذلك كله .

ومن ذيوع العاطفة الدينية فى الشعر الحجازى الجاهلى مانجده من ظهور روح الإنصاف والتسامح فيه ، ووضوح الإيمان بالفضائل والمثل العليا

والدعوة إليها . يقول ذو الأصبع العدوانى من قصيدة طويلة له نظمها فى نصح ابنه « أسيد » ودعوته إلى التحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق :

ودع التوانى فى الأمو　　ر ، وكن لها سلساً ذلولا
وابسط يمينك بالندى　　وامدد لها باعا طويلا
وابسط يديك بما ملكت　　وشيد الحسب الأثيلا
وازل إلى الهيجا إذا　　أبطالها كرهوا النزولا
وإذا دعيتَ إلى المهمّ　　فكن لفادحه حمُولا

ويقولا كذلك ذو الإصبع :

آبىَ فلا أقربُ الخباء إذا　　ما ربُّه بعد هدْأة هَجَعَا
ولا أرومُ الفتاة زورتَها　　إن نام عنها الخليلُ أو شَسَعَا[1]

وانظر إلى هذا التصوير الرائع الذى يصوره شاعر حجازى قديم ، وإلى هذه الحمرة الممزوجة بشىء من الإنصاف وحب السلام حيث يقول :

قومى همو قتلوا أميم أخى　　فإذا رميت يصيبنى سهمى

ويقول قيس بن الخطيم :

يا مالِ والحَقُّ إن قنَعتَ به　　فالحق فيه لأمرنا نصفُ

وبتأثير هذه العاطفة ظهرت الدعوة إلى السلام كما رأينا فى شعر زهير ابن أبى سلمى وأترابه .

وقد أورثت العاطفة الدينية الشاعر الحجازى اتزانا فى التفكير ، وسلامة فى المنطق، وقوة فى الحجة ، وصحة فى النظر إلى الحياة .

---

(١) أى بعد .

— ٦ —

قوة العاطفة :

ويمتاز الشعر الحجازى مع ذلك بعاطفة قوية مشتعلة متأججة ، وتبدو هذه العاطفة القوية فى كثير من قصائد الشعر الحارى الجاهلى ، يقول قيس بن الخطيم فى يوم « الربيع » وهو أحد الأيام بين الأوس والخزرج :

أَجِدَّ بِعَمْرَةَ غُنْيانُها ... فَتَهْجُرَ أَمْ شَأْننا شأنُها[1]

وَإنْ تُمْسِ شَطَّت بِها دَارُها ... وَبَاحَ لكَ اليَوْمَ هِجرانُها

وَعَمْرَةُ من سروات النسا ... ءِ تَنْفَحُ بالمِسكِ أَرْدَانُها

وَنَحْنُ الفَوارس يَوْمَ الربيـ ... ـعِ قد علموا كيف فُرْسانُها

ولوْلا كَرَاهَةُ سفك الدما ... ءِ لعادَ ليثرب أَدْيانُها

— ٧ —

هذه الخصائص كلها تومىء إلى بعض مميزات الشعر الحجازى فى العصر الجاهلى ، بالإضافة إلى ما قدمناه من دراسات سابقة لهذا الشعر ، فيها الكثير من خصائصه ، والإشارة إلى الدقيق من ملامحه ، ونعتقد أننا بهذا قد جلونا صوراً كانت غامضة للشعر الحجازى القديم ، كان فى جلائها بعض الأهمية لفهم الشعر الحجازى بعد الاسلام وحركات التجديد فيه ، ونشأة بعض فنون مبتكرة أضيفت إليه ، من مثل الغزل العذرى والغزل القصصى وما أشبه ذلك .

(١) أجد : استمر . غنيانها : استغناؤها .

التراجم

أمية بن أبى الصلت
النابغـــة الذبيانى
قيس بن الخطـــيم

أمية بن أبى الصلت(١)

٥٥٠ – ٦٣٠ م (٥٩)

– ١ –

حياة الشاعر

نسبه وأسرته :

هو أمية بن عبدالله أبى الصلت بن أبى ربيعة بن عوف بن أمية الثقفى شاعر ثقيف ، وأحد الملتمسين للدين فى الجاهلية ، ومن أشراف قبيلته ورؤسائها .

أبوه أبو الصلت من سادات ثقيف ، وأمه رقية بنت عبد شمس بن مناف .

وكان والده شاعراً(٢) ، وله قصائد يمدح فيها سيف بن ذى يزن سنة ٥٧٩ م ويشيد بالفرس الذين ساعدوه على تحرير اليمن من نير الحبشة واحتلالها ، ومنها هذه القصيدة التى نظمت عام ٥٧٢ م ، والرسول ابن عامين :

لا يطلب الوتر إلا كابن ذى يزن فى البحر لجج للأعداء أحوالا(٣)

ويروى : خيم أى قام .

---

(١) فى مكتبة كلية اللغة العربية رسالة مخطوطة للأستاذ سليمان حسن ربيع نال بها العالمية من درجة أستاذ فى الأدب وموضوع الرسالة : أمية بن أبى الصلت فى نظر المستشرقين

(٢) راجع ١٠٧ – ١٠٩ طبقات الشعراء لابن سلام ، ١٧٧ و ١٧٨ الشعر والشعراء .

(٣) أى أزمانا .

ومنها فى الفرس :

لله درهم من عصبة خرجوا ... ما إن ترى لهم فى الناس أمثالا
بيضا مرازبة(١) غرا جحاجحة ... أسد تربب فى الغيضات(٢) أشبالا
لا يرمضون إذا حرت مغافرهم ... ولا ترى منهم فى الطعن ميالا
من مثل كسرى وسابور الجنود له ... أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً ... فى رأس غمدان(٣) داراً منك محلالا
تلك المكارم لا قعبان(٤) من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وتنسب القصيدة لأمية نفسه ؛ لا لأبيه ؛ فى بعض المصادر .

بيئته ومولده :

ولد أمية فى أواسط القرن السادس الميلادى ، ونشأ بالطائف ، وهى مصيف أهل مكة ومتنزههم ، وروضة خصبة وسط الصحراء القاحلة ، وأطيب البلاد العربية العربية هواء وأجلها مناخاً وأكثرها بساتين وكروما وزروعا وفاكهة وعيوناً ، وهى فى الجنوب الشرقى لمكة ، وبينهما خمسة وسبعون ميلا . ويقول الشاعر :

تشتو بمكة نعمة ... ومصيفها بالطائف

وكانت الفترة التى عاش فيها أمية فترة عجيبة فى تاريخ العرب ، فالاحتلال الحبشى لليمن قد انتهى وصحبه امتداد نفوذ الفرس على هذه البلاد واختلاط العقليات العربية والفارسية وتجاورها وتبادل التفكير والثقافات الطارئة . وقد وعى العرب عامة لهذه الألوان الطريفة من القصص والأساطير والأخبار والعقائد والمحاورات التى هى جزء من ثقافة الفارسى الأصيلة أو المستمدة من ثقافات الهند وعلومها .

---

(١) جمع مرزبان : وزير الفرس .
(٢) جمع غيضة : الشجر الملتف وهى مأوى السباع عادة
(٣) قصر عظيم بصنعاء .
(٤) تثنية قعب ، وهو القدح . شيبا : خلطا .

أما بيئة الطائف الأدبية فإن شعر شعرائها ليس بالكثير ، والسبب فى ذلك كما يرى ابن سلام هو قلة الحروب والخصومات بين أهل الطائف ، وأنه إنما يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء ، وهذا هو السبب أيضاً فى قلة شعر قريش وأهل عمان ، ولم ينبغ فى الطائف سوى أبى الصلت ، وابنه أمية وهو أشعرهم ، وغيلان ابن سلمة وكنانة بن عبد ياليل(١) .

نشأته وحياته :

نشأ أمية فى هذه البيئة ، وشب شاعرا يرث من أبيه مواهب الشعر وملكاته . وأخذ يمارس التجارة ، وظل يمارسها طول عمره ، فتارة إلى الشام وتارة إلى اليمن .

واتصل بالفرس فى اليمن وسمع محاوراتهم وقصصهم ، كما اتصل بالكهان والأحبار والقسس فى الشام وسمع عظاتهم ، وشاهد مظاهر القلق الروحى البادية فى تفكير بعض العرب المتعبدين أمثال : زيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، ويبدو أنه « كان عالماً بغير العربية على مايظهر فاطلع على كتب القدماء وخصوصا التوراة والإنجيل(٢) » .

وهكذا نشأ أمية مفطورا على التدين ، وشاعرا موهوبا ، ونمت فيه ملكات الشاعرية الجياشة .

وسافر إلى الشام فى رحلات تجارية كما سافر إلى اليمن ، فلقى فى رحلاته بعض المتدينين ، هناك وسمع أخبارهم وعظاتهم ، فرغب عن عبادة الأوثان وزهد فى الدنيا ، واستزاد النظر فى الأديان وطلبها من أهل الكتاب ، وروى الكثير من أخبار اليهود والنصارى وأقاصيص الشيوخ فى الجاهلية من الذين يعبدون الله على دين إبراهيم وإسماعيل ، وخاض فى التوحيد وأمر الآخرة ، وتعبد ولبس

---

(١) راجع ١٠٧ طبقات الشعراء .

(٢) ١٣٦ جـ اداب اللغة العربية لجورجى زيدان ط ١٩١١ ، ويقول ابن قتيبة فيه : « وكان قرأ الكتب المتقدمة » (١٧٦ الشعر والشعراء) .

المسوح وحرم الخمر والزنا والقمار على نفسه ، ورأى فى الكتب الدينية ما يبشر ببعثة نبى من العرب فطمع فى أن يكون هو النبى المنتظر ، وأخذ يدعو الناس إلى الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل ، ويظهر التأله طمعا فى نزول الوحى عليه ، ومع ميله إلى الحنيفية ملة إبراهيم السمحاء فقد كان لا يقلع عن التردد على الأديار ، يجالس الرهبان ويختلف إلى الكنائس ، يحاور القسس ويخبر الناس أن نبيا يخرج قد أظل زمانه(١) .

ولما بعث محمد رسول الله صلوات الله عليه وقام بالدعوة أدرك أمية الحسد وكفر به ، وقال : « إنما كنت أرجو أن أكونه » ، فنزل قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » ، ثم أخذ يحرض على الرسول ويرثى قتلى أعدائه فى موقعة بدر(٢) فنهى عن رواية شعره فى ذلك ، وكان الرسول صلى الله عليه إذا سمع شعره فى التوحيد يقول : « آمن لسانه وكفر قلبه » ، ويقول : « كاد ليسلم » كما روى الإمام مسلم فى صحيحه . . ولم يطق أمية — بعد أن شاهد ذيوع الدعوة وانتشار الإسلام — أن يقيم على مقربة من الرسول ، فذهب بابنيه إلى أقصى اليمن ، ولكنه عاد إلى الطائف ثانياً بعد هجرة رسول الله إلى المدينة . وبقى بها إلى أن توفى فى السنة التاسعة من الهجرة عام ٦٣٠م ، ويروون أنه لما مرض مرضته التى مات فيها جعل يقول : « قد دنا أجلى وهذه المرضة منيتى وأنا أعلم أن

---

(١) مر أمية بزيد بن عمرو بن نفيل أخى عدى بن كعب ، وكان قد طلب الدين فى الجاهلية هو وورقة ، فقال له أمية : ياباغى الخير هل وجدت ؟ قال : لا ، قال : ولم ؟ قال : أبى علماء الكتاب إلا أنه منا أو منكم أو من أهل فلسطين (١٠٩ طبقات الشعراء لابن سلام) .

(٢) ومن ذلك قوله :

ماذا ببدر فالعقنقل ... من مرازبة جحاجح ؟

المرازبة : الرؤساء . جحاجح : جمع جحجاح وهو السيد الكريم

هلا بكيت على الكرا ... م بنى الكرام أولى الممادح

الحنيفية حق ولكن الشك يداخلنى فى محمد ، وأنه لما دنت وفاته أغمى عليه قليلا ثم أفاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما ها أنذا لديكما

لا مال يفدينى ولا عشيرة تنجينى ، وأغمى عليه ؛ ثم أفاق وهو يقول ذلك البيت ويصله بقوله : « لابرىء فأعتذر ولا قوى فأنتصر » ، وأغمى عليه ثالثة ثم أفاق وهو ينشد البيت المذكور ويصله ببيت آخر بعده هو :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما[١]

وأقبل على القوم فقال : قد جاءنى وقتى فكونوا فى أهبتى ، واستمر يحدثهم حتى كان آخر قوله هذه الأبيات :

كل عيش وإن تطاول دهراً منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ماقد بدا لى فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر ، إن للدهر غولا[٢]

وقد تكون هذه القصة من أساطير الرواة .

وبذلك انتهت حياة أمية ، ومات ولم يؤمن بدين الإسلام والتوحيد ، بعد أن كان داعية الطهر والتوحيد ، وتوفى عام ٩ هـ — ٦٢٤م . وفى كتاب شعراء النصرانية أن وفاته كانت فى السنة الثانية من الهجرة .

ألوان من حياته :

١ — كان لأمية ابن عاق[٣] فأنشد فيه قصيدته :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا تعل بما أحنى عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت لشكواك إلا ساهرا أتململ

(١) ألم : ارتكب اللمم وهو صغار الذنوب .
(٢) كل ما اغتال الانسان فأهلكه — راجع الأغانى ٤/١٢٧ .
(٣) كان لأمية عدة بنين منهم : ربيعة ووهب والقاسم ، وكان القاسم شاعراً .

كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعيناى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى منك هجرا وغلظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
وسميتنى باسم المفند رأيه ... وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

وهى نمط جميل من الشعر العالى ، وتصوير لما لقى أمية من ابن من أبنائه من جفاء وعقوق .

٢ — واتصل أمية أكثر ما اتصل بعبد الله بن جدعان التيمى وهو سيد من سادات قريش ، وكان جواداً مضيافا ، وكان أمية كثير المدح له ، وكان ابن جدعان يعطيه عطاء جزلا ، كما كان يفعل هرم مع زهير .

ومن شعره فيه :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع ... لك الحسب المهذب والسناء
كريم لا يغيره صباح ... عن الخلق الجميل ولا مساء
تبارى الريح مكرمة ومجدا ... إذا ما الكلب أجحره الشتاء
إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء
فأرضك كل مكرمة بناها ... بنو تيم وأنت لها سماء
فهل تخفى السماء على بصير ... وهل بالشمس طالعة خفاء ؟

ويقول فيه أيضاً :

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ... ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرىء بذل وجهه ... إليك ، كما بعض السؤال يشين

ويقول فيه أيضاً حين صنع ابن جدعان الفالوذ ووضع موائده بالأبطح إلى باب المسجد ، ونادى الناس فحضروا ، وكان هذا أول أكلهم له وحضر أمية فقال :

ومالى لا أحييه وعندى مواهب يطلعن من النجاد[1]
له داع بمكة مشمعل[2] وآخر فوق دارته ينادى
إلى ردح[3] من الشيزى[4] ملاء لباب البر يلبك بالشهادة[5]

إلى آخر هذه الأبيات الطريفة، التى تنسب أيضاً إلى أبيه أبى الصلت. هذا وابن جدعان هو عبد الله بن جدعان التيمى. وقد كان من مشاهير الأجواد. وممن سارت بجوده الأمثال فى الأقطار والبلاد. وكان يسمى بحاسى الذهب لأنه كان يشرب فى إناء من الذهب. وقالوا فى المثل: أقرى من حاسى الذهب. وكان من قريش. وفيه قال أبو الصلت الثقفى أو ابنه أمية:

له داع بمكة مشمعل وآخر فوق دارته ينادى
إلى ردح من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد

وكان فى ابتداء أمره على ما يروى صعلوكا ترب اليدين. وكان مع ذلك شريراً فاتكا لا يزال يجنى الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته ونفاه أبوه وحلف لا يؤويه أبدا. فخرج فى شعاب مكة حائرا ثائرا يتمنى الموت أن ينزل به، فرأى شقا فى جبل فظن أن فيه حية فتعرض الشق يريد أن يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم ير شيئاً فدخل فيه، فاذا فيه ثعبان عظيم له عينان تقدان كالسراجين، وإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان فكسره واخذ عينيه ودخل البيت، فاذا جثث طوال على سرر لم ير مثلهم طولا وعظما، وعند رؤوسهم لوح من فضة فيه تاريخهم، وإذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم موتا الحرث بن مضاض، وإذا عليهم ثياب من وشى لا يمس منها شىء إلا انتثر كالهباء من طول الزمان، مكتوب فى اللوح عظات. وإذا فى وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة

---

(١) جمع نجد: ما ارتفع من الأرض.
(٢) أشمعل القوم فى الطلب: إذا بادروا فيه وتفرقوا.
(٣) جمع ردحة: الجفنة العظيمة.
(٤) الشيزى: خشب تتخذ منه القصاع (٥) جمع شهد وهو العسل.

والزبرجد فأخذ منه ما أخذ ثم علم على الشق بعلامة ، وأغلق بابه بالحجارة وأرسل إلى أبيه بالمال الذى خرج به يسترضيه ويستعطفه ، ووصل عشيرته كلهم فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز ، ويطعم الناس ويفعل المعروف . وفى القاموس : وربما كان يحضر النبى ﷺ طعامه . وكانت له جفنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها . بل كانت جفنته يأكل منها الراكب على البعير ، وسقط فيها صبى فغرق ومات .

وعبد الله بن جدعان تيمى يكنى أبا زهير ، وهو ابن عم عائشة رضى الله تعالى عنها ، ولذلك قالت يا رسول الله : إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف ويفعل المعروف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ . فقال ﷺ . لا ، إنه لم يقل يوماً رب اغفرلى خطيئتى يوم الدين . . وكان ابن جدعان ممن حرم الخمر فى الجاهلية بعد أن كان بها مغرى . وذلك أنه سكر ليلة فصار يمد يديه ويقبض على ضوء القمر ليأخذه ، فضحك منه جلساؤه ؛ فأخبر بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربها أبداً . فلما كبر وهرم أراد بنو تيم أن يمنعوه من تبذير ماله ولاموه فى العطاء ؛ فكان يدعو الرجل فإذا دنى منه لطمه لطمة خفيفة ثم يقول له : قم فانشد لطمتك ؛ واطلب ديتك ؛ فإذا فعل ذلك أعطته بنو تيم من مال ابن جدعان .

— ٢ —

شعر أمية

أم الدراسات عن أمية وشعره :

١ — كتب عن أمية ابن سلام في طبقات الشعراء[١] ؛ وابن قتيبة في الشعر والشعراء[٢] ؛ وذكره الأغاني[٣] ، والمرزباني[٤] ؛ والدميري[٥] ، وصاحب خزانة الأدب[٦] ؛ وابن رشيق في العمدة .

وترجم له صاحب شعراء النصرانية[٧] ، وجورجي زيدان[٨] ، وصاحب كتاب الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي[٩] ، وترجم له السباعي بيومي[١٠] ؛ والزيات[١١] ، وأصحاب الوسيط[١٢] .

وعده صاحب الجمهرة من أصحاب المجمهرات — وهي سبع قصائد تلي المعلقات في المنزلة الأدبية — وروى بمجمهرته :

عرف الدار قد أقوت سنيناً لزينب إذ تحل بها قطيناً

وألف أحد أساتذة كلية اللغة العربية رسالة فيه وفي حياته وشعره وهي مخطوطة بمكتبة الكلية .

---

(١) ١٠٧ وما بعدها من طبقات الشعراء طبعة صبيح .
(٢) ١٧٦ و ١٧٧ الشعر والشعراء ، لشر السقا .
(٣) ١٨٦ / ٣ ، ٣٠٣ ج ٨ ، و ١ / ٧١ / ١٦ .
(٤) ٧٨ الموشح ط ١٣٤٣ .
(٥) ١٥٤ ج ٢ حياة الحيوان .
(٦) ١١٩ / ١ .
(٧) ٢١٩ من القسم الثاني ط ١٩٢٢ بيروت .
(٨) ١٣٦ و ١٣٧ / ١ آداب اللغة العربية .
(٩) ٣٤٩ — ٣٦٧ ط ١٩٣٦ .
(١٠) ٨١ — ٩٦ تراجم شعراء جاهليين للسباعي بيومي ط ١٩٣٦ .
(١١) ٧٣ من الأدب العربي للزيات ط ١٩٣٥ .
(١٢) ٨٩ وما بعدها من الوسيط ط ١٩٢٥ .

وطبع ديوانه المستشرق الألماني « فريدرك شولتهيس » عام ١٩١١ معتمداً على عدة مصادر ؛ منها شرح محمد بن حبيب العالم الرواية المتوفى ٢٤٥ هـ .

وطبع لأمية ديوان في بيروت عام ١٩٣٤ .

إلى غير ذلك من شتى الدراسات عن أمية . ويلاحظ أن الباحثين يعدون أمية جاهلياً ، لأنه قد توفي بعد ظهور الإسلام بقليل ولأن أكثر آثاره الشعرية نظم قبل الإسلام ، ولبيد جاهلي مع أنه توفي عام ٤١ هـ لأنه لم ينظم في الإسلام شيئاً .

وبعضهم يجعله من المخضرمين ، لأنه توفي بعد الهجرة ورثى من قتل في بدر من المشركين .

— ٣ —

مكانته في الشعر وآراء النقاد فيه :

١ — قال أبو عبيدة : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ، ثم عبد القيس (سكان البحرين) ؛ ثم ثقيف والطائف ، وأن أشعر ثقيف أمية .

وذكر ابن سلام في شعراء الطائف حين تكلم على شعراء القرى ، وقال : وأمية أشعر أهل الطائف .

وكان الكميت يقول : أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ولم نقل كما قال .

وقال الأصمعي كما في الأغاني : ذهب أمية بعامة ذكر الآخرة ؛ وذهب عنترة بعامة ذكر الحروب ، وذهب عمر بعامة ذكر الشباب ، وكان أبو عبيدة والأصمعي يقولان : عدي في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها وكذلك أمية(١) .

وجعله صاحب كتاب شعراء النصرانية من شعراء الطبقة الثانية وذكر ما نصه : وقيل إنه من الطبقة الأولى . وهذا مبالغة شديدة منه .

---

(١) ص١٧ / ٢ الأغاني .

— ٤ —

أسباب شاعريته :

هناك أسباب كثيرة كونت شاعرية أمية وأثرت فيها .. منها :

١ — عصره وبيئته : فقد كان العصر الجاهلي وكانت البيئة العربية عامة والطائف خاصة من بيئات الشعر والأدب والبلاغة والبيان ، وجو الطائف وجمالها وكثرة خيراتها ومزارعها واستقرار الحياة فيها ، كل ذلك كان له أثره في شاعرية الشاعر ولا ريب .

٢ — وراثته الشعر عن أسرته : فقد كان أمية من أسرة شاعرة ، واشتهر أبوه بالشعر ، وامتدت تلك المواهب الفنية فتوارثها أبناء أمية ، كان ابنه القاسم شاعرا وينسب إليه وإلى أبيه :

قوم إذا نزل الغريب بدارهم ردوه رب صواهل وقيان
وإذا دعوتهم لكل ملمة سدوا شعاع الشمس بالفرسان

إلى آخر هذه الأبيات .

٣ — ثقافته ورحلاته : فقد ألم أمية بثقافات واسعة واختلط بالحياة والناس والعناصر في رحلاته التجارية إلى اليمن والشام ، مما كان له أثره في شعره وشاعريته .

٤ — فطرته على حب التدين : فقد دفعه ذلك إلى مخالطة رجال الأديان والتحدث إليهم والتأثر بمظاهرهم ، مما جعل قلبه رقيق العاطفة والشعور ، وهما أساس الأدب والشعر .. ومما جعله يلون شعره بهذا الروح الديني القوى الغلاب .

٥ — اختلاطه بالحياة الأدبية وبالشعراء في الطائف ومكة وسائر بلاد الجزيرة العربية شابا ورجلا وكهلا ، مما جعل الشعر أقرب إلى قلبه وروحه من أي شيء سواه إلى غير ذلك من بواعث الشعر وأسبابه في نفس أمية .

* * *

إن شعر أمية جدير بأوفر عناية وأدق درس ، لأنه وقد ذكر ما ذكر من أنباء الرسل وأمور الآخرة لايعدو واحدة من اثنتين : إما أن يكون قد قيل قبل نزول القرآن ، أو بعد نزوله وفى أثنائه ، فإن كانت الأولى فهو وثيقة فريدة فى الدلالة على ماعرف بعض العرب لذلك العهد فى تلك الشئون من الكتب المقدسة وسواها ، وإن كانت الثانية فقد أراد صاحبه لامحالة معارضة القرآن فانقطع وتخلف ولم يستطع الكفار أن يشغبوا به .

وهذه أبيات من شعره تدل على طريقته ، والأرجح أن نسبتها إليه صحيحة فإنها من قصيدة استشهد سيبويه ببيت منها وعنى بروايتها شراح كتابه ، وقل أن يجوز عليهم غير صحيح .

قال أمية يذكر إرسال موسى وهارون إلى فرعون ، وفى الأبيات روح التأثر بالقرآن :

وأنت الذى من فضل سيب ونعمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقال أعنى بابن أمى فإننى ... كثير به ، يارب صل لى جناحيا
وقلت لهارون اذهبا فتظاهرا ... على المرء فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له هل أنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له هل أنت رفعت هذه ... بلا عمد ، أرفق إذن بك بانيا
وقولا له هل أنت سويت وسطها ... منيرا إذا ماجنه الليل ساريا
وقولا له من أخرج الشمس بكرة ... فأصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من أنبت الحب فى الثرى ... فأصبح منه البقل يهتز رابيا
فأصبح منه حبه فى رءوسه ... ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

خصـــائص شعره :

أولا : من حيث الأسلوب والألفاظ :

يعد أمية من أكبر شعراء القرى العربية على قلة الشعر فيهم ، غير أن الذى أزرى بشعره فى نظر بعض النقاد حتى أسقطوا الاحتجاج به كثرة استعماله للدخيل من العبرية والسريانية فى شعره ، كما أنكروا عليه حق التعريب لشدة مخالطته الأعاجم وإن كان عربيا صريحا ، كما أنكروه على عدى لإدخاله الكثير من ألفاظ الفرس فى شعره . قال ابن قتيبة : « وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب وكان يأخذها من الكتب : منها قوله « وخان أمانة الديك الغراب » ، ومنها قوله « قمر وساهور يسل ويغمد » » وزعم أهل الكتاب أن الساهور غلاف القمر يدخل فيه إذا انكسف . وعلماؤنا لا يرون شعره حجة » (١) ... وكان أمية يسمى الله فى بعض أشعاره « السلطيط » وفى بعضها « التغرور » ، وربما اقتبسهما من الحبشية (٢) ، أوصاغهما على صيغ تلك اللغة ، فالأحباش يسمون الله فى اللغة الأمحرية « أغزا بهر » فلعلها كانت قبـــلا أقرب إلى « التغرور » .

ومهما كان فإن فى أساليب أمية بل وفى معانيه أشياء لم تكن العرب تعرفها ، ولا شك أنه قرأها فى بعض الكتب فأدخلها فى شعره ، وكان أمية يسمى السماء صاقورة وحاقورة ، كان فى بعض نتاجه قلق اللفظ سخيف النسج نابى القافية .

كل هذا إنما كان فى شعر أمية الدينى ، أما شعره غير الدينى فأرى عليه طلاقة الأسلوب وسهولة اللفظ وعذوبة العبارة وحلاوتها ورقتها وطلاوة البيان ، كما فى مدائحه لابن جدعان وقصيدته فى ابنه وسواها .

---

(١) ١٧٦ و ١٧٧ الشعر والشعراء .

(٢) ١٣٦/١ جورجى زيدان آداب اللغة العربية ط ١٩١١ .

ثانيا : من حيث المعانى والأخيلة :

انصرفت قريحه أمية إلى المعانى الدينية فاشتهر بها أمره ، واصطبغ بها شعره . فوصف الله عز وجل وذكر الحشر والحساب والجنه والنار والملائكة ، كما ذكر خلق الأرض والسموات ، قال ابن سلام : « وكان أمية كثير العجائب فى شعره ، يذكر فيه خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة من ذلك مالم يذكره أحد من الشعراء .(١)

ونظم حوادث التوراة كخراب سدوم وقصة إسحاق وإبراهيم ، وأدخل فى الشعر معانى لم يألفها الشعراء ، ولم يعرفها العرب ، فكان مذهب أمية فى شعره غير معهود فى عصره ، وكان سبباً فى أن ينحله العلماء ما جاء شاكلة تلك المعانى من الشعر ولم يعرفوا قائله ، مما كان له أثره فى عدم عناية الأدباء والرواة والنقاد بشعره ، وإهمالهم له ، ويقول الحجاج : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراس الكلام » .

وذكر كثيراً من العجائب والقصص الخيالية والأساطير الخرافية وخلق العالم وفنائه وأحوال الآخرة وصفات الخالق والخشوع له ، مما يتخلله شيء من الحكم والأمثال (٢) .

ولا شك أن شعر أمية الذى لم يصطبغ بصبغته الدينية يخلو من هذه السمات ، ويسير الشاعر فيه على نهج الشعراء الجاهليين : من صدق المعنى وبساطته وسذاجته مع تلون الثقافة فيه إلى حدما ، لثقافة أمية الواسعة ؛ ومع البعد عن الخيال الكاذب والمبالغة المفرطة فيه .

---

(١) ١٠٨ طبقات الشعراء لابن سلام .

(٢) قال أمية من حكمه :

ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال
يوشك من فر من منيته فى بعض غراته يوافقها
فكل معمر لا بد يوما وذى دنيا يصير إلى زوال

ومن معانيه المخترعة قوله :

إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

ويأخذ فى شعره الكونى والدينى من أساليب ومعانى وروح القرآن الكريم كما فى قوله من قصيدة :

عند ذى العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم إنه كان وعده مأتيا
يوم نأتيه مثل ماقال فردا لم يذر فيه راشدا وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد النا ر كتابا حتمته مقضيا

إذا لايتأتى أن يحمل ذلك على المصادفة والاتفاق ، ولا على أنه أخذه مما قرأ من الكتاب .

ولا شك أن ثقافة أمية الواسعة جملته يستمد معانيه وأفكاره وأخيلته من كثير من الثقافات والمصادر .

ثالثا : من حيث أغراض الشعر وفنونه :

يمكننا أن نقسم أمية إلى قسمين :

(١) شعره فى غير الدين :

وقد نحا أمية فيه منحى الشعراء فى الأغراض والمعانى والأسلوب :

١ — فنظمه فى المدح ، كما فى مدائحه السابقة لابن جدعان التى يظهر عليها روح الشاعرية ومواهبها العالية القوية الأخاذة المتدفقة .

٢ — ونظمه فى الرثاء ، ومن ذلك قصائد له كثيرة ، منها قوله يرثى زمعة بن الأسود وأخاه عقيلا من بنى أسد :

عين بكى بالمسبلات (١) أبا الحا رث لا تذخرى (٢) على زمعة
وعقيل بن أسود أسد البأ س ليوم الهياج (٣) والدفعة (٤)
فعلى مثل هلكهم خوت الجو زاء (٥) لاخانة ولا خدعة

(١) الدموع السائلة . (٢) أى لاتبقى . (٣) الحرب .
(٤) الحرب حيث يثور التراب من الدفعاء وهو التراب .
(٥) نجم معروف .

وهم الأسرة[1] الوسيطة [2] من كعـب وفيها كذروة [3] القمعة [4]
أنبتوا من معاشر شعر الرأ س وهم ألحقوهم المنعة
فبنو جمهم إذا حضر البا س عليهم أكبادهم وجعة
وهم المطعمون إذا أقحط القطـ ـر ، وحالت فلا ترى قزعة [5]

وقال يرثى قتلى بدر وفيهم عتبة وشيبة ابنا خاله:

ألا بكيت على الكرا م بنى الكرام أولى الممادح
كبكا الحمام على فرو ع الأيك[6] فى الغصن الجوانح [7]
يبكين حرى[8] مستكيـ ـنات [9] يرحن مـع الروائح
أمثالهن الباكيا ت المعولات[10] من النوائح
من يبكهم يبكى على حزن ويصدق كل مادح
أو لا ترون لما أرى ولقد أبان لكل لامح
أن قد تغير بطن مكـ ـة فهى موحشة الأباطح
من كل بطريق [11] لبطـ ـريق نقى اللون واضح
ومن السراطمة[12] الخلا جمة[13] الملاوثة [14] المناجح[15]
القائلين الفاعلـ ـين الآمرين بكل صالح

(١) أسرة الرجل: رهطه . (٢) الشريفة .
(٣) الذروة: أعلى السنام .
(٤) السنام .
(٥) السحاب المتفرق .
(٦) الشجر الملتف . (٧) جمع جانحة وهى المائلة .
(٨) يريد أنهن يجدن فى أجوافهن حرارة من الحزن .
(٩) ذليلات . (١٠) الرافعات أصواتهن بالبكاء
(١١) رئيس الروم .
(١٢) جمع سرطم: الكامل الخلقة القوى البلع الواسع الحلق .
(١٣) جمع خلجم: الضخم الطويل .
(١٤) جمع ملواث: السيد .
(١٥) الذين ينجحون فى سعيهم .

المطعمين الشحم فو ق الخبز شحا كالأنافح[1]
لكرامهم فوق الكرا م مزية وزن الرواجح
كتثاقل الأرطال بالـ قسطاس فى الأيدى النوافح[2]
خذلتهم فئة وهم يحمون عورات الفضائح
ولقد عنانى صوتهم من بين مستسق وصائح
لله در بنى على (م) أيم[3] منهم وناكح
إن لم تغيروا غارة شعواء تجحر[4] كل نابح
بالمقربات المبدا ت[5] الطامحات[6] مع الطوامح

٣ — الفخر : كانت مادة الفخر أمام أمية كثيرة لمجد بيت أبيه من ثقيف وبيت أمه من عبد شمس ، وكان قوله فيه فائقا بالغاً وإن كان مقلا ، ولعل إقلاله فى هذا الباب ناشىء كما يقول السباعى بيومى من ميله إلى الناحية الدينية التى تزهد الإنسان فى مفاخر هذه الحياة ، ولذا يغلب أن تكون مجمهرته فى الفخر قد قيلت قبل أن يتوغل فى الورع والتدين ، وهى حافلة بماله ولقومه من مكانة وعلاء ، وقد جاءت متفقة مع معلقة ابن أم كلثوم وزنا ورويا ، ومتحدة معها فى كثير من المعانى والأساليب ، لما فى طبع أمية من ميل إلى السهل النازع إليه عمرو دون غيره من رجال المعلقات ، ومنها :

فإما تسألى عنى لبينى وعن نسبى أخبرك اليقينا
ثقى أنى النبيه أبا وأما وأجداداً سموا فى الأقدمينا
ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا
وأرصدنا لريب الدهر جردا تكون متونها حصنا حصينا

وسيأتى تحليل لها .

---

(١) جمع إنفحة وهى شىء يخرج من بطن ذى الكرش داخله أصفر ، شبه به الشحم.
(٢) يروى المواتح وهى التى تتهادى بينها لثقل ما تحمله ، جمع ماتحة .
(٣) الأيم الذى لم يتزوج . (٤) تجحره : تدخله الجحر .
(٥) الخيل التى تبعد فى جريها . (٦) التى ترفع رأسها .

٤ — ونظم الشعر فى الوصف المعنوى لا الحسى ، كما فى قصيدته فى عقوق ابنه ، وهو بذلك يخالف جميع شعراء الجاهلية الذين عنوا بمظاهر الصحراء الحسية ووصفها، أما الوصف الحسى فليس له وجود فى شعر أمية الذى نظمه فى الكونيات وشئون الدين ، ولكنه كثير جداً فى شعره الدينى، وإن كان هذا الوصف الحسى لا يتناول الصحراء ومشاهدها وإنما يتناول الكون والسماء والأرض ووصف الحياة نفسها .

(ب) شعره الدينى :

وهو كثير ويغلب على شعر أمية ؛ وقد نظمه فى أغراض كثيرة منها :

١ — القصص كما فى وصفه لسفينة نوح وأسطورة تطوق الحمامة التى دلت أصحاب السفينة على الأرض اليابسة فأعطوها هذا الطوق ، وكما فى قصيدته فى ذكر إبراهيم ونذره ولده لله وما كان من حديث الذبح . وكما فى ذكره لقصة مريم وذكره لخراب سدوم وهى مدينة لوط وما وقع له مع قومه . وكما فى قصيدته فى غارة الأحباش على الكعبة ، وإشارته إلى قصة الفيل ؛ وكما فى كلامه عن قنزعة الهدهد ؛ وخرافة الديك والغراب وصداقتهما القديمة ، وقصة ثمود ورسالة موسى وهرون ، إلى غير ذلك من قصصه وأساطيره .

٣ — شعره فى الكونيات وهو كثير كوصفه للكون وخلقه ، وللجنة والنار والملائكة ، وسوى ذلك من نواحى هذا الفن .

٢ — شعره فى توحيد الله ، وهو كثير جداً فى شعره .

ويظهر فى شعر أمية الدينى الضعف الفنى : لصعوبة الكلام فى أمور الدين ، ولأنه كان يعارض القرآن فى بعض معانيه ، فعجز وضعف وخذى .

— ٦ —

نماذج من شعر أمية

١ — قال فى نذر إبراهيم ولده وإرسال الله بالفداء حين هم بالذبح واستسلم الذبيح :

ولإبراهيم الموفى بالنذر احتساباً(١) وحامل الأجزال(٢)
بكره لم يكن ليصبر عنه أو يراه فى معشر أقتال
أبنى إنى نذرتك لله شحيطا(٣) فاصبر فدى لك خالى(٤)
فأجاب الغلام أن قال فيه كل شىء لله غير انتحال
فاقض ماقدنذرته لك واكفف عن دمى أن يمسه سربالى
واشدد الصفد(٥) أن أحيد عن السكين حيد الأسير ذى الأغلال
بينما يخلع السرابيل عنه فكه ربه بكبش جلال
قال خذه وأرسل ابنك إنى للذى فعلتما غير قالى
ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

٢ — وقال فى خراب سدوم مدينة قوم لوط :

ثم لوط أخو سدوم أتاها إذ أتاها برشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا قد نهيناك أن تقيم قراها(٦)
عرض الشيخ عند ذاك بنات كظباء بأجرع ترعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا : أيها الشيخ خطة نأباها
أجمع القوم أمرهم وعجوز خيب الله سعيها ورجاها

---

(١) احتسب بكذا أجرا عند الله ، اعتده ينوى به وجه الله .
(٢) جمع جزل : الحطب اليابس .
(٣) ذبيحا . (٤) ويروى حالى وهو غير مناسب .
(٥) القيد والوثاق . (٦) القرى : إكرام الضيف .

أرسل الله عند ذاك عذابا ... جعل الأرض سفلها أعلاها
ورماها بحاصب[1] ثم طين ... ذى حروف مسم إذا رماها

ويروى: مسوم أى معلم.

٣ — وقال فى قصة مريم:

وفى دينكم من رب مريم آية ... منبئة بالعبد عيسى بن مريم
تدل عليها بعد ما نام أهلها ... رسول فلم يحصر[2] ولم يترمرم[3]
فقال ألا لا تجزعى وتكذبى ... ملائكة من رب عاد وجرهم
أنيبى وأعطى ما سئلت فإننى ... رسول من الرحمن يأتيك بابنم
فقالت له أنى يكون ولم أكن ... بغيا ولا حبلى ولا ذات قيم
فسبح ثم اغترها[4] فالتقت به ... غلاما سوى الخلق ليس بتوأم[5]
فقال لها إنى من الله آية ... وعلمنى والله خير معلم
وأرسلت لم أرسل غويا[6] ولم أكن ... شقيا ولم أبعث بفحش ومأثم

٤ — وقال فى حادثة الفيل وأن الدين الحق هو حنيفية إبراهيم بعد ذكر شىء من آيات الله:

إن آيات ربنا باقيات[7] ... ما يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل ... مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب كريم ... بمهاة[8] شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمس[9] حتى ... ظل يحبو كأنه معقور
لازما حلقة الجران كما قطر ... من صخر كبكب محدور

(١) ريح تحمل التراب. (٢) من الحصر وهو العى فى المنطق.
(٣) ترمرم فلان: تحرك للكلام ولم يتكلم.
(٤) اغترها: تغفلها. وبالعين: أى تغرب عنها ولم يمسها.
(٥) أى ليس مولوداً مع غيره فى بطن.
(٦) من الغواية: الضلال. (٧) ويروى: ثاقبات.
(٨) الشمس. (٩) موضع بطريق الطائف.

حوله من ملوك كندة أبطا ... ل ملاويث فى الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً ... كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عنـ ... ـد الله إلا دين الحنيفة زور

٥ — وقال فى إرسال الله إلى فرعون موسى وهارون ، وقد تقدمت أبيات منها:

وأنت الذى من فضل من ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان طاغياً
وقولا له هل أنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له هل أنت رفعت هذه ... بلا عمد ؟ أرفق إذن بك بانيا
وقولا له هل أنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنه الليل هادياً ؟
وقولا له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا ؟
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا ؟

وفى هذه الأبيات روايات أخرى .

٦ — وقال فى قنزعة الهدهد وأنها مكان حمله أمه فى قفاه :

غيم وظلماء وغيث سحابة ... أيام كفن واستراد [١] الهدهد
يبغى القرار بأمه ليجنها [٢] ... فبنى عليها فى قفاه يمهد [٣]
مهداً وطيا فاستقل بحمله ... فى الطير يحملها ولا يتأود [٤]
فتراه يدلج [٥] ما مشى بجنازة ... منها وما اختلف الجديد [٦] المسند

إلى غير ذلك من قصصه وأساطيره .

---

(١) من الرود : الطلب .
(٢) يجنها : يضعها فى الجنن وهو القبر .
(٣) يجعل قفاه مهداً لها .
(٤) يتلوى ويتعطف .
(٥) يمشى بحمله مثقلا .
(٦) الدائم الجدة لا يبلى .

٧ — وقال فى التوحيد:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنه مملوءة، طبق الآفاق سلطانا
ألا نبى لنا منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس محيانا؟
بينا يربينا آباؤنا هلكوا وبينا نقتنى الأولاد أفنانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف يلحق أخرانا بأولانا

٨ — وقال فى خلق الكون وفناء الخلق وعاقبة الناس مجرمين ومتقين:

إله العالمين وكل أرض ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شدادا بلا عمد يرين ولا حبال(١)
وسواها وزينها بنور من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأ فى دجاها مراميها(٢) أشد من النصال(٣)
وشق الأرض فانبجست(٤) عيونا وأنهارا من العذب الزلال
وبارك من نواحيها وزكى(٥) بها ما كان من حرث ومال
فكل معمر لا بد يوماً وذى دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدته ويبلى سوى الباقى المقدس ذى الجلال
وبارك فى نواحيها وزكى(٥) بها ما كان من حرث ومال
وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع (٦) والنكال(٧)
فنادوا ويلنا ويلا طويلا وعجوا فى (٨) سلاسلها الطوال
فليسوا ميتين فيستريحوا وكلهم بحر النار صالى(٩)
وحل المتقون بدار صدق وعيش ناعم تحت الظلال
لهم ما يشتهون وما تمنوا من الأفراح فيها والكمال

---

(١) فى الديوان : رجال . (٢) هى قطع النيران التى تنفصل من الشهب .
(٣) جمع نصل وهو حديدة السهم والرمح والسيف ما لم يكن له مقبض .
(٤) تفجرت (٥) نمى .
(٦) جمع مقمعة وهى خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه .
(٧) التعذيب . (٨) صاحوا بصوت عال .
(٩) صلى اللحم : شواه .

– ٧ –

بعض المنحول من شعره :

هذا وقد نحل لأمية شعر كثير ، وينفى الأصمعى عنه القصيدة المنسوبة إليه التى منها :

من لم يمت عبطة يمت هرما   الموت كأس فالمرء ذائقها

وينسبها لرجل من الخوارج ، ونقد قوله « الموت كأس » .

وينسب هذه القصيدة لأمية : الزبير بن بكار عن شيوخه وعن الحسن البصرى أيضاً (١) .

– ٨ –

وبعد فهذا هو تحليلنا لشعر أمية ؟ ومنه يبدو أنه عبقرى فى بابه ، ونسيج وحده فى أغراضه الدينية والكونية على الرغم مما فيها من ضعف فى الأسلوب والتركيب لغرابة المعانى التى نظمها .

أما أمية فى شعره البعيد عن الدين فيكاد يكون قريبا من زهير ، وشبيها بالحطيئة وسواء من الشعراء المجيدين .

– ٩ –

جمهرة أمية وتحليلها :

١ – وهى قصيدة غير طويلة نظمها أمية فى الفخر بقومه وأحسابهم . وتشبه – فى شاعريتها وموضوعها وروحها ووزنها وقافيتها وخيالها وكثير من معانيها وأساليبها – قصيدة عمرو بن كلثوم أو معلقته :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا   ولا تبقى خمور الأندرينا

---

(١) ٧٨ الموشح للمرزبانى .

٢ — ومطلع المجمهرة :

عرفت الدار قد أقوت(١) سنينا ... لزينب إذ تحل بها قطينا(٢)

٣ — وبعد أبيات فى الغزل وذكر الطلول ؛ يقول مفتخرا :

فإما تسأل عنى لبينى ... وعن نسبى أخبرك اليقينا
ثق أنى النبيه(٣) أبا وأما ... وأجداداً سموا فى الأقدمينا
ورثنا المجد عن كبرى نزار ... فأورثنا مآثرنا البنينا
وكنا حيثما علمت(٤) معد ... أقمنا حيث ساروا هاربينا
وتخبرك القبائل من معد ... إذا عدوا سعاية(٥) أولينا
بأنا النازلون بكل ثغر ... وأنا المقبلون إذا لقينا
وأنا المانعون إذ أردنا ... وأنا الضاربون إذا دعينا
وأنا الرافعون على معد ... أكفا فى المكارم ما بقينا
نشرد(٦) بالمخافة من أتانا ... ويعطينا المقادة من يلينا

٤ — والقصيدة خلو من الروح الدينى وقد يكون نظمها فى بدء حياته الشعرية وقبل أن يقف نفسه وحياته وشعره على شئون الدين ؛ وذلك يوضح لنا أسباب احتذائه لعمرو بن كلثوم ، فالشاعر فى أول حياته فى الشعر كثيراً ما يقلد النابغين من الشعراء ويحتذيهم .

وأصحاب المجمهرات هم : عبيد وعنترة وأمية وعدى وبشر بن أبى خازم وخداش بن زهير والنمر بن تولب .

بعض ما أخذ عليه :

١ — أخذ عليه النقاد قوله :

والشمس تطلع كل آخر ليلة ... حمراء مطلع لونها متورد
تأبى فلا تبدو لنا فى رسلها ... إلا معذبة وإلا تجلد

وقالوا : ما شأن الشمس تجلد .

---

(١) أقفرت . (٢) من قطن بالمكان : أقام به .
(٣) من نبه : ظهر وارتفع . (٤) لبسط العداء وهو العدو .
(٥) المساعى والمفاخر . (٦) من التشريد وهو الطرد والتفريق .

٢ — وأخذ عليه قوله :

له ما رأت عين البصير وفوقه   سماء الإله فوق سبع سمائيا

فقد خرج عن الاستعمال الفصيح لجمعه سماء على فعائل والقياس جمعها على فعول ، ولأنه أقر الهمزة العارضة فى الجمع ، مع أن اللام معتلة ، وهذا غير معروف ، ألا ترى أنهم يقولون خطيئة وخطايا لا خطائى ، ولأنه أجرى ياء « سمائى » مجرى الباء فى ضوارب ففتحها فى موضع الجر ؛ والمعروف أن تقول هؤلاء جوار ومررت بجوار فتحذف الياء وتنون .. وهذه الأوجه ذكرها صاحب الخزانة .

دين أمية :

لم يكن أمية وثنياً ، وجعله البعض نصرانياً ومنهم المسعودى ، وروى صاحب « الإصابة » أنه مات مسلماً ونسبوا إليه شعرا فى مدح الرسول .. والذى نراه أنه كان متحنفاً ، ومن شعره على ما يروى :

كل دين يوم القيامة عند الله   إلا دين الحنيفة زور

مصادر ثقافته الدينية :

١ — حنيفيته وما كانت تمده به من آراء فى الحياة والإله والكون .

٢ — كتب أهل الكتب الدينية التى اطلع عليها أمية كما يبدو ذلك بوضوح من شعره ، ومنها التوراة والإنجيل .

٣ — الأساطير والقصص الذى كان ذائعاً فى العصر الجاهلى ؛ وما تلقفه من أفواه الأحبار والكهان ، وما سمعه من أساطير فارسية .

٤ — آراؤه الخاصة فى الدين والوجود .

٥ — القرآن الكريم ، وهو أهم مصادر ثقافته الدينية .

اراء المستشرقين فى أمية

وقد أعمى التعصب الدينى بعض المستشرقين :

(ا) فذهب المستشرق الفرنسى كليمان هيوار (١٨٥٤ — ١٩٢٧) إلى أن شعر أمية كان من مصادر القرآن ، وأن الرسول ألف القرآن متأثراً فيما تأثر به بثقافات أمية الدينية فى شعره . وهو رأى باعثه التعصب الممقوت .

(ب) وذهب المستشرق الألماني (شولتهيس) إلى أن لأمية منهجاً مستقلا . ومن ثم أخذ يوازن بين القرآن وشعر أمية ؛ وذهب فى خطأ جسيم إلى أن أمية كان أدق فى كثير من الأحيان فى النقل عن الكتب القديمة ، وأنه كان أعلم وأبعد مدى فى الثقافة من محمد ؛ وأن المصدر الذى نقل عنه كل منهما واحد ، وينكر رأى هيوار فى أن شعر أمية كان من مصادر القرآن ، ويرى أن القرآن كتاب محمد .

وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية : « أن القصائد والمقطوعات التى وصلت إلينا منسوبة إلى أمية ، يمكن قسمتها بحسب موضوعها قسمين كبيرين : أصغرهما يتكون من قصائد وأبيات قيلت فى مدح أشخاص وبخاصة فى مدح رجل من أغنياء مكة هو عبد الله بن جدعان ؛ وهى لا تختلف فى جوهرها عن نظائرها عند غيره من شعراء العرب القدماء . أما القسم الأكبر الذى يبدأ بالقصيدة الثالثة والعشرين ، فيدل دلالة كاملة على النزعة التى يمكن تسميتها بالحنيفية ، وأساسها القول بإله واحد هو رب العباد ، وترى فيها صورا شبيهة بالوحى عن مقام الله وملائكته ، وحكايات عن الخلق وآراء تتعلق بيوم القيامة والجنة والنار ، وفيها دعوة إلى عمل الخير ، وإشارات إلى عبر أخذ بعضها من أخبار العرب عن عاد وثمود ، وبعضها من قصص التوراة عن الطوفان وإبراهيم ولوط وفرعون . . وابن أبى الصلت مولع إلى جانب هذا بقص الحكايات على ألسنة الحيوان . ونلاحظ فى شعره أيضاً ذكرا للأعمال السحرية » . . .

ومن قصته عن إبراهيم :

ولابراهيم الموفى بالنذر احتساباً وحامل الأجزال

بكره لم يكن ليصبر عنه أو يراه فى معشر أقتال

ومن يقرأ هذه القصة وما أشبهها فى القرآن الكريم يعلم صحة ما نقول من أن أمية فى هذا الباب متكلف متصنع ، عاك لم يحكم المحاكاة ، بل إنه نظام وليس بشاعر وهذا لا يخليه من بعض أبيات كان له فيها الاجادة فى هذا الباب .

وقال ابن سلام فيه : « وكان أمية كثير العجائب ، يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء » ... وقال أبو عبيدة : « اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم وعبد القيس ، ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبى الصلت » .. وقال الكميت : « أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ولم نقل كما قال » . وقال الأصمعى : « ذهب أمية بعامة ذكر الآخرة ، وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن أبى ربيعة بعامة ذكر الشباب » .

ونقول : تلك آراء العلماء فى شعر أمية ، ولكن ما بين أيدينا من شعره لا ينزله هذه المنزلة ، فلعل كثيراً من شعره الجيد قد ذهب مع الزمان .

وقال أبو الفرج فى أغانيه : « كان أمية بن أبى الصلت قد نظر فى الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً ، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية وحرم الخمر ، وشك فى الأوثان ، وكان محققاً . والتمس الدين ، وطمع فى النبوة ، لأنه قرأ فى الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون هو ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قيل له : هذا الذى كنت تستريث(١) ، وتقول فيه ، فحسده عدو الله وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه فأنزل الله عز وجل : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » .

وهو الذى يقول :

كل دين يوم القيامة عند اللـ ـه إلا دين الحنيفة زور

فأنت ترى من هذا أنه كان متألهاً يعبدالله على دين ابراهيم ، ويتوقع أن يكون هو صاحب الرسالة الذى بشرت به الكتب التى عكف عليها بالدرس . فلما لم يكن ما خط فى سجل القدر موافقاً لما وقر فى نفسه ، غلب جهله على حلمه ، وسيطر حسده على فكره ، فلم يؤمن بالنبى عليه السلام ، ولم ينهل من حياض شريعته . قال ابن قتيبة فى الشعر والشعراء : « وكان أمية يخبر أن نبياً يخرج قد أظل زمانه ، وكان يؤمل

(١) تستبطىء .

أن يكون ذلك النبى ، فلما بلغه خروج النبى صلى الله عليه وسلم كفر به حسدا ، ولما بلغه خبر وقعة بدر والذين قتلوا بها من ذوى قرابته قال قصيدته التى يرثى فيها من من قتل من قريش ويحرضهم على أخذ الثأر :

ألا بكيت على الكرا | م بنى الكرام أولى الممادح
كبكا الحمام على فرو | ع الأيك فى الغصن الجوانح

ثم أخذ يفيض فى وصف قتلى بدر ، حتى لم يدع مكرمة إلا ألصقها بهم ، إلى أن قال :

خذلتهم فئة وهم | يحمون عورات الفضائح
الضاربين التقدميـة | بالمهنـدة الصفائح

قال ابن هشام بعد رواية هذه القصيدة : « تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب الرسول » . . وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية : والأخبار مختلفة فى موقفه بالنسبة للنبى وللإسلام ، ولعل الأرجح أنه لم يلق النبى وأبى أن يصدق بدعوته ، يؤيد هذا ما يتجلى فى قصيدته المذكوره من عطف على قريش » . وأيا ما كان من شأن هذه الروايات فقد اتفقت جميعا على أنه مات كافرا ولم يؤمن بالنبى عليه السلام ، روى صاحب الأغانى بسنده قال : « لما أنشد النبى صلى الله عليه وسلم قول أمية :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا | بالخير صبحنا ربى ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنه | مملوءة طبق الآفاق سلطانا
ألا نبى لنا منا فيخبرنا | ما بعد غايتنا من رأس مجرانا ؟

إلى أن قال :

يارب لا تجعلنى كافرا أبدا | واجعل سريرة قلبى الدهر إيمانا
واخلط به بنيتى واخلط به بشرى | واللحم والدم ما عمرت إنسانا

قال صلى الله عليه وسلم : « آمن شعره وكفر قلبه » . ولولا ما نعرف من غلبة الكذب على كثير من الشعراء لقلنا إن هذه الأبيات منحولة على أمية كما نحل عليه الكثير غيرها ، ولكنا قد تعودنا من الشعراء مثل ذلك ؛ فلا بعد في أن تكون من شعره .
ولقائل أن يقول هذه القصيدة قيلت قبل مبعث النبي عليه السلام ، وقد اتفق الرواة كما قدمنا على أنه كان موحدا حنيفيا ، فلم نشك في نسبتها إليه ؟ .

موازنة أدبية

بين قصيدتين لأمية بن أبي الصلت، وعمرو بن كلثوم

— ١ —

أما الأولى فهي معلقة عمرو بن كلثوم (٥٠٠ — ٦٠٠) المشهورة :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وأما الثانية فهي بجمهرة أمية بن أبي الصلت (٥٥٠ — ٦٣٠) :

عرفت الدار قد أقوت سنينا لزينب إذ تحل بها قطينا

والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر وملاحمها الحربية التي انتصرت فيها على أعدائها ؛ وهي فريدة في نوعها ، فهي جديرة حقاً بأن تسمى ملحمة ، وهي تصوير قوي رائع لمجد القبيلة ومفاخرها وأيامها ومنها يوم خزاز ، وإشادة بنفوذها ومكانتها ، وتهديد لأعدائها وتنبيه للملك عمرو بن هند حتى لا يطيع بهم الوشاة ويتحيز لبكر شقيقة تغلب ومزاحمتها في النفوذ والمجد والسلطان وقد بدأها الشاعر بوصف الخمر بما يعد ميزة فريدة لها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر ، وختمها بقوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجل بعضها أمام الملك عمرو بن هند وهو الجزء الذي هدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك من الاستماع للوشاة والميل معهم على تغلب ، ومنه :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا

ثم أكمل القصيدة كلها، وأنشدها فى سوق عكاظ وقد عدتها تغلب مجدا لها وملحمة تاريخية تصور تاريخها، فاعتزت بها اعتزازا كثيرا، ويقال إنها أضافت إليها الكثير حتى بلغت أبياتها نحو الألف بيت، حتى قال بعض البكريين فيها :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم   يا للرجال لشعر غير مشئوم

وأما المجمهرة فقد تحدث فيها أمية عن مجد قبيلة ثقيف وهى من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ والسيادة فى الطائف، وافتخر بها وصور مكانتها ووراثتها لمجد الآباء والأجداد، ولم يبدأها بوصف الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم، بل بدأها كما يبدأ الشعراء قصائدهم فوصف فى مطلعها أطلال محبوبته « زينب » وعفاءها ولعب الرياح المعصرات بها، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة نفسها من الفخر بمجد القبيلة وشرف الآباء فقال فيما قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار   فأورثنا مآثرنا البنينا
وكنا حيثما علمت معد   أقمنا حيث ساروا هاربينا
وتخبرك القبائل من معد   إذا عدوا سعاية أولينا
بأنا النازلون بكل ثغر   وأنا الضاربون إذا لقينا

إلى آخر ما ذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجدهم ومنابتهم وما أرصده لريب الدهر من الخيل والرماح والسيوف والشيب والشبان، ووراثتهم للمجد عن كبرى نزار، إلى غير ذلك من مظاهر الكبرياء والعزة والسيادة التى أضافها أمية إلى قومه، ولا ندرى شيئاً عن التاريخ الأدبى للقصيدة وإن كنا نرجح أن الشاعر نظمها فى مفاخرة من المفاخرات التى تحدث كثيرا بين القبائل العربية وخاصة فى العصر الجاهلى

— ٢ —

وتتفق القصيدتان فى كثير من وجوه الشعر والشاعرية :

تتفقان فى الموضوع وفى الوزن والقافية . كما تتفقان فى خيالهما والمبالغة الواضحة فيهما.

وتتفقان فوق ذلك فى هذه السهولة الواضحة الغالبة عليهما وخاصة عندما ينتقل الشاعران إلى الغرض الأصلى من قصيدتيهما وهو الفخر ، وليست هذه السهولة الفنية بغريبة على الشاعرين ، فارتجال عمرو لقصيدته ومقام الفخر يقتضيان السهولة ، ونشأة أمية فى الطائف وحياته فيها بين الزروع والفاكهة والجو الجميل والهواء الطلق ؛ وتنقله بين الشام واليمن ومكة والمدينة ، كل ذلك جعله يعيش فى ظلال قسط من الحضارة صقلت مواهبه الأدبية وطبيعته الفنية ، فظهر أثر ذلك فى شعره وضوحاً وسهولة وإسجاحاً وصقلا فنياً رائعاً .

وتتفق القصيدتان فوق ذلك فى كثير من معانى الشعر وأساليبه ، ومن مظاهر هذه التشابه هذه المعانى والأبيات .

(١) قال عمرو :

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا(١)

وقال : ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال :

ورثناهن(٢) عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا

فقال أمية :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا

ونستطيع أن توازن بين البيتين الآخرين إذا علمت أن وراثة المجد فى بيت أمية أبلغ فى الفخر من وراثة الخيول فى بيت عمرو ، وإن كانت وراثة الخيول من أسباب

(١) أى حتى يظهر الشرف لنا .

(٢) الضمير يعود إلى الأفراس فى بيت سابق .

المجد لأن الخيل وركوبها واتخاذها عتادا دليل الشجاعة والبطولة وحب النضال ، وقول أمية « فأورثنا مآثرنا البنينا » أبلغ من قول عمرو « ونورثها إذا متنا البنينا » لأن قوم أمية ذكروا أن أبناءهم ورثوا هذا المجد عن آبائهم سواء كان الآباء قد ماتوا أم لا يزالون أحياء ، فهم قد ورثوه فعلا ، أما عمرو فقال إن الأبناء يرثون الخيل بعد موت الآباء فهم لم يرثوه فى حياتهم فكأنهم لا يعرفون بالشجـاعة إلا بعد موت الآباء وهذا قصور فى الفخر . وقال أمية : « البنينا » وقال عمرو : « بنينا » فشهرهم أمية وأبان عن وضوحهم . وقال عمرو « أصدق » فدل على شجاعتهم أو وضوح نسبهم ، وهى زيادة لا نظير لها فى قول أمية .

وقد أخذ أمية لفظ « قد علمت معد » من قول عمرو فقال :

وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساروا هاربينا

(ب) ويقول عمرو « وأنا المهلكون إذا ابتلينا » أى نهلك أعداءنا ونبيدهم إذا اختبرنا بقتالهم . . فيقول أمية : « وأنا الضاربون إذا التقينا » . فتجد قول عمرو أبلغ حيث نص على إهلاك الأعداء . ولم يذكر أمية إلا الضرب وإن كان يكنى به عن الشجاعة والإقدام والعزيمة والجد فى طلب الأعداء . ولكنه على أى حال لم يصور نتيجة الحروب كما صورها عمرو بقوله « المهلكون » .

(حـ) ويقول عمرو : وأنا المانعون لما أردنا « ويروى « الحاكمون بما أردنا » . . فيقول أمية « وأنا المانعون إذا أردنا » .

(د) ويقول عمرو :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ويروى من الجمهرة :

وأنا الشـاربون المـاء صفوا ويشرب غيرنا كـدرا وطينا

ويقول عمرو .

بفتيان يرون القتل مجـــدا وشيب فى الحروب مجربينا

وقد روى من الجمهرة :

وفتيانا يرون القتل مجدا وشيبا فى الحروب مجربينا

— ٣ —

وتمتاز المعلقة بتنوع أغراضها ، وبطولها ، وسهولتها ، وأنها ملحمة تاريخية وتصوير لمجد تغلب القومى والحربى ، وبما فيها من وصف للخمر ، وهى على أى حال وباعتراف نقاد الأدب القديم من أشهر القصائد الجاهلية ولذلك وضعوها مع المعلقات ، وقال ابن قتيبة فيها : « وهى من جيد شعر العرب » .

أما قصيدة أمية فقد وضعوها فى منزلة أدبية بعد منزلة المعلقات حيث رتبوها فى المجمهرات . والمجمهرات سبع قصائد من الشعر الجاهلى رواها أبو زيد الأنصارى فى الجمهرة وأصحابها هم :

(ا) عبيد بن الأبرص ومجمهرته مشهورة ومطلعها :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب
أو : عيناك دمعهما سروب كأن شأنيهما شعيب

وتشتهر باختلاف وزنها واضطرابه : وهى قاصرة على الحكمة ومنها :

والمرء ما عاش فى تكذيب طول الحياة له تعذيب
من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

ويغلب عليها صبغة التدين وروح الإيمان .

(ب) عدى بن زيد ، ومطلع مجمهرته :

أتعرف رسم الدار من أم معبد نعم ورماك الشوق قبل التجلد

وتشبه معلقة طرفة فى وزنها وقافيتها وروح الحكمة السارية فيها كما تتفق معها فى بعض الأبيات ، ويغلب عليها روح التدين ، ومنها :

فنفسك فاحفظها عن الغى والردى متى تغوها يغو الذى بك يقتدى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

والبيت الأخير تجده فى معلقة طرفة أيضاً .

(ج) النمر بن تولب ، ومطلع مجمهرته :

• تأبد من أطلال عمرة مأسل •

وتغلب عليها روح الحكمة ، ومنها :

يود الفتى طول السلامة والغنى ... فكيف ترى طول السلامة يفعل

دعانى الغوانى عمهن وخلتنى ... لى اسم فما أدعى به وهو أول

(د) أمية بن أبى الصلت ، ومجمهرته معروفة . وهى وقف على الفخر.

(ه) بشر بن أبى خازم : ومجمهرته فى الفخر بقومه وبطولتهم وعزهم ، ومطلعها :

لمن الديار غشيتها بالأنعم ... تعدو معالمها كلون الأرقم

(و) خداش بن زهير ، ومجمهرته فى الفخر بقومه أيضاً ومطلعها :

أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر

(ز) عنترة وقصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

ويعدها البعض من المعلقات والآخرون من المجمهرات ، وهى على أى حال فى الفخر حيث وصف فيها الشاعر بطولاته وشخصيته بوضوح .

وهذه القصائد السبع :

(أ) من الناحية التاريخية نجد أن أصحابها لم يعيشوا فى عصر واحد ، فعدى توفى نحو عام ٥٦٥ م وعبيد عام ٥٥٥م وأمية عام ٦٣٠ م وعنترة عام ٦١٥ م الخ ، مما يؤكد لنا أنه لم تلاحظ الناحية التاريخية فى ترتيبها .

(ب) ومن ناحية موضوع هذه القصائد نجد أن ثلاثا منها فى الحكمة وأربعا فى الفخر ، مما يؤكد أنها لم ترتب بحسب موضوعاتها .

(ج) فلم يبق إلا أنها رتبت بحسب جودتها الفنية ومنزلتها الأدبية ، ومن غير شك فإن شاعرية هؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية فى هذه القصائد تكاد تكون فى منزلة واحدة مما يبدو بوضوح للناقد الدارس .

فهذه القصائد السبع يشبه بعضها بعضاً فى النواحى الفنية والقيمة الأدبية وتكاد تكون متساوية فى حكم النقد الأدبى السليم ، وهى لا تحتل الذروة بين قصائد العصر الجاهلى ، وإنما تلى هذه القصائد السبع الجياد المشهورة « المعلقات » ، ويليها كثير من القصائد التى لا تبلغ منزلة المجمهرات الأدبية .

ومن الغريب أن تخلو مجمهرة أمية من هـذه الصبغة الدينية التى اشتهر بها أمية ، ويبدو أنه نظمها فى أوائل عهـده بالشعر وفى عصر الشباب ممـا يتضح من تقليده فيها لعمرو بن كلثوم ومعلقته .

وقد يكون السبب الذى جعل أمية ينظم مجمهرة محتذياً فيها عمرا هو إعجابه بمعلقته وروايته لها ، أو تأثره بعمرو خاصة من بين الشعراء الجاهليين .

ومعلقة عمرو يرى فيها الدكتور طه حسين فى كتابه (الأدب الجاهلى) أنه لا يمكن أن تكون هى أو أكثرها جاهلية .

ويذكر أن الرواة قد شكوا فى بعضها وأن عمرا نفسه قد أحيط بطائفة من الأساطير ، ويرجح انتحال المعلقة هى ومعلقة الحارث بن حلزة .

والمعلقة نفسها خير رد على هذا الرأى فهى صورة لحياة جاهلية لاشك فيها وتمثل حياة عمرو نفسه تمام التمثيل ، والشخصية الفنية فى المعلقة شبيهة تمام الشبه بالآثار الفنية القليلة التى ثبتت صحتها لعمرو مما ورد فى الحماسة وسواها .

وبعد فنستطيع أخيراً أن نقول إن أمية نظم مجمهرته متأثراً فيها بعمرو ومعلقته ، وأنه قلد عمرا تقليدا فنياً واضحاً لا لبس فيه ، والتقليد الفنى ليس ببعيد على الشعر الجاهلى ولا بغريب فيه ، وكما قلد الشعراء المحدثون من تقدمهم من أئمة الشعر العربى فقد كان الشاعر الجاهلى يقلد من سبقه من الشعراء .

النابغـــة الذبيانى

٥٣٥ – ٦٠٤ م

تمهيـــد :

ذبيان بن بغيض ، قبيلة من غطفان . من قيس بن عيلان ، من العدنانية ، تنتسب إلى ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس ، بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وتنقسم إلى ثلاثة بطون : مرة ، وثعلبة ، وفزارة[1] .

ومن ولد ذبيان ، فزارة وسعد . وفى رواية أخرى أن والد سعد هو ثعلبة ابن ذبيان ، وولد سعد عوفاً ، وهو والد مرة ، وثعلبة . ومن بنى مرة بن عوف : خزيمة وغطفان وسنان ، وبنو يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف ، ومنهم النابغة الذبيانى[2] .

ولقد كان بنو يربوع مع شرحبيل يوم الكلاب الأول . ومن أوديتهم حراض[3] وهناك أغار عليهم خالد بن جعفر بن كلاب . وقال الحارث بن ظالم زعيمهم ، وقد عيره خالد ذلك :

أعيرتنى أن نلت منى فوارساً غداة حراض مثل جنان عبقر

وقال دريد بن الصمة :

فإن لم تشكروا لى فاحلفوا لى برب الراقصات إلى حراض

وهذا البيت يدلك أن حراضاً تلقاء مكة[4] .

---

(١) معجم القبائل العربية . لرضا كحالة ص ٤٠٢–٤٠٣ .
(٢) جمهرة (ص ٢٤٠) ، وتاريخ العرب السياسى ج ٤ ص ٣١٧ .
(٣) معجم القبائل العربية ص ١٢٦٣ .
(٤) معجم ما استعجم ج ٢ (ص ٤٢٣) .

ويقول الإصطخرى وهو يحدد الحجاز فى كتابه المسالك «ط دى غوية ص ١٢، ١٤» : إن الحجاز تمتد من حد السراة على البحر الأحمر إلى قرب مدين راجعاً فى حد المشرق على الحجر إلى جبل طىء[1] .

وهذا النص يدلنا على أن الحدود الغربيـة للحجاز هى البحر الأحمر ، والحدود الشمالية تسير قريبـاً من مدين إلى الشمال فيها ، بينما تصل حدوده الشرقية إلى جبلى أجا وسلمى .

وإذا علمنا أن منازل ذبيان كانت تقع شرقى المدينة إلى جبلى «أجا وسلمى» أدركنا أن هذه القبيلة كانت تقطن فى منطقة الحجاز . . . ومما يؤيد ذلك البيتان اللذان رواهما صاحب جمهرة شعراء العرب عن أبى عبيدة ونسبهما إلى النابغة : وهما :

من مبلـغ عمرو بن هنـد آية ... ومن النصيحة كثرة الإنذار
لا أعرفنـك عارضـاً لرماحنـا ... فى جُفِّ[2] ثعلب واردى الأمرار

قال صاحب الجمهرة : «يعنى ثعلبة بن عوف بن سعد بن ذبيـان ، وروى الكوفيون : جف تغلب ، وهـذا خطأ لأن تغلب بالجزيرة ، وثعلب بالحجاز وإمرار موضع هناك[3]» اهـ . كل هذه النصوص تدلنا على أن النابغة كان يقطن الحجاز ، بل إنه ليسمى شاعر الحجاز ، ويدلنا على ذلك ماذكره الميدانى فى حديثه عن المثل «آمن من حمام مكة» ، إذ يقول : وأما قولهم[4] «آمن من حمام مكة» ، فمن الأمن لأنها لا تثار ولا تهاج : قال شاعر الحجاز وهو النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل والسعد[5]

---

(١) شمال الحجاز ا ر موسل ص ٢٧ .
(٢) الجف : الجمع الكثير من الناس .
(٣) ص ٨٥ النابغه الذبيانى للدسوقى .
(٤) مجمع الأمثال ج ١ ص ٨٩ .
(٥) الغيل : ماء إذا كثرت السيول يصب من الجبل الذى يدعى اليوم جبل الرخم المعروف بمكة وهو متاخم للجبل المسمى اليوم جبل النور . وأما السعد بفتح العين فهو ماء تصب من جبل أبى قبيس معروفة عند جميع العرب بهذا الاسم وأقرب تحديد له هو ما يسميه أهل مكة فى هذا العهد المصافى .

نسب الشاعر :

هو أبو أمامة زياد بن معاوية ، من غيظ بن مرة ؛ من ذبيان من غطفان من قيس ابن عيلان بن مضر ، وهو نسب عريض بين القبائل العربية ؛ وأرومة عزيزة كريمة المحتد ، لها الشرف والمجد والسؤدد من قديم .

وكانت ذبيان تعيش فى منطقة الحجاز شرقى المدينة حتى جبلى (أجاوسلمى) ، تخط على أرض الصحراء مآثر خالدات لا تبلى وإن قدم الزمان ، وكانت بلادها ساحة للحروب المبيدة ، والخصومات الكثيرة ، التى كانت كثيراً ما تقوم بين ذبيان وأبناء عمومتهم وأقرانهم فى الشرف : العبسيين ؛ وبين الغطفانيين والعامريين ، وكانت هذه الحروب ذات أثر كبير فى الشعر والأدب ، وفيها نظمت أشهر القصائد الجاهلية وأروعها ، فى الفخر والهجاء والحماسة والرثاء ، والمدح والوصف ، والدعوة إلى السلام أو إلى الأخذ بالثار ، وما إلى ذلك من أغراض وفنون . وكان من أشهر تلك الحروب التى اشتركت فيها ذبيان حرب داحس والغبراء ، ولها أيام مشهورة ، وأنباء مأثورة ، وذكر فى آداب الجاهلية وأشعارهم ، وخاصة فى معلقة زهير ومعلقة عنترة وفى أشعار النابغة . كما كان بنو ذبيان وأبناء عمومتهم يغيرون أحياناً على حدود إمارة الغسانيين بالشام ، فيأسرون ويؤسر منهم .

وقد نبغ من قوم النابغة الشعراء والخطباء ؛ كما نبغ من أبناء عمومتهم الكثيرون أيضاً .

نشأة النابغة :

وفى هذه البيئة الجاهلية البدوية ، وفى تلك المسارح الفينانة ، ولد زياد النابغة ، وشب فى رعاية والده معاوية ، وأمه عاتكة الأشجعية . وأرهف سمعه إلى الشعر تتجاوب به الآفاق ، صدى للشعراء ينشدونه ؛ والرواة يرددونه ، فهزته فيه معانى الفتوة والبطولة ، وجوانب المجد والشرف ، لأنها هى التى تلائم طبعه ، وتساوق مزاجه ، لأنه لم يعش خليعاً ولا مستهتراً ، وإنما آثر الجد ونزع إلى غايات الشرف .

وما زال ينصت إلى الشعر حتى أحبه وهام به ونبغ فيه ، فلقب بالنابغة لأنه لم يقل الشعر حتى كبر وصار رجلا[1] أو لأنه نبغ فيه فجأة بعد ما احتنك[2] أو لأن له من الشعر مادة لا تنقطع ، فشبهوه بالماء النابغ الذى لا ينقطع ، أو هو من قولهم نبغت الحمامة إذا تغنت ، أو لأنه استعمل لفظة (نبغ) فى قوله :

وحلت فى بنى القين بن جسر فقد نبغت لهم منا شؤون[3]

إلى غير ذلك مما يختلف فيه الكاتبون[4] . وكان مع ذلك يكنى بأبى أمامة اسم بنت له .

واشترك النابغة فى حروب قومه وخصوماتهم ،وعاش كما يعيش الناس فى البادية، ثم حميت عواطفه ، وانطلقت شاعريته ، وفاض لسانه بالبليغ الساحر من القصيدة ، فبدأ يحيا حياة جديدة غير حياته الأولى .

سجل النابغة فى شعره حروب قومه وأيامهم وانتصاراتهم ومفاخرهم ومآثرهم وهجا خصومهم ، وندد بأعدائهم ، ووقف يدافع عن قومه بكل ما أوتى من بيان وما يستطيع من قوة .

وكان النابغة من أشراف قومه ، ولكنه آثر أن يمدح الأشراف ، ويفد عليهم وينال جوائزهم ، ويندمج فى حاشيتهم ، ولذلك قال أبو الفرج :وهو أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم[5] باتخاذه أداة للكسب .

---

(١) البكرى فى اللآلىء ج ١ ص ٧٩ .

(٢) احتنك : طعن فى السن — ابن قتيبة فى الشعر والشعراء .

(٣) الخزانة للبغدادى ج ١ ص ٢٨٧ .

(٤) كل هذا فيما يظهر من عبث الرواة وتخمينهم ، فالنابغة الرجل العظيم الشأن والهاء للمبالغة ؛ وقد أطلق هذا اللقب على كثير من الشعراء ، كالنابغة الجعدى (قيس ابن عبد الله الصحابى) والنابغة الشيبانى (عبد الله بن مخارق) والنابغة الغنوى وغيرهم .

(٥) ج ١١ ص ٣ الأغانى طبع دار الكتب .

النابغة فى الحيرة :

دار النابغة ببصره فوجد دولة المناذرة فى الحيرة والشعر فيها دولة ، وللمناذرة نفوذ وصولة ، فتوجه إليها ومدح أمراءها ، وممن مدحهم عمرو بن هند (٥٤٥ — ٥٦٩) وله فيه قوله يهدده وينذره : من مبلغ عمرو بن هند آية ؟ إلى آخر البيتين السابقين .

ولما تولى عرش الحيرة النعمان بن المنذر (٥٨٠ — ٦١٢) توثقت صلة النابغة به ، وأصبح نديمه وشاعره الأثير عنده الخاص به ، وصار يتردد على قصره كثيراً . ويصور حسان فى حديث طويل مكانة النابغة عند النعمان ، فيذكر أن عصاماً حاجب الأمير قال له : إذا قدم النابغة عليه فليس لأحد منه حظ سواه ، فاستأذن حينئذ وانصرف مكرماً خير من أن تنصرف مجفواً[1] ويروى أن صديقاً لحسان قال له : إن أنت خلوت بالنعمان وأعجبته فأنت مصيب منه خيراً ، فأقم ما أقمت ، فإن رأيت أبا أمامة فاظعن ، فلا شيء لك عنده ، قال حسان : فقدمت فأذن لى النعمان وأصبت منه مالا كثيراً : ونادمته وأكلت معه ، فبينا أنا على ذلك إذا رجل يرتجز حول قبة الأمير ، فقال . أليس بأبى أمامة ؟ قالوا : بلى . قال : فأذنوا له ، ودخل فحياه وشرب معه ، ثم وردت النعم السود ولم يكن لأحد من العرب مثلها ، فاستأذنه أن ينشد ، فأذن له فأنشده :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهم كوكب

فوهبه مائة من الإبل السود ، قال حسان : فما أصابنى حسد فى موضع مثل ما أصابنى يومئذ ، وما أدرى أيها كنت أحسد له عليه : ألما أسمع من فضل شعره ؟ أم ما أرى من جزيل عطائه . أم لاصطفاء النعمان له ومسامرته واحتفائه به[2] .

كان النابغة يأكل فى صحاف الذهب والفضة من كثرة ما أعطاه النعمان ، وكان ذلك يلهمه القصائد الذهبية فى مدحه .

---

(١) ٢٧ ج ١١ الأغانى — ط دار الكتب .

(٢) راجع ٢٧ — ٢٩/١١ الأغانى .

وهكذا كان النابغة شاعر النعمان الخاص، وأثيره ونديمه. ويظهر أن هذه المداخلة الشديدة أوغرت صدور منافسيه حسدا، وأطلقت رءوس الحقد الكامن في نفوسهم، فأخذوا يكيدون له، ويعملون على الإفساد بينه وبين الملك. وكان من هؤلاء رجل من حاشية النعمان هو مرة بن سعد بن قريع؛ وكان له سيف قاطع يقال له (ذو الريقة) من كثرة رونق فرنده وجوهره، فوصفه النابغة للنعمان، فأخذه من ذلك القريعي على كره منه وحقد على النابغة[1]؛ ومنهم المنخل اليشكري.

نظم هؤلاء الوشاة على لسان النابغة هجاء سفيها في النعمان، يذكرون في بعضه جده لأمه، وكان صائغاً بفدك، وفي هذا الهجاء:

قبح الله ثم ثنى بلعن　　　وارث الصائغ الجبان الجهولا

ويقال: إنهم أنشدوا النعمان قصيدته في المتجردة زوجته، وكانت من أجمل نساء العرب في عصرها، والنعمان من أشنع الرجال دمامة وقبحاً، وكان شديد الغيرة عليها، فرآها النابغة فجأة، فسقط حجابها، فاستترت بيدها، فقال فيها قصيدته المشهورة، وفيها إشارة لهذه الحادثة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه　　　فتناولته واتقتنا باليد

وفيها غير ذلك وصف شهواني فاحش لمواطن عورتها: ومن الرواة من يزعم أن النعمان هو الذي طلب من النابغة وصف المتجردة، وكان يظن أنه لا يفحش في الوصف[2]، وربما دس الوشاة عليه ما فيها من فحش. كما يقول في بعض اعتذاراته: «ما قلت من سيء مما أتيت به».

ولعل الوشاة رموه بالميل إلى أعداء النعمان وهم الغساسنة، أو لعل الغسانيين حاولوا اجتذابه إليهم فأغدقوا عليه مدحهم وهو في ظلال النعمان. كل ذلك أو بعضه أوغر صدر النعمان عليه وأغضبه.

---

(١) ٩ ص ١٦٦ الأغاني.

(٢) ويقال إن المنخل وكان يهيم بالمتجردة، قال للنعمان. إن وصف النابغة لها لا يكون إلا عن تجربة.

النابغة عند الغساسنة :

وعلم النابغة بأثر الوشايات في نفس النعمان(١) فهرب تاركاً كل مايملك ؛ وبعد أن أقام مدة في قومه ، شخص إلى الغساسنة ، فاتصل بعمرو بن الحارث ، ومدحه بقصائد منها بائيته :

كليني لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وأقام مدة في بني غسان ، يتنقل مع أمرائهم في الحواضر . ويحضر حفلاتهم الدينية ، ويطلع على أسرارهم وسياستهم ، ويسجل بشعره مفاخرهم وأيامهم . حتى إذا ضاق بصحبة بعض من خلف عمرا من الملوك ، أو سمع بمرض النعمان بن المنذر ، أو حن إلى صحبته وعطائه ، ترك الغساسنة ، وعاد إلى الحيرة من جديد باعتذارياته المشهورة للنعمان حتى أمنه .

ولكنه لم يلبث في الحيرة كثيرا ، حيث انهار ملك النعمان بغضب كسرى عليه ، وتشريده في القبائل ، ثم قبضه عليه وحبسه حتى مات عام ٦٠٢ م .

فذهب النابغة إلى أرض قومه بالحجاز ، وأقام بها حتى مات عام ٦٠٤ م بعد أن خلف للأجيال العربية تراثه الضخم ، من روائع الشعر وبدائعه .

شخصية النابغة :

كان النابغة شاعر قصور موفورا جانبه ، مرغوبا في مدحه ، جادا في حياته ، وقورا حكيما ، محنكا مجربا ، دقيق الملاحظة ، سديد الرأي ، وفياً لمن أحسن إليه .

وقد كان يخوض سياسات القبائل المختلفة ، ويلم بكل شؤون قومه ، ويشاركهم في كل ماينوب ، فأكسبه ذلك تجربة وخبرة . وبذلك اجتمعت له عناصر الشخصية القوية .

وليس أدل على ذلك من اختيار الشعراء له حكما في سوق عكاظ ، حيث كانت تضرب له قبة بها ، فيتسابقون إليه ينشدون ، وهو يحكم للسابق منهم ، وقوله الفصل ، وحكمه غير مردود .

---

(١) كان للنعمان حاجب يسمى عصاما ؛ وهو الذي يضرب به المثل في الاعتماد على النفس والنبوغ بالجد والاجتهاد ؛ وهو الذي قيل فيه : (نفس عصام سودت عصاما) وقد قال للنابغه . إن الملك موقع بك فانطلق .

قالوا : إن حساناً أنشده يوماً :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق ... فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له : أقللت جفانك ، ولو قلت الجفان لكان أحسن ، وكذلك الأسياف ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلت يلمعن بالضحى ، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أحسن ، لأن الضيف أكثر طروقا بالليل ، وقلت الغر ، وكان الأجمل : البيض ، وقلت يقطرن ، وكان الأحسن يسلن أو يفضن .

ومهما يبدو في النقد من التزيد والانتحال ، ومهما آمن به كبير من القدماء كالمرزباني(١) . فانه يدلنا على شخصيته ، وما كان يتمتع به من مكانة مرموقة وما كان يمتاز به من قوة ملاحظة ، وبصر بالشعر ، وفقه بالنقد .

ولقد أثر عنه قوله : إن أشعر الناس من استجيد كذبه وأضحك رديئه(٢)

أما دينه فالنصرانية عند بعضهم ، وفي تاج العروس : « . . . وقيل سمى النابغة العلم صليباً لأنه كان نصرانياً ، وذلك في قوله : لدى صليب على الزوراء منصوب(٣) .

ولكن يبدو أنه كان على دين المتحنفين المؤمنين بوجود الله ، وأنه كان يعظم مظاهر العبادة المختلفة من وثنية وغيرها . يقول في مدح الغساسنة :

مجلتهم ذات الإله ودينهم ... قويم فما يرجون غير العواقب

ويبدو في شعره التدين والتزام مكارم الأخلاق ، كما يقول :

قالت أراك أخا رحل وراحلة ... تغشى متالف ان ينظرنك الهرما
حياك ربي فإنا لا يحل لنا ... لهو النساء وإن الدين قد عزما
مشمرين على خوص مزممة ... نرجو الإله ونرجو البر والطعما

---

(١) الموشح ٦٠ ، ٦١ .
(٢) سر الفصاحة ص ٥٠٢ والعمدة ٢ جـ ٥٨ .
(٣) ١ : ٣٢٧ تاج العروس .

نهجه الفنى فى الشعر :

تهيأت للنابغة أسباب الشاعرية ، من نشأة بدوية فى الصحراء التى تفسح الخيال ، وتلهب العاطفة ، وتذكى الشعور ، بين قوم مفطورين على البلاغة ، مفتونين بالفصاحة واللسن : ومن خوضه معارك الحروب والخصومات ، وتصدره فى ميدان النقد والشعر ؛ ومن رحلاته الكثيرة ، ومعيشته فى بلاط الملوك . كل ذلك غذى ملكته الفطرية ، وفتق أكمام الشاعرية ، وجعله من أئمة الشعر وشيوخ البيان .

ولكنه كان من أولئك الشعراء المعدودين الذين كانوا يهذبون أشعارهم ، ويشذبون قصائدهم ، وينقحون ألفاظهم ، ويجودون قوافيهم ، طمعا فى عصافير الممدوحين ، ورغبة فى حباتهم ، ومن ثم كان هو وزهير والأعشى والحطيئة من « عبيد الشعر » .

شعره :

هاجت ذكرى حياة النابغة فى قصور النعمان ومناظر الحيرة ، فى نفسه الشغف والحنين ، ينسابان على لسانه تلطفاً فى التنصل ، واحتيالا على جميل العذر ، حتى بلغ الغاية فى هذا بين شعراء الجاهلية ، وفتح فتحاً جديداً ، وأضاف إلى أبواب الشعر فنا آخر كان هو صاحبه وفارس حلبته ، ذلك هو التنصل والاعتذار . هذا إلى ما كان يردد فيه شعره من مدح ووصف وحكمة ورثاء وغير ذلك من الأغراض البدوية التى كانت تدعو إليها حياة قومه ، ولكنه أجاد أيما إجادة فى وصف ليل الخائف ، واعتذار الجانى ، ومدح المنعم .

ويمتاز شعره بصفاء الديباجة ، وإشراق الأسلوب ، وجزالة الألفاظ ، وقلة السقط والتكلف ، وموافقته لهوى النفوس ، ولهذا لم يعن الناس بشعر أحد فى الجاهلية وصدر الإسلام بمثل ما عنوا به من شعره . ولعل من أسباب قوة شعره وجزالته ووضوح أسلوبه « أنه قال الشعر وهو كبير » ، ويمتاز تنصله واعتذاره ومدحه بالسهولة والعذوبة والرقة دون شعره فى الأغراض الأخرى .

وتظهر روعة شعر النابغة وتتجلى قوته، حين تتملكه عاطفة قوية من حماسة أو إشفاق أو رهبة، كما نرى فى اعتذارياته على الخصوص، مما دفع الأدباء إلى القول بأنه أشعر الناس إذا رهب. فى اعتذارياته حزن عميق مقرون بقلق مضطرب وإخلاص شديد، يحمل الشاعر على استعمال جميع الوسائط العقلية والعاطفية فى تبرىء ساحته، حتى إذا خشى ألا يفيده ذلك شيئاً داخله تشاؤم مؤلم ويأس عظيم هما أيضاً من نتائج ذلك الشعور الحساس.

وتمتاز معانيه ببديع الكناية، وجميل التشبيه، وروعة الاستعارة؛ وخياله دقيق فسيح؛ يحلق فى آفاق واسعة بعيدة، ويستوعب جميع الصور والتشبيهات؛ ولكنه مع ذلك يبعد بمعانيه عن الغموض والتعقيد، ويؤديها فى تؤدة ولطف، مراعياً جانب المخاطبين على اختلاف طبقاتهم.

غير أنه كان يقوى فى شعره، كما فى قوله:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه　　فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأنه بنانه　　عنم يكاد من اللطافة يعقد

وقد دسوا عليه جارية تغنيه بهذا الشعر فى المدينة، ففطن إلى عيبه ولم يعد إليه وكان يقول: «دخلت يثرب وفى شعرى عاهة وخرجت وأنا أشعر الناس»[1].

كما كان يضمن فى شعره، والتضمين عيب من عيوب القافية، وهو تعليق قافية البيت بما بعده، كما فى قوله:

وهم وردوا الجفار على تميم　　وهم أصحاب يوم عكاظ إنى
شهدت لهم مواقع صادقات　　شهدن لهم بحسن الظن منى

وكان اتزان النابغة المأثور يتخلف عنه فى بعض الأوقات، فقد أخذ عليه الإفراط والمبالغة فى بعض معانيه كقوله:

---

(١) ٣٩ الموشح للمرزبانى.

تقد السلوقى المضاعف نسجه   وتوقد بالصفاح نار الحباحب[1]

فقد ذهب إلى أن سيوفه تقطع الدرع المضاعف والفارس والفرس ثم تذهب فى الحجارة فتقدح فيها الشرر .. وقوله :

إذا ارتعشت خاف الجبان رعاثها   ومن يتعلق حيث علق يفرق[2]

ويؤخذ عليه كذلك قوله فى المدح :

وكنت أمرأ لا أمدح الدهر سوقة   فلست على خير أتاك بحاسد

فإنه يمن على ممدوحه بمدحه إياه ، ويجعل ذلك خيراً ناله الممدوح ، وهو لا يحسده عليه . وهذا انحراف فى أداء المعنى اللائق بمدح الملوك ، على أن الثناء لا يحسن إلا إذا كان خالصاً من كدر المن .

وعاب عليه الأصمعى وأبو عمرو بن العلاء قوله يصف الناقة :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها   له صريف صريف القعو بالمسد[3]

لأن صريف الفحول من النشاط ، وأما صريف الإناث فمن الضجر والإعياء .

وعاب عليه الأصمعى قوله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

لأن الليل والنهار قد تساويا فيما يدركان ، وإنما كان سبيله أن يأتى بما لا قسيم له ، كقول الهيثم بن الربيع :

فلو كنت كالعنقاء أو كسموها   لخلتك إلا أن تصد ترانى

(١) السلوقى : أى الدرع السلوقى والدرع مؤنثة وقد تذكر كما هنا وهو منسوب إلى بلد سلوقية من ساحل أنطاكية الشام . والصفاح الحجارة العراض ، ونار الحباحب : شعاع يضىء بالليل من ذباب يسمى الحباحب .

(٢) ارتعشت : تقرطت ، والرعث القرط . والمراد أن الجبان ينظر إلى قرطها المعلق فى أذنها فيفرق ويخاف من بعد الموضع الذى علق فيه وكل هذا كناية عن طول عنقها .

(٣) مقذوفة : مرمية . النحض : اللحم . الدخيس : المكتنز . بازلها : نابها . الصريف : الصوت . القعو : خطاف البكرة . المسد : الحبل .

وقول على بن جبلة الشاعر العباسى :

وما لامرىء حاولته منك مهرب ... ولو رفعته فى السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدى لمكانه ... ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

خصائص شعر النابغة :

١ — فى الأغانى ترجمة طويلة له (١) . وكذلك فى الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢) ، كما عرض له ابن سلام فى طبقات الشعراء (٣) ، وكذلك شعراء النصرانية (٤) ، وكذلك صاحب كتاب تاريخ الأدب فى العصر الجاهلى (٥) ، وأخرج الأستاذ عمر الدسوقى كتاباً عنه ، كما نشر عدد عنه فى سلسلة « الروائع » . . وعرض له صاحب الجمهرة (٦) ، والمرزبانى فى الموشح (٧) ، وكثير من العلماء . كما كتب عنه الزيات وجورجى زيدان وأصحاب الوسيط والمفصل ، وسواهم .

٢ — وقد أجاد النابغة فى المدح والاعتذار والغزل والفخر إجادة بالغة ، كما أجاد فى الوصف والرثاء والحكمة إجادة دون ذلك .

وأسباب إجادته فى المدح معروفة ، منها حب المال ، وخصب الخيال ؛ وقوة الذكاء ، وميله إلى التجويد والتنقيح ، والتهذيب إلى غير ذلك من الأسباب .

وإجادته فى الاعتذار كذلك كان الباعث عليها الرهبة والخوف مع الرغبة والأمل ، أما الوصف فقد أجاد فى بعضه دون البعض الآخر ؛ فأجاد فى وصف الثور والوحش والفرات وما إلى ذلك .

وقال الأصمعى : لم يكن النابغة وزهير وأوس يحسنون صفة الخيل ، ولكن طفيل الغنوى أحسن فى صفة الخيل غاية الإحسان .

---

(١) ٣ — ٤١ ج ١١ الأغانى طبع دار الكتب .

(٢) ٣٨ المرجع .　　(٣) ٢٤ وما بعدها المرجع .

(٤) ٦٤٠ — ٧٣٢ القسم الرابع من شعراء النصرانية .

(٥) ص ١٨٧ وما بعدها .

(٦) ٢٦ وما بعدها .　　(٧) ٣٨ — ٤٤ المرجع .

٣ — ويمتاز شعر النابغة ببلوغه غاية الحسن والجودة ونقاوته من العيوب وجودة مطالع قصائده وأواخرها . وكان البدو من أهل الحجاز يحفظون شعره ويفاخرون به ، لحسن ديباجته وجمال رونقه وجزالة لفظه وقلة تكلفه ، وليس له نظير في وصف الإحساسات النفسية كالخوف وما شابه ذلك .

أجاد فى المدح ، كما بلغ الغاية فى الاعتذار . واعتذارياته إلى النعمان من عيون الشعر العربى ، وهى فن جديد من فنون الشعر الجاهلى ، وتبلغ غاية الجودة والإحسان .
وقد عده بعض العلماء من شعراء المعلقات ومطلع معلقته :

يا دار ميـة بالعليـاء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأمد

وتقع فى واحد وخمسين بيتاً ، وهى من قصائده الاعتـذاريات ، بدأها ببـكاء الأطلال كالمألوف من أشعار الجاهلية ، ثم انتقل من ذلك إلى وصف ناقته :

فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له   وانم القتود على عيرانة أجد(١)

وشبهها بوحش وجرة ، ثم أفاض كعادته فى وصف وحش وجرة ، والـكلاب الصائدة ، ودخل من ذلك إلى النعمان :

فتلك تبلغنى النعمان إن له   فضلا على الناس فى الأدنى وفى البعد
ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه   وما أحاشى من الأقوام من أحد

ثم طلب إليه أن يكون حكيما فى أمره ، لا يقبل سعاية الساعين ، ونفى عن نفسه ما اتهم به :

ما إن أتيت بشىء أنت تـكرهه   إذا فلا رفعت سوطى إلى يدى
هـذا لأبرأ من قول قذفت به   كانت نوافذه حرا على الكبد

ثم مدحه بالـكرم ، وأنه يشبه نهر الفرات ، واسترسل فى وصف الفرات كعادته يضاً . وختمها بقوله :

ها إن تاعذرة إلا تـكن نفعت   فإن صاحبها قد تاه فى البلد(٢)

(١) القتود . خشب الرحل ، والعيرانة المشبهة بالعير فى السرعة والنشاط . والأجد : الموثقة .
(٢) المعذرة . الاعتذار .

٤ – وقدم عمر بن الخطاب النابغة على جميع الشعراء فى غير موضع وفضله على جميع شعراء غطفان فى موضع آخر[١]، ويروى عن حسان قصة تدل على مكان النابغة عند النعمان، وفضله لديه على جميع الشعراء، وحسان منهم[٢]. وحضر النابغة سوق عكاظ مرة فأنشده الأعشى ثم حسان ثم شعراء آخرون ثم الخنساء، فقال لها: لولا أن أبا بصير أنشدنى لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقال له حسان: أنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة. يابن أخى إنك لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن روائع شعره قصيدته:

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب

ومن معانيه المبتدعة قوله:

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ... ولا قرار على زأر من الأسد

وقوله:

فلو كفى اليمين بغتك خونا ... لأفردت اليمين عن الشمال

وأخذه عنه المثقب العبدى فقال:

ولو أنى تخالفنى شمالى ... بنصر لم تصاحبها يمينى

وقوله:

لحملتنى ذنب امرىء وتركته ... كذى العر يكوى غيره وهو راتع

وقد أخذه الكميت فقال:

ولا أكوى الصحاح براتعات ... بهن العر قبلى ما كوينا

ومما يتمثل به من شعره:

ومن عصاك فعاقبه معاقبة ... تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد[٣]

وقوله:

واستبق ودك للصديق ولا تكن ... قتبا يعض بغارب ملحاحا

---

(١) ٣٤ الجمهرة. (٢) ٣٥، ٣٦ المرجع نفسه.

(٣) هو الذل والهوان.

وقد أخذه ابن ميادة فقال :

ما إن ألح على الأخوان أسألهم ... كما يلح بعض الغارب القتب

ومما يتمثل به من شعره قوله :

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... عبد الإله صرورة متعبد

لرنا لهجتها وحسن حديثها ... ولخاله رشدا وإن لم يرشد

أخذه ربيعة بن مقروم فقال :

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... فى رأس مشرفة الذرى يتبتل

لرنا لبهجتها وحسن حديثها ... ولهم من ناموسه يتنزل

ومن أمثالهم : أصدق من قطاة — قال النابغة :

تدعو القطا وبها تدعى إذا نسبت ... يا حسنها حين تدعوها فتنتسب

أخذه أبو نواس فقال : أصدق من قول قطاة قطا .

ومن حكمه :

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث ، أى الرجال المهذب

ومما سبق إليه قوله :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها ... نظر السقيم إلى وجوه العود

وقد أخذه أبو نواس فقال :

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها ... قريبة عهد بالاضافة من سقم

ومما يستحسن من قوله :

حسب الخليلين نأى الأرض بينهما ... هذا عليها وهذا تحتها بالى

وقوله :

المرء يأمل أن يعيـ ... ـش وطول عيش قد يضره

تفنى بشاشته ويبـ ... ـقى بعد حلو العيش مره

وتخـونه الأيام حـ ... ـتى لا يرى شيئاً يسره

كم شامت بى إن هلكـ ت وقائل : لله دره

(١) كتب الأستاذ عبد القادر رشيد الناصرى فى مجلة الرسالة المصرية ـ عـدد ٦ —٨— ١٩٥١ يقول حول هذه الأبيات :

جاء فى الصفحة (٤٢) من كتاب «الشعر العربى فى بلاطات الملوك» فى صدد البحث عن شعر النابغة : أن الأستاذ نسيم نصر مؤلف الكتاب نسب هذه الابيات إلى النابغة .

وكذلك نسبها للذبيانى صاحب كتاب (الشعراء الجاهليون) د . محمد عبد المنعم خفاجى اعتماداً على بعض كتب الادب ، والأصوب نسبتها إلى لبيد بن ربيعة العامرى حيث نشرها جامع ديوانه مع شعره ، وقد طبع هذا الديوان سنه ١٩٠٥ فى أوربا .

وهى بشعر لبيد أنسب من شعر النابغة . لان لبيداً من المعمرين الذين سئموا طول الحياة ، كما يقول :

ولقد سئمت من الحيـاة وطولها وسؤال هذا الناس : كيف لبيد؟

وقد رد عليه كاتب فى الرسالة عدد ٢٧ —٨ — ١٩٥١ فقال : اطلعت مؤخراً على العدد (٩٤٤) من الرسالة فإذا الاستاذ الشاعر عبد القادر رشيد الناصرى يستنكر فى صفحة البريد الادبى على الاستاذ صاحب كتاب (الشعر العربى فى بلاطات الملوك) نسبة الابيات إلى النابغة الذبيانى .

ويقول : إن د/ محمد عبد المنعم خفاجى نسبها هو الآخر كذلك إلى النابغة الذبيانى فى مؤلفه (الشعراء الجاهليون) اعتماداً على بعض كتب الادب (.. والاصوب نسبتها إلى لبيد بن ربيعة العامرى حيث نشرها جامع ديوانه مع شعره) ... !! وهذا غريب ! أليس من المحتمل أن يكون هذا الذى جمع ديوان لبيد وطبعه فى مطابع أوربا قد دس فى تضاعيفه هذه الابيات دساً دون تحقيق أو تمحيص وأخطأه فى نسبتها !! وهل يصح عقلا أن تخطىء النصوص والمراجع الادبية قديمها وحديثها ونضرب بها عرض الحائط ، لنصدق زعم زاعم من المحدثين مهما كان مركزه الادبى ومهما كانت درجة ثقافته .. إنك لو رجعت إلى الجزء الاول من (الشعر والشعراء) لابن قتيبة مثلا — وهو كما نعلم مرجع من المراجع الادبية الموثوق بها — لوجدت فيه هذا النص : (.. قال أبو عبيدة عن الوليد بن روح قال : مكث النابغة زماناً لايقول الشعر ، فأمر يوماً بغسل ثيابه ، وعصب حاجبيه على عينيه ، فلما نظر إلى الناس قال :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش ما يضره

تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره — الخ

ومما سبق إليه ولم يحسن تشبيهه قوله :

من وحش وجرة موشى أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

فشبه الثور فى بياضه والتماعه بالسيف المجرد من الغمد ، ولم تسمع كلمة « الفرد » إلا فى هذا الشعر ؛ وللطرماح فى المعنى نفسه :

يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد

وهذا أكمل فى التشبيه لدلالته على الاختفاء والظهور المأخوذ من حركة هذا الثور الوحشى :

وفضل (١) ناقد أمام الأصمعى قول النابغة :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

وقوله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتاى عنك أوسع

وبقوله :

من وحش وجرة موشى أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد(٣)

فقال الأصمعى : أما تشبيه مرض الطرف فحسن ، إلا أنه هجنه بذكره العلة ، وتشبيه المرأة بالعليل ، وأحسن منه قول عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عينه سنة وليس بنائم(٤)

---

(١) ص ٥٦ فحولة الشعراء للاصمعى — طبع القاهرة ١٩٥٣ — د . محمد خفاجى

(٢) عاب الأصمعى هذا البيت لأن الليل والنهار قد تساويا فيما يدركانه ، وإنما كان سبيله أن يأتى بما لا قسيم له . المنتاى : الموضع البعيد . وقد ذكرنا ذلك هنا وفى موضع آخر

(٣) المصير جمعه مصران . وجرة : موضع . موشى أكارعه : أى بقوائمه نقط سود . الصيقل : الحداد . طاوى المصير : ضامره . الفرد : المنقطع القرين الذى لا مثيل له فى جودته

(٤) جاسم : موضع . الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد الظبى . السنة . النعاس . الحور : أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر كما يقول ، أبو عمرو ، والجمهور على أنه شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وامرأة حوراء . بينة الحور .

وأما تشبيه الإدراك بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه ، وإنما كان سبيله أن يأتي بما ليس له قسيم ، حتى يأتي بمعنى ينفرد به . ولو قال قائل : إن قول «النمرى»(١) في هذا أحسن لوجد مساغا إلى ذلك حيث يقول :

فلو كنت بالعنقاء(٢) أو بسنامها لخالتك إلا أن تصد تراني

وأما قوله : «طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد» ، فالطرماح(٣) أحق بهذا المعنى ، لأنه أخذه فجوده ، وزاد عليه ، وإن كان النابغة اخترعه ، وقول الطرماح هو :

يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد(٤)

فقد جمع في هذا البيت استعارة لطيفة بقوله «وتضمره البلاد» ، وتشبيها اثنين بقوله «يبدو وتضمره» ، ويسل ويغمد ، وجمع حسن التقسيم ، وصحة المقابلة .

وقال جعفر (٥) أمام الأصمعي في مجلس الرشيد : لست أنص على شاعر واحد أنه أحسن الناس في بيت تشبيها ، ولكن قول امرىء القيس :

كأن غلامي إذ علا حال متنه على ظهر باز في السماء محلق (٦)

وقول عدي بن الرقاع :

يتعاوران من الغبار ملاءة غبراء محكمة هما نسجاها
تطوى إذا وردا مكانا خاشنا وإذا السنابك أسهلت نشراها (٧)

(١) شاعر عباسي مجيد كان منقطعا إلى البرامكة ، واسمه منصور .
(٢) العنقاء طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم ، وتطلق العنقاء على الداهية .
(٣) شاعر مشهور من شعراء الخوارج في عصر بني أمية .
(٤) تضمره . تغيبه . الشرف : المكان المرتفع . يسل . يخرج من الغمد . يغمد يوضع فيه .
(٥) ص ٦١ وما بعدها — فحولة الشعراء للأصمعي . وهو جعفر البرمكي الوزير .
(٦) الغلام : الخادم علا : ارتفع . المتن : الظهر ، وحال متنه : وسط ظهره . البازي : طائر معروف من طيور الصيد . حلق الطائر : ارتفع في طيرانه — المعنى : كأن غلامي إذا ركب هذا الفرس للصيد فانطلق يعدو به راكب على ظهر باز محلق في وسط السماء .
(٧) يتعاوران : يتبادلان الشيء فيما بينهما . خاشنا : صلبا . السنابك : أطراف مقدم الحوافر . أسهلت : سارت في السهل .

وقول النابغة:

بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

قال الأصمعي : قلت هذا حسن كله بارع . وغيره أحسن منه ، وإنما يجب أن يقع التعيين على مااخترعه قائله ، ولم يتعرض له أحد ، أو تعرض له شاعر فوقع دونه ، فأما قول امرىء القيس :

على ظهر باز في السماء محلق

فمن قول أبي دواد (١) :

إذا شاء راكبه ضمه كما ضم بازى السماء الجناحا

وأما قول عدى : « يتعاوران من الغبار ملاءة » فمن قول الخنساء (٢) :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة الحضر

وأول من نطق به جاهلى من بنى عقيل ، قال (٣) :

ألا يا ديار الحى بالبردان عفت حجج بعدى لهن ثمانى

فلم يبق منها غير نؤدى مهدم وغير أثاف كالركى دفان

وآثار هاب أورق اللون سافرت به الريح والأمطار كل مكان

قفار مربرات يحار بها القطا ويضحى بها الجنان يمتركان

يثيران من نسج الغبار عليهما قميصين أسمالا ويرتديان

وشارك عديا أبو النجم (٤) ، وأورده في أحسن لفظ : قال يصف عيرا وأتانا ، وما أثاراه من الغبار بعدوهما :

ألقى بجنب القاع من خيالها سرباله وانشام في سربالها

---

(١) شاعر جاهلى قديم حكيم فى شعره .

(٢) من أشعر النساء وأرثاهن ـ وهى شاعرة مخضرمة مجيدة ـ توفيت عام ٢٤هـ

(٣) البردان . اسم موضع . عفت . درست . : حجج . أعوام . النؤى : ماعفر حول الخيمة . الأثافى مايوضع عليه القدر . الجنان : مثنى جن . القطا : طائر معروف أسمالا : باليات .

(٤) راجز أموى مشهور .

وأما قول النابغة : « بأنك شمس والملوك كواكب » ، فقد تقدمه فيه شاعر قديم من شعراء كندة يمدح عمرو بن هند ، وهو أحق به من النابغة ، إذا كان أبا عذرته ، فقال:

وكادت تميد الأرض بالناس إذا رأوا · لعمرو بن هند غضبة وهو عاتب
هو الشمس وافت يوم سعد فأفضلت · على كل ضوء والملوك كواكب

قال الأصمعي : فكأني والله ألقمت جعفرا حجرا ، فاهتز الرشيد فوق سريره . وكاد يطير عجبا وطربا ، وقال : والله لله درك ، ياأصمعي اسمع الآن ما كان عليه اختياري ، فقال : ليقل أمير المؤمنين ، فقال : عبدت على ثلاثة أشعار أقسم بالله أنى أملك السبق بأحدها ، ثم قال الرشيد أتعرف ياأصمعي تشبيها أنجز أو أعظم ، فى أحقر مشبه وأصغره ، فى أحسن معرض ، من قول عنترة الذى لم يسبقه إليه سابق ولا نازعة منازع . ولا طمع فى مجاراته طامع ، حين شبه ذباب الروض العازب فى قوله :

وخلا الذباب بها فليس ببارح · غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه · فعل المكب على الزناد الأجذم

ثم قال : ياأصمعي ، هذا من التشبيهات العقم (١) التى لا تنتج ، فقلت : كذلك هو ياأمير المؤمنين ، وبمجدك آليت ماسمعت قط أحدا يصف شعره بأحسن من هذه الصفة ، ولا استطاع بلوغ هذه الغاية ، فقال مهلا لا تعجل . . أتعرف أحسن من قول الحطيئة يصف لغام ناقته ، أو تعلم أحدا قبله أو بعده شبه تشبيهه ، حيث يقول :

ترى بين لحييها (٢) إذا ماترغمت · لغاما كنسج العنكبوت الممدد

فقلت : والله ماعلمت أحد تقدمه إلى هذا التشبيه ، أو أشار إليه بعده ولا قبله .

---

(١) شبهت بالريح العقيم التى لا تنتج ثمرة ولا تلقح شجرة — والذباب : النحل الغرد : الطرب . المترنم : الذى يرجع صوته بينه وبين نفسه . الهزج : المتغنى : والأجذم: مقطوع اليد أو الأنامل .

(٢) الضمير فى لحييه للناقة . ترغمت : سارت فى الرغام . اللغام : مايخرج من فم الناقة .

نماذج من نثر النابغة :

قال يمدح عمرو بن الحرث بالنثر المسجع : الا أنعم صباحا أيها الملك المبارك ، السماء غطاؤك ، والأرض وطاؤك ، ووالدى فداؤك ، والعرب وقاؤك ، والعجم حماؤك ، والحكماء جلساؤك ، والمداراة سماؤك ، والعقل شعارك ، والسلم منارك ، والحلم دثارك ، والسكينة مهادك ، والبر وسادك ، والوقار غشاؤك ، والصدق رداؤك ، وأكرم الأحياء أحياؤك ، وأشرف الأجداد أجدادك ، وخير الآباء آباؤك ، وأفضل الأعمام أعمامك ، وأسرى الأخوال أخوالك ، وأعف النساء حلائلك ، وأفخر الفتيان أبناؤك ; وأطهر الأمهات أمهاتك .

أيفاخرك المنذر اللخمى ؟ فوالله لقفاك خير من وجهه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولأخمصك خير من رأسه ، ولخطؤك خير من صوابه ، ولصمتك خير من كلامه .

فهب لى أسارى قومى ، واستبقين بذلك شكرى ، فإنك من أشراف قحطان ، وأنا من سروات عدنان[1] .

منزلته الشعرية عند النقاد :

١ - سأل عمر بن الخطاب ﷺ وفدا من غطفان ، فقال : أى شعرائكم الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مطلب

قالوا : النابغة . قال فأى شعرائكم الذى يقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا : النابغة . قال : هذا أشعر شعرائكم[2] .

٢ — وسئل حسان : من أشعر الناس ، قال أبو أمامة يعنى النابغة ، وقد سبق اعترافه له فى مجلس النعمان .

(١) راجع ٧٣١ و٧٣٢ القسم الرابع شعراء النصرانية .
(٢) الأغانى ٣ ؛ ٤ ج ١١ .

٣ — وسئل ابن عباس عن أشعر الناس ؟ فقال : أجب يا أبا الأسود الدؤلى . فقال : الذى يقول : « فإنك كالليل الذى هو مدركى . . . . »

٤ — وعن أبى عمرو بن العلاء ، قال : كان أوس بن حجر فحل العرب ، فلما نشأ النابغة طأطأ منه ، وذكر عنده النابغة ، فقال ، ما كان زهير يصلح أن يكون أجيراً (راوية) للنابغة[١] .

٥ — وأنشد عبد الملك شعراً له ؛ فقال : هذا أشعر العرب[٢] .

٦ — وقال الأصمعى : سمعت أبا العلاء يقول : كان زهير يمدح السوقة ، ولو ضرب أسفل قدميه مائة على أن يقول .

« فإنك كالليل . . . . » ما قاله ، فكيف بغير زهير ؟

٧ — وذكر الخليل النابغة ، فقال : كان أعذب على أفواه الملوك ، وأبسط قوافى شعر ، كأن الشعر ثمرات تدانين من خلده ، فهو يجتنيهن اختيارا ، له سهولة السبق ، وبراعة اللسان ، ونقاية الفطن ، لا يتوعر عليه الكلام ، لعذوبة مخرجه ، وسهولة مطلبه .

٨ — وكان حماد يقدم النابغة ، ويقول : لا كتفائك بالبيت الواحد من شعره ، لا بل بنصف بيت ، لا بل بربع بيت ، كقوله « أى الرجال المهذب[٣] » .

٩ — وحكى الأصمعى عن ابن أبى طرفة : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب ، وعنترة إذا ركب : وقريب من هذا ما نسب لكثير أو نصيب[٤] .

١٠ — وإن فيما سبق من احتكام الفحول إليه فى أشعارهم بعكاظ ما يدل على مكانته الأدبية ، ومنزلته الشعرية .

---

(١) ٤ ج ١١ المرجع .
(٢) ٧ ج ١١ المرجع .
(٣) طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٢٥ .
(٤) المزهر للسيوطى ٢ ص ٢٩٧ .

وإن كانت صلته بالنعمان ربما كانت هى السبب فى اعتلائه عرش هذه الحكومة الأدبية .

١١ — وقد وضعه ابن سلام فى الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية وهم : امرؤ القيس ، والنابغة ، وزهير ، والأعشى .

وجعله أبو عبيدة فى الطبقة الأولى مع امرىء القيس وزهير ، وجعل الأعشى فى الطبقة الثانية مع لبيد وطرفة — وأيد أبو زيد صاحب الجمهرة رأيه .

ويقول الذين يقدمون النابغة : إنه أوضحهم معنى وأبعدهم غاية وأكثر فائدة .

أما الذين يقدمون الأعشى فيقولون إنه أمدحهم للملوك وأوصفهم للخمر وأغزرهم شعراً وأحسنهم قريضاً .

والذين يقدمون زهيراً يقولون : هو أكثرهم تهذيباً للشعر ، وأكثرهم طرحاً لفضول الكلام وأجمعهم للكثير من المعنى فى القليل من اللفظ .

والذين يقدمون امرأ القيس يقولون : هو كثير الابتكار فى المعانى والتجديد فى أساليب الغزل وغيره .

ديوان النابغة :

والأصمعى أول من جمع شعر النابغة ، فاختار له أربعاً وعشرين قصيدة ، ثم زاد عليها الطوسى بضع قصائد ، وهى كلها موجودة فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين التى نشرها المستشرق وليم بن الورد سنة ١٨٧٠ ، وألحق بشعر النابغة فيها كل ما وقف عليه من مقطوعاته التى وردت فى كتب الأدب وهى نحو ستين قطعة .

وفى سنة ١٨٦٨ أخذ المستشرق ديرنبورغ يهتم بالنابغة فنشر ديوانه فى المجلة الآسيوية الفرنسية وقدم له بمقدمة عن النابغة ، وألحق به قصيدة النابغة :

عوجوا لحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار؟

التى عدها صاحب الجمهرة من المعلقات .

ولكن التبريزى عده من المعلقات دالية النابغة فى الاعتذار .

وقد شرح ديوان النابغة البطليوسى ، ونشر الأب شيخو فى شعراء النصرانية الكثير من شعر النابغة مشروحاً .

ونشر أمين عمر زيتون بالقاهرة سنة ١٢٩٣ هـ الديوان بشروح مختصرة من البطليوسى مع أربعة دواوين لعروة والفرزدق وحاتم وعلقمة الفحل بعنوان خمسة دواوين العرب .

وطبع الديوان فى بيروت سنة ١٩٢٩ بعد أن وقف عليه الشيخ عبد الرحمن سلام .

الشعر السياسي

عند النابغة الذبياني

كان النابغة الذبياني ، قبل أن تسوء العلاقة بين بني عامر وبني غطفان (عبس وذبيان) ، يحاول أن يتلافى أسباب الخلف بين هذين الحيين العظيمين . وكانت غطفان قد اصطلحت مع هوازن على اقتسام الأرزاق على إثر غيث أصاب بعض بلادهما ، فلما حان فناؤه أغارت خيل من هوازن على غطفان ، فأصابوا طائفة من أموالهم . وكان الكفيل على غطفان عامر بن مالك ، وزرعة بن عمر ، فما كان من النابغة إلا أن وجه إليهما هذا العتاب الرقيق ، وفيه تتجلى شخصيته ورسالته القبلية :

فأبلغ عامراً عني رسولا ... وزرعة إن نأيت وإن دنوت
أعاتب سيدي قيس جميعا ... وأخبر صاحبي بما اشتكيت
فما حاولتما بقيا دخيل ... يصان الورد فيها والكميت
إلى ذبيان حتى صبحتهم ... ودونهم الربائع والخبيت(١)
أئمة تعذران إلى منها ... فإني قد سمعت وقد رأيت
أحار بن المغيرة إن قيسا ... أحلوا بالمحارم فادعيت
فإن غلبت شقاوتهم عليهم ... فإني في صلاحهم سعيت
ألا ياليتني والمرء ميت ... وما يغني من الحدثان ليت
غرمت غرامة في صلح قيس ... ولم يتفاسدوا فيها بنيت

فهو يحاول أن يصلح بين القبيلتين ، وتتجلى روحه المحبة للسلام والوئام ، ولكنه سرعان ما يكون صارماً قاسياً أشد ما تكون الصرامة والقسوة حين تدعو الحاجة

---

(١) الربائع : أرض . والخبيت : كذلك أرض وفيها مات ضابىء بن الحارث البرجمي وكان حبسه فيها عثمان بن عفان .

إلى ذلك . فحين قتلت بنو عامر زهير بن جذيمة سيد بنى عبس ، بل سيد بنى غطفان وهوازن ، وأمعن خالد بن جعفر الكلابى العامرى فى طغيانه ، كان النابغة من أشد ما يكون صرامة على زرعة بن عمرو هذا الذى سبق للنابغة أن خاطبه ذلك الخطاب الرقيق . ذلك لأن النابغة كان حريصاً على محالفة بنى أسد لقومه ، وقد قدم لهم يداً بيضاء حين اشتركوا مع المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فى حرب الغساسنة . فلما هزم المنذر يوم حليمة (٥٥٤ م) . وقتل ، وأسر عدد كبير من جيشه منهم رجال من بنى أسد فأجاب شفاعته . وهذا يدلنا على مكانة النابغة لدى الغساسنة ، وبعد نظره فى اصطناع المعروف لبنى أسد ، فقد كان يعلم أنهم أقوياء يعتمد عليهم فى الشدائد .

وقابلة زرعة بن خويلد بسوق عكاظ ، وأشار على النابغة بأن يترك قومه حلف بنى أسد ، فأبى النابغة الغدر . وبلغه بعد ذلك أن زرعة يتوعده ، فقال النابغة يهجوه ويخوفه بجموع كثيرة من بنى ذبيان ، وبنى عبس ، وبنى أسد ، وبنى كلب ، جموع لها دراية بفنون المعارك ولن تكون لزرعة وقومه طاقة بها . وفى هذه الأبيات نرى النابغة الداعية إلى السلم ، يعلن أنه لا بد من القوة لإقرار السلام ، ولعل تلويحه باستخدام القوة قد يثنى بنى عامر عن العدوان :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها ... يهدى إلى غرائب الأشعار
فحلفت يازرع بن عمرو إننى ... مما يشق على العدو ضرارى
أرأيت يوم عكاظ حين لقيتنى ... تحت العجاج فما شققت غبارى
إنا اقتسمنا خطتينا بيننا ... فحملت برة واحتملت فجار
فلتأتينك قصائد وليدفعن ... جيش إليك قوادم الأكوار

فهذا الشعر قبل أن يكون هجاء شخصياً إنما يمثل وجهة النظر السياسية التى يعتنقها الشاعر ، وهذه الأبيات إذن ألصق بباب الشعر السياسى منها بباب الهجاء .

ويقول :

رهط بن كوز محقبى أدراعهم ... فيهم ، ورهط ربيعة بن حذار

وارهط حراب وقد سورة ... في المجد ليس غرابها بمطار
وبنو قعين لا محالة أنهم ... آتوك غير مقلمى الأظفار
حولى بنى دودان لا يعصوننى ... وبنو بغيض كلهم أنصارى

ولما استمر الحلف بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء ، اشتد حرص النابغة على حلف بنى أسد لقومه ، وقد كثر أعداؤهم فلم يعد بنو عامر وحدهم ، بل صار بنو عبس حرباً عليهم ، وطالما تمنى العامريون أن يفرقوا بين ذبيان وحلفائها حتى يستطيعوا غزوهم .

وكان النابغة في حرصه على بنى أسد سياسيا ماهراً ، فهو لا يفتأ يشيد بأعمالهم المجيدة ويهنىء قومه بأن ديارهم خلت لهم بعد جلاء بن عبس عنها ، ولم يبق بها إلا حماتها وهم بنو أسد . وهذا الاعتراف مما شجع بنى أسد على نصرته :

ليهناً بنى ذبيان أن بلادهم ... خلت لهم من كل مولى وتابع
سوى أسد يحمونها كل شارق ... بألفى كمين ذى سلاح ودارع

ويعزو لبنى أسد إجلاء بنى عبس إلى بلاد باهلة :

فدع عنك قوماً لا عتاب عليهم ... هم ألحقوا عبساً بارض القعاقع

وكيف يترك حلف بنى أسد ، وبعض بنى ذبيان يتقاعسون عن نصرة قومهم في حربهم الشعواء :

فما أنا في سهم ولا نصر مالك ... ومولاهم عبد بن سعد بطامع

وقد استطاع بنو ذبيان بفضل هذا الحلف أن يصمدوا في هذه الحروب الطويلة وأن يظلوا في ديارهم ، في حين أن بنى عبس أخذت تطوف الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها ، تجاور هذه القبيلة حيناً لتتركها إلى أخرى .

ورغم العداء المستحكم بين عبس وذبيان وطول مدته ، ورغم أن النابغة قد شهد الحرب من أولها ، فإنه لم يتعرض لهجاء عبس أبداً ، ذلك لأنهم قومه ، وطالما شاركوا بنى ذبيان ضراءها وبأساءها ، ولهم جميعا أعداء يكرهونهم سويا ! .

وهم عيينة أن ينقض حلف بن أسد لأنهم قتلوا رجلين من بنى عبس انتقاماً لمقتل نضلة الأسدى ، ولكن النابغة كان حكيما وراء عاطفة طائشة أونزوة طارئة . فهو وإن كان يحب بنى عبس ويود أنه لو يتم الصلح بينهم وبين قومه إلا أنه لا يفرط فى بنى أسد بأى ثمن كان ، ولا يستطيع أن يجحد فضلهم . ولذلك حذر عيينة بما هم به ، وأخذ يمدح بنى أسد بقصيدة تعد من روائع الشعر العربى ، وفيها يقول مخاطباً عيينة :

ألكنى يا عين إليك قولا ... سأهديه إليك : إليك عنى
قوافى كالسلام إذا استمرت ... فليس يرد مذهبها التظنى
بهن أدين من يبغى أذاتى ... ورانية المداين فليدنى
أتخذل ناصرى وتعز عبسا ... أيربوع بن غيظ المعن
كأنك من جمال بنى أقيش ... يقعقع خلف رجليه بشن
تكون نعامة طوراً وطوراً ... هوى الريح تنسج كل فن
تمن بعادهم واستبق منهم ... فإنك سوف تترك والتمنى
لدى جرعاء ليس بها أنيس ... وليس بها الدليل بمطمئن
إذا حاولت فى أسد فجورا ... فإنى لست منك واست منى
فهم درعى التى استلأمت فيها ... إلى يوم النسار وهم مجنى .
وهم وردوا الجفار على تميم ... وهم أصحاب يوم عكاظ ، إنى
شهدت لهم مواطن صادقات ... أتيتهم بود الصدر منى
وهم ساروا لحجر فى خميس ... وكانوا يوم ذاك عند ظنى
وهم زحفوا لغسان بزحف ... رحيب السرب أرعن مرجحن
بكل مجرب كالليث يسمو ... على أوصال ذيال رفن
وخمر كالقداح مسومات ... عليها معشر أشباه جن
غداة تعاورته ثم بيض ... دفعن إليه فى الرهج المكن
ولو أنى طعنتك فى أمور ... قرعت ندامة من ذاك سنى

كان النابغة يتمتع بمنزلة لاتدانى لدى بنى غسان جعلته يلهج بالثناء عليهم، وما تشفع مرة إلا وقبلت شفاعته ، وأكرم الأسرى ورجعوا إلى ديارهم مزودين بالعطايا والهبات سياسة من الغساسنة من ناحية ، وإكراماً للشاعر الفحل من ناحية أخرى ، ولا عجب بعد ذلك حين نراه يقول فيهم :

وقه عيناً من رأى أهل قبة ... أضر لمن عادوا وأكثر نافعا
وأعظم أحلاما وأكثر سيدا ... وأفضل مشفوعاً إليه وشافعاً
متى تلقهم لا تلق للبيت عورة ... ولا الضيف ممنوعاً ولا الجار ضائعاً

أو حين يقول فى بعض اعتذارياته للنعمان بن المنذر :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أحكم فى أموالهم وأقرب

ورغم هذه المكانة الممتازة التى يتمتع بها النابغة لدى الغساسنة ، فيقضى حوائج قومه ، ويفك العانى ، ويعين المحتاج ، ويحفظ لقومه أحلافهم ، فلا يتقاعسون عن نصرتهم حين يحزبهم الأمر فإن قوم النابغة لم يحفظوا له هذه الأيادى البيضاء . وقد حز ذلك فى نفسه واستعار مثلا خياليا مشهوراً لدى العرب فى عدم الوفاء وفى الغدر والخديعة ، يصور به حال قومه هؤلاء الذين تنكروا له ، وعادوه من غير جريرة اقترفها ، فقال :

ألا أبلغا ذبيان عنى رسالة ... فقد أصبحت عن منهج الحق جائره
أجدكم لن تزجروا عن ظلامة ... سفيها ولن ترعوا لذى الود آصره
وإنى لألقى من ذوى الضغن منهم ... وما أصبحت تشكو من الوجد ساهره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها ... وما انفكت الأمثال فى الناس سائره
فقالت له : أدعوك للعقل وافيا ... ولا تغشينى منك بالظلم بادره
فلما توفى العقل إلا أقله ... وجارت به نفس عن الحق جائره
تذكر أنى يجعل الله جنة ... فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما رأى أن ثمر الله ماله ... وأثل موجوداً وسد مفاقره
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرة من المعاول باتره

فقام لها من فوق جحر مشيد ليقتلها أو تخطىء الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه وللبر عين لا تغمض ناظره
فقال تعالى نجعل الله بيننا على ما لنا أو تنجزى لى آخره
فقالت : يمين الله أفعل إننى رأيتك غداراً يمينك فاجره
أبى لى قبر لا يزال مقابلى وضربة فأس فوق رأسى فاقره

وهكذا نرى شئون القبيلة العامة وحروبها وسياستها قد احتلت مكاناً خصبا من تفكير النابغة وشعره ، و، وقد أفاد النابغة من هذا الاهتمام بالسياسة القبلية مغنمين : أولهما خاص به، وهو أنه صار وجيها مسموع الكلمة مقبول الشفاعة محبوباً من الحلفاء الذين اصطنعهم وأسبغ عليهم فضله، وإن حسده بعض من أكل الضغن قلوبهم شأن كل المصلحين فى العالم لا يعدمون شانئا وحاسدا . وثانيهما عام وهو أنه حفظ لقبيلته حلفاءها وعزها فانتصرت فى حروبها ولم ترز فى أموالها فزادت قوة وغنى .

مختارات من شعره :

— ١ —

قال النابغة الذبيانى يمدح النعمان ويعتذر إليه :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد(١)
وقفت فيها أصيلاناً أسائلها عيت جواباً وما بالربع من أحد(٢)

(١) مية : اسم امرأة . والعلياء : مكان مرتفع من الأرض . والسند : ما قابلك من الوادى، وعلا من السفح. وأقوت : خلت من أهلها. والسالف : الماضى والأبد : الدهر.

(٢) الأصيل : وقت ما بعد العصر إلى المغرب ، جمعه أصلان . وأصيلان : تصغير أصلان ؛ وهو اسم صاغه على فعلان من الأصيل . وروى أصيلال باللام ، وهى بدل من النون . وعيت : عجزت . والربع : المنزل .

إلا الأوارى لأياً ما أبينها   والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد(١)
ردت عليه أقاصيه ولبده   ضرب الوليدة بالمسحاة فى الثأد(٢)
خلت سبيل أتى كان يحبسه   ورفعته إلى السجفين فالنضد(٣)
أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا   أخنى عليها الذى أخنى لبد(٤)
فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له   وانم القتود على عيرانة أجد(٥)
مقذوفة بدخيس النحض بازلها   له صريف صريف القعو بالمسد(٦)

---

(١) الأوارى : واحدها آرى ، وهو محبس الدابة ومعلفها . واللأى : البطء أو الجهد . والنؤى : حفير يعمل حول البيت أو الخيمة ، لئلا يصل إليها المطر . والمظلومة : الارض التى حفرفيها حوض ، وليست موضع تحويض . والجلد : الأرض الغليظة الصلبة . شبه داخل الحاجز بالحوض فى المظلومة . يعنى أرضا مروا بها فى البرية . فتحوضوا حوضا سقوا فيه إبلهم ، وليست بموضع تحويض . ويقال ظلمت الحوض : إذا عملته فى موضع لا تعمل فيه الحياض .

(٢) أقاصيه : جمع أقصى ، وهو ما شذ منه وبعد . ولبده : ألصق التراب بعضه ببعض . والوليدة : الخادمة الشابة . وضربها بالمسحاة : لإصلاحه . والثأد : المكان الندى.

(٣) الأتى : السيل يأتى من بلد إلى بلد ، أو يأتى من كل ناحية . والسجفان : مصراعا الستر ، يكونان فى مقدم البيت . والنضد : ما نضد ونسق من متاع البيت .

(٤) أخنى عليها : غيرها وأفسد آياتها . ولبد : زعموا أنه نسر كان للقمان بن عاد عمر طويلا .

(٥) انم : ارفع . والقتود : عيدان الرحل . والعيرانة : الناقة المشبهة بالعير : لصلابة خفها . والأجد : الموثقة الخلق . يقال : بنيان مؤجد : إذا كان مرصوصا بعضه إلى بعض .

(٦) المقذوفة : التى كأنها رميت باللحم . والدخيس : الكثير المتداخل . والنحض : اللحم . والبازل : نابها حين بزل اللحم، يقال : بزل البعير بزولا : إذا فطر نابه وانشق ، بدخوله فى السنة التاسعة ، فهو بازل ، ويستوى فيه الذكر والأنثى والصريف : الصياح من النشاط والفرح ؛ ويقال : صرف الباب صريفا : صوت عند إغلاقه أو فتحه . والقعو : البكرة من خشب أو غيره . وقيل : المحور من الحديد . والمسد : الحبل المفتول .

كأن رحلى وقد زال النهـار بنا ... يوم الجليل على مستأنس وحد(١)
من وحش وجرة موشى أكارعـه ... طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد(٢)
فظـل يعجم أعـلى الروق منقبضاً ... فى حالك اللون صدق غير ذى أود(٣)
قالت له النفس إنى لا أرى طمعاً ... وإن مولاك لم يسـلم ولم يصـد(٤)
فتلك تبلغنى النعمان إن له ... فضلا على الناس فى الأدنى وفى البعد(٥)
ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه ... ولا أحاشى من الأقوام من أحد(٦)
إلا سليمان إذ قال الإله له ... قم فى البرية فاحددها عن الفنـد(٧)
وخيس الجن إنى قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمـد(٨)

---

(١) زال النهار : انتصف . ويوم الجليل : يروى (بذى الجليل) ، وهو واد قرب مكة ينبت الثمام وهو نبت ضعيف . والمستأنس : الذى ينظر بعينه ، لأنه أحس إنسيا ، ووحد : منفرد .

(٢) وجرة مكان بين مكان بين مكة والبصرة ، فيه وحوش كثيرة . وموشى الأكارع : هو الأبيض فى قوائمه نقط سود . وطاوى المصير : ضامره . والمصير : واحد المصران ، وكنى به عن البطن . كسيف الصيقل : أى يلمع . والصيقل : جلاء السيوف . والفرد : الذى لا مثيل له فى الجودة .

(٣) يعجم : يمضغ . والروق : القرن . منقبضا : قد تقبض من شدة الوجع . والحالك : الشديد السواد . والصدق : الصلب المستوى من الرماح . والأود : الاعوجاج .

(٤) يقول : حدث الكلب نفسه أن لا طمع فى الأكل من لحم الثور ، وأن صاحبه لم يسلم إذ قتلت كلابه ، ولم يصد الثور الذى قتلها .

(٥) تلك : إشارة إلى ناقته . والبعد ، بفتح العين : جمع باعد ، وهو ضد القريب .

(٦) أى لا أرى أحدا يفعل فعلا كريما يشبهه فى فعله . وأحاشى : أستثنى .

(٧) أحددها : أمنعها . والفند : الخطأ فى القول والفعل وغيره ، مما يفند صاحبه عليه .

(٨) خيس : ذلل . وتدمر : مدينة بالشام : والصفاح : حجارة عراض ، والعمد : أساطين من الرخام .

فمن أطاعك فانفعه بطاعته ... كما أطاعك وادلله على الرشد[1]

ومن عصاك فعاقبه معاقبة ... تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد[2]

إلا لمثلك أو من أنت سابقه ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد[3]

أعطى لفارهة حلو توابعها ... من المواهب لا تعطى على نكد[4]

الواهب المئة المعكاء زينها ... سعدان توضح فى أوبارها اللبد[5]

والأدم قد خيست فتلا مرافقها ... مشدودة برحال الحيرة الجدد[6]

فلا لعمر الذى مسحت كعبته ... وما هريق على الأنصاب من جسد[7]

والمؤمن العائذات الطير تمسحها ... ركبان مكة بين الغيل والسعد[8]

---

(١) يقال : رشد ، بضم أوله وسكون ثانيه ، ورشد بفتحتين .

(٢) الظلوم : كثير الظلم . والضمد : الذل والغيظ أو شدة الغضب والحقد .

(٣) الأمد : الغاية التى تجرى إليها . قال الاعلم : وأكثر أهل اللغة لا يعرف معنى البيت .

(٤) أعطى أكثر إعطاء ، والفارهة الناقة الكريمة ، وللطية الحسنة . وتوابعها ما يتبعها من هبات . والنكد : الضيق والعسر .

(٥) المعكاء : الغلاظ الشداد . والسعدان : نبت تسمن عليه الإبل ، ويغذوها غذاء حسناً : وتوضح : اسم الموضع . واللبد ماتلبد من الوبر .

(٦) الادم : البيض من النوق . وخيست : ذللت . والفتلاء : التى بانت مرافقها من آباطها ، فلا يصيبها ضاغط ولا حاز ، وهو جرح يصيب كراكرها إذا حكتها .

(٧) هريق : صب على الانصاب ، وهى حجارة كانت فى الجاهلية يذبح عندها العتائر . والجسد والجساد . الزعفران وهو هنا الدم . أقسم بالله أولا ، ثم بالدماء التى كانت تصب على الانصاب .

(٨) المؤمن : الذى آمنها من الخوف ، وهو الله . والعائذات : اللاجئات إلى الحرم . وتمسحها : أى تمسح الركبان عليها ، ولا تهيجها بأخذ . والغيل والسعد : تقدم تفسيرهما .

ما قلت من سيء مما أتيت به … إذن فلا رفعت سوطى إلى يدى(١)
إلا مقالة أقوام شقيت بها … كانت مقالتهم قرعاً على الكبد(٢)
إذن فعاقبنى ربى معاقبة … قرت بها عين من يأتيك بالفند(٣)
أنبئت أن أبا قابوس أوعدنى … ولا قرار على زأر من الأسد(٤)
مهلا فداء لك الأقوام كلهم … وما أثمر من مال ومن ولد(٥)
لا تقذفنى بركن لا كفاء له … وإن تأثفك الأعداء بالرفد(٦)
فما الفرات إذا هب الرياح له … ترمى غواربه العبرين بالزبد(٧)
يمده كل واد مترع لجب … فيه ركام من الينبوت والخضد(٨)

---

(١) يقول : إذا كنت قلت هذا الذى بلغك ، فشلت يدى ، حتى لا أطيق رفع السوط على خفته ، وروى فى تاريخ العروس : «ما إن ندت بشىء أنت تكرهه» ، يقال : ماندينى من فلان شىء يكرهه ، أى ما بلغنى ولا أصابنى ، وما نديت له كفى بشر . وما نديت بشىء تكرهه ، وأنشد البيت .

(٢) القرع : الصد والضرب . يقول : اشتدت على مقالتهم ، وهبتك من أجلها ، فكأنها قرعت كبدى بذلك .

(٣) الفند : الكذب . يقول : إن كان الأمر على مايصف ، فعاقبنى ربى معاقبة تقر بها عين حاسدى والكاذب على .

(٤) أبو قابوس : كنية النعمان . يقول : لقد توعدنى النعمان وأهدر دمى ؛ وإذا زأر الأسد فلا قرار لأحد بجواره .

(٥) مهلا : أى تثبت فى أمرى ولا تعجل على . وأثمر : أجمع وأكثر .

(٦) الكفاء : النظير والمثل . وتأثفك الأعداء : صاروا حولك كالأثافى . والرفد : العصب من الناس .

(٧) الفرات : نهر معروف . والعبرين : الناحيتين . والغوارب : الأمواج . الزبد : ما يطرحه الوادى إذا جاش ماؤه ، واضطربت أمواجه .

(٨) مترع : مملوء . واللجب : ذو الصوت . والركام : الحطام المتكاثف والينبوت : شجر الخشخاش . والخضد : ماخضد وتكسر .

يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنجد[١]
يوماً بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد[٢]
هذا الثناء فإن تسمع به حسناً فلم أعرض أبيت اللعن بالصفد[٣]
ها إن ذى عذرة إلا تكن نفعت فإن صاحبها مشارك النكد[٤]

— ٢ —

وقال يعتذر إلى النعمان بن المنذر:

عفا ذو حساً من فرتنى فالفوارع فجنبا أريك فالتلاع الدوافع[٥]
فمجتمع الأشراج غير رسمها مصايف مرت بعدنا ومرابع[٦]
توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع[٧]

---

(١) الملاح: صاحب السفينة. والخيزرانة: السكان، وهو ذنب السفينة. والأين: الفترة والإعياء. والنجد: العرق والكرب.

(٢) السيب: العطاء. والنافلة: الزيادة. ولا يحول: أى لا يمنع — وصف النعمان في هذه الأبيات بأحسن ما يمكن من الكرم.

(٣) الصفد: العطاء.

(٤) عذرة: اعتذار. يريد: إن لم ينفع هذا الاعتذار عندك، فصاحبه حليف الهم، قليل الخير.

(٥) عفا: درس. وذوحسا: مكان فى بلاد بنى مرة؛ وفرتنى: اسم امرأة. والفوارع: أعلى الجبل، أو مكان بعينه. وأريك: موضع. التلاع: جمع تلعة وهى مجارى الماء أعلى الأدوية، أو ما انهبط من الوادى. والدوافع: التى تدفع إلى الوادى.

(٦) الأشراج: مسايل الماء من الحرة إلى السهل. والمصايف: جمع مصيف، من الصيف. والمرابع: جمع مربع، من الربيع.

(٧) أى: غبت عنها سبعة أعوام: فلما رأيتها لم أتبينها إلا بعد طول تفرس وتأمل لدروسها وتغير معالمها.

رماد ككحل العين لأيا أبينه ... ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع (١)
كأن مجر الرامسات ذيولها ... عليه حصير نمقته الصوانع (٢)
على ظهر مبناة جديد سيورها ... يطوف بها وسط اللطيمة بائع (٣)
فكفكفت منى عبرة فرددتها ... على النحر منها مستهل ودامع (٤)
على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألما أصح والشيب وازع (٥)
وقد حال هم دون ذلك شاغل ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع (٦)
وعيد أبى قابوس فى غير كنهه ... أتانى ودونى راكس فالضواجع (٧)
فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرقش فى أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها ... لحلى النساء فى يديه قعاقع (٩)

(١) لأيا : جهدا ومشقة . والنؤى : حفير حول الخيمة كالطوق يصرف عنها ماء المطر . والجذم : الأصل . وأثلم : متثلم . خاشع : لاصق بالارض .

(٢) الرامسات : الرياح الشديدات الهبوب ، التى ترمس الأثر ، أى تعفية وتدفنه وذيول الريح : أواخرها أو أوائلها . ونمقته : زينته .

(٣) المبناة : هى التى يبسط عليها التاجر ما يبيعه ، حصيرا كان أو نطعا . والسيور . الأشراك . واللطيمة : سوق العطارين ، أو عير يحمل عليها الطيب ، أو الطيب نفسه .

(٤) كفكف الدمع : مسحه . والعبرة : الدمعة . والمستهل : السائل المنصب . والدامع : الذى يترقرق فى العين قبيل أن ينصب .

(٥) صحا : أفاق . والوازع : الكاف الزاجر عن اللهو .

(٦) الشغاف : حجاب القلب .

(٧) كنهه : حقيقته ، أى على غير ذنب منى . وراكس : واد . والضواجع : منحنى الوادى .

(٨) ضئيلة : أفعى دقيقة الجسم . وساورتنى : لدغتنى . الرقش : جمع رقشاء ، وهى التى فيها نقط بيض وسود . والناقع : القاتل .

(٩) يسهد : يمنع من النوم . وليل التمام : أطول ليالى الشتاء . والسليم : الملدوغ : تفاؤلا له بالسلامة . وقعاقع : أصوات : كانوا يجعلون الحلى والخلاخل فى يدى الملدوغ : ويحركونها لئلا ينام ، فيدب السم فيه .

تناذرها الراقون من سوء سمها ... تطلقه طورا وطورا تراجع(١)
أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى ... وتلك التى تستك منها المسامع(٢)
مقالة أن قد قلت سوف أناله ... وذلك من تلقاء مثلك رائع(٣)
لعمرى وما عمرى على بهين ... لقد نطقت بطلا على الأقارع(٤)
أقارع عوف لا أحاول غيرها ... وجوه قرود تبتغى من تجادع(٥)
أتاك امرؤ مستبطن لى بغضه ... له من عدو مثل ذلك شافع(٦)
أتاك بقول هلهل النسج كاذب ... ولم يأت بالحق الذى هو ناصع(٧)
أتاك بقول لم أكن لأقوله ... ولو كبلت فى ساعدى الجوامع(٨)
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع(٩)

---

(١) يقول : من خبثها لا تجيب الراقى . فمرة تجيب ومرة لا تجيب . وتناذرها : خوف بعضهم بعضا إياها .

(٢) أبيت اللعن : كلمة يدعى بها الملوك ، أى حفظت مما تلعن به . وتستك : تضيق . (المعنى) أتانى منك ملامة يضيق عنها السمع ويأباها .

(٣) مقالة : مرفوع على أنه بدل من فاعل أتانى فى البيت السابق ، سوف أناله أى بأذى . أى ذلك خبر مفزع منك ومن مثلك من أهل القدرة والسلطان .

(٤) أراد بالأقارع بنى قريع بن عوف ، وكانوا وشوا به إلى النعمان .

(٥) تجادع تشاتم .

(٦) أى أتاك امرؤ منهم مستبطن لى بغضا له يشفعه آخر مثله من الأعداء بالوشاية .

(٧) هلهل كـ جعفر صفة لقول ، أى أتاك بقول سخيف النسج كاذب ، ولم يأتك بالحق الواضح .

(٨) الجوامع : جمع جامعة وهى : الغل والقيد فى اليد أو العنق . وكبلت أى ضيقت .

(٩) الأمة : الدين الاستقامة أى وهل آثم فى يمينى ، وأنا أدين لك وفى طاعتك .

بمصطحبات من لصاف وثبرة ... يزرن إلالا سيرهن التدافع(١)
سماما تبارى الريح خوصا عيونها ... لهن رذايا بالطريق ودائع(٢)
عليهن شعث عامدون لحجهم ... فهن كأطراف الحنى خواضع(٣)
لكلفتنى ذنب امرىء وتركته ... كذى العر يكوى غيره وهو راتع(٤)
فإن كنت لا ذو الضغن عنى مكذب ... ولا حلفى على البراءة نافع(٥)

---

(١) لصاف وثبرة ماءان يستقى منهما الركبان عن طريق مكة . وإلال : جبل عن يمين إمام الحج حيث يقف بعرفة .. المعنى : حلفت بنوق مصطحبات للحجاج يمتطونها من لصاف وثبرة إلى عرفة حيث ينتهين إلى إلال يزرنه ، ثم يقصدن مكة متدافعات فى السير أى يدفع بعضهن بعضا من الازدحام . وحلف بهذه النوق التى تزور عرفة ومكة تعظيما لها .

(٢) السمام : طائر أكبر من الخطاف سريع الطيران . وتبارى الريح : تعارضها . وخوصا عيونها : أى ضيقات عيونها ، والرذايا : جمع رذية ، وهو المتروك المطروح من الإبل الهالك فى أثناء الطريق . والمعنى : تزور هذه الإبل إلالا حال كونهن سريعات السير كالسمام ضيقات العيون من الجهد واتقاء الغبار ، وقد سقط منها هوالك فى الطريق مودعة به .

(٣) شعث : جمع أشعث وهو المغبر الشعر من طول السفر المتفرقة ، والحنى : جمع حنية ، وهى القوس .. المعنى : على هذه النوق رجال شعث قاصدون للحج ، وقد أصبحت هذه النوق من عناء السفر ضامرة كالقوس المبرية خاضعة الأعناق إعياء وتعبا .

(٤) لكلفتنى : جواب القسم . والعر : قرح مثل القوباء تخرج من الإبل متفرقة فى مشافرها وقوائمها ، فتكوى الصحاح فى هذه المواضع لئلا تعديها المراض . (المعنى) لقد آخذتنى بذنب الجانى وتركته ، فأنا وهو كمثل الفصيل المعرور ، يترك راتعا يأكل ماشاء فى مرعاه ، ويكوى غيره وهو سليم .

(٥) الضغن : الحقد والعداوة . ويروى : « فان كنت لاذا الضغن عنى مكذبا » .

قيس بن الخطيم [1]

(٤٨ ق ه – ٢ ق ه)

– ١ –

تمهيـــد :

قيس شاعر جاهلي مشهور ، ولد ونشأ وعاش فى المدينة ، وطارت شهرته بالشعر فيها وفى الحجاز عامة ، وكان أحد خمسة شعراء من شعراء المدينة ، شاع ذكرهم ، وذاع صيتهم فى كل مكان فى العصر الجاهلي : ثلاثة منهم من الخزرج ، هم : حسان ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة . واثنان من الأوس ، هما : قيس شاعرنا ، وأبو قيس ابن الأسلت ... وقيس من بنى ظفر ، أما أبو قيس فمن عمرو بن عوف .

وكان بعض النقاد يفضل قيساً على حسان ، وإن كان ابن سلام لم يوافقهم فى رأيهم [2] .

وكان قيس شاعر الأوس ، كما كان أحد صناديدها فى الجاهلية .

وكان يعد من شعراء الطبقة الثانية فى الجاهلية ، وقد أعجب بشعره النابغة الذبيانى حكم الشعراء فى الجاهلية .

قال حسان بن ثابت : قدم النابغة الذبيانى سوق عكاظ أو المدينة ، فنزل عن راحلته ثم جثا على ركبتيه ثم اعتمد على عصاه ثم قال : ألا رجل ينشد ؟ فتقدم قيس ابن الخطيم فجلس بين يديه فأنشده :

---

(١) راجع : ٨٤ و ٩١ – ٩٣ طبقات الشعراء لابن سلام (المطبعة المحمودية بمصر) و ٣ – ٢٦ ج ٣ الأغانى طبعة دار الكتب المصرية و ١٩١ – ١٩٤ / ١ معاهد التنصيص طبعة محيى الدين عبد الحميد .

(٢) ص ٩١ طبقات الشعراء لابن سلام .

أتعرف رسماً كالطراد المذاهب   لعمرة[1] وحشا[2] غير موقف راكب
ديار التى كادت ونحن على منى   تحل بنا لولا نجاء الركائب
تبدت[3] لنا كالشمس تحت غمامة   بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وهى قصيدة طويلة ، فلما أتى على آخرها ، قال : أنت أشعر الناس يا ابن أخى ، ثم أنشده حسان بعده ، فقال له : أنت أشعر الناس ، ويروى أنه قال له : أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم .

وقال حسان للخنساء : إهجى قيس بن الخطيم ، فقالت : لا أهجو أحدا حتى أراه ، فلما رأته قالت : والله لا أهجو هذا أبدا .

— ٢ —

نسبه وبيته ونشأته

قيس هو ابن الخطيم[4] بن عدى بن عمرو بن سود[5] بن ظفر ، ويكنى أبا زيد ، من بنى ظفر ، من الأوس .

ولد بالمدينة ، ونشأ بين العز الفاخر ، والمجد الباهر ، والعدد الكاثر ، وشاهد خصومات قومه « الأوس » مع الخزرج ، واشترك فيها ، ولم تلبث مفاخر آبائه ، ومواقف الخصومة ، ودواعى المنافسة بينه وبين أترابه من الشعراء ، أن ألهمته الشعر ، وفجرت على لسانه ينابيع البلاغة ، وأمدته برائع القريض ، وأخذ يدأب على الفروسية والبطولة وأعمال الشجاعة .

وقد قتل جد قيس وهو عدى بيد رجل من عبد القيس ، وقيل من بنى عامر من قوم خداش ؛ ثم قتل أبوه الخطيم ، قبل أن يثأر بمقتل عدى ، قتله رجل من بنى حارثة

(١) هى عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة ، وهى أم النعمان بن بشير .
وقيل : هى امرأة لحسان ذكرها قيس لأن حسانا كان ذكر ليلى بنت الخطيم فى شعره .
(٢) روى : قفرا (٩١ طبقات الشعراء) .
(٣) « : تراءت (٩١ طبقات الشعراء) .
(٤) سمى « الخطيم » لضربة كانت خطمت أنفه .
(٥) ويروى : سعد ، وفى خزانة الأدب للبغدادى (١٦٨ : ٣) : سواد .

ابن الحارث بن الخزرج يقال له مالك ؛ وقيل قاتله من بنى عبد القيس ؛ وكان قيس إبان ذلك صغيراً ؛ فلما بلغ قيس، وعرف أخبار قومه وموضع ثأره ؛ أخذ يلتمس غرة من قاتل أبيه وجده فى المواسم ، حتى ظفر بقاتل أبيه بيثرب فقتله ، وظفر بقاتل جده فى ذى المجاز[١] ، فأخذ بثأره منه . وبذلك طارت شهرة قيس ، وكثر طالبوا الثأر منه .

وكان قيس من أجمل الشباب فى المدينة وأحزمهم وأذكاهم وأكثرهم فروسية ، وكان شاعراً يجود الشعر ؛ بليغ القريض ؛ فزاد ذلك من مكانته فى هذا المجتمع العربى القديم .

واشترك قيس فى المعارك بين قومه « الأوس » وبين الخزرج ، وأبلى فيها بلسانه وسنانه بلاء حسنا .

وتزوج قيس ، وطابت حياته ، وكانت زوجه هى حواء بنت يزيد بن سنان ابن كرز : ولكنه لم يترك الكفاح والنضال يوماً من أيامه ؛ حتى ليروى أنه خرج يوم سابع عرسه ؛ وعليه غلالة وملحفة مصبوغة بالورس ؛ ليشترك فى إحدى هذه الخصومات ؛ ويكافح ويناضل أعداء قومه . وكان أشهر أيام الأوس والخزرج يوم بعاث[٢] ، وقد شهده قيس.

ويروى أنه كان[٣] من حديث قيس بن الخطيم أن جده عدى بن عمرو قتله رجل من بنى عمرو بن عامر يقال له مالك ، وقتل أباه الخطيم بن عدى رجل من عبد قيس ممن يسكن هجر ؛ وكان قيس يوم قتل أبوه صبياً صغيراً ، وقتل الخطيم قبل أن يثأر بأبيه عدى . فخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطلب بثأر أبيه وجده فيهلك .

فعمدت إلى كومة من تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها أحجاراً وجعلت تقول لقيس : هذا قبر أبيك وجدك ، فكان قيس لا يشك فى ذلك .

(١) موضع بعرفة كانت تقام فيه فى الجاهلية سوق من أسواق العرب .

(٢) بعاث موضع فى نواحى المدينة ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية .

(٣) الأغانى ص ٢ ؛ ٤ ، ٥ ، ٦ ج ٣ .

ونشأ أيدا شديد الساعدين ، فنازع يوماً فتى من فتيان بنى ظفر ، فقال له ذلك الفتى :والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك من أن تخرجها على ، فقال : ومن قاتل أبى وجدى ؟ قال : سل أمك تخبرك .

فأخذ السيف ووضع قائمه على الأرض ، وذبابه (١) بين ثدييه وقال لأمه : أخبرينى من قتل أبى وجدى ؟ قالت : ماتا كما يموت الناس ، وهذان قبراهما بالفناء . فقال : والله لتخبريننى من قتلها أو لأتحاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ! فقالت : أما جدك فقتله رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ، وأما أبوك فقتله رجل من عبد قيس ممن يسكن هجر .

فقال : والله لا أنتهى حتى أقتل قاتل أبى وجدى ، فقالت : يا بنى ، إن مالكا قاتل جدك من قوم خداش بن زهير ، ولأبيك عند خداش نعمة هو لها شاكر ، فأته فاستشره فى أمرك واستعنه يعنك .

فخرج قيس من ساعته حتى أتى ناضحه(٢) وهو يسقى نخله ، فضرب الجرير(٣) بالسيف فقطعه ، فسقطت الدلو فى البئر ، وأخذ برأس الجمل فحمل عليه جرارتين من تمر ، وقال : من يكفينى أمر هذه العجوز (يعنى أمه) فإن مت أنفق عليها من هذا الحائط(٤) حتى تموت ثم هو له ، وإن عشت فالى عائد إلى وله منه ما شاء أن يأكل من ثمره ؟ فقال رجل من قومه : أنا له ! فأعطاه الحائط .

ثم خرج يسأل عن خداش بن زهير حتى دل عليه بمر الظهران(٥) ، فصار إلى خبائه فلم يجده ؛ فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافه ؛ ثم نادى امرأة خداش

---

(١) ذباب السيف : طرفه الذى يضرب به

(٢) الناضح : البعير يستقى عليه الماء .

(٣) الجرير : الحبل .

(٤) الحائط : البستان .

(٥) الظهران : واد قرب مكة عند قرية يقال لها (مر) تضاف إليه فيقال مر الظهران .

هل من طعام ؟ فاطلعت إليه ، فأعجبها جماله ، وكان من أحسن الناس وجهاً ؛ فقالت : والله ما عندنا من نزل(١) نرضاه لك إلا تمراً ؛ فقال : لا أبالى ، فأخرجى ما كان عندك ؛ فأرسلت إليه ، بقباع(٢) فيه تمر ، فأخذ منه تمرة فأكل شقها ورد شقها الباقى فى القباع ، ثم أمر بالقباع فأدخل على امرأة خداش بن زهير ، ثم ذهب لبعض حاجاته .

ورجع خداش فأخبرته خبر قيس ، فقال : هذا رجل متحرم(٣) . وأقبل قيس راجعاً وهو مع امرأته يأكل رطباً . فلما رأى خداش رحله وهو على بعيره قال لامرأته: هذا ضيفك ؟ قالت : نعم ؛ قال : كأن قدمه قدم الخطيم صديقى اليثربى ، فلما دنا منه قرع طنب البيت بسنان رمحه ، واستأذن ، فاذن له خداش ، فدخل إليه ، فنسبه(٤) فانتسب ، وأخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يعينه ، وأن يشير عليه فى أمره ، فرحب به خداش ، وذكر نعمة أبيه عنده ، وقال : إن هذا الأمر ما زلت أتوقعه منك منذ حين ، فاما قاتل جدك فهو ابن عم لى وأنا أعينك عليه ، فإذا اجتمعنا فى نادينا جلست إلى جنبه وتحدثت معه ، فإذا ضربت فخذه فثب إليه فاقتله .

قال قيس : فاقبلت معه نحوه حتى قمت على رأسه لما جالسه خداش ، فحين ضرب فخذه ضربت رأسه بسيف يقال له : ذو الخرصين ، فثار إلى القوم ليقتلونى ، فحال خداش بينهم وبينى ، وقال : دعوه فإنه والله ما قتل إلا قاتل جده .

ثم دعا خداش بجمل من إبله فركبه ، وانطلق مع قيس إلى العبدى الذى قتل أباه حتى إذا كانا قريباً من هجر أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ،

---

(١) النزل : ما يهيأ للضيف من قرى .
(٢) القباع : المكيال الضخم .
(٣) متحرم : له عندنا حرمة وذمة .
(٤) نسبه : طلب إليه أن ينتسب .

فإذا دل عليه قال له : إن لصا من لصوص قومك عارضنى فاخذ منى متاعاً لى . فسألت من سيد قومه ؟ فدللت عليك ، فانطلق حتى تأخذ متاعى منه ، فإن اتبعك وحده فستنال ما تريد منه ، وإن أخرج معك غيره فاضحك ، فإن سألك مم ضحكت ؟ فقل : إن الشريف عندنا لا يصنع كما صنعت إذا دعى إلى اللص من قومه ، إنما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فإذا رآه اللص أعطى كل شيء أخذه ، هيبة له ، فان أمر أصحابه بالرجوع فذلك خير لك ، وإن أبى إلا أن يمضوا معه فائتنى به ، فانى أرجو أن تقتله وتقتل أصحابه .

ونزل خداش تحت ظل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العبدى فقال له ما أمره خداش ، فأحفظه ، فأمر أصحابه فرجعوا ومضى مع قيس : فلما طلع على خداش ، قال له : اختر يا قيس إما أن أعينك وإما أن أكفيك ، قال . لا أريد واحدة منهما ، ولكن إن قتلنى فلا يفلتنك ، ثم ثار إليه فطعنه قيس بالحربة فى خاصرته فانفذها من الجانب الآخر ، فمات مكانه .

فلما فرغ منه قال له خداش : إنا إن فررنا الآن طلبنا قومه ، ولكن ادخل بنا مكاناً قريباً من مقتله ، فان قومه لا يظنون أنك قتلته ؛ وأقمت قريباً منه ، ولكنهم إذا افتقدوه اقتفوا أثره ، فاذا وجدوه قتيلا خرجوا فى طلبنا فى كل وجه ، فاذا يئسوا رجعوا .

قال : فدخلا فى دارات من رمال هناك ، وفقد العبدى قومه فاقتفوا أثره فوجدوه قتيلا ، فخرجوا يطلبونهما فى كل وجه ثم رجعوا ؛ فكان من أمرهم ما قال خداش ، وأقاما مكانهما أياماً ثم خرجا ، فلم يتكلما حتى أتيا منزل خداش ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى أهله ، فى ذلك يقول قيس :

تذكر ليلى حسنها وصفاءها وبانت فما إن يستطيع لقاءها
ومثلك قد أصبيت ليست بكنة [1] ولا جارة أفضت إلى خباءها

---

(١) الكنة : امرأة الإبن أو الأخ .

إذا ما اصطبحت أربعاً خط مئزري(١) وأتبعت دلوى فى السماح رشاءها(٢)
ثأرت عديا والخطيم فلم أضع وصية أشياخ جعلت إزاءها

— ٣ —

ألوان من حياة قيس :

وهكذا عاش قيس يتمثل مفاخر قومه ، ويدافع عنهم ، ويناضل دونهم ؛ ويكافح فى سبيل استرداد شرفه وكرامته ؛ وينافس الشعراء ؛ ويشترك فى المساجلات والمنافرات والمفاخرات .

إلى أن آذن الله بشروق شمس الإسلام ؛ وانتشرت دعوة النبى عليه السلام فى المدينة . . وآمنت بها زوج قيس وكان قيس يتولى إيذاءها ويقيم على الشرك ، فلما قدم قيس مكة عرض عليه الرسول الإسلام ؛ فاستنظره قيس حتى يقدم رسول الله المدينة ؛ فسأله عليه السلام أن لا يتعرض الزوجه بإيذاء ، فقال قيس : نعم وكرامة يا أبا القاسم لست بعائد فى شىء تكرهه : فلما قدم المدينة قال لها : إن صاحبك لقد لقينى فطلب إلى أن لا أعرض لك فشأنك وأمرك ؛ ويستبعد هذه الرواية بعض الناس ، ويعللونها بأن قيسا قتل قبل الهجرة .

مقتل قيس :

لما هدأت الحرب بين الأوس والخزرج . تذكرت الخزرج قيسا ونكايته فيهم ، وتواعدوا قتله ، وخرج قيس من منزله ليلا يريد ما لا له بالشوط(٣) ، فلما مر بأطم(٤) بنى حارثة ؛ رمى من الأطم بثلاثة أسهم وقع أحدها فى صدره فصاح صيحة سمعها قومه ، فجاءوا فحملوه إلى منزله ؛ فلم يروا له كفئا إلا أبا صعصعة يزيد بن عوف ؛ من بنى النجار ، فاندس إليه رجل من الأوس

(١) يريد أنه إذا شرب أربعا اختال حتى جر ثوبه من الخيلاء .
(٢) يريد أنه بلغ فى السماح منتهاه ؛ يقال أتبع الدلو رشاءها وأتبع الفرس لجامها إذا بذل آخر مجهوده .
(٣) بستان بالمدينة . (٤) الأطم : الحصن .

حتى اغتاله فى منزله ؛ فضرب عنقه ، واشتمل على رأسه فأتى به قيسا ؛ وهو بآخر رمق ؛ فألقاه بين يديه ، وقال : يا قيس قد أدركت بثأرك ، ولم يلبث قيس بعد ذلك أن مات .

— ٤ —

شعر قيس :

ولقيس ديوان شعر أغلبه فى الخصومات التى كانت دائرة بين قومه والخزرج ، وبعض منه فى الغزل والحكمة والعتاب والفخر والهجاء ، وغير ذلك من أغراض شعره ، وقد طبع ما وجد من ديوانه فى ليبزج عام ١٩١٤ .

ويمتاز شعر قيس بالروح الغنائى الرفيع ، وبالموسيقى الجميلة الرقاقة ، وبالأسلوب القوى الجزل مع العذوبة فى أحيان كثيرة .

وكان قيس من البارعين فى وصف الخيال والطيف ، والذين بلغوا الغاية فى هذا الباب ، وأمير شعره قصيدته !

أتعرف رسما كاطراد المذهب   لعمرة وحشا غير موقف راكب

أسباب شاعريته :

ولا شك أن من أهم أسباب نبوغ قيس فى الشعر : وراثته الشعر عن قومه ، وبيئته الشاعرة ، والمنافسات الشعرية بينه وبين الشعراء ، واشتراكه مع قومه فى حرب بعاث ومفاخراته لخصوم الأوس ، ومواهبه المطبوعة على الشعر ، وأخذه البلاغة عن البيئة العربية الشاعرة ، إلى غير ذلك من الأسباب .

أشجع العرب شعراً :

ويعتبر قيس بن الخطيم فى رأي بعض النقاد القدامى من أشجع العرب شعراً ، وقد روى أن عبد الملك بن مروان سأل يوما عن أشجع العرب شعراً

فقيل : عمرو بن معد يكرب ، فقال : كيف ، وهو الذي يقول :

فجاشت إلى النفس أول مرة وردت على مكروهها فاستقرت

فقالوا : فعمرو بن الأطنابة ، فقال كيف ؟ وهو الذي يقول :

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

قالوا: فعامر بن الطفيل ، قال كيف ؟ وهو الذي يقول :

أقول لنفسي لا يجاد بمثلها أقلي مراحاً إنني غير مدبر

قالوا : فمن أشجعهم عند أمير المؤمنين . قال : أربعة ، عباس بن مرداس ، وقيس بن الخطيم الأوسي ، وعنترة بن شداد العبسي ، ورجل من مزينة . أما عباس فلقوله :

أشد على الكتيبة لا أبالي أفيها كان حتفي أم سواها

وأما قيس بن الخطيم فلقوله :

وإني لدى الحرب العوان موكل بتقديم نفس لا أريد بقاءها

وأما عنترة بن شداد فلقوله :

إذا يتقون بي الأسنة لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي

وأما المزني فلقوله :

دعوت بني قحافة فاستجابوا فقلت ردوا فقد طاب الورود[1]

— ٥ —

صورة من شعر قيس

— ١ —

قال قيس بن الخطيم :

ألا أبلغا ذا الخزرجي رسالة رسالة حق لست فيها منفدا

فإنا تركناكم لدى الروم غدوة فريقين مقتولا به ومطردا

(١) مجمع الأمثال ٢ : ٣٤ .

أتذكر أمراً لم تنله وإنما ... تناول سجل الحرب من كان انجدا
ونحن حماة الحرب ليست تضرنا ... نسوق خميساً كالقطا متبددا

وقد أجابه أنس بن العلاء أخو بنى الحرث بن الخزرج بقوله :

ألم خيال من أميمة موهنا ... فلم أغتمض ليل التمام تهجدا
وكان لها القلب جيداء ترتقى ... سوائل يمن فالحساء فأرشدا
وماء على حافاته أبد القطا ... تخال به دمن المعاطن أثمدا
أقمت به ليلا طويلا فلم أجد ... لذى أرب يبغى الرغائب مقعدا
ونحن حماة للعشيرة أينما ... نكن لايبالوا أن يغيبوا ونشهدا
نحامى على جذم الأعز بما لنا ... ونبذل حرات النفوس لتحمدا
صبحناهمو عند القتال بغارة ... فأصبح قيس بعدها متلددا
يعض على أطرافه كلما بدا ... له فارس يبغى القتال تنجدا

— ٢ —

قال قيس أيضا :

فما ظبية من ظباء الحسى ... عيطاء تسمع منها بغاماً
ترشح طفلا وتحنو له هى ... بحقف قد انبت بقلا تواما
بأحسن منها غداة الرحيل ... قامت تريك أثيثا ركاما
فما كان حب ابنة الخزرجى ... إلا عناء وإلا غراما
فهل يلسين حبها جسرة ... من الناعجات تبارى الزماما
كأن قتودا على نقنق ... أزج يبارى بجو نعاما
وفى الأرض يسبق طرف البصير ... فبينا بموج تراه استقاما
وما قط خسف أقتنا به ... على ضنكه خشية أن نلاما
وقوما أبحنا حمى مجدهم ... وكانوا لمن يعتريهم سناما
أذاعت بهم كل خيفانة ... طروح طموح تلوك اللجاما

— ٣ —

وقال قيس بن الخطيم :

ياعمرو إن تسدى الأمانة بيننا　　فأنا الذى إن خنتها ترعاها
ياعمرو ليس أخو الأمانة بالذى　　مارا به من خطة أفشاها
ياعمرو إن أخا الأمانة كاتم　　لو يستطيع بجلده أخفاه

— ٤ —

وقال قيس أيضا :

وكل شديدة نزلت بحى　　سيأتى بعد شدتها رخاء
فقل للمتقى عرض المنايا　　توق وليس ينفعك الوقاء
فلا يعطى الحريص غنى لحرص　　وقد ينمى لذى العجز الثراء
غنى النفس ما استغنى غنى　　وفقر النفس ماعمرت شقاء

— ٥ —

وقال قيس بن الخطيم فى حرب حاطب وفى حرب بعاث قصيدته :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب　　لأسماء وحشا غير موقف راكب

فأجابه عبد الله بن رواحة يقول :

الدن غدوة حتى إذا الشمس عارضت　　وراح له من همه كل عازب
تبين فإن الحب يعلق مدبراً　　قديما إذا ماخالة لم تصاقب

ومنها :

تبارى مطايا تتقى بعيونها　　مخافة وقع السوط خوص الحواجب
إذا ما خيرت أحساب قوم وجدتنا　　ذوى نائل فيها كرام المضارب
نحامى على أحسابنا بتلادنا　　لمفتقر أو سائل الحق راغب

وأحمى هدته للسبيل حلومنا وخصم أقمنا بعد ما لج شاغب
ومعترك ضنك ترى الموت وسطه مشينا له مشى الجمال المصاعب
فهم جسر تحت الدروع كأنهم أسود متى تنضى السيوف تضارب
بعاقلهم فى كل يوم كريهة مع الصبر مسوب القنا والقواضب

— ٦ —

وقال قيس :

من اللائى إذا يمشين هوناً تجلببن المجاسد والبرودا(١)
كأن بطونهن سيوف هند إذا ماهن زايلن الغمودا
تبدت لى لتقتلنى فأبدت معاصم فخمة منها وجيدا
ووجهاً خلته لما بدا لى غداة البين دينارا نقيدا
سقينا بالفضاء كؤوس حتف بنى عوف وإخوتهم يزيدا(٢)
لقيناهم بكل أخى حروب يقود وراءه جمعا عتيدا(٣)
ومشرفة التلائل مضمرات طوى أحشاءها التعداء قودا(٤)
أكنتم تحسبون قتال قومى كأكلكم الفغايا والهبيدا(٥)

---

(١) المجاسد : جمع مجسد وهو كل ثوب متشبع من الزعفران ، ويقال للزعفران : جساد .

(٢) يريد عبد بنى سلمة بن على بن يزيد .

(٣) عتيدا مهيئا .

(٤) التلائل الأعناق . التعداء : العدو . القود : الطوال الأعناق .

(٥) الفغايا أن يركب النخل غبار فيغلظ جلد بسرها . الهبيد : حب الحنظل المنقوع فى ماء حتى تذهب مرارته .

أصاب القتل ساعدة بن كعب وغادر فى مجالسها قرودا
وإن سيوفنا ذهبت عليكم بنى شر الخنا مهلا بعيدا
ويأبى جمعكم إلا فرارا ويأبى جمعنا إلا ورودا
ألا من مبلغ عنى كعيبا فهل ينهاك لبك أن تعودا
أرانى كلما صدرت أمراً بنى الرقعاء جشمكم صعودا

خاتمة

فى تقييم الأدب الحجازى

وبعد ؛ فهذه هى قصة «الأدب الحجازى فى العصر الجاهلى» قد أشرفت على غايتها . ونود فى هذه الصفحات القليلة الباقية أن نجمل الحديث عن مكانة هذا الأدب بين الآداب العربية فى الجاهلية ، ثم استاذيته على الأدب العربى عامة فيما تلا العصر الجاهلى من عصور :

— ١ —

يتفق ابن سلام مع أبى عبيدة فى أن المتقدمين على جميع الشعراء أربعة ، هم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة والأعشى . وعلى هذا كاد ينعقد الإجماع ؛ بيد أن الخلاف فى أيهم المقدم على زملائه ، فعلماء البصرة يقدمون امرأ القيس ، وأهل الكوفة يقدمون الأعشى ، والحجازيون يقدمون زهيراً والنابغة .

فمن احتج لامرىء القيس نظر إلى سبقه فى ابتداع أشياء استحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء ؛ كاستيقاف الأصحاب وبكاء الأطلال والإكثار من التغزل وتشبيه النساء بالبيض والظباء ، والخيل بالعقبان والوحوش ، وأنها قيد الأوابد ، وغير هذا .

ومن احتج للأعشى قال : إنه أكثرهم عروضا ، وأذهبهم فى الشعر فنونا ، وأكثرهم طويلة جيدة ومدحا وهجاء ونظراً وصفة .

ومن فضل زهيرا ينظر إلى أنه أحصفهم شعرا ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ ، وأنه كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتبع حوشيه ، وأنه مع بلوغه فى المدح لم يمدح أحداً بغير ما هو فيه .

ومن فضل النابغة قال : إنه أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتا ، وكأن شعره منثور لا تكلف فيه .

والذى يعنينا هنا هو أن حظ الحجاز من فحولة الشعراء من الطبقة الأولى حظ عظيم ؛ فحين لم تظفر كندة إلا بامرىء القيس ، ولم تظفر اليمامة إلا بالأعشى ، ظفر الحجاز بشاعرين كبيرين هما زهير والنابغة الذبيانى كما ذكرنا .

— ٢ —

وإذا نظرنا إلى مكانة النثر فأكثر ما أثر من النثر من الخطب والوصايا والمفاخرات والمحاورات والمنافرات فى العصر الجاهلى ينسب لأدباء حجازيين ، وقد تحدثنا عن خصائصها وقيمتها البلاغية فى الفصول الخاصة بها .

— ٣ —

وأما عن الشعر فقد ابتكر الحجازيون فنونا جديدة فى الأدب العربى ، كفن الاعتذار . كان ذلك على يدى النابغة الذبيانى الشاعر الحجازى الجهير . ومن روائع اعتذارياته تلك البائية الخالدة التى يقول فيها :

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى ... وتلك التى أهتم منها وأنصب

والعينية الرائعة التى يقول فيها :

وعيد أبى قابوس فى غير كنهه ... أتانى ودونى راكس فالضواجع
فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرقش فى أنيابها السم ناقع[1]

ولا يسمح المجـال هنا بتحليل هاتين القصيدتين والتعليق عليهما فلذلك موضعه . وقد قام بدراسة اعتذاريات النابغة بعض الباحثين . وحسبنا أن نشير

(١) راكس : واد ، والضواجع : جمع ضاجع وهو منحنى الوادى ، أو اسم مكان . وساورتنى : واثبتنى . ضئيلة : دقيقة اللحم وهى أكثر سما من غيرها . الرقشاء : التى فيها نقط سود وبيض . الناقع : الثابت .

هنا إلى أن اعتذاريات النابغة قد خلدت فى صحائف الأدب العربى ، وأن الليالى النابغية التى كان يتقلب فيها على أحر من الجمر ، والتى شكا فيها من الهم الذى كان يسرى فى قلبه وجسمه سريان السم ، قد جرت مجرى الأمثال ، فقيل : ليلة نابغية ، وأن هذا الفن الذى ابتدعه وحلق فيه ما فتىء يطل علينا من نافذة الأدب العربى بين حين وآخر على يد بعض الشعراء ، وإن لم يصلوا إلى ما وصل إليه النابغة من خصب وعمق وقدرة فائقة على تصوير خلجات النفس ، وما يهجس فيها من خوف وجزع واضطراب .

كذلك ابتدع الحجازيون فن الغزل الكيدى ورثاء القبائل ، والقصص الدينى ، كما ظهر فى بيئتهم الشعر السياسى ، وشعر المعارضة ، وشعر الثورة على الحكام المستبدين وعلى الأوضاع الاجتماعية الفاسدة . واستخلصوا من حقائق الكون وتجارب الحياة النظرات الصائبة ، ونظموها شعراً ، حتى أصبح من أهم خصائص الشعر الحجازى ذيوع الحكم الخالدة والأمثال الرائعة .

— ٤ —

أما من ناحية الألفاظ والأساليب فنلاحظ فى الغالب شيوع الألفاظ العذبة ، وندرة الكلمات الغريبة ، وقلة التعمل والتكلف فى التراكيب ، ومضى الأشعار فى كثير من الأحيان على نحو سهل سائغ ، يشبه أن يكون ارتجالا ، وهذا على خلاف ما عليه الغالب فى شعراء نجد . كما نلاحظ أيضاً غلبة الروح الغنائية على الشعر الحجازى ، ورقة الموسيقى ، وخفة الأوزان ، وغيرها من السمات ، التى تجعل هذا الشعر أصلح ما يكون للرقص والنشيد والغناء .

ويبدو هذا جليا فى شعر المدن وبخاصة شعراء يثرب . والمهارة فى إخفاء الصنعة الفنية تبدو واضحة فى شعراء الحجاز ، وخير دليل على ذلك شعر النابغة الذبيانى ، الذى تتوائم أخيلته وصوره الشعرية مع موسيقاه العذبة الآسرة ، فكأنه شلال طبيعى متدفق ، يروعك بجماله وقوة اندفاعه .

وتبدو هـذه الظاهرة أكثر وضوحاً إذا ما قارنا شعر النابغة بشعر غـيره من الشعراء الذين نبتوا فى بيئة نجد .

والشاعر الذى ظل حياته يعاود شعره بالصقل والتهذيب وبدا فى نتاجه أثر الصنعة الفنية ، هو زهير بن أبى سلمى . . وزهير وإن كان حجازياً من قبيلة مزينة التى تقطن جبلى قدس وآرة ، إلا أنه نشأ عند أخواله بنى عبد الله بن غطفان بنجد ، ولعل لهذه النشأة أثرها فيما يبدو على شعره من صناعة وتعمل .

— ٥ —

وإذا عد نقاد الفرنجة وغيرهم أن من نقائص الأدب العربى تعدد الموضوعات فى القصيد الواحد ، واعتبارهم البيت الشعرى هو الوحدة الفنية للقصيدة لا المقطوعة الشعرية أو جملة الأبيات التى يأخذ بعضها برقاب بعض ، بحيث تـكون نسقاً فنياً واحداً مترابطا ، أقول ، إذا عد هذا من نقائص الأدب العربى ، فإننا نجد فى أشعار الحجازيين ما يخفف من حدة هذا النقد ، فإن كثيراً من قصائد الصعاليك ، كالشنفرى ، وتأبط شرا ، ينتظم موضوعا واحداً ، أو على الأقل نرى فيه الوحدة الفنية تنسق فى عـدة أبيات ، بحيث لو أسقطنا منها بيتاً أو نقلناه إلى غـير موضعه اختل بنـاء المقطوعة ، واضطرب المعنى اضطراباً شديداً . وحسبنا دليلا على هذا قصيدة تأبط شرا التى ذكرناها فى الشعر السياسى ، ولامية العرب التى تنتظم عـدة معان متسقة يؤدى فيها كل بضعة أبيات معنى واحدا ، يضطرب فى بعض الأحيان إذا ما غيرنا نظامها . كـذلك نلمح هـذه الظاهرة فى القصيدة التى تنسب لأمية بن أبى الصلت فى رثاء قتلى بدر والتى يقول فيها :

ألا بـكيت على الكرا ... م بنى الكرام أولى الممادح
كبكا الحمام على فرو ... ع الأيك فى الغصن الجوانح
يبـكين حرى مستكيـ ... نات يرحن مع الروائح

إلى آخر ثمانية أبيات[1] تمضى فى اتساق . ولا يمكن حذف بيت منها أو تغيير موضعه دون أن ينهار بناؤها الفنى .

وقل مثل ذلك فى كثير من قصائد أمية فى القصص الدينى . وقد مضى شطر منها فى الشعر الدينى وفى ترجمته . ومن اليسير على القارىء أن يلاحظ فيها الاتساق والوحدة الفنية . التى تكاد تنتظم القصيدة من أولها إلى آخرها ، وهذا القصص الدينى يعتبر من خصائص الأدب الحجازى فى الجاهلية .

كذلك كان للنابغة مشاركة حسنة فى ابتكار الأسلوب القصصى الذى نجده فى بعض ما أنتج من شعر ، كما فعل فى « أسطورة ذات الصفا » ، ومؤدى هذه الأسطورة : أن أخوين كانا قريبين من واد فيه حية قد حمته فنزله أحدهما فنهشته فقتلته ، فذهب أخوه ليقتص منها فعاهدته على أن يتركها وتعطيه كل يوم ديناراً ، ومكثا على ذلك دهرا ، ولما أثرى الرجل ذكر أخاه وصمم على قتل الحية ، ولكنه لما ضربها بفأسه أخطأها وأثرت الفأس فى باب جحرها ، ثم إنها قطعت عنه الدينار فندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : « كيف أعادوك وهذا أثر فأسك » فذهبت مثلا يضرب لمن لا يجاب إلى عهد لظهور آثار غدره .

وقد نظم النابغة حديث الحية فى قصة شعرية يقول فيها :

وإنى لألقى من ذوى الضغن منهم ... وما أصبحت تشكو من الوجد ساهره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها ... وما انفكت الأمثال فى الناس سائره
فقالت له : أدعوك للعقل وافياً ... ولا تغشينى منك بالظلم بادره
فواثقها بالله حين تراضيا ... وكانت تديه المال غبا وظاهره

إلى آخر القصيدة التى ذكرناها بترجمته (ص ٦٥٩) .

وكما فعل فى تصوير المعركة بين الثور وكلاب الصيد تصويراً رائعاً حياً نابضاً يفيض بالحركة والحياة . وهاتان القصيدتان تتعانق أبياتهما تعانقا فنياً جميلا

(١) راجع هذه الابيات فى ص ٦١٠ من هذا الكتاب .

فى وحدة رائعة كأنها رقصة جماعية حديثة تؤديها فتيات جميلات ، يختل أداؤها وجمالها ونظامها إذا ما غيرت إحدى الراقصات وضعها أو حركتها .

والنابغة مغرم بتقليب المعنى على وجوهه المختلفة ، واستيفائه وتوضيحه حتى ينفذ إلى صميمه . . . وقد ساعدته هذه السمة على التسلسل وتوخى الترابط بين الأبيات من ناحية ، ورسم لوحات حية من ناحية أخرى مستعيناً بالتمثيل والتشبيه .

ومن ذلك تصويره للفرات الذى يرمى أمواجه بالزبد ، وأن ممدوحه أجود منه . ويمكن القارىء الرجوع إلى داليته التى أوردناها .

ومن ذلك الصورة التى جلا فيها قصة فتاة الحى وهى زرقاء اليمامة فى إصابتها الحكم على عدد الحمام إذ :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما حسبت ... تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكملت مائة فيها حمامتها ... وأسرعت حسبة فى ذلك العدد

وفى بيتين سابقين على هذا الأبيات يصف الحمام المسرع لورود الثمد بين جبلين وزرقاء اليمامة تتبعه بعينيها صافيتين كالزجاج لم يصبهما الرمد ويطلب إلى النعمان أن يصيب فى الحكم فى أمره وقضيته كما أصابت فتاة الحى فى عدد الحمام . والأبيات الخمسة مترابطة تكون وحدة شعرية .

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نمضى فى إيراد الأدلة على ظاهرة الوحدة والترابط فى الأدب الحجازى القديم .

وحسبنا أننا أقمنا الحجة من الشعر الحجازى على من يدعى أن الشعر العربى مفكك الأواصر ، وأن البيت دائماً لا القصيدة أو المقطوعة الشعرية هو أساس وحدته .

وحسبنا كذلك أن نسجل أستاذية النابغة وأضرابه من شعراء الحجاز وأسبقيتهم فى محاولة القصص الشعرى ، وفى توخى الوحدة الفكرية فى القصيد .

— ٦ —

أما مكانة الحجازيين فى النقد الأدبى، فحسبنا ما ذكره حماد الراوية من أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه كان مردودا. ثم ما ذكره أيضاً من أن علقمة بن عبدة لما أنشدهم قصيدته :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

قالوا : هذه سمط الدهر ، فلما عاد إليهم فأنشدهم قصيدته :

طحابك قلب فى الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

قالوا : هاتان سمطا الدهر .

ولسنا بحاجة إلى تفصيل حكومة النابغة الأدبية فى سوق عكاظ فهى معروفة مشهورة .

— ٧ —

وقصارى القول أن الأدب الحجازى ذو مكانة رفيعة ، وأن الحجاز — منذ الجاهلية — كان يعتبر رمزا للوحدة العربية ، فالكعبة الغراء التى كانت تهفو إليها قلوب العرب من كل مكان ، ولا تزال هى أحد العوامل الرئيسية لهذه الوحدة كما أن لغة قريش المصقولة المهذبة التى صارت لغة الجزيرة كلها فى أرقى أطوارها ، والتى يحرص الشعراء على أن يقع شعرهم بها ليكون أنفذ وأذيع وأدنى إلى أذواق القبائل وأفهامهم.. كانت هذه اللغة كذلك عاملا جوهرياً فى توحيد العرب وضم صفوفهم .

وإذا أضفنا إلى هذين العاملين رجاحة عقل الزعماء الحجازيين واعتماد العرب عليهم فى الفصل فى قضاياهم الفردية والقبلية والفنية كذلك ، ومحاربة الحجازيين للظلم والمحرمات والأباطيل ، ثم تفوقهم الاقتصادى ، وميلهم إلى السلام ، ودعوتهم إلى التكافل الاجتماعى فى حياتهم وشعرهم حتى يكون فقيرهم كالكافى (الغنى) ، ثم الزعامة السياسية والدينية الحصيفة الموجهة . . .

إذا فعلنا ذلك ، تمثلت أمامنا جملة العوامل التى جعلت من الحجاز فى الجاهلية قلباً للشاعر العربية . التى كان الأدب الحجازى بما فصلناه فى هذا الكتاب مرآة تنعكس عليه عناصرها القوية ، وصورتها الجميلة الرائعة ؛ تلك الصورة التى تجددت ملامحها ، وتحددت معالمها ، واتسعت رقعتها ، حتى شملت الإنسانية جمعاء ، بفضل دين الإسلام الخالد ، وفى إطاره الرائع القويم ، وعبر عنها الأدب الحجازى ، وكشف عن خصائصها ومقوماتها الجديدة فى ظل العقيدة الإسلامية الخالدة ، تعبيراً قوياً واضحاً ، ولكن هذه قصة أخرى نأمل أن يتاح لنا عرضها وتجليتها فى فرصة قريبة إن شاء الله . . .

ثبت بأسماء طائفة من الشعراء الحجازيين فى الجاهلية

اسم الشاعر	قبيلته	بلده	ملاحظات
ربيعة بن مكدم	كنانة	مكة وما حولها	
حلحلة بن قيس الكنانى	»	» »	
الشداخ بن عوف الكنانى	»	» »	
سمرة بن عمير الكنانى	»	» »	
صفوان بن أمية الكنانى	»	» »	
عمير بن قيس الكنانى	»		
أمية بن الاسكر	»		
زيد بن عمرو	قريش	مكة	
نبيه بن الحجاج	»	»	
عبدالله بن الزبعرى	»	»	
عمارة بن الوليد	»	»	
عدى بن نوفل	»	»	
ورقة بن نوفل	»	»	
قتيلة بنت الحرث بن النضر	»	»	
أميمة بنت عبد شمس	»	»	
مسافر بن أبى عمرو	»	»	
أبو سفيان بن الحارث	»	»	
هبيرة بن أبى وهب المخزومى	»	»	
ضرار بن الخطاب الفهرى	»	»	
عبد الله بن حذافة السهمى	»	»	
أبو طالب بن عبد المطلب	»	»	
الزبير بن عبد المطلب	»	»	
أبو عزة الجمحى	»	»	

اسم الشاعر	قبيلته	بلدة	ملاحظات
أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي	ثقيف	الطائف	
أمية بن أبي الصلت الثقفي	»	»	من أصحاب المجمهرات
غيلان بن سلمة الثقفي	»	»	
أبو محجن الثقفي	»	»	
كنانة بن عبد ياليل	»	»	
ذو الإصبع العدواني	عدوان		من قيس بن عيلان
أحيحة بن الجلاح	الأوس	يثرب	من أصحاب المذهبات
أبو قيس بن الأسلت	»	»	» » »
قيس بن الخطيم	»	»	» » »
عمرو بن الأطنابة	الخزرج	»	
مالك بن أبي كعب	»	»	
كعب بن مالك	»	»	
حسان بن ثابت	»	»	من أصحاب المذهبات
عبدالله بن رواحة	»	»	
السموءل بن غريض		تيماء	له حصن « الأبلق » وقد اشتهر بالوفاء .
سعية بن غريض		»	أخو السموأل
أوس بن دني	بنو قريظة		
أبو الزناد			
كعب بن الاشرف	بنو النضير		
الربيع بن أبي الحقيق	بنو قريظة		
شريح بن عمران			
درهم بن زيد			
أبو قيس بن رفاعة			
منظور بن زبان	فزارة بن ذبيان	شرق المدينة	
النابغة الذبياني	ذبيان بن بغيض	إلى جبلي أجأ	من أصحاب المعلقات
الحصين بن الحمام المرى	مرة بن عوف	وسلمى مساكن ذبيان	
معية » » »	» » »	» »	

ملاحظات	بلده	قبيلته	اسم الشاعر
		مرة بن عوف	الحارث بن ظالم المرى
		ثعلبة بن سعد	الشماخ بن ضرار الثعلبى
		سليم بن منصور	صخر بن الشريد السلمى
مخضرم أدرك الاسلام فأسلم		» » »	العباس بن مرداس السلمى
		» » »	خفاف بن عمير السلمى
مخضرمة		» » »	الخنساء بنت عمرو السلمية
		قيس	المخبل القيسى
من أصحاب المعلقات ويتصل نسبه إلى الأصم بن عثمان « مزينة »	بين القصيم والمدينة	مازن بن ثعلبة	زهير بن أبى سلمى المزنى
ومساكن مزينة جبلا قدس وآرة		» » »	كعب بن زهير
		مزينة بن أد	معن بن أوس المزنى
مخضرم من أصحاب المراثى		بنو مازن بن معاوية	أبو ذؤيب الهذلى
من سعد بن هذيل		بنو خيثم بن عمرو	صخر الغى
		(بنو كاهلة بن لحيان ابن هذيل)	عمرو بن العجلان
من أصحاب « المنتقيات »		بنو لحيان بن هذيل	المتنخل الهذلى
		سعد بن هذيل	أبو العيال الهذلى
مخضرم أدرك الاسلام فأسلم			أبو خراش الهذلى
		جشم بن معاوية	دريد بن الصمة
من مالك بن نصر بن الازد	الحجاز	سلامان بن مفرج	حاجز بن عوف الأزدى
من الهنء بن الازد		الأواس بن الحجر	الشنفرى الأزدى
وهو من عمرو بن خزاعة بن ربيعة ويعرف بابن الحدادية وهى أمه		سلول بن كعب	قيس بن منقذ السلولى
من الصعاليك هو والشنفرى	سراة فهم	فهم بن عمرو	تأبط شراً
صاهرت جرهم اسماعيل بن ابراهيم		جرهم	مضاض بن عمرو الجرهمى
من الموالى			سحيم عبد بنى الحسحاس

مصادر الكتاب

مصادر الكتاب (١)

(أولا) مصادر عربية مخطوطة

(١) ديوان « الإيادي » :	« ضمن مجموعة خطية برقم ٤١١٣٨ — أدب بدار الكتب »
(٢) شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام :	لتقي الدين الفاسي مخطوط رقم ٢٨٣١٤ دار الكتب
(٣) حماسة الخالديين :	مخطوط برقم ٥٨٧ أدب دار الكتب .
(٤) ديوان الخنساء :	مخطوط برقم ٤٠ أدب ش بخط الشنقيطي سنة ١٢٨٨ هـ
(٥) ديوان قيس بن الخطيم :	مخطوط بالمكتبة التيمورية برقم ٢٩٦ شعر .
(٦) تهذيب اللغة :	للأزهري مصورة فوتوغرافية ملك الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار عن النسخة الخطية الموجودة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة نمرة ٤٣
(٧) أوائل الأوائل :	لأبي هلال العسكري مخطوط بدار الكتب رقم ٢٧٠٥ تاريخ .
(٨) أمية بن أبي الصلت في نظر المستشرقين	رسالة للأستاذية لسليمان حسن ربيع مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية .
(٩) بلاد العرب	للحسن بن عبد الله الأصبهاني المعروف بلغدة. مخطوطة الأستاذ حمد الجاسر .
(١٠) إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام	للشيخ عبد الله بن محمد بن غازي المكي — ٤ أجزاء — بخط المؤلف .

---

(١) هذه مصادر الكتاب فيما عدا التمهيد إذ قد ذكرنا مصادر التمهيد عقبه مباشرة .

(ثانيا) مصادر عربية مطبوعة

القرآن الكريم

صحيح الإمام البخاري : طبع عيسى الحلبي .

دائرة المعارف الإسلامية : الطبعة العربية .

بلوغ الأرب في أحوال العرب : السيد محمود شكري الألوسي ٣ أجزاء المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٤

(تفسير) الجامع لأحكام القرآن : للإمام القرطبي طبعة دار الكتب المصرية .

التاريخ الإسلامي العام : للدكتور علي إبراهيم حسن ط (١) القاهرة ١٩٥٣ مطبعة السعادة .

الحيوان للجاحظ : تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون — ٧ أجزاء مصطفى البابي الحلبي ١٩٤٥ .

الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلي : الأستاذ عبد العزيز مزروع الأزهري الطبعة الأولى ١٩٥٠ م .

تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري } الدكتور نجيب محمد البهبيتي القاهرة دار الكتب ١٩٥٠

مهد العرب : للدكتور عبد الوهاب عزام سلسلة « اقرأ » .

حياة محمد : للدكتور محمد حسين هيكل .

قصص الأنبياء : للشيخ عبد الوهاب النجار الطبعة الثالثة ١٩٥٣ .

تاريخ الطبري

سيرة ابن هشام : تحقيق الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة . مطبعة حجازي .

الطبقات الكبرى : لابن سعد مطبعة بريل بليدن ١٣٢١ هـ .

تاريخ ابن خلدون

تاج العروس من جواهر القاموس : للإمام محمد مرتضى الزبيدى المطبعة الخيرية ١٣٠٦ھ.

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام : للإمام تقى الدين أحمد بن على الفاسى المكى نشر مكتبة
: النهضة الحديثة بمكة ،ط عيسى الحلبى ١٩٥٦ بالقاهرة.
: تحقيق د . خفاجى وآخرين

الفصل فى الملل والأهواء والنحل : الإمام ابن حزم الظاهرى المطبعة الأدبية بالقاهرة ١٣١٧ھ

محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية : للأستاذ محمد الخضرى بك .

على هامش السيرة : الدكتور طه حسين .

الكامل فى التاريخ : لابن الأثير المطبعة المنيرية .

طبقات فحول الشعراء : لمحمد بن سلام الجمحى تحقيق محمود شاكر القاهرة ـ دار المعارف ١٩٥٢ .

لسان العرب : لابن منظور .

الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى ، ٢١ جزء ط ساسى ـ ط . دار الكتب .

الاشتقاق : لابن دريد .

فتوح البلدان : للبلاذرى مطبعة الموسوعات بمصر ١٩٠١ .

خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى : للسمهودى بولاق ١٢٨٥ ھ .

معجم البلدان : لياقوت مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ .

عصر ما قبل الإسلام : المرحوم محمد مبروك نافع الطبعة الثانية ١٩٥٢ مطبعة السعادة بمصر .

الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة : لابن النجار .

الأمالى
ذيل الأمالى } لأبى على القالى ط دار الكتب ١٩٢٦ .

تاريخ العرب : لفيليب حتى ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع .

تاريخ العرب قبل الإسلام : للدكتور جواد على ٩ أجزاء . مطبعة بغداد .

أسواق العرب : للأستاذ سعيد الافغانى دمشق ١٩٣٧ .

صور من التاريخ الإسلامى : للأستاذ عبد الحميد العبادى مطبعة الآداب باسكندرية ١٩٤٨ م .

أخبار مكة : للأزرقى المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ .

العقد الفريد : لابن عبد ربه .

المزهر : السيوطى .
تاريخ آداب العرب : للأستاذ مصطفى صادق الرافعى
تاريخ آداب اللغة العربية : لجورجى زيدان . الجزء الأول مطبعة الهلال بمصر ١٩١١م .
خزانة الادب : الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادى ٤ أجزاء المطبعة الاميرية ببولاق .
صفة جزيرة العرب : الحسن بن أحمد الهمدانى تحقيق الشيخ محمد بن بليهد مطبعة السعادة ١٩٥٣ .
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع : لابى عبيد البكرى ط أوروبا ، ط مصر ، تحقيق الاستاذ مصطفى السقا .
موقع عكاظ : للأساتذة عبد الوهاب عزام وابن بليهد ، وحمد الجاسر دار المعارف بمصر .
الأزمنة والأمكنة : للمرزوقى ط الهند ١٣٣٢ هـ .
الاصنام : الكلبى ط ٢ دار الكتب ١٩٢٤ .
فى طريق الميثولوجيا عند العرب : لمحمود سليم الحوت بيروت ١٩٥٥ .
الحياة الادبية فى العصر الجاهلى : لمحمد عبد المنعم خفاجى .
الأحكام السلطانية : للماوردى .
تاريخ الشعوب الإسلامية : لكارل بروكلمان تعريب نبيه فارس ومنير البعلبكى بيروت ١٩٤٨ .
الأساطير العربية قبل الإسلام : للأستاذ محمد عبد المعيد خان ط القاهرة ١٩٣٧ .
عنوان المجد فى تاريخ نجد : لابن بشر .
فجر الإسلام : للدكتور أحمد أمين .
الطب عند العرب : لمحمد إبراهيم كراوية القاهرة ١٩١٦ .
الفن ومذاهبه فى النثر العربى : للدكتور شوقى ضيف .
من حديث الشعر والنثر : للدكتور طه حسين .
فى الأدب الجاهلى : للدكتور طه حسين .
الأمثال فى النثر العربى : للدكتور عبد المجيد عابدين القاهرة ١٩٥٦ م .
مجمع الأمثال : للميدانى القاهرة ١٣٥٢ مطبعة (عبد الرحمن محمد) .
أمثال العرب : للمفضل الضبى مطبعة الجوائب — القسطنطينية ١٣٠٠ هـ

جمهرة الأمثال : لأبي هلال العسكري (على هامش مجمع الأمثال للميداني ط القاهرة ١٣١٠ هـ)
الكامل : للمبرد ، ط أوروبا و ط مصر ١٣٥٥ هـ .
البيان والتبيين : للجاحظ (ا) تحقيق حسن السندوبي المطبعة الرحمانية ١٩٤٢ ، و (ب) تحقيق عبد السلام هارون لجنة التأليف ١٩٤٩ .
صبح الأعشى : للقلقشندي ١٨ جزءاً — ط دار الكتب .
شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة
مهذب الأغاني : ١ ، ٢ للشيخ محمد الخضري مطبعة مصر .
مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية : للدكتور ناصر الدين الأسد دار الكتب المصرية ١٩٥٦ م
نسب قريش : لأبي عبد الله المصعب الزبيري تحقيق ا . ليفي بروفنسال دار المعارف ١٩٥٣
في الشعر الجاهلي : للدكتور طـه حسين . دار الكتب المصرية ١٣٤٤ — ١٩٢٦
المواهب الفتحية : للشيخ حمزة فتح الله المطبعة الأميرية بمصر ١٩٠٨ .
المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : للدكتور عبد الله الطيب .
الفهرست : لابن النديم المطبعة الرحمانية ١٣٤٨ هـ .
ديوان الهذليين : ط دار الكتب المصرية ٣ أجزاء ١٩٤٥ — ١٩٥٠
شرح أشعار الهذليين : ط لندن .
الشعر والشعراء : لابن قتيبـة تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر : ط البابي الحلبي ١٣٦٤ هـ
إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب : نشر الدكتور أحمد الرفاعي ٢٠ جزءاً
النابغة الذبياني : الأستاذ عمر الدسوقي ط أولى القاهرة ١٩٤٩ م
جمهرة أشعار العرب : للقرشي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٦ .
أيام العرب في الجاهلية : ط عيسى البابي الحلبي ١٩٥٣ .
المفضليات : للضبي تحقيق الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون . مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٣ .
نهاية الأرب في فنون الأدب : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النـويري ط دار الكتب المصرية .

ديوان حسان بن ثابت : شرح عبدالرحمن البرقوقى المطبعة الرحمانية ١٩٢٩م

الروض الأنف : للسهيلى مطبعة الجمالية بمصر ١٩١٤ م

ديوان الحماسة : لأبى تمام (١) بشرح التبريزى ط بولاق (٢) المرزوقى تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ط لجنة التأليف ١٣٧١ (٣) بشرح وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ط صبيح ١٩٥٥ م

عيار الشعر : لابن طباطبا . تحقيق الدكتور طه الحاجرى : ومحمد زغلول سلام القاهرة ١٩٥٦ م

الحماسة للبحترى ط الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .

ديوان قيس بن الخطيم : نشر رودلف جيير بفيينا ١٩١٤ .

المغازى : للواقدى ط كلكتا ١٨٥٥ .

زاد المعاد فى هدى خير العباد : لابن القيم الجوزية ط صبيح بمصر ١٣٥٣ — ١٩٣٤ م

شعراء النصرانية . للاب لويس شيخو ، ط الآباء اليسوعيين بيروت ١٨٩٠

مطالع البدور فى منازل السرور : لعلاء الدين البهائى مصر ١٢٩٩ .

سمط اللآلى فى شرح أمالى القالى : للبكرى تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى ط لجنة التأليف ١٩٣٦ .

العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين } نشره ولير بن الورد البروسى لندن ١٨٧٠ م .

معجم الشعراء : للمرزبانى مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .

شرح القصائد العشر : للتبريزى ، ط صبيح بمصر

محاضرات الادباء : للراغب الاصبهانى ط المويلحى

فتح البارى بشرح صحيح البخارى : للعسقلانى المطبعة الاميرية ١٣٠١ .

ديوان زهير بن أبى سلمى : بشرح الشيبانى ثعلب ط دار الكتب ١٩٤٤

جمهرة أنساب العرب : لابن حزم الاندلسى تحقيق ا . ليفى بروفنسال ط المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ م .

من وحى البلد الامين : الاستاذ محمد الطيب النجار

مروج الذهب : للمسعودى مطبعة بولاق بمصر .

الحياة العربية من الشعر الجاهلى : للدكتور أحمد محمد الحوفى الطبعة الثانية نهضة مصر ١٩٥٢ م .

المخصص	: لابن سيده الطبعة المطبعة الاميرية ببولاق ١٣١٦ هـ .
الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي	: للاستاذ محمد هاشم عطية الطبعة الثالثة ط مصطفى الحلبي ١٩٣٦ :
الغزل في العصر الجاهلي	: للدكتور أحمد محمد الحوفي الطبعة الاولى ١٩٥٠ م نهضة مصر .
تاريخ الادب العربي في العصر الجاهلي	: للاستاذ السباعي بيومي ج١ مطبعة السعادة ١٩٤٨
تاريخ مكة	: للاستاذ أحمد السباعي ط دار الكتاب العربي بمصر ١٢٧٢ هـ .
ديوان سلامه بن جندل	: نشر الاب لويس شيخو المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٠
ديوان النابغة الذبياني	: (ا) مطبعة السعادة بمصر . (ب) شرح البطليوسي طبعة بيروت .
المرأة في الشعر الجاهلي	: للدكتور أحمد محمد الحوفي الطبعة الاولى نهضة مصر ١٩٥٤ .
تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني	} للاستاذ أحمد الشايب مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٥م .
الاصول الفنية للادب	: الاستاذ عبد الحميد حسن .
الإصابة في تمييز الصحابة	: لابن حجر العسقلاني . ط مصر ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م
ديوان سحيم	: تحقيق الميمني ط دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .
الاصمعيات	: من مجموع أشعار العرب : نشر وليم بن الورد البروسي ط ليبسنغ .
أساس البلاغة	: الزمخشري
الهجاء والهجاءون في الجاهلية	: الدكتور محمد محمد حسين .
النقائض	: نقائض جرير والفرزدق ط بريل بليدن ١٩٠٧ م
الشعر الغنائي في الامصار الإسلامية ١ مكة	} الدكتور شوقي ضيف
« « « « ٢ المدينة	}
تاريخ الموسيقى العربية	: تاليف فارمر . ترجمة الدكتور حسين نصار
عيون الانباء في طبقات الاطباء	: لابن أبي أصيبعة

أخبار الحكماء : القفطى . ط ليبزج ١٣٢٠هـ
رجالات الحجاز : الاستاذ إبراهيم هاشم فلالى الطبعة الاولى ، مصر
رسالة القيان : للجاحظ من ثلاث رسائل له .
إنسان العيون فى سيرة الامين والمأمون { المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٤هـ / المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٢٩هـ
الموشح : للمرزبانى ط السلفية القاهرة ١٣٤٣هـ
الفصول والغايات : لابى العلاء المعرى .
تراجم شعراء جاهليين : للاستاذ السباعى بيومى ط
تاريخ الادب العربى : للاستاذ أحمد حسن الزيات
معجم القبائل العربية : للاستاذ عمر رضا كحالة
شمال الحجاز : للاستاذ ا . رموسل
الشعراء الجاهليون : لمحمد عبد المنعم خفاجى
فحولة الشعراء : للاصمعى . تحقيق الاستاذ محمد خفاجى ط القاهرة ١٩٥٣ م
تاريخ الأدب العربى لبروكلمان : الجزء الأول — دار المعارف .
تاريخ الأدب العربى : د شوقى ضيف — الجزء الاول
الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى : د خفاجى ١٩٥٨

(ثالثا) مصادر إفرنجية

1 - History of the Arabs. by Ph. K. Hitti, London 1953

2 - The Background of Islam.

3 - A. literary History of the Aıabs. by Reynold A. Nicholson, Cambridge 1953.

4 - Cassell's Encyclopaedia of Literature, London 1953.

5 - Encyclopaedia of Religion & Ethics ed., Hastings 1908-22.

6 - Arabic Literature by Gibb.

7 - Dictionary of World Literature, New York 1943.

فهرس الكتاب

فهرست الموضوعات

الصفحة　　　　　　الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة | الموضوع

انتهى الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨١٩ / ٨٠
الترقيم الدولى ٠/٠٦/ ٧١٩٥ — ٩٧٧

دار الشباب للطباعة
١٥ شارع العباسية بالقاهرة
ت: ٨٣٩٧٣٠